المُفِيدُ في خُطَبِ الجُمُعَةِ والعِيدِ

تأليف
إبراهيم بن محمد الحقيل

الجزء الأوَّل

دار ابن خزيمة

بسم الله الرحمن الرحيم

المُفِيدُ

في

خُطَبِ الجُمُعَةِ والعِيدِ

١

ح إبراهيم بن محمد الحقيل ، ١٤٢٥ هـ

فهرسة مكتبة الملك فهد الوطنية أثناء النشر

الحقيل ، إبراهيم بن محمد

المفيد في خطب الجمعة والعيد / الرياض ، ١٤٢٥ هـ.

٥٩٢ ص؛ ١٧ × ٢٤ سم ٤ مج

ردمك : ٤-٣-٦٠٣-٤٤-٩٩٦٠ (مجموعة)

٢-٤-٦٠٤-٤٤-٩٦٦٠ (ج١)

١- خطبة الجمعة ٢- الخطب الدينية أ- العنوان.

ديوي : ٢١٣ ١٤٢٥/٩٠٧

رقم الايداع : ١٤٢٥/٩٠٧

ردمك:٤-٣-٦٠٣-٤٤-٩٦٦٠(مجموعة)

٢-٤-٦٠٤-٤٤-٩٦٦٠ (ج١)

جميع الحقوق محفوظة

الطبعة الأولى

١٤٢٦هـ - ٢٠٠٥م

دار ابن خزيمة

للنشر والتوزيع

المملكة العربية السعودية - الرياض

الملز - شارع الاحساء - غرب حديقة الحيوان

هاتف : ٤٧٣٠٧٨٨ - ٤٧٦٩٩٣٢ - فاكس : ٤٧٦٠٧٩٥

المقدمـــة

الحمد لله رب العالمين، لا أحصي ثناء عليه كما أثنى هو على نفسه، وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له، وأشهد أن محمداً عبده ورسوله، صلى الله وسلم وبارك عليه وعلى آله وأصحابه ومن والاه.

أما بعد: فإن من نعم الله تعالى العظيمة عليَّ أن هيَّأ لي السبل لإمامة الناس في صلاة الجمعة منذ عام ١٤٠٦هـ متنقلاً بين عدة جوامع في مدينة الرياض، إلى عام ١٤١٤هـ؛ إذ استقر بي المقام خطيباً مساعداً لوالدي في جامع فهد المقيل بحي الرحمانية الغربية؛ حيث كان هو الإمام الرسمي للجامع.

وكنت طيلة تلك المدة التي قاربت ثماني سنوات لا أكتب ما ألقي من خطب إلا قليلاً جداً؛ بل أصوِّر من كتب أصحاب الفضيلة المشايخ، وأحياناً أرتجل الخطبة بعد أن أحضر الموضوع، وما كتبت من خطب قليلة ضاع أكثره بسبب عدم الاهتمام بحفظها.

وفي عام ١٤١٤هـ كنت أتعاقب والوالد على الخطابة سنة كاملة، بعدها اقترح علي الوالد ـ حفظه الله وبارك في عمره وعمله ـ أن أستمر في الخطابة إلا في حال الغياب أو المرض، وعندها بدأت أستشعر عظم المسؤولية الملقاة على عاتقي، وحرصت على تحضير ما ألقي على الناس وتدوينه؛ لأنني رأيت أن الخطبة ليست كالمحاضرة، فالمحاضرة يحضرها

الناس مختارين. أما الاستماع إلى الخطيب فهو عبادة يتقرب بها من حضر صلاة الجمعة إلى الله عزَّ وجلَّ.

كنت في بداية الأمر أحضر الخطبة وأجمعها من مراجع قليلة لا تتجاوز ثلاثة مراجع في الغالب، ولم أكن أعتني بترقيم الآيات، وتخريج الأحاديث، وعزو النقول فيما أكتب، بل أكتفي بإثبات النص المنقول، والتأكد من صحة الآيات، وكون الحديث صحيحاً.

في إحدى المرات كتبت خطبة عن إثبات عذاب القبر وموجباته وأسباب النجاة منه، فطلب مني أحد المصلين هذه الخطبة، فلم أرتض دفعها إليه أو صورة منها وهي مكتوبة بخط اليد؛ لكثرة ما فيها من الشطب والتعديل والتحويلات، فدفعتها إلى أحد الأصحاب ليرقمها على الحاسب الآلي ففعل، ثم أعطيتها طالبها. ولم تكن مرقمة الآيات، أو مخرجة الأحاديث، أو نقولها معزوة إلى مصادرها.

بدأ يكثر الطلب على بعض الخطب فتبرع أخونا الأستاذ دخيل بن سليمان الدخيل ـ وهو من أعمدة مسجدنا جزاه الله خيراً ـ برقم كل خطبة على الحاسب الآلي وحفظها من الضياع، واستمر الحال هكذا سنتين؛ علمت خلالها أن خطباء كثر يتناقلونها، ويخطبون بها، ولم يكن ذلك وارداً عندي على الإطلاق، ولم أكن يوماً عازماً على إخراجها في كتاب؛ ولكن الله تعالى إذا أراد أمراً هيأ أسبابه، فله الحمد والشكر دائماً وأبداً.

أحسست في عام ١٤١٧هـ أن تناقلها بهذه الطريقة ـ ولا سيما أن

كثيراً ممن يتناقلونها لا أعرفهم - يوجب علي العناية بتوثيقها؛ فبدأت بترقيم الآيات، وتخريج الأحاديث، وعزو النقول، وزاد الطلب عليها أكثر من ذي قبل سواء من الخطباء أم من غيرهم، وصرت لا أنفك ليلة الخميس أو ليلة الجمعة عن متصلين أو زائرين من إخواني الخطباء.

بعد ذلك اقترح علي بعض إخواني إخراجها في كتاب؛ ليكون النفع بها أعم، فأعدت النظر فيها مرات ومرات، وكنت عازماً على تخريج ما مضى وتوثيقه، وبدأت في ذلك ولكن صعوبات كبيرة واجهتني كان إنشاء خطبة جديدة في بعض الأحيان أسهل من توثيق ما مضى. ولأن كثيراً منها كتب في بدايات كتابتي فقد كان يحتاج إلى تحسينات في الصياغة والأسلوب؛ مما يقتضي الحذف والإضافة والتغيير، فلم أرتض إخراجها فركنتها، وعمدت إلى ما بعدها من أخريات عام ١٤١٧هـ - إلا خطباً قليلة جداً قبل ذلك - وانتقيت المناسب منها فجمعتها، وأعدت النظر فيها، ووثقت ما كان توثيقه ناقصاً، وضممت إليها كل جديد إلى أن خرجت بهذا الشكل الذي أرجو أن يكون مرضياً لله تعالى ومقبولاً عند إخواني المسلمين.

منهجي في هذا الكتاب:

ألخص منهجي فيما كتبته من خطب على النحو التالي:

أولاً: من المعلوم أن الخطب ليست بحثاً متصلاً يكون منهج الباحث فيه واحداً. ولأنها كتبت في أزمان متفاوتة، ومناسبات عدة؛ فإن ذلك سيؤثر على أسلوبها وجودتها ومدى العناية بها. فللخطيب أحاسيسه

ومشاعره التي يكون لها الأثر المباشر على ما يكتب، حاله كحال الشاعر.

فالخطيب قد يكتب الخطبة وهو متحمس للموضوع الذي يكتب فيه؛ لأنه يراه واقعاً أمامه، ويكثر ذلك في الحديث عن قضايا المسلمين وهمومهم في شتى البقاع، فيكون لذلك أثر إيجابي في جودة الخطبة وحماستها، وانفعال الخطيب والمخاطب بها على حد سواء؛ فتؤتي أكلها، وتحقق المقصود الذي أراده الخطيب. ولكنها أيضاً قد تؤثر سلباً في زيادة الحماس غير المنضبط بضوابط الشرع، أو يحس من يقرؤها بعد انتهاء الحدث أن الحماس فيها مبالغ فيه، مع أنه في وقته كان مناسباً جداً.

والخطيب كذلك قد يتيسر له الوقت الكافي لإعداد الخطبة، والعناية بها؛ مما يؤثر إيجاباً في جودتها وإتقانها، وقد يتضايق الوقت عليه إما بسبب ظرف طرأ على خطته، أو زائر زاره في وقت غير مناسب، وهذا سيؤثر على الخطبة من جهة أسلوبها وتوثيقها، وشموليتها للموضوع بسبب العجلة في كتابتها.

والخطيب كذلك قد يكون مرتاحاً نفسياً وجسدياً، فتتدفق الأفكار من رأسه، ويجري قلمه على ورقته بسرعة مع جودة وإتقان، ولولا أنه يُزِمُّ قلمه لما توقف.

وتأتي على الخطيب أوقات يشغله هَمٌّ، أو يعتريه إرهاق، فلا يكون مرتاحاً أثناء الكتابة، أو تنغلق أفكاره، ويتعثر قلمه، فتمضي عليه الساعة وهو يراوح بين سطر وسطرين، لا تطاوعه الأفكار على

الخروج، ويأبى قلمه أن يسيل بالعبارات على ورقته. وبعد عناء وطول وقت إما أن يكتب خطبة ناقصة المعاني، ركيكة العبارات، مفككة الجمل، قد ولدت ولادة متعسرة، وإما أن يغمد قلمه في غطائه، ويعزم على إعادة خطبة سابقة.

والخطيب كذلك قد يهمه موضوع صغير فينشئ فيه خطبة وهو ليس بذي أهمية فيما يظهر للناس، ولكنه كان ذا أهمية عند الخطيب؛ لعلمه بما لا يعلم غيره ـ ولا سيما في بواطن الأسر والبيوت ـ أو لأن موقفاً ما أعطى لهذا الموضوع أهمية في ذهنه؛ فأنشأ فيه خطبة. والمشاورة وأخذ آراء ذوي الرأي مما يعين على ترتيب الأولويات، وتقديم المهم من الموضوعات.

والخطيب كذلك قد يكتب الخطبة لطبقة من الناس هي الأكثر في مسجده، أو لها الأثر الفاعل في مصالح الناس، وغالباً ما تكون هذه الطبقة من عِلْيَة القوم، ومن أكثرهم ثقافة، وأنضجهم فكراً؛ فيكون لذلك تأثير على الأسلوب والمعالجة، وما تحويه الخطبة من معلومات.

وحاصل هذه الفقرة: أن الخطب لن تكون في مستوى واحد من حيث جودتها، وأهميتها، وعليه فالخطيب معذور في تفاوت خطبه قوةً وضعفاً، وقصراً وطولاً، وغير ذلك من الجوانب، وليس ما يحويه هذا الكتاب بخارج عن ذلك، ففي خطبه من التفاوت ما فيها، ولعل السبب في ذلك واضح، والعذر مقبول.

ثانياً: خرَّجت الأحاديث والآثار عن الصحابة رضي الله عنهم

والتابعين لهم بإحسان، وعزوت النقول إلى أصحابها، وكل كتاب نقلت عنه، أو اقتبست منه فإني أثبته في الهامش إلا ما ندّ عني، وسقط سهواً أو لم أعثر على مصدره بعد طول بحث وتتبع.

وفي تخريج الأحاديث مرت بي خلال هذه الفترة الطويلة أكثر من طريقة؛ فكنت في السابق أكتفي برقم الحديث، ثم عمدت إلى ذكر كتابه وبابه إذا كان مخرجاً في أحد الكتب الستة، ووحدت المنهج؛ ولكني أحياناً أكتفي بذكر موضع الحديث في الصحيحين أو أحدهما، ولا أعزوه إلى السنن مع أنه قد يكون مخرجاً في بعضها، وأحياناً أخرى أذكر من أخرجه من أصحاب السنن.

وفي الخطب المتأخرة من عام (١٤٢٢هـ) وما بعده كنت أحرص على إثبات لفظ الحديث من الصحيحين أو أحدهما إلا لمعنى أوزيادة عند غيرهما، وغالباً ما أنبه على ذلك في الهامش.

وكنت أحياناً أتوسع في تخريج الحديث حسب الوقت المتاح، وأحياناً أخرى لا أتوسع؛ لتضايق الوقت عليّ.

كما كنت أذكر في بعض الأحيان مَنْ ضعَّف الحديث، ومن صححه، وأبين سبب ذلك، وإذا اتسع الوقت بحثت سبب الخلاف في ذلك باختصار؛ وذلك لأنني لست متخصصاً في ذلك، وأفتقد كثيراً من آلته وعلمه، ولعل نقلي لكلام أهل العلم في ذلك شافعاً لي عند المتخصصين، ومكملاً للنقص الذي عندي.

وقد حرصت على أن ألتزم بذكر الأحاديث التي يمكن الاحتجاج

بها من صحيح وحسن، وأذكر الضعيف الذي له شواهد ترتقي به إلى درجة الحسن لغيره مع ذكر شواهده، وجانبت ما عدا ذلك، حسب جهدي وطاقتي.

ثالثاً: حاولت تخريج الآثار من مصادرها الأصلية، وما لم أعثر عليه في الكتب المتقدمة فإني أثبته من المرجع الذي نقلت عنه ولو كان من كتب المتأخرين، وهذا قليل جداً.

رابعاً: أشكلت عليّ بعض المسائل والأحاديث في بعض الخطب، وكان لدي متسع من الوقت آنذاك، فبحثتها بحثاً مستفيضاً جعلته في هامش الخطبة أو عقبها، وفي بعضها كان البحث في حجم الخطبة أو أكثر منها. كما واجهتني إشكالات في بعض الروايات والألفاظ فاضطررت إلى مراجعتها في كتب اللغة والغريب، وشرحتها شرحاً يوضحها.

وسبب ذلك: أنني لما شعرت بأني لا أكتب لنفسي، وخطبي يتناقلها كثيرمن الخطباء رأيت أن هذه الإشكالات قد يوردها بعض المصلين عليهم؛ فتسبب حرجاً لهم، فبحثتها وجعلتها خارج الخطبة؛ ليكون الخطيب على دراية بها، فيستطيع الجواب والمناقشة حين يسأل عنها؛ لعلمه بها. وهذا يزيد من ثقة الناس في الخطيب، ويكون أدعى لقبول قوله، والاستفادة من خطبته.

وقد توجد بعض الإشكالات في أحاديث أو نقول ولم أبحثها لأسباب منها:

١- عدم علمي بما يعارضها؛ فلم تكن ذا إشكال عندي! وهذا

من جهلي وقلة علمي، أسأل الله أن يعفو عني، ويغفر لي، ويعلمني ما ينفعني.

والإحاطة بكل المسائل والأحاديث وما يشكل عليها أمر يعسر على كبار المجتهدين بله صغار الطلبة المبتدئين من أمثالي.

٢- في بعض الأحيان أكون على علم بالإشكال؛ ولكني لا أورده لضعفه وتهافته؛ ولمخالفته الصريحة للنصوص الواضحة، فلا ينبغي تعكير الصواب بحجج واهية لا تنهض.

٣- وفي أحيان أخرى لا يسعفني الوقت لبحث تلك الإشكالات؛ فيتم تأجيلها إلى أجل لا يعلمه إلا الله تعالى. وقد أعود إليها في مستقبل الأيام وقد لا أعود.

خامساً: رتبت الخطب على الموضوعات الكلية لها، وضممت النظير منها إلى نظيره؛ لتسهل الاستفادة منها، ويختصر الخطيب الوقت في اختياره؛ وجرياً على عادة العلماء في ضم النظائر إلى نظائرها.

سادساً: وضعت أربع مقدمات تعنى بآلة الخطابة وهي:

١- كيف تختار موضوع الخطبة؟

٢- كيف تكتب خطبة الجمعة؟

٣- الصوت في الخطبة.

٤- الإشارة في الخطبة.

وهذه الموضوعات الأربعة كتبتها بطلب من وزارة الشؤون الإسلامية والأوقاف والدعوة والإرشاد؛ للمشاركة بها في مجلة التوعية الإسلامية.

وكان بودي أن أضم إليها مقدمتين أخريين هما:

١- لغة الخطيب ونطقه.

٢- مصادر الخطبة.

ولكن الوقت ضايقني، ولم أشأ أن أحبس هذه المجموعة من أجل هاتين المقدمتين اللتين لا أدري متى تخرجان.

سابعاً: ذيلت هذه المجموعة بكشافات عدة تخدم الخطيب والداعية والباحث هي:

١- كشاف الموضوعات.

٢- كشاف الأحاديث.

٣- كشاف الآثار.

٤- كشاف المقولات والنقول المهمة.

٥- الكشاف التفصيلي.

٦- كشاف الفوائد والمسائل.

٧- كشاف خطب المناسبات.

أما كشاف المقولات المهمة فقد ورد في بعض الخطب مقولات لبعض قادة المسلمين، وللمنافقين واليهود والنصارى وغيرهم، وقد يحتاج بعض الباحثين للاستشهاد بها ولا يعرفون مظانها.

وأما الكشاف التفصيلي فيتضمن الأفكار التي تضمنتها الخطبة، وأهم القضايا التي عرضت لها، وحكمة ذلك: إعطاء الخطيب أهم ما ورد في الخطبة، فيسهل ذلك عليه عملية الاختيار بالنظر في الكشاف

بدلاً من قراءة الخطبة كاملة أثناء الاختيار، ولا سيما أن الكشاف يحويه مجلد واحد، والخطب موزعة على أربع مجلدات وفي ذلك توفير وقت وجهد عليه.

وأما كشاف الفوائد والمسائل فيتضمن أهم البحوث والمسائل والفوائد التي تم بحثها وعرضها في هذه المجموعة..

وأما كشاف خطب المناسبات فإن بعض الخطب كتبت في مناسبة معينة وعنوانها لا يدل على ذلك، مثل: الخطب المناسبة لامتحانات الطلاب أو للإجازة الصيفية ونحوها.

ولم أضع كشافاً للمراجع؛ لكثرتها، وتنوع طبعاتها، وإهمالي تدوين الطبعات أول ما ابتدأت الكتابة؛ ففي بعض الأحيان كنت أحضر الخطبة من المراجع التي في مكتبتي الخاصة، وأحياناً أخرى أحضرها من مكتبات الجامعات، أو المكتبات العامة، حسب الأحوال والمكان، ولست أتذكر مراجع كل خطبة على حدة، ولاسيما أني لم أطمع يوماً في إخراج هذه الخطب في كتاب.

ثامناً: أثبت في كل خطبة تاريخ كتابتها وإلقائها، سواء منها خطب الجمعة أو خطب العيد بذكر السنة التي ألقيت فيها. وأحسب أن لإثبات تواريخ الخطب حسنات، منها:

١- معرفة وقت بعض الحوادث المهمة؛ ذلك أن الخطيب لابد أن يعرض لتلك الحوادث، فتاريخ الخطبة هو تاريخ وقوع تلك الحوادث.

٢- توصيف ردود أفعال الناس على الحوادث المذكورة، فالخطيب

هو من جملة الناس، وقد سجل موقفه مما يحدث في خطبته التي كتبها.

٣- تمكين الباحثين من استجلاء اهتمامات الناس، وكيفية تعاملهم مع قضايا المسلمين، ومعرفة مدى أثر الواقع السياسي على أسلوب الخطيب في معالجة تلك القضايا، فمثلاً الحديث عن قضية فلسطين قبل عشرين سنة ليس هو نفس الحديث عنها الآن وهكذا، ويتضح ذلك أكثر بمقارنة تواريخ الخطب ذات العلاقة بهذه القضية وأسلوبها مع أحداث القضية من تصعيد إلى مباحثات واتفاقيات إلى نقض للعهود من قبل اليهود... إلخ.

فمع المقارنة سيظهر للباحث مدى تأثر الخطيب بالواقع السياسي.

٤- إعطاء الناقد آلة لنقد الخطيب وتقييمه؛ وذلك بمقارنة الخطب السابقة باللاحقة من حيث أسلوبها ووحدتها الموضوعية، والمعاني التي تحويها، والمعلومات التي تتضمنها، فمعرفة التاريخ تعطي الناقد الآلة التي تمكنه من النقد الهادف لما يكتبه الخطيب؛ وتقييم تطوره في مجال الخطابة، وكم نسبة التطور مقارنة بالزمن.

إلى غير ذلك من الفوائد التي دفعتني إلى إثبات تواريخ الخطب.

تاسعاً: بعض الخطب كتبت في مناسبات معينة، أو فيها مقاطع كان الحديث فيها عن مناسبة معينة، وانتهت هذه المناسبات، وذلك مثل: بعض قضايا المسلمين، ووفيات الأعلام، ولم أحذفها لأسباب عدة، أهمها اثنان:

الأول: أن فيها توريخاً لذلك الحدث، ووصفاً لردة الفعل التي

كانت تجاهه، وتوثيقاً لبعض المعلومات فيه.

الثاني: أنه قد يستفاد من الصياغة والمعلومات في حادثة مشابهة. والمفترض أن أي خطيب يقتني هذا الكتاب سيقرأ الخطبة قبل إلقائها، وينظر في مناسبتها، ويحذف غير المناسب منها قبل إلقائها، وربما عدل فيها، وحذف منها، وأضاف عليها بحسب الزمان والمكان.

عاشراً: الأحاديث والآثار والنقول التي تكررت في أكثر من خطبة خرجتها وعزوتها إلى مصادرها في كل خطبة، ولم أكتف بورودها أول مرة، ثم أحيل عليها، ومن أسباب ذلك:

١- أن الخطب كتبت في فترات متفاوتة، ولم تكن مرتبة عندي أو أحاديثها مفهرسة حتى يسهل الرجوع إليها؛ بل كانت متفرقة مبعثرة، فكان تخريج الحديث أو الأثر أسهل من البحث فيها على أمل أن أجد الحديث أو الأثر وقد لا أجده. وكما ذكرت سالفاً لم يكن في نيتي إخراجها في كتاب؛ ولذلك لم أُعِدَّ للأمر عدته منذ البداية.

٢- لما تم رقمها وترتيبها لم أشأ أن أحذف المكرر وأحيل على التخريج في أول مورد له؛ لما في ذلك من التيسير على الخطيب والقارىء بأن يجد أحاديث وآثار كل خطبة مخرجة أمامه بدل الإحالات المتعبة.

ونتيجة لذلك فإن مطالع هذا الكتاب سيلحظ أن الحديث أو الأثر الواحد تم تخريجه في غير موضع، وفي بعض المواضع كان التخريج وافياً شافياً، وفي بعضها كان مختصراً؛ تبعاً لهمتي ونشاطي وسعة وقتي أثناء إعداد الخطبة.

وبعد: فهذه بضاعتي أعرضها على إخواني الخطباء والدعاة، اجتهدت فيها ما وسعني جهد ووقت، فما كان فيها من صواب فمن الله تعالى، فله الحمد أولاً وآخراً، وما كان فيها من خطأ فمني ومن الشيطان الرجيم، والله ورسوله منه بريئان، وأستغفر الله تعالى من ذنبي وخطئي، وأسأله تبارك وتعالى أن يتقبل هذه المجموعة بقبول حسن، وأن يجعل عملي فيها وفي غيرها خالصاً لوجهه الكريم، وأن يثيبني عليها الثواب الجزيل.

كما أطمع في أن تكون محل قبول لدى إخواني الخطباء والدعاة، وأن ينتفعوا بها، ولن أعدم منهم أي ملاحظة، أو تعقيب، أو تصحيح، أو نقد هادف؛ فصدري منفتح لذلك، ونفسي متقبلة له، والمرء قليل بنفسه كثير بإخوانه، وأسأل الله تعالى أن يجزي خيراً من أعانني على نفسي، ودلني على خطئي؛ لاجتنابه في خطب أخرى، وإصلاحه في طبعات قادمة إن شاء الله تعالى.

وما توفيقي إلا بالله عليه توكلت وإليه أنيب، ولا حول ولا قوة إلا بالله العزيز الحكيم.

إبراهيم بن محمد الحقيل
الرياض، الأحد ٨/ ٤/ ١٤٢٤هـ
ص.ب: ٢٣١٢٥٢ الرياض
الرمز البريدي ١١٣٢١

١- كيف تختار موضوع الخطبة؟!

يشتكي كثير من الخطباء من كيفية اختيار الموضوع، وبعضهم يرجع سبب ذلك إلى ندرة الموضوعات التي يمكن أن يتناولها الخطيب وتناسب الناس، ولا سيما أن الخطبة متكررة كل أسبوع.

والسبب الرئيس لهذه النظرة عند الخطيب هي: قلة علمه، ومحدودية اطّلاعه ومعلوماته، وضعف نظرته إلى واقع الناس. وإلا فإن الخطبة لو كانت تتكرر يومياً لما استطاع الخطيب أن يعالج جميع الموضوعات التي يحتاجها الناس في هذا العصر المنفتح؛ الذي ضعفت فيه الديانة في قلوب الناس، وكثرت الفتن، فهم يحتاجون إلى تقوية إيمانهم، وترسيخ توحيدهم، وتعليمهم أقسامه، وما يُخلّ به من معتقدات أو أقوال أو أفعال قد تناقضه بالكلية، أو تنقص كماله.. يحتاجون إلى تصحيح عباداتهم؛ فأخطاء كثير منهم فيها كثيرة.. يحتاجون إلى بيان الحكم الشرعي في كثير من المعاملات والعادات التي يتجدد منها كل أسبوع العشرات من الصور غير مايفد إليهم من خارج مجتمعهم.. يحتاجون إلى الحثّ على مكارم الأخلاق والتنفير من مساوئها، وإلى ترقيق القلوب، والتذكير بالآخرة. والموضوعات كثيرة جداً..

ويمكن تقسيم الجمعات إلى قسمين:

القسم الأول: جمعات توافق مناسبات مهمة، وهذه المناسبات على نوعين:

أ - مناسبات طارئة: كحدث حدث في الحي أو البلد واشتهر وعرفه

الناس؛ فهم ينتظرون من الخطيب رأياً فيما حدث. ومنها أيضاً: قضايا المسلمين التي تشتعل بين حين وآخر كقضايا بيت المقدس والشيشان وكوسوفا ونحوها.

وينبغي للخطيب أن يعالج مثل هذه الموضوعات معالجة شرعية، تبين حجم القضية الحقيقي بلا مبالغة ولا تهوين، ومن ثم يبين موقف المسلم في هذه القضية، وما يجب عليه تجاهها، فلا يكفي مجرد عرضها.

ويلاحظ أن بعض الخطباء قد تطغى عليه الحماسة في ذلك؛ فيبالغ في الموضوع أو يكثر من تكراره والحديث عنه على نمط واحد، وبأسلوب واحد، وهذا فيه مفاسد منها:

١- فقدانه المصداقية ولاسيما إذا انكشفت مبالغاته للناس؛ وبالتالي يضعف أخذ الناس عنه، أو التأثر بما يقول؛ لأنهم عرفوا عنه المبالغة.

٢- ملال الناس، وانصرافهم عن تلك القضية، وكما قيل: كثرة الإمساس تقلل الإحساس.

٣- أن تركيزه على قضية معينة وتكرار ذلك سيكون على حساب موضوعات وقضايا قد تكون لها أهمية مثل قضيته التي يكررها، وربما تكون أهم منها.

ب ـ مناسبات متكررة بتكرر الأعوام: كرمضان والحج وعاشوراء، والتحذير من بدع المولد والإسراء ورجب ونحوها.

وهذه المناسبات مريحة عند كثير من الخطباء؛ إذ لا يحتاجون إلى إعداد خطب جديدة في موضوعاتها، ولربما حفظ الناس خطبهم فيها

من كثرة ترديدها، وأصابهم الملال منها.

بيد أن هذه المناسبات تقلق من يهتمون بخطبهم، ويحبون التجديد في موضوعاتها، ويودن إفادة الناس بكل وسيلة ممكنة.

ولتلافي التكرار في كل عام يمكن تفتيت الموضوع الواحد إلى موضوعات عدة، في كل عام يطرق الخطيب منها موضوعاً. وأضرب مثلاً لذلك؛ فبالمثال يتضح المقال:

درج الخطباء في ثالث جمعة من رمضان على الحديث عن غزوة بدر الكبرى(١)، ويقدمون لها بمقدمة عن نصر الله تعالى لعباده، وكون رمضان شهراً للانتصارات والأمجاد.. ويسردون عدداً من المعارك التي وقعت في رمضان: غزوة بدر، وفتح مكة، وعين جالوت، وفتح الأندلس ونحوها، ثم يخصصون الخطبة بكاملها عن غزوة بدر، وهكذا في كل عام.

ومن الممكن لتلافي التكرار جمع الغزوات والأحداث الكبرى التي وقعت في رمضان، واختيار واحدة منها في كل عام للحديث المفصَّل عنها. ويمكن أيضاً تفتيت الغزوة الواحدة إلى عدة موضوعات؛ في كل عام يطرق جانباً جديداً منها.

---

(١) هذه حكاية للحال، ولا يعني ذلك عدم الحديث عن تلك الغزوة إلا في رمضان؛ بل ينبغي أن يكون الحديث عنها في رمضان وفي غيره بحسب الحاجة إلى الحديث عنها، وهكذا كل الغزوات والمناسبات الأخرى، لا يظهر لي مانع من الحديث عنها في أي وقت، ويراعى في ذلك حاجة الناس إلى الموضوع. ومن غير المناسب الحديث عن المناسبة في غير وقتها؛ كالحديث عن فضائل شهر رمضان في شهر شوال!!

فغزوة بدر مثلاً يمكن إنشاء خطب عدة منها، كل واحدة تتناول جانباً مختلفاً، فتتكون مجموعة من الخطب موضوعاتها كالتالي:

١ ـ سرد أحداث الغزوة كما في كتب السير، وهذا يعمله أكثر الخطباء كل عام.

٢ ـ وصف حال المسلمين قبل الغزوة (الهجرة ـ المطاردة ـ المحاصرة ـ الضعف ـ القلة ـ الخوف).

وحالهم بعدها (ارتفاع معنوياتهم بالنصر، عز الإسلام، قوة المسلمين، رهبة اليهود والمنافقين)

٣ ـ وصف حال الفريقين المتقابلين: حال المؤمنين: (الدعاء، الحماس للقتال، بوادر التضحية والفداء، التعلق بالله تعالى)

حال المشركين: (الكبرياء، محادة الله ورسوله، الاعتداد بالنفس، الاغترار بالكثرة، ممارسة العصيان، شرب الخمر وغناء القينات، كما هو قول أبي جهل).

٤ ـ تأييد الله عزّ وجلّ لعباده المؤمنين: (النعاس، المطر، قتال الملائكة معهم، وفيه عدة أحاديث صحيحة، الربط على قلوبهم، تقليل العدو في أعينهم. .) وخذلان الكافرين.

٥ ـ الحديث عن مصير المستكبرين عن دعوة الأنبياء عليهم السلام، ويكون صرعى بدر من المشركين نموذجاً على ذلك بذكر مجمل سيرتهم الكفرية وعنادهم ثم ما جرى لهم، وفيه قصص مبكية من السيرة.

فهذه خمسة مواضيع، كل واحد منها يصلح أن يكون خطبة مستقلة، وهذه الموضوعات الخمسة في غزوة واحدة. ومن تدبر فيها أكثر استخرج موضوعات أخرى.

والكلام عن المولد النبوي مثلاً يمكن تقسيمه أيضاً إلى عدة موضوعات منها:

١- بيان حقيقة محبة الرسول صلى الله عليه وسلم، وأنها تكون باتباعه لا بالابتداع، مع تقرير وجوب محبته من خلال نصوص الكتاب والسنة، وأقوال السلف الصالح، وبيان العلاقة بين محبته وتطبيق سنته. وهذا موضوع ثري جداً يمكن صنع خطب عدة فيه.

٢- تاريخ الاحتفال بالمولد النبوي، وبيان أنه بدأ بعد القرون المفضلة في المئة الرابعة للهجرة على أيدي بني عبيد الباطنيين، وظلّ قرنين من الزمن لا يعرفه أهل السنة حتى انتقل إليهم في المئة السادسة على يد شيخ صوفي استحسن هذه البدعة. وبيان أن دوافع إحداث هذا العيد عند بني عبيد كانت سياسية، ولم تكن بدافع محبة النبي صلى الله عليه وسلم وآل بيته.

ومع أهمية هذا البيان التاريخي في كشف حقيقة هذه البدعة النكراء، وتنفير الناس منها، فإنه قلّ أن سمعناه من خطبائنا ومحاضرينا.

٣- ذكر المخالفات الشرعية في احتفالات المولد، من الغلو في الرسول صلى الله عليه وسلم الذي قد يصل إلى حد الشرك إلى الأناشيد والأهاجيز الصوفية، إلى سائر المنكرات الأخرى كالاختلاط في

بعضها، وكونها تنشد على أنغام الموسيقى أو الدفوف..

٤- التنبيه على أن الاشتغال بالبدعة يشغل عن السنة، وجعل المولد مثلاً لذلك، فما يصرف فيه من جهد ووقت ومال قد يصرف عن كثير من السنن؛ بل ربما صرف عن الفرائض. وكثير ممن يحتفلون بتلك الموالد تظهر عليهم مخالفات شرعية، ويعلم من سيرة بعضهم تضييعه للفرائض فضلاً عن المندوبات.

٥- أخذ جانب من سيرة النبي صلى الله عليه وسلم في مولده أو بعثته أو غير ذلك، ثم التنبيه على بدعة الاحتفال بمثل هذه المناسبات.

فهذه خمسة موضوعات كل واحد منها يصلح لأن يكون خطبة مستقلة.

والكلام عن عاشوراء أيضاً يمكن استخراج موضوعات عدة منه، ولا سيما أنه متعلق بقصة نجاة موسى عليه السلام وغرق فرعون. وهي أكثر القصص وروداً في القرآن، وفيها جوانب كثيرة يمكن أن تكون موضوعات، وفي نهاية كل خطبة منها يتم التنبيه على سنية صيام يوم عاشوراء، كذلك الحديث عن مراحل صوم عاشوراء وأنه كان واجباً، ثم نسخ الوجوب إلى السنية بعد فرض رمضان، ثم في آخر سنة قصد النبي صلى الله عليه وسلم مخالفة اليهود، وأمر بصيام التاسع مع العاشر، وذكر فضل صيام هذا اليوم، وفضل شهر الله المحرم.

وهكذا يقال في بقية الموضوعات، تطرح من جوانب متعددة، كل جانب فيها يكون خطبة؛ مما يكون سبباً في إثراء المشروع الخطابي للأمة،

وإفادة السامعين، والتجديد في الموضوعات التي يلقيها الخطيب.

القسم الثاني: جمعات لا توافق مناسبات معينة:

وهذه هي الأكثر، ويستطيع الخطيب أن يضع لها مخططاً يسير عليه، ويشتمل هذا المخطط على موضوعات عدة، وفي فنون مختلفة، ومن فوائد ذلك:

١- عدم حيرته في اختيار موضوع الخطبة، ولا سيما إذا ضاق الوقت عليه.

٢- نضج الموضوعات التي يطرحها؛ إذ قد يمرّ عليه شهور وهي تدور في مخيلته، وكلَّما حصَّل ما يفيده فيها من مطالعاته وقراءاته قيَّده، أواستذكره.

٣- سهولة بحثه عدة موضوعات إذا كانت في فن واحد، وتوفير كثير من الوقت؛ فمثلاً إذا كان في خطته خمسة موضوعات في العقيدة، فإن جلسته لبحث واحد منها كجلسته لبحثها كلها؛ إذ إن مصادرها واحدة، ومظانها متقاربة.

٤- التنويع على المصلين وعدم إملالهم.

ويمكن تقسيم الموضوعات إلى أقسام كثيرة، يختار في كل جمعة منها قسماً للحديث عن موضوع من موضوعاته ومن تلك الأقسام:

١- العقيدة وما يتعلق بها: وفيها موضوعات كثيرة، وكل موضوع منها يمكن استخراج عدد من الخطب فيه. ومن طالع المطولات من كتب العقيدة تبين له ذلك.

٢- العبادات: وهي أيضاً باب واسع، وليس المعنى سرد الأحكام أو الإفتاء؛ ولكن المقصود تصحيح بعض الأخطاء فيها، وبيان فضائلها، والحث على المهجور منها... وهكذا.

٣- المعاملات: وفيها موضوعات كثيرة أيضاً، ولاسيما أن كثيراً من صورها يتجدد.

٤- نص من الكتاب أو السنة، فيختار آية أو سورة قصيرة أو حديثاً ويذكر ما فيه من الفوائد مع ربطه بواقع الناس ومعاشهم. ولا يكون مجرد سرد للفوائد، وقد لاحظت أن لذلك أثراً عظيماً حتى كأن الناس لأول مرة يستمعون إلى هذه السورة أو الآية، أو لأول مرة يسمعون هذا الحديث مع أنه مشهور؛ ولكن لأن فهمهم له كان خاطئاً أو لأن الخطيب عرض لهم استنباطات جديدة، ومعان مفيدة لم يعلموها من قبل.

٥- الأخلاق والآداب: وهي باب طويل عريض، وفيه كتب متخصصة كثيرة، متقدمة ومتأخرة.

٦- من قصص القرآن والسنة، ويمكن أن يلحق بفقرة (٤) ويمكن أن يفصل عنها، ويكون هنا خاصاً بالقصص، وما سبق ذكره في غير القصص.

٧- السير والتراجم: يختار شخصية بارزة، ويلقي الضوء على صاحبها، وأسباب بروزه واشتهاره، والاستفادة من أقواله وسيرته. سواء كان من الصحابة رضي الله عنهم، أم من التابعين لهم بإحسان، أم من العلماء المشاهير قديماً وحديثاً.

٨- السيرة النبوية ومعارك الإسلام: يختار حدثاً أو معركة يتحدث عنها أو عن جانب منها. ويستخرج من ذلك الدروس والعبر.

٩- موضوعات فكرية: ويذكر فيه المستجدات من الأفكار والمصطلحات والأحداث وموقف الشرع منها، كالديمقراطية والعلمانية والحداثة، والحضارة الغربية وموقف المسلم منها..

١٠- الفتن والملاحم وأشراط الساعة: وكل فتنة أو ملحمة أو علامة من علامات الساعة الكبرى صالحة لأن تكون خطبة مستقلة؛ بل ربما أكثر من خطبة؛ لغزارة ما فيها من نصوص ومعلومات شرعية.

١١- القيامة وأحوالها: وفيها من الموضوعات شيء كثير: الصراط، الميزان، البعث، الحساب، القنطرة، الحشر، الديوان... كذلك: الجنة والنار وفيهما موضوعات كثيرة: وصفهما، وصف أهلهما، أعمال أهلهما، الطريق الموصلة إليهما..

١٢- المواعظ والرقائق. وهو باب واسع أيضاً.

هذه بعض الموضوعات الكلية، ويمكن تقسيم كل موضوع منها إلى موضوعات جزئية، في كل موضوع منها خطب كثيرة.

فالخطيب إذا عمل هذا التقسيم، ورتّبه في خطة محكمة بحيث يتعرض في كل جمعة لموضوع من هذه الموضوعات استفاد الفوائد التي ذكرتها آنفاً، إضافة إلى أنه يعلم الناس مجمل الشريعة، ويطلعهم على ما يحتاجون إليه في معادهم ومعاشهم. ويريح نفسه بحصر ذهنه عند الاختيار في موضوع واحد بدل التشتت في موضوعات كثيرة.

والملاحظ: أن كثيراً من الخطباء ممن لا يراعون مثل هذا التقسيم والتنظيم تنحصر خطبهم في موضوعات قليلة. ولربما أن بعضهم لم يتعرض لموضوع من هذه الموضوعات الكلية المهمة طيلة حياته الخطابية التي قد تمتد إلى عشرات السنوات. والسبب أن كثيراً من الموضوعات قد تغيب عن باله إذا لم يكن لديه خطة مكتوبة يسير عليها.

ومن الملاحظ أيضاً: أن كثيراً من الخطباء يطرح موضوعات عامة، لا يتأثر بها المصلون، ولا يتفاعلون معها، ولربما كانت معلوماتهم فيها أثرى من معلومات الخطيب؛ فمثلاً في الحديث عن القيامة وأحوالها تجد أن كثيراً من الخطباء يريدون استيعاب يوم القيامة بأحواله وما يجري فيه في خطبة واحدة. وهذا غير ممكن، ويؤدي إلى التطويل والتشعب والمشقة على السامعين، كما يؤدي إلى العمومية والسطحية في الطرح، وضعف المعالجة كما هو مشاهد. فيوم القيامة كألف سنة مما تعدون كما هو نص القرآن، فكيف يريد الخطيب أن يختزل الحديث عن أحداث ألف سنة في نصف ساعة أو أقل؟! لكن لو قسم أحواله وأهواله، وخصّ كل حال منها بخطبة؛ لكان أعمق في طرحه ومعالجته، وأوسع في معلوماته، وأكثر فائدة وتأثيراً في السامعين، وهكذا يقال في بقية الموضوعات.

تتابع الخطب في موضوع واحد:

يحلو لبعض الخطباء التركيز على موضوع من الموضوعات العامة، وعمل خطب كثيرة فيه تطرح تباعاً لفترة تطول أحياناً وتمتد إلى سنوات، وتقصر أحياناً بحسب ما عنده من مادة علمية في الموضوع الذي يطرحه.

وكثير ممن يختطُّ هذه الطريقة ينوه في آخر الخطبة بأنه سيكمل بقية الموضوع في الخطبة التالية، ويرى أصحاب هذا المسلك أنه مفيد من جوانب عدة:

١- تشويق السامعين إلى الجمعة القادمة.

٢- ربط موضوعات الخطب بعضها ببعض.

٣- أن طرح موضوع كلي بهذا التسلسل أنفع للناس؛ فتكون الخطبة درساً علمياً إضافة إلى كونها خطبة، وأعرف من الخطباء من حصر خطبه في التفسير فقط سنوات عدة قد تزيد على عشر سنوات. وغيره حصرها في السيرة النبوية وهكذا.

وبعضهم يأخذ جانباً معيناً كموضوع تربية الأولاد، أو أشراط الساعة، أو نحو ذلك، ويخطب فيه عشر خطب متتابعة أو أكثر، ثم ينتقل إلى موضوع آخر.

والذي يظهر لي أن الجمود على فن من الفنون كالتفسير أو السيرة.. أو على موضوع من الموضوعات بحيث تكون الخطب فيه متوالية ليس حسناً لما يلي:

١- أنه غير مأثور عن النبي صلى الله عليه وسلم، ولم أقف فيما اطّلعت عليه من سنته أنه كان يقول لأصحابه رضي الله عنهم: سنكمل في الخطبة القادمة، أو موضوع الخطبة القادمة كذا، أو كان يذكر موضوعات متوالية في فن واحد؛ بل المحفوظ من هديه عليه السلام أنه يذكر مايحتاج الناس إليه، وما يصلح شؤونهم، وهذا

يكون متنوعاً في الغالب؛ لأن حاجات الناس مختلفة باختلاف أفهامهم واهتماماتهم وأعمالهم. قال ابن القيم رحمه الله تعالى: «وكان يعلم أصحابه في خطبته قواعد الإسلام وشرائعه، ويأمرهم وينهاهم في خطبته إذا عرض لهم أمر.. وكان يأمرهم بمقتضى الحال في خطبته؛ فإذا رأى منهم ذا فاقة وحاجة أمرهم بالصدقة وحضهم عليها...»(١).

وقد يُعْتَرَضُ على هذا بأن أساليب الخطبة ووسائلها، والطريقة التي يختارها الخطيب اجتهادية، وليست توقيفية حتى يشترط أن يكون كل شيء فيها مأثوراً، وهذا محتمل، ولا سيما أن الفقهاء - فيما أعلم - لم يشترطوا تجنب ذلك في الخطبة لما ذكروا أركان وشروط الجمعة والخطبة.

وقد يجاب عن هذا الاعتراض بأن دواعي ذلك موجودة على عهد النبي صلى الله عليه وسلم ولم يفعله، والقاعدة أن النبي صلى الله عليه وسلم إذا ترك شيئاً مع توافر دواعي العمل به عُلم أنه قصد تركه. ولعل الأمر واسع في هذه المسألة، ولها حظ كبير من الاجتهاد والنظر.

٢- أنه قد يؤدي إلى عكس ما أراده الخطيب من التشويق؛ لأنهم عرفوا الموضوع الذي سيخطب فيه سلفاً. والإنسان بطبعه يميل إلى اكتشاف المجهول، ويحب المفاجأة في مثل هذا الأمر.

---

(١) زاد المعاد (١/ ٤٢٨).

٣- أن هذه الطريقة تقيد الخطيب، وتجعله محصوراً في فن واحد على حساب فنون أخرى يحتاج الناس إليها.

٤- أن ما يستجد من أحداث يُربك خطة هذا النوع من الخطباء؛ فإما أن يخطبوا عما استجد، ويقطعوا سلسلتهم المتصلة في موضوع واحد، وإما أن يهملوا ما يحدث، وهذا غير مقبول عند السامعين.

٥- أن من المصلين من لم يحضر الخطبة الماضية، وقد يكون فَهْمُ الخطبة الحاضرة مبنياً على حضور الماضية؛ فيقل انتفاع هؤلاء بالخطبة.

٦- أن الخطيب قد يعرض له عارض من سفر أو مرض أو نحوه، فلا يستطيع الخطابة وإكمال الموضوع الذي ابتدأه فيكون الموضوع مبتوراً.

لهذه الأسباب وغيرها أرى أن تلك الطريقة ليست حسنة، خاصة في المساجد العامة التي في المدن؛ لكن لو كان المسجد خاصاً في مزرعة مثلاً أو قرية لا يحضر فيه غير أهلها فإن كثيراً من المفاسد المذكورة آنفاً قد ترتفع. ومع ذلك فلا أجد ميلاً لتلك الطريقة؛ لأن الخطبة ليست درساً، وبإمكان الخطيب أن يضع درساً في مسجده، وتكون خطبه فيما يحتاجه الناس في معاشهم ومعادهم.

وما من موضوع يرى الخطيب أنه طويل ويريد تغطيته إلا ويستطيع تجزئته بطريقة أو أخرى بحيث لا يحتاج إلى جعله موضوعات متتابعة.

وبكل حال فإن حرص الخطيب، وجدّه في اختيار موضوعات خطبه، واستفادته من الخطباء الآخرين سيعينه في هذا المجال كثيراً. كما أن اطلاع الخطيب، وغزارة علمه، واجتهاده في تحصيل العلم وطلبه،

ومعرفته بأحوال الناس، وتلمس حاجاتهم، وقربه منهم؛ يجعله قريباً من قلوبهم، عارفاً بهمومهم، قادراً على معالجة مشاكلهم، في كل أسبوع يصعد درجات المنبر، ويخطب فيهم وهم له منصتون.

وإذا كان الخطيب كذلك فإن المصلين سيشتاقون إلى الجمعة، وينتظرون خطيبهم برغبة كبيرة، ويفرحون بإطلالته عليهم؛ مما يجعل الخطيب قريباً من مستمعيه، وهذا حقيق بأن يجعل الخطبة تؤتي ثمارها، وتظهر فائدتها التي شرعت من أجلها.

٢- كيف تعد خطبة الجمعة؟!

كثير من الخطباء لا يكتبون خطبهم التي يلقونها على الناس، ويكتفون بالارتجال - وبعضهم يضع عناصر أو رؤوس أقلام في ورقة صغيرة - أو بأخذ خطب غيرهم، وذلك باستعارتها أو تصويرها من كتبهم.

ومن سيئات الارتجال: أن الخطبة تنسى وتَدْرس بانتهاء إلقائها، وبعض الخطباء المتميزين تسجل خطبهم وتباع في التسجيلات، وهذا أيضاً يحفظها مدة معينة، ثم تضيع بعد ذلك.. ولو سألت عن محاضرات أو خطب سجلت وانتشرت، وطارت في الآفاق قبل عشر سنوات لما وجدت لها أثراً لا عند الناس، ولا في التسجيلات إلا عند بعض من يهتمون بحفظ مقتنياتهم وهم قليل، ومع قلتهم أنّى لك العثور عليهم؛ لكنك لو سألت عن كتاب طبع قبل خمسين سنة أو أكثر فالظن أنك ستجده في المكتبات العامة، ومكتبات الجامعات، وعند أناس كثيرين.

وهذا يدلنا على أهمية الكتابة في حفظ جهود المحاضرين والخطباء؛ بل وطلاب العلم والعلماء. فكم من عالم طار صيته في الآفاق، إذا قرأت ترجمته عجبت من ثناء العلماء عليه، ليس له من التأليف إلا القليل؛ فكان أكثر نفعه مقصوراً على من حضروا زمنه، وتلقوا عنه! وكم من عالم أكثر من التأليف مع دقته وتحقيقه وجودة ما يكتب، فنفع الله تعالى الأمة بكتبه سنين عدداً؛ بل قروناً متتابعة. وهذه كتب الأئمة: مالك والشافعي وأحمد والبخاري ومسلم وغيرهم انتفعت بها الأمة

منذ أن كتبوها في المائة الثالثة والرابعة إلى اليوم؛ بل وإلى ما يشاء الله تبارك وتعالى!!

إن الخطيب قد يُعد خطبة فيتقنها ثم تؤخذ منه فتُصوَّر وتوزع أو تطبع في كتاب، أو تُدخل في الشبكة العالمية ـ الانترنت ـ فيخطب بها مائة خطيب أو ألف خطيب أو أكثر في أنحاء مختلفة من الأرض؛ فينتفع بها خلق لا يعلم عددهم إلا الله تعالى، لم يكن الخطيب وقت إعدادها يتصور انتفاع هذا العدد الهائل بها.

ولعل ما سبق ذكره يدفع الخطباء إلى كتابة خطبهم، والعناية بإعدادها، مثل عناية المؤلف بكتابه؛ بل هم مطالبون بما هو زيادة على ذلك؛ فإن المؤلف لا يستطيع أن يقرأ كتابه على عشرة ينصتون إليه باهتمام. والخطيب يقرأ خطبته التي كتبها على مئاتٍ يتعبدون الله تعالى بالإنصات إليه؛ وذلك من فضل الله تعالى على الخطباء، وواجب عليهم أن يشكروا الله تعالى على هذه النعمة العظيمة؛ وذلك بالإخلاص في إعداد الخطبة، والاجتهاد فيها، واحترام عقول من ينصتون إليهم، وإفادتهم قدر المستطاع.

لكل خطيب طريقته:

يختلف من يعدون خطبهم بأنفسهم من الخطباء؛ تبعاً لاختلاف اهتماماتهم، وعلمهم، وثقافتهم، ونوعية المصلين معهم، ومدى تفاعلهم مع الخطيب.

فبعض الخطباء يكتفي بأفكاره وخطراته عن الرجوع إلى المراجع والمصادر، ويخط بنانه ما يوحي به ذهنه وقت الكتابة بغض النظر عن

أهمية ما يكتب من عدمها، أو ترابط الموضوع من تفككه.

وبعض الخطباء يكتفي بمرجع واحد ينقل منه، أو يختصره ويُعدِّل عليه، ويرى أنه أحسن من غيره ممن لم يكتب، أو كتب من ذهنه وخواطره.

ومن الخطباء من لا يكتب خطبته حتى يقرأ في موضوعها عدداً من الكتب، ويراجع فيها مراجع كثيرة، وهؤلاء قلة، وفي الغالب أن خطبهم تكون متميزة ومفيدة.

كذلك يختلف الخطباء في مدى اهتمامهم بالخطبة؛ فبعض الخطباء لا يفكر في موضوع الخطبة إلا ليلة الجمعة أو صباحها، أو قبل صعود المنبر بوقت غير كثير؛ بل إنني سمعت مرة خطيباً في مجلس يفاخر بأنه يصعد المنبر وليس في ذهنه موضوع محدد، فيطرأ عليه الموضوع والمؤذن يؤذن، وهذا فيه استخفاف بعقول الناس، واستهانة بخطبة الجمعة، التي أولاها الشارع الحكيم عناية كبيرة.

بينما سمعت أن بعض الخطباء المتميزين يبدأ تفكيره بموضوع الخطبة منذ نزوله من المنبر في الخطبة الماضية. وبين هذا وذاك مراحل متفاوتة من الحرص والاهتمام.

وقبل عرض مقترح لكيفية إعداد الخطبة أحب التنبيه على أن الخطبة مثل الكتاب، والخطيب مثل المؤلف. ولكل كاتب أو خطيب أو مؤلف أو باحث طريقته في البحث؛ بيد أن عرض التجارب في هذه المجالات يحقق جملة من الفوائد لعل من أبرزها:

١- توجيه المبتدئ ومساعدته بإعطائه منهجاً مجرباً في إعداد الخطبة.

٢- قد تكون الطريقة التي أُعدُّ بها الخطبة فيها شيء من العسر، وهناك طرق أيسر منها، فلما أطلع عليها آخذ بها.

٣- الإنسان في الأصل ناقص العمل، معرض للخطأ، والناس يكمل بعضهم بعضاً بتبادل تجاربهم وخبراتهم، وفي اطلاعي على تجارب الآخرين وطرائقهم في إعداد الخطبة تكميل لنقص عندي، أو إصلاح لخطأ في طريقة الإعداد.

لهذا ولغيره فإنني أدعو كل خطيب أن يطرح على الخطباء طريقته في إعداد خطبته؛ حتى تتلاقح الأفكار، ويستفيد بعضنا من تجربة بعض. على أن لا يزعم الواحد منا أن طريقته هي أحسن الطرق لكل الخطباء، فالطريقة التي تناسبني قد لا تناسبك، وقد أستفيد من تجربتك كلها أو من بعضها ولو كان قليلاً، والمسألة اجتهادية، ومهارات الخطيب وثقافته وعلمه وذوقه عوامل مؤثرة في ذلك.

ويمكن عرض الخطوات اللازمة لإعداد الخطبة في الآتي:

١- اختيار الموضوع. وقد كتبت فيه مقدمة كاملة يمكن مراجعتها.

٢- جمع النصوص والنقول والأفكار والعناصر للموضوع المختار، وبعد الجمع سيتضح للخطيب أن مادة الخطبة: إما أن تكون كثيرة فيقسمها إلى أكثر من موضوع، وإما أن تكون مناسبة فيكتفي بها، وإما أن تكون قليلة فيزيد البحث في مظان أخرى، فإن ضاق عليه الوقت أجَّل هذا الموضوع وبحث عن موضوع آخر تكون مادته متوافرة.

وينبغي في الجمع مراعاة ما يلي:

أ - البدء بالمصادر المتخصصة وجعلها أصلاً، ثم البحث عن مصادر أخرى مساعدة، فلو اختار مثلاً موضوع (الشكر) يبدأ بالكتب المتخصصة في ذلك ككتاب الشكر لابن أبي الدنيا، ثم يرجع إلى آيات الشكر في القرآن وما قاله أهل التفسير، ثم الأحاديث وشروحاتها، ثم أبواب الشكر في كتب الآداب والمواعظ والأخلاق. .، لأن الكتب المتخصصة في الموضوع ستكفيه ما يقارب ثلثي الموضوع أو نصفه على الأقل؛ فتخف عليه مؤنة البحث والتقصي. والكلام على مصادر الخطبة يحتاج إلى مقدمة مستقلة.

ب- أن ينطلق في عناصره وأفكاره من النصوص التي جمعها؛ فذلك أدعى للإقناع، وأيسر عليه. وبعض الخطباء قد تقدح الفكرة في ذهنه فتعجبه فيكتبها، ثم يعيا في البحث عن دليل يعضدها، ويقنع السامع بها؛ فيضيع وقته هدراً في ذلك، ثم يشعر باليأس، وربما توقف عن الكتابة، أو يذكرها بلا دليل فلا تقنع السامع، وربما كانت خاطئة وهو لا يدري.

ولذا فإن صياغة الأفكار، ووضع العناصر على ضوء النصوص والنقول التي جمعها يُؤمِنُه من الخطأ بإذن الله تعالى، ويريحه من التعب، ويقنع المستمعين؛ وبناءً عليه فإن جمع النصوص والنقول يكون قبل وضع الأفكار والعناصر للموضوع.

٣- بعد جمع النصوص والنقول يقدر كثرتها من قلتها بالنسبة لخطبته، فإن كانت كثيرة قسمها على أكثر من خطبة على ما مضى تفصيله في

مقدمة سابقة.

٤- بعد اختيار النصوص والنقول التي سيجعلها في خطبته يضع لها عناصر مختصرة (عناوين تدل عليها) فمثلاً عنده نص وهو قول الله تعالى: ﴿وَإِذْ تَأَذَّنَ رَبُّكُمْ لَئِن شَكَرْتُمْ لَأَزِيدَنَّكُمْ﴾ [إبراهيم: ٧] يجعل له عنواناً أو عنصراً: (الشكر يزيد النعمة).. وهكذا في بقية النصوص والنقول.

٥- يرتب العناصر التي وضعها بنصوصها حسب رؤيته التي يراها مناسبة لوضعها في الخطبة فيجعل العناصر المترابطة متوالية.

فمثلاً في موضوع الشكر سيكون عنده عناصر في فوائد الشكر، وعناصر في عاقبة الكفر (كفر النعمة) وعناصر في نماذج للشاكرين، وعناصر في نماذج لمن كفروا النعمة.. فيضم العناصر بعضها مع بعض تحت موضوعاتها. ويكون هذا الترتيب بالترقيم والإشارة إلى العناصر لا بالكتابة من جديد حتى لا يثقل على نفسه، ثم يسير في صياغة الموضوع على وفق الأرقام التي لديه، فلا يفوته شيء، ويكون موضوعه مترابطاً منسجماً.

٦- بعد الفهرسة والترتيب يقرر ما للخطبة الأولى وما للثانية من العناصر المذكورة.

٧- ثم يبدأ بالصياغة حسب الخطة التي وضعها، والمادة التي جمعها.

وهناك أمور ينبغي التنبه لها أثناء الصياغة منها:

أ- الإخلاص لله تعالى في كتابته، واستحضار النية الخالصة، ومجاهدة

النفس في ذلك. فلا تعجبه نفسه أثناء الكتابة، أو يتذكر مدح المصلين له، وماذا سيقولون عن خطبته؛ فإنه إن أخلص لله تعالى بارك الله في كتابته وجهده، ونفع به الأمة.

ب- أن يعيش مع الخطبة بقلبه، ويضع نفسه محل السامع، أي كأنه المخاطب بهذه الخطبة؛ لأن ذلك سيجعله يختار العبارات التي يرضاها ويحبها وتقنعه. فمثلاً لو كان يوجه نصيحة لواقعٍ في معصية معينة؛ فليضع نفسه مكان صاحب هذه المعصية، وكأنه المخاطب بهذا الخطاب، فذلك أدعى للتأثر، وأجود في انتقاء الألفاظ المناسبة.

وبعض الخطباء الذين لا يراعون هذه الناحية تجدهم يترفعون على صاحب المعصية، ويخاطبونه من علو؛ فيكون عتابهم عنيفاً ربما لا يقبله صاحب المعصية. لكنه لو وضع نفسه مكان صاحب المعصية، وبدأ بالعتاب فسيكون عتاباً رقيقاً تقبله النفوس وتتأثر به.

ج ـ إن أحس الخطيب أن القلم لا يجاريه في الكتابة، وأن أفكاره مشتتة، وذهنه مشوش فليتوقف عن الكتابة؛ حتى يزيل ما يشغله أو ينساه ثم يعود إليها مرة أخرى.

د ـ إذا أشكلت عليه بعض الكلمات أو الجمل من جهة إعرابها أو صرفها أو دلالتها على المعنى الذي يريده أو كونها غير فصيحة فله خياران:

١- الرجوع إلى المعاجم اللغوية للتأكد من صحة الكلمة ومناسبتها للمعنى الذي أراده، أو سؤال من يعلم ذلك من أهل اللغة والنحو.

٢- استبدال الكلمة أو الجملة التي يشك فيها بكلمة أو جملة أخرى يعلم صحتها، واللغة العربية غنية بالمترادفات من الكلمات والجمل.

وإن كنت أستحسن الطريقة الأولى؛ لكي ينمي الخطيب مهاراته اللغوية، وتزداد حصيلته من الكلمات والجمل.

هـ- العناية بعلامات الترقيم، وبداية الجمل ونهايتها؛ حتى يعينه ذلك على قراءة الخطبة بشكل صحيح، وعدم التعتعة والإعادة، وكثرة التوقف والتلكوء.

أجزاء الخطبة:

أولاً: المقدمة: وهي التي يستهل بها الخطيب خطبته، ويهيئ السامعين لسماعها، ويجذبهم بها إليه. ونجاح الخطيب فيها كفيل بالنجاح في بقية خطبته؛ إذ إن عسيرات الأمور بداياتها. وينبغي أن يراعي الخطيب فيها جملة أمور منها:

أ - أن تكون ذات صلة وثيقة بموضوع الخطبة، وممهدة له، ومهيئة الأذن لسماعه.

قال ابن المقفع: «وليكن في صدر كلامك دليل على حاجتك».

وعلق عليه الجاحظ فقال: «فرِّق بين صدر خطبة النكاح وبين صدر خطبة العيد، وخطبة الصلح، وخطبة الواهب؛ حتى يكون لكل فن من ذلك صدر يدل على عجزه؛ فإنه لا خير في كلام لا يدل على معناك، ولا يشير إلى مغزاك، وإلى العمود الذي إليه

قصدت؛ والغرض الذي إليه نزعت»[١].

ب- أن تكون مناسبة في طولها وقصرها لمجموع الخطبة، والملاحظ أن بعض الخطباء يطيل في المقدمة إطالة قد تستوعب أكثر الخطبة أو نصفها، وهذا قد يصيب السامعين بالملال، وربما يئسوا من الدخول في الموضوع فانصرفت أذهانهم عن الخطيب، وعكسهم من لا يعتنون بالمقدمة فيشرعون في الموضوع مباشرة ولم يتهيأ المستمعون بعد، وكلا الأمرين غير حسن والمطلوب: الاعتدال في ذلك.

ثانياً: صلب الموضوع: فبعد أن يمهد الخطيب لموضوعه في المقدمة، ويتهيأ السامعون لسماعه؛ يبدأ في الموضوع، وينبغي أن يراعي ما يلي:

أ - ترتيب الأفكار وتسلسلها، بحيث لا ينتهي من فكرة إلا وقد أعطاها حقها من الاستدلال والإقناع، سواء أكان الاستدلال لها بالنقل أم بالعقل، ولا يقفز إلى فكرة أخرى ثم يعود إلى الأولى مرة أخرى؛ فإن ذلك يربك السامع ويشوش عليه. ولا يتأتى ذلك للخطيب إلا إذا جمع مادة الخطبة من نصوص واستدلالات ونقولات وأفكار ثم فهرسها ورتبها قبل أن يبدأ بصياغتها.

ب- التوازن بين الأفكار، فلا يشبع فكرة ويطيل فيها على حساب الأخريات، ومما يلاحظ عند كثير من الخطباء عدم التوازن في ذلك؛ فتراه في أول الخطبة يشبع كل فكرة ويطيل فيها، ويحشد النصوص لها، ثم لما يحس بأنه تعب، وأتعب السامعين، وأطال

---

(١) البيان والتبيين (١/ ١١٦).

عليهم؛ سرد الأفكار الباقية سرداً بلا استشهاد ولا إقناع، رغم أهميتها، وربما أنها أهم مما طرحه في الأول، وسبب ذلك: أن الخطيب ليس عنده تصور كامل لخطبته وما فيها من مادة، وكم تستغرق من وقت.

وعلاج هذه المشكلة: أن يقدر الخطيب وقت خطبته، ويستحسن ألا تزيد عن ثلث ساعة، فإن زاد لأهمية الموضوع فنصف ساعة على الأكثر لكلا الخطبتين. ويقدر كم تكون من ورقة حسب خطه وإلقائه، ويحسب كم فكرة عنده، وكم لها من نص، ومن ثم يُسْقِطُ الأفكار مع نصوصها، وما تحتاجه من صياغة على الأوراق التي قدَّرها من قبل، فلا تخلو حينئذ من إحدى حالات ثلاث:

١- أن تكون الأفكار بنصوصها وصياغتها متناسبة مع حجم المساحة التي قدرها ـ أي زمن الخطبة ـ فيبدأ بالصياغة مرتباً الأفكار كما سبق ذكره، معطياً كل فكرة حقها من الأسطر بلا زيادة ولا نقص إلا شيئاً يسيراً لا يُخلُّ بالخطبة.

٢- أن تكون الأفكار بنصوصها وصياغتها أقل من المساحة التي قدرها، وفي هذه الحالة له خيارات عدة:

أ - أن يقصر الخطبة فتكون أقلَّ من ثلث ساعة، فهو ينظر إلى استيعاب الموضوع، ولا يلتفت إلى الوقت.

ب- أن يزيد أفكاراً ذات صلة بالموضوع بقدر المساحة المتبقية.

ج - أن يسترسل في الصياغة ـ أي يطيل في صياغة كل فكرة ـ

بحيث يغطي النقص.

د - أن يزيد في الاستدلالات لكل فكرة.

وعلى الخطيب أن يقدر الأصلح في ذلك بما يتناسب مع أحوال المصلين معه.

٣- أن تكون الأفكار بنصوصها وصياغتها أطول من المساحة المقدرة؛ فإن كان الطول يسيراً فيمضي، وإن كان كثيراً فلا يخلو من إحدى حالتين:

أ - أن يمكن قسمة الموضوع إلى موضوعين فأكثر، بحيث يكون كل موضوع وحدة مستقلة فيقسمه، مثال ذلك: لو أراد الخطيب أن يتكلم عن حشر الناس يوم القيامة، وابتدأ حديثه منذ بعثهم من قبورهم ثم حشرهم في العرصات... فسيجد أن موضوع البعث صالح لئن يكون موضوعاً مستقلاً لكثرة ما فيه من نصوص، وهكذا موضوع الحشر، ثم ما بعد الحشر وهو فصل القضاء. فيجعلها موضوعات عدة.

ب- أن لا يمكن قسمته بهذا الشكل؛ كأن يكون الموضوع بطوله وحدة متكاملة لا تجزأ. مثال ذلك: الحديث عند فوائد الأمراض وهي كثيرة، وفيها نصوص كثيرة أيضاً، فلو قدرنا أن فوائد الأمراض المنصوص عليها عشرون فائدة، وفيها من النصوص ثلاثون نصاً؛ فلا شك أن خطبة واحدة لا يمكن أن تستوعبها ولا اثنتين؛ لكن بالإمكان ذكر سبع فوائد في كل خطبة بحيث تصير ثلاث خطب،

أو عشر فوائد في كل خطبة بحيث تصير خطبتين؛ فيسرد الخطيب في كل من الخطبتين أو الثلاث فوائد الأمراض جملة ويفصل في الفوائد التي اختارها لهذه الخطبة بنصوصها. ثم في خطبة أخرى يسرد ما فصله في الأولى جملة ويفصل فيما لم يذكره وهكذا. ويكون عنده أكثر من خطبة في الموضوع.

ثالثاً: الخاتمة: بعضهم يجعلها في الخطبة الأولى، وينتقل في الخطبة الثانية إلى موضوع آخر في الغالب أنه يكون موضوعاً وعظياً معتاداً يذكر بالنار ويحث على التقوى، ويكون مسجوعاً، وهذا الأسلوب كان مستخدماً عند خطبائنا قبل سنوات، ولا يزال بعض كبار السن منهم ينهجونه إلى اليوم.

وأكثر الخطباء في هذا العصر ـ حسب علمي ـ يجعلون الخطبة الثانية موصولة بالأولى وفي نفس موضوعها، وينهجون في ذلك منهجين:

أ - أن يلخص فيها موضوع الخطبة بعبارات مركزة؛ فتكون كخاتمة البحوث الإسلامية.

ب- أن يذكر المطلوب من السامعين حيال الموضوع الذي طرحه، ولعلّ هذا المنهج أحسن؛ لتلافي التكرار، ولحصول الفائدة من عرض الموضوع؛ ذلك أن المستمعين استمعوا في الخطبة الأولى إلى عرض الموضوع بأدلته النقلية والعقلية، فاقتنعوا بأهميته، وهم ينتظرون من الخطيب أن يبين لهم ما يجب عليهم تجاهه؛ فإن كان الموضوع

عن سنة مهجورة حفزهم لإحيائها، وإن كان منكراً حثهم على إنكاره، وإن كان نصرة للمسلمين بيّن لهم طرق النصرة ومسالكها.

* **تنبيه مهم!!** يلاحظ أن كثيراً من الخطباء يجتهدون في جمع مادة الموضوع، وحشد النصوص له، وحسن الصياغة، وهذا يقنع المستمع بما ألقي عليه؛ لكنهم لا يذكرون واجب المستمع تجاه ما أُلقي حتى كأن الخطبة لم توجه للمستمع، وبالتالي لا تؤدي النتيجة المرجوة منها، وتجد أن الناس خرجوا من عند الخطيب متأثرين مثنين على خطبته وجمالها وقوتها، وأهمية موضوعها؛ لكنهم لم يدركوا ما هو المطلوب منهم تجاه الموضوع المطروح..

وربما أن بعضهم لفطنته فهم أنه معنيٌّ بهذا الموضوع، ومخاطب به، وعليه واجب تجاهه؛ لكنه لا يدري ماذا يفعل؟ أو ربما اجتهد فأخطأ؛ فينبغي للخطيب أن يلخص واجب كل مسلم تجاه الموضوع الذي أُلقي سواء على وجه الإجمال، أو بشيء من التفصيل والبيان؛ إذ إن هذا هو مقصود الخطبة: أن يخرج الناس من المسجد وهم متشوقون لأداء ما يجب عليهم تجاه ما ألقاه الخطيب.

٣- الصوت في الخطابة

من دلائل تكريم الإنسان على سائر الحيوان: أن الله تعالى رزق الإنسان القدرة على الإبانة عمّا في نفسه باللسان أو بالإشارة أو بالكتابة.

وحاجة المرء إلى القدرة على البيان لا تقلُّ أهمية عن حاجته إلى عقله؛ لأنه إن لم يستطع الإبانة عمّا في نفسه قلّت فائدة عقله أو تلاشت. ولهذا فإن الله تعالى ما أرسل رسولاً إلا بلغة قومه؛ ليتحقق المقصود من الرسالة وهو: إبانة الطريق الموصلة إلى الله تعالى، وتحذيرهم من سبل الشيطان فقال سبحانه: ﴿**وَمَا أَرْسَلْنَا من رَّسُولٍ إِلاَّ بِلِسَانِ قَوْمِهِ لِيُبَيِّنَ لَهُمْ**﴾ [إبراهيم: ٤]، وقال النبي صلى الله عليه وسلم: «**لم يبعث الله نبياً إلا بلغة قومه**»[١].

ولكل وسيلة من وسائل البيان أصولها وقواعدها وأسلوبها، تعارف البشر على ذلك وتواضعوا؛ إذ لا سبيل إلى التفاهم فيما بينهم إلا بذلك.

والخطاب المباشر (الخطابة) هو أشهر وسائل البيان والإقناع، وأكثرها استعمالاً عند بني آدم؛ ولذا اعتنوا به من قديم الزمان، وبحثه المتقدمون منهم والمتأخرون، وأدخلوه ضمن علوم الفلسفة قديماً، وأنشئت له الأقسام في الجامعات، وخصصت له مناهج ومدرسون مختصون، وألّفت فيه الكثير من الكتب والرسائل العلمية كما هو مشاهد في عالم اليوم.

---

(١) أخرجه أحمد من حديث أبي ذر رضي الله عنه (٥/ ١٨٥)، وصححه السيوطي في الجامع الصغير (٧٣٥٧) ثم الألباني في صحيح الجامع (٥١٩٧).

وهذه المقدمة المختصرة تلقي الضوء على جزء من الخطاب المباشر (الخطابة) يتعلق بصوت الخطيب الذي يلقي الخطبة؛ ذلك أن للصوت تأثيراً ملحوظاً على السامع، وهو الوسيلة الموصلة للمعاني إلى آذان المستمعين.

أهمية الصوت:

صوت الخطيب مترجم عن مقاصده، وكاشف عن أغراضه، ومصاحبته للألفاظ إذا كان الإلقاء جيداً بمثابة بيان المعاني التي أرادها الخطيب، وهو المعول عليه في إيصال الخطبة إلى السامعين، ومن ثم إلى قلوبهم. وقد سماه الأقدمون: نوراً؛ لأنه يحمل شعلة الضياء إلى الأذهان[٢]. وكم من الخطباء الذين يبهرون السامعين بحسن أصواتهم وجودة إلقائهم أكثر من سحر بيانهم.

ومن دلائل تأثير الصوت في النفوس: أنه قد يقرأ القرآن حافظ متقن مجود؛ لكنه لا يحسن الأداء في القراءة، فلا يؤثر في مستمعيه. وقد يقرأ القرآن من ليس بمجود ولا متقن؛ فيبكي سامعيه بجودة أدائه، وحسن صوته.

---

(٢) انظر: الخطابة د نقولا فياض، ط دار الهلال بمصر ١٩٣٠م (ص٥٣)، وفن الخطابة للشيخ علي محفوظ، ط دار الاعتصام (ص٦٥)، وفن الإلقاء محمد عبد الرحيم عدس دار الفكر، الأردن ط الأولى ١٤١٦هـ (ص٤١)، الخطابة، أصولها، تاريخها، في أزهر عصورها عند العرب للشيخ محمد أبي زهرة، دار الفكرالعربي، ط الثانية، ١٩٨٠م (ص١٤٨).

والخطبة الجيدة إذا ألقاها من لا يحسن الأداء كانت كالسيف البتّار في اليد الضعيفة، والخطيب المصقع الذي يلقي خطبة رديئة كالبطل المغوار الذي يقاتل بسيف كالٍّ. فإذا اجتمعت قوة السيف، وقوة اليد التي تحملها، وقوة قلب صاحبها عملت عملها، وهكذا الخطبة إن كانت جيدة في بلاغتها ولغتها وأسلوبها، وألقاها من يحسن الإلقاء عملت عملها في قلوب السامعين.

وكم من أشخاص سمعنا خطبهم، وتأثرنا بها، فلما قرأناها مكتوبة لم تكن كما سمعناها مع أنها لم تزد حرفاً ولم تنقص حرفاً؛ مما يدل على أن للإلقاء والصوت أثراً كبيراً على السامع.

هل جمال الصوت خلقة أم اكتساب؟!

للإجابة على هذا السؤال لابد من فهم المقصود منه؛ إذ إن الحكم على جمال شيء أو قبحه أمر نسبي يختلف باختلاف الأذواق، ثم في ماذا سيسخر الصوت، وما كيفية تسخيره؟ وهذا بلا شك له أثره في الحكم على جمال الصوت أو قبحه.

وكثير من الخطباء قد يحكم على صوته بأنه سيئ مع أن السوء في أدائه لا في صوته، فيقعد عن تحسين أدائه بحجة أن هذا هو ما أعطاه الله تعالى.

والأصوات أنواع، ولكل صوت ما يناسبه من طرق الأداء والإلقاء، فما يحسن من الأداء في صوت قد يقبح في آخر؛ بدليل أننا نستمع إلى خطيبين يقلد أحدهما الآخر في طريقة الإلقاء حتى كاد أن يكون

مثله لولا اختلاف نغمة الصوت، ومع ذلك يقبل الناس على أحدهما، ويستهجنون الآخر؛ والسبب: أن أحدهما ناسب صوته طريقة إلقائه، بعكس الآخر.

وعلى الخطيب أن يكتشف طريقة الإلقاء المناسبة لصوته ونَفَسه؛ وذلك يكون بتجربة طرق عدة، والنظر في مدى أثرها على السامعين، مع سؤال أهل الخبرة في ذلك، وسيكتشف بعد عدة محاولات طريقة الأداء التي تناسب صوته.

الهدي النبوي رفع الصوت في الخطبة:

روى جابر بن عبدالله رضي الله عنهما قال: «كان رسول الله صلى الله عليه وسلم إذا خطب احمرَّت عيناه، وعلا صوته، واشتدَّ غضبه؛ حتى كأنه منذر جيش يقول: صبحكم مساكم...»[٣].

ويفهم من هذا الحديث أمور منها:

١- الاعتناء بشأن الخطبة؛ فإنه عليه الصلاة والسلام كان يهتم لها وبها، دلّ على ذلك الأحوال التي تعتريه أثناء خطبته، فلو لم يكن مهتماً بها لما علا صوته، واحمرَّت عيناه، واشتدَّ غضبه.

قال النووي رحمه الله تعالى: «يستدل به على أنه يستحب للخطيب أن يفخم أمر الخطبة، ويرفع صوته، ويجزل كلامه، ويكون مطابقاً

---

(٣) أخرجه مسلم في الجمعة باب تخفيف الصلاة والخطبة (٨٦٧)، والنسائي في العيدين باب كيف الخطبة (٣/ ١٨٨ ـ ١٨٩)، وابن ماجه في المقدمة باب اجتناب البدع والجدل (٤٥) وغيرهم.

للفصل الذي يتكلم فيه من ترغيب وترهيب»[٤].

٢- لا يفهم من الحديث أنه صلى اللهعليه وسلم كان يرفع صوته دائماً، ويشتد غضبه باستمرار، وتحمرَّ عيناه في كل خطبته؛ بل كان ذلك منه في أحوال تستلزم ذلك كذكر القيامة، أو إذا خولف في أمر غضب لله تعالى. كما جاء في بعض روايات الحديث «كان رسول الله صلى الله عليه وسلم إذا ذكر الساعة احمرَّت وجنتاه، واشتدَّ غضبه، وعلا صوته..»[٥]. فهذا مقيد للإطلاق المذكور سابقاً بذكر الساعة.

وهذا ما فهمه شُرَّاح الحديث، قال القرطبي رحمه الله تعالى: «كونه صلى الله عليه وسلم تحمر عيناه، ويعلو صوته، ويشتدُّ غضبه في حال خطبته، كان هذا منه في أحوال. وهذا مشعر بأن الواعظ حقه أن يكون منه في وعظه بحسب الفصل الذي يتكلم فيه ما يطابقه؛ حتى لا يأتي بالشيء وضده ظاهر عليه. وأما اشتداد غضبه فيحتمل أن يكون عند نهيه عن أمر خولف فيه، أو يريد أن صفته صفة الغضبان»[٦].

٣- أن تغيّر أحوال الخطيب وانفعالاته يكون بحسب المعاني التي يلقيها

(٤) شرح النووي على صحيح مسلم (٦/ ٢٢٢).

(٥) هذه الرواية صححها ابن خزيمة (١٧٨٥)، وابن حبان (٣٠٦٢).

(٦) المفهم لما أشكل من تلخيص كتاب مسلم (٢/ ٥٠٦)، وانظر أيضاً: شرحي الأبي والسنوسي على صحيح مسلم (٣/ ٢٣٢ ـ ٢٣٣)، وشرح الطيبي على المشكاة (٤/ ١٢٨٣).

على السامعين؛ كما دل عليه الحديث، وأقوال العلماء الذين شرحوه؛ حتى لا يكون إلقاؤه مخالفاً للمعاني التي يلقيها. فألفاظ الاستفهام والتعجب والتوبيخ واللوم والعتاب والزجر والتفخيم والتهويل والتحزين والحيرة والوعد والوعيد ونحوها لها كيفيات صوتية في الإلقاء تدل على المعنى المراد. وكذلك يقال في خفض الصوت ورفعه ولينه وشدته وتكرار الكلمة وقطعها ومد الصوت بها لها مواضعها في الخطبة؛ حتى يستثير الخطيب السامعين، ويلفت انتباههم، مما يكون عوناً على الاستفادة من الخطبة؛ إذ هو المقصود من شرعيتها.

ولا شكَّ في أن الخطيب إذا لم يراع معاني الألفاظ في صوته فقدت معانيها، ولربما استعجمت على السامعين، وفي هذا المعنى يُذكر أن رجلاً اتهم بالسرقة وليس ثمة دليل يدينه، فوعده القاضي بأن يطلق سراحه بشرط أن يقوم أمام الناس ويعترف بأنه لص! فوافق، فلما صار أمامهم قال بصيغة السؤال والاستنكار« أنا لص؟!» كأنه يستنكر ذلك؛ فتعاطف الناس معه، ولم يحقق القاضي ما أراده(٧).

---

(٧) فن الإلقاء (١٧)، وانظر أيضاً: الخطابة في صدر الإسلام د. محمد طاهر درويش، ط دار المعارف، مصر (٤٦)، وفن الخطابة د أحمد محمد الحوفي دار النهضة، مصر، ط الرابعة (٣١)، وقواعد الخطابة د. أحمد غلوش ١٣٩٩هـ (١٨٣ ـ ١٨٤)، والخطابة للشيخ أبي زهرة (١٤٧).

ما ينبغي مراعاته في الصوت:

١- موافقته لظروف الخطبة؛ فإن الصوت يختلف باختلاف الحضور واختلاف المكان والزمان، وموضوع الخطبة. فصوت الخطيب يختلف في مناسبة الفرح عنه في مناسبة الحزن، كما يختلف في المكان الضيق عنه في المكان الرحب الغاص بالمستمعين[٨]. فعلى الخطيب أن يراعي مثل هذه الظروف ويكيّف صوته بما يتناسب معها.

ويرى بعض الباحثين أن المناسب في الخطبة أن يبدأ بها خافضاً صوته، ثم يعلو شيئاً شيئاً؛ لأن العلو بعد الانخفاض سهل، ووقعه على السامعين مقبول. أما الخفض بعد الارتفاع فلا يحسن وقعه[٩].

وعلى الخطيب أن يعرف قدراته الصوتية فلا يتحمس حماساً يرفع صوته عالياً بحيث لا يستطيع إكمال خطبته على هذا النمط؛ لأنها طويلة، وقدرته الصوتية ضعيفة؛ فيقع في حرج بالغ، ويُفسد انجذاب السامعين إليه.

٢- ألا يجعل صوته نمطياً بحيث يكون على وتيرة واحدة؛ فإن ذلك يلقي في نفس السامعين سآمة وملالاً، بل يغيّر النبرة الصوتية بما يتناسب مع المعاني التي تحويها الألفاظ، وقد كان كثير من الخطباء ـ خاصة كبار السن ـ يرتلون الخطبة كترتيل القرآن، أو كقراءة المتون

---

(٨) انظر: فن الخطابة لأنطوان القوّال، دار العلم للملايين، ط الأولى (٢٤).

(٩) ـ الخطابة لمحمد أبي زهرة (١٤٩)، وفن الخطابة لمحفوظ (٦٨).

العلمية على المشايخ، وهذا لا يتناسب مع الخطبة، وإن وجد السامعون له لذة في مسامعهم؛ لكنها ليست لذة بالمعاني والألفاظ وإنما هي بصوت الخطيب ـ ولا سيما إن كان صوته حسناً ـ وذلك يشغلهم عن معانيها وفوائدها، ولربما أنهم لم يدركوا ما فيها من معان وألفاظ رغم طربهم بها.

٣- أن يفرِّغ فكره أثناء الإلقاء للمعاني التي يلقيها، ويحرك بها قلبه، ويتفاعل معها قدر استطاعته. وللإخلاص في إعداد الخطبة وإلقائها حظ كبير في تحرك القلب بها، ولا سيما إن كان في القلب حرقة لدين الله تعالى، ولنفع إخوانه المسلمين. والشواغل الذهنية أثناء الإلقاء تؤثر كثيراً على القلب، وتفقده الكثير من الخشوع والتدبر. فانشغال الخطيب أثناء الإلقاء مثلاً بالنحو ـ أي خوف اللحن ـ يجعله يركز على الإعراب وينصرف عن المعنى. وسبب ذلك في الغالب: أنه لا يراجع خطبته قبل إلقائها مراجعة تجعله يتقنها ولا يخاف اللحن فيها. ومن كان دائم الانشغال بذلك حتى لو راجعها كثيراً فينبغي له أن يعربها ـ أي يضبطها بالشكل ـ لأن تفريغ ذهنه للمعاني أهم من انشغاله بأمور يستطيع إصلاحها قبل الإلقاء.

وقد يكون الخطيب مرتجلاً ـ يخطب بلا ورقة ـ فينشغل بما سيقوله عن تدبر ما يقول، أي: أن فكره يسبق كلامه، فيهيئ في ذهنه الجملة التي سيقولها وهو لا زال في الجملة الأولى، وهذا بلا شك يجعله لا يتدبر، وربما دخلت الجملة الثانية قبل اكتمال

الأولى فيفسد المعنى كما هو ملاحظ على كثير ممن لا يحسنون الارتجال.

وبكل حال فإن الإعداد الجيد للخطبة مع الإخلاص كفيل بانفعال الخطيب في خطبته، ومن ثم انفعال المستمعين. وكلما ضعف الإعداد وقلّ الإخلاص كان الانفعال أقلّ وتأثير الخطبة أضعف. وفي هذا المعنى قال عامر بن عبد القيس رحمه الله تعالى: «الكلمة إذا خرجت من القلب وقعت في القلب، وإذا خرجت من اللسان لم تتجاوز الآذان»[١٠]، ولما سأل معاوية رضي الله عنه صحار بن عياش العبدي عن سر بلاغتهم قال: «شيء تجيش به صدورنا فتقذفه على ألسنتنا»[١١]، وقال الحسن البصري رحمه الله تعالى لواعظ لم تؤثر فيه موعظته: «يا هذا، إن بقلبك لشراً أو بقلبي»[١٢].

٤- عناية الخطيب بأجهزة الصوت التي توصل خطبته للسامعين؛ فهذه الأجهزة نعمة من الله تعالى، خدمت الخطباء وأراحتهم من رفع أصواتهم رفعاً يُضِرُّ بهم، ومعنى العناية بها: أن يكون الصوت فيها موزوناً بما لا يزعج المستمع ولا يشوش عليه. وبعض الخطباء لا يرتاح حتى يرتد إليه صوته من شدة جلبة مكبرات الصوت،

---

(١٠) فن الخطابة لمحفوظ (٦٨)، عن البيان والتبيين للجاحظ (١/ ٨٤)، والحيوان (٤/ ٢١٠).

(١١) فن الخطابة للحوفي (٢٦).

(١٢) البيان والتبيين للجاحظ (١/ ٨٤) ط دار الجيل بيروت.

وبعضهم قد تكون أجهزته لا توصل الصوت من شدة خفوتها، والموازنة مطلوبة، وأصوات الناس تختلف، والأجهزة أيضاً تختلف، فينبغي أن يضبط صوت الجهاز بما يتناسب مع صوت الخطيب ضعفاً وقوة، فإن كان في صوت الخطيب ضعفاً رفع صوت الجهاز حتى يسمع الناس. وإن كان الخطيب جهير الصوت خفض صوت الجهاز حتى لا يحصل الإزعاج. فالإزعاج وضعف الصوت مانعان من الاستفادة من الخطبة.

٥- الاعتدال في سرعة الصوت. فلا يتمهل تمهلاً يصيب السامعين بالملال، ولا يسرع سرعة تمنعهم التدبر وفهم المعاني. والسرعة تجهد الصوت لا سيما في الخطب الطويلة. وحدد بعضهم متوسط ذلك بما يقارب (١٢٠) كلمة في الدقيقة[١٣]. وفي ظني أن هذا يختلف باختلاف الأصوات وطريقة الإلقاء، ولكل خطيب ما يناسبه.

ولو أسرع في بعض الجمل ليتمهل في كلمة منها بقصد لفت الانتباه إلى أهميتها، فذلك أسلوب من أساليب شد الانتباه، وقد كان بعض مشاهير خطباء الإفرنج ينطق بعدة كلمات بسرعة كبيرة حتى يصل إلى الكلمة أو العبارة التي يريد تأكيدها ثم يبطئ صوته عندها، ويضغط عليها[١٤].

---

(١٣) فن الخطابة، أنطوان القوال (ص٢٥).

(١٤) انظر: قواعد الخطابة لغلوش (١٨٤).

٦- أن يجتنب الخطيب ما قد يضايقه ويضعف صوته كالضغط على الحنجرة بأزرار الثوب، وإن كان ممن يحتاج إلى ماء لتقوية صوته فلا بأس أن يشرب قبل الخطبة أو في الجلسة بين الخطبتين أو حتى في الخطبة إن لم يخش انقطاع الأفكار، وانصراف المستمعين عنه.

وعلى كل حال فإنه ينبغي للخطيب العناية بما يكمل خطبته، ويجعلها مؤثرة في قلوب المستمعين، محصلة لمقاصدها التي شرعت من أجلها، كذلك ينبغي العناية بالصوت، والبحث عن الطريقة الإلقائية الملائمة له.

وتمرينات الحلق واللسان على الأساليب الخطابية مما يجب على الخطباء صرف الاهتمام له؛ فليس ذلك بأقل من الاهتمام بإعداد الخطبة موضوعاً ولغة وبلاغة ومعنى؛ إذ الصوت ناقل لها، وبجمال الإلقاء تكون الخطبة جميلة، وبرداءة الإلقاء تكون الخطبة رديئة، ولو كان إعدادها جيداً.

٤- الإشارة في الخطابة

المطلع على السنة النبوية وما تحويه من نصوص يدرك أهمية الإشارة في الإبانة عما في نفس الإنسان؛ فهي توضح الكلام، وتقربه لذهن السامع. بل ربما اكتفى الإنسان في بعض الأحيان بالإشارة عن الكلام؛ فيفهم من أرسلت إليه الإشارة ما أراد. والبكم الذين حرموا نعمة النطق يتفاهمون بينهم بالإشارة؛ حتى صارت لغة مشهورة لهم، يجتمعون فيتحدثون ويأنسون ويضحكون ولا صوت لهم، وإنما هي إشارات باليد، وتعبيرات بالوجه؛ فسبحان من علّم الإنسان ما لم يعلم، وسبحان الذي أحسن كل شيء خلقه!!

وقد قرأنا وسمعنا كثيراً من النصوص النبوية عن رسول الله صلى الله عليه وسلم وفيها: «وشبك بين أصابعه» «وأشار بيده» «وعقد الإبهام والتي تليها» «وفرّج بين إصبعين» «وجمع بين إصبعيه» «ورفع إصبعيه» «وأشار بكفه بخمس أصابع» «وفرّج بين أصابع يده اليمنى» «فأشار إلى القوم كلهم» «وأشار إلى مناط قلبه» «يشير إلى المشرق» «حتى طفق يشير إلينا» إلى غير ذلك من النصوص النبوية الكثيرة التي جاء فيها ما يوضح الكلام بالإشارة.

ومن كثرة ورودها في السنة النبوية بوّب بعض المحدثين بها نحو قولهم:

باب الإشارة في الصلاة، باب الإشارة في الطلاق، باب كراهية

إشارة اليد في السلام، باب من أجاب الفتيا بإشارة اليد والرأس، باب من أشار في صلاة إشارة تفهم عنه[١]، وغيرها من الأبواب التي بوّب بها المصنفون في كتبهم.

وهذا يدلك على كثرة استعمالها، وأنها تكاد تكون من طبيعة الإنسان، يستعين بها مع النطق للدلالة على ما يريد.

تعريف الإشارة الخطابية:

هي حركات تبدو من جسم الخطيب ووجهه ورأسه وجوارحه من شأنها تأييد الكلام الذي يتفوه به[٢].

أهميتها:

لا يكاد متحدث أن يستغني عنها حتى قال تمام بن أشرس: «لو كان ناطق يستغني بمنطقه عن الإشارة لاستغنى جعفر بن يحيى عن الإشارة كما استغنى عن الإعادة».

وحسن الإشارة من تمام حسن البيان باللسان، ولها في الخطابة شأن عظيم؛ لأنها تشارك النطق في نقل الفكر، وانفعالات الخطيب، متخذة البصر سبيلاً، فهي اللغة العمومية التي يفهمها كل إنسان، وما تحدثه من التأثير قد لا تأتي بمثله لغات العالم.

---

(١) انظر هذه الأبواب وغيرها في: صحيح البخاري كتاب السهو وكتاب الطلاق وكتاب العلم، وسنن أبي داود كتاب الصلاة، وجامع الترمذي كتاب الصلاة، وسنن النسائي كتاب الطلاق.

(٢) فن الخطابة وإعداد الخطيب للشيخ علي محفوظ ط دار الاعتصام (٦٧).

فهي ضرورية للخطيب، وبها يحرك الانتباه، ويصل إلى ما ينبغي من التأثير. والصوت وحده لا يكفي للإفادة والإقناع، والتعبير عن معاني اللذة والألم، والغضب والرضى، واليأس والرجاء، والاحتقار والتوقير، وما إلى ذلك ما لم تساعده حركات اليد، وملامح الوجه، وبريق العينين، وإشارة الطرف والحاجبين(٣).

قال الجاحظ: «والإشارة واللفظ شريكان، ونعم العون هي له، ونعم الترجمان هي عنه، وما أكثر ما تنوب عن اللفظ، وما تغني عن الخط، وبعد فهل تعدو الإشارة أن تكون ذات صورة معروفة، وحلية موصوفة، على اختلافها في طبقاتها ودلالاتها. وفي الإشارة بالطرف والحاجب وغير ذلك من الجوارح مرفق كبير، ومعونة حاضرة، في أمور يسترها بعض الناس من بعض، ويخفونها من الجليس وغير الجليس، ولولا الإشارة لم يتفاهم الناس معنى خاص الخاص، ولجهلوا هذا الباب البتة. ولولا أن تفسيرهذه الكلمة يدخل في باب صناعة الكلام لفسرتها لكم»(٤).

ومما يدل على أهميتها، وأنها تكاد تكون كالجبلة في الإنسان: أن أبا شمر القدري ـ وكان فصيحاً قوي الحجة ـ لا يستعمل الإشارة في

---

(٣) المصدر السابق، وانظر أيضاً: الخطابة للدكتور نقولا فياض ط دار الهلال بمصر سنة ١٩٣٠م (٥٥) والخطابة للشيخ أبي زهرة دار الفكر العربي ط الثانية ١٩٨٠م (١٥١).

(٤) البيان والتبيين (١/ ٧٨) ط دار الجيل تحقيق عبد السلام هارون.

حديثه، وإذا نازع لم يحرك يديه ولا منكبيه، ولم يقلب عينيه، ولم يحرك رأسه؛ حتى كأن كلامه إنما يخرج من صدع صخرة. وكان يقضي على صاحب الإشارة بالافتقار إلى ذلك، وبالعجز عن بلوغ إرادته، وكان يقول: ليس من حق المنطق أن تستعين عليه بغيره. ورغم ذلك كله فإنه لما ناظر إبراهيم بن سيار النظام فاضطره بالحجة، وبالزيادة في المسألة، حرك شمر يديه، وحلَّ حبوته، وخرج عمَّا اعتاد عليه، لما أخذ منه الحماس مأخذه في المناظرة[٥]، وربما أنه لم يشعر بفعله خلاف ما يرى!!

فوائد الإشارة:

للإشارة أثناء الحديث فوائد منها:

١- إعانة السامع على الفهم، وتقريب المعنى إليه.

٢- شد انتباه السامعين؛ فإن الخطيب إذا أومأ بيده، أو حرّك رأسه، أو شخص ببصره؛ انتبه إليه الغافل.

٣- أن الإشارة تساعد الخطيب على التنفس وإعلاء الصوت؛ ذلك أنها تساعد على إنماء الصدر، وإخراج الهواء كلما احتيج إلى رفع طبقة الصوت كما في حال الحماسة والغضب، ولا يستطيع المرء أن يتكلم بصوت عالٍ ويداه إلى جنبيه دون أن يحس ضيقاً وتعباً[٦].

---

(٥) انظر: المصدر السابق (١/ ٩١).

(٦) انظر: الخطابة د. نقولا فياض (٥٥).

٤- أنها تعين الخطيب على الجرأة ورباطة الجأش؛ فمخاوفه تتبدد مع حركته وإشارته، بشرط أن تكون الإشارة في موقعها الصحيح، متفقة مع ما يلقي من كلام.

أنواع الإشـــارة:

أولاً: الإشارة باليد والرأس:

وهي أكثر أنواع الإشارة استعمالاً، ويحسن بالرأس أن يحيد به صاحبه عن الانتصاب الزائد؛ حتى كأنه ينظر إلى السماء، وعن الانحناء المفرط، فإذا ما احتاج الخطيب إلى الإشارة برأسه؛ فلتكن معتدلـة، وموافقة لمقتضى الكلام. كذلك يحسن بالوجه أن يكون منفرج الأسارير، يعكس عواطف الخطيب؛ لبيان ثقته بما ينطق، وتأكيد صدقه فيه. وهذا يجعل السامعين يحتفون به، ويهتمون بخطبته، ويفهمون عنه[٧].

والإشارة باليد أكثر استعمالاً من غيرها، ولها شروط ذكرها المهتمون بالخطابة منها[٨]:

١- أن توافق المعنى فلا تكبر وتتسع عند الشرح الهادئ، ولا تكـون ضعيفة حال الحماس.

---

(٧) انظر: فن الخطابة، لأنطوان القوال ط كتاب القارئ، بيروت الطبعة الأولى ص(٢٦).

(٨) انظر: الخطابة د نقولا فياض ص(٥٧)، وفن الخطابة للقوال ص(٢٧)، وفن الخطابة د. أحمد محمد الحوفي ط الرابعة دار نهضة مصر، القاهرة ص(٣٠).

٢- أن تسبق الكلام ولا تأتي بعده.

٣- أن لا تخفي وجه المتكلم؛ لأن تعابير الوجه لها أثر على السامع.

٤- أن لا يكثر منها؛ لأن الإكثار منها عرضة لخروجها عن المعنى، وإذا كانت حركة بلا معنى عيّبت الخطيب، وأظهرته بمظهر المهرج، كما أن كثرتها قد تلهي الناس عن الاستماع إلى خطبته.

قال الجاحظ: «والمتكلم قد يشير برأسه ويده على أقسام كلامه وتقطيعه، ففرقوا ضروب الحركات على ضروب الألفاظ وضروب المعاني، ولو قبضت يده، ومنع حركة رأسه لذهب ثلثا كلامه»[٩].

ثانياً: الإشارة بالطرف والحاجب:

ومنه أيضاً حدة النظر، وتركيز البصر، ومن غير المستحب أن يطيل الخطيب النظر في وجوه سامعيه؛ لأنه إن فعل ذلك فقد يضطرب ويعيا، وربما نسي بعض ما يقول، أو انقطع حبل أفكاره؛ فارتج عليه. وقد قيل: «النظر في عيون الناس عيّ»[١٠] أي: يؤدي إلى العي والاضطراب.

ومن دواعي احترام الخطيب لدى سامعيه، واستمالة قلوبهم: العدل بينهم في تقسيم نظراته؛ فلا يخص به فئة دون أخرى، كما لو كان فيهم ذو وجاهة أو مال؛ فإن الناس يلاحظون ذلك، ولا يكون لجهة دون الجهة الأخرى.

---

(٩) البيان والتبيين (١/ ١١٩).

(١٠) فن الخطابة للقوال ص(٢٦).

كما أنه من غير المستحسن أن يكثر الخطيب من الالتفات كثرة تخرج عن المعتاد؛ لأن ذلك دليل على الارتباك، أو على العجلة في الخطاب. وإذا كان خطابه يصل إلى الناس عبر مكبر الصوت فإن كثيراً من كلامه لن يفهم؛ لأنه تارة يقترب من المكبر وتارة أخرى يبتعد عنه بسبب كثرة التفاته.

وينبغي أن يلاحظ الخطيب إن كان يقرأ من ورقة أن إشارة اليد غير ممكنة؛ لأنه ممسك بالورقة، فعليه أن يعوض ذلك بالطرف والنظر وتعابير الوجه، ولا يركز النظر في الورقة، بل يختلس النظر إليها اختلاساً، وذلك يكون بقراءة الورقة أكثر من مرة قبل اعتلاء المنبر؛ ليعلم ما فيها، وهذا يجعله لاينظر إلى الورقة كثيراً، بل يصرف أكثر نظره للسامعين.

ثالثاً: الإشارة بالمخاصر والعصي والقسي:

قال الجاحظ: «كانت العرب تخطب بالمخاصر، وتعتمد على الأرض بالقسي، وتشير بالعصي والقنا»(١١).

والمخاصر هي: ما يختصره الإنسان فيمسكه بيده من عصا أو مقرعة أو عكازة أو قضيب وغير ذلك.

وقد ثبت في أحاديث عدة أن النبي صلى الله عليه وسلم كان يتخذ

---

(١١) البيان والتبيين عن فن الخطابة للقوال ص(٢٧).

مخصرة من عصا أوقضيب أو نحوه(١٢).

ونقل الجاحظ قول عبد الملك بن مروان: «لو ألقيت الخيزرانة من يدي لذهب شطر كلامي. وأراد معاويـةُ سحبانَ وائلٍ على الكلام، وكان قد اقتضبه اقتضاباً ـ أي ارتجله من غير تهيئة ـ فلم ينطق حتى أتاه بمخصرة، فرطلها بيده فلم تعجبه حتى أتوه بمخصرة من بيته»(١٣).

وقد ورد أن النبي صلى الله عليه وسلم كان يتوكأ في خطبته على عصاً أو قوس(١٤)، وذكر ابن القيم رحمه الله تعالى أن ذلك كان قبل

---

(١٢) كما في حديث علي رضي الله عنه قال: كنا في جنازة في بقيع الغـرقـد فأتاني النبي صلى الله عليه وسلم فقعد وقعدنا حوله ومعه مخصرة فنكس، فجعل ينكت. . إلخ رواه البخاري في الجنائز (١٢٩٦)، ومسلم في الـقـدر (٦٦٧٣)، وكذلك حديث ابن مسعود رضي الله عنه في طعن النبي صلى الله عليه وسلم أصنام قريش عام الفتح عند الترمذي وقال: حسن صحيح (٣١٣٨) وحديث البراء بن عازب رضي الله عنه أن رجلاً كان جالساً عند النبي صلى الله عليه وسلم وعليه خاتم من ذهب وفي يد النبي صلى الله عليه وسلم مخصرة أو جريدة فضرب بها النبي صلى الله عليه وسلم أصبعه. . . رواه النسائي في الزينة. والأحاديث في ذلك كثيرة.

(١٣) البيان والتبيين (١/ ١١٩ ـ ١٢٠).

(١٤) كما في حديث الحكم بن حزن الكلفي رضي الله عنه وفيه قال: «شهدنا فيها ـ أي المدينة ـ الجمعة مع رسول الله صلى الله عليه وسلم فقام متوكئاً على عصا أو قوس. . .» رواه أبو داود (١٠٩٦) وحسنه الحافظ في التلخيص (٢/ ٦٥)، وورد في خطبة العيد حديث يزيد بن البراء عن أبيه: «أن النبي صلى الله عليه وسلم نُوِّل يوم العيد قوساً فخطب عليه» رواه أبو داود (١١٤٥).

أن يتخذ منبراً، وقال: «وكان في الحرب يعتمد على قوس، وفي الجمعة يعتمد على عصا»[١٥].

ولم أجد ما يدل على أنه كان يشير أثناء خطبته بالعصا أو القوس أو غيرهما؛ إنما ثبت ذلك عنه عليه الصلاة والسلام في غير الخطبة، وأما الخطبة فلم أقف على شيء يدل على ذلك، لكن هل يقال: إن الإشارة بالعصا ونحوها لمن يتوكأ عليها في خطبته عبادة تحتاج إلى دليل يدل عليها أم أن ذلك من الوسائل التي تعين الخطيب على إيصال خطبته إلى السامعين، ومطلوب من الخطيب اتخاذ الوسائل المعينة على ذلك؛ إذ مقصود الخطبة انتفاع السامع بها؟! هذا محل نظر وبحث واجتهاد، والأمر فيه واسع إن شاء الله تعالى.

عيوب الإشارة:

هذه العيوب التي سأذكرها سببها سوء استخدام الخطيب؛ مما يجعلها لا تحقق المقصود منها الذي هو تقريب المعاني، وشدّ السامع، ومن تلك العيوب:

١- الضعف، وذلك عندما لا تأتي مع المعنى ولا تدعمه.

٢- الإبهام، وذلك عندما يحتد الخطيب بلا سبب يوجب حدته، فيأتي بالإشارة في غير موقعها، فلا توافق معنى الجملة المنطوقة، وذلك يشوش على السامع؛ لمخالفة ما يسمع ـ وهو المنطوق ـ لما يرى ـ وهو الإشارة ـ.

---

(١٥) زاد المعاد (١/ ٤٢٩).

٣- المبالغة: وقد سبق التنبيه على ذلك فيما يشترط في الإشارة باليد.

ومما ينبغي الانتباه له أن الإشارة تختلف في كيفيتها وكمها ونوعها باختلاف المكان سعة وضيقاً، واختلاف الحاضرين قلة وكثرة، واختلاف الخطبة موضوعاً وطولاً وقصراً، واختلاف عادات الناس وأعرافهم ومدى تقبلهم لبعض أنواع الإشارة دون بعض.

فليست الإشارات في خطبة تحث على الجهاد، وتحمس على البذل والفداء، ومقابلة الأعداء، كإشارات خطبة وعظية ترقق القلوب، وتذكر بالآخرة، فخطبة الجهاد تستلزم إشارات حماسية قوية توافق الجمل الحماسية القوية.

وليست الخطبة في مكان ضيق، والحضور قليل، كالخطبة أمام حشود كثيرة من البشر، فالإشارة في المكان الضيق، وعند العدد القليل ينبغي أن تتوافق مع الصوت الذي ينبغي أن يكون هادئاً في مثل هذه الحالة. بخلاف الخطابة في الهواء الطلق أو في مسجد كبير أمام حشود كثيرة فإنها تستلزم حماساً، ورفع صوت، وبالتالي لابد أن يكون في الإشارة قوة وسرعة تناسب هذه الحالة.

والإشارة سواء كانت باليد أم بالرأس أم بالطرف أم بغير ذلك يجب أن تكون لآخر جملة أو كلمة قبل أن يسكت الخطيب؛ لأنه إن أتى بجملتين مختلفتين وكانت الإشارة للأولى منهما ألهت السامع عن الجملة الثانية، فكأنها تلغيها.

كما أنه من الضروري أن تتوافق ملامح الوجه مع معاني الخطبة

حماسة أو خشوعاً أو غضباً. . . لأن ذلك مما يعين على فهم الخطبة، ويجعل المسموع موافقاً للمشاهد.

وكل ذلك وغيره يدركه الخطيب بالتعلم والرياضة، وحضور خطب البارعين في الخطابة، ومحاولة اكتشاف أسباب تأثيرهم في النـاس، وتحريكهم للقلوب، والاستفادة من ذلك.

وبكل حال فإن أي عمل يعطيك من النتائج على قدر ما تبذل فيه من جهد، وليست الخطابة وفنونها خارج هذا القانون الكوني القدري. فما على الخطيب إلا أن يستعين بالله تعالى، ويسأله التوفيق، ويخلص النية في هذه المهمة الجليلة، ثم يتعلم ذلك، ويسعى في تحصيل الكمال فيه من الكتب المتخصصة في هذا المجال، ومن إخوانه الذين سبقوه وفاقوه، وليس عيباً أن يعترف المقصر بتقصيره، والجاهل بجهله؛ إنما العيب أن يظن الإنسان في نفسه الكمال، فيأنف من التعلم، وهو أهل للنقص، أو يرى أن الاشتغال بتعلم هذه الفنون اشتغال بما لا طائل من ورائه، ولا فائدة منه، أو هو اشتغال بما ليس مهمـاً عما هو مهم أو أهم منه.

وهذا ليس بصحيح؛ لأن من اعتلى المنبر فهو مطالب بأن يكون خطيباً، وأن يتعلم أساليب الخطابة، ويأخذ بالوسائل التي تؤثر في الناس.

ولن يطالب الخطيب بالإفتاء، أو فقه دقائق المسائل؛ لأن ذلك لأهل الفقه والفتيا. وفقه الخطيب لما يعينه في مهمته أهم وأولى من فقهـه لدقائق مسائل الفقه؛ وإن كانت الثانية أشرف من الأولى وأهم في الجملة.

وعدم إدراك هذه القضية أورث هذا الضعف في الخطابة، وجعل خطب الجمعة والعيد والاستسقاء مجرد واجب شرعي يؤدى بأية طريقة، ومن أي شخص، ولو لم يكن لذلك أهلاً!! وهذا حاد بالخطبة عن مقصودها الذي شرعت من أجله وهو هداية الناس وإصلاحهم وتذكيرهم.

ولو التزم الخطباء بأن يكونوا خطباء مؤثرين في الناس، مصلحين لهم، وكرسوا جهدهم في ذلك، وصرفوا جزءاً من وقتهم لتعلم فنون الخطابة، وما يلزم للتأثير على الناس؛ لما كان هذا حال منابر المسلمين اليوم، ولصلحت أحوال الناس، وقضي على كثير من المنكرات، ولأدى المنبر دوره في الإصلاح، ولحققت الخطبة المقصود الذي شرعت من أجله.

وكثيراً ما نشتكي ـ معشر الدعاة والخطباء ـ من تفشي المنكرات، وضعف إيمان الناس، ونسعى في إنكار المنكر بعد وقوعه ـ وذلك واجب ولا شك ـ ولكن لو أننا استطعنا إقناع الناس بترك المنكرات لما وُجد المنكر ابتداءً، ولو فعله بعض الناس لرأيت كثرة المنكرين عليه من الناس؛ مما يجعل أهل المنكرات نشازاً بين عموم الناس، خلافاً لواقع المسلمين اليوم؛ إذ أصبح كثير من المنكرات أساساً في حياة الناس، وصار من ينكر عليهم نشازاً بين الناس؛ مما أدى إلى غربة الدين وأهله المستمسكين به، ولا شك في أن الوقاية خير من العلاج.

وأقرب وسيلة إلى ذلك: خطبة الجمعة التي يتعبد الناس إلى الله تعالى بالإنصات لما يقول الخطيب، فما بقي إلا اهتمام الخطيب بها؛

لتكون مؤثرة فاعلة في الإصلاح. وهذا الاهتمام يشمل الاهتمام بإعدادها وصياغتها واختيار موضوعها، كما يشمل الاهتمام بإلقائها والتفاعل معها والتأثر بها، وتحريك القلوب بألفاظها ومعانيها. وعلى الخطيب مسؤولية كبيرة في ذلك، فهل يا ترى يؤدي الخطباء ما عليهم؟ ويدركوا حجم المسؤولية الملقاة على عواتقهم؟!

العقيدة

١- بداية الخلق والتكليف
٢- تقدير الرزق والأجل
٣- حكمة الله في خلقه وأمره
٤- عبادة التفكر
٥- الشمس آية من آيات الله
٦- من دلائل الربوبية إنزال المطر
٧- قدرة الله تعالى
٨- رحمة الله تعالى
٩- فضل لا إله إلا الله
١٠- الرضى بالله تعالى رباً
١١- تعظيم النصوص الشرعية
١٢- التوكل على الله تعالى
١٣- الإيمان بالغيب
١٤- خطورة الشرك
١٥- خطر السحر
١٦- الصابئة والمنجمون
١٧- التشاؤم بصفر
١٨- حكم سب الدهر
١٩- ظن السوء (١)
٢٠- ظن السوء (٢)
٢١- التشبه بالكفار
٢٢- عيد الألفية الثالثة
٢٣- من صفات المنافقين (١)
٢٤- من صفات المنافقين (٢)
٢٥- من بدع رجب (١)
٢٦- من بدع رجب (٢)
٢٧- الاحتفال بالمولد النبوي
٢٨- التحذير من الفتن

١- بداية الخلق والتكليف

٢٧/ ١٢/ ١٤٢٣هـ

الحمد لله، نحمده ونستعينه ونستغفره، ونعوذ بالله من شرور أنفسنا، ومن سيئات أعمالنا، من يهده الله فلا مضلّ له، ومن يضلل فلا هادي له، وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له، وأشهد أن محمداً عبده ورسوله.. ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ حَقَّ تُقَاتِهِ وَلَا تَمُوتُنَّ إِلَّا وَأَنْتُمْ مُسْلِمُونَ﴾ [آل عمران: ١٠٢]، ﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ اتَّقُوا رَبَّكُمُ الَّذِي خَلَقَكُمْ مِنْ نَفْسٍ وَاحِدَةٍ وَخَلَقَ مِنْهَا زَوْجَهَا وَبَثَّ مِنْهُمَا رِجَالًا كَثِيرًا وَنِسَاءً وَاتَّقُوا اللَّهَ الَّذِي تَسَاءَلُونَ بِهِ وَالْأَرْحَامَ إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلَيْكُمْ رَقِيبًا﴾ [النساء: ١]، ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَقُولُوا قَوْلًا سَدِيدًا (٧٠) يُصْلِحْ لَكُمْ أَعْمَالَكُمْ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ وَمَنْ يُطِعِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ فَقَدْ فَازَ فَوْزًا عَظِيمًا﴾ [الأحزاب: ٧٠, ٧١].

أما بعد: فإن أحسن الحديث كلام الله تعالى، وخير الهدي هدي محمد صلى الله عليه وسلم، وشر الأمور محدثاتها، وكل محدثة بدعة، وكل بدعة ضلالة، وكل ضلالة في النار.

أيها الناس: لكل بداية نهاية، ولكل أجل كتاب، وسنتنا هذه كان لها بداية، وها هي الآن تنتهي ليخلفها سنة أخرى تبتدئ ثم تنتهي، وكما كان للدنيا بداية قبل مئات السنين فإن لها أجلاً تنتهي عنده، لا يعلم حينه إلا الله تعالى.

وهذه الأرض وما يدب عليها من ملايين البشر والحيوان والوحش والطير، وما فيها من بحار وجبال وعمران، وحركة دائبة لا تتوقف؛

مضى أزمان لم تكن موجودة قبل خلق الله تعالى لها، ومضى عليها زمن بعد خلقها خالية من الأحياء التي تعمرها، وسيأتي على عمرانها يومٌ يعود خراباً كأن لم يكن من قبل؛ وذلك حينما يأذن الله تعالى بانتهاء أجلها، فتسجر بحارها، وتُسيرُ جبالها، وتتناثر كواكبها، وتُكورُ شمسها، ويخسف قمرها، وتنشق سماؤها، ويُبعث أحياؤها من بطنها للحشر والحساب والجزاء؛ لتكون نهاية المكلفين من الجن والإنس: الخلود في الجنة أو في النار.

إنها بدايات عجيبة، ونهايات أعجب، علمها العليم الحكيم، وقدرها اللطيف الخبير، في نظام بديع دقيق، ووفق حكمة بالغة.

إن مما يناسب الحديث عنه في نهاية عام وبداية آخر أن ننظر في بداية هذا الأمر كله: في بداية الخلق، وبداية الإنسان، وبداية التكليف، ثم انتهاء ذلك كله على وفق ما جاء في النصوص المعصومة من الكتاب والسنة، ومعرفة ذلك تعني معرفة أسباب وجودنا، وماذا يريد منا من أوجدنا من العدم، وربانا بالنعم، ثم ما هو مصيرنا ونهايتنا!! والعاقل من يسعى في صلاح ما يبقى، والأحمق من يقدم ما يفنى على ما يبقى؛ فلا ما يفنى بقي له، ولا هو أصلح ما يبقى.

إن علم بدايات الخلق والإنسان والتكليف، ومعرفة المرجع والمصير ليست عندنا ـ معاشر المسلمين ـ أوهاماً نتوهمها، أو تخيلاتٍ طرأت على عقولنا، أو توقعاتٍ أنتجتها أفكارنا، أو استجلبناها من بشر مثلنا. إنها حقائق من رب العالمين، ويقين مسطور في الكتاب والسنة، جاء

فيهما تفصيل البدايات والنهايات بما لا مجال فيه لمتوهم أو خراص أو كاهن أن يقولوا فيه قولاً؛ فالله تعالى هو الخالق، خلق خلقه لحكمة يريدها، ابتداهم وهو القادر على إعادتهم وبعثهم بعد موتهم، ﴿وَهُوَ الَّذِي يَبْدَأُ الْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُ وَهُوَ أَهْوَنُ عَلَيْهِ وَلَهُ الْمَثَلُ الْأَعْلَىٰ فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ﴾ [الروم: ٢٧]، وما من موجود علا قدره أو انخفض إلا وهو خَلْقٌ من خَلْقِ الله تعالى، وعبد من عبيده، شاء أم أبى.

وقد أخبر النبي صلى الله عليه وسلم عن بداية الخلق لما جاءه أهل اليمن فسألوه وقالوا: «جئناك لنتفقه في الدين ولنسألك عن أول هذا الأمر ما كان؟ فقال عليه الصَّلاة والسَّلام: **كان الله ولم يكن شيءٌ قبله، وكان عرشه على الماء، ثم خلق السموات والأرض، وكتب في الذكر كل شيء**» رواه البخاري[1].

وفي رواية له: «**كان الله ولم يكن شيءٌ غيره، وكان عرشه على الماء، وكتب في الذكر كل شيء، وخلق السموات والأرض**»[2].

---

(١) أخرجه من حديث عمران بن حصين رضي الله عنه البخاري في مواضع من صحيحه، وهذا اللفظ في التوحيد باب: وكان عرشه على الماء وهو رب العرش العظيم (٧٤١٨)، وأحمد (٤/ ٤٣١)، والطبراني في الكبير (١٨/ ٢٠٣ ـ ٢٠٤) بأرقام: (٤٩٧ ـ ٤٩٨ ـ ٤٩٩ ـ ٥٠٠)، والدارمي في الرد على الجهمية (١٤)، والبيهقي في السنن الكبرى (٩/ ٢)، وفي الأسماء والصفات (٤٨٩ ـ ٨٠٠).

(٢) هذه الرواية للبخاري في بدء الخلق باب ما جاء في قول الله تعالى: ﴿وَهُوَ الَّذِي يَبْدَأُ الْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُ وَهُوَ أَهْوَنُ عَلَيْهِ﴾ [الروم: ٢٧] (٣١٩١).

وأول شيء خلقه الله تعالى عرشه؛ كما جاء في صحيح مسلم من حديث عبدالله بن عمرو مرفوعاً قال: «**كتب الله مقادير الخلائق قبل أن يخلق السموات والأرض بخمسين ألف سنة، قال: وكان عرشه على الماء**»(٣)، فلما أراد سبحانه وتعالى تقدير كل شيء خلق القلم، وأمره بالكتابة؛ كما جاء في حديث عبادة بن الصامت رضي الله عنه قال: سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول: «**إن أول ما خلق الله تعالى القلم، فقال له: اكتب، قال: رب وماذا أكتب؟ قال: اكتب مقادير كل شيء حتى تقوم الساعة**» رواه أبو داود والترمذي ولفظه: «**اكتب القدر ما كان وما هو كائن إلى الأبد**»(٤).

---

(٣) أخرجه مسلم في القدر باب حجاج آدم وموسى عليهما السلام (٢٦٥٣)، والترمذي في القدر باب إعظام أمر الإيمان بالقدر (٢١٥٦).

(٤) أخرجه أبو داود في السنة باب القدر (٤٧٠٠)، والترمذي في القدر باب إعظام أمر الإيمان بالقدر (٢١٥٥)، وأحمد (٥/ ٣١٧).
وقد اختلف العلماء في أول المخلوقات على أقوال:
الأول: أن العرش هو أولها، ويدل عليه حديث عبد الله بن عمرو رضي الله عنهما المخرج في هامش (٣)، وهو قول الجمهور فيما نقله عنهم أبو العلاء الهمداني كما في العقيدة الطحاوية (٢٩٥)، والبداية والنهاية (١/ ٩) واختاره شيخ الإسلام ابن تيمية، وانتصر له بالأدلة والحجج في مجموع الفتاوى (١٨/ ٢١٣ ـ ٢١٦)، وابن القيم في اجتماع الجيوش الإسلامية (٩٩).
الثاني: أن أول المخلوقات القلم، ودليل هذا القول حديث عبادة بن الصامت المخرج آنفاً، ورجح هذا القول الطبري في تاريخه (١/ ٢٨ ـ ٢٩)، وهو ظاهر كلام ابن الجوزي في المنتظم (١/ ١٢١)، ورجحه الألباني في السلسلة الصحيحة (١/ ٢٠٧ ـ ٢٠٨) في تعليقه على الحديث رقم: (١٣٣). =

. . . .

= قال الطبري رحمه الله تعالى في تاريخه (١/ ٣٠): «وقول رسول الله صلى الله عليه وسلم الذي رويناه عنه أولى قول في ذلك بالصواب؛ لأنه كان أعلم قائل في ذلك قولاً بحقيقته وصحته، وقد روينا عنه عليه السلام أنه قال: «**أول شيء خلقه الله عزَّ وجلَّ القلم**» من غير استثناء منه شيئاً من الأشياء أنه تقدم خلق الله إياه خلق القلم، بل عم بقوله صلى الله عليه وسلم: «**إن أول شيء خلقه الله القلم**» كل شيء، وأن القلم مخلوق قبله من غير استثنائه من ذلك عرشاً ولا ماءً ولا شيئاً غير ذلك» ا هـ.

وقال الألباني مؤيداً لما قرره الطبري، وراداً على من قال بخلق العرش قبل القلم: «وفيه رد على من يقول بأن العرش هو أول مخلوق، ولا نص في ذلك عن رسول الله صلى الله عليه وسلم، وإنما يقول به من قال كابن تيمية وغيره استنباطاً واجتهاداً، فالأخذ بهذا الحديث ـ وفي معناه أحاديث أخرى ـ أولى؛ لأنه نص في المسألة، ولا اجتهاد في مورد النص كما هو معلوم، وتأويله بأن القلم مخلوق بعد العرش باطل؛ لأنه يصح مثل هذا التأويل لو كان هناك نص قاطع على أن العرش أول المخلوقات كلها ومنها القلم، أما ومثل هذا النص مفقود، فلا يجوز هذا التأويل» ا هـ من السلسلة الصحيحة (١/ ٢٠٨).

الثالث: أن أول شيء خلقه الله تعالى النور والظلمة، وهذا القول منسوب لابن إسحاق كما ذكر ذلك الطبري في تاريخه (١/ ٢٩)، وابن الجوزي في المنتظم (١/ ١٢١)، وقد رده الطبري بقوله: «وأما ابن إسحاق فإنه لم يسند قوله الذي قاله في ذلك إلى أحد؛ وذلك من الأمور التي لا يدرك علمها إلا بخبر من الله عزَّ وجلَّ أو خبر من رسول الله صلى الله عليه وسلم» ا هـ.

وقال ابن الجوزي: «ولا يقبل هذا مع الحديث المرفوع».

والذي يظهر رجحانه بجمع الأدلة، وتأمل ألفاظها القول الأول القاضي بأن العرش خلق قبل القلم؛ لظاهر حديث عبد الله بن عمرو رضي الله عنهما مع ظاهر حديث عبادة بن الصامت رضي الله عنه، ففي حديث عبد الله بن عمرو=

وجميع ما خلقه الله تعالى في السموات والأرض مما ينتفع به المكلفون فإنما خلقه الله سبحانه لأجلهم؛ كما قال عزَّ من قائل: ﴿وَسَخَّرَ لَكُم مَّا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الأَرْضِ جَمِيعًا مِّنْهُ﴾ [الجاثية: ١٣]، وفي الآية الأخرى: ﴿هُوَ الَّذِي خَلَقَ لَكُم مَّا فِي الأَرْضِ جَمِيعًا ثُمَّ اسْتَوَىٰ إِلَى السَّمَاءِ فَسَوَّاهُنَّ سَبْعَ سَمَوَاتٍ وَهُوَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ﴾ [البقرة: ٢٩].

وأما بداية البشرية فإن الله تعالى لما أراد خلق أصلهم أخبر ملائكته بذلك ﴿وَإِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلائِكَةِ إِنِّي جَاعِلٌ فِي الأَرْضِ خَلِيفَةً قَالُوا أَتَجْعَلُ فِيهَا

= بين أن التقدير كان قبل خلق السموات والأرض، وذكر فيه «**وكان عرشه على الماء**» وفي حديث عبادة ما يدل على أن التقدير كان فور خلق القلم؛ لأنه خلق للكتابة، فكان العرش بهذا الاعتبار سابقاً في الخلق على القلم، ويدل على ذلك أيضاً ظاهر حديث عمران بن حصين: «**كان الله ولم يكن شيء قبله، وكان عرشه على الماء**» فلا ذكر للقلم في ذلك، قال ابن القيم معلقاً عليه: «ولا يناقض هذا الحديث «**أول ما خلق الله القلم**»؛ لوجهين:

أحدهما: لأن الأولية راجعة إلى كتابته لا إلى خلقه، فإن الحديث: «**أول ما خلق الله القلم، قال له: اكتب، قال: ما أكتب؟ قال: اكتب ما هو كائن إلى يوم القيامة**».

والثاني: أن المراد أول ما خلقه الله من هذا العالم بعد خلق العرش، ويدل على سبق خلق العرش قوله في الحديث الثابت: «**قدر الله مقادير الخلائق قبل أن يخلق السموات والأرض بخمسين ألف سنة، وعرشه على الماء**» وقد أخبر أنه حين خلق القلم قدر به المقادير كما في اللفظ الآخر قال: «**اكتب، قال: ما أكتب؟ قال: اكتب القدر**» فهذا التقدير المؤقت قبل خلق العالم بخمسين ألف سنة، فثبت أن العرش سابق على القلم، والعرش كان على الماء قبل خلق السموات والأرض» اهـ. من اجتماع الجيوش الإسلامية (٩٩ ـ ١٠٠).

مَن يُفْسِدُ فِيهَا وَيَسْفِكُ الدِّمَاءَ وَنَحْنُ نُسَبِّحُ بِحَمْدِكَ وَنُقَدِّسُ لَكَ قَالَ إِنِّي أَعْلَمُ مَا لا تَعْلَمُونَ﴾ [البقرة: ٣٠]، خلق آدم من طين كما جاء في آيات كثيرة من القرآن، وهذا الطين كان قبضة قبضها الجبار جل وعلا من جميع الأرض كما قال النبي صلى الله عليه وسلم: «**إن الله خلق آدم من قبضة قبضها من جميع الأرض، فجاء بنو آدم على قدر الأرض، جاء منهم الأحمر والأبيض والأسود، وبين ذلك، والسهل والحَزَنُ، والخبيث والطيب**» رواه أبو داود والترمذي من حديث أبي موسى الأشعري رضي الله عنه، وقال الترمذي: حسن صحيح(٥).

وأكرم الله تعالى أصل البشر بأن نفخ فيه من روحه، وأمر ملائكته بالسجود له ﴿**إِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلائِكَةِ إِنِّي خَالِقٌ بَشَرًا مِّن طِينٍ (٧١) فَإِذَا سَوَّيْتُهُ وَنَفَخْتُ فِيهِ مِن رُّوحِي فَقَعُوا لَهُ سَاجِدِينَ (٧٢) فَسَجَدَ الْمَلائِكَةُ كُلُّهُمْ أَجْمَعُونَ (٧٣) إِلاَّ إِبْلِيسَ اسْتَكْبَرَ وَكَانَ مِنَ الْكَافِرِينَ (٧٤) قَالَ يَا إِبْلِيسُ مَا مَنَعَكَ أَن تَسْجُدَ لِمَا خَلَقْتُ بِيَدَيَّ أَسْتَكْبَرْتَ أَمْ كُنتَ مِنَ الْعَالِينَ (٧٥) قَالَ أَنَا خَيْرٌ مِّنْهُ خَلَقْتَنِي مِن نَّارٍ وَخَلَقْتَهُ مِن طِينٍ**﴾ [ص: ٧١-٧٦].

لقد استكبر إبليسُ على أمر ربه، واستحقر شأن آدم، وحسده على ما أكرمه الله تعالى به من الخلق، ونفخه الروح فيه؛ فأبى أن يسجد

---

(٥) أخرجه أحمد (٤/ ٤٠٠)، وأبو داود في السنة باب في القدر (٤٦٩٣)، والترمذي في التفسير باب ومن سورة البقرة (٢٩٥٥) وقال: حسن صحيح، وعبد بن حميد في المنتخب من مسنده (٥٤٨)، وصححه ابن حبان (٦١٦٠)، والحاكم ووافقه الذهبي (٢/ ٢٦١).

له، فحقت عليه لعنة الله تعالى، فأعلن عداوته لهذا المخلوق الجديد الذي طرد من الرحمة بسببه، وأقسم بعزة الله تعالى ليغوينه وذريته ﴿قَالَ رَبِّ بِمَا أَغْوَيْتَنِي لأُزَيِّنَنَّ لَهُمْ فِي الأَرْضِ وَلأُغْوِيَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ (٣٩) إِلاَّ عِبَادَكَ مِنْهُمُ الْمُخْلَصِينَ﴾ [الحجر: ٣٩-٤٠]، ﴿قَالَ فَبِمَا أَغْوَيْتَنِي لأَقْعُدَنَّ لَهُمْ صِرَاطَكَ الْمُسْتَقِيمَ (١٦) ثُمَّ لآتِيَنَّهُم مِّنْ بَيْنِ أَيْدِيهِمْ وَمِنْ خَلْفِهِمْ وَعَنْ أَيْمَانِهِمْ وَعَن شَمَائِلِهِمْ وَلاَ تَجِدُ أَكْثَرَهُمْ شَاكِرِينَ﴾ [الأعراف: ١٦-١٧].

إنه ابتلاء ابتلي به آدم عليه السلام، وابتليت به ذريته من بعده؛ لحكمةٍ يريدها الله تعالى وهو العليم الحكيم.

وبعد خلق آدم عليه السلام خلقت زوجه من ضِلَعه؛ كما جاء في الآية ﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ اتَّقُوا رَبَّكُمُ الَّذِي خَلَقَكُم مِّن نَّفْسٍ وَاحِدَةٍ وَخَلَقَ مِنْهَا زَوْجَهَا وَبَثَّ مِنْهُمَا رِجَالاً كَثِيرًا وَنِسَاءً﴾ [النساء: ١]، وثبت في الصحيح عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال: «**استوصوا بالنساء فإن المرأة خلقت من ضِلَعٍ، وإن أعوج شيء في الضلع أعلاه**»(٦).

أسكن الله تعالى آدم وزوجه جنته، وأباح لهما الأكل منها حيث شاءا إلا شجرة واحدة حرمها عليهما امتحاناً لهما، وكان إبليس ماضٍ فيما عزم عليه من إغواء آدم وذريته، وكان يعلم أن لوساوسه مدخلاً عليهم؛ لما رآه من طبيعة خلق أبيهم، وما فيه من مركب الشهوة؛ كما جاء في حديث أنس رضي الله عنه أن رسول الله صلى الله عليه وسلم

---

(٦) أخرجه من حديث أبي هريرة رضي الله عنه البخاري في الأنبياء باب خلق آدم وذريته (٣٣٣١)، ومسلم في الرضاع باب الوصية بالنساء (١٤٦٨).

قال: «**لما صورّ الله آدم في الجنة تركه ما شاء الله أن يتركه، فجعل إبليس يُطيفُ به، ينظر ما هو، فلما رآه أجوف عرف أنه خُلق خلقاً لا يتمالك**» رواه مسلم(٧)، والأجوف صاحب الجوف، وقوله: لا يتمالك: أي لا يملك نفسه ويحبسها عن الشهوات، وقيل: لا يملك دفع الوساوس عنه، والمراد جنسُ بني آدم(٨).

ولأجل ذلك فإن الله تعالى حذَّر آدم وحواء عليهما السلام أشد التحذير من عداوة إبليس ووسوسته، وجعل ثمن طاعتهما لأمر ربهما بعدم الأكل من الشجرة المنهي عنها: البقاء في الجنة، والتمتع بما فيها من خيرات، وبدأ إبليس ينفذ ما وعد من الوسوسة، وكانت تلك هي بداية تكليف آدمَ وحواء وامتحانهما ﴿**وَيَا آدَمُ اسْكُنْ أَنتَ وَزَوْجُكَ الْجَنَّةَ فَكُلا مِنْ حَيْثُ شِئْتُمَا وَلا تَقْرَبَا هَذِهِ الشَّجَرَةَ فَتَكُونَا مِنَ الظَّالِمِينَ**﴾ [الأعراف: ١٩]، ﴿**فَقُلْنَا يَا آدَمُ إِنَّ هَذَا عَدُوٌّ لَّكَ وَلِزَوْجِكَ فَلا يُخْرِجَنَّكُمَا مِنَ الْجَنَّةِ فَتَشْقَىٰ (١١٧) إِنَّ لَكَ أَلاَّ تَجُوعَ فِيهَا وَلا تَعْرَىٰ (١١٨) وَأَنَّكَ لا تَظْمَأُ فِيهَا وَلا تَضْحَىٰ**﴾ [طه: ١١٧-١١٩].

---

(٧) أخرجه مسلم في البر والصلة والآداب باب خلق الإنسان خلقاً لا يتمالك (٢٦١١)، وأحمد (٣/ ١٥٢ ـ ٢٢٩).

(٨) انظر: شرح النووي على صحيح مسلم (١٦/ ٢٤٨)، وجامع الأصول (٤/ ٣١)، وقال القرطبي في المفهم (٦/ ٥٩٦): «يعني: أن الله تعالى لما صور طينة آدم وشكلها بشكله على ما سبق في علمه فلما رآها إبليس أطاف بها، أي: دار حولها، وجعل ينظر في كيفيتها وأمرها، فلما رآها ذات جوف وقع له أنها مفتقرة إلى ما يسد جوفها، وأنها لا تتمالك عن تحصيل ما تحتاج إليه من أغراضها وشهواتها، فكان الأمر على ما وقع».

ولما كانت هذه النعم مشتهاة عند آدم وزوجه عليهما السلام، ويجدان فيها من اللذة ما كَمُلَ به نعيمهما فإنهما خشيا من زوالها، وتلك الشهوة كانت هي نقطة الضعف التي تسلل الشيطان من خلالها إلى قلبيهما ﴿فَوَسْوَسَ إِلَيْهِ الشَّيْطَانُ قَالَ يَا آدَمُ هَلْ أَدُلُّكَ عَلَىٰ شَجَرَةِ الْخُلْدِ وَمُلْكٍ لَّا يَبْلَىٰ ﴿١٢٠﴾ فَأَكَلَا مِنْهَا فَبَدَتْ لَهُمَا سَوْآتُهُمَا وَطَفِقَا يَخْصِفَانِ عَلَيْهِمَا مِن وَرَقِ الْجَنَّةِ وَعَصَىٰ آدَمُ رَبَّهُ فَغَوَىٰ﴾ [طه: ١٢٠-١٢١].

إنه وزوجه قد زلاً الزلة التي نهاهما عنها ربهما ولكن من رحمة الله تعالى بآدم وحواء وذريتهما من بعدهما أنهما لم يُصِرَّا على الخطيئة كما فعل إبليس، ولم يجادلا كما جادل؛ بل بادرا بالتوبة والاستغفار فور سؤال الرب تعالى لهما ﴿وَنَادَاهُمَا رَبُّهُمَا أَلَمْ أَنْهَكُمَا عَن تِلْكُمَا الشَّجَرَةِ وَأَقُل لَّكُمَا إِنَّ الشَّيْطَانَ لَكُمَا عَدُوٌّ مُّبِينٌ ﴿٢٢﴾ قَالَا رَبَّنَا ظَلَمْنَا أَنفُسَنَا وَإِن لَّمْ تَغْفِرْ لَنَا وَتَرْحَمْنَا لَنَكُونَنَّ مِنَ الْخَاسِرِينَ﴾ [الأعراف: ٢٢-٢٣]. فقبل أرحم الراحمين توبتهما، وعفا عنهما، وأهبطهما إلى الأرض كما أهبط إبليس، وجعل الأرض مقراً للبلاء والامتحان فترةً زمنية معدودة هي الحياة الدنيا، ﴿قَالَ اهْبِطُوا بَعْضُكُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ وَلَكُمْ فِي الْأَرْضِ مُسْتَقَرٌّ وَمَتَاعٌ إِلَىٰ حِينٍ﴾ [الأعراف: ٢٤].

وجرى قلم التكليف على ذرية آدم من بعده، وظل إبليس ينفذ وعده، ولا يزال يفعل، وسيظل إلى ما شاء الله تعالى، وانقسم بنو آدم إلى قسمين، وسلكوا طريقين لا ثالث لهما؛ فقسم منهم وهم الأقل سلكوا طريق أبيهم آدم عليه السلام؛ طريق الإيمان بالله تعالى، والتوبة

من الذنوب، والاعتراف بالخطأ. وهؤلاء يلحقون بأبيهم آدم في جنة الخلد برحمة الله تعالى لهم.

وأما القسم الآخر فاتبع طريق إبليس، وخضع لوساوسه، وأطاعه فيما أراد من الكفر والجحود والاستكبار عن عبادة الله تعالى؛ فمآلهم مآل إبليس اللعين، نعوذ بالله من حالهم ومآلهم، ونسأل الله تعالى أن يجنبنا طريقهم، وأن يسلك بنا طريق المرسلين، وأن يجعلنا من عباده الصالحين، إنه سميع مجيب.

وأقول قولي هذا وأستغفر الله لي ولكم...

الخطبة الثانية

الحمد لله حمداً طيباً كثيراً مباركاً فيه كما يحب ربنا ويرضى، أحمده وأشكره، وأتوب إليه وأستغفره، وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له، وأشهد أن محمداً عبده ورسوله، صلى الله وسلم وبارك عليه وعلى آله وأصحابه وأتباعه إلى يوم الدين.

أما بعد: فاتقوا الله تعالى وأطيعوه، واحذروا الذنوب؛ فإن أهل المعاصي جديرون بالعقوبة، وإن أهل الطاعة والاستغفار لحقيقون بالرحمة ﴿**اعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ شَدِيدُ الْعِقَابِ وَأَنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ**﴾ [المائدة: ٩٨].

أيها المسلمون: تنطوي قصة بداية الخلق، وبداية الإنسان، وبداية التكليف على دروس وعبر حقيق بالمسلم أن يتأملها، ويُنْعِمَ النظر فيها، ويتدبر النصوص التي عرضتها. ويتأكد ذلك في وقت التبس فيه الحق بالباطل عند كثير من الناس، وقوي فيه أنصار الشر، وكثرت أحزاب

الشيطان؛ لصرف الناس عن دينهم الذي ارتضاه الله تعالى لهم.

وكما ابتلي أبونا آدم عليه السَّلام بوساوس الشيطان فإننا لا ننفك عن الابتلاء بها، مع ما يقوم به شياطين الإنس من ضغوط ومضايقات لصرفنا عن الحق، ولا معصوم من الزلة والانحراف إلا من عصمه الله تعالى. وإذا اعتصم المؤمن بربه، واستعاذ به من الشيطان الرجيم، وسأل الله تعالى الثبات على الحق بقلب موقن مخلص فإن الله تعالى لا يخيبه، وسيكون الثبات والتوفيق حليفاً له.

وإذا ما زلَّ في حال غفلة وجهل تذكر زلة أبيه آدم عليه السَّلام من قبل، وعمل مثل ما عمل، فبادر بالتوبة والاستغفار، وهرع إلى الله تعالى طالباً الرحمة والمغفرة، وخاف من الإصرار على الذنب، والاستكبار عن التوبة؛ لئلا يكون مصيره مصيرَ إبليس اللعين.

وقد يستهين العبد بذنب استصغره فأصر عليه فأورده المهالك، وختم له بالسوء على أثره، وما أُهبط آدم من الجنة إلا بسبب معصيةٍ واحدةٍ كان في غنىً عنها، وكانت هذه المعصية سبباً لابتلائه وابتلاء ذريته من بعده على وفق حكمة أرادها الله تعالى، قال إبراهيم بن أدهم رحمه الله تعالى: «لقد أورثتنا تلك الأكلة حزناً طويلاً»[٩].

إن قصة بداية الخلق لتدل على قدرة الخالق وعظمته، واستحقاقه أن يفرد بالعبادة دون ما سواه. فهذه الأحياء المتكاثرة على الأرض، في البر والبحر والجو، وهذا العمران العريض في الأرض، وما في

(٩) معالم التنزيل للبغوي (١/ ٨٤).

السماء من عجائب الأفلاك والأنجم؛ كل ذلك مضى عليه أزمانٌ لم يكن موجوداً، فأوجد الخالق سبحانه كل ذلك، ودبره أحسن تدبير، وسيره في نظام دقيق عجيب، وجعل له أجلاً ونهاية.

وهكذا البشرية التي تزخر الأرض بهم، ويتكاثر عددهم حتى بلغوا المليارات كانوا من نسل رجلٍ واحد، فتكاثروا بأمر الله تعالى وتقديره حتى بلغوا ما ترون، ويخلف الأمواتَ منهم أحياءٌ يعمرون الأرض إلى أن يأذن الله تعالى بانتهاء ذلك. وقد مضى حينٌ من الزمن لم يكن هناك أي بشر ﴿**هَلْ أَتَىٰ عَلَى الإِنسَانِ حِينٌ مِّنَ الدَّهْرِ لَمْ يَكُن شَيْئًا مَّذْكُورًا ﴿١﴾ إِنَّا خَلَقْنَا الإِنسَانَ مِن نُّطْفَةٍ أَمْشَاجٍ نَّبْتَلِيهِ فَجَعَلْنَاهُ سَمِيعًا بَصِيرًا ﴿٢﴾ إِنَّا هَدَيْنَاهُ السَّبِيلَ إِمَّا شَاكِرًا وَإِمَّا كَفُورًا**﴾ [الإنسان: ٣].

إنه يجب علينا ـ أيها الأخوة ـ أن نفطن لأمر مهم جداً في قصة بداية الخلق، وهو ما منَّ الله تعالى به على آدم لما وقع في الخطأ، وأكل من الشجرة؛ إذ بادر بالتوبة، ولم يسلك مسلك إبليس الذي استكبر وجادل وخاصم، فكانت هذه التوبة من آدم نعمة من الله تعالى وفضلاً عليه أخرجه بها من غضبه إلى رحمته، وكانت لولده من بعده إذا استزلتهم الشياطين؛ فأبواب التوبة أمامهم مفتوحة. فهل نحن أهلٌ لشكر المنعم سبحانه وتعالى على هذه النعمة العظيمة بلزوم التوبة، وكثرة الاستغفار؟!

وثمة نعمة عظيمة أخرى اختص الله تعالى بها هذه الأمة التي تدين بدين محمد صلى الله عليه وسلم، تلك هي نعمةُ معرفة قصة بداية الخلق، وبداية الإنسان، وبداية التكليف، ونهايات ذلك كله؛

فأمم الأرض من غير المسلمين تتخبط في ذلك كله بين أقوال أهل الكتاب التي داخلها من التحريف ما أفسدها، وبين أوهام الفلاسفة والمنظرين والكهان والعرافين والمنجمين.

ولقد كانت هذه القضية ـ أعني معرفة البداية والنهاية ـ سبباً في انتحار كثير من غير المسلمين، وشقاء الباقين منهم، وحيرتهم في أمرهم ومصيرهم، وقد هدى الله تعالى المسلمين إلى معرفة ذلك عن طريق الوحي الذي تكفل الله تعالى بحفظه؛ فتجد الشيخ المسلم الكبير العامي الأمي يعرف ذلك تمام المعرفة على وجه الإجمال، كما تجد الطفل الصغير في مجتمعات المسلمين يفهم ذلك ويتصوره، وقد عجز عن معرفته كبار النُظَّار والفلاسفة من غير المسلمين، فاللهم لك الحمد على نعمة الإسلام، وعلى نعمة القرآن، ونسألك اللهم الثبات على الحق إلى الممات.

وكما كان عامنا هذا بالأمس يبتدي ها هو ينتهي، وكما كان للدنيا بداية فإن لها نهاية، وكما يولد الإنسان فإنه يموت، وإذا مات الميت قامت قيامته؛ فاعتبروا ـ يا عباد الله ـ واتعظوا، وأحسنوا أعمالكم تحسن خواتمكم، اللهم اختم عامنا هذا بخير، واخلفه علينا بخير، واجعلنا فيه من المقبولين، واحفظ علينا ديننا وأمننا إنك سميع مجيب.

اللهم صل على محمد وعلى آل محمد كما صليت على إبراهيم وعلى آل إبراهيم إنك حميد مجيد، وبارك على محمد وعلى آل محمد كما باركت على إبراهيم وعلى آل إبراهيم إنك حميد مجيد.

٢- تقدير الرزق والأجل

الجمعة ٢٠/ ٢/ ١٤٢٣هـ

الحمد لله ﴿خَلَقَكُم مِّن طِينٍ ثُمَّ قَضَىٰ أَجَلاً وَأَجَلٌ مُّسَمًّى عِندَهُ ثُمَّ أَنتُمْ تَمْتَرُونَ (٢) وَهُوَ اللَّهُ فِي السَّمَوَاتِ وَفِي الأَرْضِ يَعْلَمُ سِرَّكُمْ وَجَهْرَكُمْ وَيَعْلَمُ مَا تَكْسِبُونَ﴾ [الأنعام: ٢ ـ ٣]، أحمده وأشكره، وأتوب إليه وأستغفره، وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له ﴿يُدَبِّرُ الأَمْرَ مَا مِن شَفِيعٍ إِلاَّ مِنْ بَعْدِ إِذْنِهِ ذَلِكُمُ اللَّهُ رَبُّكُمْ فَاعْبُدُوهُ أَفَلا تَذَكَّرُونَ﴾ [يونس:٣].

وأشهد أن محمداً عبدالله ورسوله؛ أرسله بالهدى ودين الحق ليظهره على الدين كله ولو كره المشركون، صلى الله وسلم وبارك عليه وعلى آله وأصحابه وأزواجه وأتباعه إلى يوم الدين.

أما بعد: فأوصيكم ـ أيها الناس ـ ونفسي بتقوى الله عزَّ وجلَّ، فاتقوه حق التقوى، وأصلحوا سركم تصلح علانيتكم، واهتموا بآخرتكم يكفكم الله أمر دنياكم.

أيها الإخوة المؤمنون: خلق الله تعالى الخلق، وأجرى فيهم أمره، وقضى فيهم بحكمه، وسيرهم على مقتضى حكمته ورحمته، وأرسل إلى المكلفين منهم رسله، وأنزل عليهم كتبه، وهداهم صراطه المستقيم. فمنهم من قبل هدى الله تعالى، وشرف بعبوديته؛ فكان له الشرف الأسنى في الدنيا والآخرة. ومنهم من رفض شريعة الله تعالى استكباراً وعناداً؛ فما أوبق إلا نفسه، ولن يضر الله تعالى شيئاً.

وتدبير الله تعالى للمخلوقات هو أمر من الله تعالى على وفق حكمته،

وهو رحمة منه سبحانه بعباده؛ إذ لو وكل تدبير شؤون الخلق إليهم لضاعوا وأضاعوا، وهلكوا وأهلكوا ﴿لَوْ كَانَ فِيهِمَا آلِهَةٌ إِلاَّ اللَّهُ لَفَسَدَتَا فَسُبْحَانَ اللَّهِ رَبِّ الْعَرْشِ عَمَّا يَصِفُونَ (٢٢) لا يُسْأَلُ عَمَّا يَفْعَلُ وَهُمْ يُسْأَلُونَ﴾ [الأنبياء: ٢٢ ـ ٢٣].

أرأيتم لو أن أرزاق الناس وآجالهم بيد بشر منهم، فكم يحصل في الأرض من الظلم والبغي والفساد؟! ما ترك الله تعالى ذلك للخلق، ولو تُرك إليهم إذاً لظلم بعضهم بعضاً، ونسي بعضهم بعضاً، وغفل بعضهم عن بعض، فأرزاق الناس وآجالهم بيد من لا يظلم ولا ينسى ولا يغفل، جلَّ ثناؤه، وتقدست أسماؤه، سبحانه وبحمده.

روى الشيخان من حديث عبد الله بن مسعود رضي الله عنه قال: حدثنا رسول الله صلى الله عليه وسلم وهو الصادق المصدوق قال: **«إن أحدكم يُجمع في بطن أمه أربعين يوماً، ثم علقةً مثل ذلك، ثم يكون مضغةً مثل ذلك، ثم يبعث الله ملكاً فيؤمر بأربع كلمات: برزقه وأجله وشقي أو سعيد...»**[1].

وفي لفظ آخر عن ابن مسعود رضي الله عنه أن الملك يسألُ الله عزّ وجلّ فيقول: **«يا رب، ذكر أم أنثى؟ فيقضي ربك ما يشاء، ويكتبُ**

---

(١) أخرجه البخاري في القدر باب في القدر (٦٥٩٤)، واللفظ له، ومسلم في القدر باب: كيفية خلق الآدمي (٢٦٤٣)، وأبو داود في السنة باب في القدر (٤٧٠٨)، والترمذي في القدر باب ما جاء: إن الأعمال بالخواتيم (٢١٣٧)، وابن ماجه في المقدمة باب في القدر (٧٦)، وأحمد (١/ ٣٨٢).

الملك، ثم يقول: يا رب، أجلُه؟ فيقضي ربك ما يشاء، ويكتبه الملك، ثم يقول: يا رب، رزقه؟ فيقضي ربك ما يشاء، فيأخذ الملك بالصحيفة في يده، فلا يُزاد في أمر ولا يُنقص» رواه مسلم(٢).

وفي حديث أنس رضي الله عنه عن النبي صلى الله عليه وسلم قال: «**وكل الله بالرحم ملكاً فيقول: أيْ رب نطفة، أي رب علقة، أي رب مضغة، فإذا أرد الله أن يقضي خلقها قال: أَي رب ذكر أم أنثى، أشقي أم سعيد؟ فما الرزق، فما الأجل؟ فيُكتب كذلك في بطن أمه»**(٣).

فقضية الآجال والأرزاق محسومة، لا يزاد فيها، ولا ينقص منها، ولن يموت حيٌ حتى يستكمل ماله من رزقٍ وماله من عمر.

وبناء على تدبير الحكيم الخبير لخلقه، وقسمته لأرزاقهم، وضربه لآجالهم فإن الخلق متفاوتون في الرزق وفي الأجل وفي العمل؛ كما قال النبي صلى الله عليه وسلم: «**الناس أربعة، والأعمال ستة: موجبتان، ومثل بمثل، وحسنة بعشر أمثالها، وحسنة بسبع مئة ضعف، والناس موسَّعٌ عليه في الدنيا والآخرة، وموسَّعٌ عليه في الدنيا مقتورٌ عليه في الآخرة، ومقتورٌ عليه في الدنيا موسَّع عليه في الآخرة، ومقتور عليه في الدنيا والآخرة. وشقي في الدنيا وشقي في الآخرة»** رواه أحمد

---

(٢) هذه الرواية أخرجها مسلم في القدر باب: كيفية خلق الآدمي (٢٦٤٥)، وأحمد (٤/ ٦)، واللاكائي في أصول اعتقاد أهل السنة (١٠٤٧)، وابن حبان (٦١٧٧).

(٣) أخرجه البخاري في القدر باب في القدر (٦٥٩٥)، ومسلم في القدر باب كيفية خلق الآدمي (٢٦٤٦).

وصححه ابن حبان من حديث خريم بن فاتك الأسدي رضي الله عنه[٤].

إن العبدَ إذا أيقن بأن الأجل محدد، وأن الرزق مقدر، واطمأن قلبه بذلك؛ فإنه لن يجزع من فقر أصابه، أو جائحة أتلفت ماله، ولن يشغل نفسه بالدنيا عن عمل الآخرة؛ لأنه يعلم أنه مهما سعى واجتهد وأجهد نفسه فلن يكتسب إلا ما كتب له. والمؤمن الحق الذي يفهم قضية الرزق فهماً صحيحاً لن تستشرف نفسه ما في أيدي الناس، ولن تتطلع عينه على ما في خزائنهم، ولن تمتد يده إلى ما حرم الله تعالى عليه مهما كلف الأمر؛ لعلمه أن الذي خلقه سيرزقه، ولن يبث شكايته للناس؛ لعلمه أنهم لا يرزقون أنفسهم فضلاً عن أن يرزقوا غيرهم، ومن أخلَّ بذلك فهو ضعيف الإيمان، ولا سيما إذا كان يقرأ ويفهم قول الله تعالى: ﴿ **وَمَا من دَابَّة في الأَرْضِ إلاَّ عَلَى اللَّه رزْقُهَا ويَعْلَمُ مُسْتَقَرَّهَا وَمُسْتَوْدَعَهَا كُلٌّ في كتَاب مُّبينٍ** ﴾ [هود:٦].

لقد حذَّرنا النبي صلى الله عليه وسلم من أن تتعلق قلوبنا بتحصيل أرزاقنا فننسى الله تعالى والدار الآخرة، ونُشْغَل عن العمل الصالح بالجمع والتحصيل، والعد والتنمية، ولربما شحت نفوسنا عن أداء حق الله تعالى في أموالنا، أو امتدت أيدينا إلى ما لا يحل لنا؛ فنكون كالذي يأكل ولا يشبع، ويجمع ولا ينتفع! نعوذ بالله من نفوس لا تشبع،

---

(٤) أخرجه أحمد (٤/ ٤٢٢)، والترمذي في فضائل الجهاد باب فضل النفقة في سبيل الله (١٦٢٥)، وابن حبان واللفظ له (٦١٧١)، والطبراني في الكبير (٤١٥٥)، والحاكم وصححه، ووافقه الذهبي (٢/ ٨٧)، وحسنه الترمذي.

ومن قلوب لا تخشع.

وما كان هذا التحذيرُ منه عليه الصلاة والسلام إلا لأن الإنسان بطبعه همَّام جمَّاع، يُهمه رزقه، ويحب جمع ما فضل عن حاجته، قال عليه الصلاة والسلام: «**أجملوا في طلب الدنيا فإن كلاً ميسر لما كتب له منها**» رواه ابن ماجه والحاكم من حديث أبي حميد الساعدي رضي الله عنه(٥).

وعن جابر بن عبد الله رضي الله عنهما أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال: «**لا تستبطئوا الرزق فإنه لم يكن عبدٌ ليموت حتى يبلغ آخر رزقٍ هوَ له، فأجملوا في الطلب: أخذ الحلال وترك الحرام**» صححه ابن حبان والحاكم(٦).

وعن ابن مسعود رضي الله عنه أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال: «**ليس من عمل يقرب إلى الجنة إلا قد أمرتكم به، ولا عمل يقرب إلى النار إلا قد نهيتكم عنه، لا يستبطئن أحدٌ منكم رزقه، إن جبريل**

(٥) أخرجه ابن ماجه في التجارات باب الاقتصاد في طلب المعيشة (٢١٤٢)، وابن أبي عاصم في السنة (٤١٨)، والبيهقي (٥/ ٢٦٤)، وأبو نعيم في الحلية (٣/ ٢٦٥) والحاكم وقال: صحيح على شرطهما (٢/ ٣) وتعقبه الألباني فقال: «إنما هو على شرط مسلم وحده...» انظر: السلسلة الصحيحة (٨٩٨).

(٦) أخرجه ابن ماجه في التجارات باب الاقتصاد في طلب المعيشة (٢١٤٤)، وأبو نعيم في الحلية (٣/ ١٥٦)، والبيهقي في الكبرى (٥/ ٢٦٤)، وصححه ابن حبان (٣٢٣٩ ـ ٣٢٤١)، والحاكم وقال: صحيح على شرط الشيخين، ووافقه الذهبي (٢/ ٤).

عليه السلام ألقى في رُوعي أن أحداً منكم لن يخرج من الدنيا حتى يستكمل رزقه، فاتقوا الله أيها الناس، وأجملوا في الطلب فإن استبطأ أحد منكم رزقه فلا يطلبه بمعصية الله؛ فإن الله لا يُنال فضله بمعصيته» رواه الحاكم(٧).

ما هو واقع المسلمين في هذا العصر من هذه النصوص المحكمة؟ وما مدى عملهم بها؟!

إن بينهم وبينها لمفازة واسعة، وبوناً شاسعاً، إلا من رحم الله تعالى وقليل ما هم.

إن همَّ الرزق قد أكل قلوبهم، وسيطر على عقولهم، وعطلوا من أجله ما كُلفوا به، وهم قد كُفوه.

لقد اعتادوا على مستوى من العيش فيه من السرف ما فيه، في مآكلهم ومشاربهم ومراكبهم وملابسهم ومساكنهم، وكثير من متطلباتهم لا تصل إلى مستوى الحاجات فضلاً عن الضرورات، وأكثرها من

---

(٧) أخرجه ابن أبي شيبة في مصنفه (٧/ ٧٩) برقم: (٣٤٣٣٢)، والقضاعي في مسند الشهاب (١١٥١)، والحاكم (٢/ ٥)، وأخرجه عبد الرزاق في مصنفه عن معمر عن عمران مرسلاً (٢٠١٠٠)، وأخرجه الطبراني في الكبير (٨/ ١٩٤) برقم: (٧٦٩٤)، وابن عبد البر في التمهيد (٢٤/ ٤٣٥) من حديث أبي أمامة رضي الله عنه، وأخرجه الشافعي في مسنده من حديث عبد العزيز بن محمد عن عمرو بن أبي عمرو مولى المطلب عن المطلب بن حنطب أن النبي صلى الله عليه وسلم قال: .... فذكره (ص٢٣٣)، وصححه الألباني في صحيح الجامع من حديث أبي أمامة رضي الله عنه (٢٠٨٥).

التحسينات والكماليات، وما هو دونها مما يصل بصاحبه إلى حد الإسرافِ المذموم، وأضحى الواحد منهم يشكو من قلةِ دخله ولو كان كثيراً، ومن كثرة مصروفاته ولو كان أكثرها ليس محتاجاً إليه.

وفي الناس من الهلع والجزع ما فيهم؛ نتيجةً لتردي أحوال الاقتصاد العالمي، وكلما سمعوا خبراً عن مشكلةٍ اقتصادية، أوخسارة أسهم أو شركات كادت قلوبهم أن تنخلع، وعقولهم أن تطير؛ خوفاً من امتداد ضرر ذلك ووصولِهِ إليهم، ولو أن إيمانهم بأن الرزق من عند الله تعالى كان قوياً، وأن الوجودَ خاضع لأمره وقضائه، وسائرٌ على وفق سننه وحكمته لما أهمتهم قضية الرزق أصلاً، ولما شُغِلوا بالدنيا عن الآخرة.

وكما قيل في الرزق يُقال في الأجل، ﴿ فَإِذَا جَاءَ أَجَلُهُمْ لا يَسْتَأْخِرُونَ سَاعَةً وَلا يَسْتَقْدِمُونَ ﴾ [الأعراف: ٣٤].

ولما أصابَ المسلمين ما أصابهم في أحد من المصيبة والقتل، وأظهر المنافقون مقولاتهم المرجفة وقالوا: ﴿ لَوْ كَانَ لَنَا مِنَ الأَمْرِ شَيْءٌ مَّا قُتِلْنَا هَا هُنَا ﴾ [آل عمران: ١٥٤]. كان الجواب: ﴿ قُل لَّوْ كُنتُمْ فِي بُيُوتِكُمْ لَبَرَزَ الَّذِينَ كُتِبَ عَلَيْهِمُ الْقَتْلُ إِلَىٰ مَضَاجِعِهِمْ ﴾ [آل عمران: ١٥٤].

ولما فرض الله تعالى الجهاد على المؤمنين وقال من قال منهم: ﴿ لِمَ كَتَبْتَ عَلَيْنَا الْقِتَالَ لَوْلا أَخَّرْتَنَا إِلَىٰ أَجَلٍ قَرِيبٍ ﴾ [النساء: ٧٧]، قال الله تعالى: ﴿ قُلْ مَتَاعُ الدُّنْيَا قَلِيلٌ وَالآخِرَةُ خَيْرٌ لِّمَنِ اتَّقَىٰ وَلا تُظْلَمُونَ فَتِيلاً (٧٧) أَيْنَمَا تَكُونُوا يُدْرِككُّمُ الْمَوْتُ وَلَوْ كُنتُمْ فِي بُرُوجٍ مُّشَيَّدَةٍ ﴾ [النساء: ٧٧-٧٨].

وروى الترمذي وصححه من حديث أبي عزة يسار بن عبدٍ رضي الله عنه قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: «**إذا قضى الله لعبدٍ أن يموت بأرض جعل له إليها حاجة**» أو قال: «**جعل له بها حاجة**»(٨).

فلا يملك الأجل إلا الله، ولا يرزق الأحياء إلا اللهُ، ولن تموت نفسٌ حتى تستكمل رزقها وأجلها، إنها جُمَلٌ مفيدةٌ ويسيرةٌ ومفهومة، يفهمها العاميُّ من المسلمين، وقد أفنى كبارُ الفلاسفة والنُظَّار أعمارهم في فهمها وما فهموها، وقضى كثير من الأطباء القدماء حياتهم في البحث عن إكسير الحياة، وعلاجٍ للموت، فما وجدوا للحياة إكسيراً، ولا للموت دفعاً.

ورغم ما وصلت إليه البشرية من تقدم وعمران، وما تفرزه كل يوم من عجائب وبحوثٍ، ودراسات متخصصة في الطب والاقتصاد وسائر التخصصات؛ فإن بحوثهم ودراساتهم تقف عاجزة عند قضيتي الرزق والأجل؛ فذلك ليس للبشر وإنما هو من خصائص رب العالمين،

---

(٨) أخرجه الترمذي في القدر باب ما جاء أن النفس تموت حيث ما كتب لها، وقال: هذا حديث صحيح، وأبو عزة له صحبة اسمه يسار بن عبد (٢١٤٧)، والحاكم وقال: هذا حديث صحيح ورواته عن آخرهم ثقات (١/ ٤٣)، وقال الذهبي: رواته ثقات.

وله شاهد من حديث مطر بن عُكَامِس رضي الله عنه أخرجه الترمذي وقال: هذا حديث حسن غريب ولا نعرف لمطر بن عكامس عن النبي صلى الله عليه وسلم غير هذا الحديث (٢١٤٦). والحاكم وقال: صحيح على شرط الشيخين (١/ ٤٣).

وخالقِ الناس أجمعين. به آمنا، وعليه وتوكلنا، ولا حول لنا ولا قوة إلا به.

أعوذ بالله من الشيطان الرجيـم: ﴿ يَا عِبَادِيَ الَّذِينَ آمَنُوا إِنَّ أَرْضِي وَاسِعَةٌ فَإِيَّايَ فَاعْبُدُونِ (٥٦) كُلُّ نَفْسٍ ذَائِقَةُ الْمَوْتِ ثُمَّ إِلَيْنَا تُرْجَعُونَ (٥٧) وَالَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَنُبَوِّئَنَّهُم مِّنَ الْجَنَّةِ غُرَفًا تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا نِعْمَ أَجْرُ الْعَامِلِينَ (٥٨) الَّذِينَ صَبَرُوا وَعَلَىٰ رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ (٥٩) وَكَأَيِّن مِّن دَابَّةٍ لَّا تَحْمِلُ رِزْقَهَا اللَّهُ يَرْزُقُهَا وَإِيَّاكُمْ وَهُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ ﴾ [العنكبوت: ٥٦ - ٦٠]. بارك الله لي ولكم في القرآن العظيم....

الخطبة الثانية

الحمد لله، حمداً طيباً كثيراً مباركاً فيه كما يحب ربنا ويرضى، أحمده وأشكره، وأتوب إليه وأستغفره، وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له، وأشهد أن محمداً عبده ورسوله، صلى الله وسلم وبارك عليه وعلى آله وأصحابه ومن اهتدى بهداهم إلى يوم الدين.

أما بعد: فاتقوا الله ـ عباد الله ـ فإن التقوى من أسباب حصـول الرزق، وحفظ العبد في الدنيا والآخرة ﴿ وَمَن يَتَّقِ اللَّهَ يَجْعَل لَّهُ مَخْرَجًا (٢) وَيَرْزُقْهُ مِنْ حَيْثُ لا يَحْتَسِبُ وَمَن يَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ فَهُوَ حَسْبُهُ إِنَّ اللَّهَ بَالِغُ أَمْرِهِ قَدْ جَعَلَ اللَّهُ لِكُلِّ شَيْءٍ قَدْرًا ﴾ [الطلاق: ٢ -٣] .

أيها الإخوة فـي الله: لما كان المسلمون قائمين بأمر الله تعـالـى، مشتغلين بنشر دينه، موقنين بأن الرزق لا يعجله حرصُ حريص، ولا يؤخره كراهية كاره، وأن الموت لا يتقدم إلى مجاهد عن قاعد، ولا

يتأخر عن آمن إلى خائف، لما كانوا كذلك ما كان جيشٌ يقف أمامهم، ولا قوة تعرقل زحفهم؛ لأنهم يطلبون الموت كما يطلب أعداؤهم الحياة، ويبذلون أموالهم فداءً لدينهم.

قدَّم أبو بكر ماله كله، وقدَّم عمر نصف ماله، وجهز عثمان جيش العسرة، ومات خالدٌ ولم يترك إلا القليل من المال، رضي الله عنهم وأرضاهم، وتوفي صلاح الدين رحمه الله تعالى وما ورَّثَ إلا بضعة دراهم، وغيرهم كثير؛ كانوا ينفقون في سبيل الله تعالى ولا يخافون الفقر، أرأيتم لو أن قضية الرزق شغلتهم، وأنهم خافوا على أولادهم الفقر والعيلة أكانوا يفعلون ذلك؟!

وقتل في أحد سبعون من خيار الصحابة رضي الله عنهم وأرضاهم، وقضى أبو أيوب الأنصاريُ رضي الله عنه في غزو القسطنطينية، ودُفن تحت أسوارها، ومات أبو طلحة الأنصاري رضي الله عنه غازياً في البحر فما وجدوا جزيرة يدفنونه فيها إلا بعد سبعة أيام ولم يتغير!

وتاريخ المسلمين زاخرٌ بنماذج كانت تطلب الموت مظانه، وتقدمُ أرواحها رخيصة في سبيل الله تعالى، فلو أن أولئك لم يكن عندهم إيمان راسخ بأن الأجل مكتوب، وأن الحي لا يموت حتى يستكمل عمره لاشتغلوا بالحفاظ على أنفسهم وصيانتها بدل تعريضها للمخاطر والموت.

إن من أعظم أسباب ذلة المسلمين في العصور المتأخرة هو الخللُ في فهم قضيتي الرزق والأجل، أو ضعفُ الإيمان بهاتين المسألتين المهمتين.

وقد نبهنا النبي صلى الله عليه وسلم إلى ذلك لما ذكر تداعي الأمم على أمة الإسلام رغم كثرتهم؛ وأن المسلمين سيصبحون غثاءً كغثاء السيل، وستنزع مهابتهم من صدور أعدائهم، وسيُقذف في قلوبهم الوهن، فلما سئل عليه الصلاة والسلام عن الوهن قال: «**حب الدنيا وكراهية الموت**»(٩) وهذا ما وقع تماماً في هذا العصر بسبب الخلل في فهم مسألتي الرزق والأجل؛ فحب الدنيا لا يكون إلا حباً في ملذاتها وشهواتها، وهذه تحتاج إلى مال، والمال يحتاج إلى جمع وتحصيل وكدح. وكلما كان مالُ الإنسان أكثر كان استمتاعه بالملذات أكثر، وكان حبه للدنيا أقوى وأمكن، وحينئذ يتنافس الناس على الدنيا، ويعطلون الفرائض من أجلها، ويرتكبون المحرماتِ في سبيلها.

وكراهية الموت ما كانت إلا بسبب ضعفِ الإيمان في مسألة الأجل، ومن ثم يتولى الإنسان حفظ نفسه من الموت بالابتعاد عن مظانه، ولو كان في سبيل الله تعالى، وهو ميت لا محالة.

ولما كثر هذا في أفراد الأمة المسلمة، وانتشر فيما بينهم مفهوم الحفاظ على الرزق والأجل؛ خرست الألسن عن نطق الحق خوفاً على الرزق، أو خوفاً من تقدم الأجل، وأحجمت النفوس عن ميادين الوغى، ونصرة المسلمين؛ حفاظاً على النفس من العطب، وخشية على الأولاد من اليتم والعالة.

---

(٩) أخرجه أحمد (٥/ ٢٧٨) وأبو داود في الملاحم باب تداعي الأمم على الإسلام (٤٢٩٧)، وأبو نعيم في الحلية (١/ ١٨٢)، وذكره الألباني في الصحيحة (٢٥٨).

ولما كانت أكثر جموع المسلمين على هذه الحالة من الجزع على الرزق، والخوف من الأجل كانوا غثاءً كغثاء السيل، وما عاد أعداؤهم يحسبون لهم حساباً؛ فلا مهابة في قلوبهم منهم.

وعلى رغم هذه الحال المزرية في مجموع الأمة فإن أفراداً منها ما شغلتهم مسألة الرزق والأجل، فخرجوا في سبيل الله تعالى ينصرون إخوانهم المستضعفين في مشارق الأرض ومغاربها، قتل منهم من قتل، وعاش منهم من عاش، وأوذي منهم من أوذي؛ ولكنهم أحيوا شعيرة الجهاد في أمة شارفت على الهلاك، وفي فلسطين نماذج للبطولات والفداء، وأمهاتٌ يودعن أولادهن للقتل في سبيل الله تعالى، مما يؤذن بفرج قريب بإذن الله تعالى.

ولئن كان قائد مغوار، وبطل كرار من قادة الجهاد في الشيشان(١٠)، قد قتل غيلة قبل أيام، وحزن المؤمنون على قتله، وسألوا الله تعالى أن يتقبله في الشهداء؛ فإن نساء الأمة لن تعقم عن إنجاب أبطالٍ نجباء، ينصرون دين الله تعالى، ويقيمون شرعه، ويلبون النداء؛ نصرةً لله تعالى، ونجدة لإخوانهم، وطلباً للشهادة في مظانها.

وقد صح عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال: «**لا يزال الله يغرس في هذا الدين غرساً يستعملهم في طاعته**» رواه ابن ماجه، وصححه ابن حبان(١١).

---

(١٠) هو القائد المجاهد خطاب رحمه الله تعالى قتله الروس بالسم.

(١١) أخرجه أحمد (٤/ ٢٠٠)، وابن ماجه في المقدمة باب اتباع سنة رسول الله =

ولئن صار الجهاد يعد إرهاباً في القوانين الدولية، بل حتى الدفاع عن الأوطان والحرمات أضحى إرهاباً عند الأعداء، وقد عجز جمهور المسلمين عن إقامة هذه الشعيرة العظيمة؛ فإن طائفة من هـذه الأمـة ستقوم بالأمر، وستحمي بيضة الإسلام، وتتولى الدفاع عن المسلمين، وأفراد هذه الطائفة لا يزالون ظاهرين على الحق، لا يضرهم من خذلهم ولا من خالفهم حتى يأتي أمر الله تعالى وهم على ذلك.

فأبشروا ـ معاشر المسلمين ـ وأمّلوا خيراً، وانصروا دين الله تعالى بأنفسكم، وأموالكم، ودعائكم، واعلموا بأن العاقبة لأهل هذا الدين، وأن النصر سيكون للمؤمنين. أسأل الله تعالى أن ينصر دينه، ويعلي كلمته، إنه سميع مجيب.

سبحان ربك رب العزة عما يصفون، وسلام على المرسلين، والحمد لله رب العالمين.

= صلى الله عليه وسلم (٨) والبخاري في التاريخ الكبير (٩/ ٦١)، والدولابي في الكنى (١/ ٤٦) وصححه ابن حبان (٣٢٦)، وأخرجه في الثقات (٤/ ٧٥) من حديث أبي عنبة الخولاني رضي الله عنه، وقال البوصيري في الزوائـد: هذا إسناده صحيح رجاله كلهم ثقات (١/ ٤٥)، وذكره الألباني في السلسلة الصحيحة (٢٤٤٢).

٣- حكمة الله في خلقه وأمره

الجمعة ٢٩/ ١٢/ ١٤٢١هـ

الحمد لله، نحمده ونستعينه ونستغفره، ونعوذ بالله من شرور أنفسنا ومن سيئات أعمالنا، من يهده الله فلا مضل له، ومن يضلل فلا هادي له، وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له، وأشهد أن محمداً عبده ورسوله. ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ حَقَّ تُقَاتِهِ وَلَا تَمُوتُنَّ إِلَّا وَأَنتُم مُّسْلِمُونَ﴾ [آل عمران: ١٠٢]، ﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ اتَّقُوا رَبَّكُمُ الَّذِي خَلَقَكُم مِّن نَّفْسٍ وَاحِدَةٍ وَخَلَقَ مِنْهَا زَوْجَهَا وَبَثَّ مِنْهُمَا رِجَالًا كَثِيرًا وَنِسَاءً وَاتَّقُوا اللَّهَ الَّذِي تَسَاءَلُونَ بِهِ وَالْأَرْحَامَ إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلَيْكُمْ رَقِيبًا﴾ [النساء: ١]، ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَقُولُوا قَوْلًا سَدِيدًا (٧٠) يُصْلِحْ لَكُمْ أَعْمَالَكُمْ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ وَمَن يُطِعِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ فَقَدْ فَازَ فَوْزًا عَظِيمًا﴾ [الأحزاب: ٧٠, ٧١].

أما بعد: فإن أصدق الحديث كلام الله تعالى، وخير الهدي هدي محمد صلى الله عليه وسلم، وشر الأمور محدثاتها، وكل محدثة بدعة، وكل بدعة ضلالة، وكل ضلالة في النار.

أيها المسلمون: من تأمل مبتداه ومنتهاه، وتفكّر في الدنيا ومصيرها، ونظر في السموات وأنجمها، والأرض وما فيها وما عليها؛ ظهر له شيءٌ من عظمة الخالق وحكمته تبارك وتعالى. فمخلوقاته تعالى تسير في انتظام، ولها ابتداءٌ وانتهاء على وفق حكمته وإرادته، ومن أسمائه الحسنى ـ جلّ في علاه ـ الحكيم ﴿إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ حَكِيمٌ﴾ [التوبة: ٢٨] وقد ورد هذا الاسم الجليلُ في القرآن أربعاً وتسعين مرة، وهو متضمنٌ لصفةِ

الحكمة التي يتصف بها ربُنا جل جلاله.

وروى مصعب بن سعد عن أبيه رضي الله عنه قال: جاء أعرابيٌّ إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم، فقال: علّمني كلاماً أقوله، قال: «**قل: لا إله إلا الله، وحده لا شريك له، الله أكبر كبيراً، والحمد لله كثيراً، وسبحان الله رب العالمين، لا حول ولا قوة إلا بالله العزيز الحكيم**» قال: فهؤلاء لربي، فمالي؟ قال: «**قل: اللهم اغفر لي وارحمني واهدني وارزقني**» رواه مسلم(١).

والحكيم: هو الذي لا يقولُ ولا يفعلُ إلا الصواب، وإنما ينبغي أن يوصف ربنا جلّ جلاله بالحكمة لأن أفعاله سديدة، وصنعه متقن، ولا يظهرُ الفعلُ المتقن السديدُ إلا من حكيم.

إن الله تبارك وتعالى حكيم فلا يخلق ولا يأمر عبثاً وسدى وباطلاً؛ بل له المرادُ فيما أراد، وأفعاله صادرةٌ عن حكمةٍ بالغة، ومصلحةٍ عظيمة، وغايةٍ حميدة.

وكمالُ حكمته جلّ شأنه يقتضي كمالَ علمه المحيط بكل شيء كما قال سبحانه: ﴿**إِنَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ**﴾ [الشورى: ١٢]، ﴿**إِنَّ اللَّهَ لَا يَخْفَىٰ عَلَيْهِ شَيْءٌ فِي الْأَرْضِ وَلَا فِي السَّمَاءِ**﴾ [آل عمران: ٥]، وقال سبحانه: ﴿**وَكُنَّا بِكُلِّ شَيْءٍ عَالِمِينَ**﴾ [الأنبياء: ٨١] ولذا جمع بين الصفتين ـ العلم والحكمة ـ في آيات كثيرة فقال سبحانه: ﴿**إِنَّ رَبَّكَ حَكِيمٌ عَلِيمٌ**﴾ [الأنعام: ١٢٨].

---

(١) أخرجه مسلم في الدعاء، باب فضل التهليل والتسبيح والدعاء (٢٦٩٦).

ظهرت حكمتُه البالغة في خلقه، خلقهم فأحكم خلقهم، وصوّرهم فأحسن صورهم، وأبدع الكون ورتّبه أكمل ترتيب، ونظّمه أجمل تنظيم، ومنح كلّ مخلوق شكله اللائق به فأبدع أيما إبداع(٢).

قال الخطابي رحمه الله تعالى: «ومعنى الإحكام لخلقِ الأشياء إنما ينصرفُ إلى إتقان التدبير فيها، وحسن التقدير لها؛ إذ ليس كلُ الخليقةِ موصوفاً بوثاقة البُنية، وشدةِ الأسر، كالبعوضة والنملة وما أشبههما من ضعاف الخلق إلا أن التدبير فيهما، والدلالة بهما على كون الصانع وإثباته ليس بدون الدلالة عليه بخلق السموات والأرض والجبال وسائر معاظم مخلوقاته. وكذلك هذا في قوله جل وعزّ: ﴿الَّذِي أَحْسَنَ كُلَّ شَيْءٍ خَلَقَهُ﴾ [السجدة: ٧]، لم تقع الإشارة به إلى الحسنِ الرائق في المنظر؛ فإن هذا معدوم في القرد والخنزير والدب، وأشكالها من الحيوان. وإنما ينصرف المعنى فيه إلى حسن التدبير في إنشاء كل شيء من خلقه على ما أحبَّ أن ينشئه عليه، وإبرازه على الهيأة التي أراد أن يهيئه عليها؛ كقوله تعالى: ﴿وَخَلَقَ كُلَّ شَيْءٍ فَقَدَّرَهُ تَقْدِيرًا﴾ [الفرقان: ٢](٣).

فما من شيء خلقه الله تعالى إلا وأحسن خلقه، وأتم صنعه على ما يريده تبارك وتعالى.

وما خلق هذا الخلق العظيم، والأمم الكثيرة إلا لحكمة عظيمة، وغايةٍ جليلة تتمثل في عبادته وحده لا شريك له، ومن ثم امتحان

---

(٢) انظر: صيد الخاطر (٦٧١) وحجة الله البالغة للدهلوي (١/ ١٠٦).
(٣) شأن الدعاء للخطابي (٧٣ ـ ٧٤)، ونقله عنه البيهقي في الأسماء والصفات.

عباده وابتلائهم بالشرائع لينظر كيف يعملون ﴿وَمَا خَلَقْتُ الجنَّ وَالإنسَ إلاَّ لِيَعْبُدُونِ﴾ [الذاريات: ٥٦]، ﴿وَمَا خَلَقْنَا السَّمَاءَ وَالأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا بَاطِلاً﴾ [ص: ٢٧].

وحكمته البالغة ظاهرةٌ فيما شرعه من الشرائع المشتملة على كل خير في الدنيا والآخرة. فأمره ونهيه يحتويان على غاية الحكمة والصلاح والإصلاح للدين والدنيا، فما أمر الله تعالى بشيء إلا وفيه مصلحةٌ عاجلةٌ أو آجلةٌ أو كلاهما. وما نهى عن شيء إلا وفيه مفسدة عاجلةٌ أو آجلة أو كلاهما. وليس المرادُ بالآجل أمور الآخرة؛ لأن الشرائع لا تحدد للناس سيرهم في الآخرة؛ ولكن الآخرة جعلها الله جزاءً على الأحوال التي كانوا عليها في الدنيا.. وإنما المراد: أن من التكاليف الشرعية ما قد يبدو فيه حرج، وإضرارٌ بالمكلفين، وتفويتُ مصالح عليهم؛ ولكن المتدبر إذا تدبر في تلك التشريعات ظهرت له مصالحها في عواقب الأمور. وتلك المصالح يُحصِّلها العباد إذا التزموا الأمر والنهي في الدنيا قبل الآخرة(٤).

وقد جمع الله تعالى حكمته في خلقه، وحكمته في شرعه في قوله تبارك وتعالى: ﴿أَلا لَهُ الخَلْقُ وَالأَمْرُ تَبَارَكَ اللَّهُ رَبُّ العَالَمِينَ﴾ [الأعراف: ٥٤].

ومع أن هذه العقيدة متقررة في نفوس المسلمين ـ على تفاوت بينهم

---

(٤) انظر: القواعد الصغرى للعز بن عبد السلام (١٩٩)، ومقاصد الشريعة للطاهر ابن عاشور (١٣).

في إدراكها ـ فإننا كثيراً ما نسمع من بعضهم ـ هداهم الله ـ من يسألُ فيقول: لماذا كان هذا الشيء حراماً، ولماذا أوجب الله كذا، وما الحكمة من هذا التشريع، وما المصلحة من كون كذا من الشريعة؛ ونحو تلك الأسئلة التي تنم عن ضعضعةٍ لهذه العقيدة في قلب السائل. فإن كان السائلُ مسترشداً، وحكمةُ ما سأل عنه ظاهرة أُخبِر بها، ونُصِح بالتسليم لله رب العالمين، وعَدَم التكلف في السؤال. وإن كان السائلُ معانداً مستخفاً بشرع الله تعالى ـ وما أكثرهم في هذا الزمن ـ فهذا هو الكفر المحض، والجنونُ البارد[٥].

وأهلُه هم أتباعُ إبليس المعترضِ الأولِ على حكم الله تعالى؛ فإنه رأى أن النارَ أفضل من الطين ولم تتبين له حكمةُ سجود مَنْ خُلِق من نار لمن خلق من طين؛ فاعترض على ذلك وامتنع، فلعن وهلك.

وتبعه في هذه الطريقة الكفرية المشركون فاعترضوا على حكمة الله في اصطفاء من يشاء من عباده رسلاً فقالوا: ﴿لَن نُّؤْمِنَ حَتَّىٰ نُؤْتَىٰ مِثْلَ مَا أُوتِيَ رُسُلُ اللَّهِ﴾ [الأنعام: ١٢٤]، وقالوا: ﴿لَوْلَا نُزِّلَ هَٰذَا الْقُرْآنُ عَلَىٰ رَجُلٍ مِّنَ الْقَرْيَتَيْنِ عَظِيمٍ﴾ [الزخرف: ٣١]، بل إنهم اعترضوا على كون أتباع الرسل من عامة الناس وضعفتهم فقالوا: ﴿أَهَٰؤُلَاءِ مَنَّ اللَّهُ عَلَيْهِم مِّن بَيْنِنَا﴾ [الأنعام: ٥٣].

وفي هذا العصر كثرت الزندقة، وانتشر الإلحاد، فسمعنا من يعترض على حدود الله تعالى، ويصفها بالهمجية والوحشية، وعدم مناسبتها

---

(٥) انظر: صيد الخاطر (٧٤١).

للألفية الثالثة. ورأينا من يعترض على أحكام الإسلام فيما يتعلق بالمرأة وميراثها وقرارها في المنزل وحجابها، ولزوم المحرم لها في السفر، والولي لها في الزواج، وغير ذلك مما فصلته الشريعة!!

وتالله، لله أعلمُ بها وبهم وبالخلق أجمعين، وبما يصلح لهم في معاشهم ومآلهم ﴿أَلا يَعْلَمُ مَنْ خَلَقَ وَهُوَ اللَّطِيفُ الْخَبِيرُ﴾ [الملك: ١٤].

آمنا بذلك، وسلمنا به، ونُشْهِدُ عليه ربنا، ونسأله الثبات على الإيمان إلى الممات ﴿رَبَّنَا لا تُزِغْ قُلُوبَنَا بَعْدَ إِذْ هَدَيْتَنَا وَهَبْ لَنَا مِن لَّدُنكَ رَحْمَةً إِنَّكَ أَنتَ الْوَهَّابُ﴾ [آل عمران: ٨].

أعوذ بالله من الشيطان الرجيم: ﴿أَفَحَسِبْتُمْ أَنَّمَا خَلَقْنَاكُمْ عَبَثًا وَأَنَّكُمْ إِلَيْنَا لا تُرْجَعُونَ (١١٥) فَتَعَالَى اللَّهُ الْمَلِكُ الْحَقُّ لا إِلَهَ إِلاَّ هُوَ رَبُّ الْعَرْشِ الْكَرِيمِ﴾ [المؤمنون: ١١٥, ١١٦].

بارك الله لي ولكم في القرآن العظيم...

الخطبة الثانية

الحمد لله حمداً طيباً كثيراً مباركاً فيه كما يحب ربنا ويرضى، أحمده وأشكره، وأتوب إليه وأستغفره، وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له، وأشهد أن محمداً عبده ورسوله، صلى الله وسلم وبارك عليه وعلى آله وأصحابه وأتباعه إلى يوم الدين، وسلم تسليماً كثيراً.

أما بعد: فإن العبدَ لا يكون موحداً لله تعالى، مؤمناً به إلا إذا أيقن بأن الله تعالى حكيم فيما خلق وفيما شرع، ثم قاده هذا اليقين إلى الامتثال والإذعان لأحكام الشريعة التي أنزلت من حكيم خبير.

ولهذا الموضوع المهم أصلٌ عقدي، وأصلٌ عملي، فأما الأصلُ العقدي: فإثباتُ الحاكمية لله تعالى، والإيمانُ بأن له جل جلاله التصرف المطلقَ، والحكم التام، والمشيئة النافذة، يقضي ولا راد لقضائه، ويحكمُ ولا معقب لحكمه، فالكل في ملكه، وتحت سيطرته. فيجبُ على المسلم أن يعتقد أن الله تعالى يأمر بما يشاء، وينهى عما شاء، له كمالُ الربوبية على عباده، وهم مربوبون له، خاضعون لأمره ونهيه، ليس لهم أن يعترضوا أو يمتعضوا. ﴿لَا يُسْأَلُ عَمَّا يَفْعَلُ وَهُمْ يُسْأَلُونَ﴾ [الأنبياء: ٢٣]، ﴿إِنِ الْحُكْمُ إِلَّا لِلَّهِ يَقُصُّ الْحَقَّ وَهُوَ خَيْرُ الْفَاصِلِينَ﴾ [الأنعام: ٥٧]، ﴿وَرَبُّكَ يَخْلُقُ مَا يَشَاءُ وَيَخْتَارُ مَا كَانَ لَهُمُ الْخِيَرَةُ سُبْحَانَ اللَّهِ وَتَعَالَىٰ عَمَّا يُشْرِكُونَ﴾ [القصص: ٦٨]، ﴿وَاللَّهُ يَحْكُمُ لَا مُعَقِّبَ لِحُكْمِهِ وَهُوَ سَرِيعُ الْحِسَابِ﴾ [الرعد: ٤١].

ومن ثم إثباتُ الحكمة له فيما خلق وما شرع، سواء أدرك المكلف الحكمة أم لم يدركها.

وتلك هي عقيدة السلف الصالح من الصحابة والتابعين لهم بإحسان، خلافاً لما عليه كثير من الضُلاَّل قديماً وحديثاً..

وخفاء الحكمة من الخلق أو الشرع لا يعني عدمها، وإنما يعني عدم علمنا بها. والقاعدة المقررة: أن عدم العلم ليس علماً بالعدم. أي: عدمُ علمنا بالحكمة لا يعني أنها معدومة فعلاً، وإنما غايةُ الأمر أننا جهلناها ولم ندركها.

ويجب أن نعتقد أن الله تعالى إنما أخفاها عنّا أيضاً لحكمة أخرى،

فالحكم شُرع لحكمة، والحكمة أخفيت لحكمة، والإيمان بذلك يندرج تحت ركن من أركانِ الإيمان وهو الإيمان بالغيب.

وأما الأصل العملي فهو وجوب الامتثال لأمر الله تعالى، واجتناب نهيه ﴿وَمَا كَانَ لِمُؤْمِنٍ وَلَا مُؤْمِنَةٍ إِذَا قَضَى اللَّهُ وَرَسُولُهُ أَمْرًا أَن يَكُونَ لَهُمُ الْخِيَرَةُ مِنْ أَمْرِهِمْ وَمَن يَعْصِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ فَقَدْ ضَلَّ ضَلَالًا مُّبِينًا﴾ [الأحزاب: ٣٦].

وعَز المؤمن ورفعتُهُ هي في قيامه بالشريعة أمراً ونهياً؛ لأن هذا دليلٌ على عبوديته الصادقة لخالقه. وهذا لا يتأتى إلا لمن كمل إسلامه؛ لأن الإسلام هو الاستسلام للشارع الحكيم، والانطراح بين يديه انطراحَ العبد الذليل، والانقيادُ له تمام الانقياد بكل محبة وتعظيم، وإجلال وطواعية، ورجاء وخوف. فمن حقق ذلك كمل إيمانه، واستحقّ الجزاء الأوفى يوم القيامة من حكيم رحيم - جلّ جلاله - لا يخذل من وحده واستسلم لشريعته، واتبع أوامره، واجتنب نواهيه.

ألا فاتقوا الله ربكم - أيها المؤمنون - واستسلموا لأمره، ولا تكونوا كبني إسرائيل الذين قالوا: ﴿سَمِعْنَا وَعَصَيْنَا﴾ [البقرة: ٩٣]، بل قولوا: سمعنا وأطعنا، ولا تتكلفوا ما لا علم لكم به فتهلكوا.

سبحان ربك رب العزة عمّا يصفون، وسلام على المرسلين، والحمد لله رب العالمين وصلى الله وسلم على نبينا محمد وآله وصحبه أجمعين(*).

(*) ملاحظة: هذه الخطبة مستفادة من بحث مختصر لأخينا الشيخ عبد الله بن سالم البطاطي منشور في مجلة الجندي المسلم في العددين (٩٦-٩٧). مع بعض الإضافات والتصرف.

٤- عبادة التفكر

الجمعة ٢٢/ ٢/ ١٤١٨هـ

الحمد لله، نحمده ونستعينه ونستغفره، ونعوذ بالله من شرور أنفسنا ومن سيئات أعمالنا، من يهده الله فلا مضل له، ومن يضلل فلا هادي له، وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له، وأشهد أن محمداً عبده ورسوله ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ حَقَّ تُقَاتِهِ وَلَا تَمُوتُنَّ إِلَّا وَأَنتُم مُّسْلِمُونَ ﴿١٠٢﴾﴾ [آل عمران] ﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ اتَّقُوا رَبَّكُمُ الَّذِي خَلَقَكُم مِّن نَّفْسٍ وَاحِدَةٍ وَخَلَقَ مِنْهَا زَوْجَهَا وَبَثَّ مِنْهُمَا رِجَالًا كَثِيرًا وَنِسَاءً وَاتَّقُوا اللَّهَ الَّذِي تَسَاءَلُونَ بِهِ وَالْأَرْحَامَ إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلَيْكُمْ رَقِيبًا ﴿١﴾﴾ [النساء] ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَقُولُوا قَوْلًا سَدِيدًا ﴿٧٠﴾ يُصْلِحْ لَكُمْ أَعْمَالَكُمْ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ وَمَن يُطِعِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ فَقَدْ فَازَ فَوْزًا عَظِيمًا ﴿٧١﴾﴾ [الأحزاب].

أما بعد: فيا أيها الإخوة المؤمنون: لعبادة التفكر والاعتبار في الإسلام أهمية عظمى، وتظهر هذه الأهمية لمن أدرك أن وسيلة التفكر هي مناط التكليف، فلا تَفكُّر إلا بالعقل، ولا تكليف على من فقد عقله.

وهذه العبادة العظيمة تنعدم أو تقل كثيراً حينما تغلب الماديات على حياة الناس؛ فينشغلون باللهو والترف، مع أن هذه العبادة تقرب إلى الله تعالى، وتظهر حقيقة الدنيا ومتعها وزخرفها.

بها يستدل العبد على عظمة الله بآياته الكونية، ويدرك سننه الشرعية، ويعلم حقيقة الوجود، وأهمية العمل لليوم الموعود، ﴿إِنَّ فِي خَلْقِ

السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ وَاخْتِلافِ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ لآيَاتٍ لأُوْلِي الأَلْبَابِ (١٩٠) الَّذِينَ يَذْكُرُونَ اللَّهَ قِيَامًا وَقُعُودًا وَعَلَىٰ جُنُوبِهِمْ وَيَتَفَكَّرُونَ فِي خَلْقِ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ رَبَّنَا مَا خَلَقْتَ هَذَا بَاطِلاً سُبْحَانَكَ فَقِنَا عَذَابَ النَّارِ (١٩١)﴾ [آل عمران]. قال الحافظ ابن كثير رحمه الله تعالى: «ومعنى الآية أن الله تعالى يقول: ﴿إِنَّ فِي خَلْقِ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ﴾ أي: هذه في ارتفاعها واتساعها، وهذه في انخفاضها وكثافتها واتضاعها، ومافيهما من الآيات المشاهدة العظيمة من كواكب وسيارات وثوابت وبحار، وجبال وقفار، وأشجار ونبات، وزروعٍ وثمار، وحيـوانٍ ومعادن، ومنافعَ مختلفة الألوان والطعـوم والروائح والخواصّ ﴿وَاخْتِلافِ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ﴾ أي: تعاقبُهما وتقارضهُما الطول والقصر، فتارة يطول هذا ويقصر هذا، ثم يعتدلان، ثم يأخذ هذا من هذا فيطول الذي كان قصيراً، ويقصر الذي كان طويلاً، وكل ذلك تقدير العزيز العليم». اهـ[(١)]

وهذا التفكر في خلق السموات والأرض إنما يفعله أولو الألباب، المؤمنون بالله تعالى، ويحرم منه الكافرون والماديون ومن غلبت شهواتُهم عقولَهم فعطلتها عن التفكر والاعتبار ﴿وَمَا يَتَذَكَّرُ إِلاَّ مَن يُنِيبُ (١٣)﴾ [غافر] ﴿إِنَّ فِي ذَلِكَ لَذِكْرَىٰ لِمَن كَانَ لَهُ قَلْبٌ أَوْ أَلْقَى السَّمْعَ وَهُوَ شَهِيدٌ (٣٧) وَلَقَدْ خَلَقْنَا السَّمَوَاتِ وَالأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ وَمَا مَسَّنَا مِن لُّغُوبٍ (٣٨)﴾ [ق] لذا كان القرآن يعجب من عقول الكافرين والماديين كيف لم تدرك عظمة الله بآياته الكونيـة ﴿أَوَلَمْ يَنظُرُوا فِي مَلَكُوتِ السَّمَوَاتِ

(١) تفسير ابن كثير (١/ ٦٥٧).

وَالأَرْضِ وَمَا خَلَقَ اللَّهُ من شَيْءٍ وَأَنْ عَسَىٰ أَن يَكُونَ قَد اقْتَرَبَ أَجَلُهُمْ فَبِأَيِّ حَدِيثٍ بَعْدَهُ يُؤْمِنُونَ (١٨٥) ﴾ [الأعراف] ﴿ وَالسَّمَاءَ بَنَيْنَاهَا بِأَيْدٍ وَإِنَّا لَمُوسِعُونَ (٤٧) وَالأَرْضَ فَرَشْنَاهَا فَنِعْمَ الْمَاهِدُونَ (٤٨) وَمِن كُلِّ شَيْءٍ خَلَقْنَا زَوْجَيْنِ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ (٤٩) ﴾ [الذاريات] ﴿ الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ الأَرْضَ فِرَاشًا وَالسَّمَاءَ بِنَاءً وَأَنزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَخْرَجَ بِهِ مِنَ الثَّمَرَاتِ رِزْقًا لَّكُمْ فَلا تَجْعَلُوا لِلَّهِ أَندَادًا وَأَنتُمْ تَعْلَمُونَ (٢٢) ﴾ [البقرة] ﴿ وَفِي الأَرْضِ آيَاتٌ لِّلْمُوقِنِينَ (٢٠) ﴾ [الذاريات] ﴿ أَأَنتُمْ أَشَدُّ خَلْقًا أَمِ السَّمَاءُ بَنَاهَا (٢٧) رَفَعَ سَمْكَهَا فَسَوَّاهَا (٢٨) وَأَغْطَشَ لَيْلَهَا وَأَخْرَجَ ضُحَاهَا (٢٩) وَالأَرْضَ بَعْدَ ذَلِكَ دَحَاهَا (٣٠) أَخْرَجَ مِنْهَا مَاءَهَا وَمَرْعَاهَا (٣١) وَالْجِبَالَ أَرْسَاهَا (٣٢) مَتَاعًا لَّكُمْ وَلأَنْعَامِكُمْ (٣٣) ﴾ [النازعات].

وفي خلق الإنسان من مواضع التفكر والاعتبار، ما يدل على إتقان خلق الجبار تبارك وتعالى، ﴿ وَمِنْ آيَاتِهِ أَنْ خَلَقَكُم مِّن تُرَابٍ ثُمَّ إِذَا أَنتُم بَشَرٌ تَنتَشِرُونَ (٢٠) ﴾ [الروم] خلقه الله من منيٍّ يمنى، وحوله من نطفة قذرة إلى إنسان سويّ مكرم، وسخر له المخلوقات ﴿ قُتِلَ الإِنسَانُ مَا أَكْفَرَهُ (١٧) مِنْ أَيِّ شَيْءٍ خَلَقَهُ (١٨) مِن نُّطْفَةٍ خَلَقَهُ فَقَدَّرَهُ (١٩) ثُمَّ السَّبِيلَ يَسَّرَهُ (٢٠) ثُمَّ أَمَاتَهُ فَأَقْبَرَهُ (٢١) ثُمَّ إِذَا شَاءَ أَنشَرَهُ (٢٢) ﴾ [عبس] ﴿ خَلَقَكُم مِّن نَّفْسٍ وَاحِدَةٍ ثُمَّ جَعَلَ مِنْهَا زَوْجَهَا وَأَنزَلَ لَكُم مِّنَ الأَنْعَامِ ثَمَانِيَةَ أَزْوَاجٍ يَخْلُقُكُمْ فِي بُطُونِ أُمَّهَاتِكُمْ خَلْقًا مِّنْ بَعْدِ خَلْقٍ فِي ظُلُمَاتٍ ثَلاثٍ ذَلِكُمُ اللَّهُ رَبُّكُمْ لَهُ الْمُلْكُ لا إِلَهَ إِلاَّ هُوَ فَأَنَّىٰ تُصْرَفُونَ (٦) ﴾ [الزمر] ﴿ وَلَقَدْ خَلَقْنَا الإِنسَانَ مِن سُلالَةٍ مِّن طِينٍ (١٢) ثُمَّ جَعَلْنَاهُ نُطْفَةً فِي قَرَارٍ مَّكِينٍ (١٣) ثُمَّ خَلَقْنَا النُّطْفَةَ عَلَقَةً فَخَلَقْنَا الْعَلَقَةَ مُضْغَةً فَخَلَقْنَا الْمُضْغَةَ عِظَامًا فَكَسَوْنَا الْعِظَامَ لَحْمًا ثُمَّ أَنشَأْنَاهُ خَلْقًا آخَرَ فَتَبَارَكَ اللَّهُ أَحْسَنُ الْخَالِقِينَ (١٤) ﴾ [المؤمنون].

آيات بينات في هذا المخلوق الضعيف، آياتٌ في لحمه وعظمه، وجسده وروحه، وحركته وسكونه، وعقله وإدراكه.

هذا العقل الصغير الذي أعطاه الله من العلم ما استطاع به أن يبني هذه الحضارة العظيمة، في مبانيها وصناعاتها ومكتشفاتها، أرأيتم لو أن الله خلق الإنسان بلا عقل هل يصل إلى ما وصل إليه في الماضي والحاضر؟ وما الذي كان سيميزه عن سائر الحيوان؟ وانظروا كيف يكون حالُ الإنسان حينما يُسلبُ العقل؟

هذا العقل الذي حيّر العقولَ وأرباب العلم والطب الحديث، صنع الإنسانُ الحاسوبَ لعله يؤدي وظيفة العقل البشري؛ لكن ظهر أن العقل البشري يفهم ويميز والحاسوب يحفظ فقط؛ بل إن مخزون العقل البشري من الذاكرة أكبرُ من مخزون الحاسـوب، والعقل البشري يحفظ مـن المعلومات ما لا يستطيع أكبرُ حاسوب على وجه الأرض أن يحفظها، حتى أفاد علماء الحاسوب وصنّاعه أنهم إذا أرادوا صناعة حاسوب يختزن من المعلومات مثل ما يختزنُ العقل البشري حفظاً فقط ومن دون فهم، فإن عليهم أن يصنعوا حاسوباً في حجم الأرض كلها.

فالعقل البشري يحفظ في اليوم الواحد ما يستطيع الحديث عنـه في أسبوع أو شهر أو سنة مما يمر به من أحداث، وما اطلع عليه من مراكب وملابس ومآكل ومشارب، وما رآه من بشـرٍ وحيوان ونبات وجماد وغير ذلك مما يطول عده، يحفظها الإنسان وقد خرج من بطن أمه لا يستطيع التمييز بينها، ولا يعرف منها شيئاً ﴿وَاللَّهُ أَخْرَجَكُم مِّنْ

بُطُونِ أُمَّهَاتِكُمْ لا تَعْلَمُونَ شَيْئًا وَجَعَلَ لَكُمُ السَّمْعَ وَالأَبْصَارَ وَالأَفْئِدَةَ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ (٧٨) ﴾ [النحل] فالنفس البشرية ومافيها من عجائب وأسرار موضوع للتفكر والاعتبار ﴿ **وَفِي أَنفُسِكُمْ أَفَلا تُبْصِرُونَ (٢١)** ﴾ [الذاريات].

وفي أنواع الحيوان والنبات، وعجائب البحار وسائر المخلوقات ما يستحق أن يتفكر فيه العبد ﴿ **سُبْحَانَ الَّذِي خَلَقَ الأَزْوَاجَ كُلَّهَا مِمَّا تُنْبِتُ الأَرْضُ وَمِنْ أَنفُسِهِمْ وَمِمَّا لا يَعْلَمُونَ (٣٦)** ﴾ [يس: ٣٦] ﴿ **وَمِن كُلِّ شَيْءٍ خَلَقْنَا زَوْجَيْنِ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ (٤٩)** ﴾ [الذاريات].

وما لا نعلمه أكثر وأكثر تخبر عنه الآية القرآنية ﴿ **وَيَخْلُقُ مَا لا تَعْلَمُونَ (٨)** ﴾ [النحل]، آية موجزة في حروفها، محكمة في مبناها، عظيمة في معناها، تشمل ماخلق الله في الماضي والحاضر وما سيخلقه في المستقبل مما لايعلمه البشر، ويدخل في معناها كل ما يوجد على وجه الأرض من مكتشفات ومخترعات وصناعات مما لايعلم أسراره وكنهه كُلُّ البشر أو أكثرُهم، فلو أخبر الله تعالى عن كل مخلوق لأشكل ذلك على البشر؛ لأن مخلوقاتٍ كثيرة غابت عنهم ظهرت لغيرهم حسب اختلاف الزمان والمكان، فلو أخبر الله مثلاً عن مخلوق يسمى السيارة أو الطائرة، يختصر المسافات، وينقل كثيراً من البشر والبضائع؛ لتواردت الأسئلةُ الكثيرةُ على أذهانِ الصحابة ومن بعدهم ممن لم يشاهدوها، ما كيفيتها؟ وما صفتها؟ وكيف تسير أو تطير؟ وغيرُ ذلك من الأسئلة التي يطرحها من ذُكِر له شيءٌ لكنه لم يره.

فهذه الآية تنتظم هذه المخلوقات وغيرها ﴿ **وَيَخْلُقُ مَا لا تَعْلَمُونَ** ﴾

كما تنتظم ما سيظهر بعد زوال جيلنا وقدوم أجيال أخرى عندها من المخترعات والمكتشفات والمخلوقات ما لم نره أو ندركه؛ فسبحان من خلقها وأبدعها، له الحمد والثناء لانحصي ثناءً عليه كما أثنى هو على نفسه.

أعوذ بالله من الشيطان الرجيم ﴿وَتِلْكَ الْأَمْثَالُ نَضْرِبُهَا لِلنَّاسِ وَمَا يَعْقِلُهَا إِلَّا الْعَالِمُونَ (٤٣) خَلَقَ اللَّهُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ بِالْحَقِّ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَةً لِّلْمُؤْمِنِينَ (٤٤)﴾ [العنكبوت].

بارك الله لي ولكم في القرآن العظيم...

الخطبة الثانية

الحمدلله، حمداً كثيراً طيباً مباركاً فيه كما يحب ربنا ويرضى، أحمده وأشكره وأتوب إليه وأستغفره، وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له وأشهد أن محمداً عبده ورسوله، صلى الله وسلم وبارك عليه وعلى آله وأصحابه ومن سار على نهجهم واقتفى أثرهم إلى يوم الدين.

أما بعد: فيا أيها الإخوة المؤمنون: عبادة التفكر من أعظم العبادات التي حُرِمها كثير من الناس بأسباب المعاصي والمحرمات التي بها قست القلوب أن تلين لذكر الله؛ فصار من مظاهر ذلك: التكاسلُ والتقاعسُ عن الطاعةِ والعبادة، والفرائض والواجبات.

ومن صفات المتفكرين: الإسراعُ في الطاعات، والبعدُ عن المحرمات ﴿الَّذِينَ يَذْكُرُونَ اللَّهَ قِيَامًا وَقُعُودًا وَعَلَىٰ جُنُوبِهِمْ وَيَتَفَكَّرُونَ فِي خَلْقِ السَّمَوَاتِ

وَالأَرْضِ رَبَّنَا مَا خَلَقْتَ هَذَا بَاطِلاً سُبْحَانَكَ فَقِنَا عَذَابَ النَّارِ (١٩١) ﴾ [آل عمران].

ومن صفات المشركين: عدم التفكر فيما خلق الله تعالى ﴿ **وَكَأَيِّن مِّنْ آيَةٍ فِي السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ يَمُرُّونَ عَلَيْهَا وَهُمْ عَنْهَا مُعْرِضُونَ (١٠٥) وَمَا يُؤْمِنُ أَكْثَرُهُم بِاللَّهِ إِلاَّ وَهُم مُّشْرِكُونَ (١٠٦)** ﴾ [يوسف].

وأكثرُ الناس تفكراً رسول الله صلى الله عليه وسلم، أخرج ابن حبان في صحيحه بإسناد جيد عن عطاء بن أبي رباح قال: قلت لعائشة: أخبريني بأعجب ما رأيت من رسول الله صلى الله عليه وسلم، قالت: وأيُّ شأنه لم يكن عجباً! إنه أتاني ليلة فدخل معي في لحافي ثم قال: **ذريني أتعبدُ لربي**، فقام فتوضأ ثم قام يصلي فبكى حتى سالت دموعه على صدره، ثم ركع فبكى، ثم سجد فبكى، ثم رفع رأسه فبكى فلم يزل كذلك حتى جاء بلال فآذنه بالصلاة، فقلت: يارسول الله! ما يبكيك وقد غفر الله لك ماتقدم من ذنبك وما تأخر؟ قال: «**أفلا أكون عبداً شكوراً، ولم لا أفعل وقد أنزل علي هذه الليلة ﴿ إِنَّ فِي خَلْقِ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ وَاخْتِلافِ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ لآيَاتٍ لأُوْلِي الأَلْبَابِ (١٩٠) الَّذِينَ يَذْكُرُونَ اللَّهَ قِيَامًا وَقُعُودًا وَعَلَىَ جُنُوبِهِمْ وَيَتَفَكَّرُونَ فِي خَلْقِ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ رَبَّنَا مَا خَلَقْتَ هَذَا بَاطِلاً سُبْحَانَكَ فَقِنَا عَذَابَ النَّارِ (١٩١)** ﴾ [آل عمران] ثم قال: «**ويل لمن قرأها ولم يتفكر فيها**».[٢] قيل للإمام الأوزاعي: ما غاية

---

(٢) أخرجه ابن حبان (٦٢٠) وأبو الشيخ في أخلاق النبي صلى الله عليه وسلم (١٨٦) وعزاه السيوطي في الدر المنثور إلى عبد بن حميد وابن أبي الدنيا في التفكر وابن المنذر وابن مردويه في الترغيب وابن عساكر (١/ ١٩٥) وجوّد =

التفكر فيهن؟ قال: «يقرؤهن وهو يعقلهن»[٣].

وقال أبو سليمان الداراني رحمه الله: «إني لأخرج من منزلي فما يقع بصري على شيء إلا رأيت لله عليّ فيه نعمة ولي فيه عبرة»[٤]، وقال ابن عباس رضي الله عنهما: «تفكر ساعة خير من قيام ليلة»[٥]، وفي قوله تعالى: ﴿سَأَصْرِفُ عَنْ آيَاتِيَ الَّذِينَ يَتَكَبَّرُونَ فِي الأَرْضِ بِغَيْرِ الْحَقِّ﴾ [الأعراف: ١٤٦] قال الحسن رحمه الله: معناه: «أمنع قلوبهم التفكر في أمري»[٦]، وقال بشر الحافي: «لو تفكر الناس في عظمة الله لما عصوه»[٧]، وقال عمر بن عبدالعزيز: «الفكرة في نعم الله أفضل العبادة»[٨]، وبكى

= إسناده الألباني في السلسلة الصحيحة (٦٨) وانظر: الإحسان في تقريب صحيح ابن حبان (٦٢٠) وموارد الظمآن (٥٢٣).

(٣) الدر المنثور للسيوطي (١/ ١٩٥) واتحاف السادة المتقين للزبيدي (١٣/ ٣٠٩).

(٤) تفسير ابن كثير (١/ ٩٥٨).

(٥) أخرجه أبو الشيخ في العظمة (٤٢) والديلمي، كما في فردوس الأخبار (٢٢١٥) عن ابن عباس رضي الله عنهما، وأخرجه أحمد في الزهد (١٧٢) وأبو نعيم في الحلية (١/ ٢٠٩) والبيهقي في الشعب (١١٨) عن أبي الدرداء رضي الله عنه وأخرجه الديلمي كما في فردوس الأخبار (٢٢١٥) عن أنس رضي الله عنه، بنحوه، وأخرجه أبو الشيخ في العظمة من حديث أبي هريرة مرفوعاً (٤٣) ولا يصح مرفوعاً، انظر: الموضوعات لابن الجوزي (١٤٣-١٤٤) واللآلىء المصنوعة (٢/ ٣٢٧) وتنزيه الشريعة المرفوعة (٢/ ٣٠٥) والفوائد المجموعة (٢٤٢) وسلسلة الأحاديث الضعيفة والموضوعة (١٧٣).

(٦) اتحاف السادة المتقين (١٣/ ٣١٠).

(٧) تفسير ابن كثير (١/ ٦٥٨).

(٨) اتحاف السادة المتقين (١٣/ ٣١٠).

رحمه الله يوماً بين أصحابه فسئل عن ذلك فقال : «فكرت في الدنيا ولذاتها وشهواتها فاعتبرت منها بها، ما تكاد شهواتها تنقضي حتى تكدرها مرارتُها، ولئن لم يكن فيها عبرةٌ لمن اعتبر إن فيها مواعظ لمن ادكر» اهـ[٩].

أيها الإخوة المؤمنون: هذه منزلة تلك العبادة العظيمة، وهذا هو حال السلف مع التفكر، فما حالنا معه؟

لابد أن نراجع أنفسنا، ونحاول إصلاح قلوبنا التي صارت كالحجارة أو أشدَّ قسوة؛ وذلك بالرجوع إلى الله تعالى، والمسارعة في الطاعات، واكتسابِ الخيرات، والبعد عن المحرمات، والتجافي عن الشهوات، والتخفيف من اللهاث وراء الدنيا وحظوظها، وكلُّ ذلك يحتاج إلى مجاهدةٍ للنفس والهوى والشيطان، مع المصابرة والمرابطة على الفرائض والواجبات حتى ينالَ العبد لذة هذه النعمة العظيمة.

أسأل الله تعالى أن لا يحرمنا إياها بذنوبنا، وأن يرزقنا الاعتبار والتفكر، وأن يجعلنا من عباده الصالحين، إنه سميع مجيب.

سبحان ربك رب العزة عما يصفون. وسلام على المرسلين. والحمد لله رب العالمين. وأقم الصلاة. . .

---

(٩) تفسير ابن كثير (١/ ٦٥٨).

٥- الشمس آية من آيات الله تعالى
عظمتها ومنافعها ومصيرها

الجمعة ٦/ ٥/ ١٤١٩هـ

الحمد لله، خلق كل شيء فقدره تقديراً، وصرّفه فأحسنه تصريفاً وتدبيراً، و ﴿تَبَارَكَ الَّذِي جَعَلَ فِي السَّمَاءِ بُرُوجًا وَجَعَلَ فِيهَا سِرَاجًا وَقَمَرًا مُّنِيرًا (٦١)﴾ [الفرقان].

أحمد ربي وأشكره، وأتوب إليه وأستغفره؛ رفع السماء بغير عمد ترونها، وألقى في الأرض رواسِيَها، وذللها للعباد فمشوا في مناكبها، واستخرج لهم نعمها وأرزاقها.

وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له، رزق الطيرَ في وُكُناتها، والحوت في مائها، والزواحفَ في جحورها.

وأشهد أن محمداً عبده ورسوله؛ رأى آيات ربه، وتأمل إبداعه في خلقه، فامتلأ قلبه بالله إيماناً ويقيناً، فكان من أثره أن جهشت نفسه بخشوعها، وفاضت عيناه بدموعها، ونصبت أركانه بركوعها وسجودها لربها وخالقها وباريها، صلى الله وسلم وبارك عليه وعلى آله وأصحابه ومن تبعهم بإحسان إلى يوم الدين.

أما بعد: فاتقوا الله تعالى - أيها المؤمنون - فإن آياته في خلقه عظيمة، وآلاءه على عباده كثيرة، وعقوبته لمن خالف أمره أليمة شديدة ﴿قُلْ مَن يَرْزُقُكُم مِّنَ السَّمَاءِ وَالأَرْضِ أَمَّن يَمْلِكُ السَّمْعَ وَالأَبْصَارَ وَمَن يُخْرِجُ الْحَيَّ مِنَ الْمَيِّتِ وَيُخْرِجُ الْمَيِّتَ مِنَ الْحَيِّ وَمَن يُدَبِّرُ الأَمْرَ فَسَيَقُولُونَ اللَّهُ فَقُلْ

أَفَلا تَتَّقُونَ (٣١) فَذَلِكُمُ اللَّهُ رَبُّكُمُ الحَقُّ فَمَاذَا بَعْدَ الحَقِّ إِلاَّ الضَّلالُ فَأَنَّىٰ تُصْرَفُونَ (٣٢)﴾ [يونس].

أيها الإخوة: آياتُ الله تعالى في خلق الإنسان كثيرة عجيبة، في جسده وروحه، في قلبه وعقله، في حركته وسكونه، وحزنه وسروره، وفي أجزاء جسمه الكثيرة، وتعقيداتها الدقيقة.

والأرض فيها من الآيات والعجائب مايعز على العد والحصر، من نباتها وجمادها وحيوانها، في برها وبحرها ﴿وَفِي الأَرْضِ آيَاتٌ لِّلْمُوقِنِينَ (٢٠) وَفِي أَنفُسِكُمْ أَفَلا تُبْصِرُونَ (٢١) وَفِي السَّمَاءِ رِزْقُكُمْ وَمَا تُوعَدُونَ (٢٢)﴾ [الذاريات].

والأرض ببحارها ومحيطاتها، وأنهارها وجبالها، وسهولها وصحاريها، وما فيها وما عليها من مخلوقات وعجائب لا تساوي ذرة في خلق الله تعالى؛ ففي الكون من الأفلاك والمجرات، والأنجم والبروج والمجموعات ما يجعل الأرض بضخامتها عند البشر ذرة من الذرات الصغيرة في هذا الكون العامر.

وما لا يعلمه البشر من خلق الله تعالى أكثر وأعظم، فيا لله ما أعظم خلقه، وما أدق صنعه!! وما عظمة المخلوق إلا أكبر برهانٍ على عظمة الخالق تعالى وتقدس ﴿فَتَبَارَكَ اللَّهُ أَحْسَنُ الخَالِقِينَ (١٤)﴾ [المؤمنون].

أيها الإخوة: وهذا حديث عن آية من الآيات العظيمة، سخرها الله تعالى لخدمة البشر، وفيها من المنافع لهم ما لا يعلمه إلا الله تعالى،

شرّفها الله تعالى فأقسم بها، وعظمها قومٌ من البشر فعبدوها من دون الله تبارك وتعالى!!

كانت هذه الآية موقع المُحاجّة، ومَعقِدَ المفاصلة، وبرهان المناظرة الذي بهت الكافر فقطع مناظرته، ونصر النبي فأقام حجته.

إنها الشمس التي تشرق كل يوم فلا أجمل من شروقها، وتغرب فلا أحسن من غروبها، ينفعنا في البرد دفؤها، وتؤذينا في الحر أشعتها، وما هي إلا جزء يسير من خلق الله تعالى ﴿وَهُوَ الَّذِي خَلَقَ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ وَالشَّمْسَ وَالْقَمَرَ كُلٌّ فِي فَلَكٍ يَسْبَحُونَ (٣٣)﴾ [الأنبياء].

ولضخامتها(١) وعجيب ضوئها وما فيها من آيات استعظمها أقوام

---

(١) قد بينت الدراسات الفلكية الحديثة هذه الضخامة للشمس؛ فذكرت أن قطرها يبلغ نحو (٨٦٥٣٨٠) ميلاً بينما قطر الأرض (٧٩١٣) ميلاً فهي أكبر من الأرض بنحو مليون وثلاثمائة ألف مرة، وكتلتها تعادل (٣٣٣٠٠٠) مرة كتلة الأرض، وتعادل جاذبيتها ضعف جاذبية الأرض ثمان وعشرين مرة، وتبعد عن الأرض نحواً من (١٥٠) مليون كلم، انظر: القرآن وعلوم العصر الحديث لإبراهيم فوزي، وظواهر كونية في القرآن، لمحمد فيض الله الحامدي.

ويذكر الفلكيون الغربيون أن الأرض كوكب صغير من تسعة كواكب تدور حول الشمس في مجموعتنا الشمسية، وشمسنا التي هي مركز مجموعتنا الشمسية ليست إلا نجماً من أربعمائة مليار نجم في مجرتنا التي تسمى بالطريق اللبني أو درب التبانة، وتبعد عن مركزها الذي تدور حوله مسافة ثلاثين ألف سنة ضوئية. ومجرتنا ليست إلا واحدة من مئة مليار مجرة في هذا الكون، وكل مجرة من هذه المجرات فيها مئة مليار نجم أو شمس مثل شمسنا وأكبر منها.

ويذكرون أن الشمس تبعد عنا حوالي ثماني دقائق ضوئية، وسرعة الضوء: ثلاثمئة ألف كم في الثانية، وعليه فإن الدقيقة الضوئية ثمانية عشر مليون كم، =

= وأقرب نجم إلينا بعد الشمس يبعد أربع سنوات ضوئية أي: تسعة ترليونات وأربعمئة وستين ملياراً وثمانمئة كم، إلى غير ذلك من الأرقام الهائلة.
وقد وقف الباحثون المسلمون من هذه الأرقام ونحوها ثلاثة مواقف:
الموقف الأول: من قبلها مطلقاً، وآمن بصحتها وجعلها دليلاً على عظمة الخالق سبحانه وتعالى؛ لأن عظمة المخلوق دليل على عظمة الخالق تبارك وتعالى، وحجتهم: أن علوم العصر الحديث، والتطور الهائل في المناظير والمراصد الفلكية، وصعود المركبات الفضائية وتحليقها في الفضاء وتصويرها لهذه المجرات والأفلاك يؤكد حقيقة ذلك، وليس هناك مانع لا عقلي ولا شرعي يمنع من قبول ذلك.
ويستدل أصحاب هذا الاتجاه ببعض الآيات الدالة على عظمة الكون، وبعضهم حاول الاستدلال لكل نظرية كونية حديثة بآيات من القرآن! وفي كثير من استدلالاتهم تكلف ظاهر، ولوي لأعناق النصوص. ويستدلون أيضاً بأن كثيراً من المسلمين درسوا علوم الفلك، وبرعوا في ذلك وهم يثبتون هذه المعلومات الفلكية، فليست مقصورة على إخبار أهل الكتاب بها حتى تتطرق إليها الشكوك.
ثم إن إجماع الفلكيين من مسلمين وغير مسلمين يدل على حقيقتها؛ إذ يستحيل تواطؤهم على الكذب.
الموقف الثاني: التوقف فيها فلا نصدقها ولا نكذبها؛ لأنها من أخبار أهل الكتاب وليس في شرعنا ما يؤيدها أو يعارضها؛ ولكن يشكل على هذا الموقف أن التوقف هو في أخبار أهل الكتاب الماضية التي ليس لها ذكر في شرعنا، أما الأمور الحاضرة فيمكن معرفتها والقطع بصدقهم أو كذبهم فيها.
الموقف الثالث: رفضها وعدم قبولها وتكذيب الغربيين فيها لما يلي:
١- أن هذه الأرقام مبنية على نظريات إلحادية تجعل الكون فضاء لا نهاية له وتؤدي إلى إنكار الخالق سبحانه وتعالى. قال الشيخ عبدالكريم بن صالح الحميد: «الفضاء محدود وله نهاية، وسعته مقدرة؛ فقد أخبرنا النبي صلى الله عليه وسلم بذلك فذكر أن بين السماء والأرض مسيرة خمسمئة عام يعني سماء الدنيا الذي هو سقف الأرض، وذلك بتقدير سير الإبل. وهذه المسافة تمكن =

فعبدوها من دون الله تعالى كما قال الهدهدُ لسليمان عليه الصلاة والسلام ﴿إِنِّي وَجَدتُّ امْرَأَةً تَمْلِكُهُمْ وَأُوتِيَتْ مِن كُلِّ شَيْءٍ وَلَهَا عَرْشٌ عَظِيمٌ (٢٣) وَجَدتُّهَا وَقَوْمَهَا يَسْجُدُونَ لِلشَّمْسِ مِن دُونِ اللَّهِ وَزَيَّنَ لَهُمُ الشَّيْطَانُ أَعْمَالَهُمْ فَصَدَّهُمْ عَنِ السَّبِيلِ فَهُمْ لا يَهْتَدُونَ (٢٤)﴾ [النمل].

= معرفتها باصطلاح أهل الزمان؛ حيث يقيسون المسافات بالكيلومترات إذا علم كم تسير الإبل باليوم من كيلومتر. وقد قدرت ذلك فوجدت مسافة ما بين السماء والأرض تقارب تسعة ملايين كم فقط، وهو الفضاء كله من كل جانب من الأرض، فأين هذا من خيال الملاحدة وفضائهم الذي لا نهاية له؟!» اهـ.
انظر رسالته: هداية الحيران في مسألة الدوران (ص٦٠).

٢- أن هذه الأرقام الفلكية معارضة لنصوص من السنة منها حديث ابن مسعود رضي الله عنه قال: «**ما بين السماء الدنيا والتي تليها مسيرة خمسمئة عام، وما بين السماء الثالثة والتي تليها وبين الأخرى مسيرة خمسمئة عام وبين كل سمائين مسيرة خمسمئة عام وبين السماء السابعة وبين الكرسي خمسمئة عام، والعرش فوق الماء والله عز وجل فوق العرش وهو يعلم ما أنتم عليه**» أخرجه أبو الشيخ في العظمة برقم (٢٧٩) والدارمي في الرد على الجهمية (ص٢١)، وابن خزيمة في التوحيد (ص١٠٥)، والطبراني في الكبير (٩/ ٢٢٨) برقم (٨٩٨٧) والبيهقي في الأسماء والصفات (ص٥٠٧) وقال الهيثمي في الزوائد: رجاله رجال الصحيح (١/ ٨٦)، قلت: وقد جاء مرفوعاً وموقوفاً، والموقوف أصح، وله حكم الرفع، إذ ليس للرأي فيه مجال.

وقد ذكر الشيخ عبدالكريم الحميد في رسالته السابق ذكرها (ص٦٤) أن المسافة بين الأرض وسطح السماء السابعة حوالي (١٢٦ مليون كم) باعتبار أن ما بين السماء والأرض مسيرة خمسمئة سنة، وسمك كل سماء كذلك، والمسافة بين السماوات كذلك، وهذا كله أقل مما يقدرونه بين الأرض والشمس بحوالي ٢٤ مليون كم. هذا الفرق في مجموعة واحدة فكيف بملايين الملايين التي تتكون فيها المجرات المزعومة التي بينها مسافات هائلة. اهـ. والله أعلم بالصواب.

وأخبر الله تعالى أنها من جملة آياته الكونية المخلوقة؛ فالحق أن يعبد خالقُها من دونها ﴿ وَمِنْ آيَاتِهِ اللَّيْلُ وَالنَّهَارُ وَالشَّمْسُ وَالْقَمَرُ لا تَسْجُدُوا لِلشَّمْسِ وَلا لِلْقَمَرِ وَاسْجُدُوا لِلَّهِ الَّذِي خَلَقَهُنَّ إِن كُنتُمْ إِيَّاهُ تَعْبُدُونَ ﴿٣٧﴾ ﴾ [فصلت].

إن حركة الشمس وضوءها، وإشعاعها ودفئها، وانتظامها في سيرها، وضخامة حجمها كان ولايزال - عند البشر - مثار الدهشة، وموضع الانبهار. وما عبدها من عبدها إلا من هذا القبيل، وكانت ولاتزال حجة داحضة، وآيةً ظاهرة على عظمة خالقها جل وعلا.

أنهى إبراهيم عليه السلام بذكرها فصول المناظرة، وقطع حجج المخاصمة، ﴿ قَالَ إِبْرَاهِيمُ فَإِنَّ اللَّهَ يَأْتِي بِالشَّمْسِ مِنَ الْمَشْرِقِ فَأْتِ بِهَا مِنَ الْمَغْرِبِ فَبُهِتَ الَّذِي كَفَرَ ﴾ [البقرة: ٢٥٨] ﴿ فَلَمَّا رَأَى الشَّمْسَ بَازِغَةً قَالَ هَذَا رَبِّي هَذَا أَكْبَرُ فَلَمَّا أَفَلَتْ قَالَ يَا قَوْمِ إِنِّي بَرِيءٌ مِّمَّا تُشْرِكُونَ ﴿٧٨﴾ إِنِّي وَجَّهْتُ وَجْهِيَ لِلَّذِي فَطَرَ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضَ حَنِيفاً وَمَا أَنَا مِنَ الْمُشْرِكِينَ ﴿٧٩﴾ ﴾ [الأنعام] (٢).

---

(٢) آية البقرة جاءت في ذكر محاجّة إبراهيم عليه السلام للذي كفر وهذا ظاهر، وأما آية الأنعام فاختلف المفسرون في مقامها؛ هل كان مقام نظر أم مناظرة؟ فنقل عن ابن عباس أنه مقام نظر، واختاره ابن جرير، وقال آخرون: إنه مقام مناظرة وإن إبراهيم كان يناظر قومه، وهو الأظهر، ورجحه ابن كثير بأدلة كثيرة منها: أدلة الخلق على الفطرة، وأن القرآن أخبر أن إبراهيم قد أوتي رشده، وبالسياق حيث جاء بعد ذلك قوله تعالى ﴿ وَحَاجَّهُ قَوْمُهُ قَالَ أَتُحَاجُّونِّي فِي اللَّهِ وَقَدْ هَدَانِ ... ﴾ [الأنعام: ٨٠] انظر: جامع البيان (٧/ ٢٤٧) وتفسير ابن كثير (٢/ ٢٤٢) عند تفسير الآية (٧٨) من سورة الأنعام.

وكثير من الكفار يعلمون أن الشمس من خلق الله تعالى وما منعهم من عبادته إلا الكبر والعناد ﴿ وَلَئِن سَأَلْتَهُم مَّنْ خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضَ وَسَخَّرَ الشَّمْسَ وَالْقَمَرَ لَيَقُولُنَّ اللَّهُ ﴾ [العنكبوت: ٦١]. والشمس لم تتكبر على خالقها كما تكبر بعض البشر رغم عظمتها وضخامتها؛ فهي تسبح الله تعالى ﴿ وَإِن مِّن شَيْءٍ إِلاَّ يُسَبِّحُ بِحَمْدِهِ ﴾ [الإسراء: ٤٤] وتسجد له سبحانه ﴿ أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ يَسْجُدُ لَهُ مَن فِي السَّمَوَاتِ وَمَن فِي الأَرْضِ وَالشَّمْسُ وَالْقَمَرُ وَالنُّجُومُ وَالْجِبَالُ وَالشَّجَرُ وَالدَّوَابُّ وَكَثِيرٌ مِّنَ النَّاسِ ﴾ [الحج: ١٨]، وثبت في الصحيحين أن النبي صلى الله عليه وسلم قال لأبي ذر حين غربت الشمس: «أتدري أين تذهب؟» قال: قلت: الله ورسوله أعلم، قال: «فإنها تذهب حتى تسجد تحت العرش، فتستأذن فيؤذن لها، ويُوشك أن تسجد فلا يقبل منها، وتستأذن فلا يؤذن لها، فيقال لها: ارجعي من حيث جئت، فتطلعُ من مغربها» فذلك قوله تعالى ﴿ وَالشَّمْسُ تَجْرِي لِمُسْتَقَرٍّ لَّهَا ذَلِكَ تَقْدِيرُ الْعَزِيزِ الْعَلِيمِ (٣٨) ﴾ [يس][٣].

---

(٣) أخرجه البخاري في بدء الخلق باب صفة الشمس والقمر (٣١٩٩) وفي التفسير باب ﴿ وَالشَّمْسُ تَجْرِي لِمُسْتَقَرٍّ لَّهَا ذَلِكَ تَقْدِيرُ الْعَزِيزِ الْعَلِيمِ ﴾ (٤٨٠٢-٤٨٠٣) وفي التوحيد باب ﴿ وَكَانَ عَرْشُهُ عَلَى الْمَاءِ ﴾ (٧٤٢٤) وباب قول الله تعالى ﴿ تَعْرُجُ الْمَلائِكَةُ وَالرُّوحُ إِلَيْهِ ﴾ (٧٤٣٣) ومسلم في الإيمان باب الزمن الذي لايقبل فيه الإيمان (١٥٩) والترمذي في التفسير باب ومن سورة يس (٣٢٢٥). وقد أشكل هذا الحديث على بعض العلماء ولذلك قال ابن العربي: «أنكر قوم سجودها وهو صحيح ممكن، وتأوله قوم على ماهو عليه من التسخير الدائم» اهـ وقال الخطابي: «قال أهل التفسير وأصحاب المعاني: فيه قولان؛ قال بعضهم: معناه=

ومن عجيب شأنها أنها لا تكاد تغرب على جزء من الأرض إلا وتشرق على جزءٍ آخر، ففي كل لحظة لها مشرق ومغرب؛ ولذلك أخبر الله تعالى أن لها مشارق ومغارب متعددة ﴿فَلا أُقْسِمُ بِرَبِّ الْمَشَارِقِ وَالْمَغَارِبِ إِنَّا لَقَادِرُونَ ﴿٤٠﴾ عَلَىٰ أَن نُّبَدِّلَ خَيْرًا مِّنْهُمْ وَمَا نَحْنُ بِمَسْبُوقِينَ ﴿٤١﴾﴾ [المعارج].

وعلى رغم عظمتها، وضخامة حجمها فإن الله تعالى جعلها مسخرة لخدمة هذا الإنسان الضعيف، الذي أولاه الله كل هذا التكريم، ﴿وَسَخَّرَ

= أن الشمس تجري لمستقر لها أي لأجْلٍ أجَلٍ أُجل لها وقَدَرٍ قُدِّر لها، يعني: انقطاع مدة بقاء العالم، وقال بعضهم: مستقرها: غاية ماتنتهي إليه في صعودها وارتفاعها لأطول يوم في الصيف ثم تأخذ في النزول حتى تنتهي إلى أقصى مشارق الشتاء لأقصر يوم في السنة». اهـ وقد نقل هذين المعنيين ابن جرير وابن كثير، وقال الحافظ ابن حجر: «ويحتمل أن يكون المراد بالسجود سجود من هو موكل بها من الملائكة، أو تسجد بصورة الحال فيكون عبارة عن الزيادة في الانقياد والخضوع في ذلك» اهـ. وقد أحسن الخطابي رحمه الله إذ يقول في سجودها: «فلا ينكر أن يكون ذلك عند محاذاتها العرش في مسيرها، والخبر عن سجود الشمس والقمر لله عزوجل قد جاء في الكتاب... إلى أن قال: وليس في هذا إلا التصديق والتسليم وليس في سجودها لربها تحت العرش ما يعوقها عن الدأب في سيرها والتصرف لما سخرت له» اهـ. وللمزيد: انظر: أعلام الحديث في شرح صحيح البخاري للإمام الخطابي رحمه الله تعالى (٣/ ١٨٩٢ - ١٨٩٤) الحديثان (٩٤٠ - ٩٤١) وجامع البيان للطبري (٢٣/ ٥) وزاد المسير لابن الجوزي (٧/ ١٧) وتفسير ابن كثير رحمهم الله أجمعين (٣/ ٩١٠) عند تفسيرالآية (٣٨) من سورة يس، وفتح الباري للحافظ ابن حجر رحمه الله تعالى (٨/ ٤٠٢) ومجلة المنار لرشيد رضا رحمه الله تعالى (٣٢/ ٧٧٣-٧٩١) وحاشية الأرناووط على جامع الأصول لابن الأثير (٢/ ٣٣٣).

لَكُمُ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ وَالشَّمْسَ وَالْقَمَرَ وَالنُّجُومُ مُسَخَّرَاتٌ بِأَمْرِهِ ﴾ [النحل: ١٢] ﴿ وَسَخَّرَ لَكُمُ الشَّمْسَ وَالْقَمَرَ دَائِبَيْنِ وَسَخَّرَ لَكُمُ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ (٣٣) وَآتَاكُم مِّن كُلِّ مَا سَأَلْتُمُوهُ وَإِن تَعُدُّوا نِعْمَتَ اللَّهِ لا تُحْصُوهَا إِنَّ الإِنسَانَ لَظَلُومٌ كَفَّارٌ (٣٤) ﴾ [إبراهيم].

وهذا التسخير من الله تعالى جعل فيها من الفوائد والمنافع ما لايعد ولايحصى، فالوقت إنما ضُبط على ضوء حركتها، فغروبها ليل، وشروقها نهار. وأوقات الصلوات عرفت بالظل وهي سببه ﴿ أَلَمْ تَرَ إِلَىٰ رَبِّكَ كَيْفَ مَدَّ الظِّلَّ وَلَوْ شَاءَ لَجَعَلَهُ سَاكِنًا ثُمَّ جَعَلْنَا الشَّمْسَ عَلَيْهِ دَلِيلاً ﴾ [الفرقان: ٤٥].

تضيء النهار، وتبددُ الظلام، وتستيقظ على شروقها الأحياء في الأرض، من إنسان وطير وحيوان؛ فتسعى في رزقها، وتكتسبُ قوتها، وتعمُ الحركة أرجاء الأرض على ضوئها ونورها. فإذا غربت خيم الظلام، وعم السبات، وخلدت الأحياء إلى الراحة استعداداً ليوم جديد.

أرأيتم لو أنها أمسكت عن المغيب فلم تغب، كيف يرتاح الأحياء على الأرض، وكيف ينامون؟ ولو أمسكت عن الشروق فلم تشرق، كيف يعملون ويكتسبون؟ ﴿ قُلْ أَرَأَيْتُمْ إِن جَعَلَ اللَّهُ عَلَيْكُمُ اللَّيْلَ سَرْمَدًا إِلَىٰ يَوْمِ الْقِيَامَةِ مَنْ إِلَٰهٌ غَيْرُ اللَّهِ يَأْتِيكُم بِضِيَاءٍ أَفَلا تَسْمَعُونَ (٧١) قُلْ أَرَأَيْتُمْ إِن جَعَلَ اللَّهُ عَلَيْكُمُ النَّهَارَ سَرْمَدًا إِلَىٰ يَوْمِ الْقِيَامَةِ مَنْ إِلَٰهٌ غَيْرُ اللَّهِ يَأْتِيكُم بِلَيْلٍ تَسْكُنُونَ فِيهِ أَفَلا تُبْصِرُونَ (٧٢) وَمِن رَّحْمَتِهِ جَعَلَ لَكُمُ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ لِتَسْكُنُوا فِيهِ وَلِتَبْتَغُوا مِن فَضْلِهِ وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ (٧٣) ﴾ [القصص].

ولولا خلقُ الله تعالى الشمسَ وتسخيرُها لنفع الأرض لما انتظمت الحياة فيها على هذا النظام البديع، فمن جراء الشمس تحدثُ ظواهرُ في الأرض من تبخير المياه، وتحريك الرياح؛ مما يسبب هطول الأمطار وانتفاع الأرض، وبث الحياة فيها.

والحبوبُ والثمار والنبات تنضج بتأثيرها، وتستمد طاقتها من حرارتها، وتنتقل هذه الطاقة إلى الحيوان، ثم إلى الإنسان عبر سلسلة غذائية منتظمة. وتحرق الشمس بحرارتها ما لا يعلم من الفطريات والجراثيم التي لولاها لانتشرت الأمراض والأوبئة فلا يبقى على الأرض حياة.

وحرارة الشمس تذكر العبد ضعفه وعجزه فلا يتكبر على عبادة الله وطاعته. خلقها الله تعالى وقدرها؛ فجعل مسافتها إلى الأرض تناسب إقامة الحياة على الأرض وعمارتها، فلو كانت أقرب مما هي عليه لأحرقت الأرض ومن عليها، ولو كانت أبعد لتجمدت الأرض ومن عليها(٤). ويظهر ذلك جلياً للإنسان في شدة البرد وشدة الحر مع

---

(٤) يذكر علماء الفلك أن للشمس نواة من الهليوم درجة حرارتها تتجاوز (٢٥) مليون درجة مئوية، تحيط بها منطقة إشعاع درجة حرارتها (١٥) مليون درجة مئوية ودرجة حرارة سطح الشمس (١٠) ملايين دوجة مئوية تقريباً، وما يصل الأرض من أشعتها هو واحد من مليار فقط (١/ ١٠٠٠٠٠٠٠٠٠) هكذا ذكر علماء الفلك وهي ـ والله أعلم ـ أرقام تقريبية وبعضها مبني على أسس علمية، وبعضها مجرد تخمينات، والله أعلم وانظر في ذلك: القرآن وعلوم العصر الحديث لإبراهيم فوزي، ومع الله في السماء، لأحمد زكي، وظواهر كونيه في القرآن، للحامدي.

عدم خروج الشمس من فلكها، أو تخلخلها عن مدارها، فالله تعالى خلقها وقدر بعدها وقربها بما يجعلها مسخرة لخدمة أهل الأرض ﴿وَالشَّمْسُ تَجْرِي لِمُسْتَقَرٍّ لَّهَا ذَلِكَ تَقْدِيرُ الْعَزِيزِ الْعَلِيمِ ﴿٣٨﴾ وَالْقَمَرَ قَدَّرْنَاهُ مَنَازِلَ حَتَّىٰ عَادَ كَالْعُرْجُونِ الْقَدِيمِ ﴿٣٩﴾ لا الشَّمْسُ يَنْبَغِي لَهَا أَن تُدْرِكَ الْقَمَرَ وَلا اللَّيْلُ سَابِقُ النَّهَارِ وَكُلٌّ فِي فَلَكٍ يَسْبَحُونَ ﴿٤٠﴾﴾ [يس].

نعم والله إنه تقدير العزيز العليم الذي خلق كل شيء فقدره تقديراً.

أعوذ بالله من الشيطان الرجيم ﴿هُوَ الَّذِي جَعَلَ الشَّمْسَ ضِيَاءً وَالْقَمَرَ نُورًا وَقَدَّرَهُ مَنَازِلَ لِتَعْلَمُوا عَدَدَ السِّنِينَ وَالْحِسَابَ مَا خَلَقَ اللَّهُ ذَلِكَ إِلاَّ بِالْحَقِّ يُفَصِّلُ الآيَاتِ لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ ﴿٥﴾﴾ [يونس] بارك الله ولكم في القرآن العظيم.

الخطبة الثانية

الحمد لله حمداً طيباً كثيراً مباركاً فيه كما ينبغي لجلاله وعظيم سلطانه، أحمده وأشكره وأتوب إليه وأستغفره، وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لاشريك له، وأشهد أن محمداً عبده ورسوله ﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ اعْبُدُوا رَبَّكُمُ الَّذِي خَلَقَكُمْ وَالَّذِينَ مِن قَبْلِكُمْ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ ﴿٢١﴾﴾ [البقرة].

أيها المؤمنون: للشمس وما يحدث منها من ظواهر ارتباط وثيق بيوم القيامة، فلأنها علامةٌ في الكون ظاهرة يراها كل البشر، كان اختلافُها واختلالُها عن نظامها علامةً على إيصاد باب التوبة، وآيةً على قيام الساعة، وذلك بطلوع الشمس من مغربها قال النبي عليه الصلاة والسلام: «**لا تنقطع الهجرة حتى تنقطع التوبة، ولاتنقطع**

التوبة حتى تطلع الشمس من مغربها» أخرجه أبو داود[٥]

وفي عرصات القيامة للشمس دور كبير في ذلك اليوم؛ إذ تدنو من رؤوس الخلائق فيتأذون ويطلبون سرعة القضاء، قال النبي عليه الصلاة والسلام: **«تدنو الشمس يوم القيامة من الخلق حتى تكون منهم كمقدار ميل فيكون الناس على قدر أعمالهم في العرق فمنهم من يكون إلى كعبيه، ومنهم من يكون إلى ركبتيه، ومنهم من يكون إلى حِقْوَيه، ومنهم من يلجمه العرق إلجاماً** وأشار النبي صلى الله عليه وسلم بيده إلى فيه» أخرجه مسلم[٦]، وعنده في حديث آخر قال عليه الصلاة والسلام: **«إن العرق يوم القيامة ليذهب في الأرض سبعين باعاً وإنه ليبلغ إلى أفواه الناس وآذانهم»**[٧]. ولا تستشكل - أيها المسلم - عدم إحراقها للناس في القيامة وهي بهذا القرب مع أنها لو دنت من الأرض قليلاً لصهرتها وأحرقتها؛ لأن أحوال القيامة تختلف عن أحوال الدنيا فلا تقاس بها، ولو صح أن تقاس بها لكان الموتُ أسرعَ من عرقِ الناس إلى آذانهم وأفواههم.

---

(٥) أخرجه أحمد (١/ ١٩٢) وأبوداود في الجهاد باب في الهجرة هل انقطعت (٢٤٧٩) والدارمي في السير باب الهجرة لاتنقطع (٢٥١٣) والطبراني في الكبير (١٩/ ٣٨٧) قال الهيثمي: ورجال أحمد ثقات (٥/ ٢٥١) وصححه الألباني في صحيح سنن أبي داود (٢١٦٦).

(٦) أخرجه مسلم في الجنة وصفة نعيمها وأهلها باب في صفة يوم القيامة (٢٨٦٤) والترمذي في صفة القيامة باب (٣) برقم (٢٤٢٣).

(٧) أخرجه مسلم في الجنة وصفة نعيمها وأهلها باب صفة يوم القيامة (٢٨٦٣).

وأما مصير الشمس بعد انتهاء العالم، وانقضاء الدنيا، فإنها تُكَوَّر وتصاحب القمر إلى نار جهنم، كما أخبر الله عن تكويرها في القرآن، وأخرج البخاري من حديث أبي هريرة رضي الله عنه عن النبي صلى الله عليه وسلم قال: «**الشمس والقمر مُكوَّران يوم القيامة**»(٨)، وفي رواية للطحاوي والبزار: «**الشمس والقمر ثوران يكوران في النار يوم القيامة**»، فقال الحسن: «وما ذنبهما؟» فقال أبو سلمة: «أحدثك عن رسول الله صلى الله عليه وسلم وتقول: وما ذنبهما»(٩)، وفي حديث أنس عند أبي يعلى أن الحكمة من ذلك «**ليراهما من عبدهما**»(١٠)، قال الخطابي: «ليس المرادُ بكونهما في النار تعذيبهما بذلك؛ ولكنه تبكيت لمن كان يعبدُهما في الدنيا ليعلموا أن عبادتهم لهما كانت

(٨) أخرجه البخاري في بدء الخلق باب صفة الشمس والقمر (٣٢٠٠) والبغوي في شرح السنة (٤٣٠٧).

(٩) أخرجه الطحاوي في شرح مشكل الآثار (١/ ١٧٠) برقم (١٨٣) وعزاه الحافظ في الفتح للبزار (٦/ ٣٤٦) وعزاه الألباني في السلسلة الصحيحة للبيهقي في البعث والنشور وللبزار والإسماعيلي والخطابي (١/ ١٩٢) وقد صححه الألباني في الصحيحه وقال: على شرط البخاري (١٢٤) وانظر: المطالب العالية (١٥٥٨).

(١٠) عزاه الحافظ في الفتح لأبي يعلى ولم أجده في مسنده ولا في كتب الزوائد، والموجود في مسند أبي يعلى حديث أنس بلفظ «**الشمس والقمر ثوران عقيران في النار**» (٧/ ٤١١٦)، وأما تلك الرواية فلم أعثر عليها، وذكر الألباني في السلسلة الصحيحة أنه أيضاً لم يرها في مسنده (١/ ١٩٤) وانظر: فتح الباري لابن حجر (٦/ ٣٤٦).

باطلاً»[١١]، وقيل: إنهما من النار فأعيدا فيها[١٢]، وقال الإسماعيلي: «لا يلزمُ من جعلهما في النار تعذيبهما فإن لله تعالى في النار ملائكة وحجارةً وغيرها لتكون لأهل النار عذاباً وآلةً من آلات العذاب وما شاء الله من ذلك فلا تكون هي معذبة»[١٣].

أيها الإخوة: كان تلك أجزاء من أخبار الشمس ومنافعها ومصيرها، تلك الشمس التي يهرب الناسُ من شدة حرها في الصيف، فهلا تذكروا حرارتها في الموقف حين تستخرج العرق من أجساد العباد، فتسيله في الأرض حتى يبلغ الآذان والأفواه. وهلا تذكروا ما هو أعظم من ذلك: حرارة جهنم التي لاتقضي عليهم فيموتوا، ولا يخفف عنهم من عذابها، ﴿**كُلَّمَا نَضِجَتْ جُلُودُهُمْ بَدَّلْنَاهُمْ جُلُودًا غَيْرَهَا لِيَذُوقُوا الْعَذَابَ**﴾ [النساء: ٥٦].

إن حرَّ الدنيا يذكر بحرِّ الآخرة، وإن لهب الشمس اللافح يذكر بلهبها في عرصات القيامة، ولن ينجي من حرِّ ذلك اليوم سفرٌ ولا سياحة، ولن يُطفيَ لهبَه تبريدٌ ولا ماء.

نعم! إنه لن ينجيَ من حرِّ ذلك اليوم، ولهبِ شمسه، ثم زفرة ناره إلا الإيمان والعملُ الصالح، والأخذ بالأسباب التي تجعلُ العبد في ظل الرحمن يوم لا ظل إلا ظلُّه. وويل لمن كان في الدنيا منعماً.

---

(١١) ورجحه الألباني وقال: هو الأقرب إلى لفظ الحديث، انظر: السلسلة الصحيحة (١/ ١٩٤) وفتح الباري (٦/ ٣٤٦).

(١٢) فتح الباري (٦/ ٣٤٦).

(١٣) فتح الباري (٦/ ٣٤٦).

وفي الآخرة معذباً، فاتقوا الله وأطيعوه، واحذروا الأسباب الموجبة للنار وشدة الحساب، فالسعيد من نجا في الآخرة. ثم صلوا وسلموا على نبيكم محمد بن عبدالله...

* * *

لمزيد من المعلومات عن عجائب الشمس وفوائدها انظر الكتب التالية:

١- القرآن وعلوم العصر الحديث لإبراهيم فوزي عراجي.

٢- مع الله في السماء للدكتور أحمد زكي.

٣- ظواهر كونية في القرآن لمحمد فيض الله الحامدي.

٤- القرآن إعجاز يتعاظم لشاكر عبدالجبار.

٥- الكون والتكوين في آيات الكتاب المبين لمحمد محمود عبدالله.

٦- من الإعجاز العلمي في القرآن في ضوء الدراسات الجغرافية الفلكية والطبيعية لحسن أبو العينين.

٧- مجلة المنار لرشيد رضا رحمه الله تعالى (٣٢/ ٧٧٣).

٨- مجلة كنوز الفرقان عدد (٧-٨) شعبان ورمضان عام ١٣٦٩هـ صفحة (٢٣).

٩- مجلة الفكر الإسلامي عدد (١٠) صفر ١٤٠٧هـ صفحة (٣٠).

١٠- مجلة الرسالة الإسلامية عدد (٨) رجب ١٣٩٤هـ صفحة (٢٦).

١١- مجلة الهداية عدد (١٧٤) شعبان١٤١٢هـ صفحة (٢٥).

١٢- مجلة الأزهر عدد (٨-٩) شوال وذو القعدة ١٣٨٤هـ صفحة (٩٦٠).

١٣- المجلة العربية عدد (١٠٩) صفر ١٤٠٧هـ صفحة (١٤) وعدد (١١٠) ربيع الأول ١٤٠٧هـ صفحة (١٤).

١٤- مجلة العربي عدد (٥) رمضان ١٣٧٨هـ صفحة (٧١).

٦- من دلائل الربوبية: إنزال المطر

الجمعة ٧/ ٧/ ١٤١٨هـ

الحمد لله، نحمده ونستعينه ونستغفره، ونعوذ بالله من شرور أنفسنا ومن سيئات أعمالنا، من يهده الله فلا مضل له، ومن يضلل فلا هادي له، وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له، وأشهد أن محمداً عبده ورسوله ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ حَقَّ تُقَاتِهِ وَلَا تَمُوتُنَّ إِلَّا وَأَنتُم مُّسْلِمُونَ (١٠٢)﴾ [آل عمران] ﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ اتَّقُوا رَبَّكُمُ الَّذِي خَلَقَكُم مِّن نَّفْسٍ وَاحِدَةٍ وَخَلَقَ مِنْهَا زَوْجَهَا وَبَثَّ مِنْهُمَا رِجَالًا كَثِيرًا وَنِسَاءً وَاتَّقُوا اللَّهَ الَّذِي تَسَاءَلُونَ بِهِ وَالْأَرْحَامَ إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلَيْكُمْ رَقِيبًا (١)﴾ [النساء] ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَقُولُوا قَوْلًا سَدِيدًا (٧٠) يُصْلِحْ لَكُمْ أَعْمَالَكُمْ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ وَمَن يُطِعِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ فَقَدْ فَازَ فَوْزًا عَظِيمًا (٧١)﴾ [الأحزاب].

أما بعد: فإن عظمة الله تعالى، وإنعامه على عباده ظاهر في كل ما يمر بالناس في حياتهم.

عظمةٌ في خلق السموات وما فيها من أبراج وأفلاك، وشمس وقمر، وعظمةٌ في خلق الأرض ومافيها من جبال وسهول، وأوديةٍ وبطاح، وبحار وأنهار، وأنواع الشجر والثمار، والزروع والحيوان.

مخلوقاتٌ في البر، وكائناتٌ في البحر، لا يعلمها ولا يحصيها ولا يرزقها إلا خالقها، تبارك اسمه، وتعالى جده، ولا إله غيره، سبحانه وبحمده!!

ومن مظاهر قدرته العظيمة، ودلائل نعمته على عباده: هذه المياهُ التي يرزقها عباده. يأمرُ السحاب فيجتمع، ثم يسيرُ بأمر الله تعالى إلى ما أراد من أرضه، ثم ينزله غيثاً مباركاً.

ومن أجمل لحظات عيش الإنسان في الدنيا: لحظاتُ نزول المطر، بل لا تكاد توجد صورة في الدنيا أجمل من نزول الغيث من السماء، لا سيما مع حاجة الناس والحيوان والأرض إلى الماء.

عمليات تتم لنزول هذا الغيث المبارك، من إنشاء السحاب، وإضاءة البرق، وتسبيح الرعد ﴿ **هُوَ الَّذِي يُرِيكُمُ الْبَرْقَ خَوْفًا وَطَمَعًا وَيُنشِئُ السَّحَابَ الثِّقَالَ (١٢) وَيُسَبِّحُ الرَّعْدُ بِحَمْدِهِ وَالْمَلائِكَةُ مِنْ خِيفَتِهِ وَيُرْسِلُ الصَّوَاعِقَ فَيُصِيبُ بِهَا مَن يَشَاءُ وَهُمْ يُجَادِلُونَ فِي اللَّهِ وَهُوَ شَدِيدُ الْمِحَالِ** ﴾ [الرعد].

وإن من طرق القرآن في الاستدلال على ربوبية الله تعالى وتوحيده: لفت الأنظار إلى قيمة هذا الماء، واحتياج الخلق إليه، وامتنان الخالق بإنزاله، ومن ثم تقرير ربوبيته ولزوم توحيده ﴿ **الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ الأَرْضَ فِرَاشًا وَالسَّمَاءَ بِنَاءً وَأَنزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَخْرَجَ بِهِ مِنَ الثَّمَرَاتِ رِزْقًا لَّكُمْ فَلا تَجْعَلُوا لِلَّهِ أَندَادًا وَأَنتُمْ تَعْلَمُونَ (٢٢)** ﴾ [البقرة] ﴿ **أَوَلَمْ يَرَوْا أَنَّا نَسُوقُ الْمَاءَ إِلَى الأَرْضِ الْجُرُزِ فَنُخْرِجُ بِهِ زَرْعًا تَأْكُلُ مِنْهُ أَنْعَامُهُمْ وَأَنفُسُهُمْ أَفَلا يُبْصِرُونَ (٢٧)** ﴾ [السجدة] ﴿ **وَلَئِن سَأَلْتَهُم مَّن نَّزَّلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَحْيَا بِهِ الأَرْضَ مِن بَعْدِ مَوْتِهَا لَيَقُولُنَّ اللَّهُ قُلِ الْحَمْدُ لِلَّهِ بَلْ أَكْثَرُهُمْ لا يَعْقِلُونَ** ﴾ [العنكبوت] ﴿ **أَمَّنْ خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضَ وَأَنزَلَ لَكُم مِّنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَنبَتْنَا بِهِ حَدَائِقَ ذَاتَ بَهْجَةٍ مَّا كَانَ لَكُمْ أَن تُنبِتُوا شَجَرَهَا أَإِلَهٌ مَّعَ اللَّهِ بَلْ هُمْ قَوْمٌ يَعْدِلُونَ (٦٠)** ﴾ [النمل]

﴿ خَلَقَ السَّمَوَاتِ بِغَيْرِ عَمَدٍ تَرَوْنَهَا وَأَلْقَىٰ فِي الْأَرْضِ رَوَاسِيَ أَن تَمِيدَ بِكُمْ وَبَثَّ فِيهَا مِن كُلِّ دَابَّةٍ وَأَنزَلْنَا مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَنبَتْنَا فِيهَا مِن كُلِّ زَوْجٍ كَرِيمٍ ﴿١٠﴾ هَٰذَا خَلْقُ اللَّهِ فَأَرُونِي مَاذَا خَلَقَ الَّذِينَ مِن دُونِهِ بَلِ الظَّالِمُونَ فِي ضَلَالٍ مُّبِينٍ ﴿١١﴾ ﴾ [لقمان] فالملاحظ في الآيات السابقات أن الامتنان بنعمة الغيث يعقبه التذكير بلزوم التوحيد لله تعالى.

وغذاءُ الإنسان طيلة حياته إنما كان من ثمرات هذا الماء الذي أنعم الله به على العباد ليتمتعوا ويؤمنوا ﴿ فَلْيَنظُرِ الْإِنسَانُ إِلَىٰ طَعَامِهِ ﴿٢٤﴾ أَنَّا صَبَبْنَا الْمَاءَ صَبًّا ﴿٢٥﴾ ثُمَّ شَقَقْنَا الْأَرْضَ شَقًّا ﴿٢٦﴾ فَأَنبَتْنَا فِيهَا حَبًّا ﴿٢٧﴾ وَعِنَبًا وَقَضْبًا ﴿٢٨﴾ وَزَيْتُونًا وَنَخْلًا ﴿٢٩﴾ وَحَدَائِقَ غُلْبًا ﴿٣٠﴾ وَفَاكِهَةً وَأَبًّا ﴿٣١﴾ مَّتَاعًا لَّكُمْ وَلِأَنْعَامِكُمْ ﴿٣٢﴾ ﴾ [عبس].

والحياة على الأرض لا تكون بلا ماء؛ فالبشر والحيوان والنبات لا يحيون إلا بالماء ﴿ وَجَعَلْنَا مِنَ الْمَاءِ كُلَّ شَيْءٍ حَيٍّ أَفَلَا يُؤْمِنُونَ ﴿٣٠﴾ ﴾ [الأنبياء] ﴿ وَأَنزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَخْرَجْنَا بِهِ أَزْوَاجًا مِّن نَّبَاتٍ شَتَّىٰ ﴿٥٣﴾ كُلُوا وَارْعَوْا أَنْعَامَكُمْ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَاتٍ لِّأُولِي النُّهَىٰ ﴿٥٤﴾ ﴾ [طه] ﴿ وَأَنزَلْنَا مِنَ الْمُعْصِرَاتِ مَاءً ثَجَّاجًا ﴿١٤﴾ لِّنُخْرِجَ بِهِ حَبًّا وَنَبَاتًا ﴿١٥﴾ وَجَنَّاتٍ أَلْفَافًا ﴿١٦﴾ ﴾ [النبأ] ﴿ وَأَنزَلْنَا مِنَ السَّمَاءِ مَاءً طَهُورًا ﴿٤٨﴾ لِّنُحْيِيَ بِهِ بَلْدَةً مَّيْتًا وَنُسْقِيَهُ مِمَّا خَلَقْنَا أَنْعَامًا وَأَنَاسِيَّ كَثِيرًا ﴿٤٩﴾ ﴾ [الفرقان].

والأرض تحيا بالماء، وتموت إذا فقدت الماء، وكذلك من عليها من الخلق، ﴿ وَاللَّهُ أَنزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَحْيَا بِهِ الْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَةً لِّقَوْمٍ يَسْمَعُونَ ﴿٦٥﴾ ﴾ [النحل].

وإذا كان الله تعالى قادراً على إحياء الأرض بالماء بعد موتها فهو كذلك قادر على بعث العباد ومحاسبتهم؛ لذا كان الإخبار في القرآن عن إحياء الأرض مثلاً مضروباً لبعث العباد يوم القيامة ﴿ وَتَرَى الْأَرْضَ هَامِدَةً فَإِذَا أَنزَلْنَا عَلَيْهَا الْمَاءَ اهْتَزَّتْ وَرَبَتْ وَأَنْبَتَتْ مِن كُلِّ زَوْجٍ بَهِيجٍ ﴿٥﴾ ذَلِكَ بِأَنَّ اللَّهَ هُوَ الْحَقُّ وَأَنَّهُ يُحْيِي الْمَوْتَى وَأَنَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴿٦﴾ وَأَنَّ السَّاعَةَ آتِيَةٌ لَّا رَيْبَ فِيهَا وَأَنَّ اللَّهَ يَبْعَثُ مَن فِي الْقُبُورِ ﴿٧﴾ ﴾ [الحج] ﴿ وَهُوَ الَّذِي يُرْسِلُ الرِّيَاحَ بُشْرًا بَيْنَ يَدَيْ رَحْمَتِهِ حَتَّى إِذَا أَقَلَّتْ سَحَابًا ثِقَالًا سُقْنَاهُ لِبَلَدٍ مَّيِّتٍ فَأَنزَلْنَا بِهِ الْمَاءَ فَأَخْرَجْنَا بِهِ مِن كُلِّ الثَّمَرَاتِ كَذَلِكَ نُخْرِجُ الْمَوْتَى لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ ﴿٥٧﴾ ﴾ [الأعراف] ﴿ وَمِنْ آيَاتِهِ أَنَّكَ تَرَى الْأَرْضَ خَاشِعَةً فَإِذَا أَنزَلْنَا عَلَيْهَا الْمَاءَ اهْتَزَّتْ وَرَبَتْ إِنَّ الَّذِي أَحْيَاهَا لَمُحْيِي الْمَوْتَى إِنَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴿٣٩﴾ ﴾ [فصلت] ﴿ وَاللَّهُ الَّذِي أَرْسَلَ الرِّيَاحَ فَتُثِيرُ سَحَابًا فَسُقْنَاهُ إِلَى بَلَدٍ مَّيِّتٍ فَأَحْيَيْنَا بِهِ الْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا كَذَلِكَ النُّشُورُ ﴿٩﴾ ﴾ [فاطر].

وما يُحدثه المطر من جمالٍ في الأرض - بإذن الله تعالى - مظنّة للفخر وغرور البشر لما رأوا من خضرتها وزينتها؛ ولضعفهم فإنهم ينسون موتها قبل الخضرة وبعدها، وكذلك الدنيا ينخدع البشر بزينتها وخضرتها فلربما ألهتهم عن الآخرة؛ فتزول الدنيا كما زالت الخضرة عن الأرض. فالدنيا هي الأرض المزدانة أوقات الأمطار والربيع؛ لكن هذه الزينة في الحياة ليست أبدية وإن طالت، فصاحبها قد يفتقر من بعد الغنى، ويضعف من بعد القوة، ويهرم من بعد الشباب، ولسوف يموت كما مات ذلك النبات الخضر الطيب ﴿ وَاضْرِبْ لَهُم مَّثَلَ الْحَيَاةِ

الدُّنْيَا كَمَاءٍ أَنزَلْنَاهُ مِنَ السَّمَاءِ فَاخْتَلَطَ بِهِ نَبَاتُ الأَرْضِ فَأَصْبَحَ هَشِيمًا تَذْرُوهُ الرِّيَاحُ وَكَانَ اللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ مُّقْتَدِرًا (٤٥)﴾ [الكهف] ﴿اعْلَمُوا أَنَّمَا الْحَيَاةُ الدُّنْيَا لَعِبٌ وَلَهْوٌ وَزِينَةٌ وَتَفَاخُرٌ بَيْنَكُمْ وَتَكَاثُرٌ فِي الأَمْوَالِ وَالأَوْلادِ كَمَثَلِ غَيْثٍ أَعْجَبَ الْكُفَّارَ نَبَاتُهُ ثُمَّ يَهِيجُ فَتَرَاهُ مُصْفَرًّا ثُمَّ يَكُونُ حُطَامًا وَفِي الآخِرَةِ عَذَابٌ شَدِيدٌ وَمَغْفِرَةٌ مِّنَ اللَّهِ وَرِضْوَانٌ وَمَا الْحَيَاةُ الدُّنْيَا إِلاَّ مَتَاعُ الْغُرُورِ (٢٠)﴾ [الحديد] ﴿إِنَّمَا مَثَلُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا كَمَاءٍ أَنزَلْنَاهُ مِنَ السَّمَاءِ فَاخْتَلَطَ بِهِ نَبَاتُ الأَرْضِ مِمَّا يَأْكُلُ النَّاسُ وَالأَنْعَامُ حَتَّىٰ إِذَا أَخَذَتِ الأَرْضُ زُخْرُفَهَا وَازَّيَّنَتْ وَظَنَّ أَهْلُهَا أَنَّهُمْ قَادِرُونَ عَلَيْهَا أَتَاهَا أَمْرُنَا لَيْلاً أَوْ نَهَارًا فَجَعَلْنَاهَا حَصِيدًا كَأَن لَّمْ تَغْنَ بِالأَمْسِ كَذَٰلِكَ نُفَصِّلُ الآيَاتِ لِقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ (٢٤)﴾ [يونس].

فما دام الأمر كذلك فلا بد إذاً من توحيد الله تعالى وطاعته، والحذر من الشرك والعصيان اغتراراً بالدنيا. وفي الآيات القرآنية، وأحوال الأرض قبل المطر وبعده آيات للمذكرين، وعبرة للمعتبرين، ومن لم يعتبر بكلام الله تعالى فليس له مُعتَبر.

جعلنا الله من أهل الاعتبار والادكار، وأعاذنا من الغفلة والذهول والنسيان، وأقول ما تسمعون واستغفر الله لي ولكم فاستغفروه.

الخطبة الثانية

الحمد لله رب العالمين، والعاقبة للمتقين، ولا عدوان إلا على الظالمين، وأشهد أن لا إله إلا الله ولي الصالحين، وأشهد أن محمداً عبده ورسوله النبي الأمين، صلى الله وسلم عليه وعلى آله وأصحابه والتابعين ومن تبعهم بإحسان إلى يوم الدين.

أما بعد: فاتقوا الله ربكم، واشكروه على ما أنعم به عليكم؛ فإن الشكر يزيد في النعم، والكفر مع النعم استدراج للعباد، فإياكم إياكم أن تكفروا نعمه؛ فإنه شديد الأخذ والمحال.

أيها الإخوة: إن نعم الله تعالى على عباده تزداد وتتكامل فهو سبحانه وتعالى يرزقهم الماء، ويخزنه لهم في الأرض؛ حتى ينتفعوا به دهراً طويلاً، مع أنه تعالى قادر على إذهابه ﴿**وَأَنزَلْنَا مِنَ السَّمَاءِ مَاءً بِقَدَرٍ فَأَسْكَنَّاهُ فِي الْأَرْضِ وَإِنَّا عَلَىٰ ذَهَابٍ بِهِ لَقَادِرُونَ** ﴿١٨﴾﴾ [المؤمنون: ١٨].

والعباد أضعف من أن يستطيعوا تخزينه إلا بأمر الله تعالى وإذنه، وما وهبه لهم من وسائل التخزين والحفظ، وعلمهم من صنع السدود ونحوها ﴿**وَأَرْسَلْنَا الرِّيَاحَ لَوَاقِحَ فَأَنزَلْنَا مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَسْقَيْنَاكُمُوهُ وَمَا أَنتُمْ لَهُ بِخَازِنِينَ**﴾ [الحجر: ٢٢] قال ابن كثير رحمه الله: «وما أنتم له بحافظين؛ بل نحن ننزله ونحفظه عليكم، ونجعله معيناً وينابيع في الأرض، ولو شاء تعالى لأغاره وذهب به؛ ولكن من رحمته أنزله وجعله عذباً، وحفظه في العيون والآبار والأنهار وغير ذلك؛ ليبقى لهم طول السنة يشربون ويسقون أنعامهم وزروعهم وثمارهم»[1]. اهـ

ومن رحمته بعباده ونعمته عليهم أنه ينزل ماءً عذباً فراتاً، عظيم النفع، طيب المذاق، ولو شاء لجعله ملحاً أجاجاً لا يطيقه الناس ﴿**أَفَرَأَيْتُمُ الْمَاءَ الَّذِي تَشْرَبُونَ** ﴿٦٨﴾ **أَأَنتُمْ أَنزَلْتُمُوهُ مِنَ الْمُزْنِ أَمْ نَحْنُ الْمُنزِلُونَ** ﴿٦٩﴾ **لَوْ نَشَاءُ جَعَلْنَاهُ أُجَاجًا فَلَوْلَا تَشْكُرُونَ** ﴿٧٠﴾﴾ [الواقعة].

---

(١) تفسير ابن كثير (٢/ ٨٥١) عند تفسير الآية (٢٢) من سورة الحجر.

نعم والله! إن هذه النعمة لحقيقة بالشكر، ليس شكراً باللسان فقط وإنما شكرٌ بالأفعال أيضاً.

إن من مظاهر كفر هذه النعمة: الإسراف في المياه ﴿إِنَّهُ لا يُحِبُّ الْمُسْرِفِينَ (١٤١)﴾ [الأنعام].

ومما يندى له الجبين ما تسخر فيه هذه النعمة من معصية الله تعالى!! نعم والله! إن كثيراً من الناس ليسخرونها في معصية الله تعالى، فإذا ما أُمطِروا واخضرت أرضهم وازدانت؛ خرجوا إلى المنتزهات والصحارى مصطحبين منكراتهم ومعاصيهم، من أنواع آلات اللهو المحرَّم؛ ليستمتعوا بها في نزهتهم. يعصون الله في أرضه، ويستمتعون بنعمته! فأي كفران هذا؟! وكثير منهم يضيعون الصلاة، ويؤخرونها عن وقتها؛ بل إن شهواتِ البعض بالغت في العصيان حتى أخذوا يجرون معهم في رحلاتهم أطباق الفضائيات ينصبونها في الصحارى والبراري؛ ليستمتعوا بما فيها من حفلات ماجنة، وغناء صاخب. وبعضهم لا يحفظ نساءه وبناته في هذه الرحلات؛ بل ربما خرجن وحدهن بلباس فيه من التهتك ما فيه، وفي ذلك عصيان للمولى، وافتتان لعباد الله، فهل هذا من شكر النعم؟!.

فاتقوا الله ربكم، وخذوا على أيدي السفهاء منكم، ومروا بالمعروف وانهوا عن المنكر ﴿وَتَعَاوَنُوا عَلَى الْبِرِّ وَالتَّقْوَىٰ وَلا تَعَاوَنُوا عَلَى الإِثْمِ وَالْعُدْوَانِ﴾ [المائدة: ٢] فهذا من الشكر، وإلا كانت النعم استدراجاً، والعاقبة عذاباً وهلاكاً. ألا وصلوا وسلموا على خير خلق الله كما أمركم بذلك ربكم.

٧- قدرة الله تعالى

الجمعة ١٤/٦/ ١٤٢٠هـ

﴿الْحَمْدُ للَّه فَاطِرِ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ جَاعِلِ الْمَلائِكَةِ رُسُلاً أُوْلِي أَجْنِحَةٍ مَّثْنَىٰ وَثُلاثَ وَرُبَاعَ يَزِيدُ فِي الْخَلْقِ مَا يَشَاءُ إِنَّ اللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾ [فاطر: ١]، و﴿تَبَارَكَ الَّذِي بِيَدِهِ الْمُلْكُ وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾ [الملك: ١]، أحمده وأشكره وأتوب إليه وأستغفره، وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له؛ تفرد بصفات الجلال والكمال، وتنزه عن الأنداد والأمثال. وأشهد أن محمداً عبده ورسوله؛ أعلم الناس بربهم، وأتقاهم لـه، صلى الله وسلم وبارك عليه وعلى آله وأصحابه والتابعين لهم بإحسان إلى يوم الدين.

أما بعد: فيا أيها الناس: اتقوا الله تعالى وأطيعوه، اتقوا من لـه ملك السموات والأرض وما فيهن وهو على كل شيء قدير، قدرتـه فوق كل قدرة، وقوته تغلب كل قوة. أرانا عجائب قدرته، ودلائل قوته فيما خلق وقدّر. خلق السموات والأرض، ثم قال لهما: ﴿ائْتِيَا طَوْعًا أَوْ كَرْهًا قَالَتَا أَتَيْنَا طَائِعِينَ﴾ [فصلت: ١١].

قدرته تعالى لا تخضع لما عرفه البشر من قوانين الكون والحياة؛ فقدرته تخرق هذه القوانين، ومن وضع هذه القوانين في الكون إلا هو سبحانه وتعالى! وقانون الكون يقتضي أن كل شيء يبنى لابد له من عمد لكيلا يسقط والله تعالى ﴿رَفَعَ السَّمَوَاتِ بِغَيْرِ عَمَدٍ تَرَوْنَهَا﴾ [الرعد: ٢]. قال ابن كثير رحمه الله تعالى: «أي هي مرفوعة بغير عمد كما ترونها،

وهذا هو الأكمل في القدرة، كما قال تعالى: ﴿وَيُمْسِكُ السَّمَاءَ أَن تَقَعَ عَلَى الأَرْضِ إِلاَّ بِإِذْنِهِ﴾ [الحج: ٦٥][1].

إن السماء لمن أكبر الأدلة على قدرة الخالق تبارك وتعالى في ارتفاعها، وما فيها من أنجم وأفلاك، وشمس وقمر وسحاب.

وفي الأرض من المخلوقات والعجائب ما يبهر العقول، ويستولي على النفوس ﴿وَفِي الأَرْضِ آيَاتٌ لِّلْمُوقِنِينَ﴾ [الذاريات: ٢٠] فيها من الآيات الدالة على عظمة خالقها وقدرته الباهرة مما قد ذرأ فيها من صنوف النبات والحيوان والمهاد والجبال والقفار والأنهار والبحار[2]، وما بث فيها من أنواع الدواب ﴿وَمِنْ آيَاتِهِ خَلْقُ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ وَمَا بَثَّ فِيهِمَا مِن دَابَّةٍ وَهُوَ عَلَىٰ جَمْعِهِمْ إِذَا يَشَاءُ قَدِيرٌ﴾ [الشورى: ٢٩].

ونوّع بقدرته هذه الدواب ﴿وَاللَّهُ خَلَقَ كُلَّ دَابَّةٍ مِّن مَّاءٍ فَمِنْهُم مَّن يَمْشِي عَلَىٰ بَطْنِهِ وَمِنْهُم مَّن يَمْشِي عَلَىٰ رِجْلَيْنِ وَمِنْهُم مَّن يَمْشِي عَلَىٰ أَرْبَعٍ يَخْلُقُ اللَّهُ مَا يَشَاءُ إِنَّ اللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾ [النور: ٤٥].

ومن دلائل قدرته تعالى: ما ينزل من السماء من ماء فيبقيه في الأرض ولو شاء لذهب به ﴿وَأَنزَلْنَا مِنَ السَّمَاءِ مَاءً بِقَدَرٍ فَأَسْكَنَّاهُ فِي الأَرْضِ وَإِنَّا عَلَىٰ ذَهَابٍ بِهِ لَقَادِرُونَ ⑱ فَأَنشَأْنَا لَكُم بِهِ جَنَّاتٍ مِّن نَّخِيلٍ وَأَعْنَابٍ لَّكُمْ فِيهَا فَوَاكِهُ كَثِيرَةٌ وَمِنْهَا تَأْكُلُونَ﴾ [المؤمنون: ١٨، ١٩].

إنه ـ تعالى ـ بقدرته وحكمته جعل حياة الأرض ومن عليها بهذا

---

(١) تفسير ابن كثير (٢/ ٧٧٢) عند تفسير الآية الثانية من سورة الرعد.

(٢) تفسير ابن كثير (٤/ ٣٦٢) عند تفسير الآية (٢٠) من سورة الذاريات.

الماء، إن ارتوت منه حيت، وإن فقدته ماتت، وكما يحيي الأرض بالماء فهو قادر على بعث المخلوقين، ولو كذّب المكذبون، وعاند المعاندون ﴿ وَمِنْ آيَاتِهِ أَنَّكَ تَرَى الْأَرْضَ خَاشِعَةً فَإِذَا أَنزَلْنَا عَلَيْهَا الْمَاءَ اهْتَزَّتْ وَرَبَتْ إِنَّ الَّذِي أَحْيَاهَا لَمُحْيِي الْمَوْتَىٰ إِنَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴾ [فصلت: ٣٩]، ﴿ فَانظُرْ إِلَىٰ آثَارِ رَحْمَتِ اللَّهِ كَيْفَ يُحْيِي الْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا إِنَّ ذَٰلِكَ لَمُحْيِي الْمَوْتَىٰ وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴾ [الروم: ٥٠].

لقد كذب المشركون والملاحدة بذلك، فلم يؤمنوا بقدرته تعالى على إحياء الموتى، وبعث الخلق مرة أخرى، ولم ينظروا إلى قدرته تعالى في خلق السموات والأرض التي هي أكبر من خلق هذا الإنسان ﴿ أَوَلَمْ يَرَوْا أَنَّ اللَّهَ الَّذِي خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ وَلَمْ يَعْيَ بِخَلْقِهِنَّ بِقَادِرٍ عَلَىٰ أَن يُحْيِيَ الْمَوْتَىٰ بَلَىٰ إِنَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴾ [الأحقاف: ٣٣]، ﴿ أَوَلَيْسَ الَّذِي خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ بِقَادِرٍ عَلَىٰ أَن يَخْلُقَ مِثْلَهُم بَلَىٰ وَهُوَ الْخَلَّاقُ الْعَلِيمُ (٨١) إِنَّمَا أَمْرُهُ إِذَا أَرَادَ شَيْئًا أَن يَقُولَ لَهُ كُن فَيَكُونُ (٨٢) فَسُبْحَانَ الَّذِي بِيَدِهِ مَلَكُوتُ كُلِّ شَيْءٍ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ ﴾ [يس: ٨١ - ٨٣]، ألا يقدر على إعادة الخلق كرة أخرى من خلق المرة الأولى؟! ألا تظهر قدرته لكل من يعقل وقد خلق الإنسان من طين، ومن ماء مهين، ومن صلصال من حمأ مسنون؟ وسواه من نطفة لا قيمة لها ﴿ أَيَحْسَبُ الْإِنسَانُ أَن يُتْرَكَ سُدًى (٣٦) أَلَمْ يَكُ نُطْفَةً مِّن مَّنِيٍّ يُمْنَىٰ (٣٧) ثُمَّ كَانَ عَلَقَةً فَخَلَقَ فَسَوَّىٰ (٣٨) فَجَعَلَ مِنْهُ الزَّوْجَيْنِ الذَّكَرَ وَالْأُنثَىٰ (٣٩) أَلَيْسَ ذَٰلِكَ بِقَادِرٍ عَلَىٰ أَن يُحْيِيَ الْمَوْتَىٰ ﴾ [القيامة: ٣٦ - ٤٠] بلى وعزة ربنا وقدرته ﴿ إِنَّهُ عَلَىٰ رَجْعِهِ

لَقَادِرٌ﴾ [الطارق: ٨].

وخلْقُ الإنسان، وسيره في الحياة، بداية ونهاية، وضعفاً وقوة، لمن دلائل قدرة الخالق سبحانه وتعالى. جعل للجنين في بطن أمه أطواراً ينمو فيها شيئاً شيئاً حتى يأذن بخروجه إلى الدنيا ضعيفاً، ثم يقوى، ثم يضعف حتى ينتهي، إنها لعبرة، وإنها لدليل قدرة؛ فتبارك الله أحسن الخالقين ﴿**اللَّهُ الَّذِي خَلَقَكُم مِّن ضَعْفٍ ثُمَّ جَعَلَ مِنْ بَعْدِ ضَعْفٍ قُوَّةً ثُمَّ جَعَلَ مِنْ بَعْدِ قُوَّةٍ ضَعْفًا وَشَيْبَةً يَخْلُقُ مَا يَشَاءُ وَهُوَ الْعَلِيمُ الْقَدِيرُ**﴾ [الروم: ٥٤].

رزق الإنسان العقل، وسخر له الخلق، وأمره بحمل الأمانة وعمارة الأرض، وإقامة الدين له تعالى؛ فآمن أقوام، وكفر آخرون؛ فكان الاختلاف والاحتراب على الأرض بين الإيمان والكفر، بين الهدى والضلال، بين الحق والباطل قائماً إلى قيام الساعة.

وقد أخبرنا أنه تعالى ينصر المؤمنين، ويُهلك المكذبين. من أغرق فرعون وجنده؟ ومن أرسل الريح على عاد وقومه؟ ومن أهلك ثمودَ بالصيحة؟ ومن خسف بقارون وداره؟ ومن دمّر جموعاً من المعاندين؟ ومن نصر أولياءه المؤمنين، وأظهر عباده المتقين؟ إنه الله تعالى وهو على كل شيء قدير.

لقد حذرنا سبحانه وتعالى من التمرد والعصيان، وأبان لنا عاقبة ذلك، وضرب لنا الأمثال بمن خلو قبلنا، وأوضح لنا أنه على كل شيء قدير، فقال في المكذبين ﴿**وَإِنَّا عَلَىٰ أَن نُّرِيَكَ مَا نَعِدُهُمْ لَقَادِرُونَ**﴾ [المؤمنون: ٩٥]، وقال في المنافقين: ﴿**وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ لَذَهَبَ بِسَمْعِهِمْ وَأَبْصَارِهِمْ**

﴿إِنَّ اللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾ [البقرة: ٢٠].

إنه تعالى حذّرنا من عاقبة القعود عن نصرة الدين مهما كانت التبعات والتضحيات، وإذا قصرنا فهو قادر على أن يبدلنا بخير منا ﴿وَإِن تَتَوَلَّوْا يَسْتَبْدِلْ قَوْمًا غَيْرَكُمْ ثُمَّ لا يَكُونُوا أَمْثَالَكُمْ﴾ [محمد: ٣٨]، ﴿فَلا أُقْسِمُ بِرَبِّ الْمَشَارِقِ وَالْمَغَارِبِ إِنَّا لَقَادِرُونَ ۝٤٠ عَلَىٰ أَن نُّبَدِّلَ خَيْرًا مِّنْهُمْ وَمَا نَحْنُ بِمَسْبُوقِينَ﴾ [المعارج: ٤٠, ٤١]، ﴿إِن يَشَأْ يُذْهِبْكُمْ أَيُّهَا النَّاسُ وَيَأْتِ بِآخَرِينَ وَكَانَ اللَّهُ عَلَىٰ ذَٰلِكَ قَدِيرًا﴾ [النساء: ١٣٣].

وما نعمل من طاعات تنفعنا ولا تنفعه تعالى، وما نقارف من عصيان يضرنا ولا يضر الله تعالى شيئاً.

ولما استنفر رسول الله ﷺ حياً من العرب فتثاقلوا عنه أمسك الله عز وجل عنهم القطر فكان عذابهم[٣] ﴿إِلَّا تَنفِرُوا يُعَذِّبْكُمْ عَذَابًا أَلِيمًا وَيَسْتَبْدِلْ قَوْمًا غَيْرَكُمْ وَلا تَضُرُّوهُ شَيْئًا وَاللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾ [التوبة: ٣٩]، ولا يستطيع أحد من الخلق أن يملك النفع والضر مهما بلغ؛ بل ذلك بيد الله سبحانه وتعالى ﴿وَإِن يَمْسَسْكَ اللَّهُ بِضُرٍّ فَلا كَاشِفَ لَهُ إِلَّا هُوَ وَإِن يَمْسَسْكَ بِخَيْرٍ فَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ۝١٧ وَهُوَ الْقَاهِرُ فَوْقَ عِبَادِهِ وَهُوَ الْحَكِيمُ الْخَبِيرُ﴾ [الأنعام: ١٧, ١٨].

إن البشر يشاهدون قدرة الله تعالى في الإهلاك والعذاب، ولا يملكون حيالها شيئاً مع كل ما وصلوا إليه من علوم وصناعات. يأمر الله

---

(٣) أخرجه أبو داود في الجهاد باب في نسخ نفير العامة بالخاصة (٢٥٠٦) والحاكم وصححه ووافقه الذهبي (٢/ ١٠٤) من حديث ابن عباس رضي الله عنهما.

تعالى الريح فتأتي تدمر ما أمرت به؛ تقتلع الأشجار، وتهدم البيوت، وتهلك من شاء الله تعالى، لا يملك البشر لها دفعاً. ويأتي الفيضان بأمر الله تعالى فيغرق المدن ومن فيها، والزلزلة آية أخرى من آيات قدرته تعالى، يسوي الله تعالى بها مدناً بالأرض في أقل من ثانية، فأين هي قوة البشر وقدرتهم، وأين دراساتهم وأبحاثهم، ومكتشفاتهم ومخترعاتهم؟ هل دفعت لله أمراً؟ أو منعت عذاباً؟ أو عطلت قدره؟! كلا؛ بل ما شاء الله تعالى كان، وما لم يشأ لم يكن، وهو على كل شيء قدير.

أعوذ بالله من الشيطان الرجيم ﴿**اللَّهُ الَّذِي خَلَقَ سَبْعَ سَمَوَاتٍ وَمِنَ الْأَرْضِ مِثْلَهُنَّ يَتَنَزَّلُ الْأَمْرُ بَيْنَهُنَّ لِتَعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ وَأَنَّ اللَّهَ قَدْ أَحَاطَ بِكُلِّ شَيْءٍ عِلْمًا**﴾ [الطلاق: ١٢].

بارك الله لي ولكم في القرآن العظيم..

الخطبة الثانية

الحمد لله حمداً يليق بجلال ربنا وعظيم سلطانه، أحمده وأشكره وأتوب إليه وأستغفره، وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له، وأشهد أن محمداً عبده ورسوله صلى الله وسلم وبارك عليه وعلى آله وأصحابه والتابعين لهم بإحسان إلى يوم الدين.

أما بعد: فيا أيها الناس: اتقوا الله تعالى وأطيعوه، وأخلصوا له الدين، فما خلقتم إلا لهذا، قال قتادة رحمه الله تعالى: «من تفكر

في خلق نفسه عرف أنه إنما خلق ولُيِّنت مفاصله للعبادة»[٤].

أيها الإخوة: إن المؤمن الحق لا يغتر بجاهه أو ماله أو قدرته، ويتبرأ من حوله وقوته، ويسأل الله الإعانة في أموره؛ فقدرته تعالى نافذة، فإذا سمع المؤمن المؤذن يقول: حي على الصلاة حي على الفلاح قال: لا حول ولا قوة إلا بالله، كأنه يقول: هذا الذي تدعوني إليه وهو الصلاة والفلاح أمر عظيم لا أستطيع مع ضعفي القيام به إلا إذا وفقني الله بحوله وقوته[٥]. إنه يطلب الإعانة من الله تعالى حتى في أمور دينه.

وإذا احتار بين أمرين لا يدري ما الخير له فيهما استخار الله تعالى وسأله بقدرته وعلمه أن يختار له الأحسن فقال: «**اللهم إني أستخيرك بعلمك، وأستقدرك بقدرتك، وأسألك من فضلك العظيم، فإنك تقدر ولا أقدر، وتعلم ولا أعلم، وأنت علام الغيوب**»[٦].

وإذا شكا وجعاً وألماً علم أن الله تعالى قادر على أن يذهب وجعه، وأن يسكن ألمه؛ فيضع يده على مكان الوجع ويقول: «**أعوذ بعزة الله**

---

(٤) تفسير الطبري والدر المنثور للسيوطي (٦/ ١٣٧).

(٥) فتح الباري لابن حجر (٢/ ١٠٩).

(٦) كما في حديث جابر الذي أخرجه البخاري في الدعوات باب الدعاء عند الاستخارة (٣٦٨٥)، وأبو داود في الصلاة باب الاستخارة (١٥٣٨)، والترمذي في الصلاة باب صلاة الاستخارة (٤٨٠)، والنسائي في النكاح باب الاستخارة (٣٢٥٥)، وابن ماجه في إقامة الصلاة باب صلاة الاستخارة (١٣٨٣).

وقدرته من شر ما أجد وأحاذر»[٧].

إن من قوي إيمانه بالله تعالى قوي يقنه بقدرة الله تعالى وقوته؛ فلا يعظم ولا يخاف إلا الله تعالى. لا يعظم مخلوقاً كتعظيم الله تعالى مهما كان له من الإنجازات والعطاءات، ومهما شاهد من قدرته وقوته؛ لأنه يعلم أن الله تعالى أقوى وأقدر.

ومن كان كذلك فإنه لا يظلم العباد؛ لأنه إن رأى قدرته فوق قدرتهم علم أن قدرة الله تعالى فوق قدرته، وهو كذلك لا يخاف الظلمة والمتسلطين؛ لأنه إن رأى أن قدرتهم فوق قدرته علم أن قدرة الله تعالى فوق قدرتهم.

والمؤمن مأمور دائماً أن يتذكر قدرة الله تعالى وقوته في كل أحواله وشؤونه؛ ولذا قال النبي صلى الله عليه وسلم لأبي هريرة: **«ألا أدلك على كلمة من تحت العرش، من كنز الجنة؟ تقول: لا حول ولا قوة إلا بالله، فيقول الله: أسلم عبدي واستسلم»** أخرجه الحاكم بإسناد صحيح[٨].

---

(٧) كما في حديث عثمان بن أبي العاص عند مسلم في السلام باب استحباب وضع يده على موضع الألم مع الدعاء (٢٢٠٢)، وأبي داود في الطب باب كيف الرقى (٣٨٩١)، والترمذي في الطب (٢٠٨١)، وابن ماجه في الطب باب ما عوذ به النبي صلى الله عليه وسلم (٣٥٢٢).

(٨) أخرجه البيهقي في السنن الكبرى (٢/ ١٨٤)، والحاكم وصححه ووافقه الذهبي (١/ ٢١) وله شاهد من حديث أبي موسى بلفظ: **«ألا أدلك على كلمة من كنز الجنة؟** قلت: بلى، قال: **لا حول ولا قوة إلا بالله»** أخرجه البخاري في الدعوات باب قول لا حول ولا قوة إلا بالله (٦٤٠٩).

فاتقوا الله تعالى وأطيعوه، واطلبوا منه العون في الأمور كلها، وتبرؤوا من حولكم وقوتكم، ولوذوا بحمى من هو على كل شيء قدير.

وصلوا وسلموا على محمد بن عبدالله كما أمركم بذلك ربكم.

(*) فائدة: للاستزادة في موضوع قدرة الله تعالى انظر:

١ ـ الأسماء والصفات للبيهقي (١/ ٣١٤) لكن يحذر من تأويله؛ لأنه ـ عفا الله عنه ورحمه ـ يميل إلى التأويل في بعض الصفات لكن يستفاد من الآثار المرفوعة والموقوفة التي ذكرها.

٢ ـ التوحيد لابن منده (٢/ ١٦٢).

٣ ـ فتاوى شيخ الإسلام ابن تيمية (٨/ ٧ ـ ٥٢) ففيه كلام نفيس جداً وتفصيل لا مزيد عليه.

٤ ـ شرح نونية ابن القيم للدكتور محمد خليل هراس (٢/ ٧٨).

٥ ـ فتح الباري لابن حجر كتاب القدر باب لا حول ولا قوة إلا بالله (١١/ ٥٠٩).

٦ ـ الحق الواضح المبين للشيخ عبدالرحمن السعدي (٤٥).

٧ ـ تفسير السعدي (٥/ ٦٢٤).

٨ ـ الكتب التي اهتمت بشرح الأسماء الحسنى عند اسم (القدير) أو صفة (القدرة).

٨- رحمة الله تعالى

الجمعة ١٩/ ٨/ ١٤٢٣هـ

الحمد لله رب العالمين، الرحمن الرحيم، مالك يوم الدين، أحمده وأشكره، وأتوب إليه وأستغفره، وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له؛ عمَّ برحمته جميع خلقه، خلقهم ورزقهم وأعطاهم، ورحم المؤمنين رحمة خاصة؛ فهداهم صراطه المستقيم، ووفقهم لعمل ما يرضيه، ثم منَّ عليهم بالخلد في دار النعيم.

وأشهد أن محمداً عبده ورسوله؛ رحمه ربه وأكرمه بالرسالة، وجعله رحمة للناس أجمعين ﴿**وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلاَّ رَحْمَةً لِّلْعَالَمِينَ**﴾ [الأنبياء: ١٠٧]، وملأ قلبه بالرحمة فكان رحيماً بأمته، مشفقاً عليها، يدلها على أسباب رحمة الله تعالى ﴿**لَقَدْ جَاءَكُمْ رَسُولٌ مِّنْ أَنفُسِكُمْ عَزِيزٌ عَلَيْهِ مَا عَنِتُّمْ حَرِيصٌ عَلَيْكُم بِالْمُؤْمِنِينَ رَءُوفٌ رَّحِيمٌ**﴾ [التوبة: ١٢٨]، صلى الله وسلم وبارك عليه وعلى آله وأصحابه ﴿**أَشِدَّاءُ عَلَى الْكُفَّارِ رُحَمَاءُ بَيْنَهُمْ تَرَاهُمْ رُكَّعًا سُجَّدًا يَبْتَغُونَ فَضْلاً مِّنَ اللَّهِ وَرِضْوَانًا**﴾ [الفتح: ٢٩]، والتابعين لهم بإحسان إلى يوم الدين.

أما بعد: فأوصيكم ـ أيها الناس ـ ونفسي بتقوى الله عزَّ وجلَّ، فإن التقوى سبب لرحمة الله تعالى ﴿**يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَآمِنُوا بِرَسُولِهِ يُؤْتِكُمْ كِفْلَيْنِ مِن رَّحْمَتِهِ وَيَجْعَل لَّكُمْ نُورًا تَمْشُونَ بِهِ وَيَغْفِرْ لَكُمْ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ**﴾ [الحديد: ٢٨]، وقال سبحانه: ﴿**وَاتَّقُوا اللَّهَ لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ**﴾ [الحجرات: ١٠].

أيها الإخوة المؤمنون: من أسماء الرب جلَّ جلاله، وتقدست أسماؤه: الرحمن والرحيم، ومن صفاته العلى جل في علاه: الرحمة، وهي رحمة عامة شاملة، شملت جميع خلقه.

واسم الرحمن: دال على صفة ذاتية، واسم الرحيم: دال على صفة فعلية.

قال ابن القيم رحمه الله تعالى: «إن الرحمنَ دال على الصفة القائمة به سبحانه، والرحيم دالٌ على أن الرحمة صفته، والثاني دال على أنه يرحم خلقه برحمته، وإذا أردت فهم هذا فتأمل قوله: ﴿**وَكَانَ بِالْمُؤْمِنِينَ رَحِيمًا**﴾ [الأحزاب:٤٣]، ﴿**إِنَّهُ بِهِمْ رَءُوفٌ رَّحِيمٌ**﴾ [التوبة:١١٧]، ولم يجئ قط (رحمن بهم) فعلم أن رحمن هو الموصوف بالرحمة، ورحيم هو الراحم برحمته»[(١)].

وقد جاء اسم الرحمن في القرآن في سبعة وخمسين موضعاً، وجاء اسم الرحيم في مئة وأربعة عشر موضعاً[(٢)].

وهذا يؤكد اتصاف ربنا جلَّ جلاله بالرحمة، وأنه رحيم بخلقه؛ إذ كُرِّر ذلك في آيات كثيرة من كتاب الله تعالى.

وصفة الرحمة لله تعالى هي صفة كمال لائقة بذاته كسائر صفاته العلى، وليست كرحمة المخلوقين التي يعتريها النقص والعجز والضعف بسبب نقصهم وعجزهم وضعفهم، والله تعالى له الكمال المطلق؛ فكانت

---

(١) بدائع الفوائد (١/ ٢٨)، وشرح نونية ابن القيم (١/ ١٤) وأيضاً (٢/ ٣٧).
(٢) انظر: النهج الأسمى في شرح أسماء الله الحسنى لمحمد النجدي (١/ ٧٧).

له الرحمة الكاملة التي لا نقص فيها بوجه من الوجوه.

إنها رحمة رحم بها عباده من ملائكة وإنس وجن وحيوان، ورحم بها جميع مخلوقاته، وإذا كان ما في الوجود من آثار التدبير والتصريف الإلهي شاهداً بملكه سبحانه؛ فإن ما لله تعالى على خلقه من الإحسان والإنعام شاهدٌ برحمةٍ تامةٍ وسعت كل شيء.

وآثار رحمته العامة والخاصة باديةٌ للعيان، ظاهرةٌ للعقلاء، أدركتها العقول، واستقرت في الفِطَر، وشاهدها الخلق.

فبرحمته جلَّ في علاه أوجد خلقه من العـدم، ورباهم بالنعم، ودبرهم أحسن تدبير، وصرفهم أجمل تصريف.

وبرحمته تعالى أرسل إلينا رسله، وأنزل علينا كتبه، وهدانا من الضلالة، وبصَّرنا من العمى، وأرشدنا من الغـي، ﴿لَقَدْ مَنَّ اللَّهُ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ إِذْ بَعَثَ فِيهِمْ رَسُولاً مِّنْ أَنفُسِهِمْ يَتْلُو عَلَيْهِمْ آيَاتِهِ وَيُزَكِّيهِمْ وَيُعَلِّمُهُمُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَإِن كَانُوا مِن قَبْلُ لَفِي ضَلالٍ مُّبِينٍ﴾ [آل عمران: ١٦٤].

وبرحمته تبارك وتعالى عرّفنا من أسمائه الحسنى، وصفاته العلى، وأفعاله الحكيمة ما عرفنا به أنه ربنا ومولانا ومعبودنا، وعلَّمنا ما لم نكن نعلم، وأرشدنا لمصالح ديننا ودنيانـا ﴿عَلَّمَ الإِنسَانَ مَا لَمْ يَعْلَمْ﴾ [العلق: ٥]، ﴿وَأَنزَلَ اللَّهُ عَلَيْكَ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَعَلَّمَكَ مَا لَمْ تَكُن تَعْلَمُ وَكَانَ فَضْلُ اللَّهِ عَلَيْكَ عَظِيمًا﴾ [النساء: ١١٣]، ﴿فَاذْكُرُوا اللَّهَ كَمَا عَلَّمَكُم مَّا لَمْ تَكُونُوا تَعْلَمُونَ﴾ [البقرة: ٢٣٩].

وبرحمته تعالى خلق الشمس والقمر والأنجم، وجعل الليل والنهار،

وبسط الأرض وجعلها مهاداً وفراشاً وقراراً وكفاتاً للأحياء والأموات ﴿تَبَارَكَ الَّذِي جَعَلَ فِي السَّمَاءِ بُرُوجًا وَجَعَلَ فِيهَا سِرَاجًا وَقَمَرًا مُّنِيرًا (٦١) وَهُوَ الَّذِي جَعَلَ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ خِلْفَةً لِّمَنْ أَرَادَ أَن يَذَّكَّرَ أَوْ أَرَادَ شُكُورًا﴾ [الفرقان: ٦١-٦٢].

وبرحمته ينشئ السحاب، وينزل الغيث، ويحيي الأرض بعد موتها، ويخرج للأحياء من شجرها وخضرتها وثمارها، وسائر أرزاقها ما يأكلون وما يقتاتون، وسخر لهم ما في الأرض مما ينفعهم وينفع دوابهم، وسخر لهم ما يحملهم في البر والبحر والجو ﴿فَانظُرْ إِلَىٰ آثَارِ رَحْمَتِ اللَّهِ كَيْفَ يُحْيِي الْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا إِنَّ ذَٰلِكَ لَمُحْيِي الْمَوْتَىٰ وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾ [الروم: ٥٠]، ﴿وَسَخَّرَ لَكُم مَّا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ جَمِيعًا مِّنْهُ﴾ [الجاثية: ١٣]، ﴿وَالْخَيْلَ وَالْبِغَالَ وَالْحَمِيرَ لِتَرْكَبُوهَا وَزِينَةً وَيَخْلُقُ مَا لَا تَعْلَمُونَ﴾ [النحل: ٨]، ﴿وَسَخَّرَ لَكُمُ الْفُلْكَ لِتَجْرِيَ فِي الْبَحْرِ بِأَمْرِهِ وَسَخَّرَ لَكُمُ الْأَنْهَارَ﴾ [إبراهيم: ٣٢]، ﴿وَهُوَ الَّذِي يُنَزِّلُ الْغَيْثَ مِن بَعْدِ مَا قَنَطُوا وَيَنشُرُ رَحْمَتَهُ وَهُوَ الْوَلِيُّ الْحَمِيدُ﴾ [الشورى: ٢٨].

ومن رحمته جلَّ جلاله أنه أحوجَ الخلقَ بعضَهم إلى بعض لتتم مصالحهم، ولو أغنى بعضهم عن بعض لتعطلت مصالحهم، وانحل نظامهم، وكان من تمام رحمته بهم أن جعلَ فيهم الغني والفقير، والعزيز والذليل، والعاجز والقادر، والراعي والمرعي، ثم أفقر الجميع إليه، ثم عمَّ الجميع برحمته(٣).

﴿أَهُمْ يَقْسِمُونَ رَحْمَتَ رَبِّكَ نَحْنُ قَسَمْنَا بَيْنَهُم مَّعِيشَتَهُمْ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا

---

(٣) انظر: مختصر الصواعق المرسلة (٢/ ٣٠٣ ـ ٣٠٤).

وَرَفَعْنَا بَعْضَهُمْ فَوْقَ بَعْضٍ دَرَجَاتٍ لِيَتَّخِذَ بَعْضُهُم بَعْضًا سُخْرِيًّا وَرَحْمَتُ رَبِّكَ خَيْرٌ مِمَّا يَجْمَعُونَ﴾ [الزخرف: ٣٢].

وبرحمته جلَّ في علاه وضع الرحمة بين عباده ليتراحموا بها، وكذلك بين سائر أنواع الحيوان، فهذا التراحم الذي بينهم بعض آثار الرحمة التي هي صفته ونعمته، واشتقَّ لنفسه منها اسم (الرحمن الرحيم) وبهذه الرحمة قوام العالم ونظامه.

قال النبي صلى الله عليه وسلم: «**إن الله خلق الرحمة يوم خلق السموات والأرض مئة رحمة كل رحمة طباق ما بين السموات والأرض** ـ وفي رواية: **فأمسك عنده تسعاً وتسعين رحمةً وأرسل في خلقه كلهم رحمة واحدة**» وفي رواية: «**إن لله مئة رحمة أنزل منها رحمة واحدة بين الجن والإنس والبهائم والهوام، فبها يتعاطفون وبها يتراحمون، وبها تعطف الوحشُ على ولدها** ـ وفي رواية: **حتى ترفع الدابة حافرها عن ولدها خشية أن تصيبه** ـ **وأخَّر الله تسعاً وتسعين رحمة يرحم بها عباده يوم القيامة**» رواه الشيخان(٤).

إن أوسع المخلوقات شيئاً عرش الرحمن الرحيم، وأوسعَ الصفاتِ رحمته؛ فاستوى على عرشه الذي وسع كل المخلوقات بصفة رحمته

---

(٤) أخرجه من حديث أبي هريرة رضي الله عنه البخاري في التوحيد باب: ﴿وَيُحَذِّرُكُمُ اللَّهُ نَفْسَهُ﴾ [آل عمران: ٢٨] (٧٤٠٤)، ومسلم في التوبة باب: سعة رحمة الله تعالى وأنها تغلب غضبه (٢٧٥١ ـ ٢٧٥٢)، وأخرجه من حديث سلمان الفارسي رضي الله عنه مسلم (٢٧٥٣)، وهذه الروايات كلها لمسلم.

التي وسعت كل شيء، ولما استوى على عرشه باسم (الرحمن) الذي اشتقه من صفة الرحمة، وتسمى به دون خلقه، كتب بمقتضاه على نفسه يوم استوائه على عرشه حين قضى الخلق كتاباً فهو عنده وضعه على عرشه أن رحمته سبقت غضبه، وكان هذا الكتابُ العظيم الشأن كالعهدِ منه سبحانه للخليقة كلها بالرحمة لهم، والعفو عنهم، والمغفرة والتجاوزِ والستر والإمهال والحلم والأناة؛ فكان قيام العالم كله في السماء والأرض بمضمون هذا الكتاب الذي لولاه لكان للخلق شأن آخر[(٥)].

وقد روى الشيخان من حديث أبي هريرة رضي الله عنه عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال: «**لما خلق الله الخلق كتب كتابه: إن رحمتي تغلب غضبي**»، وفي رواية: «**إن رحمتي سبقت غضبي**»[(٦)].

وهذا موافق لقوله سبحانه: ﴿**كَتَبَ عَلَىٰ نَفْسِهِ الرَّحْمَةَ**﴾ [الأنعام: ١٢]، وهو جلَّ ذكره يكتب على نفسه ما شاء؛ لأنه لا آمر له ولا ناهي يوجب عليه ما يطالبه به، ولكنه سبحانه إذا وعد عباده وعداً أنجزه ﴿**وَعْدَ اللَّهِ لا يُخْلِفُ اللَّهُ الْمِيعَادَ**﴾ [الزمر: ٢٠]، ﴿**وَمَنْ أَوْفَىٰ بِعَهْدِهِ مِنَ اللَّهِ**﴾ [التوبة: ١١١].

ومن رحمته تعالى أنه يُعيذ من سخطه برضاه، ومن عقوبته بعفوه، ومن نفسه بنفسه.

(٥) مختصر الصواعق المرسلة (٢/ ٣٠٣ ـ ٣٠٤).

(٦) نفس الحديث المخرج في هامش (٤) بلفظ آخر.

وخَلْقُ الجنة وما فيها من النعيم المقيم ما هو إلا رحمةٌ منه سبحانه بعباده المؤمنين، فبرحمته خلقت، وبرحمته عمرت بأهلها، وبرحمته وصلوا إليها، وبرحمته طاب عيشهم فيها.

روى الشيخان من حديث أبي هريرة رضي الله عنه أن النبي صلى الله عليه وسلم قال: «**ما من أحد يُدخله عمله الجنة**، فقيل: ولا أنت يا رسول الله، قال: **ولا أنا إلا أن يتغمدني ربي برحمة**» وفي رواية: «**إلا أن يتغمدني ربي برحمة منه وفضل**»(٧).

ومن رحمته تعالى أنه ما عذب العصاة من عباده إلا بعد أن ابتلاهم، وبين لهم طريق الحق فرفضوه، ودلهم على الخير فما قبلوه، ولو شاء سبحانه لعذبهم بلا ابتلاء ولا اختبار، ولو فعل لكان ذلك عدلاً منه؛ لأنه خلقهم ويتصرف فيهم كيف شاء، ولكن رحمته التي وسعت كل شيء اقتضت أن يُعْذِرَ إليهم، ويقيمَ الحجة عليهم قبل أن يعذبهم ﴿**رُسُلاً مُبَشِّرِينَ وَمُنذِرِينَ لِئَلاَّ يَكُونَ لِلنَّاسِ عَلَى اللَّهِ حُجَّةٌ بَعْدَ الرُّسُلِ**﴾ [النساء: ١٦٥].

وآثار رحمة الله تعالى على خلقه ليس يحدها الحد، ولا يحصيها العد؛ ففي كل شأن من شؤون الخلق تجد آثاراً لرحمة أرحم الراحمين بهم.

قال ابن القيم رحمه الله تعالى: «وتأمل قوله تعالى: ﴿**الرَّحْمَنُ** ۝١

---

(٧) أخرجه البخاري في المرضى باب: تمني المريض الموت (٥٦٧٣)، ومسلم في صفات المنافقين باب: لن يدخل أحد الجنة بعمله بل برحمة الله تعالى (٢٨١٦)، والرواية الأولى لمسلم، والثانية للبخاري.

عَلَّمَ الْقُرْآنَ (٢) خَلَقَ الإِنسَانَ (٣) عَلَّمَهُ الْبَيَانَ﴾ [الرحمن: ١-٤] كيف جعل الخلق والتعليم ناشئاً عن صفة الرحمة، متعلقاً باسم الرحمن، وجعل معاني السورة مرتبطةً بهذا الاسم، وختمها بقوله: ﴿تَبَارَكَ اسْمُ رَبِّكَ ذِي الْجَلالِ وَالإِكْرَامِ﴾ [الرحمن: ٧٨]، فالاسم الذي تبارك هو الذي افتتح به السورة، وهو اسم «الرحمن» إذ مجيءُ البركة كلها منه، وبه وضعت البركةُ في كل مبارك... إلى أن قال رحمه الله: وإذا أراد الله بأهلِ الأرض خيراً نشر عليهم أثراً من آثار اسمه الرحمن، فعمر به البلاد وأحيا به العباد، وإذا أراد بهم شراً أمسك عنهم ذلك الأثر، فحلَّ بهم من البلاء بحسب ما أمسك عنهم من آثار اسمه الرحمن... وأنت لو تأملت العالم بعين البصيرة لرأيته ممتلئاً بهذه الرحمة الواحدة التي أنزلها إلى الأرض كامتلاء البحر بمائه، والجو بهوائه، فسبحان أحكمِ الحاكمين وأرحم الراحمين»[٨].

أعوذ بالله من الشيطان الرجيم: ﴿هُوَ اللَّهُ الَّذِي لا إِلَهَ إِلاَّ هُوَ عَالِمُ الْغَيْبِ وَالشَّهَادَةِ هُوَ الرَّحْمَنُ الرَّحِيمُ﴾ [الحشر: ٢٢].

بارك الله لي ولكم في القرآن العظيم،،،

الخطبة الثانية

الحمد لله رب العالمين، والعاقبة للمتقين، ولا عدوان إلا على الظالمين، وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له ولي الصالحين، وأشهد أن محمداً عبده ورسوله صلى الله وسلم وبارك عليه وعلى آله

(٨) مختصر الصواعق المرسلة (٢/ ٣٠٤ ـ ٣٠٥).

وأصحابه أجمعين، ومن تبعهم بإحسان إلى يوم الدين.

أما بعد: فاتقوا الله تعالى بفعل ما أمر، واجتنبوا الفواحش ما بطن منها وما ظهر، واعلموا أن الله شديد العقاب وأنه غفور رحيم.

أيها المؤمنون: من آثارِ رحمة الله تعالى بعباده أن فتح للعصاة منهم أبواب التوبة، فمهما أسرفوا على أنفسهم في الذنوب، ومهما ارتكبوا من الشرك والكفر والعصيان فإنهم إذا تابوا وصدقوا مع الله تعالى قبل اللهُ توبتهم، وزكى أعمالهم، وعفا عن ماضيهم ﴿**قُلْ يَا عِبَادِيَ الَّذِينَ أَسْرَفُوا عَلَىٰ أَنفُسِهِمْ لَا تَقْنَطُوا مِن رَّحْمَةِ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ يَغْفِرُ الذُّنُوبَ جَمِيعًا إِنَّهُ هُوَ الْغَفُورُ الرَّحِيمُ**﴾ [الزمر: ٥٣].

وروى الشيخان من حديث أبي هريرة رضي الله عنه عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال: «**لو يعلم المؤمن ما عند الله من العقوبة ما طمع بجنته أحد، ولو يعلم الكافر ما عند الله من الرحمة ما قنط من جنته أحد**»(٩).

وأحظُ الناس برحمة الله تعالى أهل طاعته، الذين آمنوا به، وصدقوا رسله، والتزموا شريعته، وجانبوا المعاصي والمحرمات. وإذا تسلط عليهم الشيطان فاستزلهم، وزين لهم المعصية فوقعوا فيها سرعان ما يرجعون ويتوبون ﴿**وَرَحْمَتِي وَسِعَتْ كُلَّ شَيْءٍ فَسَأَكْتُبُهَا لِلَّذِينَ يَتَّقُونَ وَيُؤْتُونَ**

---

(٩) أخرجه البخاري في الرقائق باب الرجاء مع الخوف (٦٤٦٩)، ومسلم في التوبة باب في سعة رحمة الله تعالى وأنها تغلب غضبه (٢٧٥٥)، واللفظ لمسلم.

الزَّكَاةَ وَالَّذِينَ هُم بِآيَاتِنَا يُؤْمِنُونَ ﴾ [الأعراف: ١٥٦]، ﴿ **وَالَّذِينَ إِذَا فَعَلُوا فَاحِشَةً أَوْ ظَلَمُوا أَنفُسَهُمْ ذَكَرُوا اللَّهَ فَاسْتَغْفَرُوا لِذُنُوبِهِمْ وَمَن يَغْفِرُ الذُّنُوبَ إِلاَّ اللَّهُ وَلَمْ يُصِرُّوا عَلَىٰ مَا فَعَلُوا وَهُمْ يَعْلَمُونَ (١٣٥) أُوْلَئِكَ جَزَاؤُهُم مَّغْفِرَةٌ مِّن رَّبِّهِمْ وَجَنَّاتٌ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا وَنِعْمَ أَجْرُ الْعَامِلِينَ** ﴾ [آل عمران: ١٣٥ -١٣٦].

وأبعد الناس عن رحمة الله تعالى من عبدوا غيره، وخضعوا لسواه، وقدموا أهواءهم على شريعته، وارتكبوا مناهيه، وخالفوا أوامره..

وبقدر قرب العبد من الله تعالى محبةً، وخوفاً، ورجاءً، وإنابة والتزاماً بفرائضه يكون قربه من نيل رحمة الله تعالى وعفوه. وتبعدُ رحمة الله تعالى عن العبد بقدرِ ابتعاده عن شريعته.

فحذارِ أن تغرَ العبدَ نفسُه فيتكل على رحمة الله تعالى بلا عمل صالح، فكما أنه سبحانه غفور رحيم فهو كذلك شديد العقاب، وسريع العقاب، وعزيز ذو انتقام، وبطشه شديد، وأخذه أليم ﴿ **وَكَذَٰلِكَ أَخْذُ رَبِّكَ إِذَا أَخَذَ الْقُرَىٰ وَهِيَ ظَالِمَةٌ إِنَّ أَخْذَهُ أَلِيمٌ شَدِيدٌ (١٠٢) إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَةً لِّمَنْ خَافَ عَذَابَ الآخِرَةِ** ﴾ [هود: ١٠٢ -١٠٣].

أيها الإخوة: ما أحوج المسلمين في هذا العصر إلى النظر بعين الاعتبار واليقين إلى رحمة أرحم الراحمين؛ حيث تكالب الأعداء على دينهم، وأحاطت بهم المشكلات من كل جوانبهم، وعمت الأزمات بلدانهم، وزين لهم شياطين الجن والإنس من قوى ظالمة، ومنافقين موتورين أنه لا مخرج من هذه الأزمات والمشكلات إلا بتبديل دينهم،

وتغيير شريعتهم، واستبدالها بما يرضي الكافرين والمنافقين، وهذا والله هو الابتلاءُ للمؤمنين الصادقين، وهو الفتنة لضعفاء الإيمان واليقين.

فإن ثبت المؤمنون على دينهم، ورفضوا تبديل شريعتهم، وتحملوا تبعات ذلك فإنهم قد أحسنوا، ورحمةُ الله تعالى قريب من المحسنين. ومن تزعزع منهم، وتفلت من دينه، وتنازل عن شريعة ربه؛ فإنه يضر نفسه ولا يضر الله شيئاً، وكيف يطلب رحمة الله تعالى من غير دينه، وترك شريعته؟!

ومن رحمة الله تعالى بعباده المؤمنين أنه يثبتهم في الابتلاءات، ويربط على قلوبهم، ويقوي نفوسهم. وكلما زاد الظالمون في ابتلائهم ومحاولة فتنتهم لَحَظَ المؤمنون رحمة الله تعالى، فطمعوا فيها، فثبتوا وتحملوا ألوان الأذى والعذاب؛ كما ثبت سحرة فرعون على إيمانهم لما هددهم فرعون بقوله: ﴿فَلَأُقَطِّعَنَّ أَيْدِيَكُمْ وَأَرْجُلَكُم مِّنْ خِلَافٍ وَلَأُصَلِّبَنَّكُمْ فِي جُذُوعِ النَّخْلِ وَلَتَعْلَمُنَّ أَيُّنَا أَشَدُّ عَذَابًا وَأَبْقَىٰ ﴿٧١﴾ قَالُوا لَن نُّؤْثِرَكَ عَلَىٰ مَا جَاءَنَا مِنَ الْبَيِّنَاتِ وَالَّذِي فَطَرَنَا فَاقْضِ مَا أَنتَ قَاضٍ إِنَّمَا تَقْضِي هَٰذِهِ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا ﴿٧٢﴾ إِنَّا آمَنَّا بِرَبِّنَا لِيَغْفِرَ لَنَا خَطَايَانَا وَمَا أَكْرَهْتَنَا عَلَيْهِ مِنَ السِّحْرِ وَاللَّهُ خَيْرٌ وَأَبْقَىٰ﴾ [طه: ٧١ -٧٣].

لقد ذهبوا وذهب فرعون وجنده، وبقي ثباتهم على الحق مكتوباً في صحائفهم؛ ليكون سبباً لرحمة الله تعالى لهم في قبورهم وفي آخرتهم، وما نفع فرعونَ كفرُه وعلوُه وجبروته؛ بل كان سبباً في بعده عن رحمة أرحم الراحمين، فغضب الله عليه، وعذبه في قبره قبل

نشره، ولعذاب الآخرة أخـزى ﴿النَّارُ يُعْرَضُونَ عَلَيْهَا غُدُوًّا وَعَشِيًّا وَيَوْمَ تَقُومُ السَّاعَةُ أَدْخِلُوا آلَ فِرْعَوْنَ أَشَدَّ الْعَذَابِ﴾ [غافر: ٤٦].

ألا وصلوا وسلموا على خير خلق الله كما أمركم بذلك ربكم.

٩- فضل لا إله إلا الله

الجمعة ١٩/ ١/ ١٤١٩هـ

الحمد لله، ولا نعبد إلا إياه، مخلصين له الدين ولو كره الكافرون، أحمده وأشكره، وأتوب إليه وأستغفره، تفرد بالجلال والكمال، وتنزه عن النظراء والأمثال، وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له، يتعبد الموحدون بذكره ﴿وَإِن مِّن شَيْءٍ إِلاَّ يُسَبِّحُ بِحَمْدِهِ﴾ [الإسراء: ٤٤] وأشهد أن محمداً عبده ورسوله، أرسله الله حتى يقرر أن لا إله إلا الله؛ فأقام الدين، ونشر التوحيد، وأوضح الشريعة، حتى توفاه الله تعالى، صلى الله وسلم وبارك عليه وعلى آله وأصحابه، أئمة الهدى، وأنوار الدجى، والتابعين لهم بإحسان إلى يوم الدين.

أما بعد: فيا أيها الناس، اتقوا الله تعالى وأطيعوه ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَلْتَنظُرْ نَفْسٌ مَّا قَدَّمَتْ لِغَدٍ وَاتَّقُوا اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ خَبِيرٌ بِمَا تَعْمَلُونَ (١٨)﴾ [الحشر: ١٨].

أيها المؤمنون: كلمةُ التقوى هي كلمةُ الإخلاص والتوحيد، لا إله إلا الله، وهي شهادةُ الحق ودعوةُ الحق، وبراءةٌ من الشركِ. لأجلها خُلِق الخلق، وأرسل الرسل، وأنزلت الكتب ﴿وَمَا خَلَقْتُ الْجِنَّ وَالإِنسَ إِلاَّ لِيَعْبُدُونِ﴾ [الذاريات: ٥٦] ﴿وَمَا أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ مِن رَّسُولٍ إِلاَّ نُوحِي إِلَيْهِ أَنَّهُ لا إِلَهَ إِلاَّ أَنَا فَاعْبُدُونِ﴾ [الأنبياء: ٢٥] ﴿يُنَزِّلُ الْمَلائِكَةَ بِالرُّوحِ مِنْ أَمْرِهِ عَلَىٰ مَن يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ أَنْ أَنذِرُوا أَنَّهُ لا إِلَهَ إِلاَّ أَنَا فَاتَّقُونِ﴾ [النحل: ٢] قالَ سفيانُ بنُ عيينه رحمَه الله تعالى: «ما أنعم الله على عبد من العباد

نعمة أعظم من أن عرّفهم لا إله إلا الله». [١]

لأجلِ هذه الكلمة أعدت دارُ الثواب ودارُ العقاب، ولأجلها أمرت الرسل بالجهاد؛ فمن قالها عصم ماله ودمه، ومن أباها فماله ودمه هدر.

هي مفتاحُ الجنةِ وثمنُها، وهي دعوة الرسل، وبها كلّم الله موسى كفاحاً، ومن كانت آخر كلامه من الدنيا دخل الجنة كما صح ذلك عن رسول الله صلى الله عليه وسلم [٢]، وهي موجبةٌ للمغفرة، ومنجاةٌ من النار. سمع النبي صلى الله عليه وسلم مؤذناً يقول: أشهد أن لا إله إلا الله، فقال: «**خرج من النار**» أخرجه مسلم [٣]، وقال أبوذرٍ رضي الله عنه: قلت: يا رسول الله، كلمني بعملٍ يقربني من الجنة ويباعدني من النار، قال: «**إذا عملت سيئةً فاعمل حسنة، فإنها عشرُ أمثالها**»،

---

(١) أخرجه ابن أبي الدنيا في الشكر (٩٥) وأبونعيم في الحلية (٧/ ٢٧٢).

(٢) كما في حديث معاذ رضي الله عنه عند أحمد (٥/ ٢٣٣) وأبي داود في الجنائز باب في التلقين (٣١١٦) والحاكم وصححه (١/ ٣٥١-٥٠٠) والبيهقي في الشعب (١/ ٥٥) وفي الأسماء والصفات (١٧٦) والطبراني في الكبير (٢٠/ ١١٢) ونقل ابن علان في الفتوحات تصحيح الحافظ ابن حجر له في شرح المشكاة (٤/ ١٠٩) وله شواهد من حديث حذيفة وأبي سعيد وأبي هريرة رضي الله عنهم.

(٣) أخرجه مسلم في الصلاة باب الإمساك عن الإغارة على قوم في دار الكفر إذا سمع فيهم الأذان (٣٨٢) وأبوعوانة في مستخرجه (١/ ٣٣٦) والنسائي في عمل اليوم والليلة (٨٣٤).

قلت: يا رسول الله، لا إله إلا الله من الحسنات؟ قال: «**هي أحسن الحسنات**» أخرجه أحمد(٤).

لا إله إلا الله تمحو الذنوب والخطايا، وتجدد ما درس من الإيمان في القلب، وهي أفضلُ الذكر، وأثقلُ شيء في الميزان، كما روى عبدُالله بنُ عمر رضي الله عنهما عن النبي صلى الله عليه وسلم: **أن نوحاً قال لابنه عند موته: «آمرك بلا إله إلا الله، فإن السموات السبع والأرضين السبع لو وضعت في كفة ووضعت لا إله إلا الله في كفة رجحت بهن لا إله إلا الله، ولو أن السموات السبع والأرضين السبع كنّ في حلْقة مبهمة فصمتهن لا إله إلا الله»** أخرجه أحمد بسند صحيح(٥).

إن هذه الكلمة العظيمة إذا قالها المسلم صعدت إلى السماء، وخرقت الحجب؛ حتى تصل إلى الله تعالى، أخرج الترمذي وحسنه من حديث أبي هريرة رضي الله عنه عن النبي صلى الله عليه وسلم قال: «**ما قال**

(٤) أخرجه أحمد في المسند (٥/ ١٦٩) وفي الزهد (٢٧) والطبري في تفسيره (٨/ ٨١) وهناد في الزهد (١٠٧١) والبيهقي في الأسماء والصفات (٢٠١) وأبونعيم في الحلية (٤/ ٢١٨) وابن عبدالبر في التمهيد (٦/ ٥٥٠) وهو حديث صحيح.

(٥) أخرجه أحمد (٢/ ١٧٠-٢٢٥) والبخاري في الأدب المفرد (٥٤٨) والحاكم وصححه (١/ ٤٨) والبيهقي في الأسماء والصفات (١٨٦) والبزار كما في كشف الاستار (٣٠٦٩) وصححه ابن كثير في البداية والنهاية (١/ ١١٩) وعزاه الهيثمي للطبراني وقال: ورجال أحمد ثقات (٤/ ٢٢٠) ورجح الشيخ أحمد شاكر تصحيحه في تخريجه للمسند (٦٥٨٣) وصححه الألباني في الصحيحة (١٣٤) وفي صحيح الأدب المفرد (٤٢٦).

عبدٌ لا إله إلا الله مخلصاً إلا فتحت له أبواب السماء حتى تفضي إلى العرش ما اجْتُنبت الكبائر» (٦).

هذه الكلمةُ أفضلُ الأعمال، وأكثرُها تضعيفاً، تحفظ العبد من الشيطان، وتعدلُ عتق الرقاب؛ كما قال النبي صلى الله عليه وسلم «من **قال: لا إله إلا الله وحده لاشريك له، له الملك وله الحمد وهو على كل شيء قدير في يوم مئة مرة كانت له عدل عشر رقاب، وكتبت له مئةُ حسنة، ومحيت عنه مئة سيئة، وكانت له حرزاً من الشيطان يومه ذلك حتى يمسي، ولم يأت أحد بأفضل مما جاء إلا رجل عمل أكثر منه»** متفق عليه. (٧)

وهي التي تفتح أبواب الجنة؛ كما جاء في حديث عمر رضي الله عنه عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال: «**ما منكم من أحد يتوضأ فيبلغ أو فيسبغ الوضوء ثم يقول: أشهد أن لا إله إلا الله وأن محمداً عبده ورسوله إلا فتحت له أبواب الجنة الثمانية يدخل من أيها شاء**» أخرجه مسلم. (٨)

---

(٦) أخرجه الترمذي في الدعوات باب دعاء أم سلمة وقال: هذا حديث حسن غريب من هذا الوجه (٣٥٩٠) والنسائي في عمل اليوم والليلة (٨٣٩) وحسنه الألباني في صحيح الجامع (٥٦٤٨).

(٧) أخرجه البخاري في الدعوات باب فضل التهليل (٦٤٠٣) ومسلم في الذكر والدعاء والتوبة والاستغفار باب فضل التهليل والتسبيح والدعاء (٢٦٩١).

(٨) أخرجه مسلم في الطهارة باب الذكر المستحب عقب الوضوء (٢٣٤).

تَحرمُ النارُ على من قالها مخلصاً؛ كما في حديث عتبانَ بن مالك رضي الله عنه عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال: «**إن الله حرم على النار من قال لا إله إلا الله يبتغي بذلك وجه الله**» أخرجه الشيخان (٩)، وعندهما أيضاً أن الله تعالى يقـول: «**وعزتي وجلالي لأخرجن من النار من قال: لا إله إلا الله**»(١٠)؛ ولهذا السبب فهي تقطع ظهر إبليس، كما قال سفيانُ الثوري: «ليس شيءٌ أقطع لظهر إبليس من لا إله إلا الله» (١١).

أيها الإخوة: هذا بعض من فضل لا إله إلا الله؛ ولكن هل ينالُ فضلها وبركتها من قالها بلسانه فقط؟

كلا؛ حتى يستيقن بها قلبه كما جاء في بعض الأحاديث «**مستيقناً**»(١٢)، وفي آخر «**خالصاً من قبل نفسه**»(١٣)، وفي آخر «**مخلصاً**»(١٤)، وفي

---

(٩) أخرجه البخاري في الصلاة باب المساجد في البيوت (٤٢٥) ومسلم في المساجد ومواضع الصلاة باب الرخصة في التخلف عن الجماعة لعذر (٣٣).

(١٠) أخرجه البخاري في التوحيد باب كلام الرب عزوجل يوم القيامة مع الأنبياء وغيرهم (٧٥١٠) ومسلم في الإيمان باب أدنى أهل الجنة منزلة فيها (١٩٣) وهو حديث الشفاعة الطويل.

(١١) سير أعلام النبلاء (٧/ ٢٦٠).

(١٢) كما في حديث أبي هريرة عند مسلم في الإيمان باب الدليل على أن من مات على التوحيد دخل الجنة قطعاً (٣١).

(١٣) كما في حديث أبي هريرة عند البخاري في الرقاق باب صفة الجنة والنار (٦٥٧٠).

(١٤) كما في حديث معاذ عند الحميدي (٣٦٩) وأحمد (٥/ ٢٣٦) وابن منده في الإيمان واللفظ له (١/ ١١١) وابن حبان (٢٠) وأبي نعيم (٧/ ٣١٢).

آخر «**يبتغي بذلك وجه الله**»(١٥)، وفي آخر «**يقولها حقاً من قلبه**»(١٦)؛ إذ تفيد هذه الأحاديث أنه لا يكفي قولُ اللسان.

نعم يكفي قولُ اللسان في حقن دمه وماله، ومعاملته في الدنيا كمسلم ما لم يأت بناقض لها، كما ثبت أن أسامة رضي الله عنه قتل رجلاً بعد أن قال: لا إله إلا الله فقال له رسول الله صلى الله عليه وسلم: «**يا أسامة، قتلته بعد أن قال لا إله إلا الله؟**» قال: يا رسول الله إنما قالها خوفاً من السلاح، قال: «**أفلا شققت عن قلبه حتى تعلم أقالها أم لا ؟**»، وفي رواية «**كيف تصنعُ بلا إله إلا الله إذا جاءت يوم القيامة**»، قال: يا رسول الله، استغفر لي، قال: «**وكيف تصنع بلا إله إلا الله إذا جاءت يوم القيامة؟**» قال أسامة رضي الله عنه: «فما زال يكررها حتى تمنيت أني أسلمت يومئذ». أخرجه الشيخان واللفظ لمسلم(١٧).

أما في الآخرة فلا تكون سبباً في دخول الجنة والنجاة من النار إلا باستكمال شروطها، وانتفاء موانعها، كما تواترت بذلك النصوص، قيل للحسن رحمه الله: «إن ناساً يقولون: من قال: لا إله إلا الله دخل الجنة؟ فقال: من قال: لا إله إلا الله فأدى حقها وفرضها دخل الجنة».

---

(١٥) كما في حديث عتبان بن مالك المخرج في هامش (٩).

(١٦) كما في حديث عمر بن الخطاب رضي الله عنه عند أحمد (١/ ٦٣) والحاكم وصححه ووافقه الذهبي (١/ ٧٢) وابن حبان (٢٠٤) وأبي نعيم (٢/ ٢٩٦).

(١٧) أخرجه البخاري في المغازي باب بعث النبي صلى الله عليه وسلم أسامة إلى الحرقات (٧/ ٥١٧) ومسلم في الإيمان باب تحريم قتل الكافر بعد أن قال لا إله إلا الله (٩٦-٩٧).

ولما سُئل وهبُ بنُ منبه رحمه الله: «أليس مفتاحُ الجنة لا إله إلا الله؟ قال: بلى ولكن ما من مفتاح إلا وله أسنان؛ فإن جئت بمفتاح له أسنان فتح لك، وإلا لم يفتح لك». وقال الحسنُ للفرزدقِ وهو يدفن امرأته: «ما أعددت لهذا اليوم ؟ قال: شهادة أن لا إله إلا الله منذُ سبعين سنة، قال الحسن: نعم العُدَّة، لكن لـ (لا إله إلا الله) شروطاً فإياك وقذف المحصنات» .(١٨)

قال الحافظ ابن رجب رحمه الله تعالى: «وتحقيق هذا المعنى وإيضاحُه أن قولَ العبد: لا إله إلا الله يقتضي أن لا إله له غيرُ الله، والإله: هو الذي يطاع فلا يعصى هيبة له وإجلالاً، ومحبة وخوفاً ورجاءً، وتوكلاً عليه، وسؤالاً منه، ودعاءً له، ولايصلح ذلك كلُه لغير الله عزوجل، فمن أشرك مخلوقاً في شيء من هذه الأمور التي هي من خصائص الإلهية كان ذلك قدحاً في إخلاصه في قول: لا إله إلا الله، ونقصاً في توحيده، وكان فيه من عبوديةِ المخلوق بحسب ما فيه من ذلك، وهذا كلُه من فروع الشرك؛ ولهذا ورد إطلاق الكفر والشرك على كثير من المعاصي التي منشؤها طاعةُ غير الله أو خوفه أو رجاؤه أو التوكل عليه والعمل لأجله». اهـ(١٩)

---

(١٨) انظر هذه الأثار في كلمة الاخلاص وتحقيق معناها للحافظ ابن رجب (٢١). وأثر وهب بن منبه ذكره البخاري تعليقاً في كتاب الجنائز باب ومن كان آخر كلامه: لا إله إلا الله.

(١٩) المصدر السابق لابن رجب (٢٨).

فمن ظن أن مجرَّد النطق بهذه الكلمة ينجيه من النار ويدخلُه الجنة، ولو لم يستيقن بها قلبُه، وتعمل بهذا اليقين جوارحُه فقد أخطأ في ظنه؛ لأن كثيراً ممن يقعون في نواقض الإسلام يقولونها، وكثيرٌ ممن يحاربون الإسلام وأهله من المنافقين يقولونها، ومنافقو عهد الرسالة الذين مردوا على النفاق كانوا يقولونها بحضرة النبي صلى الله عليه وسلم؛ حقناً لدمائهم وأموالهم! ومع ذلك أخبر الله أن المنافقين بفعلهم هذا يخادعون الله وهو خادعهم؛ فكان جزاؤهم أنهم في الدرك الأسفل من النار.

أعوذ بالله من الشيطان الرجيم ﴿**فَاعْلَمْ أَنَّهُ لا إِلَهَ إِلاَّ اللَّهُ وَاسْتَغْفِرْ لِذَنْبِكَ وَلِلْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ وَاللَّهُ يَعْلَمُ مُتَقَلَّبَكُمْ وَمَثْوَاكُمْ**﴾ [محمد: ١٩] بارك الله لي ولكم في القرآن العظيم...

الخطبة الثانية

الحمد لله حمداً طيباً كثيراً مباركاً فيه كما يحب ربنا ويرضى، أحمده وأشكره وأتوب إليه وأستغفره، وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لاشريك له، وأشهد أن محمداً عبده ورسوله صلى الله وسلم وبارك عليه وعلى آله وأصحابه والتابعين لهم بإحسان إلى يوم الدين.

أما بعد: فاتقوا الله تعالى؛ فإن الإيمان مع التقوى، يجعلُ العبد من الأولياء، وأولياءُ الله لهم البشرى ﴿**أَلا إِنَّ أَوْلِيَاءَ اللَّهِ لا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلا هُمْ يَحْزَنُونَ (٦٢) الَّذِينَ آمَنُوا وَكَانُوا يَتَّقُونَ (٦٣) لَهُمُ الْبُشْرَىٰ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَفِي الآخِرَةِ لا تَبْدِيلَ لِكَلِمَاتِ اللَّهِ ذَلِكَ هُوَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ (٦٤)**﴾ [يونس].

أيها الإخوة المؤمنون: اتباعُ الهوى من أعظم ما يعارض كلمة التوحيد لأن لا إله إلا الله تقتضي عدم طاعةِ الهوى، وإلا كان الإلهُ هو الهوى كما قال تعالى: ﴿ **أَفَرَأَيْتَ مَنِ اتَّخَذَ إِلَهَهُ هَوَاهُ** ﴾ [الجاثية: ٢٣] قال قتادة: «هو الذي كلما هوى شيئاً ركبه، وكلما اشتهى شيئاً أتاه، لايحجزه عن ذلك ورع ولا تقوى»(٢٠)، ويشهد لهذا قولُ النبي صلى الله عليه وسلم: «**تعس عبدُ الدينار، تعس عبدُ الدرهم، تعس عبدُ القطيفة، تعس عبدُ الخميصة، تعس وانتكس، وإذا شيك فلا انتقش**» أخرجه البخاري.(٢١)

فدل هذا على أن كلَّ من أحـبَّ شيئاً وأطاعه وكان غاية قصده ومطلوبه، ووالى لأجله، وعادى لأجله فهو عبده وكان ذلك الشيءُ معبودَه وإلهَه؛ ولذلك سمى الله طاعة الشيطان في المعصية عبادة للشيطان ﴿ **أَلَمْ أَعْهَدْ إِلَيْكُمْ يَا بَنِي آدَمَ أَن لاَّ تَعْبُدُوا الشَّيْطَانَ إِنَّهُ لَكُمْ عَدُوٌّ مُّبِينٌ (٦٠) وَأَنِ اعْبُدُونِي هَذَا صِرَاطٌ مُّسْتَقِيمٌ (٦١)** ﴾ [يس] فمن لم يتحقق بعبودية الرحمن وطاعته فإنه يعبد الشيطان بطاعته له، ولم يخلُص من عبادة الشيطان إلا من أخلص عبودية الرحمن.

ومن قال لا إله إلا الله بلسانه، ثم أطاع الشيطان وهواهُ في معصية الله ومخالفته فقد كـذّب فعلُه قولَه، ونقص من كمال توحيده بقـدر معصية الله تعالى في طاعة الشيطان والهوى ﴿ **وَمَنْ أَضَلُّ مِمَّنِ اتَّبَعَ هَوَاهُ**

---

(٢٠) انظر: المصدر السابق لابن رجب (٣٥).

(٢١) أخرجه البخاري في الجهاد والسير باب الحراسة في الغزو في سبيل الله (٢٧٨٧).

بغَيْرِ هُدًى مِّنَ اللَّهِ﴾ [القصص: ٥٠] ﴿ **وَلَا تَتَّبِعِ الْهَوَىٰ فَيُضِلَّكَ عَن سَبِيلِ اللَّهِ﴾** [ص: ٢٦].

قال الحسن: «اعلم أنك لن تحب الله حتى تحب طاعته». وقال أبو يعقوب النَّهْرَجُوري: «كلُّ من ادعى محبةَ الله ولم يوافق الله في أمره فدعواه باطلة». وقال يحيى بن معاذ: «ليس بصادق من ادعى محبة الله ولم يحفظ حدوده».(٢٢)

ومن هنا يُعلم أن من أتى بلا إله إلا الله ينجو من النار ويدخل الجنة برحمة الله تعالى بشرط أن يسلمَ من أنواع الظلم الثلاثة: ظلم الشرك، وظلم العباد، وظلم العبد نفسه بالمعاصي(٢٣)، فمن أشرك دخل النار، ومن ظلم العباد كان منه القصاص، ومن ظلم نفسه بالكبائر كان تحت المشيئة.

فاتقوا الله ربكم، واقدروا كلمة التوحيد حق قدرها، واعرفوا لها فضلها، وحققوا شروطها، وجانبوا نواقضها؛ حتى يكون لكم الأمن في الدنيا والآخرة، ثم صلوا وسلموا على خير خلق الله.

* * *

---

(٢٢) انظر هذه الآثار في: كلمة الإخلاص وتحقيق معناها لابن رجب (٤٠-٤١).

(٢٣) انظر: العروة الوثقى في ضوء الكتاب والسنة للدكتور سعيد بن وهف القحطاني (٤٠).

١٠- الرضى بالله تعالى رباً

١٤/ ٨/ ١٤٢٤هـ

إن الحمد لله، نحمده ونستعينه ونستغفره، ونعوذ بالله من شرور أنفسنا ومن سيئات أعمالنا، من يهده الله فلا مضل له، ومن يضلل فلا هادي له، وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له، وأشهد أن محمداً عبده ورسوله.. ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ حَقَّ تُقَاتِهِ وَلَا تَمُوتُنَّ إِلَّا وَأَنتُم مُّسْلِمُونَ﴾ [آل عمران: ١٠٢]، ﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ اتَّقُوا رَبَّكُمُ الَّذِي خَلَقَكُم مِّن نَّفْسٍ وَاحِدَةٍ وَخَلَقَ مِنْهَا زَوْجَهَا وَبَثَّ مِنْهُمَا رِجَالًا كَثِيرًا وَنِسَاءً وَاتَّقُوا اللَّهَ الَّذِي تَسَاءَلُونَ بِهِ وَالْأَرْحَامَ إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلَيْكُمْ رَقِيبًا﴾ [النساء: ١]، ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَقُولُوا قَوْلًا سَدِيدًا ﴿٧٠﴾ يُصْلِحْ لَكُمْ أَعْمَالَكُمْ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ وَمَن يُطِعِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ فَقَدْ فَازَ فَوْزًا عَظِيمًا﴾ [الأحزاب: ٧٠, ٧١].

أما بعد: فإن أحسن الحديث كلام الله تعالى، وخير الهدي هدي محمد صلى الله عليه وسلم، وشر الأمور محدثاتها، وكل محدثة بدعة، وكل بدعة ضلالة، وكل ضلالة في النار.

أيها الناس: الإيمانُ بالله تعالى، وسلوك صراطه المستقيم، والتزامُ شرعه الحنيف، واتباعُ سنة رسوله الكريم صلى الله عليه وسلم؛ نعمةٌ يمنّ الله تعالى بها على من أراد سعادته، ويحرم منها من كتبت عليه الشقاوة.

والرضى بالله تعالى رباً، وبالإسلام ديناً، وبمحمد صلى الله عليه وسلم نبياً؛ هو جوهر السعادة، وعنوان الفلاح، وبه يجد العبد حلاوة الإيمان؛ كما قال النبي صلى الله عليه وسلم: «**ذاق طعم الإيمان من رضي بالله رباً وبالإسلام ديناً وبمحمد رسولاً**» رواه مسلم(١)، فهذا الحديث العظيم يُثبت أن للإيمان طعماً حلواً يجده من حقق هذا الرضى، وكلما امتلاء القلب بهذا الرضى عظمت الحلاوة، وازداد الإيمان.

إنها نعمة ـ وأيُّ نعمة ـ أنعم الله تعالى بها على المؤمنين، فهداهم للإيمان، ووفقهم للرضى به.

قال القرطبي رحمه الله تعالى: «قوله: «**ذاق طعم الإيمان**» أي: وجد حلاوته، كما في حديث أنس: «**ثلاث من كن فيه وجد بهن حلاوة الإيمان**» وهي عبارة عمّا يجده المؤمن المحقق في إيمانه، المطمئن قلبه به؛ من انشراح صدره، وتنويره بمعرفة الله تعالى، ومعرفة رسوله صلى الله عليه وسلم، ومعرفة منة الله تعالى عليه في أن أنعم عليه بالإسلام، ونظمه في سلك أمة محمد خير الأنام، وحبب إليه الإيمان والمؤمنين، وبغّض إليه الكفر والكافرين، وأنجاه من قبيح أفعالهم، وركاكة أحوالهم. وعند مطالعة هذه المنن، والوقوف على

---

(١) أخرجه من حديث العباس بن عبد المطلب رضي الله عنه أحمد (١/٢٠٨)، ومسلم في الإيمان، باب الدليل على أمن من رضي بالله تعالى رباً وبالإسلام ديناً. . . (٣٤)، والترمذي في الإيمان، باب ثلاثة من كن فيه وجد حلاوة الإيمان (٢٦٢٣)، والبغوي في شرح السنة (٢٥).

تفاصيل تلك النعم؛ تطير القلوب فرحاً وسروراً، وتمتلئ إشراقاً ونوراً، فيا لها من حلاوة ما ألذها، وحالة ما أشرفها!! فنسأل الله تعالى أن يمنَّ بدوامها وكمالها، كما منَّ بابتدائها وحصولها؛ فإن المؤمن عند تذكر تلك النعم والمنن لا يخلو عن إدراك تلك الحلاوة، غير أن المؤمنين في تمكنها ودوامها متفاوتون، وما منهم إلا وله منها شرب معلوم، وذلك بحسب ما قُسم لهم من هذه المجاهدة الرياضية، والمنح الربانية»[٢].

إن الرضى بالشيء هو القناعة به، فمن رضي بالله تعالى رباً لم يطلب غيره، ومن رضي بالنبي صلى الله عليه وسلم رسولاً لم يسلك إلا ما يُوافق شريعته[٣]، ومن كان كذلك خلصت حلاوة الإيمان إلى قلبه، وذاق طعمه.

والرضى بذلك عام وخاص، فالرضى العام أن لا يتخذ غير الله تعالى رباً، ولا غير دين الإسلام ديناً، ولا غير محمد صلى الله عليه وسلم رسولاً، وهذا الرضى لا يخلو عنه مسلم؛ إذ لا يصح التدين بدين الإسلام إلا بذلك الرضى[٤].

وأما الرضى الخاص فهو الذي تكلم فيه أرباب القلوب، وأصحاب السلوك، ويحققه العبد إذا لم يكن في قلبه غير الله تعالى، ولم يكن

(٢) المفهم لما أشكل من تلخيص كتاب مسلم (١/ ٢١٠).
(٣) انظر: شرح النووي على مسلم (٢/ ٣)، وشرح الطيبي على مشكاة المصابيح (٢/ ٤٤٦).
(٤) المفهم لما أشكل من تلخيص كتاب مسلم (١/ ٢١٠ ـ ٢١١).

له هم إلا مرضاته، فيخالف هواه طاعةً لله تعالى، وقد ذكر المحققون من العلماء أن الرضى أعلى منازل التوكل، فمن رَسَخ قدمُه في التوكل والتسليم والتفويض لله تعالى؛ حصل له الرضى ولابد، ولكن لعزته، وعدم إجابة أكثر النفوس له، وصعوبته عليها؛ لم يوجبه الله تعالى على خلقه؛ رحمة بهم، وتخفيفاً عنهم. لكنه تعالى ندبهم إليه، وأثنى على أهله، وأخبر أن ثوابه رضاه تعالى عنهم الذي هو أعظم وأكبر وأجل من الجنان وما فيها، فمن رضي عن ربه رضي الله عنه، بل إن رضى العبد عن الله ما هو إلا من نتائج رضى الله تعالى عنه؛ ولذا كان الرضى باب الله الأعظم، وجنة الدنيا، وفيه جماع الخير كله[٥]؛ كما كتب عمر بن الخطاب لأبي موسى رضي الله عنهما يقول: «أما بعد: فإن الخير كله في الرضى»[٦].

إن من رضي بالله تعالى رباً وجد حلاوةً في طاعته، ولذةً في البعد عن معصيته، ومن رضي بالإسلام ديناً وجد حلاوةً في اتباع الشريعة، والعمل بها، والتحاكم إليها، ومن رضي بالرسول صلى الله عليه وسلم رسولاً وجد حلاوة في اتباع سنته، والتزام هديه.

ومن كان كذلك فلن يجد مشقة في أداء الفرائض، والمحافظة على النوافل، وكثرة التطوع والذكر؛ لأن لذته في ذلك، ولن يعسر عليه بغض المعاصي والمحرمات، والبعد عنها، وإنكار قلبه لها؛ لأنها

---

(٥) مدارج السالكين (٢/ ٢٠٤ ـ ٢٠٥).
(٦) الاستقامة (٢/ ٨٤)، والمدارج (٢/ ١٧٧).

تفسد طعم الإيمان الذي يجده، وسبب ذلك كله ما قام في قلبه من كمال الرضى بالله تعالى وبدينه وبرسوله صلى الله عليه وسلم؛ ولهذا قال النبي صلى الله عليه وسلم: «**وجعلت قرة عيني في الصلاة**»(٧)، وفي الحديث الآخر: «**أرحنا بالصلاة يا بلال**»(٨)، فهو عليه الصلاة والسلام أكمل الناس رضى عن الله تعالى، ولأجل ذلك كان يستروح بالصلاة، وجُعلت قرة عينه فيها، فكان يقوم الليل حتى تتفطر قدماه من طول القيام(٩)، ولا يحس بذلك؛ لما يجد من لذة في مناجاة الرب جلَّ جلاله.

ولأهمية هذا الرضى، واحتياج المسلم إلى تأكيده وتذكره على الدوام؛ ربط بالنداء إلى الصلاة المفروضة خمس مرات في اليوم والليلة،

---

(٧) أخرجه من حديث أنس بن مالك رضي الله عنه أحمد (٣/ ٢٨٥)، والنسائي في عشرة النساء باب حب النساء (٧/ ٦١)، وأبو يعلى (٣٥٣٠)، والضياء في المختارة (١٧٣٦)، والبيهقي (٧/ ٧٨)، وصححه الحافظ في الفتح (٣/ ٢٠).

(٨) أخرجه أحمد (٥/ ٣٦٤)، وأبو داود في الأدب باب في صلاة العتمة (٤٩٨٥)، وأبو نعيم في أخبار أصبهان (٢/ ٢٤٩)، والطبراني في الكبير (٦/ ٢٧٦) برقم: (٦٢١٤)، والخطيب في تاريخه (١٠/ ٤٤٤ ـ ٤٤٥)، وصححه الألباني في صحيح سنن أبي داود (٤١٧١).

(٩) كما في حديث عائشة رضي الله عنها: «أن النبي صلى الله عليه وسلم كان يقوم من الليل حتى تتفطر قدماه...» أخرجه البخاري في التفسير «سورة الفتح» باب قوله تعالى: ﴿لِيَغْفِرَ لَكَ اللَّهُ مَا تَقَدَّمَ مِن ذَنبِكَ وَمَا تَأَخَّرَ وَيُتِمَّ نِعْمَتَهُ عَلَيْكَ وَيَهْدِيَكَ صِرَاطًا مُّسْتَقِيمًا﴾ [الفتح: ٢] (٤٨٣٦)، ومسلم في صفات المنافقين وأحكامهم، باب إكثار الأعمال والاجتهاد في العبادة (٢٨٢٠).

فُشرع للمسلم عقب إعلان المؤذن دخول وقت الصلاة أن يقول من جملة ما يقول في الأذكار عقب الأذان: «**رضيت بالله رباً وبمحمد رسولاً وبالإسلام ديناً**» فمن قال ذلك غفر له ذنبه، كما جاء في صحيح مسلم من حديث سعد بن أبي وقاص رضي الله عنه عن النبي صلى الله عليه وسلم[(١٠)].

وشُرع للمسلم أيضاً أن يفتتح صباحه ومساءه بهذا الذكر العظيم؛ فقد صحّ عن النبي ﷺ أنه قال: «**ما من عبد يقول حين يمسي وحين يصبح: رضيت بالله رباً وبالإسلام ديناً وبمحمد نبياً إلا كان حقاً على الله أن يرضيه يوم القيامة**» رواه الترمذي وابن ماجه وصححه الحاكم[(١١)].

---

(١٠) أخرجه أحمد (١/ ١٨١)، ومسلم في الصلاة باب استحباب القول مثل ما يقول المؤذن (٣٨٦)، وأبو داود في الصلاة باب ما يقول إذا سمع الموذن (٥٢٥)، والترمذي في الصلاة باب ما يقول الرجل إذا أذن المؤذن من الدعاء (٢١٠)، والنسائي في الأذان باب الدعاء عند الأذان (٢/ ٢٦)، وابن ماجه في الأذان باب ما يقال إذا أذن المؤذن (٧٢١).

(١١) أخرجه من حديث أبي سلام عن خادم النبي صلى الله عليه وسلم أحمد (٤/ ٣٣٧)، وابن أبي شيبة في مصنفه (٢٦٥٤١)، وأبو داود في الأدب باب ما يقول إذا أصبح (٥٠٧٢)، والنسائي في السنن الكبرى (١٠٤٠٠)، وابن ماجه إلا أنه قال: عن أبي سلام خادم النبي صلى الله عليه وسلم، في الدعاء باب ما يدعو به الرجل إذا أصبح وإذا أمسى (٣٨٧٠)، والطبراني في الكبير (٢٢/ ٣٦٧) برقم: (٩٢١)، وفي الدعاء (٣٠٢)، والحاكم وصححه ووافقه الذهبي (١/ ٥١٨)، وقال البوصيري في مصباح الزجاجة: رجاله ثقات (٣/ ٢٠٩)، وقال الحافظ في الفتح: سنده قوي (١١/ ١٣٥)، وساق ابن عبد البر الحديث في الاستيعاب عن أبي سلام خادم النبي صلى الله عليه وسلم وقال: =

الله أكبر ما قيمة هذا الإنسان، لولا الإيمان؟! حتى يجعل الخالق البارئ حقاً عليه لهذا العبد المخلوق؛ لأنه رضي بالله تعالى رباً، وبالإسلام ديناً، وبمحمد صلى الله عليه وسلم رسولاً، وهذا الرضى في الدنيا جعل له حقاً عند الله تعالى في الآخرة أن يرضيه، وما أعظمها من منزلة ينالها من حقق الرضى بذلك.

والجواد الكريم يُرضي من يرضي بالعطاء الجزيل، والخير العظيم، والله تعالى واسع العطاء، وهو أكرم الأكرمين. وما أجله من ذكر يفتتح به العبد صباحه ومساءه؛ ليكون له هذا الوعد الكريم من رب العالمين «**إلا كان حقاً على الله أن يرضيه**» فاللهم أرضنا، وارض عنا، وعن والدينا، وعن إخواننا المسلمين، إنك سميع مجيب، وأقول هذا القول وأستغفر الله لي ولكم...

الخطبة الثانية

الحمد لله حمداً طيباً كثيراً مباركاً فيه كما يحب ربنا ويرضى، أحمده حمداً يليق بجلاله وعظمته، وأشكره شكراً يوازي فضله ونعمته، وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له، وأشهد أن محمداً عبده ورسوله صلى الله وسلم وبارك عليه وعلى آله وأصحابه ومن اهتدى

= «هذا هو الصواب في إسناد هذا الحديث» (٤/ ١٦٨١)، وله شاهد من حديث ثوبان رضي الله عنه عند الترمذي في الدعوات باب ما جاء في الدعاء إذا أصبح وإذا أمسى وقال: «هذا حديث حسن غريب من هذا الوجه» (٣٣٨٩).

بهداهم إلى يوم الدين.

أما بعد: فاتقوا الله تعالى ـ أيها الناس ـ وأطيعوه، واعلموا أن الرضى بالله تعالى رباً، وبالإسلام ديناً، وبمحمد صلى الله عليه وسلم نبياً سببٌ يوجب الجنة للعبد؛ كما روى أبو سعيد الخدري رضي الله عنه عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال: «**من قال: رضيت بالله رباً، وبالإسلام ديناً، وبمحمد صلى الله عليه وسلم نبياً وجبت له الجنة**» رواه مسلم وأبو داود واللفظ له[١٢].

بل إن العبد يجني جزاء هذا الرضى في الدنيا قبل الآخرة، بحلاوة الإيمان التي يمتلئ بها قلبه، وبما يحصل له من تفريج الكروب، وزوال الهموم، والإمامة في الدين.

هذه أمكم هاجر عليها السلام، الأَمَةُ المؤمنة التي كانت خادمة في قصور الفراعنة، فأهداها ملكهم لسارة زوج الخليل إبراهيم عليهما السلام، وأهدتها هي لزوجها، فوقع عليها، فحملت بأبيكم إسماعيل عليه السلام، فلما وضعته رحل بها إبراهيم عليه السلام هي ورضيعها إلى مكة المقفرة من الماء والزرع، الخالية من الأحياء، فلما وضعها وولى يريد الشام تعلقت به، ونادته من ورائه: «**يا إبراهيم إلى من تتركنا؟**

---

(١٢) أخرجه ابن أبي شيبة في مصنفه (٢٩٢٨٢)، وأحمد (٣/ ١٤)، ومسلم في الإمارة باب بيان ما أعد الله للمجاهدين في الجنة من الدرجات (١٨٨٤)، وأبو داود في الصلاة باب في الاستغفار (١٥٢٩)، والنسائي في عمل اليوم والليلة (٥ ـ ٦)، وابن حبان (٨٦٣)، والحاكم (١/ ٥١٨)، ولفظ مسلم: «**يا أبا سعيد، من رضي بالله رباً، وبالإسلام ديناً، وبمحمد نبياً، وجبت له الجنة**».

قال: إلى الله، قالت: رضيت بالله»[١٣].

وفي رواية قالت: «**آلله أمرك بهذا؟ قال: نعم، قالت: إذن لا يضيعنا**»[١٤].

فأكرمها الله تعالى على رضاها به أن جعل ابنها إسماعيل عليه السلام رسولاً نبياً، وأعظم كرامة نالتها في الدنيا أن جعل من نسلها إمام المرسلين، وخاتم النبيين، سيد ولد آدم محمداً صلى الله عليه وسلم، ومن رضي بالله تعالى، وخالف هواه ومشتهاه، وناله من جرائه عنت ومشقة؛ أرضاه الله تعالى.

إن كثيراً من الناس يظن أنه نال كمال الرضى أو أكثره، ولكن عند الابتلاء يظهر له كم هو ضعيف في هذا الباب، تراه يُقدم رضى المخلوقين الضعفاء على رضى الخالق القاهر؛ رغبةً في جاه أو مال، أو دفعاً لأذى متوهم، مع أنه يعلم أن النافع الضار هو الله سبحانه. وتلك هي طريقة المنافقين التي عابها الله تعالى فقال سبحانه: ﴿**يَحْلِفُونَ بِاللَّهِ لَكُمْ لِيُرْضُوكُمْ وَاللَّهُ وَرَسُولُهُ أَحَقُّ أَن يُرْضُوهُ إِن كَانُوا مُؤْمِنِينَ**﴾ [التوبة: ٦٢]، وما أكثر من يقع في ذلك، فيُقدم رضى المخلوقين على رضى الخالق؛ خوفاً من سطوتهم، أو رغبة في ثوابهم، نسأل الله العفو والعافية.

وضعف أهل الإسلام في هذا الزمان، وتسلط أهل الكفر والنفاق عليهم، وغربة الدين بين الناس، لا توجب الضعف والوهن، بل يجب

---

(١٣) أخرجه من حديث ابن عباس رضي الله عنهما البخاري في أحاديث الأنبياء باب يزفون: النسلان في المشي (٣٣٦٥).

(١٤) هذه الرواية للبخاري أيضاً: (٣٣٦٤).

على المسلم الثبات واليقين، والرضى بالله تعالى إلى أن يلقاه وهو على الحق.

قال شيخ الإسلام ابن تيمية رحمه الله تعالى: «وكما أن الله تعالى نهى نبيه صلى الله عليه وسلم أن يصيبه حُزن أو ضيق ممن لم يدخل في الإسلام في أول الأمر فكذلك في آخره، فالمؤمن منهي أن يحزن عليهم، أو يكون في ضيق من مكرهم، وكثير من الناس إذا رأى المنكر، أو تغير كثير من أحوال الإسلام؛ جزع وكَلَّ وناح كما ينوح أهل المصائب، وهو منهي عن هذا؛ بل هو مأمور بالصبر والتوكل والثبات على دين الإسلام، وأن يؤمن بالله مع الذين اتقوا والذين هم محسنـون، وأن العاقبة للتقوى، وأن ما يصيبه فهو بذنوبه فليصبر، وإن وعد الله حق، وليستغفر لذنبه، وليسبح بحمد ربه بالعشي والإبكار»[(١٥)] اهـ.

ألا فاتقوا الله ربكم، وارضوا به رباً، وبالإسلام ديناً، وبمحمد صلى الله عليه وسلم رسولاً، واثبتوا على ذلك إلى الممات، جلعني الله وإياكم من أهل الثبات.

اللهم إنا نشهدك ونشهد ملائكتك وجميع خلقك بأننا قد رضينا بك رباً، وبالإسلام ديناً، وبمحمد صلى الله عليه وسلم رسـولاً، اللهم فثبتنا على ذلك إلى أن نلقاك، اللهم إنا نعوذ بك أن نضل أو نُضل، أو نفتن أو نُفتن، ربنا لا تزغ قلوبنا بعد إذ هديتنا وهب لنا من لدنك رحمة إنك أنت الوهاب، اللهم أعز الإسلام والمسلمين . . .

---

(١٥) مجموع الفتاوى (١٨/ ٢٩٥).

١١- تعظيم النصوص الشرعية

الجمعة ١٠/ ١١/ ١٤١٩هـ

الحمد لله، هدانا للإسلام، وعلمنا القرآن، وجعلنا من خير أمة أخرجت للناس، أحمده وأشكره وأتوب إليه وأستغفره؛ لا رب لنا سواه، ولا نعبد إلا إياه، مخلصين له الدين ولو كره الكافرون. وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له؛ له الأمر وله الحكم وإليه ترجعون. وأشهد أن محمداً عبده ورسوله؛ أفضل البريات، ختم الله به النبوات، وأخرج به من الظلمات، صلى الله وسلم وبارك عليه وعلى آله وأصحابه؛ آمنوا واتبعوا، وحملوا الأمانة فما بدلوا، وانقادوا لأمر ربهم واستسلموا، والتابعين لهم بإحسان إلى يوم الدين.

أما بعد: فاتقوا الله تعالى وأطيعوه، وعظموا شعائره وحرماته، وقفوا عند حدوده، فما سمي المسلم مسلماً إلا لأنه استسلم لله تعالى بالتوحيد، وانقاد له بالطاعة، وخلص من الشرك، وتبرأ منه ومن أهله ﴿وَأَنِيبُوا إِلَىٰ رَبِّكُمْ وَأَسْلِمُوا لَهُ مِن قَبْلِ أَن يَأْتِيَكُمُ الْعَذَابُ ثُمَّ لَا تُنصَرُونَ (٥٤)﴾ [الزمر].

أيها الإخوة المؤمنون: لقد أكمل الله الدين، ببعثه خاتم النبيين، فلا نبي بعده، ولا دين سوى دينه إلى يوم القيامة، ولا كتاب يعمل به غير الذي أنزل عليه، ولا هدي يتبع إلا هديه عليه الصلاة والسلام.

من آمن فلا يسعه إلا الاتباع والإذعان والخضوع لما أنزل على محمد

صلى الله عليه وسلم. لا كتب السابقين تغنيه، ولا أهواء البشر تهديه.

عن عمر بن الخطاب رضي الله عنه أنه أتى النبي صلى الله عليه وسلم بكتاب أصابه من بعض أهل الكتاب فقرأه النبي صلى الله عليه وسلم فغضب فقال: «**أومتهوكون فيها يا ابن الخطاب؟ والذي نفسي بيده لقد جئتكم بها بيضاء نقيّة، لا تسألوهم عن شيء فيخبروكم بحق فتكذبوا به أو بباطل فتصدقوا به، والذي نفسي بيده لو أن موسى صلى الله عليه وسلم كان حياً ما وسعه إلا أن يتبعني**» أخرجه الإمام أحمد[1].

لقد خشي النبي صلى الله عليه وسلم على أمته زيغ القلوب، وفساد العقول، وانحراف الفطرة، وتنكب الطريق، وتبديل الدين، قال أبو الدرداء رضي الله عنه: خرج علينا رسول الله صلى الله عليه وسلم ونحن نذكر الفقر ونتخوفه فقال: «**الفقر تخافون؟ والذي نفسي بيده لتصبن عليكم الدنيا صباً حتى لا يزيغ قلب أحدكم إزاغة إلاهِيَهْ، وأيم الله لقد تركتم على مثل البيضاء ليلها ونهارها سواء**»، قال أبو الدرداء: صدق والله رسول الله صلى الله عليه وسلم، تركنا والله على مثل البيضاء ليلها ونهارها سواء.. أخرجه ابن ماجه بإسناد حسن.[2]

أيها الإخوة: وإن من أعظم أسباب الزيغ والهلاك عدم الاستسلام

(١) أخرجه عبد الرازق (٦/ ١١٣) وابن أبي شيبة (٩/ ٤٧) وأحمد (٣/ ٣٨٧) والدارمي (١/ ١١٥) وابن أبي عاصم في السنة (٥٠) وعزاه الألباني إلى الهروي في ذم الكلام، والضياء في المنتقى وقال: حديث حسن، انظر: الإرواء (١٥٨٩).

(٢) أخرجه ابن ماجه في المقدمة من سننه (٥) وصححه الألباني في ظلال الجنة (٤٧).

لأمر الله تعالى ورفض الخضوع والإذعان والانقياد لأوامره، والاستهانة بحرماته وشعائره، وتقديم أقوال البشر وأهوائهم على قول الله تعالى وقول رسوله صلى الله عليه وسلم. ولا فلاح ولا فوز للعباد في الدنيا والآخرة إلا بتعظيم الله تعالى وإجلاله، ولا يكون ذلك بمخالفة أمره.

من عظم الله تعالى طرح هواه، واتبع الكتاب والسنة، ونبذ ما سواهما، وهذه صفة أهل الإيمان واليقين والتقوى ﴿**إِنَّمَا كَانَ قَوْلَ الْمُؤْمِنِينَ إِذَا دُعُوا إِلَى اللَّهِ وَرَسُولِهِ لِيَحْكُمَ بَيْنَهُمْ أَن يَقُولُوا سَمِعْنَا وَأَطَعْنَا وَأُوْلَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ (٥١) وَمَن يُطِعِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَيَخْشَ اللَّهَ وَيَتَّقْهِ فَأُوْلَئِكَ هُمُ الْفَائِزُونَ (٥٢)**﴾ [النور] فإذا جاء الأمر من الله تعالى في الكتاب أو السنة فلا مجال للاختيار أو التردد؛ بل يجب التسليم والانقياد والطاعة ﴿**وَمَا كَانَ لِمُؤْمِنٍ وَلا مُؤْمِنَةٍ إِذَا قَضَى اللَّهُ وَرَسُولُهُ أَمْرًا أَن يَكُونَ لَهُمُ الْخِيَرَةُ مِنْ أَمْرِهِمْ**﴾ [الأحزاب: ٣٦].

ومن أعرض عن ذلك، ولم يتبع ما جاء به الرسول صلى الله عليه وسلم فإنما حجبه عن ذلك الهوى: ﴿**فَإِن لَّمْ يَسْتَجِيبُوا لَكَ فَاعْلَمْ أَنَّمَا يَتَّبِعُونَ أَهْوَاءَهُمْ وَمَنْ أَضَلُّ مِمَّنِ اتَّبَعَ هَوَاهُ بِغَيْرِ هُدًى مِّنَ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ لا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ (٥٠)**﴾ [القصص] ومن كان كذلك فهو مستحق للوعيد الشديد، والعذاب الأليم ﴿**فَلْيَحْذَرِ الَّذِينَ يُخَالِفُونَ عَنْ أَمْرِهِ أَن تُصِيبَهُمْ فِتْنَةٌ أَوْ يُصِيبَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ (٦٣)**﴾ [النور]، وإن من أعظم الضلال الذي تقع به الفتنة والعذاب إهمال النصوص الشرعية المعصومة، والمصير إلى العقل القاصر، وتحكيم أهواء البشر في نصوص الكتاب والسنة.

وما زاغ أهل الكلام قديماً إلا لما سلكوا هذه الطريق الخاطئة، ثم تبعهم في هذه الأزمان أقوام كان جُلُّ حديثهم عن العقل ومنزلته في الإسلام، فغالوا في تعظيمه وتمجيده، حتى أعطوه السلطة المطلقة في الحكم على الوحي المنزل، تكذيباً وتأويلاً، ورداً وتحريفاً. وما دفعهم إلى ذلك إلا هزيمتهم النفسية أمام الحضارة المادية الإلحادية الأوربية، التي ألهت العقل وأنكرت ما سواه؛ فحتى يكون هؤلاء العقلانيون متحضرين ومتفتحين لابد أن يحذوا حذو أهل الحضارة في تعظيم العقل، والمغالاة فيه، ولو على حساب النصوص الشرعية، فزاغوا وضلوا، ومنهم من ألحدوا وكفروا فأنكروا الغيب كله، ولم يؤمنوا بما لم يشاهدوا، وفي هذا يقول قائلهم: «يمكن للمسلم المعاصر أن ينكر كل الجانب الغيبي في الدين ويكون مسلماً حقاً في سلوكه»(٣) ويقرر آخر أن البشرية لم تعد في حاجة إلى قيادتها في الأرض باسم السماء فلقد بلغت سن الرشد، وآن لها أن تباشر شؤونها بنفسها!!(٤).

وحينما يتكلم هؤلاء الزائغون فإنهم يتكلمون باسم الإسلام؛ إمعاناً في الإضلال، وإصراراً على الضلال؛ إذ يقول أحدهم: «فلقد حرر الإسلام العقل البشري من سلطان النبوة من حيث إعلان إنهائها كلية،

---

(٣) صاحب هذا القول هو: حسن حنفي في كتابه قضايا معاصرة في فكرنا المعاصر (٩٣).

(٤) ذلك هو الدكتور محمد أحمد خلف الله، وانظر: العصرانيون بين مزاعم التجديد وميادين التغريب لمحمد الناصر (٢٠٤).

وتخليص البشرية منها»(٥)، فهل بعد هذا الضلال ضلال؟! وتأملوا كيف يحاولون هدم الإسلام باسم الإسلام.

إن ديننا بكماله وبيانه لم يعطل العقل أو يهمشه بل جعله مناط التكليف، فلا تكليف إذا فقد العقل، وهو أحد الضرورات الخمس التي جاءت شرائع الإسلام وأحكامه بلزوم الحفاظ عليها؛ ولكن في الوقت نفسه لم يكن العقل في شريعة الإسلام حاكماً على الوحي؛ لأن للعقل حدوده، وأما الوحي فهو منزل من عند خالق العقل، ومن العليم الخبير الذي ذرأ العباد وهو أعلم بما يصلحهم.

فإذا تعدى العقل حدوده وصادم الوحي كانت الهلكة والضلال، وهل طرد إبليس من الجنة إلا لما أخضع الأمر الإلهي لميزان عقله القاصر؟! فضلَّ وهوى؛ إذ أمره الله تعالى بالسجود لآدم، فلم يرتض عقله أن يسجد مَن خلق من نار لمن خلق من طين، فجادل وامتنع، فحقت عليه اللعنة ﴿**قَالَ أَنَا خَيْرٌ مِّنْهُ خَلَقْتَنِي مِن نَّارٍ وَخَلَقْتَهُ مِن طِينٍ (٧٦) قَالَ فَاخْرُجْ مِنْهَا فَإِنَّكَ رَجِيمٌ (٧٧) وَإِنَّ عَلَيْكَ لَعْنَتِي إِلَىٰ يَوْمِ الدِّينِ (٧٨)**﴾ [ص].

وكفار مكة رفضوا الإسلام، وعارضوا القرآن؛ لأن عقولهم القاصرة مانعت أن يكون محمد اليتيم الفقير نبياً ورسولاً، وأرتهم عقولهم أن النبي لابد أن يكون عظيماً غنياً قوياً ﴿**وَقَالُوا لَوْلَا نُزِّلَ هَٰذَا الْقُرْآنُ عَلَىٰ رَجُلٍ مِّنَ الْقَرْيَتَيْنِ عَظِيمٍ (٣١)**﴾ [الزخرف].

يقول شيخ الإسلام ابن تيمية رحمه الله تعالى: «والداعون إلى

---

(٥) انظر: الأسس القرآنية للتقدم (٤٤) والعصرانيون (٢٠٤).

تمجيد العقل إنما هم في الحقيقة يدعون إلى تمجيد صنم سموه عقلاً، وما كان العقل وحده كافياً في الهداية والإرشاد وإلا لما أرسل الله الرسل»[٦].

وقال ابن القيم رحمه الله تعالى: «وكل من كان له مسكة عقل يعلم أن فساد العالم وخرابه إنما ينشأ من تقديم الرأي على الوحي، والهوى على العقل، وما استحكم هذان الأصلان الفاسدان في قلب إلا استحكم هلاكه، وفي أمة إلا فسد أمرها أتم فساده. وأكثر أصحاب الجحيم هم أهل هذه الآراء الذين لا سمع لهم ولا عقل؛ بل هم شر من الحمير، وهم الذين يقولون يوم القيامة ﴿**لَوْ كُنَّا نَسْمَعُ أَوْ نَعْقِلُ مَا كُنَّا فِي أَصْحَابِ السَّعِيرِ** ⁽١٠⁾﴾ [الملك]»[٧] اهـ.

إن السمع والطاعة، والقبول والإذعان لنصوص الشرع هو سبيل أهل الحق والعدل والإيمان، وإن الإعراض عن الوحي أو معارضته أو مجادلته هو سبيل المنافقين.

أعوذ بالله من الشيطان الرجيم ﴿**وَيَقُولُونَ آمَنَّا بِاللَّهِ وَبِالرَّسُولِ وَأَطَعْنَا ثُمَّ يَتَوَلَّىٰ فَرِيقٌ مِّنْهُم مِّنْ بَعْدِ ذَٰلِكَ وَمَا أُولَٰئِكَ بِالْمُؤْمِنِينَ (٤٧) وَإِذَا دُعُوا إِلَى اللَّهِ وَرَسُولِهِ لِيَحْكُمَ بَيْنَهُمْ إِذَا فَرِيقٌ مِّنْهُم مُّعْرِضُونَ (٤٨) وَإِن يَكُن لَّهُمُ الْحَقُّ يَأْتُوا إِلَيْهِ مُذْعِنِينَ (٤٩) أَفِي قُلُوبِهِم مَّرَضٌ أَمِ ارْتَابُوا أَمْ يَخَافُونَ أَن يَحِيفَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ وَرَسُولُهُ بَلْ أُولَٰئِكَ هُمُ الظَّالِمُونَ (٥٠) إِنَّمَا كَانَ قَوْلَ الْمُؤْمِنِينَ إِذَا دُعُوا إِلَى اللَّهِ وَرَسُولِهِ لِيَحْكُمَ بَيْنَهُمْ أَن يَقُولُوا سَمِعْنَا وَأَطَعْنَا وَأُولَٰئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ (٥١) وَمَن**

---

(٦) درء تعارض العقل والنقل (١/ ٢١).

(٧) إعلام الموقعين (١/ ٦٨).

يُطِعِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَيَخْشَ اللَّهَ وَيَتَّقْهِ فَأُوْلَئِكَ هُمُ الْفَائِزُونَ ﴿٥٢﴾ [النور]. . . بارك الله لي ولكم في القرآن العظيم.

الخطبة الثانية

الحمد لله حمداً طيباً مباركاً فيه كما يحب ربنا ويرضى، أحمده وأشكره، وأتوب إليه وأستغفره، وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له، وأشهد أن محمداً عبده ورسوله صلى الله وسلم وبارك عليه وعلى آله وأصحابه ومن سار على نهجهم واستن بسنتهم إلى يوم الدين. .

أيها المؤمنون: إن الدعوة التي يطرحها العقلانيون لعقلنة الإسلام، وجعله يتواءم مع متطلبات العصر، ما هي إلا امتداد لتسلط العقل على الشرع الذي أخذه فلاسفة العرب عن ملاحدة اليونان قديماً، ثم أفرغوه في مذاهب المعتزلة والجهمية والخوارج وغيرهم من الضُلال.

وها هو ذا المذهب يعود من جديد ولكن بصورة أخرى، وتحت شعارات براقة من تهذيب الإسلام وعقلنته، والنتيجة: تمييع أحكام الإسلام ليواكب العصر، ويوافق المزاج الغربي على حدِّ زعمهم؛ إذ هم يرون أن البشرية تتطور وفقاً للنظرية الإلحادية الأوربية الحديثة كما يتطور الإنسان من الطفولة إلى المراهقة إلى الرجولة والعقل الواعي، فالبشرية كذلك يرون أنها مرت بثلاث مراحل: مرحلة البداوة والتوحش والسلطوية، ثم مرحلة التدين وانتظار الوحي، ثم مرحلة الرشد العلمي، واكتمال

العقل الإنساني اجتماعياً وعلمياً مما لا يحيجه إلى الوحي [٨] ونهاية مقولاتهم: إلغاء الإسلام كشريعة يعمل بها، والاحتفاظ به في المتحف التاريخي للذكريات.

وأما من تمسك بالإسلام، وأعمل نصوص الكتاب والسنة فهم ـ عند هؤلاء العقلانيين ـ رجعيون نصوصيون، وحرفيون متشددون، وغير ذلك من الأوصاف التي تحمل معنى الجمود والظلامية واللاعقلانية، ويخدعون عامة المسلمين بأنهم بعقولهم وأهوائهم يراعون روح الشريعة، ومقاصد الإسلام العامة، ومادرى هؤلاء السفهاء أن مقاصد الإسلام لا سبيل إلى إدراكها إلا من خلال النصوص الشرعية.

ويتأثر بهذا الطرح الآثم جهلة المسلمين وعامتهم؛ حتى غدت كثير من أحكام الإسلام ومسلماته وثوابته تطرح للرأي والمناقشة والجدال!!

ألسنا نرى ونسمع ضُلَّالاً ومنحرفين يناقشون قضايا الدين الكبرى؟ ونبصر جهلة يستقون جل ثقافتهم من الملاحق الفنية والرياضية يعارضون كثيراً من أحكام الشريعة؟! وإنك لتعجب كثيراً حينما ترى مهرجاً لا يستطيع عد فروض الوضوء يناقش حرمة وإباحة التهريج!! أو مغنية فاجرة تقرر السفور والاختلاط والفساد، أو منحرفاً جاهلاً يبيح الربا! ثم يجدون من يسمع لهم، ويُعْجَبُ بهم وقد رفضوا شريعة الله تعالى، وردوا أحكام الإسلام، فهل أمنوا الفتنة والزيغ؟! ﴿**فَلْيَحْذَرِ الَّذِينَ يُخَالِفُونَ**

(٨) انظر في ذلك: ثقافة الضرار للأستاذ: جمال سلطان(٥٥-٥٨) وأيضا(٦٧-٦٩).

عَنْ أَمْرِهِ أَن تُصِيبَهُمْ فِتْنَةٌ أَوْ يُصِيبَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿٦٣﴾﴾ [النور: ٦٣] ﴿وَمَن يُشَاقِقِ الرَّسُولَ مِنْ بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُ الْهُدَىٰ وَيَتَّبِعْ غَيْرَ سَبِيلِ الْمُؤْمِنِينَ نُوَلِّهِ مَا تَوَلَّىٰ وَنُصْلِهِ جَهَنَّمَ وَسَاءَتْ مَصِيرًا ﴿١١٥﴾﴾ [النساء] فاتقوا الله ربكم وعظموه بتعظيم أمره ونهيه، واحذروا الفتنة والزيغ بالحذر من مخالفة شريعته. ثم صلوا وسلموا على نبيكم كما أمركم بذلك ربكم.

* * *

١٢- التوكل على الله تعالى

٢٥/ ١/ ١٤٢٤هـ

إن الحمد لله، نحمده ونستعينه ونستغفره، ونعوذ بالله من شرور أنفسنا ومن سيئات أعمالنا، من يهده الله فلا مضل له، ومن يضلل فلا هادي له، وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له، وأشهد أن محمداً عبده ورسوله.. ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ حَقَّ تُقَاتِهِ وَلَا تَمُوتُنَّ إِلَّا وَأَنتُم مُّسْلِمُونَ﴾ [آل عمران: ١٠٢]، ﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ اتَّقُوا رَبَّكُمُ الَّذِي خَلَقَكُم مِّن نَّفْسٍ وَاحِدَةٍ وَخَلَقَ مِنْهَا زَوْجَهَا وَبَثَّ مِنْهُمَا رِجَالًا كَثِيرًا وَنِسَاءً وَاتَّقُوا اللَّهَ الَّذِي تَسَاءَلُونَ بِهِ وَالْأَرْحَامَ إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلَيْكُمْ رَقِيبًا﴾ [النساء: ١]، ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَقُولُوا قَوْلًا سَدِيدًا ﴿٧٠﴾ يُصْلِحْ لَكُمْ أَعْمَالَكُمْ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ وَمَن يُطِعِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ فَقَدْ فَازَ فَوْزًا عَظِيمًا﴾ [الأحزاب: ٧٠، ٧١].

أما بعد: فإن أحسن الحديث كلام الله تعالى، وخير الهدي هدي محمد صلى الله عليه وسلم، وشر الأمور محدثاتها، وكل محدثة بدعة، وكل بدعة ضلالة، وكل ضلالة في النار.

أيها الناس: إذا اشتدت المحن، وعظمت المصائب، وزادت الفتنة في الدين؛ تزعزعت القلوب، واهتزت القناعات، وكثر المتساقطون في الباطل، وقلّ الثُّبَّت على الحق.

وقد أخبر النبي صلى الله عليه وسلم عن فتنٍ تَزيغُ فيها القلوب،

وتحارُ العقول، يصبحُ فيها الرجل مؤمناً ويمسي كافـراً، ويمسي مؤمناً ويصبح كافراً، يبيع دينه بعرض من الدنيا قليل[١].

لربما باع دينه بسلامة نفسه مما يتوهمه خطراً، أو باعه ببقاء ماله أو جاهه أو ولده، وكل ذلك من عَرَض الدنيا القليل، ولربما باعه بما هو أقل من ذلك ثمناً، أو باعه بلا ثمن، فخسر الآخرة ولا ربح من الدنيا شيئاً، نسأل الله العافية.

ومن أهم ما يجب على المسلم العناية به في أحوال المحن: سلامة قلبه من الفتن، وثباته على الحق المبين؛ وذلك لا يكون إلا بولاء العبد لله تعالى، ولدينه، ولأوليائه المؤمنين، لا يحابي في ذلك قوياً لقوته؛ لعلمه أن الله تعالى أقوى، فكان الولاء له وحده أوجب. ولا يجامل قريباً لقرابته أو صديقاً لصداقته؛ لأنهم لن ينجوه من عذاب الله تعالى شيئاً.

لا يقبل المساومة على دينه، ولا يتنازل عن شيء من شريعة ربه مهما كلف الأمر، وإذا جاء من ينازعُه في ذلك جاهده بقلبه ولسانه ويده؛ حتى يدفع شره، ويُزيل خطره، مستعيناً بالله تعالى، متوكـلاً عليه.

---

(١) أخرجه مسلم في الإيمان باب الحث على المبادرة بالأعمال قبل تظاهر الفتن (١١٨)، والترمذي في الفتن باب ما جاء «ستكون فتن كقطع الليل المظلـم» وأحمد (٢/ ٣٠٤)، وأبو يعلى (٦٥١٥)، والطبراني في الأوسط (٢٧٧٤)، والبغوي في شرح السنة (٤٢٢٣)، من حديث أبي هريرة رضي الله عنه.

ما أحوج الأمة المسلمة وهي تشهد تسلط القوى الجبارة على المسلمين إلى مزيد من الثبات على الحق، والتمسكِ بأهداب الدين القويم، والعمل بأحكام الشريعة في الشؤون كلها، صغيرها وكبيرها، والاجتماع على الكتاب والسنة قولاً وعملاً، والاعتصام بالله وحده، والتوكل عليه، فهذا هو المخرج الوحيد من هذه الأزمة الخانقة، وفيه النجاة للأفراد والجماعات في الدنيا والآخرة.

إن التوكل على الله تعالى، والاعتصام به وحده كان هو الملجأ الذي لجأ إليه المرسلون عليهم السلام من بطش الجبابرة والمستكبرين وأَنْعِمْ به من ملجأ؛ فالله تعالى نعم المولى ونعم النصير.

هذا نوح عليه السَّلام لما كذبه قومه وآذوا أتباعه يخاطبهم معلناً توكله على الله تعالى فيقول: ﴿ **يَا قَوْمِ إِن كَانَ كَبُرَ عَلَيْكُم مَّقَامِي وَتَذْكِيرِي بِآيَاتِ اللَّهِ فَعَلَى اللَّهِ تَوَكَّلْتُ فَأَجْمِعُوا أَمْرَكُمْ وَشُرَكَاءَكُمْ ثُمَّ لا يَكُنْ أَمْرُكُمْ عَلَيْكُمْ غُمَّةً ثُمَّ اقْضُوا إِلَيَّ وَلا تُنظِرُونِ** ﴾ [يونس: ٧١].

وهكذا فعل قوم هودٍ عليه السلام به فأذوه، واتهموه بالجنون، فتبرأ منهم ومن شركهم، وأعلن توكله على الله تعالى ﴿ **قَالَ إِنِّي أُشْهِدُ اللَّهَ وَاشْهَدُوا أَنِّي بَرِيءٌ مِّمَّا تُشْرِكُونَ (٥٤) مِن دُونِهِ فَكِيدُونِي جَمِيعًا ثُمَّ لا تُنظِرُونِ (٥٥) إِنِّي تَوَكَّلْتُ عَلَى اللَّهِ رَبِّي وَرَبِّكُم مَّا مِن دَابَّةٍ إِلاَّ هُوَ آخِذٌ بِنَاصِيَتِهَا إِنَّ رَبِّي عَلَىٰ صِرَاطٍ مُّسْتَقِيمٍ** ﴾ [هود: ٥٤ -٥٦].

وقال شعيب ومن آمن معه للمكذبين من قومهم: ﴿ **وَسِعَ رَبُّنَا كُلَّ**

شَيْءٍ عِلْمًا عَلَى اللَّهِ تَوَكَّلْنَا رَبَّنَا افْتَحْ بَيْنَنَا وَبَيْنَ قَوْمِنَا بِالْحَقِّ وَأَنتَ خَيْرُ الْفَاتِحِينَ﴾ [الأعراف: ٨٩].

ولما طغى فرعون على موسى ومن آمن معه من بني إسرائيل، أمرهم موسى عليه السلام بالتوكل على الله تعالى؛ ليكونوا قادرين على مواجهة هذا الطغيان العظيم، والصبر على العذاب المهين **﴿وَقَالَ مُوسَىٰ يَا قَوْمِ إِن كُنتُمْ آمَنتُم بِاللَّهِ فَعَلَيْهِ تَوَكَّلُوا إِن كُنتُم مُّسْلِمِينَ (٨٤) فَقَالُوا عَلَى اللَّهِ تَوَكَّلْنَا رَبَّنَا لا تَجْعَلْنَا فِتْنَةً لِّلْقَوْمِ الظَّالِمِينَ (٨٥) وَنَجِّنَا بِرَحْمَتِكَ مِنَ الْقَوْمِ الْكَافِرِينَ﴾** [يونس: ٨٤-٨٦].

وظل موسى عليه السلام ـ وهو من أولي العزم من الرسل ـ حتى اللحظة الأخيرة واثقاً بوعد ربه، متوكلاً عليه، مفوضاً أمره إليه. طارده فرعون وجنده حتى حصرهم البحر فكان أمامهم، وعدوهم من ورائهم؛ فأيقن أتباع موسى بالهلاك، والوقوع في أيدي فرعون وجنده، إلا أن يقين موسى بربه تبارك وتعالى كان أقوى، وتوكله عليه كان أعظم **﴿فَلَمَّا تَرَاءَى الْجَمْعَانِ قَالَ أَصْحَابُ مُوسَىٰ إِنَّا لَمُدْرَكُونَ (٦١) قَالَ كَلاَّ إِنَّ مَعِيَ رَبِّي سَيَهْدِينِ﴾** [الشعراء: ٦١-٦٢].

ثباتٌ عجيب، ويقين متين بالله تعالى في اللحظة الحاسمة، التي تضطرب فيها القلوب، وتضعف النفوس، وتخور العزائم؛ فكان حبل الله تعالى إلى موسى والمؤمنين معه أقرب من فرعون وجنده، ومدده إليهم أسرع، وكانت المعجزة العجيبة، **﴿فَأَوْحَيْنَا إِلَىٰ مُوسَىٰ أَنِ اضْرِب بِّعَصَاكَ الْبَحْرَ فَانفَلَقَ فَكَانَ كُلُّ فِرْقٍ كَالطَّوْدِ الْعَظِيمِ (٦٣) وَأَزْلَفْنَا ثَمَّ الآخَرِينَ**

(٦٤) **وَأَنجَيْنَا مُوسَىٰ وَمَن مَّعَهُ أَجْمَعِينَ (٦٥) ثُمَّ أَغْرَقْنَا الآخَرِينَ** ﴾ [الشعراء: ٦٣-٦٦] إنها قدرة القادر القاهر سبحانه وتعالى، الذي أهلك الظالمين، وأنجى موسى ومن معه من المؤمنين. ﴿ **إِنَّ فِي ذَلِكَ لآيَةً وَمَا كَانَ أَكْثَرُهُم مُّؤْمِنِينَ (٦٧) وَإِنَّ رَبَّكَ لَهُوَ الْعَزِيزُ الرَّحِيمُ** ﴾ [الشعراء: ٦٧-٦٨].

والخليلان إبراهيم ومحمد عليهما الصلاة والسلام لاذا بحمى الله تعالى، وتوكلا عليه في أحرج الساعات، قال ابن عباس رضي الله عنهما: «حسبنا الله ونعم الوكيل، قالها إبراهيم عليه السَّلام حين ألقي في النار، وقالها محمد صلى الله عليه وسلم حين قالوا: ﴿ **إِنَّ النَّاسَ قَدْ جَمَعُوا لَكُمْ فَاخْشَوْهُمْ فَزَادَهُمْ إِيمَانًا وَقَالُوا حَسْبُنَا اللَّهُ وَنِعْمَ الْوَكِيلُ** ﴾ [آل عمران: ١٧٣]» رواه البخاري(٢).

ويعقوب عليه السلام لما فقد ولده، وأخذ منه الآخر وهو مشفق عليه عزا ذلك إلى قَدَر الله تعالى وحكمه وحكمته، وأعلن توكله على الله فقال: ﴿ **إِنِ الْحُكْمُ إِلاَّ لِلَّهِ عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ وَعَلَيْهِ فَلْيَتَوَكَّلِ الْمُتَوَكِّلُونَ** ﴾ [يوسف: ٦٧].

ومن صور توكل النبي صلى الله عليه وسلم ويقينه بالله تعالى: أنه غزا غزاة، ونزل تحت شجرة فعلق بها سيفه، قال جابر: فنمنا نومة فإذا رسول الله يدعونا، فجئناه، فإذا عنده أعرابي جالس، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم: «**إن هذا اخترط سيفي وأنا نائم، فاستيقظت**

---

(٢) أخرجه البخاري في التفسير باب ﴿ **الذين قَالَ لَهُمُ النَّاسُ إِنَّ النَّاسَ قَدْ جَمَعُوا لَكُمْ فَاخْشَوْهُمْ** ﴾ [آل عمران: ١٧٣] (٤٥٦٣)، والبيهقي في السنن الكبرى (٦/ ١٥٤)، ووهم الحاكم فاستدركه في المستدرك (٢/ ٣٢٦).

وهو في يده صَلْتا فقال لي: من يمنعك مني؟ قلت: الله» وفي رواية لمسلم: فقال لرسول الله صلى الله عليه وسلم: أتخافني؟ قال: **لا**. قال: من يمنعك مني. قال: **الله يمنعني منك**» رواه الشيخان(٣). قال الحافظ ابن حجر رحمه الله تعالى: «وكأن الأعرابي لما شاهد ذلك الثبات العظيم، وعرف أنه حيل بينه وبينه تحقق صدقه، وعلم أنه لا يصل إليه فألقى السلاح، وأمكن من نفسه»(٤).

وجاء في رواية ابن إسحاق: «قال الأعرابي: من يمنعك مني؟ قال: **الله**، فدفع جبريل في صدره فوقع السيف من يدِهِ فأخذه النبي صلى الله عليه وسلم وقال: **من يمنعك أنت مني؟** قال: لا أحد، قال: **قم فاذهب لشأنك**، فلما ولى قال: أنت خيرٌ مني، ثم أسلم بعد»(٥).

ومن توكله عليه الصَّلاة والسَّلام: أنه لما دخل الغار ومعه أبو بكر ليلة الهجرة، والمشركون يتبعونهم قال أبو بكر رضي الله عنه من شدة خوفه على النبي صلى الله عليه وسلم من أن يدركه المشركون: «لو أن أحدهم نظر تحت قدميه لأبصرنا» فقال النبي صلى الله عليه وسلم: «**ما ظنك يا أبا بكر باثنين الله ثالثهما**» رواه الشيخان(٦).

---

(٣) أخرجه البخاري في المغازي باب غزوة ذات الرقاع (٤١٣٥)، ومسلم في صلاة المسافرين باب صلاة الخوف (٨٤٣).

(٤) فتح الباري (٧/ ٤٩٢).

(٥) فتح الباري (٧/ ٤٩٢)، وانظر: سيرة ابن هشام (٣/ ١٥٧).

(٦) أخرجه البخاري في فضائل أصحاب النبي صلى الله عليه وسلم باب مناقب المهاجرين وفضلهم (٣٦٥٣)، ومسلم في فضائل الصحابة باب من فضائل أبي بكر الصديق رضي الله عنه (٢٣٨١).

توكلٌ على الله تعالى في مواجهة المنافقين ودسائسهم وأراجيفهم، ﴿فَإِذَا بَرَزُوا مِنْ عِندِكَ بَيَّتَ طَائِفَةٌ مِّنْهُمْ غَيْرَ الَّذِي تَقُولُ وَاللَّهُ يَكْتُبُ مَا يُبَيِّتُونَ فَأَعْرِضْ عَنْهُمْ وَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ وَكَفَىٰ بِاللَّهِ وَكِيلاً﴾ [النساء: ٨١].

وتوكل على الله تعالى في مواجهة الكافرين.. ومقابلةُ كثرة أعدادهم، وتنوع عتادهم، وشدة بأسهم بالثبات على الحق، والصبر في المعركة، والعلم بأن النصر من عند الله تعالى، واليقين بأن المؤمن لا يخسر في معاركه مع المنافقين والكافرين شيئاً، وهو فائز فيها على كل حال، فإما نصر وإما شهادة، ﴿قُل لَّن يُصِيبَنَا إِلاَّ مَا كَتَبَ اللَّهُ لَنَا هُوَ مَوْلانَا وَعَلَى اللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ الْمُؤْمِنُونَ (٥١) قُلْ هَلْ تَرَبَّصُونَ بِنَا إِلاَّ إِحْدَى الْحُسْنَيَيْنِ وَنَحْنُ نَتَرَبَّصُ بِكُمْ أَن يُصِيبَكُمُ اللَّهُ بِعَذَابٍ مِّنْ عِندِهِ أَوْ بِأَيْدِينَا فَتَرَبَّصُوا إِنَّا مَعَكُم مُّتَرَبِّصُونَ﴾ [التوبة: ٥١ -٥٢].

إنها كفة راجحة لأهل الإيمان على أهل الكفر والنفاق، يثقون بالله تعالى، ويسألونه الفرج في محنهم، واليسر في عسرهم، والخلاص من كربهم، والثبات على دينهم، والنصر على أعدائهم، ومن كان الله تعالى معه فلن يهزم مهما كانت الأحوال والظروف ﴿إِن يَنصُرْكُمُ اللَّهُ فَلا غَالِبَ لَكُمْ وَإِن يَخْذُلْكُمْ فَمَن ذَا الَّذِي يَنصُرُكُم مِّنْ بَعْدِهِ وَعَلَى اللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ الْمُؤْمِنُونَ﴾ [آل عمران: ١٦٠].

ولما كانت وقعة اليرموك، ورأى المسلمون كثرة العدو وقلتهم كتبوا إلى عمر رضي الله عنه يطلبون المدد قائلين: «إنه قد جاش إلينا الموت...» فكتب إليهم عمر رضي الله عنه: «إنه قد جاءني كتابكم تستمدوني،

وإني أدلكم على من هو أعزُّ نصراً، وأحضر جنداً: الله عزَّ وجلَّ، فاستنصروه، فإن محمداً صلى الله عليه وسلم قد نُصر يوم بدر في أقلّ من عدتكم، فإذا جاءكم كتابي هذا فقاتلوهم ولا تراجعوني» قال عياض الأشعري: «فقاتلناهم فهزمناهم، وقتلناهم أربع فراسخ، وأصبنا أموالاً» رواه الإمام أحمد وابن حبان(٧).

هكذا كان المسلمون في سالف عهدهم، متوكلين على الله تعالى، معتصمين به، قد فوضوا أمرهم إليه، مع جدهم واجتهادهم في جهاد أعدائهم؛ فحقق الله تعالى على أيديهم من النصر والفتوح في ثمانين سنة ما عجز عن تحقيقه الرومان في ثمانمئة سنة، وكان لهم من العز والرفعة ما يعرفه القاصي والداني، أسأل الله تعالى أن يعيد للأمة عزها وأمجادها، وأن يدفع عنها شر أعدائها إنه سميع مجيب.

أعوذ بالله من الشيطان الرجيم: ﴿وَاذْكُرِ اسْمَ رَبِّكَ وَتَبَتَّلْ إِلَيْهِ تَبْتِيلاً ﴿٨﴾ رَّبُّ الْمَشْرِقِ وَالْمَغْرِبِ لا إِلَهَ إِلاَّ هُوَ فَاتَّخِذْهُ وَكِيلاً ﴿٩﴾ وَاصْبِرْ عَلَىٰ مَا يَقُولُونَ وَاهْجُرْهُمْ هَجْرًا جَمِيلاً ﴿١٠﴾ وَذَرْنِي وَالْمُكَذِّبِينَ أُوْلِي النَّعْمَةِ وَمَهِّلْهُمْ قَلِيلاً﴾ [المزمل: ٨-١١].

بارك الله لي ولكم في القرآن،،،

(٧) أخرجه أحمد (١/ ٤٩)، وصححه ابن حبان (٤٧٦٦)، والشيخ: أحمد شاكر في شرحه على المسند (٣٤٤).

الخطبة الثانية

الحمد لله حمداً طيباً كثيراً مباركاً فيه كما يحب ربنا ويرضى، أحمده وأشكره، وأتوب إليه وأستغفره، وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له، وأشهد أن محمداً عبده ورسوله، صلى الله وسلَّم وبارك عليه وعلى آله وأصحابه ومن اهتدى بهداهم إلى يوم الدين.

أما بعد: فاتقوا الله ـ عباد الله ـ وتوكلوا عليه، وفوضوا الأمر إليه، فالله تعالى كاف من توكل عليه ﴿**وَمَن يَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ فَهُوَ حَسْبُهُ إِنَّ اللَّهَ بَالِغُ أَمْرِهِ قَدْ جَعَلَ اللَّهُ لِكُلِّ شَيْءٍ قَدْرًا**﴾ [الطلاق: ٣] .

أيها النَاس: التوكل على الله تعالى سبب من أسباب إزالة الخوف، وطمأنينة القلب، وسكون النفس في أحوال الفتن والمحن، وهو سبب للثبات على الدين، والصدع بالحق؛ ذلك أن المتوكل على الله تعالى يعلم أن ما أصابه لم يكن ليخطئه، وما أخطأه لم يكن ليصيبه، وأن الناس لو اجتمعوا على أن ينفعوه بشيء لم ينفعوه إلا بشيء قد كتبه الله له، وإن اجتمعوا على أن يضروه بشيء لم يضروه إلا بشيء قد كتبه الله عليه، كما صح ذلك عن رسول الله صلى الله عليه وسلم(٨).

(٨) جاء ذلك في حديث ابن عباس رضي الله عنهما عند أحمد (١/ ٢٩٣)، والترمذي في صفة القيامة باب حديث حنظلة (٢٥١٦)، وأبي يعلى (٢٥٥٦)، والطبراني في الكبير (١٢/ ١٨٤)، برقم: (١٢٩٨٨ ـ ١٢٩٨٩). وابن السني في عمل اليوم والليلة (٤٢٥)، وقال الترمذي: حسن صحيح، وقال الحافظ ابن رجب في جامع العلوم والحكم حديث (١٩): طريق حنش التي أخرجها الترمذي حسنة جيدة، وصححه الشيخ أحمد شاكر في شرحه على المسند (٢٦٦٩).

قال ابن القيم رحمه الله تعالى: «التوكل من أقوى الأسباب التي يدفع بها العبد ما لا يطيق من أذى الخلق وظلمهم وعدوانهم»(٩).

إن التوكل على الله تعالى دليلٌ على صحة الإيمان، وقوة اليقين، وخلو القلب إلا من الله تعالى، كما قال الإمام أحمد رحمه الله تعالى: «صدق المتوكل على الله عزَّ وجلَّ أن يتوكل على الله ولا يكون في قلبه أحد من الآدميين يطمع أن يجيئه بشيء»(١٠).

وقال سعيد بن جبير رحمه الله: «التوكل على الله جماع الإيمان»(١١).

إن معاني التوحيد، والعبودية لله تعالى بالقلب واللسان والجوارح، والسنن الربانية في البشر؛ كالنصر والتمكين للمؤمنين، وسوء عاقبة الظالمين لا يدرك كثير من الناس حقيقتها ومعانيها، ولا تتجذر في قلوبهم إلا عند المواجهات الكبرى بين أهل الإيمان وأهل الكفر والنفاق، والسلاح الأقوى الذي يتسلح به المؤمنون ولا يملكه غيرهم مع إعداد العدة اللازمة هو التوكل على الله تعالى؛ كما قالت الرسل لأقوامهم ﴿**وَمَا لَنَا أَلاَّ نَتَوَكَّلَ عَلَى اللَّهِ وَقَدْ هَدَانَا سُبُلَنَا وَلَنَصْبِرَنَّ عَلَىٰ مَا آذَيْتُمُونَا وَعَلَى اللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ الْمُتَوَكِّلُونَ**﴾ [إبراهيم: ١٢].

وتوكلهم على الله تعالى يقتضي عدم ركونهم إلى الذين ظلموا، أو إرضائهم بالتنازل عن شيء من دينهم، مهما كان ضغط أهل الباطل

---

(٩) التفسير القيم (٥٧٨).
(١٠) الآداب الشرعية لابن مفلح (٣/ ٢٧٠).
(١١) حلية الأولياء (٤/ ٢٧٤)، و(١٠/ ٧٠)، والزهد لهناد (٥٣٤).

وشدة أذاهم للمؤمنين، والأمة المسلمة في هذا العصر بأفرادها وجماعاتها ودولها، في أمس الحاجة إلى فهم هذه المعاني العظيمة، وعدم التفريط في الأصول لتحقيق ما يُظن أنه مكاسب، وهو خسارة في واقع الأمر.

إن المسلمين في مشارق الأرض ومغاربها يواجهون عدواً شرساً، وأعداءً آخرين متربصين، ومنافقين قد أعلنوا نفاقهم صراحة، وبدأوا بخلخلة المجتمعات المسلمة من داخلها، مطالبين المسلمين بالتخلي عن دينهم، واطراح شريعة ربهم، ظناً منهم أن الكفر منتصر لا محالة، وأن الإسلام الحق سيقضى عليه؛ ليستبدل بإسلام آخر يحاولون إقناع الأمة به يصدق عليه أن يسمى: (إسلاماً ليبرالياً)، ليس فيه أمر بمعروف، ولا نهي عن منكر، ولا جهاد في سبيل الله تعالى، ولا واجبات تفرض، ولا محرماتٌ ينهى عنها!! لقد غرتهم قوة الكافرين، وشدة تسلطهم على المسلمين، وما يستطيعونه من إشعال حروب إلكترونية، وما يملكونه من قوة نووية، وهذا هو ظن الجاهلين الذين قال الله تعالى فيهم: ﴿**يَظُنُّونَ بِاللَّهِ غَيْرَ الْحَقِّ ظَنَّ الْجَاهِلِيَّةِ**﴾ [آل عمران: ١٥٤]، وهو ظنهم هلاك الإسلام وأهله؛ كما قال تعالى في الآية الأخرى: ﴿**بَلْ ظَنَنتُمْ أَن لَّن يَنقَلِبَ الرَّسُولُ وَالْمُؤْمِنُونَ إِلَىٰ أَهْلِيهِمْ أَبَدًا وَزُيِّنَ ذَٰلِكَ فِي قُلُوبِكُمْ وَظَنَنتُمْ ظَنَّ السَّوْءِ وَكُنتُمْ قَوْمًا بُورًا**﴾ [الفتح: ١٢].

ولكن الله تعالى بحكمته ورحمته مبقٍ لهم ما يسوؤهم ببقاء الإسلام وأهله، وعجز الكافرين عن القضاء عليه بالكلية، فلا تزال طائفة من هذه الأمة على الحق ظاهرين لا يضرهم من خذلهم ولا من خالفهم

حتى يأتي أمر الله تعالى وهم على ذلك، كما صح ذلك عن رسول الله صلى الله عليه وسلم[١٢].

وحال منافقي هذا العصر هو حال سالفيهم في عصر النبوة؛ فإنهم لما رأوا الأحزاب قد تحزبت، ويهود قد نقضت عهدها، أظهروا نفاقهم، وخذّلوا في المسلمين وأرجفوا وقالوا: ﴿مَّا وَعَدَنَا اللَّهُ وَرَسُولُهُ إِلاَّ غُرُورًا﴾ [الأحزاب: ١٢]، بخلاف الطائفة المؤمنة فإنهم لما رأوا تجمع الجموع عليهم قالوا: ﴿هَذَا مَا وَعَدَنَا اللَّهُ وَرَسُولُهُ وَصَدَقَ اللَّهُ وَرَسُولُهُ وَمَا زَادَهُمْ إِلاَّ إِيمَانًا وَتَسْلِيمًا﴾ [الأحزاب: ٢٢]، ونحن نقول في هذا العصر الذي تكالب فيه الكفر مع النفاق على أهل الحق والإيمان كما قال أسلافنا: هذا ما وعدنا الله ورسوله، وصدق الله ورسوله، ونسأل الله أن يزيدنا إيمانا وتسليماً، وثباتاً ويقيناً.

فأبشروا ـ يا عباد الله ـ وأمّلوا، وأحسنوا الظن بربكم، واستسلموا له، وأخلصوا له الدين، وتوكلوا عليه، واعتصموا به، وفوضوا الأمر إليه؛ فإنه مالك الملك، والمتصرف في الخلق، ﴿لِلَّهِ الأَمْرُ مِن قَبْلُ وَمِنْ بَعْدُ وَيَوْمَئِذٍ يَفْرَحُ الْمُؤْمِنُونَ (٤) بِنَصْرِ اللَّهِ يَنصُرُ مَن يَشَاءُ وَهُوَ الْعَزِيزُ الرَّحِيمُ (٥) وَعْدَ اللَّهِ لا يُخْلِفُ اللَّهُ وَعْدَهُ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لا يَعْلَمُونَ﴾ [الروم: ٤-٦].

ألا وصلوا وسلموا على نبيكم كما أمركم بذلك ربكم،،،

---

(١٢) جاء ذلك في حديث جابر رضي الله عنه عند مسلم في الإيمان باب نزول عيسى ابن مريم حاكماً بشريعة نبينا محمد صلى الله عليه وسلم (١٥٦)، وحديث عبد الله بن عمرو رضي الله عنهما عند مسلم أيضًا في الإمارة باب قوله صلى الله عليه وسلم: «لا تزال طائفة من أمتي ظاهرين...» (١٩٢٤).

١٣- الإيمان بالغيب

١٧/ ٨/ ١٤٢٢هـ

الحمد لله، نحمده ونستعينه ونستغفره، ونعوذ بالله من شرور أنفسنا ومن سيئات أعمالنا، من يهده الله فلا مضل له، ومن يضلل فلا هادي له، وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له، وأشهد أن محمداً عبده ورسوله. ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ حَقَّ تُقَاتِهِ وَلا تَمُوتُنَّ إِلاَّ وَأَنتُم مُّسْلِمُونَ﴾ [آل عمران: ١٠٢]، ﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ اتَّقُوا رَبَّكُمُ الَّذِي خَلَقَكُم مِّن نَّفْسٍ وَاحِدَةٍ وَخَلَقَ مِنْهَا زَوْجَهَا وَبَثَّ مِنْهُمَا رِجَالاً كَثِيرًا وَنِسَاءً وَاتَّقُوا اللَّهَ الَّذِي تَسَاءَلُونَ بِهِ وَالأَرْحَامَ إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلَيْكُمْ رَقِيبًا﴾ [النساء: ١]، ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَقُولُوا قَوْلاً سَدِيدًا (٧٠) يُصْلِحْ لَكُمْ أَعْمَالَكُمْ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ وَمَن يُطِعِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ فَقَدْ فَازَ فَوْزًا عَظِيمًا﴾ [الأحزاب: ٧٠, ٧١].

أما بعد: فإن أصدق الحديث كلام الله تعالى، وخير الهدي هدي محمد صلى الله عليه وسلم، وشر الأمور محدثاتها، وكل محدثة بدعة، وكل بدعة ضلالة، وكل ضلالة في النار.

أيها المسلمون: من أعظم أسباب سعادة العبد في الدنيا والآخرة: طمأنينة قلبه وسكينته، والقلب لا يطمئن إلا بالإيمان. والإيمانُ يعني: التصديق بالغيب، والقناعة بأن العالم المشاهد ليس إلا جزءاً يسيراً من الموجود، واليقين بأن لهذا الوجود بعالميه: عالم الغيب والشهادة، خالقاً ومدبراً، هو على كل شيء قدير، وبكل شيء عليم.

وأركان الإيمان الستة المنصوص عليها في السنة كلها غيب؛ ولذا

استحق المصدقُ بها وصف الإيمان، وكان منتفعاً بالقرآن، كما قال الله سبحانه وتعالى: ﴿ **ذَلِكَ الْكِتَابُ لا رَيْبَ فِيهِ هُدًى لِّلْمُتَّقِينَ (٢) الَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِالْغَيْبِ** ﴾ [البقرة: ٢١- ٣].

والذين لا يؤمنون بالغيب مع قيام الأدلة على وجوده ما هم إلا جاهلون لأقدار أنفسهم، مستكبرون عن عبادة ربهم، ولو أُظهر لهم هذا الغيبُ فشاهدوه أولمسوه فلن يؤمنوا؛ لأن من أنكر الغيب مع تظاهر الأدلة على وجوده فذلك دليل على فساد قلبه، واختلال عقله، ولن تنفعه مشاهدة الغيب شيئاً لو شاهده، وقد أخبر الله تعالى عن استكبار هذه الفئة من الناس؛ فقال سبحانه: ﴿ **وَقَالَ الَّذِينَ لا يَرْجُونَ لِقَاءَنَا لَوْلا أُنزِلَ عَلَيْنَا الْمَلائِكَةُ أَوْ نَرَىٰ رَبَّنَا لَقَدِ اسْتَكْبَرُوا فِي أَنفُسِهِمْ وَعَتَوْا عُتُوًّا كَبِيرًا** ﴾ [الفرقان: ٢١]، وأخبر سبحانه عنهم بأنهم لو رأوا الغيب مشاهداً أمامهم لما آمنوا ﴿ **وَلَوْ أَنَّنَا نَزَّلْنَا إِلَيْهِمُ الْمَلائِكَةَ وَكَلَّمَهُمُ الْمَوْتَىٰ وَحَشَرْنَا عَلَيْهِمْ كُلَّ شَيْءٍ قُبُلاً مَّا كَانُوا لِيُؤْمِنُوا إِلاَّ أَن يَشَاءَ اللَّهُ وَلَكِنَّ أَكْثَرَهُمْ يَجْهَلُونَ** ﴾ [الأنعام: ١١١].

والغيبُ كله ـ سواءٌ ما كان منه في الماضي أم في الحاضر أم في المستقبل ـ لا يعلمه إلا الله تعالى، ومهما بلغت منزلة المخلوق وعظمته وقوتُه، ومهما كان عنده من الوسائل والأساليب والصناعات فإنه لا يستطيع معرفة الغيب؛ إذ علم الغيب من خصائص الرب جلَّ جلاله.

وأفضل خَلْقٍ خلقه الله تعالى نبينا محمد صلى الله عليه وسلم، وله عند الله تعالى منزلة عظيمة، ومقام محمود، وحوض مورود،

ومع ذلك فإنه عليه الصلاة والسلام لا يعلم الغيب، كما قالت عائشة رضي الله عنها: «من زعم أن رسول الله صلى الله عليه وسلم يخبر بما يكون في غد فقد أعظم على الله الفرية»، والله تعالى يقول: ﴿قُل لاَّ يَعْلَمُ مَن فِي السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ الغَيْبَ إِلاَّ اللَّهُ﴾ [النمل: ٦٥] رواه مسلم[١].

وقد أمره ربه تبارك وتعالى فقال: ﴿قُل لاَّ أَقُولُ لَكُمْ عندي خَزَائِنُ اللَّه وَلا أَعْلَمُ الغَيْبَ وَلا أَقُولُ لَكُمْ إِنِّي مَلَكٌ إِنْ أَتَّبِعُ إِلاَّ مَا يُوحَىٰ إِلَيَّ﴾ [الأنعام: ٥٠].

ولما رميت عائشةُ رضي الله عنها بالإفك لم يعلم عليه الصلاة والسلام أهي بريئة أم لا، وعظم عليه الأمر حتى أخبره الله تعالى ببراءتها.

وذبح إبراهيمُ عليه السلام عجله للملائكة ولا علم له بأنهم ملائكة حتى أخبروه وقالوا: ﴿إِنَّا أُرْسِلْنَا إِلَىٰ قَوْمِ لُوطٍ﴾ [هود: ٧٠]، ولما جاءوا لوطاً عليه السلام لم يعلم أيضاً أنهم ملائكة؛ ولذا ﴿سِيءَ بِهِمْ وَضَاقَ بِهِمْ ذَرْعًا وَقَالَ هَذَا يَوْمٌ عَصِيبٌ﴾ [هود: ٧٧] ولم يعلم خبرهم إلا لما أخبروه فقالوا: ﴿إِنَّا رُسُلُ رَبِّكَ﴾ [هود: ٨١].

ويعقوبُ عليه السلام ابيضت عيناه من الحزن على يوسف، وهو في مصر لا يدري خبره حتى أظهر الله خبر يوسف عليه السلام.

وسليمان عليه السلام مع أن الله تعالى سخر له الشياطين والريح،

---

(١) أخرجه مسلم في الإيمان باب معنى قول الله عزَّ وجلَّ: ﴿وَلَقَدْ رَآهُ نَزْلَةً أُخْرَىٰ﴾ [النجم: ١٣] (١٧٧).

ما كان يدري عن أهل مأرب قوم بلقيس حتى جاءه الهدهد وقال له: ﴿أَحَطتُ بِمَا لَمْ تُحِطْ بِهِ وَجِئْتُكَ مِن سَبَإٍ بِنَبَإٍ يَقِينٍ﴾ [النمل: ٢٢] فأخبره خبرهم[٢].

فهؤلاء الرسل عليهم السلام أفاضل البشر، ما كانوا يعلمون الغيب، إلا ما أطلعهم الله تعالى عليه، وكشف لهم خبره، من أنباء الماضي، وعلوم الحاضر والمستقبل.

والملائكةُ عليهم السلام مع قربهم من الله تعالى، وقيامهم بوظائفهم التي كلفوا بها؛ فإنهم لا يعلمون الغيب أيضاً؛ ولما أخبرهم الله سبحانه وتعالى أنه جاعل في الأرض خليفة ﴿قَالُوا أَتَجْعَلُ فِيهَا مَن يُفْسِدُ فِيهَا وَيَسْفِكُ الدِّمَاءَ وَنَحْنُ نُسَبِّحُ بِحَمْدِكَ وَنُقَدِّسُ لَكَ قَالَ إِنِّي أَعْلَمُ مَا لَا تَعْلَمُونَ﴾ [البقرة: ٣٠]، ولما قال لهم سبحانه: ﴿أَنْبِئُونِي بِأَسْمَاءِ هَؤُلَاءِ إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ ﴿٣١﴾ قَالُوا سُبْحَانَكَ لَا عِلْمَ لَنَا إِلَّا مَا عَلَّمْتَنَا إِنَّكَ أَنتَ الْعَلِيمُ الْحَكِيمُ﴾ [البقرة: ٣١, ٣٢]، فبان بذلك أن أعلم المخلوقات، وأقربها إلى الله تعالى ـ وهم الرسل والملائكة عليهم السلام ـ لا يعلمون الغيب؛ لكنَّ الله تعالى يطلعهم على شيء منه كما قال سبحانه: ﴿وَمَا كَانَ اللَّهُ لِيُطْلِعَكُمْ عَلَى الْغَيْبِ وَلَكِنَّ اللَّهَ يَجْتَبِي مِن رُّسُلِهِ مَن يَشَاءُ﴾ [آل عمران: ١٧٩]، وقال تعالى: ﴿عَالِمُ الْغَيْبِ فَلَا يُظْهِرُ عَلَى غَيْبِهِ أَحَدًا ﴿٢٦﴾ إِلَّا مَنِ ارْتَضَى مِن رَّسُولٍ﴾ [الجن: ٢٦, ٢٧].

وما كشفه الله تعالى لرسله من الغيب من قصة بداية الخلق،

(٢) انظر: أضواء البيان للشنقيطي (٢/ ١٧٥ ـ ١٧٦).

وعمارة الأرض، وأخبار الأمم الماضية، وما جرى لهم، أو ما كان منه في المستقبل من أنباء آخر الزمان، وعلامات الساعة، وأخبار البعث، والقيامة والمصير، فكل ذلك ما هو إلا جزء يسير من الغيب الذي أطلع الله عليه بعض خلقه، وإلا فإنه سبحانه وتعالى: ﴿**بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ**﴾ [البقرة: ٢٩]، وقد ﴿**وَسِعَ كُلَّ شَيْءٍ عِلْمًا**﴾ [طه: ٩٨]، وأخبر سبحانه أن خلقه ﴿**لَا يُحِيطُونَ بِشَيْءٍ مِّنْ عِلْمِهِ إِلَّا بِمَا شَاءَ**﴾ [البقرة: ٢٥٥]، وهو ما علمهم إياه.

ولذا فإنه لما تقرر في الشريعة أن الغيب لا يعلمه إلا الله تعالى؛ فإن كل طريقة يراد بها التوصلُ إلى شيء من علم الغيب غير طريقة الوحي الذي اختص الله تعالى به رسله فهي ضلال وإفكٌ وكذبٌ، ولا توصل إلى علم حقيقي؛ بل هي مجردُ ظنونٍ وأوهامٍ وأكاذيب لا تغني من الحق شيئاً. ولأجل ذلك حرم الله السحر والكهانة والعرافة، وما جرى مجراها مما فيه ادِّعاءُ علم الغيب بطرق شيطانية، وحيل كفرية؛ لما فيها من منازعة الرب جلَّ جلاله في بعض خصائصه.

وكل ما يحتاج إليه البشر، وما يصلح أحوالهم من الغيب كشفه الله تعالى لهم، وعلمهم إيَّاه؛ وهو ما أخبرت به الرسل من تفرد الله سبحانه وتعالى بالخلق والأمر والتدبير، ولزوم إفراده بالعبادة دون ما سواه، والطريق الموصلة إلى رضوانه، وأنباء المكذبين وما جرى لهم، وأخبار المؤمنين وجزائهم، والإخبار عن البعث والنشور والحساب الجنة والنار. فكل ذلك مما يحتاج المكلفون إلى العلم به؛ حتى يقودهم إلى

الإيمان بالله تعالى، وإخلاص العبادة له وحده؛ علمهم الله إياه.

كذلك كشف الله لهم من العلوم ما يحتاجون إليه في عمارة الأرض، وإصلاح دنياهم، وحَجَب عنهم ما لا يحتاجون إليه.

قال ابن القيم رحمه الله تعالى: «وكذلك أعطاهم من العلوم المتعلقة بصلاح معاشهم ودنياهم بقدر حاجاتهم كعلم الطب والحساب وعلم الزراعة والغراس، وضروب الصنائع، واستنباط المياه، وعقد الأبنية، وصنعة السفن، واستخراج المعادن.. والتصرف في وجوه التجارات، ومعرفة وجوه المكاسب، وغير ذلك مما فيه قيام معايشهم، ثم منعهم سبحانه علمَ ما سوى ذلك مما ليس في شأنهم، ولا فيه مصلحة لهم.. كعلم الغيب، وعلم ما كان وكل ما يكون، والعلم بعدد القطر، وأمواج البحر، وذرات الرمال، ومساقط الأوراق، وعدد الكواكب ومقاديرها، وعلم ما فوق السموات، وما تحت الثرى، وما في لجج البحار، وأقطار العالم، وما يكنُه الناس في صدورهم، وما تحمل كلُ أنثى، وما تغيض الأرحام وما تزداد؛ إلى سائر ما عُزب عنهم علمُه. فمن تكلف معرفة ذلك فقد ظلم نفسه، وبخس من التوفيق حظه، ولم يحصل إلا على الجهل المركب، والخيال الفاسد في أكثر أمره، وجرت سنة الله وحكمتُه أن هذا الضرب من الناس أجهلهم بالعلم النافع، وأقلهم صواباً، فترى عند من لا يرفعون به رأساً من الحِكَمِ والعلم الحق النافع ما لا يخطر ببالهم أصلاً، وذلك من حكمة الله في خلقه وهو العزيز الحكيم» اهـ(٣).

(٣) مفتاح دار السعادة (١/ ٢٨٢).

أعوذ بالله من الشيطان الرجيم: ﴿وَعِندَهُ مَفَاتِحُ الْغَيْبِ لا يَعْلَمُهَا إِلاَّ هُوَ وَيَعْلَمُ مَا فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ وَمَا تَسْقُطُ من وَرَقَةٍ إِلاَّ يَعْلَمُهَا وَلا حَبَّةٍ فِي ظُلُمَاتِ الأَرْضِ وَلا رَطْبٍ وَلا يَابِسٍ إِلاَّ فِي كِتَابٍ مُّبِينٍ﴾ [الأنعام: ٥٩].

بارك الله لي ولكم في القرآن العظيم،،،

الخطبة الثانية

الحمد لله، حمداً طيباً كثيراً مباركاً فيه كما يحب ربنا ويرضى، أحمده وأشكره وأتوب إليه وأستغفره، وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له، وأشهد أن نبينا محمداً عبده ورسوله، صلى الله وسلم وبارك عليه وعلى آله وأصحابه ومن اهتدى بهداهم إلى يوم الدين..

أما بعد: فاتقوا الله ـ عباد الله ـ واعملوا صالحاً.

أيها المؤمنون: الإيمان بالغيب هو مفتاح الإيمان بالله تعالى، وبما أخبرت به الرسل عليهم السلام؛ ومن أنكر الغيب فليس لديه قابليةٌ لأن يُصَدِّق بما أخبرت به الرسل، وما أنزل من الكتب؛ لأن أساس الإيمان بذلك هو الإيمان بالغيب(٤)، وكلما كان الإيمان بالغيب أقوى؛ كان الإيمان بالله تعالى وبما جاء من عنده أقوى وأمكن في قلب العبد.

وكلما ضعف الإيمان بالغيب؛ ضعف الإيمان بالله تعالى، وهكذا. بل إن من أنكر الغيب فهو خارج من الإيمان كله، وليس في قلبه إيمان ألبتة، وكان حاله كحال الدُّهرية الملاحدة الذين قالوا: ﴿مَا هِيَ إِلاَّ حَيَاتُنَا الدُّنْيَا نَمُوتُ وَنَحْيَا وَمَا يُهْلِكُنَا إِلاَّ الدَّهْرُ﴾ [الجاثية: ٢٤].

---

(٤) انظر: أضواء البيان (١/ ١٧٦).

ومن تكلف البحث في الغيبيات ففيه ضعفُ إيمان بها، ونوع إنكار لها؛ لأن قلبه لو اطمأن بالإيمان بالغيب لما راح يبحث عن هذا الغيب.

والنفسُ البشرية بحكم جهلها وعجزها، تنساق خلف دعوات البحث عن الغيب واكتشافه؛ ولكنها عاجزة عن ذلك. ومنذ أزمنة طويلة وإلى يومنا هذا كان كثيرٌ من البشر يبحثون في سر موت الإنسان وروحه، وما وجد الماديون منهم لذلك تفسيراً، لكنهم لو آمنوا بالغيب لعلموا أن الروح من أمر الله تعالى، وأن البشر مهما بلغت أبحاثهم وعلومهم فلن يصلوا إلى علمها؛ لضعفهم، وقلة علمهم ﴿وَيَسْأَلُونَكَ عَنِ الرُّوحِ قُلِ الرُّوحُ مِنْ أَمْرِ رَبِّي وَمَا أُوتِيتُم مِّنَ الْعِلْمِ إِلاَّ قَلِيلاً﴾ [الإسراء: ٨٥].

إن المؤمن الحق هو من يؤمن بالغيب، ولا يتكلف البحث فيه؛ لعلمه أنه من أسرار الله تعالى، وأنه لن يدركه ما لم يطلعه الله على شيء منه، ويجعلُ همّه ومهمته في العمل على تحقيق ما يرضي الله تعالى من الإيمان به، وإقامة دينه، والدعوة إليه. ولو نظرنا إلى طريقة العلماء الراسخين في العلم لما وجدناهم إلا على هذا المنهج السديد.

قارنوا مثلاً بين ما خلّفه لنا علماؤنا من إرث في جوانب العقائد وبين ما تركوه لنا في جوانب العبادات العملية؛ تجدوا أن ما كان في أمور العقائد لا يتجاوز العشر مما جاء في الفقه العملي، فما سبب ذلك؟ وهل يعني ذلك أنهم ما كانوا يهتمون بالعقائد؟! كلا، ليس الأمر كذلك، وإنما كانت كتبهم في العقائد أقل حجماً وكثافة من كتبهم في

الفقه العملي؛ لأن ما جاء في العقائد غيب، أثبتوا منه ما ثبت في الكتاب والسنة، ولم يدخلوا في تفصيلات وجزئيات متكلفة لم يرد الجواب عنها لا في الكتاب ولا في السنة، ولم يكلفوا عقولهم اقتحام هذا الغيب الذي حجب عنهم بتفصيلاته وجزئياته، وعدوا بحث ذلك من أسباب الزيغ والضلال؛ ولذا كان تراثهم في العقائد قليلاً مقارنة بالفقه العملي؛ لاقتصارهم على ما جاءت به النصوص.

بينما لو نظرنا إلى نتاج أسلافنا في الفقه العملي لوجدناه تراثاً ضخماً، وما من جزئية فيه إلا وقد أتوا عليها بالتفصيل؛ لحاجة المكلف إلى العلم بذلك؛ لأنه متعلق بعبادته التي يطلب بها رضى الله تعالى؛ ولإمكانية إعمال العقول في نصوصها بالاستنباط والقياس وما شابهه.

وكان من التعدي في الدعاء أن يسأل العبد ربه القصر الفلاني في الجنة، أو الشجرة الفلانية، أو النهر الفلاني، أو أوصافاً معينة يطلبها في الجنة؛ لما في ذلك من التكلف في سؤال المغيبات؛، ولأنه إن دخل الجنة حاز قصورها وأنهارها وأشجارها فلا يحتاج إلى تفصيل ذلك.

إن كثيراً من المسلمين قد حادوا عن منهج أسلافهم؛ فقعدوا عن العمل، وصاروا يشتغلون بالغيبيات، محاولين كشف المستقبل المخبوء علمه، إما بقراءة نبوءات أهل الكتاب، أو بالرؤى والمنامات، ولا سيما مع توارد الفتن في هذا الزمان. وانتقل هَمُّ الواحد منهم من العمل إلى التوقع، ومن الكسب إلى التخمين.

إننا نؤمن بأن الرؤى الصالحة مبشرات، وأنها جزء يسير من النبوة؛

ولكننا ما كلفنا بالبحث في الغيب، وتوقع ما سيحصل وما يستجد من أحداث، ومتى تكون هذه الأحداث، ولن يسألنا الله تعالى عن ذلك، وإنما سيسألنا تبارك وتعالى عن عباداتنا، وعن دعوتنا، وماذا قدمنا في سبيل الله تعالى؟! فواجب علينا أن نعد للسؤال جواباً، بالاشتغال بما يعنينا، والبعد عمَّا لم نكلف به؛ حتى ننال رضى الله تعالى.

ألا وإن من أعظم الفتن في زمن الفتن: اشتغال الناس بما لا ينفعهم، وانصرافهم عمَّا ينفعهم، وتركهم ما كلفوا به، وإسراعهم فيما لم يكلفوا به، وهذه فتن من نتائج الفتن الكبرى.

فاتقوا الله ربكم، واحذروا الفتن، وافقهوا سبل النجاة منها، بالعمل بما يرضي الله تعالى، وترك القيل والقال في زمن كثر فيه الحديث، وقلَّ فيه العمل.

وصلوا وسلموا على نبينا محمد كما أمركم بذلك ربكم.

١٤- خطـورة الشـرك

الجمعة ٨/ ٢/ ١٤١٨هـ

الحمد لله، نحمده ونستعينه ونستغفره، ونعوذ بالله من شرور أنفسنا ومن سيئات أعمالنا، من يهده الله فلا مضل له ومن يضلل فلا هادي له، وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له وأشهد أن محمداً عبده ورسوله ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ حَقَّ تُقَاتِهِ وَلَا تَمُوتُنَّ إِلَّا وَأَنتُم مُّسْلِمُونَ (١٠٢)﴾ [آل عمران] ﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ اتَّقُوا رَبَّكُمُ الَّذِي خَلَقَكُم مِّن نَّفْسٍ وَاحِدَةٍ وَخَلَقَ مِنْهَا زَوْجَهَا وَبَثَّ مِنْهُمَا رِجَالًا كَثِيرًا وَنِسَاءً وَاتَّقُوا اللَّهَ الَّذِي تَسَاءَلُونَ بِهِ وَالْأَرْحَامَ إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلَيْكُمْ رَقِيبًا (١)﴾ [النساء] ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَقُولُوا قَوْلًا سَدِيدًا (٧٠) يُصْلِحْ لَكُمْ أَعْمَالَكُمْ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ وَمَن يُطِعِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ فَقَدْ فَازَ فَوْزًا عَظِيمًا (٧١)﴾ [الأحزاب].

أما بعد: فإن أصدق الحديث كلام الله تعالى، وخير الهدي هدي محمد صلى الله عليه وسلم، وشر الأمور محدثاتها، وكل محدثة بدعة، وكل بدعة ضلالة، وكل ضلالة في النار.

أيها الإخوة المؤمنون: تمر على العبد المتبصر لحظات يتفكر فيها في هذا العالم الواسع، بما أودع الله تعالى فيه من كائناتٍ ومخلوقاتٍ، لها وظائفُ وأعمال، من إنسان وحيوان ونبات وجماد، من أرض وسماوات وأنجم وأفلاك، من بحار وأنهار وأحجار وجبال. كلُها وغيرها خلقها الله تعالى لحكم بالغة، ومعان عظيمة، يدرك البشر منها بما آتاهم الله من عقول ومبتكرات ما يدركون، ويجهلون كثيراً من ذلك.

وحينما يحرك الإنسان ذاكرته، ويعود بها إلى الوراء يتذكر الأطوار التي مرّ ويمر بها من طفولة وصبا، وشباب وكهولة، وهرم وشيخوخة. وقبلَ تلك الأطوار كلِّها كان نطفة ثم علقة ثم مضغة ثم جنيناً ينتظر الخروج إلى الدنيا. وقبل ذلك لم يكن له وجود ولا أثر، ولا ذكر ولا خبر ﴿**هَلْ أَتَىٰ عَلَى الْإِنسَانِ حِينٌ مِّنَ الدَّهْرِ لَمْ يَكُن شَيْئًا مَّذْكُورًا (١) إِنَّا خَلَقْنَا الْإِنسَانَ مِن نُّطْفَةٍ أَمْشَاجٍ نَّبْتَلِيهِ فَجَعَلْنَاهُ سَمِيعًا بَصِيرًا (٢) إِنَّا هَدَيْنَاهُ السَّبِيلَ إِمَّا شَاكِرًا وَإِمَّا كَفُورًا (٣)**﴾ [الإنسان].

إذن فالغايةُ التي خُلق من أجلها هذا المخلوق الضعيف أن يكون شكوراً، يفرد الله تعالى بالعبادة ﴿**وَمَا خَلَقْتُ الْجِنَّ وَالْإِنسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ (٥٦)**﴾ [الذاريات] ومن أظلم الظلم، وأقبح القبائح أن يشرك العبد مع الله غيره بعد أن خلقه الله واصطفاه، وسخر له المخلوقات، وأرسل إليه الرسل، وأنزل عليه الكتب. فكان أعظمُ الذنوب الشرك بالله تعالى، بأن يساوى غير الله بالله فيما هو من خصائص الله تعالى، فكيف يُساوَى الخالق الرازق الملك المدبر بالمخلوق الذي لا يملك ضراً ولا نفعاً، ولا يملك موتاً ولا حياة ولا نشوراً؟!.

وهذه الحقيقة تظهر للمشركين يوم القيامة فيقولون لمعبوداتهم من دون الله تعالى ﴿**تَاللَّهِ إِن كُنَّا لَفِي ضَلَالٍ مُّبِينٍ (٩٧) إِذْ نُسَوِّيكُم بِرَبِّ الْعَالَمِينَ (٩٨)**﴾ [الشعراء] وجاء في الحديث عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال: «**إن الله أمر يحيى بن زكريا بخمس كلمات أن يعمل بهن وأن يأمر بني إسرائيل أن يعملوا بهن فكأنه أبطأ بهن، فأوحى الله إلى عيسى: إما أن يبلغهن أو تبلغهن، فأتاه عيسى فقال له: إنك أُمرت**

بخمس كلمات أن تعمل بهن وتأمر بني إسرائيل أن يعملوا بهن فإما أن تبلغهن وإما أن أبلغهن، فقال له: يا روح الله، أخشى إن سبقتني أن أعذب أو يخسف بي؛ فجمع يحيى بني إسرائيل في بيت المقدس حتى امتلأ المسجد فقعد على الشرفات فحمد الله وأثنى عليه ثم قال: إن الله أمرني بخمس كلمات أن أعمل بهن وآمركم أن تعملوا بهن: وأولهن أن تعبدوا الله ولا تشركوا به شيئاً، فإن مثل من أشرك بالله كمَثل رجل اشترى عبداً من خالص ماله بذهب أو ورق ثم أسكنه داراً فقال: اعمل وارفع إليّ - أي ائتني بما تكسبه - فجعل العبد يعمل ويرفع إلى غير سيده، فأيكم يرضى أن يكون عبده كذلك؟ وإن الله خلقكم ورزقكم فاعبدوه ولاتشركوا به شيئاً...» ثم ذكر الصلاة والصيام والصدقة والذكر... الحديث... أخرجه أحمد والترمذي بإسناد صحيح (١).

فالشرك من الكبائر بل هو أكبر الكبائر؛ لذا حرمت على صاحبه المغفرة والجنة ﴿إِنَّ اللَّهَ لا يَغْفِرُ أَن يُشْرَكَ بِهِ وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَلِكَ لِمَن يَشَاءُ وَمَن يُشْرِكْ بِاللَّهِ فَقَدْ ضَلَّ ضَلالاً بَعِيدًا (١١٦)﴾ [النساء] ﴿إِنَّهُ مَن يُشْرِكْ بِاللَّهِ فَقَدْ حَرَّمَ اللَّهُ عَلَيْهِ الْجَنَّةَ وَمَأْوَاهُ النَّارُ وَمَا لِلظَّالِمِينَ مِنْ أَنصَارٍ (٧٢)﴾ [المائدة].

وكثيراً ما يحذر الله من الشرك عقب الأمر بالتوحيد؛ لئلا يشوب التوحيد شرك ﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ اعْبُدُوا رَبَّكُمُ﴾ هذا أمر بالتوحيد، وسبب

---

(١) أخرجه أحمد (٤/ ١٣٠) والترمذي في الأمثال باب ماجاء في مثل الصلاة والصيام والصدقة (٢٨٦٧) وأبو يعلى (١٥٧١) والطيالسي (١١٦١) والطبراني في الكبير (٣٩٢٧) وصححه ابن خزيمة (٩٣٠) وابن حبان (٦٢٣٣) وقال الترمذي: هذا حديث حسن صحيح غريب.

هذا التوحيـد: ﴿الذي خَلَقَكُمْ وَالَّذِينَ مِن قَبْلِكُمْ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ (٢١) الذي جَعَلَ لَكُمُ الأَرْضَ فِرَاشًا وَالسَّمَاءَ بِنَاءً وَأَنزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَخْرَجَ بِهِ مِنَ الثَّمَرَاتِ رِزْقًا لَّكُمْ﴾ ثم عقب ذكر التوحيد وسببه حذّر من الشرك ﴿فَلا تَجْعَلُوا لِلَّهِ أَندَادًا وَأَنتُمْ تَعْلَمُونَ (٢٢)﴾ [البقرة].

ويروي النبي صلى الله عليه وسلم عن الله تعالى أنه قـال: «**أنا أغنى الشركاء عن الشرك، من عمل عملاً أشرك فيه معي غيري تركته وشركه**» أخرجه مسلم من حديث أبي هريرة رضي الله عنه[٢]، ونهى النبي صلى الله عليه وسلم عنه فقال: «**لا تشرك بالله شيئاً وإن قُطِّعت وحُرِّقت، ولا تترك صلاة مكتوبة متعمداً فمن تركها متعمداً فقد برئت منه الذمة، ولاتشرب الخمر فإنها مفتاح كل شر**» أخرجه ابن ماجه[٣].

أيها الإخوة: يظن بعض الناس أن التحذير من الشرك والحديث عنه لا يناسب عند قومٍ الظاهر من أحوالهم أنهم موحدون، وهذا ظن خاطئ؛ لأن القرآن كله والشريعة كلَّها إنما جاءت لتقرر لزومَ إفراد الله تعالى بما يستحق، وتحذر من سلوك سبيل المشركين وتبين مآلهـم. فلو كان نصف حديث الناس أو أكثره عن التحذير من هذا الـذنـب العظيم - الذي هو أعظم الذنوب - لما كان ذلك مستكثراً عند مـن يفهم شريعة الله تعالى فهماً صحيحاً.

---

(٢) أخرجه مسلم في الزهد والرقائق باب من أشرك في عمله غير الله (٢٩٨٥) وابن ماجه في الزهد باب الرياء والسمعة (٤٢٠٢).

(٣) أخرجه ابن ماجه في الفتن باب الصبر على البلاء (٤٠٣٤) وحسنه البوصيري في مصباح الزجاجة (٣/ ٢٥٠).

فالقرآن العظيم جاء يحذر المشركين من شركهم؛ ليأخذ بأيديهم إلى التوحيد والهداية والنجاة ﴿فَفِرُّوا إِلَى اللَّهِ إِنِّي لَكُم مِّنْهُ نَذِيرٌ مُّبِينٌ ۝٥٠ وَلَا تَجْعَلُوا مَعَ اللَّهِ إِلَهًا آخَرَ إِنِّي لَكُم مِّنْهُ نَذِيرٌ مُّبِينٌ ۝٥١﴾ [الذاريات].

وكل رسول كان يقول لقومه ﴿اعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَهٍ غَيْرُهُ﴾ [الأعراف: ٥٩] كما قال تعالى: ﴿وَمَا أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ مِن رَّسُولٍ إِلَّا نُوحِي إِلَيْهِ أَنَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا أَنَا فَاعْبُدُونِ ۝٢٥﴾ [الأنبياء] ﴿وَلَقَدْ بَعَثْنَا فِي كُلِّ أُمَّةٍ رَّسُولًا أَنِ اعْبُدُوا اللَّهَ وَاجْتَنِبُوا الطَّاغُوتَ﴾ [النحل: ٣٦].

ولم يقتصر التحذير من الشرك على الكفار فقط؛ بل حذر الله المؤمنين منه، وأمرهم بالإيمان مع إيمانهم ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا آمِنُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ وَالْكِتَابِ الَّذِي نَزَّلَ عَلَى رَسُولِهِ وَالْكِتَابِ الَّذِي أَنزَلَ مِن قَبْلُ وَمَن يَكْفُرْ بِاللَّهِ وَمَلَائِكَتِهِ وَكُتُبِهِ وَرُسُلِهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ فَقَدْ ضَلَّ ضَلَالًا بَعِيدًا ۝١٣٦﴾ [النساء] ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَآمِنُوا بِرَسُولِهِ﴾ [الحديد: ٢٨] والعبد المؤمن قد هداه الله تعالى، ودله طريقه المستقيم ومع ذلك يقرأ في كل ركعة من كل صلاة يصليها ﴿اهْدِنَا الصِّرَاطَ الْمُسْتَقِيمَ ۝٦﴾ [الفاتحة].

ولعظيم أمر الشرك لايكتفي القرآن بتحذير المشركين والمؤمنين منه؛ بل يحذر الله الأنبياء والمرسلين من الوقوع في الشرك - وهم معصومون منه - ﴿وَإِذْ بَوَّأْنَا لِإِبْرَاهِيمَ مَكَانَ الْبَيْتِ أَن لَّا تُشْرِكْ بِي شَيْئًا﴾ [الحج: ٢٦] وبعد أن ذكر الله تعالى جملة من الأنبياء في كتابه قال: ﴿وَلَوْ أَشْرَكُوا لَحَبِطَ عَنْهُم مَّا كَانُوا يَعْمَلُونَ ۝٨٨﴾ [الأنعام] قال العلماء: «فإذا كان ينهى عن الشرك من لا يمكن أن يباشره فكيف بمن عداه؟»

هذا الخليل إبراهيم عليه الصلاة والسلام يخبر الله تعالى عنه

فيقـول ﴿ وَإِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ رَبِّ اجْعَلْ هَذَا الْبَلَدَ آمِنًا وَاجْنُبْنِي وَبَنِيَّ أَن نَّعْبُدَ الأَصْنَامَ ﴿٣٥﴾ ﴾ [إبراهيم] إبراهيم الذي كسر الأصنام بيده، وتبرأ مـن قومه، فجعله الله تعالى أسوة للموحديـن ﴿ قَدْ كَانَتْ لَكُمْ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ فِي إِبْرَاهِيمَ وَالَّذِينَ مَعَهُ إِذْ قَالُوا لِقَوْمِهِمْ إِنَّا بُرَآءُ مِنكُمْ وَمِمَّا تَعْبُدُونَ مِن دُونِ اللَّهِ كَفَرْنَا بِكُمْ وَبَدَا بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمُ الْعَدَاوَةُ وَالْبَغْضَاءُ أَبَدًا حَتَّىٰ تُؤْمِنُوا بِاللَّهِ وَحْدَهُ ﴾ [الممتحنة: ٤] وقد أخبر الله تعالى أنه أمة وحده، ونفى عنه الشـرك ﴿ إِنَّ إِبْرَاهِيمَ كَانَ أُمَّةً قَانِتًا لِّلَّهِ حَنِيفًا وَلَمْ يَكُ مِنَ الْمُشْرِكِينَ ﴿١٢٠﴾ ﴾ [النحل] إبراهيم الذي ألقاه قومه في النار من أجل إزالة الشرك يقول: ﴿ وَاجْنُبْنِي وَبَنِيَّ أَن نَّعْبُدَ الأَصْنَامَ ﴿٣٥﴾ رَبِّ إِنَّهُنَّ أَضْلَلْنَ كَثِيرًا مِّنَ النَّاسِ ﴾ [إبراهيم: ٣٥، ٣٦] قال إبراهيم التيمي رحمه الله تعالى: «ومن يأمن البـلاء بـعـد إبراهيم؟!»(٤) وقال الشيخ سليمان بن عبدالله أحد أئمة الدعوة: «وهذا يوجب للعبد شدة الخوفِ من هذا الذنب الذي هذا شأنه عند الله، وإنما كان كذلك لأنه أقبح القبح وأظلم الظلم؛ إذ مضمونه تنقيصُ رب العالمين، وصرفُ خالصِ حقه لغيره، وعدلُ غيره به كما قال تعالى ﴿ ثُمَّ الَّذِينَ كَفَرُوا بِرَبِّهِمْ يَعْدِلُونَ ﴿١﴾ ﴾ [الأنعام] ولأنه مناقضٌ للمقصودِ بالخلقِ والأمر، منافٍ له من كل وجه، وذلك غايةُ المعاندة لرب العالمين والاستكبار عن طاعته والذل له». اهـ (٥)

---

(٤) أخرجه ابن جرير في تفسيره (١٣/ ٢٢٨) وابن أبي حاتم كما في الدر المنثور (٤/ ١٦٠).

(٥) تيسير العزيز الحميد شرح كتاب التوحيد (١١٧).

ويقول أيضاً: «﴿وَاجْنُبْنِي وَبَنِيَّ﴾ أي: اجعلني وبني في جانب عن عبادة الأصنام، وباعد بيني وبينها. وإنما دعا إبراهيم بذلك لأن كثيراً من الناس افتتنوا بها كما قال ﴿رَبِّ إِنَّهُنَّ أَضْلَلْنَ كَثِيرًا مِّنَ النَّاسِ﴾ فخاف من ذلك ودعا الله أن يعافيه وبنيه من عبادتها، فإذا كان إبراهيم عليه السلام يسأل الله أن يجنبه ويجنب بنيه عبادة الأصنام فما ظنك بغيره... وهذا يوجبُ للقلب الحيِّ أن يخاف من الشرك لا كما يقول الجهال: إن الشرك لا يقع في هذه الأمة فأمِنُوا الشرك فوقعوا فيه». انتهى كلامه رحمه الله تعالى [٦].

إذن ـ أيها الإخوة ـ يجب أن لا نأمن من الشرك، ولا نأمن النفاق؛ إذ لا يأمن النفاق إلا منافق، ولايخاف النفاق إلا مؤمن، قال ابنُ أبي مليكة رحمه الله تعالى: «أدركت ثلاثين من أصحاب النبي صلى الله عليه وسلم كلُّهم يخاف النفاق على نفسه» أخرجه البخاري [٧] وعمر رضي الله عنه يمسك حذيفة ويقول: «أنشدك الله، هل سمّاني لك رسول الله صلى الله عليه وسلم مع من سمّى من المنافقين» [٨].

أعوذ بالله من الشيطان الرجيم ﴿فَأَقِمْ وَجْهَكَ لِلدِّينِ حَنِيفًا فِطْرَتَ اللَّهِ الَّتِي فَطَرَ النَّاسَ عَلَيْهَا لَا تَبْدِيلَ لِخَلْقِ اللَّهِ ذَلِكَ الدِّينُ الْقَيِّمُ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ (٣٠) مُنِيبِينَ إِلَيْهِ وَاتَّقُوهُ وَأَقِيمُوا الصَّلَاةَ وَلَا تَكُونُوا مِنَ الْمُشْرِكِينَ

---

(٦) تيسير العزيز الحميد شرح كتاب التوحيد (١١٨).

(٧) أخرجه البخاري في الإيمان باب خوف المؤمن أن يحبط عمله هو لا يشعر معلقاً مجزوماً به (١/ ٣٢).

(٨) كنز العمال (١٣/ ٣٤٤) وسير أعلام النبلاء (٢/ ٣٦٤).

﴿٣١﴾ مِنَ الَّذِينَ فَرَّقُوا دِينَهُمْ وَكَانُوا شِيَعًا كُلُّ حِزْبٍ بِمَا لَدَيْهِمْ فَرِحُونَ ﴿٣٢﴾﴾ [الروم] بارك الله لي ولكم في القرآن العظيم. . .

الخطبة الثانية

الحمد لله رب العالمين، والعاقبة للمتقين، ولا عدوان إلا على الظالمين، أحمده وأشكره وأتوب إليه وأستغفره، وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لاشريك له، وأشهد أن محمداً عبده ورسوله صلى الله وسلم وبارك عليه وعلى آله وأصحابه والتابعين لهم بإحسان إلى يوم الدين.

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَآمِنُوا بِرَسُولِهِ يُؤْتِكُمْ كِفْلَيْنِ مِن رَّحْمَتِهِ وَيَجْعَل لَّكُمْ نُورًا تَمْشُونَ بِهِ وَيَغْفِرْ لَكُمْ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿٢٨﴾﴾ [الحديد].

أيها الإخوة المؤمنون: كما حذّر الله الكافرين من الشرك، وحذّر المؤمنين والمرسلين منه؛ فإنه تعالى خاطب إمام الموحدين وسيد المرسلين محمد بن عبدالله صلى الله عليه وسلم يحذره من الشرك - وقد عصمه منه - وتحذيره عليه الصلاة والسلام تحذير لأمته ﴿وَلا يَصُدُّنَّكَ عَنْ آيَاتِ اللَّهِ بَعْدَ إِذْ أُنزِلَتْ إِلَيْكَ وَادْعُ إِلَىٰ رَبِّكَ وَلا تَكُونَنَّ مِنَ الْمُشْرِكِينَ ﴿٨٧﴾﴾ [القصص] وقال تعالى لـه ﴿لا تَجْعَلْ مَعَ اللَّهِ إِلَهًا آخَرَ فَتَقْعُدَ مَذْمُومًا مَّخْذُولاً ﴿٢٢﴾﴾ [الإسراء] وفي آية آخرى ﴿وَلا تَجْعَلْ مَعَ اللَّهِ إِلَهًا آخَرَ فَتُلْقَىٰ فِي جَهَنَّمَ مَلُومًا مَّدْحُورًا ﴿٣٩﴾﴾ [الإسراء].

وأُمر عليه الصلاة والسلام أن يقول: ﴿إِنَّمَا أُمِرْتُ أَنْ أَعْبُدَ اللَّهَ وَلا أُشْرِكَ بِهِ إِلَيْهِ أَدْعُو وَإِلَيْهِ مَآبِ ﴿٣٦﴾﴾ [الرعد].

ويخبره تعالى بأنه أوحى إليه وإلى النبيين من قبله أن الشرك محبط للعمل ﴿وَلَقَدْ أُوحِيَ إِلَيْكَ وَإِلَى الَّذِينَ مِن قَبْلِكَ لَئِنْ أَشْرَكْتَ لَيَحْبَطَنَّ عَمَلُكَ

وَلَتَكُونَنَّ مِنَ الْخَاسِرِينَ (٦٥) بَلِ اللَّهَ فَاعْبُدْ وَكُن مِّنَ الشَّاكِرِينَ (٦٦) ﴾ [الزمر].

وإذا كان الشرك بهذه الخطورة المتناهية فإنه يجب على العبد أن لا يأمنه على نفسه ولا سيما أن النبي صلى الله عليه وسلم خاف على صحابته الوقوع في الشرك الأصغر، روى أبو سعيد مرفوعاً: «**ألا أخبركم بما هو أخوف عليكم عندي من المسيح الدجال؟** قالوا: بلى يارسول الله، قال: **الشرك الخفي يقوم الرجل فيصلي فيزين صلاته لما يرى من نظر الرجل**»(٩).

قال العلماء: «فلذلك صار خوفُه صلى الله عليه وسلم على أصحابه من الرياء أشدَ لقوةِ الداعي وكثرته دون الشرك الأكبر... مع أنه أخبر أنه لا بد من وقوع عبادة الأوثان في أمته؛ فدل على أنه ينبغي للإنسان أن يخاف على نفسه الشرك الأكبر إذا كان الأصغر مخوفاً على الصالحين من الصحابة مع كمال إيمانهم فينبغي للإنسان أن يخاف الأكبر لنقصان إيمانه ومعرفته بالله تعالى...»(١٠).

أيها الإخوة: من صور الشرك القبيحة: الطواف بالقبور والأضرحة، والذبحُ عندها، والصلاةُ لها أو إليها، ودعاءُ الأموات مما هو منتشر في كثير من البلاد الإسلامية بسبب الجهل وتمكن البدعة.

كذلك من مظاهر الشرك: الحكمُ بغير ما أنزل الله تعالى، وفصلُ

---

(٩) أخرجه أحمد (٣/ ٣٠) وابن ماجه في الزهد باب الرياء والسمعة (٤/ ٤٢) وحسنه البوصيري في مصباح الزجاجة (٣/ ٢٩٦)

(١٠) تيسير العزيز الحميد (١١٩).

الدين عن الدولة، ورفضُ بعضِ أحكام الشرع، والمناداةُ بالتحرير من تعاليم الإسلام بحجة أنه لايواكب العصر مما يصيح به الأفاكون والمنافقون. وكل ذلك انتقاص لرب العالمين الذي شرع الدين وأوجبه.

كذلك من مظاهر الشرك: الهزل بشيء من تعاليم الشريعة مهما دق، والاعتراضُ على ما قدّر الله تعالى، وسبُ الدهر والريح، والحلفُ بغير الله تعالى، والرياءُ، وإرادةُ الإنسان بعمله الدنيا، وغيرُ ذلك كثير مما يجب الحذرُ والتحذير منه.

ولا يكون العبد حذراً منه إلا إذا تعلمه وفهمه حتى لا يقع في شيء يخل بإيمانه وهو لا يعلم، يقول حذيفة بن اليمان رضي الله عنهما: «كان الناس يسألون رسول الله صلى الله عليه وسلم عن الخير وكنت أسأله عن الشر مخافة أن يدركني» أخرجه البخاري [١١].

أسأل الله تعالى أن يميتنا على توحيده، وأن يتولانا برحمته، إنه سميع مجيب، وصلوا وسلموا على محمد بن عبدالله كما أمركم بذلك ربكم.

* * *

(١١) أخرجه البخاري في المناقب باب علامات النبوة في الإسلام (٣٦٠٦).

١٥- خطـر السحـر

الجمعة ٢٣/٦/١٤١٨هـ

الحمد لله، نحمده ونستعينه ونستغفره، ونعوذ بالله من شرور أنفسنا ومن سيئات أعمالنا، من يهده الله فلا مضل له ومن يضلل فلا هادي له، وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له، وأشهد أن محمداً عبده ورسوله صلى الله وسلم وبارك عليه وعلى آله وأصحابه ومن سار على نهجهم واقتفى أثرهم إلى يوم الدين.

أما بعد: فيا أيها الناس: اتقوا الله تعالى فإنه ﴿**مَن يَتَّقِ اللَّهَ يَجْعَل لَّهُ مَخْرَجًا ② وَيَرْزُقْهُ مِنْ حَيْثُ لا يَحْتَسِبُ وَمَن يَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ فَهُوَ حَسْبُهُ إِنَّ اللَّهَ بَالِغُ أَمْرِهِ قَدْ جَعَلَ اللَّهُ لِكُلِّ شَيْءٍ قَدْرًا ③**﴾ [الطلاق].

أيها المؤمنون: تفرحُ جموعٌ من البشر بما أوتوا من علوم الدنيا؛ فيظنون أنهم بلغوا مبلغاً يخول لهم الفساد في الأرض، وعملَ ما يشاؤون فيها، وما علموا أنهم ما أوتوا من العلم إلا قليلاً.

وهذه الفئة من البشر هم أعداءُ الرسل والديانة، يستكبرون عن عبادة الله، ويستنكفون عن شريعته، ويمتنعون عن اتباع رسله؛ اكتفاءً وفرحاً بما لديهم من علوم. وقد قص علينا القرآن حالهم وما جرى لهم ﴿**فَلَمَّا جَاءَتْهُمْ رُسُلُهُم بِالْبَيِّنَاتِ فَرِحُوا بِمَا عِندَهُم مِّنَ الْعِلْمِ وَحَاقَ بِهِم مَّا كَانُوا بِهِ يَسْتَهْزِئُونَ ⑧③ فَلَمَّا رَأَوْا بَأْسَنَا قَالُوا آمَنَّا بِاللَّهِ وَحْدَهُ وَكَفَرْنَا بِمَا**

كُنَّا بِهِ مُشْرِكِينَ (٨٤) فَلَمْ يَكُ يَنفَعُهُمْ إِيمَانُهُمْ لَمَّا رَأَوْا بَأْسَنَا سُنَّتَ اللَّهِ الَّتِي قَدْ خَلَتْ فِي عِبَادِهِ وَخَسِرَ هُنَالِكَ الْكَافِرُونَ (٨٥)﴾ [غافر: ٨٣ - ٨٥]. (١)

ومن أعظم علوم أهل الباطل - أعداء الرسل والشرائع - التي أمرنا باجتنابها، وتكذيب أهلها: علوم السحر والشعوذة والكهانة والعرافة و النجوم، وما يجري مجراها مما فيه ادعاءُ علم الغيب، وزعمُ النفع والضر من دون الله تعالى.

وكل هذا يخل بالتوحيد؛ بل يهدمه حتى يوصلَ صاحبَه إلى درجة الكفر والشرك بالله تعالى حينما يتعامل الساحر مع الشياطين ويذبح لهم ويعبدهم. وثمنُ ذلك: تعاونهم معه في أذية الناس، وإخباره بأخبارهم وخصوصياتهم. فيأتي ذلك الساحر أو الكاهن يخبر المصابين ببعض ماضيهم، ثم يكذب عليهم ألف كذبة بأخبار مستقبلهم؛ فيصدقهم الجهلة والرعاع ويظنون أنهم يعلمون الغيب، ويعتقدون أنهم يجلبون النفع ويدفعون الضر من دون الله تعالى؛ فهذا هو الشرك في الربوبية.

والذهاب إليهم، وتصديقهم، والعمل بأقوالهم؛ هو القدح في توحيد الألوهية، وإذا ذهب توحيد العبد فماذا يبقى له من دينه؟!!

أيها الإخوة: السحر بلاء قديم في الأمم، أجمعت الشرائع على تحريمه (٢). وأخبر القرآن عن قدمه في الناس ﴿وَاتَّبَعُوا مَا تَتْلُو الشَّيَاطِينُ عَلَىٰ مُلْكِ سُلَيْمَانَ وَمَا كَفَرَ سُلَيْمَانُ وَلَٰكِنَّ الشَّيَاطِينَ كَفَرُوا يُعَلِّمُونَ النَّاسَ

(١) انظر: فتح المجيد شرح كتاب التوحيد (٤١٧).
(٢) المصدر السابق (٣٨٦).

السِّحْرَ وَمَا أُنزِلَ عَلَى الْمَلَكَيْنِ بِبَابِلَ هَارُوتَ وَمَارُوتَ وَمَا يُعَلِّمَانِ مِنْ أَحَدٍ حَتَّىٰ يَقُولا إِنَّمَا نَحْنُ فِتْنَةٌ فَلا تَكْفُرْ فَيَتَعَلَّمُونَ مِنْهُمَا مَا يُفَرِّقُونَ بِهِ بَيْنَ الْمَرْءِ وَزَوْجِهِ وَمَا هُم بِضَارِّينَ بِهِ مِنْ أَحَدٍ إِلاَّ بِإِذْنِ اللَّهِ وَيَتَعَلَّمُونَ مَا يَضُرُّهُمْ وَلا يَنفَعُهُمْ وَلَقَدْ عَلِمُوا لَمَنِ اشْتَرَاهُ مَا لَهُ فِي الآخِرَةِ مِنْ خَلاقٍ وَلَبِئْسَ مَا شَرَوْا بِهِ أَنفُسَهُمْ لَوْ كَانُوا يَعْلَمُونَ (١٠٢)﴾ [البقرة]، فقد نصت الآية على أن السحر كان موجوداً في بابل، ورجح ابن كثير أنها بابـلُ العراق[٣].

والناظر في تاريخ بابل يجد أن دينَ الصائبة ودينَ المجوس كان سائداً فيها من عبـادة النار إلى عبادة النجـوم والكواكب، وهذا يعطي دلالة واضحة على تمازج السحر بالكفر، وأن هناك علاقة وطدة بينهما.

كما أن العـرب في الجاهلية قبل الإسلام كان يكـثر فيهم السحرة والكهان؛ ولذا رموا النبي صلى الله عليه وسلم بهما لما جاءهم بالقرآن؛ ولكن أشهرَ أمم الأرض تعاطياً للسحر هم اليهود، وقد ألصقوا السحر والشعوذة بنبي الله سليمانَ عليه الصلاة والسلام وكذبهم الله تعالى ﴿وَمَا كَفَرَ سُلَيْمَانُ وَلَكِنَّ الشَّيَاطِينَ كَفَرُوا يُعَلِّمُونَ النَّاسَ السِّحْرَ﴾ [البقرة: ١٠٢] وزعم اليهود أن ماسخره الله لسليمان من الريح والشياطين إنما هو سحر، ويريدون إعادة هيكل سليمان ليحكموا الأرض بسحره كما يزعمون.

والسحر تعلماً وتعليماً كفر بالله تعالى، قال ابن جريج رحمه الله تعالى: «لا يجترئ على السحر إلا الكافر»[٤]. وقال القرطبي رحمه

---

(٣) تفسير ابن كثير (١/ ٢١٣).

(٤) تيسير العزيز الحميد شرح كتاب التوحيد (٣٨٧).

الله في تفسير قوله تعالى ﴿ وَلَكِنَّ الشَّيَاطِينَ كَفَرُوا ﴾ قال: «فأثبت كفرهم بتعليم السحر»(٥)، وقال الحافظ ابن حجر رحمه الله تعالى: «وقوله تعالى ﴿ إِنَّمَا نَحْنُ فِتْنَةٌ فَلا تَكْفُرْ ﴾ فيه إشارة إلى أن تعلم السحر كفر»(٦)، وقد عده النبي صلى الله عليه وسلم من السبع الموبقـات(٧). ويدخل في التحريم اقتناء الكتب التي تبين طريقة السحر، أو قراءتها، أو تحضير الشياطين أو الأفلام التي تعرض السحر وطرقه لا على وجه الذم وإنما على وجه التعليم أو الإعجاب فكل ذلك محرم.

وحدُّ الساحر: القتل؛ فقد قتلت حفصة رضي الله عنها جارية لها سحرتها، وكتب أبوها عمر رضي الله عنه قبل موته بسنة إلى عمّاله أن يقتلوا كل ساحر وساحرة. وقتل جندب الأزدي رضي الله عنه رجلاً يلعب بالسحر أمام الناس، قال الإمام أحمد رحمه الله تعالى: «عن ثلاثة من أصحاب النبي صلى الله عليه وسلم»(٨).

---

(٥) الجامع لأحكام القرآن (٢/ ٣١).

(٦) فتح الباري لابن حجر (١٠/ ٢٢٥).

(٧) حديث السبع الموبقات أخرجه البخاري في الوصايا باب قول الله تعالى ﴿ إِنَّ الَّذِينَ يَأْكُلُونَ أَمْوَالَ الْيَتَامَىٰ ظُلْمًا ﴾ [النساء: ١٠] (٢٧٦٦) ومسلم في الإيمان بـاب الكبائر وأكبرها (٨٩).

(٨) حديث قتل حفصة للساحرة: أخرجه عبدالرزاق (١٠/ ١٨٠) وابن أبي شيبة (٩/ ٤١٦) والبيهقي في الكبرى (٨/ ١٣٦) وكتابة عمر رضي الله عنه جاءت في حديث بجاله بن عبدة عند أبي داود في الخراج باب في أخذ الجزية من المجوس (٣٠٤٣) وسعيد بن منصور في سننه (٢/ ٩٠) وأحمد (١/ ١٩٠) والبيهقي =

هذا بعض ما يقال في الساحر، وأما المسحور والمريض فليعلم أنه مبتلى يجب عليه الصبر والاحتساب مع الإخلاص في الدعاء، وصدق التوجه إلى الله تعالى، والأخذ بالأسباب المشروعة في العلاج، من الرقية الشرعية؛ فربما تكلم المتلبس به فأخبره عن مكان السحر، أو ربما رأى رؤيا تدله على مكانه فيبطله، أو ربما يخبر صالحو الجن الرجل الصالح من الإنس بمكان السحر فـيُبطل. وهنا يلزم التنبيه على أنه لا يجوز أن تطلب المساعدة من الجن حتى ولو كانوا صالحين؛ لأن هذا مزلق خطير لكن لو قدموها من غير طلب فلا حرج. والحجامة قد تنفع في استخراج السحر. قال ابن القيم رحمه الله تعالى: «واستعمال الحجامة على ذلك المكان الذي تضررت أفعاله بالسحر من أنفع العلاج إذا استعملت على القانون الذي ينبغي» اهـ[٩]

أما الذهاب للسحرة أو الكهان أو العرافين وأمثالهم من أجل الاستشفاء، أو معرفة المستقبل، أو تسليطهم على الناس فهذا إن سلم صاحبه من الكفر لم يسلم من الوقوع في كبيرة من الكبائر، وهذا يحصل كثيراً بين الأقران والمتنافسين في التجارة أو الرياضة أو ما يسمونه الفن والتمثيل،

= في الكبرى (٨/ ١٣٦) وعبدالرزاق (١٠/ ١٧٩) وابن أبي شيبة (١٠/ ١٣٦) وصححه ابن حزم في المحلى (١١/ ٣٩٦) وحديث جندب الأزدي سيأتي تخريجه إن شاء الله تعالى في ذكر قصته، وانظر مقولة الإمام أحمد في فتح المجيد (٣٩٦).

(٩) زاد المعاد في هدي خير العباد (٤/ ١٢٦).

كما يحصل كثيراً بين النساء في التنافس على رجل معين، وهو سحر الصرف والعطف.

ومن البلاء العظيم أن يتخلى العبد عن دينه في سبيل أذية الآخرين، أو في اعتقاد جلب نفع له وهو ضرر محض وقد جاء في حديث عمران بن حصين مرفوعاً: «**ليس منا من تطير أو تُطير له أو تكهن أو تُكهن له أو سحر أو سُحر له، ومن أتى كاهناً فصدقه بمايقول فقد كفر بما أنـزل على محمد صلى الله عليه وسلم**» أخرجه البزار بسند جيد[١٠]. وفي صحيح مسلم قال النبي عليه الصلاة والسلام: «**من أتى عرافاً فسأله عن شيء لم تقبل له صلاة أربعين ليلة**»[١١]، قال النووي: «معناه أنه لا ثواب له فيها»[١٢]، وقال البغوي: «العراف: الذي يدعي معرفة الأمور بمقدمات أسباب يستدل بها على مواقعها كالمسروق من الذي سرقها، ومعرفة مكان الضالة»[١٣].

---

(١٠) أخرجه البزار كما في كشف الأستار (٣٠٤٤) ومختصر زوائد مسند البزار للحافظ ابن حجر (١١٧٠) والطبراني في الكبير (١٨/ ١٦٢) برقم (٣٥٥) وجوّد إسناده المنذري في الترغيب والترهيب (٤/ ٣٣) وقال الهيثمي: رجاله رجال الصحيح خلا إسحاق بن الربيع وهو ثقة، انظر: مجمع الزوائد (٥/ ١١٧). وله شاهد من حديث ابن عباس رضي الله عنهما أخرجه البزار كما في كشف الأستار (٣٠٤٣) ومختصر زوائد البزار (١١٦٩) والطبراني في الأوسط (٤٢٦٢) وفي سنده زمعة بن صالح وهو ضعيف.

(١١) أخرجه مسلم في السلام باب تحريم الكهانة وإتيان الكهان (٢٢٣٠).

(١٢) انظر: شرح النووي على مسلم (١٤/ ٢٢٦).

(١٣) شرح السنة (١٢/ ١٨٢).

والتنجيم من السحر بدليل قوله عليه الصلاة والسلام: «**من اقتبس شعبة من النجوم فقد اقتبس شعبة من السحر زاد ما زاد**» أخرجه أحمد وأبو داود وصححه النووي[١٤]، قال شيخ الإسلام: «فقد صرح رسول الله صلى الله عليه وسلم بأن علم النجوم من السحر» اهـ[١٥].

والصلة بين التنجيم والسحر أن أهل التنجيم يزعمون أن الكواكب روحانية وأنها إذا قُوبلت بأنواع من اللباس والعطور صارت مطيعة، ثم إن المنجم قد يذبح لها ويتقرب إليها بأنواع من العبادات.

والكاهن: هو الذي يدعي علم الغيب في الماضي والمستقبل، والعراف: يدعيه في الماضي، والرمال الذي يخط بالحصى[١٦]، ويدخل في ذلك الذي يقرأ في الكف والفنجان، ويجمعها كلها: ادعاء علم الغيب، قال شيخ الإسلام: «العراف قد قيل إنه اسم عام للكاهن والمنجم والرَّمال ونحوهم ممن يتكلم في تقدم المعرفة بهذه الطرق» اهـ[١٧]

---

(١٤) أخرجه أحمد (١/ ٣١١) وأبوداود في الطب باب في النجوم (٣٩٠٥) وصححه النووي في رياض الصالحين (١٦٧١) والذهبي كما في تيسير العزيز الحميد (٤٠٣) وصححه الألباني في السلسلة الصحيحة (٧٩٣) وصحيح الجامع (٥٩٥٠).

(١٥) مجموع الفتاوى (٣٥/ ١٩٣) وانظر: تيسير العزيز الحميد (٤٠٣) وفتح المجيد (٤٠١).

(١٦) انظر في الفروقات بينها: المغنى لابن قدامة (١٢/ ٣٠٥) وتيسير العزيز الحميد (٤١٥) وفتح المجيد (٤١٤).

(١٧) مجموع الفتاوى (٣٥/ ١٧٣) وانظر: تيسير العزيز الحميد (٤١٥).

فاتقوا الله ربكم، واستمسكوا بدينكم، واحذروا الإخلال بتوحيدكم، أعوذ بالله من الشيطان الرجيم ﴿وَلَقَدْ عَلِمُوا لَمَنِ اشْتَرَاهُ مَا لَهُ فِي الآخِرَةِ مِنْ خَلَاقٍ وَلَبِئْسَ مَا شَرَوْا بِهِ أَنفُسَهُمْ لَوْ كَانُوا يَعْلَمُونَ (١٠٢) وَلَوْ أَنَّهُمْ آمَنُوا وَاتَّقَوْا لَمَثُوبَةٌ مِّنْ عِندِ اللَّهِ خَيْرٌ لَّوْ كَانُوا يَعْلَمُونَ (١٠٣)﴾ [البقرة] بارك الله لي ولكم في القرآن العظيم...

الخطبة الثانية

الحمد لله حمداً طيباً كثيراً مباركاً فيه كما يحب ربنا ويرضى، أحمده وأشكره وأتوب إليه وأستغفره، وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له، وأشهد أن محمداً عبده ورسوله صلى الله وسلم وبارك عليه وعلى آله وأصحابه ومن سار على نهجهم إلى يوم الدين.

أما بعد: فيا عباد الله اتقوا الله كما أمر، واحذروا الذنوب ما خفي منها وما ظهر، واعلموا أن الله مع المتقين.

أيها الإخوة المؤمنون: إن من عظيم ما يندى له الجبين، ويأسى عليه صاحب القلب السليم، أن تغزو الخرافة والشعوذة أهل التوحيد في دورهم؛ يتربى عليها أطفالهم، ويتأثر بها نساؤهم.

فضائيات تنقل السحر، وكيفية استخدامه، وطرقَ الذهاب إلى السحرة، والاتصالَ بهم؛ عبر مشاهد في أفلام ومسلسلات وبرامج خصصوها للسحر والكهانة والعرافة وقراءة الفنجان ونحو ذلك.

ويتناهى قبحُ تلك الفضائيات حينما تجري اللقاءات والمقابلات مع السحرة والمشعوذين؛ لتلميع صورتهم وتحسينها لدى المشاهدين، يخبر

فيها الساحر أنه تعاطى السحر من أجل نفع الناس، وتفريج كربهم ومساعدتهم، ويستتر بآيات وأذكار يزعم أنه يعالج بها، يُلبِّسُ بها على عقول المشاهدين. وكم والله تأثر بذلك من أشخاص يصنفون من أهل العقل والحكمة والصلاح؛ فأخذوا يدافعون عن هؤلاء السحرة، ويحاجون عنهم، فكيف بمن هم دونهم عقلاً وحكمة!!

وتأسى أكثر وأكثر حينما يجتمع أهل البيت حول الشاشة لمشاهدةِ عروضٍ سحرية؛ يخرج الساحر فيها بلباس أنيق جذاب، وابتسامة صفراء يسرق معها توحيد المشاهدين، كما سرق من قبل أموال الحاضرين، فيُظهر أمامهم أنه يحيل أوراقاً إلى طيور، أو يدخل جسماً كبيراً في حيّز أصغر منه، أو ينفث من فمه النار، أو نحو ذلك من أنواع التخييل واستخدام الشياطين. ويُنظر إلى هذا الساحر الخبيث بإعجاب، ويُحيّا بالتصفيق والتصفير. والطفل المسلم الموحد يشاهد ذلك؛ فينغرس في قلبه أن هذا الساحرَ عظيمٌ من العظماء، وأن فعله مدعاة للإعجاب والإكبار، فيا ترى كيف ستكون عقيدة هذا الطفل؟! وما مصير توحيده؟! ونعوذ بالله من هذا البلاء الذي لم يبق ولم يذر.

عن أبي عثمان النهدي رحمه الله قال: «كان عند الوليد رجل يلعب، فذبح إنساناً وأبان رأسه، فعجبنا، فأعاد رأسه كما كان، فقال الناس: سبحان الله: يحيي الموتى، ورآه رجل صالح من المهاجرين يقال له جندب الأزدي؛ فنظر إليه فلما كان من الغد اشتمل سيفه فجاء ذلك الرجل يلعب لعبه ذلك، فاخترط المهاجريُ سيفه فضرب

عنقه وهو يتلو ﴿أَفَتَأْتُونَ السِّحْرَ وَأَنتُمْ تُبْصِرُونَ ﴿٣﴾﴾ [الأنبياء] وقال: «إن كان صادقاً فليحيي نفسه» أخرجه البخاري في التاريخ والبيهقي في الدلائل وصححه الذهبي(١٨).

ولقد قال العلماء: «إذا رأيت الرجل يطير في الهواء، ويمشي على الماء فلا تغتر به حتى تعرض عمله على الكتاب والسنة»(١٩).

ويدخل فيما سبق ما يسمى بالبروج والطوالع التي تعرض في بعض الصحف والمجلات، وما انتشرت عبارة: من حسن الطالع كذا، ومن سوء الطالع كذا، إلا تأثراً بتلك الخرافات والأكاذيب؛ فاحذروا ذلك واحذروا السحر وأنواعه فالمسألة مسألة توحيد وعقيدة، إذا انخرمت انخرم الدين كله.

أسأل الله تعالى أن يحفظنا والمسلمين من أسباب الزيغ والضلال، وأن يكفي المسلمين شر السحرة الأشرار، وأن يفضحهم بالليل والنهار، ألا وصلوا وسلموا على خير خلق الله كما أمركم ربكم بذلك...

* * *

(١٨) قصة جندب أخرجها عبدالرزاق (١٠/ ١٨٢) والبخاري في التاريخ الكبير (٢/ ٢٢٢) والطبراني في الكبير (١٧٢٥) والدارقطني (٣/ ١١٤) والبيهقي في الكبرى (٨/ ١٣٦) والحاكم (٤/ ٣٦١) وابن عساكر كما في تهذيب تاريخه (٣/ ٤١٣) وعزاها الحافظ في الإصابة لابن السكن ولابن منده (١/ ٢٥) وصححها الذهبي في تاريخ الإسلام (٣/ ٣).

(١٩) انظر: مجموع فتاوى شيخ الإسلام (١/ ٨٣).

١٦- الصابئة والمنجمون

الجمعة ١٥/٨/١٤١٩هـ

الحمد لله، خلق الخلق بقدرته، وابتلاهم بحكمته، فسلك سبيل الحق أقوام منهم؛ فنالوا رحمته، واستحقوا جنته، وتنكب آخرون طريقه؛ فاستحقوا عقابه، وما حاسبهم ولا عاقبهم إلا بعدله. أحمده وأشكره وأتوب إليه وأستغفره؛ هدانا للإيمان، ومنّ علينا بالقرآن، ووفقنا للتوحيد؛ فلا نزال نرى أقواماً جدّوا في العبادة، واجتهدوا في العمل، فكان عملهم هباءً، وجدُّهم وبالاً؛ لأنهم ما سلكوا الطريق الصحيحة: إما وثنيون أو قبوريون، وإما يهود أو نصارى أو ملاحدة.

فهل ترون نعمة أعظم من الهداية؟ تعملون فعملكم محفوظ، وأجره موفور. ويعمل غيركم ولا جزاء لهم إلا النصب والتعب. فاللهم لك الحمد والشكر لا نحصي ثناء عليك أنت كما أثنيت على نفسك.

وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له؛ لا نرجو سواه، ولا نعبد إلا إياه، مخلصين له الدين ولو كره الكافرون.

وأشهد أن محمداً عبده ورسوله، هدم للوثنية أركاناً، وأقام للتوحيد مناراً يبقى ما بقيت الأيام، ولايزول حتى تزول الدنيا، فلا تزال طائفة من أمته على الحق ظاهرين حتى يأتي أمر الله وهم على ذلك، صلى الله وسلم وبارك عليه وعلى آله وأصحابه وأتباعه ومن تبعهم بإحسان إلى يوم الدين.

أما بعد: فيا أيها الناس: اتقوا الله تعالى وأحسنوا؛ فليست العبرة

بكثرة العمل بل هي بإحسانه وقبوله ﴿ تَبَارَكَ الَّذِي بِيَدِهِ الْمُلْكُ وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ۝١ الَّذِي خَلَقَ الْمَوْتَ وَالْحَيَاةَ لِيَبْلُوَكُمْ أَيُّكُمْ أَحْسَنُ عَمَلًا وَهُوَ الْعَزِيزُ الْغَفُورُ ۝٢ ﴾ [الملك].

أيها المؤمنون: طمأنينة العبد في الدنيا، وفوزه في الآخرة، مرهون بحسنِ توحيده، وصحة معتقده. وليس من خاف آلهة عدة كمن خاف رباً بيده النفع والضر، ولا من رجا من لا يملك شيئاً كمن رجا من بيده خزائن كل شيء.

وتحقيقُ التوحيد نعمةٌ ربما لا يعرف قدرها من نشأ عليها، وتربى في أحضانها؛ لكنه يدرك فضلها، ويحس نعمتها إذا رأى من فقدها من عباد القبور والأوثان، والعجل والصلبان، ممن خافوا حجراً لا ينفع ولا يضر، أو تعلقوا بعظم صار رميماً، أو غيرهم ممن يطول عدهم، وتَعِزُّ على الحصر آلهتهم؛ ولكنهم وإن اختلف أربابهم، وتعددت معبوداتهم، اجتمعوا على التأله لغير الله تعالى، وعبادة غيره ممن ﴿ لَا يَخْلُقُونَ شَيْئًا وَهُمْ يُخْلَقُونَ وَلَا يَمْلِكُونَ لِأَنفُسِهِمْ ضَرًّا وَلَا نَفْعًا وَلَا يَمْلِكُونَ مَوْتًا وَلَا حَيَاةً وَلَا نُشُورًا ۝٣ ﴾ [الفرقان].

كان منهم أقوام عظموا الكواكب، واستسقوا بالأنواء، واعتقدوا أن ما يجري في الأرض من حوادث وكوارث هو بفعل الأنجم والأفلاك. يقودهم في ضلالهم هذا سحرة ومنجمون، وكهان وعرافون. تراهم شرَّ البرية حالاً، وأحطهم قدراً ومقاماً.

وما أقوى ارتباط السحر بالكهانة، والتنجيم بالعرافة، تشترك في

ادعاء علم الغيب، وزعم النفع والضر، وصرف العبادة لغير الله تعالى عبر تمتمات وطلاسم، وأفعالٍ وشعائر، يرفضها العقل السوي، وتأباها الفطرة النقية؛ فضلاً عن شرع الله المطهر.

ورغم ذلك فإن فئاماً من هذه الأمة لن ينفكوا عن ممارسة ذلك، والتصديق به، كما هو خبر الصادق المصدوق صلى الله عليه وسلم إذ يقول: «**أربع في أمتي من أمر الجاهلية لا يتركونهن: الفخر بالأحساب، والطعن في الأنساب، والاستسقاء بالنجوم، والنياحة**» أخرجه مسلم[(١)] وفي الصحيحين من حديث زيد بن خالد رضي الله عنه قال: «صلى بنا رسول الله صلى الله عليه وسلم صلاة الصبح بالحديبية في إثر السماء كانت من الليل، فلما انصرف أقبل على الناس فقال: «**هل تدرون ماذا قال ربكم؟**» قالوا: الله ورسوله أعلم قال: قال: «**أصبح من عبادي مؤمن بي وكافر، فأما من قال: مطرنا بفضل الله ورحمته فذلك مؤمن بي كافر بالكوكب، وأما من قال: مطرنا بنوء كذا وكذا فذلك كافر بي مؤمن بالكوكب**»[(٢)].

لقد كان تعظيم الكواكب والاعتقاد فيها شريعة قديمة في البشر، واشتهر به الصابئة المنسوبون إلى قوم إبراهيم الخليل عليه السلام وهم

---

(١) أخرجه مسلم في الجنائز باب التشديد في النياحة (٩٣٤).

(٢) أخرجه البخاري في الاستسقاء باب قول الله تعالى ﴿وَتَجْعَلُونَ رِزْقَكُمْ أَنَّكُمْ تُكَذِّبُونَ ﴿٨٢﴾﴾ [الواقعة: ٨٢] (١٠٣٨) ومسلم في الإيمان باب بيان كفر من قال مطرنا بالنوء (٧١).

على أقسام أربعة: أصحاب الروحانيات، وأصحاب الهياكل، وأصحاب الأشخاص، والحلولية (٣).

كانوا يعتقدون أن الملائكة تسكن الأفلاك، وأن لهذه الأفلاك تأثيراً على الأرض وعلى حياة الناس فيها؛ فتقربوا إلى الهياكل والروحانيات تقرباً إلى الله تعالى حسب زعمهم؛ فجعلوها وسائط بينهم وبين الله تعالى، ثم استخرجوا من عجائب الحيل المرتبة على عمل الكواكب ما كان يقضي منه العجب، وما هذه الطلسمات المذكورة عند السحرة والكهان وأهل التنجيم والتختيم إلا من علومهم، وهؤلاء هم أصحاب الهياكل.

وأما أصحاب الأشخاص فاتخذوا أصناماً على مثال الهياكل السبعة السيارة في السماء؛ فعبدوا تلك النصب بزعم أنها وسائط، وقابلوها بالبخور والأطياب وأنواع اللباس، ودعوها وسألوها قضاء الحاجات، وهؤلاء وأولئك أخبر التنزيل عنهم أنهم عبدة الأوثان والكواكب؛ فأصحاب الهياكل هم عبدة الكواكب؛ إذ قالوا بإلهيتها. وأصحاب الأشخاص هم عبدة الأوثان؛ إذ سموها آلهة في مقابل آلهة أولئك السماوية وكلهم قالوا: هؤلاء شفعاؤنا عند الله تعالى (٤).

---

(٣) انظر: الموسوعة في الأديان والمذاهب والأحزاب المعاصرة (٢/ ٧٣١).

(٤) انظر: الملل والنحل للشهرستاني بهامش الفصل في الملل والنحل لابن حزم (٢/ ٩٧) ومحاسن التأويل للقاسمي (٣/ ٣٥٥) عند تفسير الآية (٧٩) من سورة الأنعام.

وقد ناظر الخليل عليه السلام هذين الفريقين، فابتدأ بكسر مذهب أهل الأشخاص كما قال الله تعالى: ﴿وَتِلْكَ حُجَّتُنَا آتَيْنَاهَا إِبْرَاهِيمَ عَلَىٰ قَوْمِهِ نَرْفَعُ دَرَجَاتٍ مَّن نَّشَاءُ إِنَّ رَبَّكَ حَكِيمٌ عَلِيمٌ (٨٣)﴾ [الأنعام] وتمثلت تلك الحجة في كسر أقوالهم وحججهم حينما قال لهم: ﴿أَتَعْبُدُونَ مَا تَنْحِتُونَ (٩٥) وَاللَّهُ خَلَقَكُمْ وَمَا تَعْمَلُونَ (٩٦)﴾ [الصافات].

وكان أبوه أعلم القوم بالأشخاص والأصنام ورعاية الإضافات النجومية؛ ولهذا كانوا يشترون منه أصنامهم، فدعاه إلى الحنيفية، وأكثر القول عليه، وألزمه بالحجج الباهرة، والبراهين الساطعة(٥)، ﴿وَإِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ لِأَبِيهِ آزَرَ(٦) أَتَتَّخِذُ أَصْنَامًا آلِهَةً إِنِّي أَرَاكَ وَقَوْمَكَ فِي ضَلَالٍ مُّبِينٍ (٧٤)﴾ [الأنعام].

---

(٥) انظر: محاسن التأويل (٣/ ٣٥٥).

(٦) جزم بعض المتأخرين بأن (آزر) لم يكن أباً لإبراهيم وإنما هو عمه، واستدلوا لذلك بأدلة لا تنهض ليس هذا مجال بحثها، وأعرضوا عن ظاهر القرآن، والدافع لهم إلى ذلك ـ والله أعلم ـ أنهم أرادوا نفي كون أحد آباء النبي صلى الله عليه وسلم مات على الشرك كما هو مذهب الروافض وأخذ به بعض العقلانيين، وهو قول مخالف لصريح السنة الصحيحة التي ثبت فيها في الصحيحين وغيرهما أن أبا إبراهيم يؤخذ بقوائمه إلى النار يوم القيامة، وثبت أن والد النبي صلى الله عليه وسلم عبدالله بن عبدالمطلب في النار أيضاً كما جاء في حديث أنس رضي الله عنه: أن رجلاً قال: يا رسول الله، أين أبي؟ قال: «**في النار**» فلما قفى دعاه فقال: «**إن أبي وأباك في النار**» أخرجه مسلم (٢٠٣) وابن منده في الإيمان (٩٢٦) وأحمد (٣/ ٢٦٨) وأبو داود (٤٧١٨) وله شاهدان عن سعد ابن أبي وقاص وعمران بن حصين رضي الله عنهما. قال النووي رحمه الله تعالى في شرحه على صحيح مسلم (٣/ ٩٧): «فيه أن من مات على الكفر فهو في =

ونـاداه فقال: ﴿يَا أَبَتِ لِمَ تَعْبُدُ مَا لا يَسْمَعُ وَلا يُبْصِرُ وَلا يُغْنِي عَنكَ شَيْئًا ﴿٤٢﴾ يَا أَبَتِ إِنِّي قَدْ جَاءَنِي مِنَ الْعِلْمِ مَا لَمْ يَأْتِكَ فَاتَّبِعْنِي أَهْدِكَ صِرَاطًا سَوِيًّا ﴿٤٣﴾ يَا أَبَتِ لا تَعْبُدِ الشَّيْطَانَ إِنَّ الشَّيْطَانَ كَانَ لِلرَّحْمَنِ عَصِيًّا ﴿٤٤﴾ يَا أَبَتِ إِنِّي أَخَافُ أَن يَمَسَّكَ عَذَابٌ مِّنَ الرَّحْمَنِ فَتَكُونَ لِلشَّيْطَانِ وَلِيًّا ﴿٤٥﴾﴾ [مريم].

ولكن أباه لم يستجب ولم يؤمـن ﴿قَالَ أَرَاغِبٌ أَنتَ عَنْ آلِهَتِي يَا إِبْرَاهِيمُ لَئِن لَّمْ تَنتَهِ لأَرْجُمَنَّكَ وَاهْجُرْنِي مَلِيًّا ﴿٤٦﴾﴾ [مريم].

فلما رأى إبراهيم عليه السلام إصرارهم على الكفر عمد إلى دحض حجتهم بالفعل فكسر أصنامهم، وعزا ذلك إلى كبيرهم فانتكسوا ودحروا ﴿قَالَ بَلْ فَعَلَهُ كَبِيرُهُمْ هَذَا فَاسْأَلُوهُمْ إِن كَانُوا يَنطِقُونَ ﴿٦٣﴾ فَرَجَعُوا إِلَىٰ أَنفُسِهِمْ فَقَالُوا إِنَّكُمْ أَنتُمُ الظَّالِمُونَ ﴿٦٤﴾ ثُمَّ نُكِسُوا عَلَىٰ رُءُوسِهِمْ لَقَدْ عَلِمْتَ مَا هَؤُلاءِ يَنطِقُونَ ﴿٦٥﴾ قَالَ أَفَتَعْبُدُونَ مِن دُونِ اللَّهِ مَا لا يَنفَعُكُمْ شَيْئًا وَلا يَضُرُّكُمْ ﴿٦٦﴾ أُفٍّ لَّكُمْ وَلِمَا تَعْبُدُونَ مِن دُونِ اللَّهِ أَفَلا تَعْقِلُونَ ﴿٦٧﴾﴾ [الأنبياء]؛ فدحض عليه السلام حجتهم بالعقل، كما كسر أصنامهم بالفأس.

= النار ولا تنفعه قرابة المقربين، وفيه أن من مات في الفترة على ما كانت عليه العرب من عبادة الأوثان فهو من أهل النار، وليس هذا مؤاخذة قبل بلوغ الدعوة؛ فإن هؤلاء كانت قد بلغتهم دعوة إبراهيم وغيره من الأنبياء صلوات الله تعالى وسلامه عليهم» اهـ. وليس لنا حيال ذلك إلا التسليم. والصواب الذي لا مرية فيه أن (آزر) هو أبو إبراهيم الخليل عليه السلام كما هو قول جمهور المفسرين ومن يعتد بقوله من العلماء.

ثم عدل إلى كسر مذاهب أصحاب الهياكل كما أراه الله تعالى الحجة على قومه فناظرهم في تلك الهياكل التي يعبدونها من دون الله تعالى؛ فقررهم وألزمهم، ثم دحض حجتهم، وهدم مذهبهم ﴿وَكَذَلِكَ نُرِي إِبْرَاهِيمَ مَلَكُوتَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَلِيَكُونَ مِنَ الْمُوقِنِينَ (٧٥) فَلَمَّا جَنَّ عَلَيْهِ اللَّيْلُ رَأَى كَوْكَبًا قَالَ هَذَا رَبِّي فَلَمَّا أَفَلَ قَالَ لَا أُحِبُّ الْآفِلِينَ (٧٦)﴾ [الأنعام] فالإله ينبغي أن لا يأفل ولا يغيب ﴿فَلَمَّا رَأَى الْقَمَرَ بَازِغًا قَالَ هَذَا رَبِّي فَلَمَّا أَفَلَ قَالَ لَئِنْ لَمْ يَهْدِنِي رَبِّي لَأَكُونَنَّ مِنَ الْقَوْمِ الضَّالِّينَ (٧٧)﴾ [الأنعام] وكان اعتقادهم في القمر أعظم من اعتقادهم في الكواكب فأخَّرَ القمر وقدم الكوكب، وكان اعتقادهم في الشمس أعظم من القمر والكواكب؛ حيث جعلوها رب أربابهم، وملك أفلاكهم، ومقتبس أنوارهم(٧)، فأخَّرَها ليهدم اعتقادهم فيها، ثم ليقرر التوحيد لله رب العالمين ﴿فَلَمَّا رَأَى الشَّمْسَ بَازِغَةً قَالَ هَذَا رَبِّي هَذَا أَكْبَرُ فَلَمَّا أَفَلَتْ قَالَ يَا قَوْمِ إِنِّي بَرِيءٌ مِمَّا تُشْرِكُونَ (٧٨) إِنِّي وَجَّهْتُ وَجْهِيَ لِلَّذِي فَطَرَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ حَنِيفًا وَمَا أَنَا مِنَ الْمُشْرِكِينَ (٧٩)﴾ [الأنعام].

فأنهى عليه السلام فصول المناظرة، وقطع حجج المخاصمة، وأبطل دين الصابئة، وقرر مذهب الحنيفية ﴿مِلَّةَ إِبْرَاهِيمَ حَنِيفًا وَمَا كَانَ مِنَ الْمُشْرِكِينَ (١٦١)﴾ [الأنعام] ﴿وَحَاجَّهُ قَوْمُهُ قَالَ أَتُحَاجُّونِّي فِي اللَّهِ وَقَدْ هَدَانِ وَلَا أَخَافُ مَا تُشْرِكُونَ بِهِ إِلَّا أَنْ يَشَاءَ رَبِّي شَيْئًا وَسِعَ رَبِّي كُلَّ شَيْءٍ عِلْمًا أَفَلَا تَتَذَكَّرُونَ (٨٠) وَكَيْفَ أَخَافُ مَا أَشْرَكْتُمْ وَلَا تَخَافُونَ أَنَّكُمْ

---

(٧) انظر: الملل والنحل للشهرستاني (٢/ ٩٨) ومحاسن التأويل (٣/ ٣٥٦).

أَشْرَكْتُم بِاللَّه مَا لَمْ يُنَزِّلْ بِه عَلَيْكُمْ سُلْطَانًا فَأَيُّ الْفَرِيقَيْنِ أَحَقُّ بِالأَمْنِ إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ (٨١) الَّذِينَ آمَنُوا وَلَمْ يَلْبِسُوا إِيمَانَهُم بِظُلْمٍ أُوْلَئِكَ لَهُمُ الأَمْنُ وَهُم مُّهْتَدُونَ (٨٢) ﴾ [الأنعام] بارك الله لي ولكم في القرآن العظيم. . .

الخطبة الثانية

الحمد لله حمداً طيباً كثيراً مباركاً فيه كما يحب ربنا ويرضى، أحمده وأشكره وأتوب إليه وأستغفره، وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لاشريك له، وأشهد أن محمداً عبده ورسوله صلى الله وسلم وبارك عليه وعلى آله وأصحابه ومن اهتدى بهداهم إلى يوم الدين.

أما بعد: فإن دين الصابئة الذي أبطله القرآن، وبطل بكل مقاييس الشرع والعقل والفطرة، لا يزال أقوام يأخذون منه بعض شعائره في حضارة القرن الحادي والعشرين، ويكثر ذلك في الدول التي ينظر إليها على أنها حققت سبقاً حضارياً على سائر الأمم، والتي جعلت من مسلماتها الإيمان بالمادة، والكفر بالغيب؛ إلا أن أفرادها إلى الخرافة والشعوذة والتنجيم والكهانة يستبقون، حتى راجت فيهم أسواق السحرة والمنجمين والكهان والعرافين.

وقد تبعها على ذات الخط المظلم بلاد علمانية، قسرت شعوبها المسلمة على الزندقة والإلحاد، وألغت كثيراً من شعائر الدين الظاهرة بحجة أن ذلك تخلف ورجعية؛ فتنظر لتجد أن سوق السحر والتنجيم فيها رائجة؛ لإضلال الناس، وغواية العامة، فليس ذلك مما يعوق عن التقدم، ولا هو دليل على التخلف. أما الدين الصحيح فهو التخلف

والرجعية عند هؤلاء الزائغين!!

وإصراراً على إفساد عقائد الناس، يبث عبر الفضاء، وعلى مرأى من جميع الناس، برامج يستضاف فيها منجم خبيث يجيب عن تساؤلات السائلين، قد علق مسبحته في يده، واسودت جبهته من سجوده؛ إمعاناً في التلبيس والإضلال، وربما تلا شيئاً من القرآن، أو قال ذكراً من الأذكار. ثم يلقي عليه السذج والرعاع أسئلتهم؛ ليكشف لهم الغيب، ويذكر ما يحدث لهم في مستقبلهم؛ بل ويذكر لهم صفاتهم وأخلاقهم، وما ينبغي لهم عمله بما يوافق عمل أبراجهم وكواكبهم، ويبث ذلك تحت سمع وبصر دعاة الأمن الفكري من لوثات التدين والأصولية وغيرها من الشعارات الرخيصة. فأين هو الأمن الفكري من إفساد عقائد الناس وتوحيدهم، ويصل ذلك إلى نساء الموحدين وأطفالهم في بيوتهم عبر الشاشات والأثير[٨]، فيا ترى كيف ستكون عقائد أقوام يربون على تلك الخرافات والضلالات؟!

بل إن الصحف العلمانية في كثير من البلاد الإسلامية جعلت جداول يومية للمنجمين يطلع عليها المرء قبل خروجه من المنزل، وبناءً عليها

---

(٨) كثيرة هي البرامج والمقابلات التي تجرى مع هؤلاء الخرافيين من السحرة والمشعوذين والمنجمين والعرافين، وتتولى كبر ذلك معظم القنوات العربية التي تزخر بكثير من الشبهات والشهوات، وتعرض تلك البرامج على فترات متقطعة ومنها ما هو منتظم كبرنامج في الفضائية المصرية يعرض كل أسبوع وفي رمضان كل يوم عنوانه (برجك إيه) وآخر في قناة ANN فيه تنجيم أيضاً، فالله المستعان.

يخرج أو يبقى، ويقدم أو يحجم.

وكثيرٌ من أهل التجارات، وأصحاب رؤوس الأموال يعملون بمقتضى هذا الدجل الرخيص خاصة في إرساء العقود والمناقصات، فأين هم من التوحيد والإيمان وقد اعتقدوا في النجوم والأفلاك ما لا يجب أن يعتقد إلا في رب العالمين جل في علاه.

قال قتادة رحمه الله تعالى: «إن الله إنما جعل هذه النجوم لثلاث خصال: جعلها زينة للسماء، وجعلها يُهتدى بها، وجعلها رجوماً للشياطين؛ فمن تعاطى فيها غير ذلك فقد قال برأيه، وأخطأ حظه، وأضاع نصيبه، وتكلف ما لا علم له به، وإن ناساً جهلة بأمر الله قد أحدثوا في هذه النجوم كهانة: من أعرس بنجم كذا وكذا كان كذا وكذا، ومن سافر بنجم كذا وكذا كان كذا وكذا، ولعمري ما من نجم إلا يولد به الأحمر والأسود، والطويل والقصير، والحسن والذميم. وما عِلْمُ هذه النجوم وهذه الدابة وهذا الطائر بشيء من هذا الغيب، ولو أن أحداً علم الغيب لعلمه آدم الذي خلقه الله بيده، وأسجده ملائكته، وعلمه أسماء كل شيء»ا هـ(٩).

---

(٩) أخرجه البخاري في بدء الخلق باب النجوم، مختصراً معلقاً مجزوماً به ووصله عبد بن حميد كما في فتح الباري (٦/ ٣٤١) وعزاه الشيخ عبدالرحمن بن حسن رحمه الله تعالى في فتح المجيد للخطيب في كتاب النجوم (٤٤٤) وعزاه الشيخ سليمان بن عبدالله رحمه الله تعالى في تيسير العزيز الحميد لعبدالرزاق وابن جرير وابن المنذر وابن أبي حاتم وأبي الشيخ (٤٤٨).

ووالله ثم والله إن ما ذكره قتادة رحمه الله قد وقع فيه كثير من الناس في البلاد الإسلامية: لا يسيرون ولا يعيشون إلا بمقتضى هذه البروج، وتحت تعليمات أولئك المنجمين الكذابين؛ حتى صرفوا من الخوف والخشية للأبراج والأفلاك أكثر مما يصرفون لله تعالى، ورجوها من دون الله. يتعس أحدُهم لأن نجمه لم يوافق حظاً يريده، أو امرأة يتزوجها، أو وظيفة يطلبها، أو غير ذلك.

فإلى الله المشتكى من زمن يوصف بأنه زمن العلم والتقدم والحضارة، وقد سرى فيه التنجيم والشعوذة والخُرافة، فاللهم احفظنا بحفظك وثبتنا على الإيمان والتوحيد، ﴿**سُبْحَانَ رَبِّكَ رَبِّ الْعِزَّةِ عَمَّا يَصِفُونَ (١٨٠) وَسَلَامٌ عَلَى الْمُرْسَلِينَ (١٨١) وَالْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ (١٨٢)**﴾ [الصافات]. وصلى الله وسلم على نبينا محمد وآله وصحبه أجمعين.

* * *

١٧- التشاؤم بصفر

الجمعة ٣/ ٢/ ١٤٢٢هـ

الحمد لله، نحمده ونستعينه ونستغفره، ونعوذ بالله من شرور أنفسنا ومن سيئات أعمالنا، من يهده الله فلا مضل له، ومن يضلل فلا هادي له، وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له، وأشهد أن محمداً عبده ورسوله. ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ حَقَّ تُقَاتِهِ وَلَا تَمُوتُنَّ إِلَّا وَأَنتُم مُّسْلِمُونَ﴾ [آل عمران: ١٠٢]، ﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ اتَّقُوا رَبَّكُمُ الَّذِي خَلَقَكُم مِّن نَّفْسٍ وَاحِدَةٍ وَخَلَقَ مِنْهَا زَوْجَهَا وَبَثَّ مِنْهُمَا رِجَالًا كَثِيرًا وَنِسَاءً وَاتَّقُوا اللَّهَ الَّذِي تَسَاءَلُونَ بِهِ وَالْأَرْحَامَ إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلَيْكُمْ رَقِيبًا﴾ [النساء: ١]، ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَقُولُوا قَوْلًا سَدِيدًا (٧٠) يُصْلِحْ لَكُمْ أَعْمَالَكُمْ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ وَمَن يُطِعِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ فَقَدْ فَازَ فَوْزًا عَظِيمًا﴾ [الأحزاب: ٧٠, ٧١] .

أما بعد: فإن أصدق الحديث كلام الله تعالى، وخير الهدي هدي محمد صلى الله عليه وسلم، وشر الأمور محدثاتها، وكل محدثة بدعة، وكل بدعة ضلالة، وكل ضلالة في النار.

أيها الناس: من نعمة الله تعالى على عبده، وتوفيقه له أن يرزقه العلم بما يحتاج إلى العلم به، ويدله على الطريق الموصلة إلى رضوانه، ويوفقه لسلوكها. وكم من البشر من ضلوا عنها! وكم منهم من عرفوها فجانبوها! كم منهم من يموت على الكفر: يموت وثنياً يعبد حجراً أو قبراً، أو ملحداً يعبد هواهُ وشيطانه، أو يهودياً أو نصرانياً، أو مبتدعاً ضالاً.

ونعمة الهداية إلى الطريق الحق نعمة لا تعدلها نعمة، امتن الله بها على عباده المؤمنين فقال سبحانه: ﴿لَقَدْ مَنَّ اللَّهُ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ إِذْ بَعَثَ فِيهِمْ رَسُولاً مِّنْ أَنفُسِهِمْ يَتْلُو عَلَيْهِمْ آيَاتِهِ وَيُزَكِّيهِمْ وَيُعَلِّمُهُمُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَإِن كَانُوا مِن قَبْلُ لَفِي ضَلالٍ مُّبِينٍ﴾ [آل عمران: ١٦٤].

وطرقَ الضلال كثيرة، وسبلُه عديدة؛ ولكن طريق الحق واحدة ﴿وَأَنَّ هَذَا صِرَاطِي مُسْتَقِيمًا فَاتَّبِعُوهُ وَلا تَتَّبِعُوا السُّبُلَ فَتَفَرَّقَ بِكُمْ عَن سَبِيلِهِ﴾ [الأنعام:١٥٣]، وهي الطريق التي نسأل الله عزّ وجل في كل صلاة نصليها أن يهدينا إليها، ويثبتنا عليها ﴿اهْدِنَا الصِّرَاطَ الْمُسْتَقِيمَ﴾ [الفاتحة: ٦].

أيها الإخوة: ومن الضلال الذي يعيشه كثير من البشر: التطير، وهو التشاؤم، وسُمي تطيراً لأن العرب في جاهليتهم إذا خرج أحدهم لحاجة يريدها قصد عش طائر فهيجه؛ فإن طار من جهة اليمين مضى في الأمر، وإن طار من جهة الشمال تشاءم منه، ورجع عمّا أراد.

قال البيهقي رحمه الله تعالى: «كان التطيرُ في الجاهلية في العرب إزعاجَ الطير عند إرادة الخروج للحاجة، وهكذا كانوا يتطيرون بصوت الغراب، وبمرور الظباء، فسموا الكل تطيراً؛ لأن أصله الأول»[(١)].

ولم يكن التشاؤم حادثاً عند العرب في جاهليتهم؛ بل كان موجوداً في الأمم التي سبقتهم، فقوم صالحٍ عليه السلام تشاءموا منه وقالوا: ﴿اطَّيَّرْنَا بِكَ وَبِمَن مَّعَكَ﴾ [النمل: ٤٧]، وأصحاب القرية تشاءموا بالمرسلين إليهم ﴿قَالُوا إِنَّا تَطَيَّرْنَا بِكُمْ لَئِن لَّمْ تَنتَهُوا لَنَرْجُمَنَّكُمْ وَلَيَمَسَّنَّكُم مِّنَّا عَذَابٌ

(١) فتح الباري لابن حجر (١٠/ ٢١٣).

أَلِيمٌ ﴾ [يس: ١٨]، وآل فرعون تشاءموا بموسى ومن آمن معه كما أخبر الله تعالى عنهم بقوله: ﴿ **فَإِذَا جَاءَتْهُمُ الْحَسَنَةُ قَالُوا لَنَا هَذِهِ وَإِن تُصِبْهُمْ سَيِّئَةٌ يَطَّيَّرُوا بِمُوسَىٰ وَمَن مَّعَهُ** ﴾ [الأعراف: ١٣١]، وكفارُ مكة كانوا يتشاءمون من دعوة النبي صلى الله عليه وسلم وينسبون إليها ما يصيبهم من شر كما قال الله عنهم ﴿ **وَإِن تُصِبْهُمْ سَيِّئَةٌ يَقُولُوا هَذِهِ مِنْ عِندِكَ** ﴾ [النساء: ٧٨]، وعن ابن عباس والسدي أنهم يقولون هذا تشاؤماً بدينه[٢].

والمنافقون في هذا العصر يتشاءمون من أهل العلم والخير والصلاح، وينسبون كل مصائب الأمة إليهم؛ بل إن أكثرهم والعياذ بالله يتشاءمون من دين الإسلام، كمن يرفض شريعة الإسلام، ويزعم أنها سببُ تأخر المسلمين وتخلفهم عن اللحاقِ بالغرب، وما أكثرهم في هذا الزمن! وهم أتباع المشركين من قبل، يجمعهم العداءُ للديانة والرسالات.

وكثيرٌ ممن انخرم توحيدُهم أو ذهب بالكلية يتشاءمون من ساعات أو أيامٍ أو شهور أو أصوات أو طيور أو حيوانات أو رؤية أقوام أو أرقام أو نحو ذلك.. فكثير من الضُلاَّل النصارى الغربيين يتشاءمون من رقم ثلاثة عشر، وحذفته بعض شركاتِ الطيران من ترقيم المقاعد، كما حذفوه من ترقيم المصاعد والأدوار في البنايات الكبرى[٣].

وبعضهم يتشاءم من رقم تسعة عشر، وآخرون يتباركون به. وكثير من الرافضة يكرهون التكلم بلفظ العشرة، أو فعل شيء يكون فيه

---

(٢) انظر: مجموع فتاوى شيخ الإسلام (١٤/ ٢٥١).
(٣) انظر: مجلة البيان عدد (١٥٠) ص(٧).

عشرة، حتى البناءُ لا يبنون على عشرة أعمدة؛ لكونهم يبغضون خيار الصحابةِ وهم العشرةُ المشهود لهم بالجنة[٤].

وكثير من الناس يتشاءمون من نعيق البوم والغراب، أو رؤية الأعور والأعرج والعليل والمعتوه، وبعضهم يتشاءم من يوم الأربعاء أو ساعة معينة منه[٥]، والتشاؤم بشهر صفر موجود عند بعض النـاس، وهـو قديم؛ ولذا قال النبي صلى الله عليه وسلم: «**لا عدوى ولا طيرة ولا هامة ولا صفر**» أخرجه الشيخان[٦].

فقد فُسِّرَ صفرُ بداءٍ يأخذ البطن، وقيل: إنهم كانوا في جاهليتهم يتشاءمون من شهر صفر. كما ذكر ذلك محمد بن راشد المكحولي رحمه الله تعالى، وأنهم يقولون: «إنه شهر مشؤوم» فأبطل النبي صلى الله عليه وسلم ذلك وقال: «**لا صفر**»[٧].

قال ابن رجب رحمه الله تعالى: «ولعل هذا القول أشبه الأقوال، وكثير من الجهال يتشاءم بصفر، وربما ينهى عن السفر فيه، والتشاؤم بصفر هو من جنس الطيرة المنهي عنها، وكذلك التشاؤم بيـوم مـن الأيام كيوم الأربعاء»[٨].

---

(٤) منهاج السنة النبوية لشيخ الإسلام ابن تيمية (١/ ١٠).

(٥) انظر: لطائف المعارف، لابن رجب (١٤٨).

(٦) أخرجه البخاري في الطب باب لا هامة (٥٧٥٧)، ومسلم في السلام باب لا عدوى ولا طيرة ولا هامة ولا صفر (٢٢٢٠) من حديث أبي هريرة رضي الله عنه.

(٧) انظر: معارج القبول (١/ ٣٣٦ ـ ٣٣٧).

(٨) لطائف المعارف (١٤٨).

وما ذكره الحافظ ابن رجب رحمه الله تعالى يقع فيه بعض الناس؛ فيمتنعون عن السفر في صفر، أو الزواج فيه، أو الخطبة، أو إجراء العقد. وبعضُ التجار لا يمضي فيه صفقة؛ تشاؤماً به. وهذا كله من الطيرةِ المنهي عنها، وهو قادح في التوحيد.

وقد قال النبي صلى الله عليه وسلم: «**ليس منّا من تطير أو تُطيِّر له، أو تكهن أو تُكهن له، أو سحر أو سحر له، ومن أتى كاهناً فصدقه بما يقول فقد كفر بما أنزل على محمد صلى الله عليه وسلم**» أخرجه البزار[٩].

وذكر النبي صلى الله عليه وسلم أن الطيرة من الجبت فقال: «**العِيَافَةُ والطِيَرَةُ والطَرْقُ من الجبت**» أخرجه أحمد أبو داود[١٠].

---

(٩) أخرجه البزار (٤/ ٣٩٩) والطبراني في الكبير (١٨/ ١٦٢)، والدولابي في الكنى والأسماء (٢/ ١٦٦) من حديث عمران بن حصين رضي الله عنه، قال المنذري في الترغيب: إسناده جيد (٤/ ٣٣)، وقال الهيثمي: رواه البزار ورجاله رجال الصحيح خلا إسحاق بن الربيع وهو ثقة. انظر: مجمع الزوائد (٥/ ١١٧) وله شاهد من حديث ابن عباس رضي الله عنهما أخرجه البزار (٤/ ٣٩٩)، والطبراني في الأوسط (٤٢٦٢)، وحسنه المنذري في الترغيب والترهيب (٤/ ٣٣)، وله شاهد من حديث علي رضي الله عنه عند أبي نعيم في الحلية (٤/ ١٩٥).

(١٠) أخرجه أحمد (٣/ ٤٧٧) وعبد الرزاق في مصنفه (١٩٠٢)، وأبو داود في الطب باب في الخط وزجر الطير (٣٩٠٧)، والبغوي في شرح السنة (٣٢٥٦)، والبيهقي في السنن الكبرى (٨/ ١٣٩)، والطبراني في الكبير (١٨/ ٣٦٨ ـ ٣٦٩)، وصححه ابن حبان (٦١٣١) من حديث قبيصة بن المخارق رضي الله عنه.

والجبت: هو السحر، ووجه دخول الطيرة في السحر أن المتطير يعتمد في معرفة المغيبات على أمرٍ خفي، فهو كالساحر الذي يعتمد في قلب حقائق الأشياء على أمر خفي.

وروى ابن مسعود رضي الله عنه أن النبي صلى الله عليه وسلم قال: «**الطيرة شرك**» أخرجه أبو داود[(١١)].

وعلاجُ الطيرة: التوكلُ على الله تعالى، والمضيُ فيما عزم عليه، والبعدُ عن وساوس الشيطان، وعدم الاستسلام لخطراته، واليقينُ بأن الأمور بيد الله سبحانه، وأن القدر مكتوب لا تردُه الطيرة، وقد ذكر النبي صلى الله عليه وسلم كفارتها لمن وجد في نفسه شيئاً فقال عليه الصلاة والسلام: «**من ردته الطيرة من حاجة فقد أشـرك**، قالوا: فما كفارة ذلك؟ قال: **أن تقول: اللهم لا خير إلا خيرك، ولا طير إلا طيرك، ولا إله غيرك**» أخرجه أحمد[(١٢)]، وذكرت الطيرة عنده عليه الصلاة والسلام فقال: «**أحسنها الفأل، ولا ترد مسلماً؛ فإذا رأى أحدكم ما يكره فليقل: اللهم لا يأتي بالحسنات إلا أنت، ولا يدفع السيئات إلا**

---

(١١) أخرجه أحمد (١/ ٣٨٩)، وأبو داود في الطب باب في الطيرة (٣٩١٠)، والترمذي في السير باب ما جاء في الطيرة (١٦١٤)، وابن ماجه في الطـب باب من كان يعجبه الفأل ويكره الطيرة (٣٥٣٨)، وصححه الحاكم (١/ ١٧ - ١٨)، وابن حبان (٦١٢٢).

(١٢) أخرجه أحمد (٢/ ٢٢٠) وابن السني في عمل اليوم والليـلـة (٢٩٣)، وصححه الشيخ أحمد شاكر في شرحه على المسند (٧٠٤٥).

أنت، ولا حول ولا قوة إلا بك» رواه أبو داود[١٣].

وليس من العلاج الصحيح مداواة البدعةِ ببدعةٍ أخرى، كما يفعله بعض الناس رداً على التشاؤم بشهر صفر؛ فإذا أخبر عن شيء حصل في شهر صفر، قال: حدث في صفر الخير، أو أرخ تاريخاً قال: انتهى في صفر الخير، ونحو ذلك؛ فإن شهر صفر لا يوصفُ لا بالخير ولا بالشر فهو ظرف لما يقع فيه، وليس له تأثير فيما يقع فيه سواء كان خيراً أم شراً؛ ولهذا أنكر بعض السلف على من إذا سمع البومة تنعق قال: خيراً إن شاء الله، فلا يقال: خير ولا شر، بل هي تنعق كبقية الطيور[١٤].

وقد اعتاد كثير من الناس على استعمال كلمة: خير يا طير، وأغلب من يستعملها لا يقصد بها الطيرة المنهي عنها شرعاً؛ لكن المسلم ينبغي له أن ينزه لسانه عن الألفاظ التي فيها شبهة.

قال الحافظ ابن رجب: «وأما تخصيص الشؤم بزمان دون زمان كشهر صفر أو نحوه، فغير صحيح، وإنما الزمان خلق الله تعالى، وفيه تقع أعمال بني آدم: فكل زمان شغله المؤمن بطاعة الله فهو زمان مبارك عليه، وكل زمان شغله العبد بمعصية الله تعالى فهو مشؤوم عليه، فالشؤم في الحقيقة هو معصية الله تعالى»[١٥].

---

(١٣) أخرجه أبو داود في الطب باب في الطيرة (٣٩١٩)، والبيهقي في الكبرى (٨/ ١٣٩)، وصححه النووي في رياض الصالحين (١٦٧٧).

(١٤) انظر: القول المفيد على كتاب التوحيد للشيخ ابن عثيمين (٢/ ٨٥).

(١٥) لطائف المعارف (١٥١).

أعوذ بالله من الشيطان الرجيم: ﴿قَالُوا اطَّيَّرْنَا بِكَ وَبِمَن مَّعَكَ قَالَ طَائِرُكُمْ عِندَ اللَّهِ بَلْ أَنتُمْ قَوْمٌ تُفْتَنُونَ﴾ [النمل: ٤٧].

بارك الله لي ولكم في القرآن العظيم...

الخطبة الثانية

الحمد لله حمداً طيباً كثيراً مباركاً فيه كما يحب ربنا ويرضى، أحمده وأشكره، وأتوب إليه وأستغفره، وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له، وأشهد أن محمداً عبده ورسوله، صلى الله وسلم وبارك عليه وعلى آله وأصحابه ومن اهتدى بهداهم إلى يوم الدين.

أما بعد: فاتقوا الله تعالى وأطيعوه، واحذروا غضبه فلا تعصوه، ﴿وَاتَّقُوا اللَّهَ وَاعْلَمُوا أَنَّكُمْ إِلَيْهِ تُحْشَرُونَ﴾ [البقرة: ٢٠٣].

أيها المسلمون: الفألُ ضد الطيرة؛ ولذا كان النبي صلى الله عليه وسلم يتفاءل ولا يتطير كما قال عليه الصلاة والسلام: «**لا عدوى ولا طيرة ويعجبني الفأل الصالح، والكلمة الحسنة**» أخرجه البخاري، وفي رواية لمسلم: «**الكلمة الحسنة الكلمة الطيبة**»(١٦). فالكلمة الطيبة تعجبه صلى الله عليه وسلم لما فيها من إدخال السرور على النفس والانبساط والمضي قُدُماً لما يسعى إليه الإنسان، وليس هذا من الطيرةِ؛ بل هذا مما

---

(١٦) أخرجه البخاري في الطب باب الفأل (٥٧٥٦)، ومسلم في السلام باب الطيرة والفأل وما يكون فيه من الشؤم (٢٢٢٤).

يشجعُ الإنسان؛ لأنها لا تؤثرُ عليه؛ بل تزيده طمأنينة وإقداماً وإقبالاً[١٧].

قال ابن الأثير رحمه الله تعالى: «الفأل فيما يرجى وقوعه من الخير، ويحسنُ ظاهرُه ويسر. والطيرةُ لا تكون إلا فيما يسوء، وإنما أحب النبي صلى الله عليه وسلم الفأل؛ لأن الناس إذا أمّلوا فائدة من الله، ورجوا عائدته عند كل سبب ضعيف أو قوي فهم على خير، وإن لم يدركوا ما أمّلوا فقد أصابوا في الرجاء من الله وطلب ما عنده، وفي الرجاء لهم خير معجل. ألا ترى أنهم إذا قطعوا أملهم ورجاءهم من الله كان ذلك من الشر، فأما الطيرة فإن فيها سوء الظن، وقطع الرجاء، وتوقع البلاء، وقنوط النفس من الخير، وذلك مذموم بين العقلاء، منهي عنه من جهة الشرع»[١٨].

ومما ينبغي أن يعلم: أن الطيرة لا تضر إلا المتطير، والشؤم لا يضر إلا المتشائم، قال النبي عليه الصلاة والسلام: «**لا طيرة والطيرة على من تطير**»[١٩].

---

(١٧) القول المفيد على كتاب التوحيد (٢/ ٨٨).

(١٨) جامع الأصول (٧/ ٦٣١).

(١٩) أخرجه الطحاوي في شرح معاني الآثار (٤/ ٣١٤) وصححه ابن حبان (١٦٢٣).

قال شيخ الإسلام في مجموع الفتاوى (٤/ ٨١): «وإنما تضر الطيرة من تطير؛ لأنه أضر نفسه، فأما المتوكل على الله فلا».

وذلك أن شؤمه سيقعده عن العمل، ويصيبه بالإحباط واليأس، وإذا تخلف مرغوب يطلبه عزاه إلى ما تشاءم منه، وهكذا يظل أسير الأوهام والشكوك والظنون الفاسدة، ثم يجد الدجالون من الكهـان والعرافين والمنجمين وقراء الكف والفنجان مدخلاً عليه؛ لأنه ضعيف. ولربما استعان بهم في معرفة نتيجة أمر يريده؛ فيقع في الشرك، ولا ينفعه هؤلاء الدجالون، بل يسلبون أمواله كما يفسدون توحيده، ولن يجني إلا ما كتب الله تعالى له.

فاتقوا الله ربكم، واحذروا الشرك ومداخله، فإن العبد قد يقـع في الذنوب فيغفر الله تعالى له؛ لكن الشرك لا يغفره الله تعالى، ومن مات عليه فهو على خطر عظيم..

وصلوا وسلموا على نبينا محمد كما أمركم بذلك ربكم..

١٨- حكم سب الدهر

الجمعة ٤/ ٥/ ١٤١٨هـ

الحمد لله، نحمده ونستعينه ونستغفره، ونعوذ بالله من شرور أنفسنا ومن سيئات أعمالنا، من يهده الله فلا مضل له ومن يضلل فلا هادي له، وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له وأشهد أن محمداً عبده ورسوله ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ حَقَّ تُقَاتِهِ وَلَا تَمُوتُنَّ إِلَّا وَأَنْتُم مُّسْلِمُونَ (١٠٢)﴾ [آل عمران] ﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ اتَّقُوا رَبَّكُمُ الَّذِي خَلَقَكُم مِّن نَّفْسٍ وَاحِدَةٍ وَخَلَقَ مِنْهَا زَوْجَهَا وَبَثَّ مِنْهُمَا رِجَالًا كَثِيرًا وَنِسَاءً وَاتَّقُوا اللَّهَ الَّذِي تَسَاءَلُونَ بِهِ وَالْأَرْحَامَ إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلَيْكُمْ رَقِيبًا (١)﴾ [النساء] ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَقُولُوا قَوْلًا سَدِيدًا (٧٠) يُصْلِحْ لَكُمْ أَعْمَالَكُمْ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ وَمَن يُطِعِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ فَقَدْ فَازَ فَوْزًا عَظِيمًا (٧١)﴾ [الأحزاب].

أيها الإخوة المؤمنون: المسلمُ في ظل عقيدته الصحيحة يهنأ بالحياة المريحة، والسعادة المتجددة، والنفسية المستقرة، وكلما زاد إيمانه زادت سعادته وطمأنينته، وكلما نقص إيمانه أو اختل توحيده، اقترب من البؤس والشقاء، ويكون بؤسه وشقاؤه بقدر نقص إيمانه، واختلال توحيده؛ حتى لو كان ذا مال وجاه وحياة مترفة.

فكم من صاحب مال وجاه يتقلب في النعيم والملذات، إذا قال سمع قوله، وإذا أشار فهمت إشارته، يتسابق الناس إلى إرضائه وكسبِ وده. إذا رآه الجاهلون تمنوا مثل حياته ومعيشته؛ ولكن إذا رآه أهل

الفراسة من الصالحين، أدركوا أنه يحمل في داخله بؤساً. يخفيه بابتسامة مصطنعة، وضحكة عالية، يقصد من إظهارها عدم مبالاته بأي شيء ما دام في نعيمه الزائف. إنه يخادع نفسه، ويصبرها على ما فيه شقاؤها، وكان أولى له أن يستبين الطريق، ويعود إلى الحق، ويسير في ركابه مع السائرين المفلحين.

إن هذا الأنموذج يعطي الدليل القاطع على أن السعادة في إيمان القلب، لا في إنعام الجسد. وصاحبُ السعادة الحقيقية الذي اطمأن قلبه بالإيمان، وسلمت عقيدته من الخلل؛ تجده ثابتاً في المواقف، قادراً على تحمل المصاعب.

أما من انعدم إيمانه أو اختلت عقيدته، فإن المواقف تفضح تصنعه للقوة، وتظهر زور لباس الشدة والبأس الذي يتزين به أمام ناظريه؛ فعند المشكلة والملمة يذهب بأسه وتجلده، فتراه يلقي باللائمة على القدر، ويتسخط منه، ويعزو الحوادث للدهر، مكذباً علم الله تعالى وأمرَه وخلقه وتدبيره، كما كان المشركون يقولون ﴿**مَا هِيَ إِلاَّ حَيَاتُنَا الدُّنْيَا نَمُوتُ وَنَحْيَا وَمَا يُهْلِكُنَا إِلاَّ الدَّهْرُ**﴾ [الجاثية: ٢٤].

وفي الصحيح عن أبي هريرة رضي الله عنه عن النبي صلى الله عليه وسلم قال: «**قال الله تعالى: يؤذيني ابنُ آدم يسب الدهر وأنا الدهر أقلب الليل والنهار**»(١)، وفي رواية لمسلم «**لا تسبوا الدهر فإن الله هو**

(١) أخرجه البخاري في التفسير تفسير سورة الجاثية باب ﴿**وَمَا يُهْلِكُنَا إِلاَّ الدَّهْرُ**﴾ [الجاثية: ٢٤] (٤٨٢٦) ومسلم في الأدب باب النهي عن سب الدهر (٢٢٤٦).

الدهر» وفي رواية عند أحمد «**لا تسبوا الدهر فإن الله قال: أنا الدهر، بيدي الأمر، الأيام والليالي لي أجددها وأبليها وآتي بملوك بعد ملوك**»[٢].

وإنما سب المشركون الدهر لأنهم يعتقدون أنه الفاعل، فاعتقدوا أن مع الله خالقاً بنسبتهم الحوادث للدهر، قال الخطابي في معنى قوله: «**أنا الدهر**»: «معناه: أنا صاحب الدهر، ومدبر الأمور التي ينسبونها إلى الدهر؛ فمن سب الدهر من أجل أنه فاعل هذه الأمور عاد سبُه إلى ربه الذي هو فاعلها، وإنما الدهرُ زمانٌ جُعل ظرفاً لمواقع الأمور. وكانت عادتُهم إذا أصابهم مكروه أضافوه إلى الدهر فقالوا: بؤساً للدهر وتباً للدهر»اهـ.[٣]، ولذلك قال الله عنهم مبيناً جهلهم ﴿**وَمَا لَهُم بِذَٰلِكَ مِنْ عِلْمٍ إِنْ هُمْ إِلَّا يَظُنُّونَ** ﴿٢٤﴾﴾ [الجاثية].

وقال بعض السلف: «كانت العرب في جاهليتها من شأنها ذم الدهر، أي: سبه عند النوازل؛ فكانوا إذا أصابهم شدة أو بلاء أو ملامة قالوا: أصابتهم قوارع الدهر، وأبادهم الدهر، وقالوا: يا خيبة الدهر؛ فيسندون تلك الأفعال إلى الدهر ويسبونه وإنما فاعل ذلك هو الله. فإذا أضافوا ما نالهم من الشدائد إلى الدهر فإنما سبوا الله عزوجل؛ لأن الله هو الفاعل لذلك حقيقة فنهى الله عن سب الدهر بهذا الاعتبار» اهـ[٤].

---

(٢) الرواية الأولى أخرجها مسلم من حديث أبي هريرة أيضاً (٢٢٤٦) والثانية أخرجها أحمد وصححها الحافظ ابن حجر في الفتح (١٠/ ٥٨١).

(٣) فتح الباري لابن حجر (٨/ ٤٣٨).

(٤) حاشية ابن قاسم على كتاب التوحيد (٣١٢).

وقد يشابه بعض المسلمين المشركين في سبهم للدهر لا لاعتقادهم أنه هو الفاعل، بل يعتقد أن الله هو الفاعل؛ لكنه يسب الدهر لهـذا الأمر المكروه عنده فهذا محرم ولايصل إلى درجة الشرك؛ لأنه يعتقد أن الله هو الفاعل. وإنما هو محرم لما يقتضيه سبه للدهر من مسبة الله عز وجل، ولم يكن ذلك كفراً لأنه لم يسب الله تعالى مباشرة(٥).

وهذا للأسف يحصل عند بعض المسلمين فيسب اليوم الذي حصلت فيه المصيبة الفلانية، أو الساعة التي عرف فيها فلاناً، أو الشهر أو السنة أو الوقت الذي حصل فيه كذا و كذا. فينبغي أن يعلم أن ما يحصل للعبد هو بتقدير الله تعالى وأمره وخلقه، وليس للدهر ولالغيره تصرف في ذلك.

وقد ذكر العلامة ابن القيم رحمه الله تعالى ثلاث مفاسد عظيمـة لسب الدهر:

أحدها: سبه من ليس أهلاً للسب، فإن الدهر خَلْقٌ مسخرٌ من خلق الله منقادٌ لأمره، متذللٌ لتسخيره، فسابه أولى بالذم والسب منه.

والثانية: أن سبه متضمن للشرك، فإنه إنما سبه لظنه أنه يضر وينفع وأنه مع ذلك ظالم قد أعطى من لايستحق العطاء، ورفع من لايستحق الرفعة، وحرم من لايستحق الحرمان.

---

(٥) انظر في ذلك: المفهم لما أشكل من تلخيص كتاب مسلم للقرطبي (٥/ ٥٤٧) وحاشية ابن قاسم على كتاب التوحيد (٣١١) والقول المفيد على كتاب التوحيد (٢/ ٣٥١).

الثالثة: أن السب منهم إنما يقع على من فعل هذه الأفعال التي لو اتبع الحق فيها أهواءهم لفسدت السموات والأرض، وإذا وافقت أهواءهم حمدوا وأثنوا عليه، وفي حقيقة الأمر: فرب الدهر هو المعطي المانع، الخافض الرافع، المعز المذل. والدهر ليس له من الأمر شيء، فمسبتهم للدهر مسبة لله عز وجل؛ ولهذا كانت مؤذية للرب تعالى. فساب الدهر دائر بين أمرين لا بد له من أحدهما: إما مسبة الله أو الشرك به، فإنه إن اعتقد أن الدهر فاعل مع الله فهو مشرك، وإن اعتقد أن الله وحده هو الذي فعل ذلك وهو يسب من فعله فهو يسب الله تعالى. اهـ(٦)

أيها الإخوة: ليس من سب الدهر أن يخبر عما وقع فيه من غير اعتراض أو تذمر أو لوم، كالإخبار عن البرد في ذلك اليوم، أو شدة الحر فيه، أو ماجرى فيه من حوادث ومشكلات من غير أن يتضمن إخبارُه لوماً أو تذمراً. ونظيره ما حكاه الله تعالى عن لوط عليه السلام من أنه قال ﴿ **هَذَا يَوْمٌ عَصِيبٌ** ﴿٧٧﴾ ﴾ [هود] وكذلك قولُه تعالى حكاية عن يوسف عليه السلام من أنه قال ﴿ **ثُمَّ يَأْتِي مِنْ بَعْدِ ذَلِكَ سَبْعٌ شِدَادٌ يَأْكُلْنَ مَا قَدَّمْتُمْ لَهُنَّ إِلاَّ قَلِيلاً مِّمَّا تُحْصِنُونَ** ﴿٤٨﴾ ﴾ [يوسف: ٤٨](٧)، فوصْفُ ذلك اليوم بأنه عصيبٌ، ووصْفُ السنين بأنها شدائد هو مجرد إخبار لا اعتراض فيه ولا لوم؛ لذلك لم يكن محذوراً، وما يجري

---

(٦) تيسير العزيز الحميد شرح كتاب التوحيد (٦١٦).

(٧) انظر: حاشية ابن قاسم على كتاب التوحيد (٣١٣) والقول المفيد على كتاب التوحيد (٢/ ٣٥١).

مجراه فليس بمحذور.

فاتقوا الله ربكم، واحذروا ما فيه خلل توحيدكم من الأقوال والأفعال؛ فإن العبد إذا فقد التوحيد الصحيح فقد السعادة.

أسأل الله تعالى أن يثبتنا على الدين الصحيح، وأن يعلمنا ما ينفعنا، وأن يقربنا من مراضيه، ويباعد بيننا وبين مغاضبه ومساخطه إنه سميع مجيب، وأقول هذا القول وأستغفر الله لي ولكم فاستغفروه إنه هو الغفور الرحيم.

الخطبة الثانية

الحمد لله حمداً طيباً كثيراً مباركاً فيه كما يحب ربنا ويرضى، أحمده وأشكره، وأتوب إليه وأستغفره، وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لاشريك له، وأشهد أن محمداً عبده ورسوله صلى الله وسلم وبارك عليه وعلى آله وأصحابه وأتباعه إلى يوم الدين.

أما بعد: فاتقوا الله - عباد الله - وكونوا على حذر من غضبه ونقمته؛ وذلك بالمسارعة في الخيرات، واكتساب الحسنات، والتقلل من الخطيئات.

أيها الإخوة المؤمنون: إن مما يدخل في باب سب الدهر: تعليقَ الحوادث الكونية على أسباب بحتة، والتغافل عن تقدير الله تعالى لها، وأنه خلق الأسباب ومسبَّباتها، حيث يكثر عند دارسي ما يسمى بالعلوم التجريبية نسبةُ بعض الحوادث للطبيعة فيقال: هذا قانون الطبيعة، وهذا تدبيرها وخلقها، وهكذا تريدُ الطبيعة، ونحو ذلك مما هو من أفكار الدُّهرية والملاحدة. انتقل إلى المسلمين عن طريق ترجمة كتبهم،

ودراسة نظرياتهم، وقد يغفل بعض الدارسين عن المحاذير الشرعية في ذلك، فيختل توحيدهم وإيمانهم وهم لا يدرون.

كذلك من الإلحاد والزندقة بعضُ النظريات التي تجعل الخلق للطبيعة كنظرية النشوء والارتقاء والتطور التي تتضمن إنكار خلق الله تعالى للإنسان، وتصرحُ بتكذيب القرآن في بيان أصل خلق الإنسان.

ولم يقتصر هذا الخلل على بعض الدارسين لهذه العلوم، المغترين ببعض النظريات الباطلة؛ بل تسلل ذلك إلى شباب المسلمين ونسائهم وأطفالهم في منازلهم عبر الفضائيات الخبيثة، في عرضٍ لبرامج علمية تنسب مايجري في الكون إلى الطبيعة، وإلى المعادلات التي يُبنى بعضها على بعض، بعيداً عن التذكير بخلق الله تعالى وتدبيره؛ بل وُجِّه هذا الإفساد للأطفال عبر برامجهم التي صنعت من أجلهم حيث تتضمن رسوماً ومشاهد فيها إفساد للعقيدة والفطرة. فيجب الحذرمن ذلك، وحفظُ البيوت من تسرب هذه الأفكار الضالة إليها، وذلك بإقصاء سبل الشر والفساد، وغرس العقيدة الصحيحة في قلوب النساء والأطفال؛ بل حتى الرجال.

فكثير من المسلمين يغفل عن أهمية بناء التوحيد الصحيح في قلوب نسائه وأولاده ويتركهم لفطرتهم، وذلك لو صح فإنما يصح مع عدم وجود معاول الهدم والتدمير، والغزو الذي يقذف الشبهات، أما وقد وجد ذلك، والحربُ على أشدها فلا بد من تحصين المسلمين بالتوحيد الصحيح عن طريق التربية والتعليم حتى تتأبى قلوبُهم على

الشبهات، وتتكسر معاول التدمير على جدران العقيدة الصلبة الصحيحة التي امتلات بها قلوبُ المسلمين رجالاً ونساءً وأطفالاً.

فالحذر الحذر أيها الإخوة، فالصراع صراع عقائد، ولـيـزن كلٌّ مسلم ألفاظه حتى تكون ألفاظاً شرعية بعيدة عما يخل بدينه وتوحيده، ألا وصلوا وسلموا على محمد بن عبدالله كما أمركم بذلك ربكم...

* * *

١٩- ظن السوء (١)
حكمه وأهله

١٩/ ٦/ ١٤١٩هـ

الحمد لله، نحمده ونستعينه ونستغفره، ونعوذ بالله من شرور أنفسنا ومن سيئات أعمالنا، من يهده الله فلا مضل له ومن يضلل فلا هادي له، وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له وأشهد أن محمداً عبده ورسوله، اللهم صل على محمد وعلى آل محمد كما صليت على إبراهيم وعلى آل إبراهيم إنك حميد مجيد، وبارك على محمد وعلى آل محمد كما باركت على إبراهيم وعلى آل إبراهيم إنك حميد مجيد.

أما بعد: فإن أصدق الحديث كلام الله تعالى، وخير الهدي هدي محمد صلى الله عليه وسلم، وشر الأمور محدثاتها، وكل محدثة بدعة، وكل بدعة ضلالة، وكل ضلالة في النار.

أيها المؤمنون: حسن الظن بالله تعالى من آكد واجبات التوحيد، وسوء الظن به تعالى يعارض التوحيد حتى ينفي أصله أو كماله؛ ذلك أنه لا يتم للعبد إيمان ولا توحيد حتى يعتقد بجميع ما أخبر الله تعالى به من أسمائه وصفاته وكماله، وتصديقه بكل ما أخبر به وأنه يفعله، وما وعد به من نصر الدين، وإحقاق الحق، وإبطال الباطل. فاعتقاد هذا من الإيمان، وطمأنينة القلب بذلك من الإيمان، وكل ظن ينافي ذلك فإنه من ظنون الجاهلية المنافية للتوحيد: سوء ظن بالله، ونفي لكماله،

وتكذيب لخبره، وشك في وعده(١).

وحسن الظن بالله تعالى يُبنى على العلم برحمة الله وعزته، وإحسانه وقدرته، وعلمه وحسن اختياره، وقوة المتوكل عليه، فإذا تم العلم بذلك أثمر للعبد حسن الظن بالله تعالى(٢).

وجزاء الظن من الله تعالى للعبد على حسبه، إن ظن ظناً حسناً مع الإيمان والعمل كان الجزاء حسناً، وإن ظن بربه سوءًا كان جزاؤه سوءًا، قال الله تعالى في الحديث القدسي: **«أنا عند ظن عبدي بي فليظن بي ما شاء»** أخرجه أحمد بسند صحيح(٣) وفي حديث قدسي آخر قال تعالى: **«أنا عند ظن عبدي بي، إن ظن خيراً فله، وإن ظن شراً فله»** أخرجه الشيخان وابن حبان واللفظ له(٤).

ولبالغ أهمية إحسان الظن بالله تعالى فإن النبي صلى الله عليه وسلم أوصى به قبل موته، قال جابر بن عبد الله رضي الله عنهما: سمعت

---

(١) انظر: القول السديد على كتاب التوحيد للشيخ عبدالرحمن السعدي (١٤٣) والقول المفيد للشيخ محمد العثيمين (٣/ ١٤٣).

(٢) تيسير العزيز الحميد (٦٨٥).

(٣) أخرجه أحمد (٣/ ٤٩١) وابن المبارك في الزهد (٩٠٩) والطبراني في الكبير (٢٢/ ٢١٠) وصححه ابن حبان (٦٣٣ - ٦٣٤).

(٤) أخرجه البخاري في التوحيد باب (يريدون أن يبدلوا كلام الله) (٧٥٠٥) ومسلم في الذكر والدعاء: باب فضل الذكر والدعاء والتقرب إلى الله (٢٦٧٥) والترمذي في الزهد باب ما جاء في حسن الظن بالله تعالى (٢٣٨٨) وابن حبان (٦٣٩) واللفظ له من حديث أبي هريرة رضي الله عنه.

النبي صلى الله عليه وسلم يقول قبل موته بثلاث: «**لا يموتن أحدكم إلا وهو يحسن الظن بالله جل وعلا**» أخرجه مسلم.(٥) وأخبر عليه الصلاة والسلام أن حسن الظن من حسن العبادة كما في حديث أبي هريرة عند أحمد وأبي داود(٦).

وبيّن صلى الله عليه وسلم أن حسن الظن ينفع في الآخرة لمن أراد الله به خيراً كما روى أنس بن مالك رضي الله عنه قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم «**يخرج رجلان من النار فيعرضان على الله، ثم يؤمر بهما إلى النار فيلتفت أحدهما فيقول: يا رب، ما كان هذا رجائي، قال: وما كان رجاؤك؟ قال: كان رجائي إذ أخرجتني منها أن لا تعيدني فيرحمه الله فيدخله الجنة**» أخرجه مسلم وابن حبان واللفظ له(٧).

مع ذلك كله ينبغي أن يعلم أنه لابد أن يجتمع العمل مع حسن الظن، ويقترن الخوف بالرجاء؛ لأنه إن ترك العمل اعتماداً على حسن

---

(٥) أخرجه مسلم في صفة الجنة باب الأمر بحسن الظن بالله تعالى عند الموت (٢٨٧٧) وأبو داود في الجنائز باب ما يستحب من الظن بالله تعالى عند الموت (٣١١٣).

(٦) أخرجه أحمد (٢/ ٢٩٧) وأبو داود في الآداب باب في حسن الظن (٤٩٩٣) والترمذي في الدعوات باب (١٤٦) (٣٦٠٤) والحاكم وصححه على شرط مسلم ووافقه الذهبي (٤/ ٢٤١) وصححه ابن حبان (٦٣١) والشيخ أحمد شاكر في شرحه على المسند (٧٩٤٣).

(٧) أخرجه ابن حبان بإسناد على شرط مسلم (٦٣٢) ومسلم بلفظ آخر في الإيمان باب أدنى أهل الجنة منزلة فيها (١٩٢).

الظن فقد أساء الظن بالله؛ إذ ظن أن الله تعالى لا يعاقب من يعصيه، وذلك مخالف لحكمته من الخلق والابتلاء. وإن أساء الظن بالله يئس من رَوْحِه، وقنط من رحمته فكان من الهالكين، والموازنة في ذلك يتحقق بها التوحيد: حسن ظنٍ مع عمل واجتهاد، وخوف مع رجاء، وقد عنون لذلك ابن حبان رحمه الله تعالى فقال: «ذكر البيان بأن حسن الظن الذي وصفناه يجب أن يكون مقروناً بالخوف منه جل وعلا»(٨) ثم أدرج تحته حديث أبي هريرة رضي الله عنه عن النبي صلى الله عليه وسلم يرويه عن ربه جل وعلا قال: «**وعزتي لا أجمع على عبدي خوفين وأمنين، إذا خافني في الدنيا أمنته يوم القيامة، وإذا أمنني في الدنيا أخفته يوم القيامة**»(٩).

إن كثيراً من الناس غفلوا عن هذا الأمر، تجدهم يقصرون في الفرائض، ويأتون المحرمات، وإذا قيل لهم اتقوا الله احتجوا بمغفرة الله ورحمته مع إصرارهم على ترك طاعته، وفعل معصيته، وهذا من سوء ظنهم بالله تعالى ﴿**اعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ شَدِيدُ الْعِقَابِ وَأَنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ** ﴿٩٨﴾﴾ [المائدة] ﴿**إِنَّ رَبَّكَ لَسَرِيعُ الْعِقَابِ وَإِنَّهُ لَغَفُورٌ رَّحِيمٌ** ﴿١٦٧﴾﴾ [الأعراف]

---

(٨) انظر: الإحسان في تقريب صحيح ابن حبان (٢٠/٦٠٤).

(٩) أخرجه ابن حبان (٦٤٠) وله شاهد عند ابن المبارك في الزهد (١٥٧) وذكره الهيثمي مرسلاً ومسنداً وقال: «رواهما البزار عن شيخه محمد بن يحيى بن ميمون ولم أعرفه وبقية رجال المرسل رجال الصحيح ، وكذلك رجال المسند غير محمد بن عمرو بن علقمة وهو حسن الحديث»، انظر: مجمع الزوائد (١٠/٣٠٨)، وصححه الألباني في صحيح الترغيب والترهيب (٣٣٧٦).

﴿ وَإِنَّ رَبَّكَ لَذُو مَغْفِرَةٍ لِّلنَّاسِ عَلَىٰ ظُلْمِهِمْ وَإِنَّ رَبَّكَ لَشَدِيدُ الْعِقَابِ ۝٦ ﴾ [الرعد] ﴿ نَبِّئْ عِبَادِي أَنِّي أَنَا الْغَفُورُ الرَّحِيمُ ۝٤٩ وَأَنَّ عَذَابِي هُوَ الْعَذَابُ الْأَلِيمُ ۝٥٠ ﴾ [الحجر] وكثيراً ما يقرن الله تعالى بين هاتين الصفتين: المغفرة والعذاب؛ حتى يكون العبد مع إيمانه وعمله الصالح خائفاً راجياً[١٠].

لقد ذكر القرآن العظيم طوائف ممن سبقونا، ساء ظنهم بربهم فهلكوا، حتى يكون العبد على حذر من الوقوع فيما وقعوا فيه. ظنوا أن الله تعالى خلق الخلق عبثاً، وأنه لن يحاسب أحداً، وأن الساعة غير آتية، وأن الدنيا قرارهم.

لقد ظن كفار الإنس وكفار الجن قبيل بعثة محمد صلى الله عليه وسلم أن فترة الرسل باقية، وأن إرسال نبي ممتنع كما قال الله عنهم ﴿ وَأَنَّهُ كَانَ رِجَالٌ مِّنَ الْإِنسِ يَعُوذُونَ بِرِجَالٍ مِّنَ الْجِنِّ فَزَادُوهُمْ رَهَقًا ۝٦ وَأَنَّهُمْ ظَنُّوا كَمَا ظَنَنتُمْ أَن لَّن يَبْعَثَ اللَّهُ أَحَدًا ۝٧ ﴾ [الجن].

وظن المشركون والماديون وبعض أهل البدع والضلال أن حكمة الخلق منتفية، وأن التقدير كان لمشيئة مجردة[١١]؛ فرد الله عليهم في هذا الظن السيء بربهم فقال تعالى: ﴿ وَمَا خَلَقْنَا السَّمَاءَ وَالْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا بَاطِلًا ذَٰلِكَ ظَنُّ الَّذِينَ كَفَرُوا فَوَيْلٌ لِّلَّذِينَ كَفَرُوا مِنَ النَّارِ ۝٢٧ ﴾ [ص] وفي آية أخرى قال تعالى: ﴿ وَمَا خَلَقْنَا السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا لَاعِبِينَ ۝٣٨ مَا خَلَقْنَاهُمَا إِلَّا بِالْحَقِّ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ۝٣٩ ﴾ [الدخان].

---

(١٠) انظر: تفسير ابن كثير (٤٤١١٢) عند تفسير الآية (١٦٧) من سورة الأعراف.

(١١) انظر: تيسير العزيز الحميد ففيه تفصيل أكثر (٦٩١).

والذين أنكروا البعث والحساب ساء ظنهم بربهم؛ فلم يقروا له بالحكمة والعدل والرحمة ﴿ وَدَخَلَ جَنَّتَهُ وَهُوَ ظَالِمٌ لِّنَفْسِهِ قَالَ مَا أَظُنُّ أَن تَبِيدَ هَذِهِ أَبَدًا ﴿٣٥﴾ وَمَا أَظُنُّ السَّاعَةَ قَائِمَةً ﴾ [الكهف: ٣٥-٣٦] ﴿ وَإِذَا قِيلَ إِنَّ وَعْدَ اللَّهِ حَقٌّ وَالسَّاعَةُ لا رَيْبَ فِيهَا قُلْتُم مَّا نَدْرِي مَا السَّاعَةُ إِن نَّظُنُّ إِلاَّ ظَنًّا وَمَا نَحْنُ بِمُسْتَيْقِنِينَ ﴿٣٢﴾ ﴾ [الجاثية].

وأشهر طوائف الضلال اتصافاً بسوء الظن بالله تعالى: طائفة المنافقين، ظنوا أن الله تعالى لا ينصر عباده؛ فانسحبوا من جيش المسلمين في أُحُد. فلما كانت الهزيمة أظهروا الفرح والشماتة.

وكان سوء الظن بالله تعالى ملازماً للمنافقين - ولا يزال - في كل عصر وفي كل أرض ﴿ وَيُعَذِّبَ الْمُنَافِقِينَ وَالْمُنَافِقَاتِ وَالْمُشْرِكِينَ وَالْمُشْرِكَاتِ الظَّانِّينَ بِاللَّهِ ظَنَّ السَّوْءِ عَلَيْهِمْ دَائِرَةُ السَّوْءِ وَغَضِبَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ وَلَعَنَهُمْ وَأَعَدَّ لَهُمْ جَهَنَّمَ وَسَاءَتْ مَصِيرًا ﴿٦﴾ ﴾ [الفتح]. ﴿ ثُمَّ أَنزَلَ عَلَيْكُم مِّنْ بَعْدِ الْغَمِّ أَمَنَةً نُّعَاسًا يَغْشَىٰ طَائِفَةً مِّنكُمْ وَطَائِفَةٌ قَدْ أَهَمَّتْهُمْ أَنفُسُهُمْ يَظُنُّونَ بِاللَّهِ غَيْرَ الْحَقِّ ظَنَّ الْجَاهِلِيَّةِ يَقُولُونَ هَل لَّنَا مِنَ الأَمْرِ مِن شَيْءٍ قُلْ إِنَّ الأَمْرَ كُلَّهُ لِلَّهِ يُخْفُونَ فِي أَنفُسِهِم مَّا لا يُبْدُونَ لَكَ يَقُولُونَ لَوْ كَانَ لَنَا مِنَ الأَمْرِ شَيْءٌ مَّا قُتِلْنَا هَا هُنَا قُل لَّوْ كُنتُمْ فِي بُيُوتِكُمْ لَبَرَزَ الَّذِينَ كُتِبَ عَلَيْهِمُ الْقَتْلُ إِلَىٰ مَضَاجِعِهِمْ وَلِيَبْتَلِيَ اللَّهُ مَا فِي صُدُورِكُمْ وَلِيُمَحِّصَ مَا فِي قُلُوبِكُمْ وَاللَّهُ عَلِيمٌ بِذَاتِ الصُّدُورِ ﴿١٥٤﴾ ﴾ [آل عمران].

والمعذبون من أهل الظن السيىء بربهم يوبخون على سوء ظنهم،

ويخبرون أن ظنهم أرداهم وأهلكهم ﴿وَمَا كُنتُمْ تَسْتَتِرُونَ أَن يَشْهَدَ عَلَيْكُمْ سَمْعُكُمْ وَلا أَبْصَارُكُمْ وَلا جُلُودُكُمْ وَلَكِن ظَنَنتُمْ أَنَّ اللَّهَ لا يَعْلَمُ كَثِيرًا مِّمَّا تَعْمَلُونَ (٢٢) وَذَلِكُمْ ظَنُّكُمُ الَّذِي ظَنَنتُم بِرَبِّكُمْ أَرْدَاكُمْ فَأَصْبَحْتُم مِّنَ الْخَاسِرِينَ (٢٣) فَإِن يَصْبِرُوا فَالنَّارُ مَثْوًى لَّهُمْ وَإِن يَسْتَعْتِبُوا فَمَا هُم مِّنَ الْمُعْتَبِينَ (٢٤)﴾ [فصلت].

نفعني الله وإياكم بهدي القرآن العظيم وسنة سيد المرسلين.

الخطبة الثانية

الحمد لله حمداً طيباً كثيراً مباركاً فيه كما يحب ربنا ويرضى، أحمده وأشكره وأتوب إليه وأستغفره، وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له، وأشهد أن محمداً عبده ورسوله، صلى الله وسلم وبارك عليه وعلى آله وأصحابه والتابعين لهم بإحسان إلى يوم الدين ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَآمِنُوا بِرَسُولِهِ يُؤْتِكُمْ كِفْلَيْنِ مِن رَّحْمَتِهِ وَيَجْعَل لَّكُمْ نُورًا تَمْشُونَ بِهِ وَيَغْفِرْ لَكُمْ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ (٢٨)﴾ [الحديد].

أيها الإخوة: إذا اكتملت النعم، وانفتحت الدنيا على العباد وهم مع ذلك يزدادون عصياناً وكفوراً، ثم ظنوا أن الأيام لا تدور، وأن النعم لا تزول فأمنوا واطمأنوا فقد أساؤوا الظن بربهم؛ لأنه تعالى يقول ﴿لَئِن شَكَرْتُمْ لَأَزِيدَنَّكُمْ وَلَئِن كَفَرْتُمْ إِنَّ عَذَابِي لَشَدِيدٌ (٧)﴾ [إبراهيم].

ويسبق الغرورَ بالدنيا الظنُ بأن الله تعالى لا يعاقب على الكفران، وهو ظن سوءٍ به تعالى ﴿حَتَّىٰ إِذَا أَخَذَتِ الْأَرْضُ زُخْرُفَهَا وَازَّيَّنَتْ وَظَنَّ أَهْلُهَا أَنَّهُمْ قَادِرُونَ عَلَيْهَا أَتَاهَا أَمْرُنَا لَيْلًا أَوْ نَهَارًا فَجَعَلْنَاهَا حَصِيدًا كَأَن لَّمْ تَغْنَ بِالْأَمْسِ

كَذَٰلِكَ نُفَصِّلُ الْآيَاتِ لِقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ ﴿٢٤﴾ [يونس: ٢٤].

إن حضارة اليوم أورثت سوء الظن هذا؛ حتى ظن بعض الناس أن الإنسان سيطر على الطبيعة تصرفاً وتدبيراً وتسخيراً. وتعالى أقوام على ربهم حتى حكموا بأن عقل الإنسان وطاقاته وقدراته غير محدودة بحد، ولا مقيدة بشرط؛ فكانت المذاهب الإلحادية المادية التي جعلت الإنسان سيد الطبيعة، ومركز الأرض، وألغت رسالات الأنبياء، ووحي رب العالمين بحجة أن ذلك يعيق العقل ويحبسه، حتى انتشر بين أرباب هذه النظريات: الإلحاد المطلق، والكفر الشامل.

وأما أكثر الناس فأورثهم تعلقهم بالدنيا ومتعها وزخرفها سوء ظن بالله تعالى؛ فيرضى الواحد منهم إذا أعطي، ويسخط إذا منع، ولا يشكر الله على نعمه بل يطلب المزيد والمزيد؛ حتى لا يرضيه شيء.

يقول ابن القيم رحمه الله تعالى: «أكثر الخلق إلا من شاء الله يظنون بالله غير الحق، وظن السوء؛ فإن غالب بني آدم يعتقد أنه مبخوس الحق، ناقص الحظ، وأنه يستحق فوق ما أعطاه الله تعالى. ولسان حاله يقول: ظلمني ربي، ومنعني ما أستحقه. ونفسه تشهد عليه بذلك، وهو بلسانه ينكره، ولا يتجاسر على التصريح به. ومن فتش نفسه، وتغلغل في معرفة دقائقها وطواياها رأى ذلك فيها كامناً كمون النار في الزناد؛ فاقرع زناد من شئت ينبئك شررها عما في زناده. فليعتن اللبيب الناصح لنفسه بهذا الموضع، وليتب إلى الله ويستغفره في كل وقت من ظنه بربه ظن السوء، وليظن السوء بنفسه التي هي مأوى كل سوء، وصنيع

كل شر، المركبة على الجهل والظلم، فهو أولى بظن السوء من أحكم الحاكمين، وأعدل العادلين، وأرحم الراحمين...»(١٢)

فاتقوا الله ربكم، وجاهدوا قلوبكم في مقاومة هذا الداء الخبيث الذي إن لم يذهب بالتوحيد كله أخل به، وأنقص كماله، وشوه جماله، وماذا يبقى للعبد إن ذهب توحيده وإيمانه. ألا وصلوا وسلموا على نبيكم محمد بن عبدالله كما أمركم بذلك ربكم...

* * *

(١٢) تيسير العزيز الحميد (٦٩٦ - ٦٩٧).

٢٠- ظن السوء (٢)
المنافقون وظن السوء

الجمعة ٢٠/ ٢/ ١٤٢٠هـ

الحمد لله، خلق الخلق بقدرته، وأفاض عليهم من نعمته، وابتلاهم بحكمته، أحمده وأشكره، وأتوب إليه وأستغفره.

وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له؛ تفرد بصفات الجلال والكمال، وتنزه عن النظراء والأشباه ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ وَهُوَ السَّمِيعُ الْبَصِيرُ (١١)﴾ [الشورى].

وأشهد أن محمداً عبده ورسوله؛ أكمل الخلق إيماناً، وأعظمهم يقيناً، وأحسنهم بربه ظناً. ساومه المشركون على دينه، وآذوا أصحابه؛ فما زاد إلا استمساكاً بدينه، واستسلاماً لأمر ربه. وتبعه المشركون في هجرته؛ حتى وقفوا على باب غاره، وخاف صاحبه، فكان يقينه بربه أعظم حيث قال: «الله معنا»، صلى الله وسلم وبارك عليه وعلى آله وأصحابه؛ كانوا نعم صحب لأفضل نبي، هجروا ديارهم، وتركوا أهلهم وأموالهم؛ نصرةً لدين الله تعالى، والتابعين ومن تبعهم بإحسان إلى يوم الدين.

أما بعد: فاتقوا الله أيها المؤمنون؛ فإن التقوى نور يضيء الطريق في الظلمات، وسبيل إلى المغفرة وتكفير السيئات ﴿**يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِن تَتَّقُوا اللَّهَ يَجْعَل لَّكُمْ فُرْقَانًا وَيُكَفِّرْ عَنكُمْ سَيِّئَاتِكُمْ وَيَغْفِرْ لَكُمْ وَاللَّهُ ذُو الْفَضْلِ الْعَظِيمِ** (٢٩)﴾ [الأنفال].

أيها المؤمنون: قوة الإيمان واليقين، وصحة المعتقد والتوحيد مع حسن العمل؛ طريق الأمن والسعادة في الدنيا، والفوز والفلاح في الآخرة. من آمن بالله تعالى، وسلم الأمر إليه، وتوكل عليه، وأحسن الظن به مع حسن عمله فلن يزيغ أو يضل؛ بل سيكون من المهديين الفائزين.

ومهما تكالب العدوان على المؤمن، وتحاوشته الفتن، وتناوشته المحن فإن يقينه بربه، وحسن ظنه به عاصم له من كل فتنة، ومخفف عليه كل بلية، ومن هنا كان حسن الظن بالله تعالى من صفات المؤمنين، وسوء الظن به من صفات المنافقين.

إن المؤمنين صدقاً مؤمنون أنهم على الحق، وموقنون بنصر الله تعالى ووعده، وإن المنافقين يتقلبون في الشكوك والأوهام والظنون الفاسدة، ولا تصيح صيحة إلا فزعوا يحسبونها عليهم. قلوبهم مريضة وظنونهم فاسدة ﴿**إِن تَمْسَسْكُمْ حَسَنَةٌ تَسُؤْهُمْ وَإِن تُصِبْكُمْ سَيِّئَةٌ يَفْرَحُوا بِهَا**﴾ [آل عمران: ١٢٠] وهم على هذا النهج الباطل منذ عصر الرسالة وإلى يومنا هذا، وعبر الزمن الطويل. كم غموا بعز للإسلام، وظَفَرٍ للمسلمين؟ وكم فرحوا بدائرة دارت على أهل الحق واليقين.

لما حصل ما حصل في غزوة أحد من هزيمة المسلمين، وكان من المنافقين من انخذل من الجيش فرحوا بذلك أشد الفرح، وظنوا أنه لا قائمة للإسلام بعد ذلك ﴿**وَطَائِفَةٌ قَدْ أَهَمَّتْهُمْ أَنفُسُهُمْ يَظُنُّونَ بِاللَّهِ غَيْرَ الْحَقِّ ظَنَّ الْجَاهِلِيَّةِ يَقُولُونَ هَل لَّنَا مِنَ الْأَمْرِ مِن شَيْءٍ قُلْ إِنَّ الْأَمْرَ كُلَّهُ لِلَّهِ يُخْفُونَ**

في أنفسهم مَّا لا يُبْدُونَ لَكَ يَقُولُونَ لَوْ كَانَ لَنَا مِنَ الأَمْرِ شَيْءٌ مَّا قُتِلْنَا هَا هُنَا قُل لَّوْ كُنتُمْ فِي بُيُوتِكُمْ لَبَرَزَ الَّذِينَ كُتِبَ عَلَيْهِمُ الْقَتْلُ إِلَىٰ مَضَاجِعِهِمْ وَلِيَبْتَلِيَ اللَّهُ مَا فِي صُدُورِكُمْ وَلِيُمَحِّصَ مَا فِي قُلُوبِكُمْ وَاللَّهُ عَلِيمٌ بِذَاتِ الصُّدُورِ (١٥٤)﴾ [آل عمران].

عن ابن جريج قال: «قيل لعبد الله بن أبي: قتل بنو الخزرج؟ قال: وهل لنا من الأمر من شيء»(١).

قال ابن القيم رحمه الله تعالى: «وقد فسر هذا الظن الذي لا يليق بالله سبحانه بأنه لا ينصر رسوله، وأن أمره سيضمحل، وأنه يسلمه للقتل، وفسر بظنهم أن ما أصابهم لم يكن بقضاء الله وقدره ولا حكمة له فيه»(٢).

ثم لما كانت غزوة الخندق عاود المنافقين ظنُهم السيىء وقالوا مقولاتهم المرجفة ﴿إِذْ جَاءُوكُم مِّن فَوْقِكُمْ وَمِنْ أَسْفَلَ مِنكُمْ وَإِذْ زَاغَتِ الأَبْصَارُ وَبَلَغَتِ الْقُلُوبُ الْحَنَاجِرَ وَتَظُنُّونَ بِاللَّهِ الظُّنُونَا (١٠) هُنَالِكَ ابْتُلِيَ الْمُؤْمِنُونَ وَزُلْزِلُوا زِلْزَالاً شَدِيدًا (١١) وَإِذْ يَقُولُ الْمُنَافِقُونَ وَالَّذِينَ فِي قُلُوبِهِم مَّرَضٌ مَّا وَعَدَنَا اللَّهُ وَرَسُولُهُ إِلاَّ غُرُورًا (١٢)﴾ [الأحزاب] قال الحسن رحمه الله تعالى: «ظنون مختلفة.. ظن المنافقون أن محمداً صلى الله عليه وسلم وأصحابه يستأصلون، وأيقن المؤمنون أن ما وعد الله ورسوله حق، وأنه سيظهره

---

(١) انظر: فتح المجيد شرح كتاب التوحيد (٦٨٠).

(٢) زاد المعاد (٣/ ٢٢٨) وانظر: تيسير العزيز الحميد في شرح كتاب التوحيد (٦٨٨).

على الدين كله ولو كره المشركون»[٣].

لقد ظهر في الساعة العصيبة نفاق المنافقين؛ لأن ظنهم السيىء هداهم إلى أن دعوة الإسلام على مشارف الانتهاء والاضمحلال، وأخذوا يشككون في وعد الله ورسوله حتى قال قائلهم: «كان محمد يعدنا أن نأكل كنوز كسرى وقيصر وأحدنا لا يقدر أن يذهب إلى الغائط»[٤].

وخيب الله ظنهم، فحفظ المؤمنين، ورد الكافرين على أعقابهم لم ينالوا خيراً ﴿**وَكَفَى اللَّهُ الْمُؤْمِنِينَ الْقِتَالَ وَكَانَ اللَّهُ قَوِيًّا عَزِيزًا** (٢٥)﴾ [الأحزاب].

ويتواصل الظن السيىء مع المنافقين؛ لأن قلوبهم قد مردت على النفاق، فتكون غزوة الحديبية التي ما خرج فيها مع المؤمنين أحد من المنافقين؛ لأنهم لا يحبون أن يراهم المشركون متلبسين بأعمال المسلمين، مظاهرين لهم، وكانوا يحسبون أن المشركين يدافعون المسلمين عن مكة، وأن النصر سيكون للمشركين.

لقد ظنوا أن الله تعالى لم يَعِدْ رسوله صلى الله عليه وسلم بالفتح، ولا أمره بالخروج إلى العمرة، ومن ثم لن يُنصرَ لقلة أتباعه، وقوة أعدائه[٥] فسجل القرآن عليهم هذا الظن السيىء، وجعل عليهم دائرة السوء ﴿**وَيُعَذِّبَ الْمُنَافِقِينَ وَالْمُنَافِقَاتِ وَالْمُشْرِكِينَ وَالْمُشْرِكَاتِ الظَّانِّينَ بِاللَّهِ**

---

(٣) تفسير ابن كثير (٣/ ٧٥٣) عند تفسير الآية (١٠) من سورة الأحزاب.
(٤) تفسير ابن كثير (٣/ ٧٥٣) عند تفيسر الآية (١٠) من سورة الأحزاب.
(٥) انظر: التحرير والتنوير لابن عاشور (٢٦/ ١٥٣ - ١٥٤).

ظَنَّ السَّوْءِ عَلَيْهِمْ دَائِرَةُ السَّوْءِ وَغَضِبَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ وَلَعَنَهُمْ وَأَعَدَّ لَهُمْ جَهَنَّمَ وَسَاءَتْ مَصِيرًا ﴿٦﴾ ﴾ [الفتح].

وتمادى بهم ظنهم السيىء، وامتلأت به قلوبهم، وزينه لهم شياطينهم؛ حتى اعتقدوا أن رسول الله صلى الله عليه وسلم لن يرجع من الحديبية سالماً، وهذا هو شأن العقول الواهية، والنفوس الهاوية أن لا تأخذ من الصورة التي تتصور بها الحوادث إلا الصورة التي تلوح لها في باديء الرأي (٦) والتي تهواها وتحبها. وما أحقر المنافقين: يعيشون بين المؤمنين، وينعمون بحمايتهم، وتبادل المنافع معهم، وهم يودون لهم الشر والهلاك. تخلفوا عن الحديبية ثم جاؤوا بأعذار كاذبة، وطلبوا من النبي صلى الله عليه وسلم أن يستغفر لهم؛ لكن القرآن كان أسرع في تنزله؛ إذ راحت آياته تفضحهم وتبين مخازيهم ﴿بَلْ ظَنَنتُمْ أَن لَّن يَنقَلِبَ الرَّسُولُ وَالْمُؤْمِنُونَ إِلَىٰ أَهْلِيهِمْ أَبَدًا وَزُيِّنَ ذَٰلِكَ فِي قُلُوبِكُمْ وَظَنَنتُمْ ظَنَّ السَّوْءِ وَكُنتُمْ قَوْمًا بُورًا ﴿١٢﴾ ﴾ [الفتح].

إنهم تخلفوا عن رسول الله صلى الله عليه وسلم، وظنوا أن أهل مكة سيقتلون محمداً وصحبه، ويستأصلون شأفتهم، ويبيدون خضراءهم؛ فلا يرجع منهم مخبر (٧) حتى كانوا يقولون: إن محمداً وأصحابه أكلة رأسٍ لا يرجعون. وذلك كناية عن القلة، أي: يشبعهم رأس بعير من

(٦) التحرير والتنوير (٢٦/ ١٦٤).

(٧) تفسير ابن كثير (٤/ ٢٩٠) عند تفسير الآية (١٢) من سورة الفتح.

قلتهم، فما هم بالنسبة لقريش والأحابيش وكنانة ومن في حلفهم[٨].

هكذا ظنوا وتمنوا ولكن الله تعالى خيب ظنهم، ونكس أمانيهم فعاد رسول الله صلى الله عليه وسلم من الحديبية سالماً مظفراً، وقد فات المنافقين شرف صحبته، وفضل بيعة الرضوان.

أعوذ بالله من الشيطان الرجيم ﴿ سَيَقُولُ لَكَ الْمُخَلَّفُونَ مِنَ الأَعْرَابِ شَغَلَتْنَا أَمْوَالُنَا وَأَهْلُونَا فَاسْتَغْفِرْ لَنَا يَقُولُونَ بِأَلْسِنَتِهِم مَّا لَيْسَ فِي قُلُوبِهِمْ قُلْ فَمَن يَمْلِكُ لَكُم مِّنَ اللَّهِ شَيْئًا إِنْ أَرَادَ بِكُمْ ضَرًّا أَوْ أَرَادَ بِكُمْ نَفْعًا بَلْ كَانَ اللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرًا ﴿١١﴾ بَلْ ظَنَنتُمْ أَن لَّن يَنقَلِبَ الرَّسُولُ وَالْمُؤْمِنُونَ إِلَىٰ أَهْلِيهِمْ أَبَدًا وَزُيِّنَ ذَٰلِكَ فِي قُلُوبِكُمْ وَظَنَنتُمْ ظَنَّ السَّوْءِ وَكُنتُمْ قَوْمًا بُورًا ﴿١٢﴾ وَمَن لَّمْ يُؤْمِن بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ فَإِنَّا أَعْتَدْنَا لِلْكَافِرِينَ سَعِيرًا ﴿١٣﴾ ﴾ [الفتح:]. . بارك الله لي ولكم في القران العظيم. . .

الخطبة الثانية

الحمد لله رب العالمين ، والعاقبة للمتقين، ولا عدوان إلا على الظالمين، وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له ولي الصالحين، وأشهد أن محمداً عبده ورسوله صلى الله وسلم عليه وعلى آله وأصحابه والتابعين لهم بإحسان إلى يوم الدين. .

أما بعد: فإن الظن السيىء بالله سبحانه وتعالى هو نتاج قلب فاسد جاهل بالله تعالى وأسمائه وصفاته، خالٍ من ذكر الله تعالى وتعظيمه.

(٨) التحرير والتنوير (٢٦/ ١٦٤).

وهكذا كان حال المنافقين مع رسول الله صلى الله عليه وسلم. كانوا يتعلقون بأي شيء فيه إضعاف للحق، وإرجاف بين المؤمنين؛ رجاء أن يزول هذا الحق الذي لا يريدونه، وتكررت منهم الظنون السيئة في مواقف كثيرة، سجل القرآن منها ظنونهم في أحدٍ والأحزاب والحديبية، واستمر المنافقون منذ ذلك الوقت إلى اليوم على هذا المنهج الفاسد، تدفعهم إليه قلوبهم المريضة.

ومع بالغ الأسف فإن كثيراً من المسلمين يقعون في الظن الفاسد الذي هو من خصال المنافقين من حيث لا يعلمون، فقد ينظر بعض المسلمين إلى أحوال الأمة الإسلامية، وما أصابها من الضعف والهوان؛ فيصيبه اليأس من صلاح أحوالها؛ فيقعد عن العلم والدعوة، ويتخلف عن الخير والصلاح. يظن ظنـاً سيئاً أنه لا صلاح يرجى، ولا خير ينتظر.

ويبصر البعضُ الآخرُ الكفـارَ وما يملكون من أسلحة متطورة، وصناعة متقدمة، وقوة ضاربة، ويقارن ذلك بأحوال المسلمين الذين يقتلون ويشردون ويمنعون أبسط الحقوق الضرورية للعيش على الأرض؛ فلربما يقدح الشيطان في قلوبهم أن تلك القوة عند الكفار دليل على الحق، وأن ذلك الضعف عند المسلمين دليل على الباطل، فيطلقون لأنفسهم العنان في هذه الأوهام الفاسدة، والظنون السيئة؛ حتى ربما خرجوا من الإسلام وهم لا يشعرون.

ويساعد على ذلك الطَرْقُ الإعلامي الذي يصف الكفار بكل مدحة،

بينما يصف المسلمين بكل نقيصة؛ حتى طفحت كتابات كثير ممن ينتسبون للإسلام بمدائح الكفار، والتشكيك في كونهم يدخلون النار، ويكتب أحدهم مستغرباً أن تدخل هذه المليارات كلها النار وتكون الجنة حكراً على المسلمين، ويتساءل آخر قائلاً: هل يعقل أن تكون النار من نصيب صناع الحضارة ومن أسهموا في رفاهية الإنسان؟ وتكون الجنة للمتخلفين الإرهابيين الأصوليين[٩].

وهذا الطرق والتشكيك يزداد يوماً بعد يوم؛ ليزعزع المسلم في إيمانه، ويشككه في معتقده. وأقل شيء يورثه: سوء الظن بالله تعالى الذي هو بوابة من بوابات الكفر والنفاق.

ولكن المسلم الحق مؤمن بدينه، واثق بربه، مستمسك بعقيدته، داعٍ إلى سبيل ربه. لايهتم لقول المنافقين، ولا يضره تخاذل المتخاذلين. في قلبه من الطمأنينة بدينه، والثقة بربه؛ ما يجعله ثابتاً لا يتزحزح عن إيمانه ولو كفر الناس جميعاً. وهكذا يكون المؤمن حقاً.

فاتقوا الله ربكم، وجانبوا سبيل المنافقين، واحذروا ظن السوء برب العالمين، وأحسنوا الظن به؛ فإنه تعالى عند ظن عبده به، إن ظن العبدُ خيراً وجد خيراً، وإن ظن شراً وجد شراً، وصلوا وسلموا على محمد بن عبدالله كما أمركم بذلك ربكم.

* * *

---

(٩) المقالات التي مؤداها مثل هذه المقولات الكفرية كثيرة، وانظر على سبيل المثال: صحيفة الشرق الأوسط عدد (٥٨٢٤) تاريخ ٤/ ٦/ ١٤١٥هـ.

٢١- التشبه بالكفار وحكم أعيادهم

الجمعة ٢٤/ ٨/ ١٤١٧هـ

الحمد لله، نحمده ونستعينه ونستغفره، ونعوذ بالله من شرور أنفسنا ومن سيئات أعمالنا، من يهده الله فلا مضل له ومن يضلل فلا هادي له، وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له وأشهد أن محمداً عبده ورسوله ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ حَقَّ تُقَاتِهِ وَلا تَمُوتُنَّ إِلاَّ وَأَنتُم مُّسْلِمُونَ (١٠٢)﴾ [آل عمران] ﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ اتَّقُوا رَبَّكُمُ الَّذِي خَلَقَكُم مِّن نَّفْسٍ وَاحِدَةٍ وَخَلَقَ مِنْهَا زَوْجَهَا وَبَثَّ مِنْهُمَا رِجَالاً كَثِيرًا وَنِسَاءً وَاتَّقُوا اللَّهَ الَّذِي تَسَاءَلُونَ بِهِ وَالأَرْحَامَ إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلَيْكُمْ رَقِيبًا (١)﴾ [النساء] ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَقُولُوا قَوْلاً سَدِيدًا (٧٠) يُصْلِحْ لَكُمْ أَعْمَالَكُمْ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ وَمَن يُطِعِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ فَقَدْ فَازَ فَوْزًا عَظِيمًا (٧١)﴾ [الأحزاب].

أيها الإخوة المؤمنون: عندما تضعفُ أمةٌ من الأمم، يكثر تفرقها واختلافها، وتعظم أدواؤها، ويتنوعُ انحرافها حتى يأتي على الأصول من دينها وعقيدتها فيزعزعها، كما يأتي على المتفق عليه من أخلاقها فيغيره بأخلاقٍ ليست لها، فالضعف يقود إلى التقليد. والأمةُ القاهرةُ تتبعها الأمة المقهورة، وأفرادُ المجتمع المغلوب مولعون بتقليد أفراد المجتمع الغالب ومحاكاتهم في شعائرهم وعاداتهم. ذلك أن النفس أبداً تعتقد الكمال فيمن غلبها وانقادت إليه، وتلك سنةٌ كونية تظهر لمن قرأ التاريخ، وتأمل أحوال الشعوب.

وأمةُ الإسلام إذا تخلت عن دينها يجري عليها ما يجري على غيرها، فهي ليست بدعاً من الأمم، ولا اصطفاؤها وتفضيلها لذاتها؛ بل لما تحملُ من النور والهدى، فإذا فقدته كانت كغيرها.

أيها الإخوة: وقَدَرُ الله تعالى على هذه الأمة أنها تحيد عن صراط ربها المستقيم فترات من حياتها، وتسلُك صراط الضالين، ويتبعُ أبناؤها أعداءهم في كل جليل وحقير، وكبير وصغير إلا من رحم الله وقليل ما هم. وهذا القدر الكوني أخبر عنه النبي صلى الله عليه وسلم بقوله: «**لتتبعن سَنَن من قبلكم شبراً بشبر وذراعاً بذراع حتى لو سلكوا جحر ضب لسلكتموه**» قلنا: يا رسول الله، اليهود والنصارى؟ قال النبي صلى الله عليه وسلم: «**فمن؟**» متفق عليه من حديث أبي سعيد الخدري رضي الله عنه[1].

وفي حديث آخر عن أبي واقدٍ الليثي أن رسول الله صلى الله عليه وسلم لما خرج إلى خيبر مرّ بشجرة للمشركين يقال لها: ذاتُ أنواط يعلقون عليها أسلحتهم فقالوا: يا رسول الله، اجعل لنا ذاتَ أنواط كما لهم ذاتُ أنواط، فقال النبي صلى الله عليه وسلم: «**سبحان الله! هذا كما قال قوم موسى: اجعل لنا إلهاً كما لهم آلهة، والذي نفسي بيده لتركبن سُنة من كان قبلكم**» أخرجه أحمد والترمذي وقال: حسن صحيح[2]،

---

(١) أخرجه البخاري في أحاديث الأنبياء باب ماذكر عن بني إسرائيل (٣٤٥٦) ومسلم في العلم باب اتباع سنن اليهود والنصارى (٢٦٦٩) وأحمد (٣/ ٨٤).

(٢) أخرجه أحمد (٥/ ٢١٨) والترمذي في الفتن باب ماجاء لتركبن سنن من كان قبلكم (٢١٨٠) وصححه الألباني في صحيح الترمذي (١٧٧١) وفي المشكاة (٥٣٦٩).

قال ابن مسعود رضي الله عنه: «أنتم أشبه الأمم ببني إسرائيل سمتاً وهدياً تتبعون عملهم حذو القذة بالقذة غير أني لا أدري أتعبدون العجل أم لا؟!»[٣].

وبالرغم من أن ما وقعت فيه الأمة وماستقع فيه من التشبه بالأمم الأخرى إنما هو قدرٌ من أقدار الله وقضائه الذي لايرد، فإن هذا لا يعني أن المسلم يستسلم لهذا القدر؛ بل إنه مطالبٌ بفعل الأسباب الواقية؛ فإن الله تعالى حذرنا من سبيل الكافرين، وأمرنا بالاستمساك بالعروة الوثقى، وبالإصلاح والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، كما أن وقوع فئة من المسلمين أو حتى أكثرهم - لا قدر الله ذلك - في التشبه بالكافرين فإن هذا لا يعني أن الأمة هلكت كلُها[٤]؛ لأن النصوص تثبت أنه: لاتزال طائفة من أمته ظاهرةً على الحق حتى تقوم الساعة[٥]. وقد أخبر النبي صلى الله عليه وسلم: «**أن الله لا يزال يغرس في هذا الدين غرساً يستعملهم في طاعته**»[٦].

قال شيخ الإسلام ابن تيمية: «فعلم بخبره الصدق أنه في أمته

---

(٣) اقتضاء الصراط المستقيم لمخالفة أصحاب الجحيم لابن تيمية (١/ ١١٠).

(٤) مقدمة اقتضاء الصراط المستقيم د. ناصر العقل (١/ ٣٤).

(٥) كما في حديث المغيرة بن شعبة رضي الله عنه عند البخاري في المناقب (٣٦٤٠) ومسلم في الإمارة باب قوله صلى الله عليه وسلم: «لا تزال طائفة...» (١٩٢١) وفيه عن ثوبان وسمرة وجابر ومعاوية رضي الله عنهم.

(٦) أخرجه ابن ماجه في المقدمة باب اتباع سنة رسول الله (١/ ٥) برقم (٨) عن أبي عنبة الخولاني، وأخرجه بنحوه أحمد (٤/ ٢٠٠) وحسنه الألباني في صحيح ابن ماجه (٨٠) وذكره في الصحيحه (٢٤٤٢).

قومٌ مستمسكون بهديه الذي هو دين الإسلام محضاً، وقومٌ منحرفون إلى شعبة من شعب اليهود، أو إلى شعبة من شعب النصارى، وإن كان الرجل لا يكفر بكل انحراف بل وقد لا يفسق أيضاً؛ بل قد يكون الانحراف كفراً، وقد يكون فسقاً، وقد يكون معصية، وقد يكون خطأ. وهذا الانحراف أمر تتقاضاه الطباع ويزينه الشيطان؛ فلذلك أُمر العبد بدوام دعاء الله سبحانه بالهداية إلى الاستقامة التي لا يهودية فيها ولا نصرانية أصلاً»(٧) اهـ.

أيها الإخوة: جاءت شريعة الإسلام بالنهي القاطع عن التشبه بالكافرين في أي شيء: في العبادات والمعاملات، والأخلاق والعادات، واللباس والهيئات. ونصوص الشرع في ذلك أكثر من أن تحصر. فمخالفة المشركين، والبراءةُ منهم أصلٌ من أصول الدين، الإخلالُ به إخلالٌ بالدين؛ لذا كان النبي صلى الله عليه وسلم يقصد مخالفتهم دائماً وأبداً.

لما قدم المدينة مهاجراً ورأى اليهود يصومون عاشوراء، أمر المسلمين بصيام يوم قبله أو بعده مخالفة لهم(٨). بل حتى تحول القبلة من بيت المقدس إلى الكعبة هو مخالفة لهم في قبلتهم ﴿وَمِنْ حَيْثُ خَرَجْتَ

---

(٧) اقتضاء الصراط المستقيم (١/ ٧١).

(٨) أحاديث صيام عاشوراء انظرها في جامع الأصول (٦/ ٣١٣) وحديث صيام يوم قبله أخرجه مسلم في الصيام باب أي يوم يصام في عاشوراء (١١٣٣) وأبو داود في الصيام باب ما روي أن عاشوراء اليوم التاسع (٢٤٤٥) عن ابن عباس رضي الله عنهما، وأحمد ونص فيه على مخالفة اليهود قال: «**وخالفوا فيه اليهود وصوموا قبله يوماً أو بعده يوماً**» انظر: المسند (١/ ٢٤١).

فَوَلِّ وَجْهَكَ شَطْرَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ وَحَيْثُ مَا كُنتُمْ فَوَلُّوا وُجُوهَكُمْ شَطْرَهُ لِئَلاَّ يَكُونَ لِلنَّاسِ عَلَيْكُمْ حُجَّةٌ إِلاَّ الَّذِينَ ظَلَمُوا مِنْهُمْ ﴾ [البقرة: ١٥٠] قال جمع من السلف: «معناه: لئلا يحتج اليهودُ عليكم بالموافقة في القبلة فيقولون: قد وافقونا في قبلتنا فيوشك أن يوافقونا في ديننا، فقطع الله بمخالفتهم في القبلة هذه الحجة»(٩).

ومن الدقائق في هذا المجال: ما استنبطه العلماء من أن صيامَ المسلمين وإفطارهم وأعيادَهم إنما مبناها على رؤية الهلال وذلك مخالف لما عليه الكفار؛ إذ يثبتون ذلك بالحساب(١٠)، وجاءت السنة بتعجيل الفطور وتأخير السحور مخالفة لهم(١١)، وجاء النهي عن الجلوس كما يجلسون، ورد عن ابن عمر رضي الله عنهما أنه رأى رجلاً يتكىء على يده اليسرى وهو قاعد في الصلاة فقال له: «لا تجلس هكذا فإن هكذا

---

(٩) قاله مجاهد وعطاء والضحاك والربيع بن أنس وقتادة والسدي كما ذكره ابن كثير عن ابن أبي حاتم. انظر: تفسير ابن كثير (١/ ٢٩٠) الآية (١٥٠) من سورة البقرة، واقتضاء الصراط المستقيم (١/ ٨٨).

(١٠) ذكر معناه شيخ الإسلام في اقتضاء الصراط المستقيم (١/ ٢٥٥).

(١١) في تأخير السحور حديث أبي عبدالرحمن الصنابحي مرسلاً عند الإمام أحمد في المسند (٤/ ٣٤٩) وابن أبي حاتم في المراسيل (١٢١) وفي تعجيل الفطور مخالفة لهم حديث أبي هريرة عند أبي داود في الصيام باب ما يستحب من تعجيل الفطر (٢٣٥٣) وابن ماجه في الصوم باب ماجاء في تعجيل الإفطار (١٦٩٨) والحاكم وقال: صحيح على شرط مسلم (١/ ٤٣١) وكذلك حديث عمرو بن العاص في مخالفتهم في أكلة السحر «**فصل ما بين صيامنا...**» عند مسلم في الصيام باب فضل السحور (١٠٩٦).

يجلس الذين يعذبون» وفي رواية «تلك صلاةُ المغضوب عليهم» أخرجه أبو داود[١٢].

وجاء الخبر عن رسول الله صلى الله عليه وسلم أن: «**من تشبه بقوم فهو منهم**» أخرجه أبو داود[١٣]، قال شيخ الإسلام: «وهذا الحديثُ أقلُ أحواله أن يقتضي تحريم التشبه بهم وإن كان ظاهره يقتضي كفر المتشبه بهم كما في قوله: ﴿**وَمَن يَتَوَلَّهُم مِّنكُمْ فَإِنَّهُ مِنْهُمْ**﴾ [المائدة: ٥١]»[١٤] اهـ.

ومن اطلع على نصوص النهي عن التشبه بالكافرين اشتد عجبه من كثرتها في الكتاب والسنة، ومن التشديد في ذلك، فلماذا كل هذا؟

إن السبب في ذلك أن موافقتهم في العوائد تقود إلى موافقتهم في الشعائر، والتساهل في عدم مخالفتهم في الصغائر يؤدي إلى متابعتهم في الكبائر؛ حتى ينسلخ المسلمُ من دينه وهو لا يشعر، خاصة مع الإعجاب بهم وبمنجزاتهم وحضارتهم. قال شيخ الإسلام: «إن المشاركة

(١٢) أخرجه أبو داود في الصلاة باب كراهة الاعتماد على اليد في الصلاة (٩٩٣) (٩٩٤) وحسن الألباني الرواية الأولى في صحيح أبي داود وصحح الرواية الثانية (٨٧٦).

(١٣) أخرجه أحمد (٢/ ٥٠) وأبوداود في اللباس باب لبس الشهرة (٤٠٣١) وجوّد إسناده شيخ الإسلام في مجموع الفتاوى (٢٥/ ٣٣١) وفي اقتضاء الصراط المستقيم (١/ ٢٤١) وذكر له الحافظ ابن حجر شاهداً مرسلاً بسند حسن كما في الفتح (٦/ ٩٨) وحسنه السيوطي في الجامع الصغير (٨٥٩٣) وصححه الألباني في صحيح الجامع (٦٠٢٥).

(١٤) اقتضاء الصراط المستقيم (١/ ٢٤١).

في الهدي الظاهر تورث تناسباً وتشاكلاً بين المتشابهين، يقود إلى موافقة ما في الأخلاق والأعمال وهذا أمر محسوس، فإن اللابس لثياب أهل العلم مثلاً يجد في نفسه نوع انضمامٍ إليهم، واللابسُ لثياب الجند المقاتلة يجد في نفسه نوع تخلق بأخلاقهم ويصير طبعه مقتضياً لذلك» اهـ[١٥].

وقال أيضاً: «لو اجتمع رجلان في سفر أو بلد غريب، وكانت بينهما مشابهة في العمامة أو الثياب أو الشعر أو المركوب ونحو ذلك لكان بينهما من الائتلاف أكثر مما بين غيرهما، وكذلك تجد أرباب الصناعات الدنيوية، يألف بعضهم بعضاً، مالا يألفون غيرهم حتى إن ذلك يكون مع المعاداة والمحاربة. . .، فإذا كانت المشابهة في أمور دنيوية تورث المحبة والموالاة فكيف بالمشابهة في أمور دينية؟ فإن إفضاءها إلى نوع من الموالاة أكثرُ وأشد، والمحبة والموالاة لهم تنافي الإيمان»[١٦] اهـ.

أسأل الله تعالى أن يهدينا صراطه المستقيم، وأن يعصمنا من التشبه بالكافرين، وأن يهدي ضال المسلمين إنه سميع مجيب، وأقول قولي هذا وأستغفر الله لي ولكم فاستغفروه إنه هو الغفور الرحيم.

الخطبة الثانية

الحمد لله حمداً طيباً كثيراً مباركاً فيه كما يحب ربنا ويرضى، وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له، وأشهد أن محمداً عبده ورسوله، صلى الله وسلم وبارك عليه وعلى آله وصحبه ومن سار على نهجهم

(١٥) اقتضاء الصراط المستقيم (١/ ٨٠).

(١٦) اقتضاء الصراط المستقيم (١/ ٤٨٩)

واقتفى أثرهم إلى يوم الدين.

أما بعد: فاتقوا الله تعالى واستمسكوا بدينكم ولو كثر المنحرفون، وقوي الضالون، وضعف المتقون، فلا يحق إلا الحق، ولا يبقى إلا الصحيح.

أيها الإخوة المؤمنون: من نعمة الله تعالى على بلادنا عدمُ ظهور الاحتفالات بأعياد الكفار فيها، نحمد الله تعالى أن وقانا، ونسأله أن يحفظنا ما بقينا؛ لكن تلك الأعياد يصلنا خبرها ووقائعها وطقوسها على التفصيل عبر الصحف والفضائيات، وهذا من البلاء الذي فجرته تقنيات هذا العصر.

ويظهر في تلك الاحتفالات شعائر من الكفر والبدعة، ومشاهد من الفسوق والانحلال، وأنواع من الشبهات والشهوات، يشاهدها أولادُ المسلمين وجهالُهم فلربما تأثروا بذلك، ولا سيما أن ما ينقل فيه من الإثارة ومداعبة الغرائز والشهوات ما يحرك إعجابَ ضعاف العقل والدين.

وكان من الأثر القبيح لذلك أن يتبادل بعض المسلمين التهاني بأعياد الكفار على مرأى ومسمع من الناس. ويزداد الأمر قبحاً حينما يشذ بعض المسلمين فيشدون رحالهم إلى ديار الذين كفروا ابتهاجاً بعيدهم؛ حتى ينالوا شيئاً من اللذائذ والشهوات التي تطفح بها أعيادهم.

وكل ذلك خطره على الدين والعقيدة ظاهر، فيه من المنكرات والبدعة مافيه، وقد يصل بصاحبه إلى الكفر والنفاق.

وقد مدح الله تعالى المؤمنين بعدم شهودهم أعياد الكفار التي هي

من الزور ﴿ وَالَّذِينَ لا يَشْهَدُونَ الزُّورَ وَإِذَا مَرُّوا بِاللَّغْوِ مَرُّوا كِرَامًا (٧٢) ﴾ [الفرقان] قال جماعة من المفسرين: «هو أعياد المشركين»[١٧]، وقال عمر بن الخطاب رضي الله عنه: «إياكم ورطانة الأعاجم، وأن تدخلوا على المشركين يوم عيدهم في كنائسهم فإن السخطة تنزل عليهم»[١٨] وقال أيضاً: «اجتنبوا أعداء الله في عيدهم»[١٩]، وقال عبدالله بن عمرو ابن العاص رضي الله عنهما: «من بنى بأرض المشركين، وصنع نيروزهم ومهرجانهم، وتشبه بهم حتى يموت حشر معهم يوم القيامة»[٢٠] وقال أبو الحسن الآمدي: «لا يجوز شهود أعياد النصارى واليهود، نص عليه أحمد في رواية مهنا»[٢١].

والذين يحضرونها من المسلمين، ويتمتعون بما فيها من الشهوات؛ فذلك عاقبته ندامة وخسران، قال شيخ الإسلام: «وأما أعياد المشركين فجمعت الشبهة والشهوة، وهي باطل؛ إذ لامنفعة فيها في الدين، وما فيها من اللذة العاجلة فعاقبتها إلى ألم، فصارت زوراً وحضورها

---

(١٧) ممن قاله: أبو العالية وطاووس وابن سيرين والضحاك والربيع بن أنس وغيرهم، انظر: تفسير ابن كثير (٣/ ٥٢٥).

(١٨) أخرجه عبدالرزاق (١٦٠٨) والبيهقي في الكبرى (٩/ ٢٣٤) وصححه شيخ الإسلام ابن تيمية في اقتضاء الصراط المستقيم (١/ ٤٥٧).

(١٩) أخرجه البيهقي في الكبرى (٩/ ٢٣٤).

(٢٠) أخرجه البيهقي في الكبرى (٩/ ٢٣٤) وصححه ابن تيمية في اقتضاء الصراط المستقيم (١/ ٤٥٧)

(٢١) اقتضاء الصراط المستقيم (١/ ٤٦٠).

وشهودها، وإذا كان الله قد مدح ترك شهودها الذي هو مجرد الحضور برؤية أو سماع فكيف بالموافقة بما يزيد على ذلك من العمل الذي هو عملُ الزور لا مجرد شهوده» (٢٢).

وقال أيضاً: «إن الأعياد من جملة الشرع والمناهج والمناسك التي قال الله سبحانه ﴿لِكُلِّ أُمَّةٍ جَعَلْنَا مَنْسَكًا هُمْ نَاسِكُوهُ﴾ [الحج: ٦٧] كالقبلة والصلاة والصيام فلا فرق بين مشاركتهم في العيد وبين مشاركتهم في سائر المناهج. فإن الموافقة في جميع العيد موافقةٌ في الكفر، والموافقة في بعض فروعه موافقة في بعض شعب الكفر؛ بل الأعياد هي من أخص ما تتميز به الشرائع ومِنْ أظهرِ مالها من الشعائر، فالموافقة فيها موافقة في أخص شرائع الكفر وأظهرِ شعائره. ولاريب أن الموافقة في هذا قد تنتهي إلى الكفر في الجملة بشروطه» (٢٣) اهـ.

بل إن مجرد الركوب مع الكفار الذين يذهبون لحضور أعيادهم يخشى على صاحبه أن يمسه العذاب معهم. سئل ابن القاسم المالكي عن الركوب في السفنِ التي تركب فيها النصارى إلى أعيادهم فكره ذلك مخافة نزول السخطة عليهم بشركهم الذي اجتمعوا عليه (٢٤).

إذا تقرر هذا ـ أيها الإخوة ـ فإن التهنئة بأعياد الكفار لا تجوز سواءٌ هنأ به المسلمين أم هنأ به الكفار. قال العلامة ابن القيم رحمه الله تعالى:

---

(٢٢) اقتضاء الصراط المستقيم (١/ ٤٣٠).

(٢٣) اقتضاء الصراط المستقيم (١/ ٤٧٠).

(٢٤) اقتضاء الصراط المستقيم (٢/ ٥٢٦).

«وأما التهنئة بشعائر الكفر المختصة به فحرام بالاتفاق مثـل أن يهنئهم بأعيادهم وصومهم فيقول: عيد مبارك عليك، أو تهنأ بهذا العيد ونحوه، فهذا إن سلم قائله من الكفر فهو من المحرمات وهو بمنزلة أن تهنئـه بسجوده للصليب، بل ذلك أعظم إثماً عند الله، وأشد مقتاً من التهنئة بشرب الخمر وقتل النفس وارتكاب الفرج المحرم ونحوه، وكثير ممن لا قدر للدين عنده يقع في ذلك ولا يدري قبح ما فعل، فمن هنأ عبداً بمعصية أو بدعة أو كفر فقد تعرض لمقت الله وسخطه» اهـ(٢٥).

فالمسألة خطيرة ولو وقع فيها الكثير من المسلمين، ولا يقلل خطورتها كثرة الواقعين فيها. وهذا من البلاء الذي ابتلي به المسلمون في زمن الانحطاط والتبعية والتقليد الأعمى الذي يقود إلى دار السعير.

نسأل الله تعالى أن يحفظنا من البدعة والشرك، وأن يعصمنا من الكفر والضلال، وأن يحسن عواقبنا في الأمور كلها، وأن يجيرنا من خزي الدنيا وعذاب الآخرة، ثم صلوا وسلموا على محمد بن عبدالله كما أمركم بذلك ربكم.

* * *

---

(٢٥) أحكام أهل الذمة (١/ ٤٤١-٤٤٢).

٢٢- عيد الألفية الثالثة

٢٥/٨/١٤٢٠هـ

الحمد لله؛ هدانا للإسلام، وعلمنا القرآن، وشرع لنا صيام رمضان، وجعلنا من خير أمة أخرجت للناس. أحمده وأشكره، وأتوب إليه وأستغفره.

وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له؛ لا يحدث شيء إلا بعلمه، ولا يكون إلا بأمره، ولا يخرج شيء عن إرادته، إن أراد الضر بعباده حاق بهم، وإن أراد لهم النفع نالهم ﴿**وَإِن يَمْسَسْكَ اللَّهُ بِضُرٍّ فَلَا كَاشِفَ لَهُ إِلَّا هُوَ وَإِن يَمْسَسْكَ بِخَيْرٍ فَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ (١٧) وَهُوَ الْقَاهِرُ فَوْقَ عِبَادِهِ وَهُوَ الْحَكِيمُ الْخَبِيرُ**﴾ [الأنعام: ١٧-١٨].

وأشهد أن محمداً عبده ورسوله؛ ختم الله تعالى به النبوات، فلا نبي بعده، وكتب الله سبحانه بقاء شريعته إلى يوم القيامة، فلا تزال طائفة من أمته على الحق ظاهرين، لا يضرهم من خذلهم ولا من خالفهم حتى يأتي أمر الله تعالى وهم على ذلك، صلى الله وسلم وبارك عليه وعلى آله وأصحابه؛ خير صحب وآل، والتابعين لهم بإحسان إلى يوم الدين.

أما بعد: فأوصيكم - أيها الناس - ونفسي بتقوى الله عز وجل؛ فإن الأيام في تقارب، والأحداث في تسارع، وما تكاد سنة تبتدىء إلا وتنتهي، وكل ذلك مؤذنٌ بنهاية الدنيا واقتراب الآخرة، فاعملوا لها عملها. وإن أمامكم شهر التقوى؛ فيه تفتح أبواب الجنة، وتغلق أبواب

النار، وتسلسل الشياطين، فهو فرصة لتجديد التوبة، ولزوم التقوى ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا كُتِبَ عَلَيْكُمُ الصِّيَامُ كَمَا كُتِبَ عَلَى الَّذِينَ مِن قَبْلِكُمْ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ ﴾ [البقرة: ١٨٣].

أيها المؤمنون: سوف تشهدُ عشر رمضان المبارك هذا العام نهاية القرن الميلادي، الذي بنهايته تنتهي الألفية الميلادية الثانية لميلاد المسيح ابن مريم عليه الصلاة والسلام، كما هو مثبت في تواريخ النصارى، وتنتهي الألفية اليهودية الثالثة لبناء مدينة القدس، وتأسيس مملكة إسرائيل الأولى.

ولذا فإن أهل الكتاب - اليهود والنصاري - يستعدون لنهاية هذا القرن الميلادي، وسوف يحتلفون بأعياده احتفالاً عظيماً يفوق احتفالاتهم بأعيادهم كل عام.

وإذا كانت الأرضُ تعجُ باحتفالات النصارى في كل رأس سنة ميلادية فكيف سيكون احتفالهم بنهاية القرن العشرين، ونهاية الألفية الميلادية الثانية؟!

إنه حدث ضخم تستعد له الأمم النصرانية بما يناسب حجمه وضخامته عندهم، وبوادرُ ذلك ظاهرةٌ فيما خصص لهذا الحدث من ميزانيات طائلة، وعروضٍ سياحية ضخمة، وتهيئةٍ إعلامية كبيرة، حتى إن كثيراً من التجارات والصناعات صارت مرتبطة بهذا العيد النصراني، فشركات عملاقة علقت افتتاحها على أول يوم من عام ألفين، وصناعات عدة سُميت باسمه.

ومع بالغ الأسف فإن الزخم الإعلامي لهذا الحدث العظيم عند أهل الكتاب قد أزال عند كثير من المسلمين حساسية المشاركة في أعيادهم التي هي من جملة شعائرهم وشرائعهم ومناهجهم، حتى صار كثير من المسلمين يتشوقون لاحتفالات الألفية أكثر من شوقهم لرمضان وصيامه وقيامه!! وأضحى من الملحوظ أن أسواقاً تجارية يملكها مسلمون علقت عروضاً مغرية من تخفيضات وجوائز ومسابقات؛ احتفاءً بهذه الألفية اليهودية النصرانية، ووعدت أكثر محطات التلفزة العربية بتغطية احتفالاتها، فما شأننا وشأنُ هذه الاحتفالات الكفرية!! إنها عيدُهم وليست عيداً لنا، فلماذا يريد كثير من المسلمين اتباع الكفار في أعيادهم التي هي من كفرهم؟!

إن هذه الألفية الميلادية وما يجري فيها من احتفالات ومراسم هي من صميم دين عبّاد الصليب، فالمشاركةُ في احتفالاتها مشاركة في شعيرةٍ من شعائر دينهم، والفرحُ بها فرحٌ بشعائر الكفر وظهوره وعلوه، وذلك مناقض لعقيدة المسلم المبنيةِ على كراهةِ الكفر وشعائره، والبراءةِ منه ومن أهله.

إن علماء الإسلام متفقون على تحريم حضور أعياد الكفار والتشبه بهم فيها(١)، وأقوال الصحابة متظافرة على ذلك، قال عمر رضي الله

---

(١) انظر: اقتضاء الصراط المستقيم (٢/ ٥٣٤) وأحكام أهل الذمة لابن القيم (٢/ ٧٢٢-٧٢٥) وقد نقل شيخ الإسلام إجماع الصحابة والتابعين على ذلك في الاقتضاء (١/ ٤٥٤).

عنه: «لا تعلموا رطانة الأعاجم ولا تدخلوا على المشركين في كنائسهم يوم عيدهم، فإن السخطة تنزل عليهم»(٢). وقال عبدالله بن عمرو رضي الله عنهما: «من بنى ببلاد الأعاجم وصنع نيروزهم ومهرجانهم وتشبه بهم حتى يموت وهو كذلك حُشر معهم يوم القيامة»(٣). قال شيخ الإسلام: «وهذا يقتضي أنه جعله كافراً بمشاركتهم في مجموعِ هذه الأمور أو جَعَل ذلك من الكبائر الموجبة للنار وإن كان الأول ظاهر لفظه»(٤).

وقال أيضاً: «لا يحل للمسلمين أن يتشبهوا بهم في شيء مما يختص بأعيادهم لا من طعام ولا لباس ولا اغتسال ولا إيقاد نيران ولا تبطيل عادة من معيشةٍ أو عبادةٍ أو غير ذلك، ولا يحلُ فعلُ وليمةٍ ولا الإهداءُ ولا البيعُ بما يستعان به على ذلك لأجل ذلك، ولا تمكينُ الصبيان ونحوهم من اللعب الذي في الأعياد ولا إظهارُ الزينة، وبالجملة: ليس لهم أن يخصوا أعيادهم بشيء من شعائرهم بل يكون يومُ عيدهم عند المسلمين كسائر الأيام» اهـ(٥).

وبناءً على ذلك فإنه يجبُ على المسلم أن تكون أيام هذه الاحتفالات

(٢) أخرجه عبدالرزاق في مصنفه (١٦٠٩) والبيهقي في السنن الكبرى (٩/ ٢٣٤).
(٣) أخرجه البيهقي في السنن الكبرى (٩/ ٢٣٤) وصححه ابن تيمية في الاقتضاء (١/ ٤٥٧).
(٤) اقتضاء الصراط المستقيم (١/ ٤٥٩).
(٥) مجموع فتاوى شيخ الإسلام ابن تيمية (٢٥/ ٣٢٩).

بالألفية كسائر الأيام لا يخصها باحتفالٍ ولا زينة، ولا تعلق التجارات عليها، ويحرم على التجار أن يربطوا تخفيضات السلع بها، أو يعلقوا افتتاح محلاتهم عليها؛ لأن فعل ذلك فيه نوع مشاركة في هذه الأعياد النصرانية، وللمسلمين ما يخصهم من الأعياد، وليسوا محتاجين إلى أن يتسولوا أعياد الآخرين، ويشاركوهم فيها.

قال الحافظ الذهبي رحمه الله تعالى: «فإذا كان للنصارى عيدٌ ولليهود عيدٌ كانوا مختصين به فلا يشركهم فيها مسلم، كما لا يشاركهم في شرعتهم ولا قبلتهم»(٦).

بل حتى الركوب في المراكب التي يركبها الكفار لحضور أعيادهم ينهى المسلم عن ركوبها فقد قال مالك رحمه الله تعالى: «يكره الركوب معهم في السفن التي يركبونها لأجل أعيادهم لنزول السخطة واللعنة عليهم»(٧). فإذا كان ينهى عن ذلك فكيف إذاً بمشاركتهم أو التشبه بهم فيها؟! لاشك أن ذلك أكثر خطراً وضرراً. وقد أفتى كبارُ العلماء في هذه البلاد المباركة بحرمة مشاركة أهل الكتاب في الاحتفال بألفيتهم، أو تهنئتهم بها، أو الإهداء لهم بمناسبتها، أو إشهارها وإعلانها، أو الدعوة إليها بأي وسيلة سواء كانت الدعوة إليها عن طريق وسائل الإعلام، أو نصبِ الساعاتِ، واللوحاتِ الرقمية، أو صناعة الملابس

(٦) تشبه الخسيس بأهل الخميس ضمن مجلة الحكمة عدد (٤) ص (١٣٩).
(٧) اللمع في الحوادث والبدع لابن التركماني (١/ ٢٩٤)ونقل نحوه شيخ الإسلام عن ابن القاسم المالكي كما في الاقتضاء (٢/ ٥٢٦).

والأغراض التذكارية، أو طبع البطاقات أو الكراساتِ المدرسية، أو عمل التخفيضات التجارية والجوائز المادية من أجلها، أو الأنشطة الرياضية، أو نشر شعار خاص بها(٨).

كل ذلك وغيره مما يرتبط بهذه الألفية لا يجوز لمسلمٍ أن يكون له فيه مشاركة؛ سلامة لدينه، ومخالفة لأهل الكفر في كفرهم.

أعوذ بالله من الشيطان الرجيم ﴿**وَلا تَتَّبِعْ أَهْوَاءَهُمْ عَمَّا جَاءَكَ مِنَ الْحَقِّ لِكُلٍّ جَعَلْنَا مِنكُمْ شِرْعَةً وَمِنْهَاجًا وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ لَجَعَلَكُمْ أُمَّةً وَاحِدَةً وَلَكِن لِّيَبْلُوَكُمْ فِي مَا آتَاكُمْ فَاسْتَبِقُوا الْخَيْرَاتِ إِلَى اللَّهِ مَرْجِعُكُمْ جَمِيعًا فَيُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمْ فِيهِ تَخْتَلِفُونَ**﴾ [المائدة: ٤٨].

بارك الله لي ولكم في القرآن العظيم.

الخطبة الثانية

الحمد لله حمداً طيباً كثيراً مباركاً فيه كما يحب ربنا ويرضى، أحمده وأشكره، وأتوب إليه وأستغفره، وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له، وأشهد أن محمداً عبده ورسوله صلى الله وسلم وبارك عليه وعلى آله وأصحابه ومن اهتدى بهداهم إلى يوم الدين.

أما بعد: فاتقوا الله تعالى - أيها المسلمون - واستمسكوا بدينكم؛ فإن أعظمَ نعمة أنعم الله سبحانه بها على المسلمين أن هداهم للإسلام وقد ضل عنه جموع من البشر لا يعلم عددهم إلا الله تعالى.

---

(٨) جاء ذلك في فتوى اللجنة الدائمة للبحوث العلمية والإفتاء بمناسبة هذه الألفية.

أيها المؤمنون: إنها لمفارقة عجيبة، ومقارنة بعيدة بين حال أهل الإسلام المستمسكين بدينهم وبين حال المغضوب عليهم والضالين، ومن تبعهم في إفكهم وضلالهم.

إن النصارى وهم ينتظرون العيد الألفي قد أنفق كثير منهم أموالاً طائلة من أجل حجز موقعه في بيت لحم في فلسطين المحتلة، حيث بلد عيسى عليه السلام، وسيتجشمون صعوباتٍ بالغة، وسفراً بعيداً من أجل الوصول إليها من جميع أنحاء الغرب النصراني؛ لإحياء قُداس ليلة العيد الألفي فيها، ويظنون أنهم بذلك يتقربون إلى الله تعالى، وينالون رضاه، وهم في الكفر يرتكسون، وفي الضلال يرتمسون، وأموالهم ينفقونها ثم تكون عليهم حسرة يوم القيامة. وهم مع ذلك يحسبون أنهم على صواب وهم مخطئون ضالون عن طريق الحق والهداية ﴿**ضَلَّ سَعْيُهُمْ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَهُمْ يَحْسَبُونَ أَنَّهُمْ يُحْسِنُونَ صُنْعًا**﴾ [الكهف: ١٠٤].

وبينما أهل الكتاب يقيمون شعائر الكفر، ظانين قُربَهم من الله تعالى وهم عن رضاه بُعداء؛ فإن أهل الإسلام المستمسكين بدينهم في مساجدهم يصلون ويقنتون، ويركعون لله عز وجل ويسجدون، ويسألون الله تعالى من فضله، ويعوذون به من غضبه، وذلك في قيام العشر الأخيرة من رمضان؛ فيرضى ربُهم صنيعهم، ويباهي بهم ملائكته، ويغفر لمن قَبِلَهُ منهم.

الله أكبر، عمل قليل يعملُه المسلمون فيُرضي الله عز وجل؛ لأنه

كان موافقاً لما يحبه الله تعالى ويرضاه، وأما أهل الكتاب فيعملون عملاً كثيراً، ويقطعون سفراً بعيداً، ويبذلون أموالاً طائلة، فلا يقبل منهم؛ لأن أعمالهم وافقت ما يحبه الشيطان ويرضاه من الكفر والعصيان، فاشكروا الله عز وجل على نعمة الإسلام؛ فإنها والله أعظم نعمه، وأكبر منة من ذي الجلال والإكرام.

ألا وإن من أبين علاماتِ الشكر: الاستمساك بالإسلام، والدعوة إليه، والحذر مما يخلُّ به، ولا يغرنكم بُهرجُ الذين كفروا ولو غطى الأرض كلها، فلا يحقُ إلا الحق، ولا يبقى إلا الصحيح، ويوم الحساب سيجد كل عبدٍ ما عمل ﴿**لا يَغُرَّنَّكَ تَقَلُّبُ الَّذِينَ كَفَرُوا فِي الْبِلادِ (١٩٦) مَتَاعٌ قَلِيلٌ ثُمَّ مَأْوَاهُمْ جَهَنَّمُ وَبِئْسَ الْمِهَادُ (١٩٧) لَكِنِ الَّذِينَ اتَّقَوْا رَبَّهُمْ لَهُمْ جَنَّاتٌ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا نُزُلاً مِّنْ عِندِ اللَّهِ وَمَا عِندَ اللَّهِ خَيْرٌ لِّلأَبْرَارِ**﴾ [آل عمران: ١٩٦-١٩٨] ﴿**وَسَيَعْلَمُ الَّذِينَ ظَلَمُوا أَيَّ مُنقَلَبٍ يَنقَلِبُونَ**﴾ [الشعراء: ٢٢٧] ﴿**إِنَّ الدِّينَ عِندَ اللَّهِ الإِسْلامُ**﴾ [آل عمران: ١٩] ﴿**وَمَن يَبْتَغِ غَيْرَ الإِسْلامِ دِينًا فَلَن يُقْبَلَ مِنْهُ وَهُوَ فِي الآخِرَةِ مِنَ الْخَاسِرِينَ**﴾ [آل عمران: ٨٥].

ألا وصلوا وسلموا على خير خلق الله تعالى كما أمركم بذلك ربكم.

٢٣- من صفات المنافقين (١)

١٥/ ١/ ١٤٢٣هـ

الحمد لله، نحمده ونستعينه ونستغفره، ونعوذ بالله من شرور أنفسنا، ومن سيئات أعمالنا، من يهده الله فلا مضلَّ له، ومن يضلل فلا هادي له، وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له، وأشهد أن محمداً عبده ورسوله..

﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ حَقَّ تُقَاتِهِ وَلَا تَمُوتُنَّ إِلَّا وَأَنتُم مُّسْلِمُونَ ﴾ [آل عمران: ١٠٢]، ﴿ يَا أَيُّهَا النَّاسُ اتَّقُوا رَبَّكُمُ الَّذِي خَلَقَكُم مِّن نَّفْسٍ وَاحِدَةٍ وَخَلَقَ مِنْهَا زَوْجَهَا وَبَثَّ مِنْهُمَا رِجَالًا كَثِيرًا وَنِسَاءً وَاتَّقُوا اللَّهَ الَّذِي تَسَاءَلُونَ بِهِ وَالْأَرْحَامَ إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلَيْكُمْ رَقِيبًا ﴾ [النساء: ١]، ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَقُولُوا قَوْلًا سَدِيدًا (٧٠) يُصْلِحْ لَكُمْ أَعْمَالَكُمْ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ وَمَن يُطِعِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ فَقَدْ فَازَ فَوْزًا عَظِيمًا ﴾ [الأحزاب: ٧٠, ٧١].

أما بعد: فإن أصدق الحديث كلام الله تعالى، وخير الهدي هدي محمد صلى الله عليه وسلم، وشر الأمور محدثاتها، وكل محدثة بدعة، وكل بدعة ضلالة، وكل ضلالة في النار.

أيها المسلمون: أراد الله سبحانه وتعالى بالبشرية خيراً حينما بعث محمداً صلى الله عليه وسلم إلى الناس كافة بالدين الحق الذي ارتضاه لعباده، وجاءت شريعته موضحة ما يحتاج إلى إيضاح في عبادة ربهم، فلم يتركهم خالقهم يتعبدونه بمحض عقولهم القاصرة، أو أهوائهم الضالة، ولم يسلمهم لبشر ضعاف مثلهم يشرعون لهم ما يريدون،

ويمنعونهم مما لا يريدون. فمن رحمة أرحم الراحمين بعباده أنه تولى هذه القضية بذاته المقدسة؛ فشرع لعباده ما يقربهم إليه، وارتضى لهم من الأحكام ما به سعادتهم في الدنيا والآخرة، فلا خير إلا هدتنا شريعة الله تعالى إليه، ولا شرَّ إلا حذرتنا منه، وكمُل الدين على ذلك، وختمت النبوات به، فلا نبي بعد محمد صلى الله عليه وسلم، ولاشريعة توصل إلى رضوان الله تعالى إلا شريعته. من تمسك بها نجا، ومن حاد عنها فإنه يضرُّ نفسه ولا يضرّ اللهَ شيئاً.

ومقتضى حكمة العليم الحكيم سبحانه وتعالى في ابتلاء عباده المؤمنين أن جعل على طريق الخير أناساً يصدون الناس عنها، ويدعونهم إلى غيرها، كما جعل على طريق الشر دعاة إليها، يرغبون الناس فيها، فمن أطاعهم قذفوه في النار، ومن عصاهم كان من أهل الجنة.

والجماعة التي تصد عن الخير، وتدعو إلى الشر، منها طائفة بينةٌ واضحةٌ، تعلن محادتَها لله تعالى، ولشريعته، وتصرح بدعوتها دون تلون ولا التواء، وهي الطائفة الأكثر من ضُلال البشر، وهي الأقوى شوكة، والأمضى عزيمة في معسكر الكفر والضلال.

والطائفة الأخرى طائفة هي أقلّ منها عدداً، وأضعف قوة، ولكنها أشد فتكاً وخطراً من الأولى، رغم قلتها وضعفها؛ لأنها خفية لا تبين، ومستترة لا تظهر.

إنها طائفة المنافقين التي انتدبت نفسها لمهمة خسيسة حقيرة، تجمعُ الرذائل كلَّها من الكفر والجبنِ والكذبِ والغشِ والخداعِ والفسادِ والإفساد.

طائفة تعيش في صفوف المؤمنين، وتأكلُ من زادهم، وتنعم بحمايتهم، وتتبادل المصالح معهم؛ ولكن قلوب أصحابها مع الكافرين، وإخلاصهم لهم، وعملهم من أجلهم.

ولخطورة هذه الطائفة على المسلمين؛ فإن القرآن بادر على الفور إلى التحذير منها أشد من تحذيره من الكافرين؛ وذلك لئلا يغتر المؤمنون بظاهر أمرهم، فيقع بذلك فساد عريض من عدم الاحتراز منهم، ومن اعتقاد إيمانهم وهم كفار[١].

والنفاق في تاريخ المسلمين ابتدأ بعد غزوة بدر، وسيبقى ما بقي صراع بين حق وباطل.

ولو نظرنا إلى القرآن لوجدنا أن الآيات المكية لا ذكر للنفاق فيها؛ لأن المشركين ما كانوا يسترون كفرهم، فلما هاجر النبي صلى الله عليه وسلم إلى المدينة، لم يكن هناك نفاق في أول الأمر؛ بل كفر ظاهر أو إيمان باطن وظاهر؛ لأنه لم يكن للمسلمين شوكة تخاف، أو قوةٌ تهاب، فلما عزَّ الإسلام، وقويت شوكة المسلمين بعد بدر الكبرى قال عبد الله بن أبي بن سلول وكان على الكفر آنذاك: «هذا أمر قد توجه» فأظهر الدخول في الإسلام ودخل معه في النفاق طوائف من عرب المدينة وأعرابها المجاورين لها، ومن اليهود، فأظهروا الإسلام وأبطنوا الكفر[٢].

وصُدِّرت أطول سورة مدنية بذكر صفاتهم، والتحذير من خطرهم

---

(١) انظر: تفسير ابن كثير (١/ ٧٤).

(٢) المصدر السابق (١/ ٧٤).

بعد ذكر المؤمنين وذكر الكافرين. إنها سورة البقرة، بدأها الله تعالى بذكر المؤمنين في أربع آيات، ثم ثنى بذكر الكفار في آيتين، ثم ثلث بذكر المنافقين في ثلاث عشرة آية، وهذا دليل على أن الاهتمام بدفع شرهم أشدُّ من الاهتمام بدفع شر الكفار، كما يدل على أنهم أعظم جرماً وأشدُّ خطراً من الكفار(٣).

إنها طائفةٌ يصعب التعامل معها؛ لأنها تظهر الخير للمسلمين، وتضمرُ الشر لهم، فيشتبه أمرها على كثير من الناس، وينخدع بأفرادها جمهور المسلمين إلا من وفقه الله تعالى لمعرفة حقيقتها.

إن المنافقين يتسللون إلى قلوب الغافلين بإظهار النصح للأمة، والتباكي على ما قد يلحقها من أذى ومصيبة، وتدبيج ذلك بلحن القول، وجميل العبارة، وادِّعاء الخبرة بالأمور، ومعرفة الأحوال، ومن قرأ ما تكتبه أقلامهم، وسمع ما تنطق به ألسنتهم، وهو من أهل الإيمان والفراسة أيقن أن الشيطان يجري في مداد أقلامهم، ويسري في جنبات أفواههم، وقد أطبق بكليته على قلوبهم.

وقد حذر النبي صلى الله عليه وسلم من منافق عليم اللسان(٤)،

---

(٣) التفسير الكبير للرازي (٢/ ٥٥).

(٤) وذلك في قوله عليه الصلاة والسلام: «**أخوف ما أخاف عليكم جدال المنافق عليم اللسان**»، وفي لفظ: «**إن أخوف ما أخاف على أمتي كل منافق عليم اللسان**». أخرجه من حديث عمر رضي الله عنه، أحمد (١/ ٢٢)، والبزار (١٦٨ ـ ١٦٩)، وعزاه الهيثمي في الزوائد إلى أبي يعلى وقال: ورجاله موثوقون (١/ ١٨٧)، وصححه الألباني في الصحيحة (١٠١٣)، ومن حديث عمران ابن حصين رضي الله عنه أخرجه البزار (١٧٠)، والطبراني في الكبير (١٨/ ٢٣٧)، =

وأخبر الله تعالى عن المنافقين بأنهم إذا رأيتهم أعجبتك أجسامهم، وإذا قالوا استمعت لأقوالهم.

ووالله إن هذا الوصف لينطبق تمام الانطباق على كثير من أهل السوء والشر، الداعين إلى الكفر والفجور، الناشرين للرذيلة والفاحشة، من كتاب الصحف، وضيوف الفضائيات.

تراهم فتعجبك أجسامهم، وإذا تكلموا شدك كلامهم، وجذبك أسلوبهم، وسمعت زفراتهم وآهاتهم على واقع الأمة، وليست زفرات على ضعفها وذلها وتأخرها، وإنما هو تباك على بقاء ثلة من أفرادها على دينهم، وظهور شيء من أحكام الشريعة معروفاً فيما بينهم. إنهم يريدون من الأمة أن تنبذ الإسلام وراءها ظهرياً، وأن تكون ذيلاً لأمة المغضوب عليهم والضالين، ولن يهدأ لهم قرار، ولن تلين لهم عزيمة حتى يدفنوا إسلامنا الذي عرفناه، وتلقيناه جيلاً بعد جيل حتى وصل إلينا نقياً محفوظاً؛ ليستبدلوه بإسلام آخر صُنع في معامل أسيادهم رؤوس الكفر والضلال.

يقضي هذا الإسلام الجديد على كل مظاهر القوة والعزة التي تميزت بها شخصية المسلم؛ ليحوله إلى حقير ذليل تابع مقلد لغيره، لا هم له إلا إشباعُ شهواته، واللهاث وراء نزواته.

لقد كانوا طيلة عقود مضت يلحون وبإصرار على فصل الدين

= برقم: (٥٩٣)، وقال الهيثمي: ورجاله رجال الصحيح (١/ ١٨٧)، وصححه ابن حبان (٨٠)، وعزاه الألباني في صحيح الجامع للبيهقي وصححه (١٥٥٦).

عن السياسة، وتم فصل الدين عن السياسة فصلاً كاملاً منذ نصف قرن أو أكثر، وصار المبدأ السياسي في العالم مؤسساً على النفاق الأكبر، أليسوا يقولون في عالم السياسة: لا صداقة دائمة، ولا عداوة دائمة، وإنما هي مصالح مشتركة، تبنى مع القوي مهما كان مذهبه ودينه، وهكذا كان حال المنافقين قبل ظهور السياسات المعاصرة.. منذ أن ظهروا في الإسلام وإلى يومنا هذا، فإن رأوا في المسلمين قوة استتروا بالإسلام، وانقلبوا إلى وعاظ، وإن رأوا في المسلمين ضعفاً انقلبوا عليهم، وانتقدوا شريعتهم، واستمعوا رحمكم الله تعالى إلى قول الله تعالى فيهم، فإنه منطبق عليهم في هذا العصر، يقول سبحانه: ﴿**الذينَ يَتَرَبَّصُونَ بِكُمْ فَإِن كَانَ لَكُمْ فَتْحٌ مِّنَ اللَّهِ قَالُوا أَلَمْ نَكُن مَّعَكُمْ وَإِن كَانَ لِلْكَافِرِينَ نَصِيبٌ قَالُوا أَلَمْ نَسْتَحْوِذْ عَلَيْكُمْ وَنَمْنَعْكُم مِّنَ الْمُؤْمِنِينَ**﴾ [النساء: ١٤١]، وفي آية أخرى يقول سبحانه: ﴿**وَإِنَّ مِنكُمْ لَمَن لَّيُبَطِّئَنَّ فَإِنْ أَصَابَتْكُم مُّصِيبَةٌ قَالَ قَدْ أَنْعَمَ اللَّهُ عَلَيَّ إِذْ لَمْ أَكُن مَّعَهُمْ شَهِيدًا (٧٢) وَلَئِنْ أَصَابَكُمْ فَضْلٌ مِّنَ اللَّهِ لَيَقُولَنَّ كَأَن لَّمْ تَكُن بَيْنَكُمْ وَبَيْنَهُ مَوَدَّةٌ يَا لَيْتَنِي كُنتُ مَعَهُمْ فَأَفُوزَ فَوْزًا عَظِيمًا**﴾ [النساء: ٧٢، ٧٣]، إنهم مع القوي، ومع المصلحة الآنية، كما تقول السياسة المعاصرة.

ولما كان المسلمون ضعفاء في هذا العصر صار المنافقون يتكلمون بلسان العدو؛ بل إنهم يسابقون العدو فيما يريد، حسبهم الله ولعنهم، وكفى المسلمين شرورهم، أعاذنا الله من النفاق والمنافقين، اللهم إنا ندرأ بك في نحورهم، ونعوذ بك من شرورهم، اللهم افضحهم على رؤوس الأشهاد، اللهم اكشف أمرهم، واهتك سترهم، وأحبط كيدهم،

وأرهم ما يسوؤهم من عـزِّ الإسلام والمسلمين، إنك على كل شيء قدير، وبالإجابة جدير، وأقول قولي هذا وأستغفر الله لي ولكم. . .

الخطبة الثانية

الحمد لله، حمداً طيباً كثيراً مباركاً فيه كما يحب ربنا ويرضى، أحمده وأشكره، وأتوب إليه وأستغفره، وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له، وأشهد أن محمداً عبده ورسوله، صلى الله وسلم وبارك عليه وعلى آله وأصحابه وأتباعه، ومن سار على نهجهم واقتفى أثرهم إلى يوم الدين.

أما بعد: فاتقوا الله - عباد الله - واحذروا النفاق، واستعيذوا بالله من شره، فإن من أمن النفاق أوشك أن يقع فيه، ولقد كان كبار الصحابة رضي الله عنهم يخافونه على أنفسهم، فعمر رضي الله عنه يعزم على حذيفة بن اليمان رضي الله عنهما أن يخبره: هل سماه النبي صلى الله عليه وسلم في المنافقين[٥]! وهـو فـاروق هذه الأمة الذي فرق الله به بين الحق والباطل، وكان عمر إذا قدمت جنـازة لـيُصلى عليها رمق حذيفة فإن صلى عليها حذيـفة صلى عمر عليها، وإن لم يصل عليها حذيفـة ترك عمر الصلاة عليها[٦]؛ لأن حذيفة كان أعـرف الصحابـة

(٥) تفسير الطبري (١١/ ١١)، والبداية والنهاية (٥/ ١٩).

(٦) تفسير ابن كثير (٢/ ٥٩٠)، عند تفسير الآية (٨٤) من سورة التوبة، وذكر أبو عبيد في غريب الحديث (٢/ ٣٦) أن عمر أراد أن يصلي على جنـازة رجـل فمرزه حذيفة، كأنه أراد أن يصده عن الصلاة عليها. والمرز هو القرص الرفيق ليس بالأظافر، فإذا اشتد فأوجع فهو قرص؛ كما في الفائق للزمخشري (٣/ =

بالمنافقين، وهو أمين سر الرسول صلى الله عليه وسلم فيهم.

وإذا كان أمر المنافقين قد خفي على بعض كبار الصحابة وهم مَنْ هم في الفضل والدين والفراسة فكيف بنا مع ضعفنا وعجزنا؟! أسأل الله أن يتولانا بعفوه ورحمته.

أيها المؤمنون: جرت سنة الله تعالى في المنافقين بالإملاء لهم، وإمدادهم في طغيانهم، وإنظارهم إلى حين؛ ولذا فإن نجاحهم في بعض الأزمان والأعمال، ووصولهم إلى ما يريدون ليس نهاية المطاف، ولا هو محل غرابة عند من يقرأ القرآن ويفهمه، وقد قال الله تعالى في شأنهم: ﴿**اللَّهُ يَسْتَهْزِئُ بِهِمْ وَيَمُدُّهُمْ فِي طُغْيَانِهِمْ يَعْمَهُونَ**﴾ [البقرة: ١٥]، وهذا الإمداد لهم، وزيادة طغيانهم، ووصولهم إلى بعض ما يريدون، في حال غفلة من الغافلين؛ ما هو إلا ابتلاء للمؤمنين الصادقين، وتنبيهٌ لهم ليواجهوا باطلهم، ويكشفوا للناس زيفهم.

ومعركةُ المؤمنين مع النفاق والمنافقين طويلة الأمد، ابتدأت بعد بدر الكبرى، وستبقى ما بقي كفر وإيمان، وحصل للمسلمين من العظائم والمصائب على أيديهم ما لا يخفى. وما تمكنوا من دولة إلا كانوا السبب في سقوطها وفنائها، وسقوط دولة بني العباس التي عاشت قروناً طوالاً،

= ٣٥٩)، وذكر ابن كثير في تفسيره (٢/ ٥٩١) أنه القرص بأطراف الأصابع بلغة أهل اليمامة. وفي السيرة الحلبية (٣/ ١٢٢) أن عمر بن الخطاب رضي الله عنه إذا مات رجل ممن يظن أنه من المنافقين أخذ بيد حذيفة رضي الله تعالى عنه، فقاده إلى الصلاة عليه، فإن مشى معه حذيفة صلى عليه عمر رضي الله تعالى عنه، وإن انتزع يده من يده ترك الصلاة عليه.

وامتدت في طول العالم وعرضه ما كان إلا بتدبير من منافقيها، كان يحمل لواء النفاق في تلك المؤامرة الدنيئة ابنُ العلقمي الرافضي.

وأخْذُ الصليبيين لبيت المقدس في القرن الخامس الهجري، ما كان إلا بسبب بني عبيد الباطنيين المنافقين.

وسقوط الدولة العثمانية التي حكمت أكثر من نصف الأرض ثمانية قرون، ما كان إلا على أيدي يهودالدونمة الذين أظهروا الإسلام وأبطنوا الكفر، وكادوا المكائد بالرجل المريض حتى قتلوه وقبروه.

وما سُلبت فلسطين في القرن الماضي واستحلتها يهود إلا بمعونة المنافقين، وما بقي اليهود فيها أكثر من نصف قرن إلا لأن المنافقين أبعدوا الإسلام عن المعركة، وأداروا الصراع تحت الرايات القومية والوطنية الجاهلية، ومن خلال الأحزاب اليمينية واليسارية العلمانية.

فمعركة المسلمين مع النفاق والمنافقين معركة طويلة وشديدة، وتحتاج إلى صبر وثبات وعزيمة، لا يلينها نصرٌ حققوه، أو هدف حصلوه، وما يقتل الأمة مثلُ اليأس والقنوط، فأمِّلوا - عباد الله - خيراً، وارجوا خيراً، وجِدُّوا في خدمة هذا الدين، والذود عن حياضه، والدفاع عن حرماته، وتحلوا في ذلك بالصبر والحكمة والعزيمة، فذلك طريق النصر والفلاح في الدنيا والآخرة.

ألا وصلوا وسلموا على نبينا محمد كما أمركم بذلك ربكم...

٢٤- من صفات المنافقين (٢)

٢٧/ ٢/ ١٤٢٣هـ

﴿ الْحَمْدُ للَّه الَّذي أَنزَلَ عَلَىٰ عَبْده الْكتَابَ وَلَمْ يَجْعَل لَّهُ عوَجًا ﴾ [الكهف: ١]، و ﴿ تَبَارَكَ الَّذي نَزَّلَ الْفُرْقَانَ عَلَىٰ عَبْده ليَكُونَ للْعَالَمينَ نَذيرًا (١) الَّذي لَهُ مُلْكُ السَّمَوَات وَالأَرْضِ وَلَمْ يَتَّخذْ وَلَدًا وَلَمْ يَكُن لَّهُ شَريكٌ في الْمُلْك وَخَلَقَ كُلَّ شَيْءٍ فَقَدَّرَهُ تَقْديرًا ﴾ [الفرقان: ١-٢] أحمده وأشكره، وأتوب إليه وأستغفره، وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له. وأشهد أن محمداً عبده ورسوله؛ بلّغ الرسالة، وأدى الأمانة، ونصح الأمة، وجاهد في الله حق جهاده، فجزاه الله خير ما جزى نبياً عن أمته، وصلى الله وسلم وبارك وعليه وعلى آله وأصحابه؛ أقاموا دين الله تعالى في أنفسهم وأهليهم، وحملوا لواءه إلى غيرهم، فمنهم من قضى نحبه تحت رايته، ومنهم من عاش حيناً من دهره، يبلغ أمر الله تعالى في أرضه، والتابعين لهم بإحسان إلى يوم الدين.

أما بعد: فأوصيكم ـ أيها الناس ـ ونفسي بتقوى الله عز وجل؛ فلا منجاة للعبد من عذاب الله تعالى إلا بها، ولا مخرج له من الفتن إلا مخرجُها ﴿ وَيُنَجِّي اللَّهُ الَّذينَ اتَّقَوْا بمَفَازَتهمْ لا يَمَسُّهُمُ السُّوءُ وَلا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴾ [الزمر: ٦١].

أيها المسلمون: أنزل الله تعالى القرآن هادياً للبشر، ونوراً لقلوبهم، وفيه ما يحتاجون إلى العلم به من أمور دينهم وآخرتهم.

لقد ساق لنا القرآن أخبار المرسلين، وأحوال المكذبين، وذكر الإيمان

والمؤمنين، والشرك والمشركين، والنفاق والمنافقين، وأوصاف كل طائفة منهم، وأخلاقهم التي يتخلقون بها، ومصيرهم الذي ينتهون إليه.

ورغم تطاول السنين، وتعاقب الأجيال، وترادف الأمم؛ فإننا ما رأينا أوصافاً ذكرت في القرآن لطائفة من الطوائف كانت في زمان دون زمان، أو اختص بها مكانٌ دون مكان.

إن القرآن حدثنا عن استكبار المشركين، وعلوهم على النـاس، وفسادهم في الأرض، وقرآنا ذلك في السيرة النبوية، ثم طالعناه في القرون التالية مع الأمم الرومانية والفارسية والتترية وغيرها، وها نحن نشاهدُه في الحضارة المعاصرة بشقيها الشيوعي البائد، والرأسمالي المتساقط. ورأينا أن الكفر هو الكفر، والكافرين هم الكافرون، واستكبارهم هو استكبارُهم، وفسادهم هو فسادُهم، ما تغير وقد مضت السنون، ولا اختلف رغم تطاول القرون.

وحدثنا القرآن عن النفاق والمنافقين، وأوصافهم وأخلاقهم، ومكائدهم ودسائسهم، فما رأيناها تغيرت عبر الأزمان، ولا اختلفت باختلاف الأوطان؛ لأن الذي وصفهم في القرآن هو خالقُهم، وهو تبارك وتعالى أعلمُ بدخائل نفوسهم، وأوصاف قلوبهم؛ فكان وصفه سبحانه لهم متوافقاً مع ما نقرؤه عنهم، وما نشاهده اليوم من أفعالهم، واقرأوا إن شئتم أوائل سورة البقرة في ذكر المنافقين تجدوا أن الآيات لاتعدوا وصفهم وأفعالهم التي نشاهدها في عصرنا هذا، مع أنها آيات نزلت في أوصاف منافقين كانوا قبل أربعة عشر قرناً وزيادة.

فما اختلف وصفُهم في الحاضر عن وصفهم في الماضي، ولا تطورت أخلاق المعاصرين منهم عن أخلاق سابقيهم إلا أنها ازدادت خسة ومكراً وضغينة على الإسلام وأهله.

يقول الله تعالى: ﴿ وَمِنَ النَّاسِ مَن يَقُولُ آمَنَّا بِاللَّهِ وَبِالْيَوْمِ الآخِرِ وَمَا هُم بِمُؤْمِنِينَ ﴾ [البقرة: ٨]. قال قتادة رحمه الله تعالى: «هذا نعتُ المنافقِ، نَعتَ عبداً خائن السريرة، كثير الإخلاف، يعرفُ بلسانه، ويُنكر بقلبه، ويصدق بلسانه، ويُخالف بعمله، ويصبح على حال، ويمسي على غيره، ويتكفأ تكفأ السفينة، كلما هبت ريح هب فيها»[(١)].

فهم يظهرون إيمانهم، ويبطنون كفرهم، ويعيشون في مجتمعات المسلمين معصومي الدم والمال بما أظهروه من كلمة التوحيد التي بها تعصم الدماء والأموال؛ وتلك هي مخادعتهم التي ذكرها الله تعالى بقوله: ﴿ يُخَادِعُونَ اللَّهَ وَالَّذِينَ آمَنُوا ﴾ [البقرة: ٩].

ظنوا أن نفاقهم لما راج على المؤمنين؛ فأخذوا بظواهرهم، وأوكلوا سرائرهم لله تعالى، ظنوا أن ذلك يجري على الله تعالى كما جرى على المؤمنين، وتالله إن الله تعالى ليعلم ما تكنه صدورهم وما يعلنون؛ ولذلك قابلهم الله تعالى بالمخادعة ﴿ إِنَّ الْمُنَافِقِينَ يُخَادِعُونَ اللَّهَ وَهُوَ خَادِعُهُمْ ﴾ [النساء: ١٤٢] وأخبر سبحانه أنهم بمخادعتهم إنما يخدعون أنفسهم وما يشعرون.

ومخادعة الله تعالى لهم في الدنيا هي معاملتهم كمعاملة المسلمين

---

(١) تفسير ابن كثير (١/ ٤٩) وانظر: زاد المسير لابن الجوزي (١/ ٢٩).

من حقن دمائهم وأموالهم بحكم الشريعة فيهم، ما داموا يبطنون نفاقهم ولا يظهرونه، وأما في الآخرة فيظن المنافقون أنهم من ضمن المؤمنين؛ لأنهم عوملوا في الدنيا معاملتهم، فيعطيهم الله تعالى نوراً مخادعاً لهم على الصراط؛ ليفرحوا به، ثم يطفىء الله نورهم، ويقذفُ بهم إلى جهنم ﴿**يَوْمَ يَقُولُ الْمُنَافِقُونَ وَالْمُنَافِقَاتُ لِلَّذِينَ آمَنُوا انظُرُونَا نَقْتَبِسْ مِن نُّورِكُمْ قِيلَ ارْجِعُوا وَرَاءَكُمْ فَالْتَمِسُوا نُورًا فَضُرِبَ بَيْنَهُم بِسُورٍ لَّهُ بَابٌ بَاطِنُهُ فِيهِ الرَّحْمَةُ وَظَاهِرُهُ مِن قِبَلِهِ الْعَذَابُ**﴾ [الحديد: ١٣] ويظنون أنهم كما خدعوا المؤمنين في الدنيا سيخدعون الله تعالى في الآخرة ولكن هيهات ﴿**يَوْمَ يَبْعَثُهُمُ اللَّهُ جَمِيعًا فَيَحْلِفُونَ لَهُ كَمَا يَحْلِفُونَ لَكُمْ وَيَحْسَبُونَ أَنَّهُمْ عَلَىٰ شَيْءٍ أَلَا إِنَّهُمْ هُمُ الْكَاذِبُونَ**﴾ [المجادلة: ١٨].

وما كانت منهم هذه الخلال السيئة، والصفات القبيحة من المكر والتآمر والمخادعة، إلا لأن قلوبهم مريضةٌ بالكفر، مليئة بالحقد، فاسدة بالشبهات والشهوات، وهذا ما جعلها مردت على النفاق ﴿**فِي قُلُوبِهِم مَّرَضٌ فَزَادَهُمُ اللَّهُ مَرَضًا وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ بِمَا كَانُوا يَكْذِبُونَ**﴾ [البقرة: ١٠].

ينهاهم النبيون والعلماء، والدعاة والمصلحون عن الإفساد في الأرض، فيزعمون الصلاح والإصلاح ﴿**وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ لَا تُفْسِدُوا فِي الْأَرْضِ قَالُوا إِنَّمَا نَحْنُ مُصْلِحُونَ**﴾ [البقرة: ١١].

إنها والله آية معجزة، نزلت على النبي صلى الله عليه وسلم تخبر عن صفة من صفات المنافقين، نراها اليوم ماثلة أمام أعيننا، وكأن

القرآن يحدثنا عن منافقي هذا العصر، الذيـن يُنهون عن الفساد في الأرض فيزعمون الصلاح والإصلاح ﴿قَالُوا إِنَّمَا نَحْنُ مُصْلِحُونَ﴾ [البقرة: ١١].

أليس المنافقون في هذا العصر يظاهرون الكافرين على المؤمنين، ويرفضون من أحكام الشريعة ما لا يوافق أهواءهم وأهواء الذين كفروا؟

أليسوا يريدون إفساد المرأة، وتفكيك الأسرة، واختلاط الرجال بالنساء؟

أليسوا باسم الحريات يطالبون بإباحة الزنا والخمور وسائر المحرمات؟

أليسوا ينادون بتغريب المجتمعات المسلمة، ويطالبونها بالتخلي عن دينها وثقافتها وأخلاقها، ويجعلون ذلك عنوان التقدم والرقي والحضارة؟!

وكل ذلك وغيره من الفساد والإفساد يفعلونه، ويدعون إلـيـه، ويطالبون به تحت مسمى الإصلاح، ويزعمون أنهم مصلحون، وأنهم وطنيون مخلصون لأوطانهم، وأنهم ما أرادوا إلا سعادة أمتهم ورقيها ورفاهيتها. تلك هي أقوالهم وكتاباتهم.

ثم لما كانت لهم الغلبة في كثير من بلاد المسلمين، وبدعم مباشر وغير مباشر من إخوانهم الذين كفروا، وتسلموا زمام الأمور، ما رأينا شعوبهم تطورت ولا تقدمت؛ بل زادوها فقراً إلى فقرها، وبؤساً إلى بؤسها، ونشروا فيها الإلحاد والأفكار الهدامة، والفساد الأخلاقي مع الفساد المالي والإداري، فلا هم ضمنوا لهم عيشاً كريماً في الدنيا، ولا تركوا لهم دينهم الذي فيه سعادتهم في الدنيا والآخرة؛ فأفسدوا عليهم دنياهم وآخرتهم.

انظروا إليهم ماذا فعلوا بأحزابهم وأفكارهم اليمينية واليسارية من بعثية وشيوعية وقومية وناصرية وليبرالية في كثير من بلاد المسلمين، لقد أفسدوا المسلمين وأفقروهم، وقهروهم على أفكارهم الضالة، ومبادئهم المنحرفة، وما أغنوهم من الفقر، ولا انتشلوهم من الجهل.

كفى الله المسلمين شرهم، وأحبط كيدهم ومكرهم، وأذلهم في الدنيا والآخرة، إنه سميع مجيب. وأقول قولي هذا وأستغفر الله لي ولكم..

الخطبة الثانية

الحمد لله، حمداً طيباً كثيراً مباركاً فيه كما يحب ربنا ويرضى، أحمده وأشكره، وأتوب إليه وأستغفره، وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له، وأشهد أن محمداً عبده ورسوله، صلى الله وسلم وبارك عليه وعلى آله وأصحابه ومن اهتدى بهداهم إلى يوم الدين.

أما بعد: فاتقوا الله تعالى، واحذروا النفاق والمنافقين؛ فإن من أَمِنَ النفاق يوشك أن يقع فيه، وقد كان جمع من أصحاب النبي صلى الله عليه وسلم كل واحد منهم يخشى على نفسه النفاق، وهم مَنْ هم في الفضل والصحبة والإخلاص. واحذروا المنافقين فإن فتكهم بالأمم شديد، وشرهم مستطير، وما كانت لهم الغلبة في بلد إلا أفسدوه ودمروه.

أيها الإخوة المؤمنون: من طبيعة المنافقين رفضهم لأحكام الشريعة، وعدم قبولها؛ لأنها عامة لكل المسلمين، وهم يرون أن لهم من النظر والفكر والعقل ما يجعلهم لا يقبلون بإيمان كإيمان سائر الناس.

﴿ وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ آمِنُوا كَمَا آمَنَ النَّاسُ قَالُوا أَنُؤْمِنُ كَمَا آمَنَ السُّفَهَاءُ أَلا إِنَّهُمْ هُمُ السُّفَهَاءُ وَلَكِن لاَّ يَعْلَمُونَ ﴾ [البقرة: ١٣].

وهذا واقع فيهم في هذا العصر، فإذا دعاهم المؤمنون إلى الإيمان الذي جاء من عند الله تعالى، وبلغه لنا رسوله محمد صلى الله عليه وسلم، رفضوه واستهزؤا به، وحاربوا الدعاة إليه.

أليسوا في هذا العصر يُدعون إلى ما في الكتاب والسنة، وإلى ما قررته النصوص الشرعية في السياسة والاقتصاد، والمعاملات وأحكام الأسرة، وأحكام التعامل مع الآخرين؛ فيرفضون ذلك، ويتهمون من دعاهم إلى الكتاب والسنة بالسذاجة والسطحية، والسفه والعاطفية، وعدم إدراك الواقع وفهم الحقائق، ثم يكون البديل الذي يدعون الناس إليه في شؤون المسلمين إنما هو نتاج نظريات إلحادية بائدة، أو أفكار ضالة، أو أهواء منحرفة، وليس من العقل في شيء، ولا له من حقيقة الواقع أي نصيب.

ومع كل هذا الضلال عن الجادة، والانحراف عن الطريق السوية - طريق الكتاب والسنة - تجدهم يصفون أنفسهم ويصفهم أتباعُهم ومريدوهم، والمخدوعون بهم بالمفكرين والمثقفين، وأصحاب الرأي الحر، والنظرة البعيدة، والفهم الثاقب للأحداث والمستجدات، وهم في واقع الأمر أُسارى لأفكار ضالة، ومذاهب منحرفة، يوحي بها إليهم شياطين الصهيونية والإلحاد، ودعاة الفوضى والانحلال.

وهل ضاعت الأمة وفقدت ريادتها وصدارتها، وعزتها وقوتها إلا

لما صار لهؤلاء النكرات المنحرفين رأي وقول، وسُلِّموا منابر الإعلام، ومصادر صنع القرار؛ فكان من أمر المسلمين ما كان من الذلة والهزيمة، والتقليد والتبعية. فهم ما أرادوا إيمان الناس الذي ارتضاه الله تعالى لهم، واعتبروه إيمان السفهاء؛ فكان لهم إيمان آخر وهو إيمانهم المطلق بالأعداء ولو ظلموهم وأهانوهم وأذلوهم، وسلبوهم حقوقهم، ومنعوهم مما هو لهم ولأمتهم. وإيمانهم المطلق بالأعداء هو الذي ضيع فلسطين، وضيع غيرها من بلاد المسلمين؛ إذ استخدمهم الصهاينة والصليبيون والملاحدة دعاية إعلامية لمشاريعهم الاستعمارية في المنطقة الإسلامية، فإذا ما قضوا غرضهم منهم تنكروا لهم، وتخلوا عنهم، ورموهم في مزابل التاريخ.

إن المنافقين ظلوا طوال السنين - ولا يزالون - يُظهرون النصح للأمة في أثواب قومية، أو شعارات وطنية، فلما كان الجد والمواجهة وجدناهم أول من تخلى عن الأوطان، وباعها بثمن بخس للأعداء؛ وهم في هذا كله يخدعون الذين آمنوا، ويظهرون أنهم معهم وهم مع أعدائهم ﴿ **وَإِذَا لَقُوا الَّذِينَ آمَنُوا قَالُوا آمَنَّا وَإِذَا خَلَوْا إِلَىٰ شَيَاطِينِهِمْ قَالُوا إِنَّا مَعَكُمْ إِنَّمَا نَحْنُ مُسْتَهْزِئُونَ** ﴾ [البقرة: ١٤] وشياطينهم هم أعداء الذين آمنوا من أي دين ومذهب. وهذا من مخادعتهم للمؤمنين، ومن خيانتهم العظمى للأمة ﴿ **اللَّهُ يَسْتَهْزِئُ بِهِمْ وَيَمُدُّهُمْ فِي طُغْيَانِهِمْ يَعْمَهُونَ** ﴾ [البقرة: ١٥] والله تعالى يملي لهم، فيحققون بعض ما يريدون من السوء والشر؛ حتى يستدرجهم بذلك، فيرديهم ويهلكهم.

ومن رفض شيئاً من شريعة الله تعالى من أجل هواه، أو رأي رآه فإنه يخشى عليه من النفاق ولو كان من المصلين؛ لأن من سمات المنافقين رفضهم لشريعة الله سبحانه.

ألا فاتقوا الله ربكم، وجانبوا سبل المنافقين، واحذروهم؛ فإنهم في خسران دائم ﴿ إِنَّ الْمُنَافِقِينَ فِي الدَّرْكِ الأَسْفَلِ مِنَ النَّارِ وَلَن تَجِدَ لَهُمْ نَصِيرًا (١٤٥) إِلاَّ الَّذِينَ تَابُوا وَأَصْلَحُوا وَاعْتَصَمُوا بِاللَّهِ وَأَخْلَصُوا دِينَهُمْ لِلَّهِ فَأُوْلَئِكَ مَعَ الْمُؤْمِنِينَ وَسَوْفَ يُؤْتِ اللَّهُ الْمُؤْمِنِينَ أَجْرًا عَظِيمًا ﴾ [البقرة: ١٤٥-١٤٦].

وصلوا وسلموا على نبيكم كما أمركم بذلك ربكم.

٢٥- التحذير من بدع رجب (١)

الجمعة ١٨/ ٧/ ١٤١٧هـ

الحمد لله، نحمده ونستعينه ونستغفره، ونعوذ بالله من شرور أنفسنا ومن سيئات أعمالنا، من يهده الله فلامضل له، ومن يضلل فلا هادي له، وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له، وأشهد أن محمداً عبده ورسوله ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ حَقَّ تُقَاتِهِ وَلا تَمُوتُنَّ إِلاَّ وَأَنتُم مُّسْلِمُونَ (١٠٢)﴾ [آل عمران] ﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ اتَّقُوا رَبَّكُمُ الَّذِي خَلَقَكُم مِّن نَّفْسٍ وَاحِدَةٍ وَخَلَقَ مِنْهَا زَوْجَهَا وَبَثَّ مِنْهُمَا رِجَالاً كَثِيرًا وَنِسَاءً وَاتَّقُوا اللَّهَ الَّذِي تَسَاءَلُونَ بِهِ وَالأَرْحَامَ إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلَيْكُمْ رَقِيبًا (١)﴾ [النساء] ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَقُولُوا قَوْلاً سَدِيدًا (٧٠) يُصْلِحْ لَكُمْ أَعْمَالَكُمْ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ وَمَن يُطِعِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ فَقَدْ فَازَ فَوْزًا عَظِيمًا (٧١)﴾ [الأحزاب].

أمابعد: فإن المسلمين يمتازون عن غيرهم من أهل الأرض بوضوح عقيدتهم، وصحة دينهم. فالعباداتُ في الإسلام مضبوطة، ومصادرُ التلقي محفوظة. يتلقى الإسلامَ جيلٌ عن جيل، بأسانيدَ موصولة، ومعاييرَ في القبول والرد دقيقة. فالإسلام هو الإسلام عبر القرون؛ لم تنخرم منه عبادة، ولم تسقط من شعائره شعيرة، ولم تطرأ عليه زيادة، على رغم الضعف الذي دارت أمة الإسلام في فلكه فتراتٍ من حياتها، لكن الله تعالى قد تأذن بحفظه ﴿إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا الذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُ لَحَافِظُونَ (٩)﴾ [الحجر].

لذا كان من المناهي العظيمة، والمحاذير الكبيرة، الابتداعُ في الدين، والزيادةُ على المشروع من العبادة. والحاملُ على الابتداع والزيادة الجهلُ أو الهوى. وهذا ما خافه الرسولُ صلى الله عليه وسلم على أمته فقال: **«إن مما أخشى عليكم بعدي بطونكم وفروجكم ومضلاتِ الأهواء»** أخرجه أحمد والطبراني.[١] وكان من دعائه صلى الله عليه وسلم **«اللهم جنبني منكرات الأخلاق والأهواء والأدواء»** أخرجه الترمذي وابن أبي عاصم[٢].

ويُذكِّر أصحابه أهمية الاتباع، وخطرَ الابتداع فيقول في حديثه: **«أما بعد فإن خير الحديث كتابُ الله، وخيرَ الهدي هديُ محمد، وشر الأمور محدثاتُها، وكلَّ بدعة ضلالة»** أخرجه مسلم من حديث جابر ابن عبدالله رضي الله عنهما[٣].

---

(١) أخرجه أحمد (٤/ ٤٣٠) وابن أبي عاصم (١/ ١٢) والطبراني في الصغير (٥١١) من حديث أبي برزة الأسلمي رضي الله عنه، وصححه الألباني في تخريجه لكتاب السنة لابن أبي عاصم.

(٢) هذا اللفظ لابن أبي عاصم (١/ ١٢) وأخرجه الترمذي في الدعوات باب في دعاء أم سلمة (٥٣٨٥) وقال: هذا حديث حسن غريب، والطبراني في الكبير (١٩/ ١٩) وصححه ابن حبان كما في موارد الظمآن (٢٤٢٢) والحاكم وصححه ووافقه الذهبي (١/ ٥٣٢) وعزاه الألباني في تخريجه للسنة لأصحاب السنن، ولم أقف عليه إلا عند الترمذي.

(٣) أخرجه مسلم في الجمعة باب تخفيف الصلاة والخطبة (٨٦٧) والنسائي في الجمعة باب كيف الخطبة (٣/ ١٨٨) وابن ماجه في المقدمة باب اجتناب البدع والجدل (٤٥).

وقبل وفاته صلى الله عليه وسلم أوصى بالاتباع وشدّد في ذلك - والمرء قبل وفاته لا يوصي إلا بما هو مهم عنده - ورسول الله صلى الله عليه وسلم أنصحُ الخلق للخلق، أخرج الترمذي وأبوداود واللفظ له من حديث عبدالرحمن بن عمرو السلميِّ وحُجْر بنِ حُجْر قالا: أتينا العرباض بن سارية رضي الله عنه وهو ممن نزل فيه ﴿ **وَلَا عَلَى الَّذِينَ إِذَا مَا أَتَوْكَ لِتَحْمِلَهُمْ قُلْتَ لَا أَجِدُ مَا أَحْمِلُكُمْ عَلَيْهِ** ﴾ [التوبة: ٩٢] فسلمنا وقلنا: أتيناك زائرين وعائدين ومقتبسين، فقال العرباض: صلى بنا رسول الله صلى الله عليه وسلم ذات يوم، ثم أقبل علينا بوجهه، فوعظنا موعظةً بليغة، ذرفت منها العيون، ووجلت منها القلوب، فقال رجل: يا رسول الله، كأن هذه موعظة مودع، فماذا تعهدُ إلينا؟ قال: «**أوصيكم بتقوى الله والسمع والطاعة، وإنْ عبداً حبشياً فإنه من يعش منكم بعدي فسيرى اختلافاً كثيراً، فعليكم بسنتي وسنة الخلفاء الراشدين المهديين، تمسكوا بها وعُضُّوا عليها بالنواجذ، وإياكم ومحدثات الأمور، فإن كلَّ محدثةٍ بدعة وكلَّ بدعةٍ ضلالة**»(٤).

ما كان هذا التحذيرُ والتشديدُ منه صلى الله عليه وسلم على هذا الأمر إلا تعظيماً لجناب الله تعالى؛ إذ هو وحده - تعالى وتقدس - المشرِّعُ، والبشر له عبيد، والابتداعُ فيه تعدٍ على هذا الحق الإلهي،

---

(٤) أخرجه أبوداود في السنة باب لزوم السنة واللفظ له (٤٦٠٧) والترمذي في العلم باب ما جاء في الأخذ بالسنة واجتناب البدعة (٢٦٧٦)(٢٦٧٨) وأحمد (٤/ ١٢٦) وغيرهم.

فكيف يأمر الله تعالى عباده بعبادته على وجه يريده، فتظهرُ أمةٌ منهم تتنكبُ الصراط، وتشاقُّ الله تعالى في ربوبيته، وتنازعهُ في طريقة عبادته، فتَشْرع من الدين مالم يأذن به، كيف يكون ذلك لهم ويلهم؟ والرسول صلى الله عليه وسلم وهو معصوم يؤمر بالاتباع ويقال له: ﴿ **ثُمَّ جَعَلْنَاكَ عَلَىٰ شَرِيعَةٍ مِّنَ الْأَمْرِ فَاتَّبِعْهَا وَلَا تَتَّبِعْ أَهْوَاءَ الَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ (١٨) إِنَّهُمْ لَن يُغْنُوا عَنكَ مِنَ اللَّهِ شَيْئًا وَإِنَّ الظَّالِمِينَ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَاءُ بَعْضٍ وَاللَّهُ وَلِيُّ الْمُتَّقِينَ (١٩)** ﴾ [الجاثية] قال الحسن البصري: «على شريعة من الأمر: على السنة»(٥).

وبالاتباع تُنالُ محبةُ الله تعالى، ومحبةُ رسوله صلى الله عليه وسلم؛ لأن المتبعَ معظمٌ للكتاب والسنة ﴿ **يَتْلُونَهُ حَقَّ تِلَاوَتِهِ أُولَٰئِكَ يُؤْمِنُونَ بِهِ وَمَن يَكْفُرْ بِهِ فَأُولَٰئِكَ هُمُ الْخَاسِرُونَ (١٢١)** ﴾ [البقرة: ١٢١] قال عطاء رحمه الله تعالى: «يتبعونه حق اتباعه، ويعملون به حق عمله»(٦) وقال ابن جريج رحمه الله تعالى: «كان قوم يزعمون أنهم يحبون الله يقولون: إنا نحب ربنا؛ فأمرهم الله أن يتبعوا محمداً صلى الله عليه وسلم، وجعل اتباعَ محمدٍ عَلَماً لحبه»(٧).

وإذا اختلف المسلمون في أمر من أمورهم وجب عليهم الرجوعُ إلى كتاب ربهم تبارك وتعالى، وسنة نبيهم صلى الله عليه وسلم، والوقوفُ

---

(٥) شرح اعتقاد أهل السنة لأبي القاسم اللالكائي (٦٦)
(٦) شرح اللالكائي (٦٧)
(٧) تفسير الطبري (٣/ ٢٣٢)

عندهما، والعملُ بهما؛ فذلك طريق النجاة، وإلا كان الزيغُ والضلال والهلاك ﴿ فَإِن تَنَازَعْتُمْ فِي شَيْءٍ فَرُدُّوهُ إِلَى اللَّهِ وَالرَّسُولِ إِن كُنتُمْ تُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الآخِرِ ذَلِكَ خَيْرٌ وَأَحْسَنُ تَأْوِيلاً (٥٩) ﴾ [النساء] قال ميمون بن مهران في الرد إلى الرسول: «ما دام حياً فإذا قبض فإلى سنته»[٨].

تلك هي الطريقُ الصحيحة، وما عداها من السبل والأهواء فضلال في ضلال. ويقيِّم العبدُ نفسه، ويتبين سبيله بين الهدى والضلال بالنظر في مدى عمله بالكتاب، وتمسكه بالسنة بفهم سلف الأمة، قال ابن سيرين: «كانوا يرونه على الطريق ما دام على الأثر»[٩].

أيها الإخوة المؤمنون: كلما بعد الناس عن زمن النبوة؛ تشعبت بهم السبل، وفرقتهم الأهواء، تحسُنُ عندهم البدعة، وتسري فيهم الخرافة، ويُضلهم الشيطان، فتعمى أبصارهم وبصائرهم عن الحق، وتُصَمُّ آذانهم عن سماع هدي الكتاب والسنة، فلايصل إلى قلوبهم، ولاتعيه عقولهُم؛ لأن الشيطان قد أحكم قفلها، وحجبتها البدع بغشاوتها وشبهها. قال ابن عباس رضي الله عنهما: «ما يأتي على الناس عام إلا أحدثوا فيه بدعة، وأماتوا سنة؛ حتى تحيا البدع، وتموت السنن»[١٠]،

---

(٨) تفسير الطبري (٥/ ١٥) والإبانة لابن بطة (١/ ٩) وشرح اللالكائي (١/ ٨٠)
(٩) سنن الدارمي (١٤٣) والشريعة للآجري (١/ ١٨)
(١٠) أخرجه الطبراني في الكبير (١٠/ ٢٦٢) برقم (١٠٦١٠) وقال الهيثمي: رجاله موثوقون (١/ ١٨٨) وأخرجه ابن وضاح في البدع والنهي عنها (٣٨) وابن بطة (١/ ١٧٧) برقم (١١) واللالكائي (١٢٥)

وقال حسان بن عطية: «ما ابتدع قوم بدعة في دينهم إلا نزع الله من سنتهم مثلها، ولا يعيدها إليهم إلى يوم القيامة»[١١].

فهل تستحقُ أمة نصر الله وقد كثرت فيها البدع؟ وقلّ فيها الاتباع؟ وتشعبت بها الأهواء؟ إن ذلك مما يحجب نصر الله، ويستوجب غضبه ونقمته وعذابه؛ حتى ولو كانت نوايا المبتدعين حسنة - وما هم كذلك إلا الجهالُ منهم - فإن ابتداعهم وبال على الأمة، ومهما كثرت أعمالهم في البدعة فهي هباءٌ لا يبارك الله فيها في الدنيا، ولا تقبلُ في الآخرة. قال أيوبُ السختياني رحمه الله تعالى: «ما ازداد صاحب بدعة اجتهاداً إلا زاد من الله بعداً»[١٢]؛ لذا كان التقرب إلى الله تعالى بالقليل من السنة خير من التقرب إليه بالكثير من البدعة، قال ابن مسعود رضي الله عنه: «الاقتصاد في السنة خير من الاجتهاد في البدعة»[١٣].

وجهلُ الأمة، وبعدُها عن مصادر التلقي الصحيحة؛ جعل كثيراً من أفرادها يتيهون في الأهواء الضالة، والمبادئ المنحرفة، ومكّن ذلك لعدوها أن يشق صفها، وأن يبثَ المنافقين بين أفرادها. فلا يزالُ عدو المسلمين من جراء ذلك يتحكمُ في رقابهم، ويستولي على أراضيهم، وينهب ثرواتهم، وكثير من أبناء الأمة يحتفلون بالإسـراء والمعراج،

(١١) حلية الأولياء (٦٠/ ٧٣)

(١٢) حلية الأولياء (٣/ ٩)

(١٣) أخرجه الحاكم وقال: صحيح على شرطهما ووافقه الذهبي (١/ ١٠٣) والدارمي (٢٢٣).

يظنون أن المسرى لا يزالُ بأيديهم، وما علموا أنه قد انتهب منهم. أما يستحيون من الله، كيف يضيعون الأقصى؟ ثم يحتفلون بالإسراء! فرطوا ثم ابتدعوا، كيف يُنصرون؟! فإلى الله نشكوا ضعف قوتنا، وقلة حيلتنا، وهواننا على الناس.

أعوذ بالله من الشيطان الرجيم ﴿**قُلْ إِن كُنتُمْ تُحِبُّونَ اللَّهَ فَاتَّبِعُونِي يُحْبِبْكُمُ اللَّهُ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ (٣١) قُلْ أَطِيعُوا اللَّهَ وَالرَّسُولَ فَإِن تَوَلَّوْا فَإِنَّ اللَّهَ لا يُحِبُّ الْكَافِرِينَ (٣٢)**﴾ [آل عمران: ٣١ - ٣٢] بارك الله لي ولكم في القرآن العظيم.

الخطبة الثانية

الحمد لله، حمداً طيباً كثيراً مباركاً فيه كما يحب ربنا ويرضى، وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لاشريك له، وأشهد أن محمداً عبده ورسوله، صلى الله وسلم وبارك عليه وعلى آله وأصحابه ومن سار على نهجهم واقتفى أثرهم إلى يوم الدين.

أما بعد: فاتقوا الله تعالى، واتبعوا ولا تبتدعوا فقد كفيتم ﴿**فَمَنِ اتَّقَىٰ وَأَصْلَحَ فَلا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلا هُمْ يَحْزَنُونَ (٣٥)**﴾ [الأعراف: ٣٥].

أيها الإخوة المؤمنون: يطيب لكثير من الضلال والمبتدعين الاحتفاء بشهر رجب، وإقامةُ ضروبٍ من الاحتفالات، وأنواعٍ من العبادات لم يأذن بها الشرع. جرّهم إلى ذلك اعتقادُهم أن الإسراء كان في رجب، ولو كان الإسراء فيه لما جاز لهم أن يقيموا احتفالات أو يؤدوا عبادات لم تشرع في الكتاب ولا في السنة، فكيف إذا لم يثبت أن حادثة الإسراء

والمعراج كانت في رجب؟ كما أبانه المحققون من أهل العلم، قال شيخ الإسلام ابن تيمية رحمه الله تعالى عن تحديد ليلة الإسراء والمعراج: «لم يقم دليل معلوم لا على شهرها ولا على عشرها ولا على عينها؛ بل النقول في ذلك منقطعة مختلفة، ليس فيها ما يقطع به»[١٤]، ونقل الحافظ ابن حجر رحمه الله عن ابن دحية قوله: «وذكر بعض القصاص أن الإسراء كان في رجب قال: وذلك كذب»[١٥].

ومن قبيح البدع في رجب ما يسمى بصلاة الرغائب في ليلة أول جمعة من رجب، قال النووي رحمه الله تعالى عنها: «وهي بدعةٌ قبيحةٌ منكرةٌ أشد إنكار مشتملةٌ على منكراتٍ فيتعين تركُها والإعراضُ عنها وإنكارُها على فاعلها»[١٦].

كذلك من بدعِ رجب تخصيصُه بالصيام، قال شيخ الإسلام ابن تيمية رحمه الله تعالى: «وأما صيام رجب بخصوصه فأحاديثه كلها ضعيفة بل موضوعة لا يعتمد أهل العلم على شيء منها»[١٧]، وقال ابن رجب رحمه الله تعالى: «وأما الصيام، فلم يصح في فضل صوم رجب بخصوصه شيء عن النبي صلى الله عليه وسلم ولا عن أصحابه»[١٨].

---

(١٤) نقله عنه تلميذه ابن القيم في زاد المعاد (١/ ٧٥).

(١٥) تبيين العجب فيما ورد في فضل رجب لابن حجر (٦)

(١٦) فتاوى النووي (٥٧)

(١٧) مجموع الفتاوى (٢٥/ ٢٩٠)

(١٨) لطائف المعارف (٢٢٨)

وكل هذه المحدثات وغيرها في رجب إنما أحدثها أصحابها لاعتقادهم أن لرجب مزية على سائر الشهور، والأمر ليس كذلك. قال ابن حجر رحمه الله تعالى: «وأما الأحاديث الواردة في فضل رجب، أو في فضل صيام شيء منه صريحة فهي على قسمين: ضعيفة وموضوعة»[١٩]، وقال أيضاً: «لم يرد في فضل رجب، ولا في صيامه، ولافي صيام شيء منه معين، ولا في قيام ليلة مخصوصة فيه حديث صحيح يصلح للحجة...» اهـ[٢٠].

أيها الإخوة: ليس غريباً أن يشجع أعداء الإسلام مثل تلك الاحتفالات البدعية، ولا من العجب في شيء أن يقيمها ويحضرها العلمانيون والملاحدة مع أنهم لادين لهم أصلاً؛ لأنهم يريدون هدم الإسلام، وتضليل العامة، وتحصيل بعض الشهوات والملذات. والابتداعُ في الدين من أعظم وسائل هدم الإسلام، وتبديل السنة. نسأل الله تعالى أن يعافينا من الابتداع، وأن يرزقنا الاتباع، وأن يهدي المسلمين صراطه المستقيم إنه سميع مجيب، ألا وصلوا وسلموا على خير خلق الله...

* * *

(١٩) تبيين العجب فيما ورد في فضل رجب (٦)

(٢٠) تبيين العجب فيما ورد في فضل رجب (٨)

٢٦- التحذير من بدع رجب (٢)

٣/ ٧/ ١٤١٩هـ

الحمد لله، نحمده ونستعينه ونستغفره، ونعوذ بالله من شرور أنفسنا ومن سيئات أعمالنا، من يهده الله فلا مضل له ومن يضلل فلا هادي له، وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له، وأشهد أن محمداً عبده ورسوله ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ حَقَّ تُقَاتِهِ وَلَا تَمُوتُنَّ إِلَّا وَأَنتُم مُّسْلِمُونَ (١٠٢)﴾ [آل عمران] ﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ اتَّقُوا رَبَّكُمُ الَّذِي خَلَقَكُم مِّن نَّفْسٍ وَاحِدَةٍ وَخَلَقَ مِنْهَا زَوْجَهَا وَبَثَّ مِنْهُمَا رِجَالًا كَثِيرًا وَنِسَاءً وَاتَّقُوا اللَّهَ الَّذِي تَسَاءَلُونَ بِهِ وَالْأَرْحَامَ إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلَيْكُمْ رَقِيبًا (١)﴾ [النساء] ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَقُولُوا قَوْلًا سَدِيدًا (٧٠) يُصْلِحْ لَكُمْ أَعْمَالَكُمْ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ وَمَن يُطِعِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ فَقَدْ فَازَ فَوْزًا عَظِيمًا (٧١)﴾ [الأحزاب].

أما بعد: فإن الشهور والأيام تتفاضل كما يتفاضل الناس؛ فرمضان أفضل الشهور، وعشر ذي الحجة أفضل عشر، ويوم الجمعة أفضل الأيام، وليلة القدر أفضل الليالي، وثلث الليل الآخر أفضل أجزاء الليل، وساعة الإجابة يوم الجمعة أفضل ساعة فيه، وعشية عرفة أفضل جزء منه.

والميزان في تفاضل الشهور والأيام والليالي والساعات شرع الله تعالى، فليس من حق أحد أن يجعل لبعض الشهور والأيام، والليالي والساعات مزية على غيرها إلا الله تعالى، والمبلغ عنه رسوله صلى الله

عليه وسلم؛ لأن الله تعالى هو الذي خلق الأزمان وفضل بعضها على بعض، كما خلق البشر ورفع بعضهم فوق بعض درجات.

ولقد كان لأهل الجاهلية مواسم يعظمونها، وعبادات يؤدونها فيها؛ فجاء الإسلام فأبطل ابتداعهم، وقصد رسول الله صلى الله عليه وسلم مخالفتهم في شعائرهم.

ومن الأزمنة التي عظمها أهل الجاهلية شهر رجب؛ حتى سمي رجباً لأنه كان يُـرَجَّب، أي: يُعظم، كما قال أهل اللغـة[(١)]، وأكثر القبائل تعظيماً له مضر؛ حتى نسب إليها فقيل: رجب مضر. وبلغ من تعظيمهم له: أنهم كانوا يتحرون فيه الدعاء على من ظلمهم[(٢)].

ولأهل الجاهلية في هذا الشهر عتيرة يذبحونها؛ أعلن النبي صلى الله عليه وسلم إلغاءها فقال: «**لا فرع ولا عتيرة**»[(٣)] وفي رواية: «**لا عتيرة في الإسلام**»[(٤)] قال أبو عبيد: «العتيرة هي الرجبية: ذبيحة كانوا يذبحونها في الجاهلية في رجب يتقربون بها لأصنامهم»[(٥)] وقال الحسن رحمه الله تعالى: «ليس في الإسلام عتيرة؛ إنما كانت العتيرة في الجاهلية،

---

(١) قاله أبو عمرو وغيره وانظر: القاموس (١١٣) واللسان (٥/ ١٣٩).

(٢) لطائف المعارف لابن رجب (٢٣٣).

(٣) أخرجه البخاري في العقيقة باب الفـرع (٥٤٧٣) وفي باب العتيرة (٥٤٧٤) ومسلم في الأضاحي باب الفرع والعتيرة (١٩٧٦).

(٤) هذه الرواية أخرجها الإمام أحمد في المسنـد (٢/ ٢٢٩) وصححها الشيـخ أحمد شاكر في شرحه على المسند (٧١٣٥).

(٥) فتح الباري لابن حجر (٩/ ٥١٢).

كان أحدهم يصوم رجب ويعتر فيه»[٦].

وكثير من جهال المسلمين ومبتدعتهم تبعوا أهل الجاهلية في ذلك فتعبدوا لله تعالى بالذبح في رجب؛ فخالفوا أمره، وشابهوا أهل الضلال والجاهلية، وبعضهم قد لا يذبحون فيه؛ لكنهم يحتفلون به، ويجعلونه عيداً. قال الحافظ ابن رجب رحمه الله تعالى: «ويشبه الذبح في رجب اتخاذه موسماً وعيداً كأكل الحلوى ونحوها»[٧].

ولما طال الأمد بالمسلمين، وابتعد زمنهم عن زمن الرسالة تبع طائفة منهم أهل الجاهلية في تعظيم رجب؛ بل زادوا فيه عبادات ما كان يفعلها أهل الجاهلية! دفعهم إلى ذلك أوهام خاطئة، وجهل مستحكم، تحت قيادة شيوخ ضالين، وأصحاب عمائم منحرفين، يتأكلون بالبدعة، ويرتزقون بإضلال العامة. يدخلون عليهم باسم العبادة، ويتسللون إلى قلوبهم لإفسادها بالبدعة تحت شعار محبة رسول الله صلى الله عليه وسلم، وأداء حقه؛ فاخترعوا لذلك كذبة قبيحة حينما أوهموا العامة أن حادثة الإسراء والمعراج كانت في رجب، فهم يعظمونه احتفاءً بهذه الذكرى!!

وشريعة الله تأبى تعظيم زمن لم يعظمه الله تعالى، وتمنع أداء عبادات لم يشرعها، والتاريخ يظهر كذب هؤلاء الضلال المضلين؛ إذ

---

(٦) لطائف المعارف (٢٢٧).

(٧) المصدر السابق (٢٢٧).

الخلاف بين المؤرخين في ليلة الإسراء كبير جداً، ولم يثبت أنها كانت في رجب [٨] حتى قال شيخ الإسلام ابن تيمية رحمه الله تعالى عن ليلة الإسراء: «لم يقم دليل معلوم لا على شهرها ولا على عشرها ولا على عينها، بل النقول في ذلك منقطعة مختلفة ليس فيها ما يقطع به» [٩].

---

(٨) الخلاف في تعيين ليلة الإسراء كبير جداً ومن الأقوال في ذلك:

أ) أنها ليلة (٢٧) من ربيع الآخر قاله أبو إسحاق الحربي كما في شرح النووي على مسلم (٢/ ٢٠٩) ورجحه ابن المنير كما في الفتح (٧/ ٢٤٢).

ب) أنها ليلة (٢٧) من ربيع الأول نقله ابن رجب عن أبي إسحاق الحربي وهذا اضطراب.

وهذان الرأيان على أن الإسراء كان قبل الهجرة بسنة كما قاله ابن سعد وجزم به النووي، ونقل الإجماع عليه ابن حزم وحكاية الإجماع مردودة؛ لأن فيه خلافاً كثيراً. انظر: فتح الباري (٧/ ٢٤٢).

جـ) يرى الزهري أن الإسراء بعد البعثة بخمس سنين كما في شرح النووي على مسلم (٢/ ٢٠٩).

د) أنه قبل الهجرة بسنة ونصف كما هو مفهوم من كلام ابن قتيبة في المعارف (١٥٠).

هـ) أنه قبل الهجرة بثلاث سنوات حكاه ابن الأثير. فتح الباري (٧/ ٢٤٣).

و) أنه قبل الهجرة بخمس سنوات حكاه القاضي عياض وتبعه القرطبي والنووي عن الزهري ورجحه عياض، الفتح (٧/ ٢٤٣).

ز) أنه في ليلة (٢٧) رجب، وأكثر اعتقاد الناس فيه مع أنه لا دليل عليه، وإذا كان الخلاف قائماً في تحديد السنة التي وقع فيها الإسراء فكيف بتحديد الشهر، وقد اختلفوا فيه اختلافاً كثيراً فقيل: ١- ربيع الآخر ٢- رجب ٣- رمضان ٤- شوال! ثم كيف بتحديد اليوم!! فذلك متعذر.

(٩) نقله عنه تلميذه ابن القيم في زاد المعاد (١/ ٧٥).

ولمزيد من الغواية والإضلال فإن أئمة المبتدعة ـ من أجل إقناع العامة بضلالهم ـ اخترعوا عبادات متنوعة في هذا الشهر، وفي الليلة التي يزعمون أنها ليلة الإسراء تحت شعار محبة رسول الله صلى الله عليه وسلم كما يزعمون، وكذبوا والله في زعمهم ـ إلا المقلد الجاهل ـ إذ لو أحبوه لاتبعوا سنته، ولما اتهموا شريعته بالنقصان حتى يكملوها بابتداعهم.

إن هؤلاء الضُلال يفتتحون أول ليلة جمعة من رجب بصلاة منكرة في نيتها وهيأتها يسمونها صلاة الرغائب. اخترعها أئمتهم بعد القرن الرابع الهجري (١٠) أيّ: بعد زمن رسول الله صلى الله عليه وسلم، وصحابته الكرام، والتابعين لهم بإحسان. قال ابن رجب رحمه الله تعالى: «فأما الصلاة فلم يصح في شهر رجب صلاة مخصوصة تختص به، والأحاديث المروية في فضل صلاة الرغائب في أول ليلة جمعة من شهر رجب كذب وباطل لا تصح، وهذه الصلاة بدعة عند جمهور العلماء»(١١).

ثم عمد هؤلاء المبتدعة إلى أيام في رجب مخصوصة فأفتوا بفضيلة صيامها، وقد ثبت عن عمر رضي الله عنه أنه كان يضرب أكُفَّ الرجال في صوم رجب حتى يضعوها في الطعام ويقول: «ما رجب؟ إن رجباً

---

(١٠) لطائف المعارف (٢٢٨).

(١١) المصدر السابق (٢٢٨).

كان يعظمه أهل الجاهلية فلما كان الإسلام ترك »[١٢] وعن أبي بكرة رضي الله عنه أنه رأى أهله يتهيؤون لصيام رجب فقال لهم: «أجعلتم رجباً كرمضان، وألقى السلال، وكسر الكيزان»[١٣].

وقصد بعض الجهلة رجباً بالصدقة، وبعضهم لا يخرج زكاة ماله إلا فيه تحرياً للفضل. والصدقة مشروعة في كل وقت، والزكاة تجب إذا حال الحول، وليس لرجب مزية على غيره من الشهور حتى يقصد بالصدقة، أو تضبط الزكاة به. وفعل ذلك عن وجه مقصود يدخل العبد في ظلمات البدع.

وطوائف كثيرة من المسلمين يخصون رجباً بعمرة، وبعضهم يستدل لذلك بأن من السلف من اعتمروا في رجب، والحق أن العمرة مشروعة في كل وقت من غير تخصيص، ولم ينقل عن أحد من السلف أنه كان يخص رجباً بعمرة، ومن اعتمر منهم فيه صادفت عمرته رجباً لا على وجه القصد والتخصيص، فالعمرة فيه وفي غيره مشروعة؛ لكن تخصيصه بها غير مشروع، كما يفعله كثير من المسلمين؛ حتى اشتهرت بينهم بالعمرة الرجبية.

---

(١٢) أخرجه ابن أبي شيبه في مصنفه (٢/ ٣٤٥) رقم (٩٧٥٨) وصححه شيخ الإسلام ابن تيمية في مجموع الفتاوى (٢٥/ ٢٩١) وهذا اللفظ للطبراني في الأوسط كما في مجمع الزوائد (٣/ ١٩٧) وصححه الألباني في الإرواء (٩٥٧).

(١٣) هذا الأثر ذكره ابن قدامه في المغني عن أبي بكرة نفيع بن الحارث (٤/ ٤٢٩) وابن رجب في اللطائف (٢٣٠) وذكره شيخ الإسلام في مجموع الفتاوى وتصحف فيه إلى أبي بكر (٢٥/ ٢٩١).

وكثير من أهل النوايا الطيبة، والمقاصد الحسنة يُلَبِّس عليهم علماء السوء، وأئمة الضلال بإيراد أحاديث ضعيفة وموضوعة في فضل رجب بقصد جرهم إلى ممارسة هذه الشعائر والعبادات البدعية، وترسيخ ذلك في أفهامهم حتى تناقلوه أباً عن جد. قال الحافظ ابن حجر رحمه الله تعالى: «لم يرد في فضل شهر رجب، ولا في صيامه، ولا في صيام شيء منه معين ،ولا في قيام ليلة مخصوصة فيه حديث صحيح يصلح للحجة وقد سبقني إلى الجزم بذلك الإمام أبو إسماعيل الهروي الحافظ»[١٤] وقال أيضاً: «وأما الأحاديث الواردة في فضل رجب، أو فضل صيامه، أو صيام شيء منه صريحة فهي على قسمين: ضعيفة وموضوعة»[١٥].

وبهذا يتبين ضلال من ضل في هذا الباب حتى ميّزوا رجباً عن غيره من الشهور، وخصوا ليلة الإسراء المكذوبة باحتفالات وأذكار بدعية، وصلوات على رسول الله صلى الله عليه وسلم متكلفة ومسجوعة بعضها شرك، وبعضها غلو، وسائرها بدعة وضلال. وكل ذلك تعبير كاذب عن محبة الرسول صلى الله عليه وسلم؛ إذ محبته في اتباع أمره، واجتناب نهية، والوقوف عند سنته.

أعوذ بالله من الشيطان الرجيم: ﴿قُلْ إِن كُنتُمْ تُحِبُّونَ اللَّهَ فَاتَّبِعُونِي يُحْبِبْكُمُ اللَّهُ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿٣١﴾ قُلْ أَطِيعُوا اللَّهَ وَالرَّسُولَ

---

(١٤) انظر: تبيين العجب بما ورد في فضل رجب (٢٣).

(١٥) المصدر السابق (٣٣).

فَإِن تَوَلَّوْا فَإِنَّ اللَّهَ لا يُحِبُّ الْكَافِرِينَ (٣٢) ﴾ [آل عمران] نفعني الله وإياكم بهدي القرآن العظيم.

الخطبة الثانية

الحمد لله حمداً طيباً كثيراً مباركاً فيه كما يحب ربنا ويرضى، أحمده وأشكره وأتوب إليه وأستغفره، وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له، وأشهد أن محمداً عبده ورسوله صلى الله وسلم وبارك عليه وعلى آله وأصحابه ومن اهتدى بهداهم إلى يوم الدين.

أما بعد: فاتقوا الله - عباد الله - واتبعوا ولا تبتدعوا فقد كفيتم ﴿ **وَمَا آتَاكُمُ الرَّسُولُ فَخُذُوهُ وَمَا نَهَاكُمْ عَنْهُ فَانتَهُوا وَاتَّقُوا اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ شَدِيدُ الْعِقَابِ (٧)** ﴾ [الحشر: ٧].

أيها المؤمنون: البدعة أشد فتكاً بقلب العبد من المعصية، وهي أعظم خطراً على دينه؛ ذلك أن المعصية مع خطورتها وقبحها قد تدفع إليها غريزة من الغرائز، والبدعة ليست كذلك.

وأخطر ما في البدعة أنها مشاقة لله تعالى في شرعه، واتهام للنبي صلى الله عليه وسلم بعدم البيان؛ لذا كان المتلبس بها بعيداً عن التوبة إلا من وفقه الله تعالى، قال النبي صلى الله عليه وسلم: «**إن الله حجب التوبة عن صاحب كل بدعة**» أخرجه الطبراني[١٦]، وقال سفيان الثوري

---

(١٦) أخرجه الطبراني في الأوسط (٤٢٠٢) وابن أبي عاصم في السنة (٣٧) وعزاه الهيثمي للطبراني في الأوسط وقال: ورجاله رجال الصحيح غير هارون ابن موسى الفروي وهو ثقة (١٠/١٢٨) وحسنة المنذري في الترغيب (١/ ٨٦) ثم الألباني في السلسلة الصحيحة (١٦٢٠).

رحمه الله تعالى: «البدعة أحب إلى إبليس من المعصية. المعصية يتاب منها، والبدعة لا يتاب منها»[١٧]

ولخطورة البدعة على قلب العبد فإن السلف كانوا يحذرون من مجالسة أهل البدع والأهواء؛ حتى لا تتشرب القلوب ببدعتهم، قال الفضيل بن عياض رحمه الله تعالى: «من جلس إلى صاحب بدعة فاحذروه»[١٨] وقال أيضاً: «إذا رأيت مبتدعاً في طريق فخذ في طريق آخر»[١٩]. فكيف لو رأى الفضيل أنواع البدع والضلال، والزندقة والإلحاد، تغزو بيوت الموحدين عبر الفضائيات المأفونة، والصحافة المأجورة؛ إذ تتولى قنوات منحرفة نقل تلك الاحتفالات البدعية بالصوت والصورة الحية مباشرة من أماكن إقامتها في شتى البقاع.

وتشوه صورة الإسلام لدى العالم كله لتُعرَض على العالم في صور أولئك الدراويش يتراقصون ويتمايلون ويتصايحون. نساؤهم ورجالهم في اختلاط، وعقولهم في اختلال، ولعل منهم من لم يسجد لله تعالى سجدة؛ بل لعل منهم يهوداً ونصارى وملاحدة جمعهم رباط الوطنية الجاهلية؛ للاحتفال بليلة الإسراء!!

إنه في حقيقة الأمر احتفال بهدم الإسلام، وتشويه لشريعته الغراء، ولعل اليهود يرقبون تلك الاحتفالات فرحين مبتهجين، ولم لا يبتهجون

---

(١٧) تلبيس إبليس لابن الجوزي (١٣).

(١٨) المصدر السابق (١٤).

(١٩) المصدر السابق (١٤).

وقد استولوا على الأقصى، وأصحاب الأقصى منشغلون عنه بالاحتفالات بالإسراء، ثم بعد ذلك يزعم فريق من أصحاب الفضائيات أن فضائياتهم مسخرة لخدمة الإسلام، وهم يهدمون الإسلام ويفسدون العقول، ويدمرون الفطر السوية.

فاتقوا الله ربكم، واحفظوا أنفسكم وأهليكم وأولادكم من البدع والضلال التي تغزو البيوت الآمنة عبر الفضاء، حصنوا أنفسكم وأولادكم بالسنة والتوحيد، والسير على نهج السلف الصالح؛ حتى تلقوا نبيكم صلى الله عليه وسلم على الحوض ولم تبدلوا ولم تغيروا؛ فتشربون من حوضه في وقت يُرَدُّ عن حوضه كل من بدل سنته، وانحرف عن طريقته. ألا وصلوا وسلموا على نبيكم محمد كما أمركم بذلك ربكم.

* * *

٢٧- الاحتفال بالمولد النبوي
نشأته، تاريخه، حقيقة من أحدثوه

الجمعة ١٦/ ٣/ ١٤٢٢هـ

الحمد لله، نحمده ونستعينه ونستغفره، ونعوذ بالله من شرور أنفسنا ومن سيئات أعمالنا، من يهده الله فلا مضل له، ومن يضلل فلا هادي له، وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له، وأشهد أن محمداً عبده ورسوله. ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ حَقَّ تُقَاتِهِ وَلَا تَمُوتُنَّ إِلَّا وَأَنتُم مُّسْلِمُونَ﴾ [آل عمران: ١٠٢]، ﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ اتَّقُوا رَبَّكُمُ الَّذِي خَلَقَكُم مِّن نَّفْسٍ وَاحِدَةٍ وَخَلَقَ مِنْهَا زَوْجَهَا وَبَثَّ مِنْهُمَا رِجَالًا كَثِيرًا وَنِسَاءً وَاتَّقُوا اللَّهَ الَّذِي تَسَاءَلُونَ بِهِ وَالْأَرْحَامَ إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلَيْكُمْ رَقِيبًا﴾ [النساء: ١]، ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَقُولُوا قَوْلًا سَدِيدًا (٧٠) يُصْلِحْ لَكُمْ أَعْمَالَكُمْ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ وَمَن يُطِعِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ فَقَدْ فَازَ فَوْزًا عَظِيمًا﴾ [الأحزاب: ٧٠, ٧١] .

أما بعد: فإن أصدق الحديث كلام الله تعالى، وخير الهدي هدي محمد صلى الله عليه وسلم، وشر الأمور محدثاتها، وكل محدثة بدعة، وكل بدعة ضلالة، وكل ضلالة في النار.

أيها الناس: رغم أن هذا العصر يوصف بأنه عصر العلم فإنه عصر الجهل أيضاً، ورغم أن الإعلام بوسائله المختلفة ينقل الأخبار والحقائق، وينشر العلوم والمعارف المتنوعة؛ فإنه أيضاً ينشر الجهالات، ويؤصل للضلالات.

إن الإنسان المعاصر توصل إلى كثير من الحقائق الكونية، واكتشف

كثيراً من أسرار الأرض وعجائبها وكنوزها، وسخر ثرواتها في خدمته ورفاهيته، وطور الصناعات والتجارات والاتصالات، وكلَّ ما يحتاجه في حياته الدنيا؛ لكن أكثر البشر جهلوا الحقائق الشرعية، وأضلوا الطريق إلى الله تعالى، ونسوا الدار الآخرة.

إن الإعلام بصحفه المقروءة، وشاشاته المعروضة، وإذاعاته المسموعة قد ضخ كثيراً من العلوم والمعارف في مجالات مختلفة، وبين حقائق كثيرة كانت خافية على الناس؛ لكنه في نفس الوقت وفي كثير من مجالاته قد حجب الحق، وزين الباطل، وأضلّ الناس.

إنه إعلامٌ علّم الناس كثيراً من أمور دنياهم؛ لكنه أنساهم أخراهم، فصدق في كثير من صنَّاع مادته، والقائمين عليه، والمتلقين عنه: قول الله تعالى: ﴿**يَعْلَمُونَ ظَاهِرًا مِّنَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَهُمْ عَنِ الْآخِرَةِ هُمْ غَافِلُونَ**﴾ [الروم: ٧].

ومن اطلع على ما يعرض في كثير من الفضائيات من مناظرات سياسية، أو برامج حوارية، أو لقاءاتٍ دورية يجد أنها لا تخرج عن كونها مجادلات ومهاترات، لايقصد منها إحقاق حق، أو إبطال باطل، أو نفع المشاهد؛ بل المقصود منها إقناع المشاهد برأي أو فكرةٍ ولو كانت خاطئة.

ولم تسلم كثير من البرامج الدينية من هذه الخطيئة المنهجية، فأكثرها برامجُ موجهة، لا تهدف إلى رفع مستوى التدين في الأمة، وغرس مبادئ الالتزام بتعاليم الإسلام؛ ولكنها تسعى إلى تمييع

الإسلام، وتطويعه لضغط الواقع، وحاجات العصر؛ وذلك بإيجاد المخارج، وإحياء الأقوال المهجورة، والفتاوى الشاذة الضعيفة، بقصد تقريب الإسلام من المناهج المادية العلمانية.

ومن اعترض على هذا المنهج الخاطئ حُجب رأيه، وأخفي قوله؛ بل واتهم بالانغلاق والرجعية، وعدم فهم روح الشريعة. ولم ينس الناس بعد الحملة الشعواء من مشائخ الضلالة على من قال بمشروعية هدم الأصنام التي تعبد من دون الله تعالى(*). وهل أرسلت الرسل إلا لمحو الشرك، وهدم الأوثان، وإقامة التوحيد؟! ولكن هذا الأصل الذي لا يختلف فيه مسلمان كان محلاً للشك والجدال والاختلاف، فلا حول ولا قوة إلا بالله.

وفي مثل هذه الأيام من كل عام تعرض الفضائيات المشاهد البدعية للاحتفال بمولد النبي صلى الله عليه وسلم. ومع خطورة ذلك وأثره على جهلة المسلمين المقلدين فإن كثيراً من مشائخ الفضائيات لم يكتفوا بذلك؛ بل حاولوا الاستدلال لهذه البدعة النكراء، واخترعوا مسوغاتٍ لفعلها، وأضفوا عليها شيئاً من الشرعية التي تخدع المتلقي

(*) هذا إشارة إلى ما قامت به حركة طالبان الأفغانية قبل أسابيع من هدم لبعض أصنام البوذيين، وثارت ثائرة العالم بشرقه وغربه بحجة الحفاظ على التراث، وانبرى كثير من مشايخ التنوير للتنديد بذلك والزعم بأن هدم هذه الأصنام ليس من الإسلام في شيء!! نعوذ بالله من الإفك والهوى، وتجمع وفد هؤلاء المشايخ من بعض الأقطار، وذهبوا في رحلة لمحاولة ثني الأفغان عن هدم تلك الأوثان، وسودت الصحف وقتها بكثير من الضلال، نسأل الله العافية..

الجاهل، وحجبوا الرأي الآخر في القضية، وهاجموا كل من ينكر هذه البدعة.

إنهم أخفوا عن المشاهد أصل هذه البدعة، وتاريخها، وحقيقة من أحدثها في الإسلام، والظروف التاريخية التي أحدثت فيها، وما هو قصد من أحدثها من هذا الابتداع؟!

كل ذلك وغيره في حقيقة هذه البدعة قد أخفي عن المشاهد ولم يُعرض ولو من باب عرض الرأي الآخر كما يقولون!! وأعظمُ من ذلك أنهم أوهموا المتابعين لبرامجهم أن لهذه البدعة أصلاً في الشريعة، وإجماعاً من الأمة، وقبولاً من علماء المسلمين. وهذا أقبح ما يكون غشاً وخداعاً وتضليلاً، وعدم احترام لعقول أولئك المشاهدين، فأيُّ مصداقية يزعمونها، وأي موضوعية يتشدقون بها؟!

إن أمة الإسلام مضت قرونها الثلاثة الأولى لم تعرف هذه البدعة، ولا احتفل فيها بها، وهي القرون التي زكاها النبي صلى الله عليه وسلم، وأخبر أن الخلاف والبدع تكون بعدها. وهذا من علاماتِ نبوته؛ إذ وقع ذلك كما أخبر به عليه الصلاة والسلام. ففي القرن الرابع الهجري ظهر بنو عبيد، المتسمون زوراً بالفاطميين؛ انتساباً إلى فاطمة بنت محمد عليه الصلاة والسلام ورضي الله عنها وأرضاها.

ومن ثم خرجوا على الخلافة العباسية، وأقاموا الدولة الفاطمية في مصر والشام. ولم يرتض المسلمون في مصر والشام سيرتهم في الحكم، وطريقتهم في إدارة شؤون الناس؛ فخاف بنو عبيد من ثورة

الناس عليهم، فحاولوا استمالة قلوبهم، وكسب عواطفهم بإحداث الاحتفالات البدعية، فاخترع حاكمهم آنذاك المعز لدين الله العبيدي: مولد النبي صلى الله عليه وسلم وموالد لفاطمة وعلي والحسن والحسين ولجماعة من سلالة آل البيت رضي الله عنهم وأرضاهم[١].

وتتابعت في دولتهم احتفالات أخرى اخترعوها لم تكن من قبل في الإسلام كالاحتفال بالهجرة، ورأس السنة الهجرية، وليلة الإسراء والمعراج، وغيرها كثير.

وظلت هذه الموالد عند بني عبيد في مصر وبعض الشام، إلى أن انتهت دولتهم، وورثها من كانوا بعدهم، ولا يعرفها بقية المسلمين في شتى البقاع، بل أنكروها ولم يقبلوها تكملة القرن الرابع وطيلة القرن الخامس والسادس؛ إذ انتقلت عدوى هذه الاحتفالات في أوائل القرن السابع من مصر إلى أهل إربل في العراق، نقلها شيخ صوفي يدعى الملا عمر، وأقنع بها ملك إربل في العراق أبا سعيد كوكبري[٢] ثم انتشرت بعد ذلك في سائر بلدان المسلمين، بسبب الجهل والتقليد

---

(١) انظر: تاريخ الاحتفال بالمولد النبوي لحسن السندوبي (٦٢) ويتوقع أن إحداثهم له كان قريباً من عام ٣٦٢هـ.

(٢) المطلع على كتب العلماء يجد أن بعضها أرخ لبدعة المولد بالقرن الرابع وبعضها بالقرن السادس، وتوجيه ذلك: أن أول إحداثها في مصر كان في القرن الرابع، ثم انتقلت في القرن السادس أو أوائل السابع إلى العراق؛ إذ احتفل به الملك أبو سعيد كوكبري. انظر: الباعث على إنكار البدع والحوادث لأبي شامة (١٣) ومرآة الزمان لسبط ابن الجوزي (٨/ ٣١٠)، والبداية والنهاية (١٢/ ٢٦٣).

الأعمى، حتى وصلت إلى ما تشاهدونه في العصر الحاضر.

إذاً كان الهدف الرئيس من إحداث الموالد هدفاً سياسياً لتثبيت حكم بني عبيد، ولم يكن لمحبة النبي صلى الله عليه وسلم. ولا لمحبة آل بيته فيه أي نصيب.

وهذا الحكم يتبين بمعرفة حقيقة دولة بني عبيد، والاطلاع على شيء من سيرة المعز العبيدي الذي أحدث هذه الموالد.

فأما بنو عبيد فهم من ذرية عبد الله بن ميمون القداح المعروفِ بالكفر والنفاق والضلال، والمشهور بعداوته لأهل الإيمان، ومعاونته لأهل الكفر والعدوان(٣)، ومن ذريته كان حكامُ بني عبيد الذين ظهروا في مصر في القرن الرابع الهجري وما بعده.

---

(٣) كان أول خروج العبيديين من المغرب في قبائل تجهل الإسلام، انخدعت بدعوة أبي عبد الله الشيعي، فناصره أهل المغرب حتى استقرّ له الأمر، فكتب إلى رئيسه الباطني ليقدم إليه من الشام، فلما دخل المغرب تسمى بعبيد الله ولقب نفسه بالمهدي ـ وإليه ينسب العبيديون ـ ويذكر العلماء أن اسمه: سعيد وهو من ولد ميمون القداح الملحد المجوسي. وفور تمكنه بطش بداعيته والممكن له في المغرب أبي عبد الله الشيعي. قال أبو شامة المقدسي عن عبيد الله: «وعبيد هذا كان اسمه سعيداً فلما دخل المغرب تسمى بعبيد الله، وزعم أنه علوي فاطمي، وادعى نسباً ليس بصحيح، لم يذكره أحد من مصنفي الأنساب العلوية، وترقت به الحال إلى أن ملك وتسمى بالمهدي، وبنى المهدية بالمغرب، ونسبت إليه، وكان زنديقاً خبيثاً عدواً للإسلام، متظاهراً بالتشيع، مستتراً به، حريصاً على إزالة الملة الإسلامية، قتل من الفقهاء والمحدثين والصالحين جماعة كثيرة، وكان قصده إعدامهم من الوجود؛ لتبقى العالم كالبهائم فيتمكن من=

. . . .

= إفساد عقائدهم وضلالتهم، والله متم نوره ولو كره الكافرون. ونشأت ذريته على ذلك منطوين، يجهرون به إذا أمكنتهم الفرصة وإلا أسروه . . .» إلخ.
انظر: الروضتين في أخبار الدولتين لأبي شامة (١/ ٢٠١)، وما بعدها، ومختصر الروضتين للدكتور محمد حسن عقيل (١٥٦) وما بعدها.
قال شيخ الإسلام ابن تيمية رداً على من ادعى العصمة فيهم: «فكيف تكون العصمة في ذرية «عبد الله بن ميمون القداح» مع شهرة النفاق والكذب والضلال. . .» مجموع الفتاوى (٣٥/ ١٢٧)، وعن نسبهم وإظهارهم الإيمان قال رحمه الله: «ومن المعلوم الذي لا ريب فيه أن من شهد لهم - لبني عبيد - بالإيمان والتقوى أو بصحة النسب فقد شهد لهم بما لا يعلم، وقد قال الله تعالى: ﴿وَلَا تَقْفُ مَا لَيْسَ لَكَ بِهِ عِلْمٌ﴾ [الإسراء: ٣٦]، وقال تعالى: ﴿إِلَّا مَن شَهِدَ بِالْحَقِّ وَهُمْ يَعْلَمُونَ﴾ [الزخرف: ٨٦]. . وليس أحد من الناس يعلم صحة نسبهم، ولا ثبوت إيمانهم وتقواهم؛ فإن غاية ما يزعمه أنهم كانوا يظهرون الإسلام والتزام شرائعه، وليس كل من أظهر الإسلام يكون مؤمناً في الباطن؛ إذ قد عرف في المظهرين للإسلام المؤمن والمنافق قال الله تعالى: ﴿وَمِنَ النَّاسِ مَن يَقُولُ آمَنَّا بِاللَّهِ وَبِالْيَوْمِ الْآخِرِ وَمَا هُم بِمُؤْمِنِينَ﴾ [البقرة: ٨]، وقال تعالى: ﴿إِذَا جَاءَكَ الْمُنَافِقُونَ قَالُوا نَشْهَدُ إِنَّكَ لَرَسُولُ اللَّهِ وَاللَّهُ يَعْلَمُ إِنَّكَ لَرَسُولُهُ وَاللَّهُ يَشْهَدُ إِنَّ الْمُنَافِقِينَ لَكَاذِبُونَ﴾ [المنافقون: ١]، وقال تعالى: ﴿قَالَتِ الْأَعْرَابُ آمَنَّا قُل لَّمْ تُؤْمِنُوا وَلَٰكِن قُولُوا أَسْلَمْنَا وَلَمَّا يَدْخُلِ الْإِيمَانُ فِي قُلُوبِكُمْ﴾ [الحجرات: ١٤]، وهؤلاء القوم يشهد عليهم علماءُ الأمة وأئمتها وجماهيرها أنهم كانوا منافقين زنادقة يظهرون الإسلام ويبطنون الكفر. فإذا قدر أن بعض الناس خالفهم في ذلك صار في إيمانهم نِزاع مشهورٌ، فالشاهد لهم بالإيمان شاهد لهم بما لا يعلمه؛ إذ ليس معه شيء يدل على إيمانهم مثل ما مع منازعيه ما يدل على نفاقهم وزندقتهم، وكذلك «النسب» قد عُلم أن جمهور الأمة تطعن في نسبهم ويذكرون أنهم من أولاد المجوس أو اليهود. هذا مشهور من شهادة علماء الطوائف: من الحنفية والمالكية والشافعية والحنابلة=

. . . .

= وأهل الحديث وأهل الكلام وعلماء النسب والعامة وغيرهم، وهـذا أمرٌ قد ذكره عامة المصنفين لأخبار الناس وأيامهم حتى بعض من قد يتوقف في أمرهِم كابن الأثير الموصلي في تاريخه ونحوه؛ فإنه ذكر ما كتبه علماء المسلمين بخطوطهم في القدح في نسبهم. وأما جمهور المصنفين من المتقدمين والمتأخرين حتى القاضي ابن خلكان في تاريخه فإنهم ذكروا بطلان نسبهم، وكذلك ابن الجوزي وأبو شامة وغيرهما من أهل العلم بذلك حتى صنَّفَ العلماءفي كشف أسرارهم وهتك أستارهم كما صنَّف القاضي أبو بكر الباقلاني كتابه المشهور في كشف أسرارهم وهتك أستارهم، وذكر أنهم من ذرية المجوس، وذكر من مذاهبهم ما بين فيه أن مذاهبهم شر من مذاهب اليهود والنصارى؛ بل ومن مذاهب الغالية الذين يدّعون إلهيّة علي أو نبوته فهم أكفر من هؤلاء؛ وكذلك ذكر القاضي أبو يعلى في كتابه: «المعتمد» فصلاً طويلاً في شرح زندقتهم وكفرهم، وكذلك ذكر أبو حامد الغزالي في كتابه الذي سماه «فضائل المستظهرية وفضائح الباطنية» قال: ظاهر مذهبهم الرَّفض وباطنه الكُفر المحضُ، وكذلك القاضي عبد الجبَّار بن أحمد وأمثاله من المعتزلة المتشيعة الذين لا يفضِّلون على علي غيره؛ بل يفسقون من قاتله ولم يتب من قتاله: يجعلون هؤلاء من أكابر المنافقين الزنادقة. فهذه مقالة المعتزلة في حقهم فكيف تكون مقال أهل السنة والجماعة؟!!

والرّافضة الإمامية ـ مع أنهم من أجهل الخلق، وأنهم ليس لهم عقلٌ ولا نقلٌ ولا دينٌ صحيحٌ ولا دُنْيا منصورةٌ ـ نعم يعلمون أنَّ مقالة هؤلاء مقالة الزنادقة المنافقين؛ ويعلمون أن مقالة هؤلاء الباطنية شرٌ من مقالة الغالية الذين يعتقدون إلهيّة علي رضي الله عنه. وأمَّا القدح في نسبهم فهو مأثور عن جماهير علماء الأمة من علماء الطَّوائف. وقد تولّى الخلافة غيرهم طوائف، وكان في بعضهم من البدعة والظُّلم ما فيه؛ فلم يقدح النَّاس في نسب أحد من أولئك كما قدحوا في نسب هؤلاء، ولا نسبوهم إلى الزَّندقة والنفاق كما نسبوا هؤلاء. وقد قام من ولد علي طوائف: من ولد الحسن وولد الحسين كـمُحمد بن عبدالله بـن=

. . . .

= حسن وأخيه إبراهيم بن عبد الله بن حسن وأمثالهما. ولم يطعن أحدٌ لا من أعدائهم ولا من غير أعدائهم لا في نسبهم ولا في إسلامهم، وكذلك الدَّاعي القائم بطبرستان وغيره من العلويين، وكذلك بنو حمود الذين تغلَّبوا بالأندلس مدَّة وأمثالُ هؤلاء لم يقْدح أحدٌ في نسبهم ولا في إسلامهم. وقد قتل جماعة من الطالبيين على الخلافة لا سيَّما في الدَّولة العبَّاسية وحُبس طائفة كموسى ابن جعفر وغيره ولم يقَدح أعداؤهم في نسبهم ولا دينهم. وسبب ذلك أن الأنسابَ المشهورة أمرُها ظاهرٌ متداركٌ مثل الشمس لا يقدرُ العدوُّ أن يُطفئه؛ وكذلك إسلام الرَّجُل وصحةُ إيمانه بالله والرَّسولِ أمْرٌ لا يخفى، وصاحب النسب والدِّين لو أراد عدَوه أن يبطَل نسبه ودينه وله هذه الشهرة لم يمكنه ذلك؛ فإن هذا مما تتوفّر الهمم والدَّواعي على نقله، ولا يجوز أن تتفق على ذلك أقوالُ العلماء، وهؤلاء «بنو عبيد القداح» ما زالت علماء الأمة المأمونون علماً وديناً يقدحون في نسبهم ودينهم؛ لا يذُمونهم بالرَّفض والتشيع؛ فإن لهم في هذا شركاء كثيرين؛ بل يجعلونهم «من القرامطة الباطنية» الذين منهم: الإسماعيلية والنصيرية - ومن جنسهم الخرمية المحمرة وأمثالهم من الكفار - المنافقون الذين كانوا يظهرون الإسلام ويبطنون الكفر؛ ولا ريب أن اتباع هؤلاء باطل؛ وقد وصف العلماء أئمة هذا القول بأنهم الذين ابتدعوه ووضعوه؛ وذكروا ما بنوا عليه مذاهبهم؛ وأنهم أخذوا بعض قول المجوس وبعض قول الفلاسفة؛ فوضعوا لهم «السَّابق» و«التالي» و«الأساس» و«الحجج» و «الدعاوى» وأمثال ذلك من المراتب. وترتيب الدعوة سبع درجات؛ آخرها «البلاغ الأكبر؛ والنَّاموس الأعظم» مما ليس هذا موضع تفصيل ذلك.

وإذا كان كذلك فمن شهد لهم بصحة نسب أو إيمان فأقل ما في شهادته أنه شاهد بلا علم قاف ما ليس له به علم؛ وذلك حرام باتفاق الأمة؛ بل ما ظهر عنهم من الزندقة والنفاق ومعاداة ما جاء به الرسول صلى الله عليه وسلم: دليل على بطلان نسبهم الفاطمي؛ فإن من يكون من أقارب النبي صلى الله =

. . . .

= عليه وسلم القائمين بالخلافة في أمته لا تكون معاداته لدينه كمعاداة هؤلاء؛ فلم يعرف في بني هاشم ولا ولد أبي طالب ولا بني أمية: من كان خليفة وهو معادٍ لدين الإسلام؛ فضلاً عن أن يكون معادياً كمعاداة هؤلاء؛ بل أولادُ الملوك الذين لا دين لهم يكون فيهم نوع حميّة لدين آبائهم وأسلافهم، فمن كان من ولد سيد ولد آدم الذي بعثه الله بالهدى ودين الحق كيف يعادي دينه هذه المعاداة؛ ولهذا نجد جميع المأمونين على دين الإسلام باطناً وظاهراً معادين لهؤلاء إلا من هو زنديق عدو لله ورسوله أو جاهل لا يعرف ما بُعث به رسوله، وهذا يدل على كفرهم وكذبهم في نسبهم» (مجموع الفتاوى ٣٥/ ١٢٧ ـ ١٣٢).
وقال أيضاً: «فإن القاهرة بقي ولاة أمورها نحو مئتي سنة على غير شريعة الإسلام؛ وكانوا يظهرون أنهم رافضة وهم في الباطن: إسماعيلية ونصيرية وقرامطة باطنية كما قال فيهم الغزالي ـ رحمه الله تعالى ـ في كتابه الذي صنفه في الرد عليهم: ظاهر مذهبهم الرفض وباطنه الكفر المحض. واتفق طوائف المسلمين: علماؤهم وملوكهم وعامتهم من الحنفية والمالكية والشافعية والحنابلة وغيرهم: على أنهم كانوا خارجين عن شريعة الإسلام، وأن قتالهم كان جائزاً؛ بل نصوا على أن نسبهم كان باطلاً وأن جدَّهم كان عبيد الله بن ميمون القدّاح لم يكن من آل بيت رسول الله صلى الله عليه وسلم. وصنَّف العلماء في ذلك مصنفات. وشهد بذلك مثل الشيخ أبي الحسن القدوري إمام الحنفية والشيخ أبي حامد الإسفرائيني إمام الشافعية ومثل القاضي أبي يعلى إمام الحنبلية ومثل أبي محمّد بن أبي زيد إمام المالكية. وصنف القاضي أبوبكر ابن الطيب فيهم كتاباً في كشف أسرارهم وسمّاه «كشف الأسرار وهتك الأستار» في مذهب القرامطة الباطنية. اهـ (مجموع الفتاوى ٢٨/ ٦٣٥ ـ ٦٣٦) قلت: فقوم هذه سيرتهم وحقيقتهم كيف يظن بهم محبة النبي صلى الله عليه وسلم بإحداث هذه الموالد المنكرة في الإسلام. ولعل هذا يكشف القصد من وراء هذه المبتدعات من قوم يظهرون الإسلام ويبطنون الكفر والعياذ بالله تعالى.

قال شيخ الإسلام ابن تيمية فيهم: «وهؤلاء القوم تشهد عليهم الأمة وأئمتها أنهم كانوا ملحدين زنادقة، يظهرون الإسلام ويبطنون الكفر، وجمهور الأمة تطعن في نسبهم، ويذكرون أنهم من أولاد اليهود أو المجوس، وهم يدّعون علم الباطن الذي مضمونه الكفر بالله وملائكته وكتبه ورسله واليوم الآخر، وعندهم: لا جنة ولا نار ولا بعث ولا نشور... ويستهينون باسم الله ورسوله حتى يكتب أحدهم (الله) في أسفلِ نعله سبحانه وتعالى عمّا يقول الظالمون علواً كبيراً»(٤).

وأما المعز الذي أحدث هذه الموالد فكان له سيرة سيئة؛ إذ قرّب اليهود والنصارى، وأقصى المسلمين، وحرّف الأذان الشرعي فهو أول من دعى بالأذان بحي على خير العمل، ويكفي في بيان حقيقته أن الشاعر ابن هانئ الأندلسي مدحه فقال فيه:

ما شئت لا ما شاءت الأقدار   فاحكم فأنت الواحد القهار(٥)

---

(٤) مختصر الفتاوى للبعلي (٤٨٨).

(٥) انظر البيت في: حسن المحاضرة للسيوطي (٢/ ٢٠) وذكر أن ابن هانئ كفّره غير واحد من العلماء لمبالغته في المدح، ومن ذلك قوله هذا البيت في المعز العبيدي.

ولهذا المعز الذي أحدث الموالد في الإسلام سيرة سيئة، وهو صاحب عقيدة فاسدة كما هو حال آبائه وأبنائه، قال أبو شامة المقدسي: «وقام بعده ابنه الملقب بالمعز فبث دعاته فكانوا يقولون: هو المهدي الذي يملك الأرض، وهو الشمس التي تطلع من مغربها!! وكان يسره ما ينزل بالمسلمين من المصائب من أخذ الروم بلادهم، واحتجب عن الناس أياماً ثم ظهر وأوهم أن الله رفعه إليه، وأنه كان غائباً في السماء، وأخبر الناس بأشياء صدرت منهم كان ينقلها=

نعوذ بالله من الكفر والضلال. فهل يشك عاقل في حقيقة هذا الرجل وحقيقة دولته الباطنية، وهل يمكن أن يقال: إن دوافع إحداث هذه الموالد كان محبة النبي صلى الله عليه وسلم ومحبته آل بيته ومن قِبَلِ مَنْ؟! من قبل قوم كانوا يظهرون محبة آل البيت ويبطنون العقائد الفاسدة، ويمالئون أهل الكفر على أهل الإسلام، وماذا بعد الحق إلا الضلال؟!

= إليه جواسيس له؛ فامتلأت قلوب العامة الجهال منه، وهذا أول خَلْف خلفائهم بمصر، وهو الذي تنسب إليه القاهرة المعزية، واستدعى بفقيه الشام أبي بكر بن أحمد بن سهل الرملي ـ ويعرف بابن النابلسي ـ فحمل إليه في قفص خشب فأمر بسلخه، فسلخ حياً، وحشي جلده تبناً وصلب ـ رحمه الله تعالى ـ قال أبو ذر الهروي: سمعت أبا الحسن الدارقطني يذكره ويبكي ويقول: كان يقول وهو يسلخ: ﴿كَانَ ذَلِكَ فِي الكِتَابِ مَسْطُورًا﴾ [الإسراء: ٥٨] اهـ مختصر الروضتين (١٥٩ ـ ١٦٠).

وذكر المؤرخون أنه قرب المنجمين وكان يأخذ بأقوالهم. انظر: تاريخ الإسلام للذهبي (٢٦/ ٣٥٠) والنجوم الزاهرة (٤/ ٧٥)، وذكر ابن عذارى المراكشي في البيان المُغرب (١/ ٢٢٣): أن المعز في سنة ٣٤٩هـ وجه أئمة المساجد والمؤذنين، يأمرهم ألا يؤذنوا إلا ويقولوا فيه: «حي على خير العمل» قال السيوطي: «ومن غرائبه: أنه استوزر رجلاً نصرانياً يقال له: عيسى بن نسطورس، وآخر يهودياً اسمه ميشا، فعز بسببهما اليهود والنصارى على المسلمين في ذلك الزمان؛ حتى كتبت إليه امرأة في قصة في حاجة لها تقول: بالذي أعز النصارى بعيسى ابن نسطورس، واليهود بميشا، وأذل المسلمين بك؛ لما كشفت عن ظلامتي» اهـ. حسن المحاضرة (٢/ ٢٢) وانظر ترجمته في: المنتظم (٧/ ٨٢) والعبر (٢/ ٣٣٩) ومرآة الجنان (٢/ ٣٨٣) وشذرات الذهب (٣/ ٥٢) والبداية والنهاية (١١/ ٣٨٣) والخطط (١/ ٣٥١).

أعوذ بالله من الشيطان الرجيم: ﴿**أَفَمَن زُيِّنَ لَهُ سُوءُ عَمَلِهِ فَرَآهُ حَسَنًا فَإِنَّ اللَّهَ يُضِلُّ مَن يَشَاءُ وَيَهْدِي مَن يَشَاءُ فَلَا تَذْهَبْ نَفْسُكَ عَلَيْهِمْ حَسَرَاتٍ إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ بِمَا يَصْنَعُونَ**﴾ [فاطر: ٨].

بارك الله لي ولكم في القرآن العظيم...

الخطبة الثانية

الحمد لله حمداً طيباً كثيراً مباركاً فيه كما يحب ربنا ويرضى، أحمده وأشكره وأتوب إليه وأستغفره، وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له، وأشهد أن محمداً عبده ورسوله صلى الله وسلم وبارك عليه وعلى آله وأصحابه ومن اهتدى بهداهم إلى يوم الدين.

أما بعد: فاتقوا الله تعالى وأطيعوه، والتزموا سنة نبيه محمد صلى الله عليه وسلم، وإياكم والمحدثات؛ فإنها تباعد بين العبد وربه، وتؤدي إلى ترك السنن، وهي من أسباب سوء الخاتمة ﴿**قُلْ إِن كُنتُمْ تُحِبُّونَ اللَّهَ فَاتَّبِعُونِي يُحْبِبْكُمُ اللَّهُ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ**﴾ [آل عمران: ٣١].

أيها المؤمنون: لم يكتف مشائخ الضلالة بجر الناس إلى هذه البدعة المنكرة؛ بل حاولوا إقناعهم بأن الأمة كانت تحتفل بذلك على مر العصور، وأن هذه الموالد لم تنكرها إلا فئة محدودة من العلماء ينعتونهم: (بالوهابيين) وهذا من أوضح الكذب والافتراء؛ إذ إن علماء كثر من مصر والعراق والشام والمغرب وسائر الأمصار أنكروا هذه البدعة، وشنعوا على أهلها. وحَصْرُ المنكرين لهذه البدعة في علماء الجزيرة

العربية مقصود؛ لأجل إبطال الحق بإخفاء أنصاره، وإظهار الباطل بتكثير أتباعه.

وأوفى كتاب ألف في تاريخ الاحتفال بالمولد النبوي كتبه أحد المتحمسين لهذه البدعة، الناشرين لها، المحتفين بها، ذلكم هو المؤرخ المصري: حسن السندوبي، ومع اهتمامه بتلك البدعة، وتأييده لها؛ فإنه اعترف في كتابه بأنها من المحدثات في الدين. وقال في كتابه: (تاريخ الاحتفال بالمولد النبوي) ما نصه: «وهنا يجمل بي أن أقول: إن هذه المواسم والأعياد والموالد وما شاكلها وجرى في سبيلها إنما تعد من البدع التي لم يأذن بها الله، ولا ورد منها ما يشير إلى أن رسول الله صلى الله عليه وسلم أمر بها، أو أشار إليها، أو باشرها في قول أو فعل ـ حاشا عيدي الأضحى والفطر ـ وكذلك لم يعرفها الصحابة على طبقاتهم، ولم يشهدها أحد من التابعين على درجاتهم، ولم ينوه بها أحد من الأئمة المجتهدين الذين ضبطوا أصول الشريعة، وحرروا فروعها، وبينوا مدلولاتها»(٦).

ثم ذكر بعد ذلك أن الواقع فرضها بإحداث الفاطميين لها، وأنه يؤيدها من باب ضغط الواقع ليس إلا.. وهو ما قال هذا الكلام إلا بعد أن بحث ونقب في كتب التاريخ والآثار والفقه لعله يعثر على ما يدل على وجودها في الصدر الأول من الإسلام، فلما لم يعثر على

---

(٦) تاريخ الاحتفال بالمولد النبوي من عصر الإسلام إلى عصر فاروق الأول لحسن السندوبي (٢٢ ـ ٢٣).

شيء من ذلك بعد طول بحث وتنقيب اعترف بهذه الحقيقة المهمة.

إن هذه الاحتفالات لا تنفع الإسلام شيئاً؛ بل ضررها ظاهر على المسلمين، وأكبر دليل على ذلك دعم الكفار والمنافقين لها بقصد هدم الشريعة، وتغيير معالم الملة، وتشويه صورة الإسلام، وحصره في مظاهر أولئك الدراويش الذين يتراقصون ويتمايلون في احتفالات المولد، ويوضح حقيقة ذلك ما ذكره المؤرخ الجبرتي في أخبار مصر من أن القائد الفرنسي نابليون ـ إبان استعماره لمصر ـ أمر الشيخ البكري بإقامة الاحتفال بالمولد، وأعطاه ثلاثمئة ريال فرنسي لأجل ذلك، وأمره بتعليق الزينات؛ بل إن نابليون حضر المولد بنفسه، واحتفل به مع المسلمين!![(٧)].

وكثير من العلمانيين الذين رفضوا الشريعة، وحاربوا الإسلام بأقوالهم وأقلامهم يحضرون تلك الاحتفالات ويشجعونها؛ فلولا أنها من سبل هدم الديانة في قلوب الناس لما فعلوا ذلك، ولما فعله المستعمر النصراني الحاقد نابليون.

وبعد ـ أيها الإخوة ـ فإن ما يعرض حيال هذا الموضوع ليكشف

---

(٧) عجائب الآثار في التراجم والأخبار (١/ ٢٠١) وفيه: سأل صاري عسكر عن المولد النبوي ولماذا لم يعملوه كعادتهم؟ فاعتذر الشيخ البكري بتعطيل الأمور، وتوقف الأحوال، فلم يقبل وقال: لابد من ذلك، وأعطى له ثلاثمئة ريال فرانسا معونة، وأمر بتعليق تعاليق وأحبال وقناديل، واجتمع الفرنساوية يوم المولد، ولعبوا ميادينهم، وضربوا جلودهم ودبادبهم بطول النهار والليل بالبركة تحت داره... إلخ.

حقيقة الحياد والموضوعية التي تتشدق بها كثير من القنوات الإعلامية، ولن يتضرر الإسلام بذلك؛ لأن الله تعالى قد تكفّل بحفظه؛ لكن الجهلة المتلقين عن هذه القنوات هم من سيتضرر بهذا الطرح الخبيث.

ألا فاتقوا الله ربكم، واحفظوا بيوتكم وأولادكم من وسائل الشبهات، والشهوات، وأسباب الضلال والفساد، وصلوا وسلموا على نبيكم كما أمركم بذلك ربكم..

٢٨- التحذير من الفتن

٢٢/ ٣/ ١٤٢٤هـ

الحمد لله، نحمده ونستعينه ونستغفره، ونعوذ بالله من شرور أنفسنا ومن سيئات أعمالنا، من يهده الله فلا مضل له، ومن يضلل فلا هادي له، وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له، وأشهد أن محمداً عبده ورسوله..

﴿يَا أَيُّهَا الذينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ حَقَّ تُقَاته وَلا تَمُوتُنَّ إِلاَّ وَأَنتُم مُّسْلمُونَ﴾ [آل عمران: ١٠٢] ﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ اتَّقُوا رَبَّكُمُ الذي خَلَقَكُم مِّن نَّفْس وَاحدَة وَخَلَقَ منْهَا زَوْجَهَا وَبَثَّ منْهُمَا رجَالاً كَثيرًا وَنسَاءً وَاتَّقُوا اللَّهَ الَّذي تَسَاءَلُونَ به وَالأَرْحَامَ إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلَيْكُمْ رَقيبًا﴾ [النساء: ١] ﴿يَا أَيُّهَا الذينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَقُولُوا قَوْلاً سَديدًا ⁽٧٠⁾ يُصْلحْ لَكُمْ أَعْمَالَكُمْ وَيَغْفرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ وَمَن يُطعِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ فَقَدْ فَازَ فَوْزًا عَظيمًا﴾ [الأحزاب: ٧٠-٧١].

أما بعد: فإن خير الكلام كلام الله تعالى، وخير الهدي هدي محمد صلى الله عليه وسلم، وشر الأمور محدثاتها، وكل محدثة بدعة، وكل بدعة ضلالة، وكل ضلالة في النار.

أيها الناس: كلما ابتعد الناسُ عن زمن النبوة زاد ابتعادهم عن الحق، ومسارعتهم في الباطل. وسببُ ذلك: الهوى والجهل، فزمان النبي صلى الله عليه وسلم، وزمان خلفائه الراشدين المهديين عليهم رضوان الله تعالى هو زمان العلم والهدى، والنور والتقى، والتجرد من الهوى. وبانقضاء ذلك الزمن الفاضل ظهرت البدع والأهواء،

وانتشرت الجهالاتُ والضلالات، وهي في ازدياد منذ ذلك الحين إلى يومنا هذا، وستظلُ كذلك إلى ما شاء الله تعالى تبعاً لفساد الزمان الذي أخبر عنه النبي صلى الله عليه وسلم.

قال الزبير بن عدي رحمه الله تعالى: «أتينا أنس بن مالك فشكونا إليه ما يلقون من الحجاج، فقال: اصبروا؛ **فإنه لا يأتي عليكم زمان إلا والذي بعده شرٌّ منه حتى تلقوا ربكم**، سمعته من نبيكم صلى الله عليه وسلم» رواه البخاري(١).

والأزمان التي يكون متأخرها أكثر شراً من متقدمها كما جاء في الحديث ليس المقصود بذلك الشر قلة الأرزاق والأموال، وإنما هو ذهاب العلم، وكثرة الجهل، واستحكام الهوى، ويستتبع ذلك كثرة الفتن والمحن، والإثم والضلال؛ كما جاء مصرحاً به عن ابن مسعود رضي الله عنه قال: «لا يأتي عليكم يومٌ إلا وهو شر من اليوم الذي كان قبله، حتى تقوم الساعة، لست أعني رخاءً من العيش يصيبه، ولا مالاً يفيده، ولكن لا يأتي عليكم يوم إلا وهو أقل علماً من اليوم الذي مضى قبله، فإذا ذهب العلماء استوى الناس فلا يأمرون بالمعروف، ولا ينهون عن المنكر، فعند ذلك يهلكون»(٢).

---

(١) أخرجه أحمد (٣/ ١٣٢)، والبخاري في الفتن باب لا يأتي زمان إلا والذي بعده شر منه (٧٠٦٨). والترمذي في الفتن باب (٣٥) (٤٠٣٧)، وأبو يعلى (٤٠٣٧)، وابن حبان (٥٩٥٢).

(٢) عزاه الحافظ في الفتح ليعقوب بن شيبة (١٣/ ٢٤)، وانظر: تحفة الأحوذي (٦/ ٣٧٤).

=

من أجل ذلك كان الخير كل الخير في أول هذه الأمة، في عهد الرسول صلى الله عليه وسلم حيث العلم والهدى، ثم في عهد صحابته رضي الله عنهم، وفي القرون المفضلة التي زكاها النبي صلى الله عليه وسلم، وكان الشر والفتن والافتراق في أخريات هذه الأمة.

= وقد ذكر الحافظ استشكال هذا الإطلاق مع أن بعض الأزمنة تكون في الشر دون التي قبلها؛ كما في زمن عمر بن عبد العزيز رحمه الله، وقد كان عقب الحجاج بزمن يسير، وذكر أجوبة لهذا الإشكال منها هذا الأثر عن ابن مسعود وقال: «وهو أولى بالاتباع» كما ذكر أجوبة أخرى هي:

١ ـ جواب الحسن البصري رحمه الله تعالى حينما سئل عن وجود عمر بن عبدالعزيز بعد الحجاج فقال: «لابد للناس من تنفيس».

٢ ـ أن المراد بالتفضيل تفضيل مجموع العصر على مجموع العصر؛ فإن عصر الحجاج كان فيه كثير من الصحابة في الأحياء، وفي عصر عمر بن عبدالعزيز انقرضوا، والزمان الذي فيه الصحابة خير من الزمان الذي بعده.

٣ ـ أن المراد بالأزمنة المذكورة أزمنة الصحابة بناء على أنهم المخاطبون بذلك فيختص بهم، فأما من بعدهم فلم يقصد بالخبر المذكور، وذكر الحافظ هذا الجواب رداً على استشكال زمن عيسى عليه السلام؛ إذ زمن النبي المعصوم لا شر فيه؛ بل هو خير.

٤ ـ احتمال أن يكون المراد بالأزمنة ما قبل وجود العلامات العظام كالدجال وما بعده، ويكون المراد بالأزمنة المتفاضلة في الشر من زمن الحجاج فما بعده إلى زمن الدجال، وأما زمن عيسى عليه السلام فله حكم مستأنف.

٥ ـ قال الحافظ: ثم وجدت عن ابن مسعود ما يصلح أن يفسر به الحديث وهو ما أخرجه الدارمي بسند حسن عن عبدالله قال: «لا يأتي عليكم عام إلا وهو شر من الذي قبله، أما إني لست أعني عاماً» اهـ من الفتح (١٣/ ٢٤) وقول عبدالله بن مسعود رضي الله عنه في سنن الدارمي (١٨٨).

وكل فتنة تأتي تُنسي الناس ما قبلها من الفتن حتى يعتاد الناس عليها، فتخلفها فتنة أعظم، وهكذا إلى حين نزول المسيح ابن مريم عليه السلام؛ كما قال عبد الله بن عمرو رضي الله عنهما: «كنا مع رسول الله صلى الله عليه وسلم في سفر، فنزلنا منزلاً، فمنا من يصلح خباءه، ومنا من ينتضل، ومنا من هو في جَشَرِه إذ نادى منادي رسول الله صلى الله عليه وسلم: الصلاة جامعة، فاجتمعنا إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال: **إنه لم يكن نبي قبلي إلا كان حقاً عليه أن يدل أمته على خير ما يعلمه لهم، وينذرهم شرَّ ما يعلمه لهم، وإن أمتكم هذه جعل عافيتها في أولها، وسيصيب آخرها بلاء وأمور تنكرونها، وتجيء فتنة فيُرَقِّقُ بعضها بعضاً، وتجيءُ الفتنة فيقول المؤمن: هذه مهلكتي، ثم تنكشف، وتجيء الفتنة فيقول المؤمن: هذه هذه، فمن أحب أن يُزحزح عن النار ويدخل الجنة فلتأته منيته وهو يؤمن بالله واليوم الآخر، وليأتِ إلى الناس الذي يُحب أن يؤتى إليه، ومن بايع إماماً فأعطاه صفقة يده وثمرة قلبه، فليطعه إن استطاع، فإن جاء آخر ينازعه فاضربوا عنق الآخر**، فدنوت منه فقلت له: أنشدك الله، آنت سمعت هذا من رسول الله صلى الله عليه وسلم؟ فأهوى إلى أذنيه وقلبه بيديه، وقال: سمعته أذناي ووعاه قلبي» رواه مسلم[٣].

---

(٣) أخرجه أحمد (٢/ ١٦١)، ومسلم في الإمارة باب وجوب الوفاء ببيعة الخلفاء الأول فالأول (١٨٤٤)، وابن ماجه في الفتن باب ما يكون من الفتن (٣٩٥٦) وقوله في الحديث: «ومنا من هو في جَشَرِه» معناه: في دوابه يعتني بها.

لقد نصح النبي صلى الله عليه وسلم لأمته أعظم النصح، وذكر لها ما يكون من الشر والفتنة، وبيّن لها العمل تجاه تلك الفتن؛ فأرشدها إلى وحدة الكلمة، واجتماع الشمل، وحذرها من الفرقة، أو شق عصا الطاعة، قال شيخ الإسلام ابن تيمية رحمه الله تعالى: «والاجتماع والائتلاف من أعظم الأمور التي أوجبها الله ورسوله، قال الله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ حَقَّ تُقَاتِهِ وَلَا تَمُوتُنَّ إِلَّا وَأَنتُم مُّسْلِمُونَ (١٠٢) وَاعْتَصِمُوا بِحَبْلِ اللَّهِ جَمِيعًا وَلَا تَفَرَّقُوا ...﴾ [آل عمران: ١٠٢-١٠٣] إلى قوله: ﴿وَلَا تَكُونُوا كَالَّذِينَ تَفَرَّقُوا وَاخْتَلَفُوا مِن بَعْدِ مَا جَاءَهُمُ الْبَيِّنَاتُ وَأُولَٰئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ﴾ [آل عمران: ١٠٥].

... وهذا الأصل العظيم: وهو الاعتصام بحبل الله جميعاً، وأن لا يُتفرق هو من أعظم أصول الإسلام، ومما عظمت وصية الله به في كتابه، ومما عظم ذمه لمن تركه من أهل الكتاب وغيرهم، ومما عظمت به وصية النبي صلى الله عليه وسلم في مواطن عامة وخاصة مثل قوله: **«عليكم بالجماعة فإن يد الله مع الجماعة»**[٤]، وقوله: **«من رأى من**

---

(٤) هذا اللفظ لم أعثر عليه من قول النبي صلى الله عليه وسلم، وإنما وجدته من حديث ابن مسعود رضي الله عنه موقوفاً عليه، ذكره المزي في تهذيب الكمال في ترجمة عمرو بن ميمون الأودي (٢٢/ ٢٦١، برقم: ٤٤٥٨)، وجاء عن عمر رضي الله عنه في خطبته في الجابية بلفظ: «فمن أراد منكم بحبحة الجنة فليلزم الجماعة فإن الشيطان مع الواحد وهو من الاثنين أبعد» أخرجه أحمد (١/ ١٨)، والترمذي في الفتن باب ما جاء في لزوم الجماعة وقال: حسن صحيح غريب من هذا الوجه (٢١٦٥)، وصححه ابن حبان (٧٢٥٤)، =

أميره شيئاً يكرهه فليصبر عليه؟ فإنه من فارق الجماعة قيد شبر فقد خلع ربقة الإسلام من عنقه»[٥]، وقوله: «**ألا أنبئكم بأفضل من درجة الصلاة والصيام والصدقة والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر؟** قالوا: بلى يا رسول الله، قال: **صلاحُ ذات البين؛ فإن فساد ذات البين هي الحالقة، لا أقول تحلق الشعر، ولكن تحلق الدين»**[٦]... إلى أن قال رحمه الله: وباب الفساد الذي وقع في هذه الأمة بل وفي غيرها؛ هو التفرق والاختلاف» اهـ كلامه[٧].

ابتدأت الفتن تطل برأسها على هذه الأمة بمقتل عمر رضي الله عنه الذي كان باباً مغلقاً دون الفتن، فانكسر الباب بقتله، فلا يغلق إلى آخر

= والحاكم وقال: على شرط الشيخين ووافقه الذهبي (١/ ١١٣)، وجاء هذا الحديث مصرحاً برفعه عند ابن أبي عاصم في السنة (٨٨) وقال الترمذي بعد ذكره: «وقد روي هذا الحديث من غير وجه عن عمر عن النبي صلى الله عليه وسلم»، وجاء مرفوعاً من حديث زكريا بن سلام عن أبيه عن رجل قال: انتهيت إلى النبي صلى الله عليه وسلم وهو يقول: «**أيها الناس عليكم بالجماعة وإياكم والفرقة... ثلاث مرات**» أخرجه أحمد (٥/ ٣٧٠).

(٥) أخرجه من حديث ابن عباس رضي الله عنهما البخاري في الفتن باب قول النبي صلى الله عليه وسلم: «**سترون بعدي أموراً تنكرونها**» (٧٠٥٤).

(٦) أخرجه من حديث أبي الدرداء رضي الله عنه أحمد (٦/ ٤٤٤)، وأبو داود في الأدب باب إصلاح ذات البين (٤٩١٩)، والترمذي في صفة القيامة والرقاق والورع باب سوء ذات البين، وصححه (٢٥٠٩)، والبغوي في شرح السنة (٣٥٣٨)، وصححه ابن حبان (٥٠٩٢)، وله شاهد من حديث أبي هريرة رضي الله عنه عند الترمذي (٢٥٠٩).

(٧) مجموع الفتاوى (٢٢/ ٣٥٨ ـ ٣٦٠) مع كثير من الاختصار.

الزمان؛ كما جاء التصريح بذلك في حديث حذيفة رضي الله عنه[٨].

وفي أخريات خلافة عثمان رضي الله عنه خرج الخارجون عليه، وثار الثائرون على سياسته وخلافته من دهماء الأعراب، ورعاع الناس، يقودهم في تلك الفتنة دعاة شر وضلال، فهب جمع من الصحابة لحمايته؛ ولكنه فدى الأمة بدمه، وأمر المنتصرين له بإغماد سيوفهم، ولزوم بيوتهم؛ حتى لا تكون فتنة، فقتله الخارجون عليه وهو يقرأ القرآن، ومن يومها وقع السيف في هذه الأمة، وعظمت الفرقة، واشتد الخلاف، والتبس الحق بالباطل، فاعتزل أكثر الصحابة رضي الله عنهم الفتن المتلاحقة؛ كما قال محمد بن سيرين رحمه الله تعالى: «هاجت الفتنة وأصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم عشرة آلاف، فما حضرها منهم مئة، بل لم يبلغوا ثلاثين»[٩]، وقال الشعبي رحمه الله تعالى: «لم يشهد الجمل من أصحاب النبي صلى الله عليه وسلم غير علي وعمار وطلحة والزبير فإن جاوزوا بخامس فأنا كذاب»[١٠].

وقال شيخ الإسلام ابن تيمية رحمه الله تعالى: «ولم تحدث في

---

(٨) أخرجه أحمد (٥/ ٣٨٦)، ومسلم في الإيمان باب بيان أن الإسلام بدأ غريباً وسيعود غريباً، وأنه يأرز بين المسجدين (١٤٤).

(٩) أخرجه الخلال في السنة (١/ ٤٤٦) وعبد الله بن الإمام أحمد في العلل ومعرفة الرجال (٣/ ١٨٢)، وقال شيخ الإسلام ابن تيمية في منهاج السنة النبوية بعد أن ذكره: «وهذا الإسناد من أصح إسناد على وجه الأرض» (٦/ ٢٣٦).

(١٠) أخرجه ابن أبي شيبة في مصنفه (٧/ ٥٣٨) برقم: (٣٧٧٨٢)، وعبدالله بن الإمام أحمد في العلل (٣/ ٤٥).

خلافة عثمان بدعة ظاهرة، فلما قُتل وتفرّق الناس حدثت بدعتان متقابلتان: بدعةُ الخوارج المكفرين لعلي، وبدعةُ الرافضة المدعين لإمامته وعصمته أو نبوته أو إلاهيته، ثم لما كان في آخر عصر الصحابة في إمارة ابن الزبير وعبد الملك حدثت بدعة المرجئة والقدرية، ثم لما كان في أول عصر التابعين في أواخر الخلافة الأموية حدثت بدعة الجهمية المعطلة، والمشبهة الممثلة، ولم يكن على عهد الصحابة شيء من ذلك» اهـ كلامه(١١).

إن الملاحظ ـ أيها الإخوة ـ أن الناس إذا أحدثوا بدعة من البدع أحدث آخرون بدعة أخرى تقابلها وتعارضها، فيقع كثير من الناس في حيرة بين البدعتين إلا من هداه الله تعالى بالعلم النافع؛ فجانب البدعتين، وأعرض عن خطأ الطائفتين.

ظهرت في الإسلام بدعة الخوارج الذين يكفرون أهل المعاصي، ويستحلون دماءهم، فقابلها المرجئة ببدعتهم الضالة التي تنفي الكفر عمن يستحقه، وتدخل في الإيمان من ليس من أهله.

ولما قال أقوام بالجبر عارضهم آخرون بالقدر. ولما قال أقوام ببدعة التمثيل والتشبيه في صفات الرب تبارك وتعالى، قابلهم آخرون ببدعة النفي والتعطيل، فعطلوا الرب تبارك وتعالى من صفاته اللائقة به!

ولما أخذ أناس بنصوص الوعيد والترهيب، وقصروا الناس على الأخذ بها، جاء آخرون فدعوا الناس إلى نصوص الوعد والترغيب،

(١١) منهاج السنة النبوية (٦/ ٢٣١).

وقصروهم على ذلك؛ رداً على أهل الوعيد والترهيب.

فلا تظهر بدعة إلا قوبلت بأخرى في الطرف الآخر، ولا يُفْرِط أقوام إلا ويقابلهم آخرون بالتفريط، وهكذا احتار جمهور الأمة في كثير من الأعصار والأمصار بين دعاة الغلو ودعاة التقصير، وضاع الحق في دوامة الإفراط والتفريط، ولم يسلم من ذلك إلا أهل الحق من أتباع السلف الصالح الذين ثبتوا على الأمر الأول، وأخذوا بوسطية الإسلام البعيدة عن الإفراط أو التفريط، والغلو أو التقصير.

أسأل الله تعالى أن يهدينا صراطه المستقيم، وأن يثبتنا على الحق المبين، وأن يتوفانا على الإسلام والسنة، غير مبدلين ولا مغيرين، إنه سميع مجيب.

أعوذ بالله من الشيطان الرجيم: ﴿**وَأَنَّ هَذَا صِرَاطِي مُسْتَقِيمًا فَاتَّبِعُوهُ وَلَا تَتَّبِعُوا السُّبُلَ فَتَفَرَّقَ بِكُمْ عَن سَبِيلِهِ ذَلِكُمْ وَصَّاكُم بِهِ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ**﴾ [الأنعام: ١٥٣].

بارك الله لي ولكم في القرآن العظيم...

الخطبة الثانية

الحمد لله حمداً طيباً كثيراً مباركاً فيه كما أمر، والشكر له على نعمه العظيمة، وآلائه الجسيمة؛ فقد تأذن بالزيادة لمن شكر.

وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له؛ شهادة نرجو بها النجاة في حال الخوف والخطر، وأشهد أن محمداً عبده ورسوله؛ إرغاماً لمن جحد به وكفر، صلى الله وسلم وبارك عليه وعلى آله وأصحابه

السادة الغرر، والتابعين لهم بإحسان إلى يوم العرض الأكبر.

أما بعد: فاتقوا الله ـ عباد الله ـ وأطيعوه، واحذروا الذنوب والمعاصي، والأهواء والبدع؛ فإنها أبوابُ الشرِ والفتن.

أيها المسلمون: الأمن نعمةٌ لا يعرف قدرها إلا من فقدها، وهو ركنٌ من أركان النعيم في الجنة؛ كما قال الله سبحانه: ﴿**يَدْعُونَ فِيهَا بِكُلِّ فَاكِهَةٍ آمِنِينَ**﴾ [الدخان: ٥٥]، وفي الآية الأخرى: ﴿**لَا يَحْزُنُهُمُ الْفَزَعُ الْأَكْبَرُ وَتَتَلَقَّاهُمُ الْمَلَائِكَةُ هَذَا يَوْمُكُمُ الَّذِي كُنتُمْ تُوعَدُونَ**﴾ [الأنبياء: ١٠٣].

إن الأمن ليس طعاماً يجاوزه من لا يشتهيه إلى ما يشتهيه، وليس لباساً ينزعه العبد ليستبدل به غيره؛ فإنه إن انُتزع فلا لباس يخلفه إلا لباس الخوف والجوع، نسأل الله العافية والسلامة.

وإذا رُفع الأمن، وحل الخوف؛ تولدت الفتن، وتشعبت الآراء، وعظم الافتراق، وأعجب كل ذي رأي برأيه، حتى تكون البدعة وضدها في البيت الواحد، ويعادي الأخ أخاه، ويقاتله بسبب قناعة كل واحد منهما بفكر يعارض فكر الآخر؛ كما ابتلي بذلك التابعي المحدث الجليل سالم ابن أبي الجعد رحمه الله تعالى؛ إذ كان له ستة بنين: «فاثنان شيعيان، واثنان مرجئان، واثنان خارجيان، فكان أبوهم يقول: قد خالف الله بينكم»[١٢].

---

(١٢) سير أعلام النبلاء (٥/ ١٠٩).

وإذا ما وقع الافتراق، واشتعلت الفتن؛ اندرس الدين، وتعطلت الحدود، واختلط الأمر، وانتهكت الأعراض، وانتهبت الأموال، وسفكت الدماء؛ حتى يقتل الرجل لا يدري فيم قتل، ولا يدري قاتله فيم قتله، حينها يمر الرجل بقبر الرجل فيقول: «يا ليتني مكانه» كما صح ذلك عن رسول الله صلى الله عليه وسلم(١٣).

قال عثمان بن حيان رحمه الله تعالى وكان والياً على المدينة للوليد ابن عبد الملك رحمه الله: «أيها الناس، والله ما رأينا شعاراً قط مثل الأمن، ولا رأينا حِلْساً قط شراً من الخوف، فالزموا الطاعة؛ فإن عندي يا أهل المدينة خبرة من الخلاف، والله ما أنتم بأصحاب قتال، فكونوا من أحلاس بيوتكم، وعضوا على النواجذ... فإن الأمر إنما يُنقض شيئاً شيئاً حتى تكون الفتنة، وإن الفتنة من البلاء، والفتن تذهب بالدين وبالمال والولد» اهـ(١٤).

إن أعظم سبب للأمن هو إقامة دين الله تعالى، والتزام أمره، وصيانة شريعته عن عبث العابثين، وانتحال المبطلين. وفتن الخروج على الولاة، وتكفير المسلمين لا تعالج ببدع المرجئة والمخذلين، فالبدعة تعالج بالسنة، ولا تعالج ببدعة أخرى حتى لا يضيع الحق بين البدعتين.

---

(١٣) وذلك في حديث أبي هريرة رضي الله عنه عند مالك (١/ ٢٤١)، وأحمد (٢/ ٢٣٦)، والبخاري في الفتن باب لا تقوم الساعة حتى يغبط أهل القبور (٧١١٥)، ومسلم في الفتن باب لا تقوم الساعة حتى يمر الرجل بقبر الرجل فيتمنى أن يكون مكان الميت من البلاء (٤/ ٢٢٣١) برقم: (١٥٧).

(١٤) باختصار من تاريخ الطبري (٤/ ٢٣).

لقد سمعنا صهاينة أهل الكتاب وهم يعتدون على ديننا وقرآننا، ويتهمون مناهجنا ونبينا محمداً صلى الله عليه وسلم بالتطرف والإرهاب فلم نعجب من ذلك؛ لأنهم أعداؤنا، ولكننا رأينا أقواماً من بني جلدتنا، ينطقون بعربيتنا، يرددون ما يردده الصهاينة بعد وضعه في قوالب أخرى من الهجوم على حلقات تعليم القرآن، وهيئات الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، ومنابر الجمعة، وكراسي التعليم والدعوة!!

لقد رأيناهم في أحوال الفتن والأزمات يحاولون زرع الفرقة، ويشعلون نار الفتنة، في انتهازية قبيحة، واستغلال بغيض؛ لتحقيق مآرب شخصية، والوصول إلى أهداف مشبوهة.

واعجباً من أقوام يزعمون أن حلقات تعليم القرآن تُفرِّخ التطرف والإرهاب وهم يعلمون أنها لا تُدَرِّس إلا القران! فلماذا لا يهاجمون القرآن مباشرة كما يفعل أساتذتهم الصهاينة، ألأنهم يعلمون أن الأمة لا ترتضي ذلك؟!

يا للغرابة من أشخاص يعقدون الندوات والمحاضرات، في الإذاعات والفضائيات، ويدبجون المقالات والافتتاحيات في الصحف والمجلات يزعمون أن مناهجنا هي السبب الرئيس للتطرف والإرهاب وهم يعلمون أن مناهجنا ليس فيها شيء خارج عن الكتاب والسنة، فلماذا لا يقولون: إن الكتاب والسنة هما منبع التطرف والإرهاب كما يقول صهاينة الغرب؟!

يا ويلهم من جبار منتقم يغار على حرماته، كيف يجترئون على ذلك وهم يشاهدون دولاً قسرت شعوبها على المناهج الإلحادية،

ودرّست تلاميذها المناهج القومية والشيوعية، وضحايا التطرف والإرهاب فيها جاوزت عشرات الآلاف!!

ثم أين درس هؤلاء الكتّاب والمفكرون، هل درسوا في القمر أو استجلبت له مناهج من المريخ؟! إنهم درسوا في مدارسنا، وتربوا على مناهجنا، فإن كانت مناهجنا هي سبب التطرف والإرهاب فهل هم من الإرهابيين المتطرفين؟ وما الذي يخرجهم عن ذلك؟!

لقد كان بعض هؤلاء الكتاب من الغلاة المتنطعين في الدين، فتحولوا إلى غلاة علمانيين، وآخرون منهم كانوا من غلاة الماركسيين والقوميين والبعثيين، فتحولوا إلى غلاة ليبراليين، وصاروا أكثر ليبرالية وامبريالية من أهلها الأصليين، فهم لا يعيشون إلا على الغلو والإفراط، ولا يعرفون الوسطية المحمودة.

ومع أنهم أعداد قليلة، ولا يمثلون إلا أنفسهم؛ فإنهم يستفزون جمهور الأمة بأطروحاتهم الخاطئة، ويريدون جرّ الناس كلهم إلى غلوهم وتنطعهم، ويأبون إلا قسرهم على منهجهم وسلوكهم في إرهاب فكري ضيق؛ وهذا من أعظم ما يسبب الاختلاف والفرقة، ويؤجج نار الصراعات والثارات، ويفتح باب الفتن والمحن، فعلى كل صاحب قلم ولسان أن يتقي الله تعالى في أمة محمد صلى الله عليه وسلم، ولا يكون عوناً لأعدائها عليها، ولا يشعل نار فتنة لا يرجى إطفاؤها؛ فإن من أشعل فتنة أحرقته نارها، وكان عليه وزرها ووزر من سقط فيها.

أسأل الله العظيم رب العرش الكريم أن يجنبنا الفتن ما ظهر منها

وما بطن، وأن يديم علينا نعمة الإيمان والأمن والاستقرار، وأن يحفظنا من كيد الفجار، ومكر الكفار، وأن يوفق ولاتنا لما فيه صلاح العباد والبلاد.

اللهم من أراد ديننا وقرآننا وأمننا بسوء فأحبط كيده، وأبطل مكره، واكفنا شره، وخذه أخذ عزيز مقتدر، إنك على كل شيء قدير.

اللهم صل على محمد وعلى آل محمد كما صليت على إبراهيم وعلى آل إبراهيم إنك حميد مجيد، وبارك على محمد وعلى آل محمد كما باركت على إبراهيم وعلى آل إبراهيم إنك حميد مجيد.

هدي الكتاب والسنة

٢٩- تأملات في آية الكرسي
٣٠- سورة ق
٣١- قوله تعالى ﴿علم الإنسان ما لم يعلم﴾
٣٢- سورة القدر
٣٣- تفسير سورة الزلزلة
٣٤- سورة الكوثر
٣٥- حديث الولي
٣٦- حديث القوة
٣٧- حديث العلم
٣٨- حديث الفتن

٢٩- تأملات في آية الكرسي

الجمعة ١٢/ ١١/ ١٤١٧هـ

الحمد لله، نحمده ونستعينه ونستغفره، ونعوذ بالله من شرور أنفسنا ومن سيئات أعمالنا، من يهده الله فلا مضل له، ومن يضلل فلا هادي له، وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له، وأشهد أن محمداً عبده ورسوله ﴿ **يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ حَقَّ تُقَاتِهِ وَلا تَمُوتُنَّ إِلاَّ وَأَنتُم مُّسْلِمُونَ** (١٠٢) ﴾ [آل عمران] ﴿ **يَا أَيُّهَا النَّاسُ اتَّقُوا رَبَّكُمُ الَّذِي خَلَقَكُم مِّن نَّفْسٍ وَاحِدَةٍ وَخَلَقَ مِنْهَا زَوْجَهَا وَبَثَّ مِنْهُمَا رِجَالاً كَثِيرًا وَنِسَاءً وَاتَّقُوا اللَّهَ الَّذِي تَسَاءَلُونَ بِهِ وَالأَرْحَامَ إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلَيْكُمْ رَقِيبًا** (١) ﴾ [النساء] ﴿ **يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَقُولُوا قَوْلاً سَدِيدًا** (٧٠) **يُصْلِحْ لَكُمْ أَعْمَالَكُمْ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ وَمَن يُطِعِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ فَقَدْ فَازَ فَوْزًا عَظِيمًا** (٧١) ﴾ [الأحزاب].

أما بعد: فإن الله تعالى أنزل هذا القرآن وجعله مصدر هداية، وسبيل توفيق في الدنيا والآخرة، لمن آمن به فقرأه وتدبره ثم عمل به، ﴿ **إِنَّ هَذَا الْقُرْآنَ يَهْدِي لِلَّتِي هِيَ أَقْوَمُ وَيُبَشِّرُ الْمُؤْمِنِينَ الَّذِينَ يَعْمَلُونَ الصَّالِحَاتِ أَنَّ لَهُمْ أَجْرًا كَبِيرًا** (٩) ﴾ [الإسراء: ٩] ما قال يهدي للطريق القويم وإنما قال تعالى ﴿ **لِلَّتِي هِيَ أَقْوَمُ** ﴾ أي في كل شيء يدل على ما هو أفضل وأخير، وفي ذلك إيماء إلى ضمان سلامة أمة القرآن من الحيدة عن الطريق الأقوم؛ لأن القرآن جاء بأسلوب من الإرشاد قويم، ذي أفنان لايحول دونه ودون الولوج إلى العقول حائل، ولايغادر مسلكاً إلى ناحية من

نواحي الأخلاق والطبائع إلا سلكه إليها تحريضاً أو تحذيراً، بحيث لايعدم المتدبر في معانيه اجتناء ثمار أفنانه[١].

أيها الإخوة: وهذه وقفة عابرة على آية عظيمة من آياته في معناها وفضلها، ومايَنبغي أن يعلم عنها، هي أفضل آية في كتاب الله تعالى كما روى أُبيٌّ بن كعب رضي الله عنه أن النبي صلى الله عليه وسلم سأله: «**أيُّ آية في كتاب الله أعظم؟**» قال: الله ورسوله أعلم، قال فرددها مرات ثم قال أُبيّ: آية الكرسي، قال: «**ليهنك العلم أبا المنذر، والذي نفسي بيده إن لها لساناً وشفتين تقدس الملك عند ساق العرش**» أخرجه مسلم وأحمد واللفظ له[٢].

﴿**اللَّهُ لا إِلَهَ إِلاَّ هُوَ**﴾ له جميع معاني الألوهية، لا يستحق الألوهية والعبودية إلا هو، فعبادةُ غيره شرك وضلال، وظلم وبطلان.

﴿**الحَيُّ القَيُّومُ**﴾ متصف بجميع معاني الحياة الكاملة على وجه يليق بجلاله وعظمته. قام بنفسه، واستغنى عن جميع مخلوقاته، وقام بجميع الموجودات؛ فأوجدها وأبقاها، وأمدها بجميع ما تحتاج إليه في وجودها وبقائها؛ فهي مفتقرة إليه وهو غني عنها، ولا قوام لها بدون أمره ﴿**وَمِنْ آيَاتِهِ أَن تَقُومَ السَّمَاءُ وَالأَرْضُ بِأَمْرِهِ**﴾ [الروم: ٢٥][٣]،

---

(١) انظر: التحرير والتنوير للطاهر بن عاشور (١٥/ ٤٠).

(٢) أخرجه مسلم في صلاة المسافرين باب فضل سورة الكهف وآية الكرسي (٨١٠) وأبوداود في الصلاة باب ماجاء في آية الكرسي (١٤٦٠) وأحمد واللفظ له (٥/ ١٨٦).

(٣) انظر: تفسير ابن كثير (١/ ٢٨٠) وتيسير الكريم الرحمن (١/ ٢٠٢).

ومن كمال حياته وقيوميته أنه:

﴿لا تَأْخُذُهُ سِنَةٌ﴾ أي نعاس، ﴿وَلا نَوْمٌ﴾ لأن السِّنَةَ والنوم إنما يعرضان للمخلوقَ الذي يجري عليه الضعف والعجز والانحلال، ولا يعرضان لذي العظمة والكبرياء والجلال، فلا يعتريه تعالى نقص ولا غفلة ولا ذهول عن خلقه بل هو ﴿قَائِمٌ عَلَىٰ كُلِّ نَفْسٍ بِمَا كَسَبَتْ﴾ [الرعد: ٣٣] شهيد على كل شيء، لا يغيب عنه شيء، ولا تخفى عليه خافية.(٤)

قال أبو موسى الأشعريُ رضي الله عنه: قام فينا رسول الله صلى الله عليه وسلم بخمس كلمات فقال: «**إن الله عزوجل لاينام، ولاينبغي له أن ينام، يخفض القسط ويرفعه، يرفع إليه عمل الليل قبل عمل النهار، وعمل النهار قبل عمل الليل، حجابه النور، لو كشفه لأحرقت سُبُحاتُ وجهه ماانتهى إليه بصره من خلقه**» رواه مسلم(٥)؛ فسبحان الله ما أعظمه؟ كيف يعصيه المخلوق الضعيف وهو بهذه القدرة والعظمة؟!

﴿لَّهُ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الأَرْضِ﴾: خلقها ويملكها ويدبرها؛ فالجميع عبيده فلماذا يتكبرون؟! وفي ملكه فلماذا على معصيته يجترئون؟! وتحت قهره وسلطانه فلماذا يظلمون؟! ﴿إِن كُلُّ مَن فِي السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ إِلاَّ آتِي الرَّحْمَنِ عَبْدًا (٩٣) لَقَدْ أَحْصَاهُمْ وَعَدَّهُمْ عَدًّا (٩٤) وَكُلُّهُمْ آتِيهِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ فَرْدًا

---

(٤) المرجعان السابقان.

(٥) أخرجه مسلم في كتاب الإيمان باب قوله عليه السلام: إن الله لاينام (١٧٩) (١/ ١٦٢).

﴿٩٥﴾ [مريم].

ومن تمام ملكه وعظيم سلطانه: أنه لايتجاسر أحد على أن يشفع لأحد عنده إلا بأذنه له في الشفاعة:

﴿من ذَا الَّذي يَشْفَعُ عندَهُ إلاَّ بإذْنه﴾ فكل الوجهاء والشفعاء، عبيد له مماليك، لايقدمون على شفاعة حتى يأذن لهم ﴿قُل لِّلَّه الشَّفَاعَةُ جَميعًا لَّهُ مُلْكُ السَّمَوَات وَالأَرْض﴾ [الزمر: ٤٤] ﴿وَكَم مِّن مَّلَكٍ فِي السَّمَوَات لا تُغْني شَفَاعَتُهُمْ شَيْئًا إلاَّ من بَعْد أَن يَأْذَنَ اللَّهُ لمَن يَشَاءُ وَيَرْضَىٰ ﴿٢٦﴾﴾ [النجم] والله لايأذن لأحدٍ أن يشفع إلا فيمن ارتضى، ولايرتضي إلا توحيده، واتباعَ رسله، فمن لم يتصف بهذا فليس له في الشفاعة نصيب[٦].

﴿يَعْلَمُ مَا بَيْنَ أَيْديهمْ وَمَا خَلْفَهُمْ﴾ دليل على إحاطة علمه بجميع الكائنات، ماضيها وحاضرها ومستقبلها؛ فهو يعلم ما بين أيدي الخلائق من الأمور المستقبليةِ التي لا نهاية لها، وما خلفهم من الأمور الماضية التي لاحد لها[٧]. ولكم أن تتخيلوا كم يحدث في الأرض من حدث في الدقيقة بل في الثانية الواحدة؟ كم تسقط من أوراق، وتنزل من أمطار، ويموت من بشر، ويولد من ولدان، وتحمل من أرحام، ويتحرك من حيوان، ويطير من طير؟ بل حتى الهواءُ الذي يتنفسه الإنسان والحيوان والنبات، والخطوات التي يمشونها ، والماء الذي يشربونه، والطعام الذي يأكلونه، كل ذلك لايكون إلا بتقدير الله تعالى وعلمه وأمره!!

---

(٦) انظر: تفسير ابن كثير (١/ ٢٨٠) وتيسير الكريم الرحمن (١/ ٢٠٢).

(٧) المرجعان السابقان.

ولو اجتمع البشر كلهم بتقنياتهم وما أوتوا من علم على أن يحصوا أحداث الأرض في ثانية واحدة لما استطاعوا ذلك، والله تعالى وحده يحصيها ويعلمها؛ بل ويعلم مايجري في سائر الكواكب والمجرات، والأرض والسماوات ﴿وَعِندَهُ مَفَاتِحُ الْغَيْبِ لَا يَعْلَمُهَا إِلَّا هُوَ وَيَعْلَمُ مَا فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ وَمَا تَسْقُطُ مِن وَرَقَةٍ إِلَّا يَعْلَمُهَا وَلَا حَبَّةٍ فِي ظُلُمَاتِ الْأَرْضِ وَلَا رَطْبٍ وَلَا يَابِسٍ إِلَّا فِي كِتَابٍ مُّبِينٍ (٥٩)﴾ [الأنعام] ﴿اللَّهُ الَّذِي خَلَقَ سَبْعَ سَمَاوَاتٍ وَمِنَ الْأَرْضِ مِثْلَهُنَّ يَتَنَزَّلُ الْأَمْرُ بَيْنَهُنَّ لِتَعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ وَأَنَّ اللَّهَ قَدْ أَحَاطَ بِكُلِّ شَيْءٍ عِلْمًا (١٢)﴾ [الطلاق]؛ ولذا قال الملائكة ﴿وَمَا نَتَنَزَّلُ إِلَّا بِأَمْرِ رَبِّكَ لَهُ مَا بَيْنَ أَيْدِينَا وَمَا خَلْفَنَا وَمَا بَيْنَ ذَٰلِكَ وَمَا كَانَ رَبُّكَ نَسِيًّا (٦٤)﴾ [مريم].

يا ترى ماذا سيكون قولنا أمام هذه العظمة والقدرة، والعلم والإحاطة التي يتصف بها مولانا جل جلاله، وتقدست أسماؤه؟!

هل يليق بنا أن يأتينا أمره فلا نطيع؟! ونعلم نهيه فلا نلتزم؟! نبصرُ آياته في الكون وفي أنفسنا، ونشاهد إتقان صنعه في كل شيء. وننظر في هذه الأرض العظيمة بجبالها وأنهارها وبحارها، وجميع الأحياء عليها مما نعلمه وما لا نعلمه؛ فنتعاظم ذلك ونعجب منه! أفلا يقودنا ذلك إلى تعظيم مقدرها وخالقها، وآمرها ومدبرها، الذي خضع له كل شيء؟! لماذا لا تخشع منا القلوب؟! ولماذا لا تدمع العيـون؟! تعظيماً لله تعالى وإجلالاً.

هل عرف الله حقيقة المعرفة، وقدره حق قدره، من يعصي الله

في خلواته؟ ويبطر بإنعامه عليه؟ انظروا كم ضيع من فرائض الله وحقوقه! وكم انتهك من محارم الله وحدوده! فهل حقُ الخالقِ العظيم أن يقابل على إنعامه وإحسانه بالكفران؛ فنسألك اللهم أن تعفو عنا، وتغفر لنا، وتردنا إليك رداً جميلاً.

وفي مقابل علم الله العظيم فإنه أخبر عن خلقه فقال:

﴿وَلاَ يُحِيطُونَ بِشَيْءٍ مِّنْ عِلْمِهِ إِلاَّ بِمَا شَاءَ﴾ وهو ما أطلعهم عليه من الأمور الشرعية والقدرية وهو جزء يسير مضمحل في علوم الباري كما قال أعلم خلقه به الرسلُ والملائكة ﴿سُبْحَانَكَ لاَ عِلْمَ لَنَا إِلاَّ مَا عَلَّمْتَنَا إِنَّكَ أَنتَ الْعَلِيمُ الْحَكِيمُ (٣٢)﴾ [البقرة].

﴿وَسِعَ كُرْسِيُّهُ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضَ﴾ [٨] قال ابن عباس رضي الله عنهما: «الكرسي موضع القدمين، والعرش لا يقدر أحد قدره» أخرجه ابن خزيمة والدارمي بسند صحيح[٩]، وجاء في أخبار كثيرة أن السماوات السبع بالنسبة للكرسي كحلقة ألقيت في فلاة من عظمة كرسي الرحمن[١٠].

﴿وَلاَ يَئُودُهُ حِفْظُهُمَا﴾ قال الحافظ ابن كثير رحمه الله تعالى: «أي: لا يثقله حفظ السماوات والأرض ومن فيهما ومن بينهما؛ بل ذلك سهل

---

(٨) انظر: تفسير ابن كثير (١/ ٢٨٠) وتيسير الكريم الرحمن للشيخ ابن سعدي (١/٢٠٢).

(٩) أخرجه ابن خزيمة في التوحيد (٧١) والدارمي في الرد على بشر المريسي (٧١) وأبوجعفر بن أبي شيبة في العرش (١١٤) وعبدالله بن أحمد في السنة (٧١)، وانظر: مختصر العلو للعلي الغفار (١٠٢).

(١٠) انظر: تفسير ابن كثير (١/ ٢٨٤).

عليه يسير لديه، وهو القائم على كل نفس بما كسبت، الرقيب على جميع الأشياء، فلا يعزب عنه شيء، ولا يغيب عنه شيء. والأشياء كلها حقيرة بين يديه، متواضعة ذليلة صغيرة بالنسبة إليه، محتاجة فقيرة. وهو الغني الحميد، الفعال لما يريد، الذي لايسأل عما يفعل وهم يسألون. وهو القاهر لكل شيء، الحسيب على كل شيء، الرقيب العلي العظيم، لا إله غيره، ولا رب سواه» اهـ(١١)

ثم ختم الآية بقوله ﴿وَهُوَ الْعَلِيُّ الْعَظِيمُ﴾ عليٌّ بذاته على جميع مخلوقاته. وهو العلي بعظمة صفاته. وهو العلي الذي قهر المخلوقات، ودانت له الموجودات، وخضعت له الصعاب، وذلت له الرقاب. وهو ﴿الْعَظِيمُ﴾ الجامع لجميع صفات العظمة والكبرياء، والمجد والبهاء، الذي تحبه القلوب، وتعظمه الأرواح، ويعرف العارفون أن عظمة كل شيء، وإن جلّت عن الصفة فإنها مضمحلة في جانب عظمة العلي العظيم(١٢).

أعوذ بالله من الشيطان الرجيم ﴿اللَّهُ لا إِلَهَ إِلاَّ هُوَ الْحَيُّ الْقَيُّومُ لا تَأْخُذُهُ سِنَةٌ وَلا نَوْمٌ لَّهُ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الأَرْضِ مَن ذَا الَّذِي يَشْفَعُ عِندَهُ إِلاَّ بِإِذْنِهِ يَعْلَمُ مَا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَمَا خَلْفَهُمْ وَلا يُحِيطُونَ بِشَيْءٍ مِّنْ عِلْمِهِ إِلاَّ بِمَا شَاءَ وَسِعَ كُرْسِيُّهُ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضَ وَلا يَئُودُهُ حِفْظُهُمَا وَهُوَ الْعَلِيُّ الْعَظِيمُ (٢٥٥)﴾ [البقرة]

بارك الله لي ولكم في القرآن العظيم...

---

(١١) تفسير ابن كثير (١/ ٢٨٥).

(١٢) تيسير الكريم الرحمن (١/ ٢٠٣).

الخطبة الثانية

الحمد لله، أحمده حمداً يليق بجلال وجهه وعظيم سلطانه. لا رب لنا سواه، ولا نعبد إلا إياه ﴿وَهُوَ الَّذِي فِي السَّمَاءِ إِلَٰهٌ وَفِي الْأَرْضِ إِلَٰهٌ وَهُوَ الْحَكِيمُ الْعَلِيمُ ﴿٨٤﴾ وَتَبَارَكَ الَّذِي لَهُ مُلْكُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا وَعِندَهُ عِلْمُ السَّاعَةِ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ ﴿٨٥﴾﴾ [الزخرف]، وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له، وأشهد أن محمداً عبده ورسوله؛ أفضل الخلق وأتقاهم وأخشاهم لربه، صلى الله وسلم وبارك عليه وعلى آله وصحبه، ومن سار على نهجهم واقتفى أثرهم إلى يوم الدين.

أما بعد: فاتقوا الله - عباد الله - فمن اتصف بهذه الصفات، وتنزه عن النظائر والأشباه، وأحصى كل شيء عدداً، وأحاط بكل شيء علماً لحقيق أن يخشى ويتقى سبحانه وتعالى.

أيها الإخوة المؤمنون: آية الكرسي أفضل آي القرآن؛ لما فيها من المعاني العظيمة في إثبات توحيد الله تعالى، ووصفه بما ينبغي أن يوصف به؛ لذا كانت حرزاً من الشيطان. يقرؤها المسلم قبل نومه فتحفظه بإذن الله تعالى؛ كما جاء في حديث أبي هريرة عند البخاري أن الشيطان قال لأبي هريرة: «إذا أويت إلى فراشك فأقرأ آية الكرسي فإنك لن يزال معك من الله حافظ ولا يقربنّك شيطان حتى تصبح». وقد صدّقه النبي صلى الله عليه وسلم[١٣]، وجاء في حديث آخر أن المداومة على

(١٣) أخرجه البخاري تعليقاً في كتاب الوكالة باب إذا وكل رجلاً فترك الوكيل شيئاً فأجازه الموكل فهو جائز وإن أقرضه إلى أجل مسمى (٢٣١١) قال الحافظ: =

قراءتها سبب لدخول الجنة كما جاء في حديث أبي أمامة رضي الله عنه قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلـم: **«من قرأ دبر كل صلاة مكتوبة آية الكرسي لم يمنعه من دخول الجنة إلا أن يموت»** أخرجه النسائي وابن حبان(١٤).

أيها الإخـوة: هـذا فضل آية الكرسي، وهذه أجزاء من معانيهـا ودقائقها، من قرأها وتأملها ظهرت له عظمة المولى جل جلاله. وما توصل إليه البشرُ من علوم الأرض والبحار، والإنسان والحيوان والنبات، والنجوم والأفلاك وغيرها ليثبت هذه العظمة للخالق سبحانه. وكلما ازداد الإنسان علماً نظرياً أو تجريبياً عظم انبهاره بدقة سير المخلوقات، ونظام الحياة؛ فالله تعالى هو الذي خلقها ودبرها وأحكم صنعها.

بهذه النظرة والمعرفة يعرف الإنسان ـ مهما أوتي من علم وعبقريـة ودهاء، أو قوة ومال وجاه ـ أنه يكاد أن لا يكون شيئاً في هذا الكون

= هكذا أورد البخاري هذا الحديث هنا ولم يصرح فيه بالتحديث... وقـال: وقد وصله النسائي والإسماعيلي وأبو نعيم... وذكرته في تغليق التعليق... انظر: فتح الباري (٤/ ٥٦٩).

(١٤) أخرجه ابن السني في عمل اليوم والليلة (١٢٤) والنسائي في عمل اليـوم والليلة (١٠٠) وقال المنذري: رواه النسائي والطبراني بأسانيد أحدها صحيح وقال شيخنا أبو الحسن: هو على شرط البخاري، وابن حبان في كتاب الصلاة وصححه ... انظر: الترغيب والترهيب (٢/ ٢٦١) وقال الهيثمي: رواه الطبراني في الكبير والأوسط بأسانيد وأحدها جيد، انظر: مجمع الزوائد (١٠/ ١٠٢) وقال ابن كثير بعد ذكره: وهو إسناد على شرط البخاري (١/ ٢٨٣).

الواسع، بما فيه من مخلوقات عظيمة، عندئذ يحتقر العاقل نفسه ويزدريها، ويسارع في عبادة ربه وخشيته وتقواه. ومع ذلك أنعم الله على هذا الإنسان الضعيف وشرّفه بحمل الرسالة حين أشفقت من حملها السماوات والأرض والجبال فأبين أن يحملنها ﴿**وأشفقن منها وَحَمَلَهَا الإِنسَانُ إِنَّهُ كَانَ ظَلُومًا جَهُولاً** (٧٢)﴾ [الأحزاب]. وسخر له هذه المخلوقات التي تفوقه قوة وعدداً، وجعلها في خدمته. فهل نكون أهلاً لنعم الله تعالى علينا بشكرها ورعايتها، وعبادة الله تعالى على الوجه الذي يرضاه لنا ويحبه منا. نسأل الله تعالى أن يجعلنا من أهل طاعته وخشيته.

أيها الإخوة: هذه الرحلة القصيرة كانت في آية من كتاب الله تعالى، فما رأيكم لو قرأنا القرآن كله بتدبر وتأمل؟ ماذا سيظهر لنا من عظمة الله تعالى، وعظيم خلقه، وإتقان صنعه؟! جل في علاه ﴿**اللَّهُ خَالِقُ كُلِّ شَيْءٍ وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ وَكِيلٌ** (٦٢)﴾ [الزمر] ألا فاتقوا الله ربكم وأحسنوا التلقي عن كتابه، واقدروه حق قدره، واعبدوا الله مخلصين له الدين ولو كره الكافرون، ثم صلوا وسلموا على محمد بن عبدالله.

* * *

٣٠- نظرات في سورة ﴿ق﴾

الجمعة ٢٦/ ١/ ١٤١٩هـ

الحمد لله، نحمده ونستعينه ونستغفره، ونعوذ بالله من شرور أنفسنا ومن سيئات أعمالنا، من يهده الله فلا مضل له ومن يضلل فلا هادي له، وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له، وأشهد أن محمداً عبده ورسوله صلى الله وسلم وبارك عليه وعلى آله وأصحابه ومن سار على نهجهم واهتدى بهداهم إلى يوم الدين.

أما بعد: فيا عباد الله اتقوا الله تعالى بفعل الأوامر، واجتناب الزواجر؛ فإن النجاة في التقوى، وإن الجنة ثمن التقوى ﴿**وَيُنَجِّي اللَّهُ الَّذِينَ اتَّقَوْا بِمَفَازَتِهِمْ لا يَمَسُّهُمُ السُّوءُ وَلا هُمْ يَحْزَنُونَ** (٦١)﴾ [الزمر] ﴿**لَكِنِ الَّذِينَ اتَّقَوْا رَبَّهُمْ لَهُمْ غُرَفٌ مِّن فَوْقِهَا غُرَفٌ مَّبْنِيَّةٌ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الأَنْهَارُ وَعْدَ اللَّهِ لا يُخْلِفُ اللَّهُ الْمِيعَادَ** (٢٠)﴾ [الزمر].

أيها المؤمنون: يحوي كتابُ الله تعالى ما ينفع البشرية في الدنيا والآخرة؛ إذ هو كلامُ الله تعالى، الذي خلق العالمين وهو أعلم بهم، وبما يصلحهم وينفعهم. هو الهدى والنجاةُ والصراطُ المستقيم، لا يضل من تمسك به أبداً، وهو العلمُ الصحيح الذي لا يجوز عليه الخطأ والتبديل، أنزله العليم الخبير، الذي يعلم ما كان وما يكون، وما لم يكن لو كان كيف يكون.

أُنزل قبل مئات السنين، كانت خلالها البشريةُ تتزود من أنواع العلوم والمعارف، وتطمح إلى مزيد من المكتشفات في هذا الكون الذي لا

تنقضي أسرارُه وعجائبه؛ اجتهد الإنسان في الاكتشاف والاختـراع، وإجراء التجارب والاختبارات، بغية المزيد من المعرفة. ويُلاحظ خلال هذه القرونِ الطوال عدمُ معارضةِ القرآنِ لحقيقةٍ علميةٍ ثابتة؛ بل كان ما يُكتشفُ وتثبت حقيقـتُه يوجد له أحيانـاً ما يدل عليه في كتاب الله تعالى تصريحاً أو تلميحاً، أو إشارة أو إيماء.

وكتاب هذا شأنه فالعناية به يجب أن تكون من أولويات المسلمين؛ إذ هو دستورهم ونظامهم، وفيه سعادتهم وهناؤهم؛ لذا كان رسول الله صلى الله عليه وسلم يكثر تلاوته وتدبره، ويلتزم العمل به.

كان صلى الله عليه وسلم يردد على المنبر يوم الجمعة سورة من أعظم سوره في فصولها وأخبارها، في تذكيرها ومواعظها، ما حفظتها صحابية إلا من كثرة ما رددها النبي صلى الله عليه وسلم على المنبر حيث قالت أم هشامٍ بنتُ حارثة بن النعمان رضي الله عنها: «لقد كان تنورنا وتنور رسول الله صلى الله عليه وسلم واحداً سنتين أو سنةً أو بعض سنة وما أخـذت ﴿قٓ وَٱلْقُرْءَانِ ٱلْمَجِيدِ ۝١﴾ [ق] إلا عن لسـان رسول الله صلى الله عليه وسلم يقرؤها كلَ يوم جمعة على المنبر إذا خطب الناس» أخرجه مسلم(١)، وفي حديث آخر أنه كان يقرؤها في

(١) أخرجه مسلم في الجمعة باب تخفيف الصلاة والخطبة (٨٧٣) واللفـظ لـه وأبوداود في الصلاة باب الرجل يخطب على قوس (١١٠٠) والنسائي فـي الجمعة باب القراءة في الخطبة (٣/ ١٠٧) ووقع الخلاف بين العلماء هل كان يكتفي بقراءتها؟ وهل كان يقرؤها كاملة أم بعضها؟
قال الطيبي: «إن المراد أول السورة لا جميعها؛ لأنه عليه الصلاة والسلام لم =

صلاة العيد[٢]، قال العلماء: «والقصدُ أن رسولَ الله صلى الله عليه وسلم كان يقرأ بهذه السورة في المجامع الكبار كالعيد والجمع لاشتمالها على ابتداء الخلق، والبعث والنشور والمعاد، والقيام والحساب، والجنة والنار، والثواب والعقاب، والترغيب والترهيب»[٣].

= يقرأ جميعها في الخطبة» اهـ وقال القاري: «وفيه أنه لم يحفظ أنه عليه الصلاة والسلام كان يقرأ أولها في كل جمعة وإلا لكانت قراءتها واجبة أو سنة مؤكدة بل الظاهر أنه كان يقرأ في كل جمعة بعضها فحفظت الكل في الكل» اهـ وتعقبهما ابن حجر المكي حيث قال: «يقرؤها كلها، وحَمْلُها على أول السورة صرف للنص عن ظاهره» اهـ انظر: عون المعبود (٣/ ٤٤٩) وبذل المجهود (٦/ ١٠٠).
وقال الصنعاني: «وفيه دلالة لقراءة شيء من القرآن في الخطبة كما سبق، وقد قام الإجماع على عدم وجوب قراءة السورة المذكورة ولا بعضها في الخطبة، وكانت محافظته على هذه السورة اختياراً منه لما هو الأحسن في الوعظ والتذكير» اهـ. سبل السلام (٣/ ١٧٠-١٧١) وقال الشيخ ابن عثيمين: «والدليل على اشتراط قراءة الآية أن النبي صلى الله عليه وسلم كان يقرأ يوم الجمعة بـ ﴿قٓ وَالْقُرْآنِ المَجِيدِ﴾ يخطب بها؛ ولكن هذا ليس بدليل؛ لأن لدينا قاعدة في أصول الفقه وهي: أن الفعل المجرد لا يدل على الوجوب» الشرح الممتع (٥/ ٧١).

(٢) كما في حديث عبيد بن عبدالله بن عتبة الذي أخرجه مالك في الموطأ (١/ ١٨٠) ومسلم في العيدين باب ما يقرأ به في صلاة العيدين (٨٩١) والترمذي في الصلاة باب ما جاء في القراءة في العيدين (٥٣٤) والنسائي في العيدين باب القراءة في العيدين ب [ق] [واقتربت] (٣/ ١٨٣).

(٣) هذا قول الحافظ ابن كثير في أول تفسيره سورة [ق] (٤/ ٣٤٠) ونحوه نقله النووي في شرحه على مسلم (٦/ ٢٢٩).

ملاحظة: تفسير هذه السورة مستفاد من تفاسير الطبري والقرطبي وابن كثير والمحرر الوجيز لابن عطية، والتحرير والتنوير لابن عاشور وتفسير السعدي.

تبتدئ السورة بالقسم بهذا الكتاب المجيد، ثم تثني بعجب المشركين من بعثة الرسول صلى الله عليه وسلم، وتكذيبهم بالبعث والنشور، ثم الجواب عن عجبهم ﴿قٓ وَالْقُرْآنِ الْمَجِيدِ (١) بَلْ عَجِبُوا أَنْ جَاءَهُمْ مُنْذِرٌ مِنْهُمْ فَقَالَ الْكَافِرُونَ هَذَا شَيْءٌ عَجِيبٌ (٢) أَئِذَا مِتْنَا وَكُنَّا تُرَابًا ذَلِكَ رَجْعٌ بَعِيدٌ (٣) قَدْ عَلِمْنَا مَا تَنْقُصُ الْأَرْضُ مِنْهُمْ وَعِنْدَنَا كِتَابٌ حَفِيظٌ (٤) بَلْ كَذَّبُوا بِالْحَقِّ لَمَّا جَاءَهُمْ فَهُمْ فِي أَمْرٍ مَرِيجٍ (٥)﴾ [ق].

ثم توجه الأنظار إلى نماذج من قدرة الله تعالى، ليس خلقُ الإنسان وبعثُه إلا شيئاً قليلاً معها، وما خَلْقُ الإنسانِ بالنسبة لخلق السماوات وما فيها من أفلاكٍ ومصابيح !!

بنيان بلا عمد ليس فيه شقوق ولا فطور، وزينةٌ ليس لها مثيل، والأرض مدها، وأرساها بالجبال وزينها بالنبات، فأين من يتبصر ويعقل ﴿أَفَلَمْ يَنْظُرُوا إِلَى السَّمَاءِ فَوْقَهُمْ كَيْفَ بَنَيْنَاهَا وَزَيَّنَّاهَا وَمَا لَهَا مِنْ فُرُوجٍ (٦) وَالْأَرْضَ مَدَدْنَاهَا وَأَلْقَيْنَا فِيهَا رَوَاسِيَ وَأَنْبَتْنَا فِيهَا مِنْ كُلِّ زَوْجٍ بَهِيجٍ (٧) تَبْصِرَةً وَذِكْرَىٰ لِكُلِّ عَبْدٍ مُنِيبٍ (٨)﴾ [ق].

ألا يكفي ذلك دليلاً على عظمة الله وقدرته على الخلقِ والبعثِ كرة أخرى؟ بلى والله، ومع ذلك يضرب مثلاً عظيماً يشابه إحياء البشر بعد الموت ﴿وَنَزَّلْنَا مِنَ السَّمَاءِ مَاءً مُبَارَكًا فَأَنْبَتْنَا بِهِ جَنَّاتٍ وَحَبَّ الْحَصِيدِ (٩) وَالنَّخْلَ بَاسِقَاتٍ لَهَا طَلْعٌ نَضِيدٌ (١٠) رِزْقًا لِلْعِبَادِ وَأَحْيَيْنَا بِهِ بَلْدَةً مَيْتًا كَذَلِكَ الْخُرُوجُ (١١)﴾ [ق].

نعم، إن إحياء الأرض بعد موتها دليلٌ على إحياء الإنسان بعد

موته، ولكن طبيعة المصدودِ عن الحق العنادُ والاستكبار، فكما أنكر أهلُ مكة البعث فقد أنكره أقوام سابقون قبلهم وكذبوا المرسلين ﴿كَذَّبَتْ قَبْلَهُمْ قَوْمُ نُوحٍ وَأَصْحَابُ الرَّسِّ وَثَمُودُ ﴿١٢﴾ وَعَادٌ وَفِرْعَوْنُ وَإِخْوَانُ لُوطٍ ﴿١٣﴾ وَأَصْحَابُ الأَيْكَةِ وَقَوْمُ تُبَّعٍ كُلٌّ كَذَّبَ الرُّسُلَ فَحَقَّ وَعِيدِ ﴿١٤﴾﴾ [ق] ووالله لو عقلوا لأدركوا أن من خلق أولاً قادر على أن يعيد الخلق مرة أخرى، وهل يُعجزُ الخالقَ البعثُ وقد ابتدأ الخلق؟! حاشاه تعالى وتقدس ﴿أَفَعَيِينَا بِالْخَلْقِ الأَوَّلِ بَلْ هُمْ فِي لَبْسٍ مِّنْ خَلْقٍ جَدِيدٍ ﴿١٥﴾﴾ [ق].

تؤكدُ الآيات هذه الحقيقة، وتبينُ علمَ الله تعالى لأسرار هذه النفس البشرية، من هَمٍ وإرادة وعزم، ووساوسَ وخطرات. وهذا يدعو العبد إلى المراقبة الدائمة لله تعالى؛ لأنه أقربُ شيء إليه ﴿وَلَقَدْ خَلَقْنَا الإِنسَانَ وَنَعْلَمُ مَا تُوَسْوِسُ بِهِ نَفْسُهُ وَنَحْنُ أَقْرَبُ إِلَيْهِ مِنْ حَبْلِ الْوَرِيدِ ﴿١٦﴾﴾ [ق].

ومع ذلك وكل الله به ملكين يكتبان خيره وشره ﴿إِذْ يَتَلَقَّى الْمُتَلَقِّيَانِ عَنِ الْيَمِينِ وَعَنِ الشِّمَالِ قَعِيدٌ ﴿١٧﴾ مَا يَلْفِظُ مِن قَوْلٍ إِلاَّ لَدَيْهِ رَقِيبٌ عَتِيدٌ ﴿١٨﴾﴾ [ق] إنها مراقبةٌ دائمة، واهتمامٌ بهذا العبد الضعيف. ملائكةٌ ليس لهم عمل إلا مراقبة أفعاله وكتابة أقواله، فأيُّ منزلةٍ أكرمَ اللهُ بها بني آدم؟ وأيُّ ابتلاء يواجهونه؟!

أيليق بعد هذا التكريم وتلك المراقبة الدائمة أن يطلقَ العبدُ لنفسه العنان تقترف سيىء الأعمال، وتنطق قبيحَ الألفاظ؟! كان الأجدرُ بالعبدِ إذا همَّ بالمعصية، وخلا بنفسه، وتوارى عن الأنظار، أن يراقبَ الله الذي هو أقربُ إليه من حبل الوريد، ويستحيي من الكرام الكاتبين.

إنه وإن استخفى عن البشر، وأوصد الأبواب، فإن ملائكة الرحمن تنظر إليه، وتسجل عليه. وأين يستخفي من الله الذي ﴿ يَعْلَمُ السِّرَّ وَأَخْفَى ۝٧ ﴾ [طه] ولكن كثيراً من العصاة يغفلون عن ذلك ولا يتنبهون له إلا في ساعةٍ لا ينفع فيها تنبه ولا ادكار. إنها ساعة يخافُها كلُ عبد، ويهرب منها كلُ حي؛ ولكن لا مهرب، وما قُدِّرَ لابد واقع ﴿ وَجَاءَتْ سَكْرَةُ الْمَوْتِ بِالْحَقِّ ذَلِكَ مَا كُنتَ مِنْهُ تَحِيدُ ۝١٩ ﴾ [ق: ١٩].

يمكث العبد ما شاء الله أن يمكث في برزخه إلى ذلك اليوم العظيم الذي يقومُ الناس فيه من قبورهم لله رب العالمين، وحينها ينتهي الظلم، ويقامُ العدل، ويحاسبُ العباد. تنصبُ الموازين، وتنشرُ الدواوين، ويحضرُ الأشهاد، وتنطق الأركان.

ملائكةٌ تسوق العباد إلى المحشر، وملائكة تشهد عليهم؛ فيتنبه الغافل من غفلته، ويصبح نظره ثاقباً يبصر كل شيء؛ ولكن بعد ماذا؟ بعد فوات الأوان ﴿ وَنُفِخَ فِي الصُّورِ ذَلِكَ يَوْمُ الْوَعِيدِ ۝٢٠ وَجَاءَتْ كُلُّ نَفْسٍ مَّعَهَا سَائِقٌ وَشَهِيدٌ ۝٢١ لَقَدْ كُنتَ فِي غَفْلَةٍ مِّنْ هَذَا فَكَشَفْنَا عَنكَ غِطَاءَكَ فَبَصَرُكَ الْيَوْمَ حَدِيدٌ ۝٢٢ ﴾ [ق].

يبدأ الشهودُ من الملائكة بإلقاء شهاداتهم، كلُ عبدٍ يشهد عليه قرينه بعمله. فالمعرضُ والمكذب ليس له إلا جهنم؛ حيث شهدت عليه الشهود بالجحود فيأمر الله به إلى جهنم ﴿ وَقَالَ قَرِينُهُ هَذَا مَا لَدَيَّ عَتِيدٌ ۝٢٣ أَلْقِيَا فِي جَهَنَّمَ كُلَّ كَفَّارٍ عَنِيدٍ ۝٢٤ مَّنَّاعٍ لِّلْخَيْرِ مُعْتَدٍ مُّرِيبٍ ۝٢٥ الَّذِي جَعَلَ مَعَ اللَّهِ إِلَهًا آخَرَ فَأَلْقِيَاهُ فِي الْعَذَابِ الشَّدِيدِ ۝٢٦ ﴾ [ق] فيُلقي العبدُ باللائمة

على قرينه الشيطان الذي أغواه؛ لكن قرينه يتبرأُ منه ويخبر عن تأصل الضلال فيه؛ فيوقفُ اللهُ تلك المجادلة التي لا فائدة منها، ويتوعدُهم على ما اقترفوا من غير زيادة ولا ظلم؛ بل في غاية العدل والقسطاس المستقيم ﴿قَالَ قَرِينُهُ رَبَّنَا مَا أَطْغَيْتُهُ وَلَكِن كَانَ فِي ضَلَالٍ بَعِيدٍ (٢٧) قَالَ لَا تَخْتَصِمُوا لَدَيَّ وَقَدْ قَدَّمْتُ إِلَيْكُم بِالْوَعِيدِ (٢٨) مَا يُبَدَّلُ الْقَوْلُ لَدَيَّ وَمَا أَنَا بِظَلَّامٍ لِّلْعَبِيدِ (٢٩)﴾ [ق].

إنَّه يومُ الحقِ والعدل، والقضاءِ والفصل. كم يفوزُ فيه من عبادٍ كانوا من ضعفاء الناس في الدنيا، وكم يندمُ فيه آخرون كانوا من جبابرة الأرض!! كم من عزيز في الدنيا يُذلُ في ذلك اليوم، وكم من ذليل حقير في الدنيا يكون عزيزاً في القيامة!! مَنْ سعد في ذلك اليوم فلن يشقى أبداً. ومن شقي فيه فلن يسعد أبداً. ذهب المال، وتلاشى الجاه، وتولى الأهلُ والأولاد، وتفرق الأحباب والأقران، وزالت الفوارقُ بين الناس ولم يبق إلا العمل! نعم والله لا يبقى إلا العمل أمام محكمة الرحمن التي لا ظلم فيها ولا طغيان ﴿مَا يُبَدَّلُ الْقَوْلُ لَدَيَّ وَمَا أَنَا بِظَلَّامٍ لِّلْعَبِيدِ (٢٩)﴾ [ق].

إنَّه موقفٌ كلما تصوره المؤمن صغرت الدنيا في عينيه حتى لا تساوي شيئاً؛ فالعملَ العمل لذلك اليوم، قبل أن يكون الندم، فلا ينفع حينئذٍ ندم.

نفعني الله وإياكم بالقرآن العظيم، وسنة سيد المرسلين، وأقول قولي هذا وأستغفر الله لي ولكم...

الخطبة الثانية

الحمد لله وحده، أحمده وأشكره، وأتوب إليه وأستغفره، وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لاشريك له، وأشهد أن محمداً عبده ورسوله صلى الله وسلم وبارك عليه وعلى آله وأصحابه إلى يوم الدين.

أما بعد: فلا يزالُ حديثُ السورة متصلاً عن مشاهد ذلك اليوم العظيم الذي فيه ﴿ **تَذْهَلُ كُلُّ مُرْضِعَةٍ عَمَّا أَرْضَعَتْ وَتَضَعُ كُلُّ ذَاتِ حَمْلٍ حَمْلَهَا وَتَرَى النَّاسَ سُكَارَىٰ وَمَا هُم بِسُكَارَىٰ وَلَٰكِنَّ عَذَابَ اللَّهِ شَدِيدٌ (٢)** ﴾ [الحج] وكيف لايكون ذلك وجهنم يُلقى فيها أممٌ من البشر فلا تمتلئ بل تطلب المزيد ﴿ **يَوْمَ نَقُولُ لِجَهَنَّمَ هَلِ امْتَلَأْتِ وَتَقُولُ هَلْ مِن مَّزِيدٍ (٣٠)** ﴾ [ق].

وفي مقابل هؤلاء الظالمين تُعدُّ الجنةُ لأهل التقوى الذين كانوا يخشون الله في الدنيا. الذين حفظوا أوامر الله فانقادوا لها، ونواهِيَه فجانبوها. راقبوا الله في الدنيا، وأقبلوا إليه منيبين؛ فكان جزاؤهم الجنة ﴿ **وَأُزْلِفَتِ الْجَنَّةُ لِلْمُتَّقِينَ غَيْرَ بَعِيدٍ (٣١) هَٰذَا مَا تُوعَدُونَ لِكُلِّ أَوَّابٍ حَفِيظٍ (٣٢) مَّنْ خَشِيَ الرَّحْمَٰنَ بِالْغَيْبِ وَجَاءَ بِقَلْبٍ مُّنِيبٍ (٣٣)** ﴾ [ق] يا لبشراهم في الآخرة، بينما كان الظالمون خائفين، يكونون هم آمنين سالمين، يطلبون في الجنة ما يشاؤون فلا يمنعون. يا لفرحتهم حينما يقال لهم ﴿ **ادْخُلُوهَا بِسَلَامٍ ذَٰلِكَ يَوْمُ الْخُلُودِ (٣٤) لَهُم مَّا يَشَاءُونَ فِيهَا وَلَدَيْنَا مَزِيدٌ (٣٥)** ﴾ [ق].

ومع ما يجدون في الجنة من النعيم المقيم مما لا عين رأت، ولا أذن سمعت، ولا خطر على قلب بشر. مع كل ذلك لهم مزيد، ما هو

المزيد يا ترى؟ إنه تجلي الجبار تعالى وتقدس لهم حتى ينظروا إلى وجهه الكريم. يتجلى لهم ويكلمهم، ويسألونه فيعطيهم سؤلهم ويرضى عنهم.

الله أكبر ما أكبره من فوز! وما أعظمه من مزيد! الجنةُ ورضى الرحمن، ورؤيةُ وجهه الكريم. أسأل الله تعالى أن يجعلنا من أهل الجنة، وأن يرزقنا النظر إلى وجهه الكريم، ويرضى عنا رضى لا يسخط علينا بعده أبداً، ويسعدنا سعادة لا نشقى بعدها أبداً إنه سميع مجيب.

أيها الإخوة: تعود السورة مرة أخرى إلى التذكير بما حلّ بالسابقين من هلاك لما كذبوا الرسل، وتبين قدرة الخالق سبحانه ﴿ **وَكَمْ أَهْلَكْنَا قَبْلَهُم مِّن قَرْنٍ هُمْ أَشَدُّ مِنْهُم بَطْشًا فَنَقَّبُوا فِي الْبِلَادِ هَلْ مِن مَّحِيصٍ (٣٦) إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَذِكْرَىٰ لِمَن كَانَ لَهُ قَلْبٌ أَوْ أَلْقَى السَّمْعَ وَهُوَ شَهِيدٌ (٣٧) وَلَقَدْ خَلَقْنَا السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ وَمَا مَسَّنَا مِن لُّغُوبٍ (٣٨)** ﴾ [ق] ومع ذلك كذب المكذبون، ولم يتذكروا أو يتعظوا؛ فجاء الأمر بالصبر على قولهم والاشتغال بالتسبيح في كل الأوقات.

وهكذا فإن المسلم المستمسك بدينه، الداعي إليه، إذا لاقى الاستهزاء والتكذيب وأصناف الأذى في الدين فإنه مأمور أكثر من أي وقت بالصبر الجميل، وأن يهرع إلى الله تعالى بالتسبيح والذكر في كل وقت مع استحضار فناء الدنيا، وقرب الآخرة، وشدةِ الصيحة، وهولِ المحشر؛ فإن ذلك يسليه، ويقوي قلبه، ويزيدُ إيمانه، ويثبتُه أمام البلاء.

وكم يحتاج الملتزم بإسلامه، والداعي إلى الله تعالى، استحضار هذه الآيات المسليات مع كثرة التسبيح والذكر في ظل هذا التآمر العالمي

على الإسلام وأهله، ووصفهم بأقبح الأوصاف مع ذلة المسلمين وضعفهم ﴿فَاصْبِرْ عَلَىٰ مَا يَقُولُونَ وَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ قَبْلَ طُلُوعِ الشَّمْسِ وَقَبْلَ الْغُرُوبِ (٣٩) وَمِنَ اللَّيْلِ فَسَبِّحْهُ وَأَدْبَارَ السُّجُودِ (٤٠) وَاسْتَمِعْ يَوْمَ يُنَادِ الْمُنَادِ مِن مَّكَانٍ قَرِيبٍ (٤١) يَوْمَ يَسْمَعُونَ الصَّيْحَةَ بِالْحَقِّ ذَٰلِكَ يَوْمُ الْخُرُوجِ (٤٢) إِنَّا نَحْنُ نُحْيِي وَنُمِيتُ وَإِلَيْنَا الْمَصِيرُ (٤٣) يَوْمَ تَشَقَّقُ الْأَرْضُ عَنْهُمْ سِرَاعًا ذَٰلِكَ حَشْرٌ عَلَيْنَا يَسِيرٌ (٤٤)﴾ [ق].

ثم تعود السورة مرة أخرى إلى التذكير بالقرآن؛ لكي تقوم الحجة على الخلق ﴿نَحْنُ أَعْلَمُ بِمَا يَقُولُونَ وَمَا أَنتَ عَلَيْهِم بِجَبَّارٍ فَذَكِّرْ بِالْقُرْآنِ مَن يَخَافُ وَعِيدِ (٤٥)﴾ [ق].

أسأل الله تعالى أن يرزقنا الاعتبار والتذكر، وتلاوة كتابه على الوجه الذي يرضيه عنا، وأن يجعلنا من المتدبرين العاملين بما فيه، إنه على كل شيء قدير، وصلى الله وسلم على نبينا محمد وآله وصحبه أجمعين.

* * *

٣١- قوله تعالى ﴿علم الإنسان ما لم يعلم﴾ بين الإيمان والجحود

الجمعة ٥/ ٨/ ١٤١٨هـ

الحمد لله، عالم الغيب والشهادة العزيز الرحيم، أحمده وأشكره وأتوب إليه وأستغفره يعلم ما كان وما يكون، وما لم يكن لو كان كيف يكون ﴿ **وَمَا يَخْفَىٰ عَلَى اللَّهِ من شَيْءٍ فِي الأَرْضِ وَلا فِي السَّمَاءِ** (٣٨) ﴾ [إبراهيم].

وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له، وسع كل شيء علماً، وأحصى كل شيء عدداً. وأشهد أن محمداً عبده ورسوله أعلم الناس بربه، وأتقاهم لمولاه. امتن الله عليه، فخوطب بالقرآن، وأوتي الحكمة وعلم ما لم يعلم ﴿ **وَأَنزَلَ اللَّهُ عَلَيْكَ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَعَلَّمَكَ مَا لَمْ تَكُن تَعْلَمُ وَكَانَ فَضْلُ اللَّهِ عَلَيْكَ عَظِيمًا** (١١٣) ﴾ [النساء] صلى الله وسلم وبارك عليه وعلى آله وأصحابه، كانوا بروجاً في حضارة الإسلام عالية، وأعلاماً للحق سائرة، وأنجماً في العلم والعمل زاهرة، والتابعين لهم بإحسان إلى يوم الدين.

أما بعد: فأوصيكم ـ أيها الناس ـ ونفسي بتقوى الله عز وجل ﴿ **وَاتَّقُوا اللَّهَ وَاعْلَمُوا أَنَّكُم مُّلاقُوهُ وَبَشِّرِ الْمُؤْمِنِينَ** (٢٢٣) ﴾ [البقرة] ﴿ **وَاتَّقُوا اللَّهَ وَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ** (٢٣١) ﴾ [البقرة] ﴿ **وَاتَّقُوا اللَّهَ وَيُعَلِّمُكُمُ اللَّهُ وَاللَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ** (٢٨٢) ﴾ [البقرة].

أيها المؤمنون: مع قوة الانفجار المعرفي، والتقدم الصناعي،

الذي أصبح الإنسان به مخدوماً، وفي الوقت ذاته قلقاً مضطرباً، نحتاج إلى تأمل قوله تعالى ﴿عَلَّمَ الإِنسَانَ مَا لَمْ يَعْلَمْ ﴿٥﴾﴾ [العلق].

خدمة يقدمها التطور للإنسان في مأكله وملابسه ومراكبه، في حره وفي قره. وسائل للاتصال، وأخرى في سرعة الانتقال، يسّرت الحصول على المعرفة، وسهلت وصول المعلومة؛ فبينما كان طالب العلم سابقاً يقطع مئات الأميال من أجل أن يحصل على حديث واحد، أصبح الآن يفتح الكتاب فتقع عينه على ما يريد، وأسهل من ذلك: يضغط على أزرار الحاسوب فإذا ما يريد أمامه.

وبينما كان الحاج يخرج إلى الحج من رمضان فلا يصل إلا وقت الحج مع الجدِّ في السير، وقد يصل وربما لا يصل، وإذا أنهى حجه قد يعود وربما لا يعود؛ أصبح في مقدور المسلم أن يصل مكة ويرجع منها في بضع ساعات!!

من الذي علم الإنسان هذه العلوم؟ ومن الذي سهل له طرق الوصول إليها واكتشافِها واختراعِها؟ إنه رب العالمين، خالق الناس أجمعين.

يجب أن ينسب الفضل إلى أهله، وربنا هو أهل الفضل والجود ﴿صُنْعَ اللَّهِ الَّذِي أَتْقَنَ كُلَّ شَيْءٍ إِنَّهُ خَبِيرٌ بِمَا تَفْعَلُونَ ﴿٨٨﴾﴾ [النمل] كم نحتاج إلى تذاكر نعم الله علينا، وتدارس النصوص التي تدل على علمه وإحاطته وقدرته، مع التذكير بأن هذه المكتشفات والمخترعات التي تبهر العقول هي من خلق الله تعالى، خلقها، ثم سخرها للبشر،

﴿ عَلَّمَ الإِنسَانَ مَا لَمْ يَعْلَمْ ﴿٥﴾ ﴾ [العلق].

ويتأكد التذكير بذلك لأن فريقـاً من الناس بهرهم ذلك التقـدمُ الهائل في العلوم التجريبية، وكثرةُ المخترعاتِ والمكتشفاتِ، حتى نسوا أن ينسبوا الفضل لصاحب الفضل تعالى وتقدس، فسجلوا إعجابهم وإكبارهم للبشر الضعفاء، من الباحثين والمخترعين الذين ﴿ لا يَخْلُقُونَ شَيْئًا وَهُمْ يُخْلَقُونَ وَلا يَمْلِكُونَ لأَنفُسِهِمْ ضَرًّا وَلا نَفْعًا وَلا يَمْلِكُونَ مَوْتًا وَلا حَيَاةً وَلا نُشُورًا ﴾ [الفرقان: ٣] ونسوا الذي ﴿ خَلَقَ كُلَّ شَيْءٍ فَقَدَّرَهُ تَقْدِيرًا ﴿٢﴾ ﴾ [الفرقان] سواء كان هذا النسيان والغفلة عن قصد أم كان غير مقصود؛ لكن القاصد منهم يعلن إلحاده وجحوده؛ كما قال الله عن أمثالهـم ﴿ فَرِحُوا بِمَا عِندَهُم مِّنَ الْعِلْمِ وَحَاقَ بِهِم مَّا كَانُوا بِهِ يَسْتَهْزِئُونَ ﴾ [غافر: ٨٣].

هذا أحدُ ملاحدة العرب يسجل إلحاده بالحرف العربي عندما بهرته تجربة من التجارب في علم الوراثة والجينيات، يقول ـ عليه من الله ما يستحق ـ: «ومعناه أن العلماء بدؤوا بتحدي السماء، ومعنى هذا أيضاً أن الإنسان لم يعد له رب يؤمن به، ويركع في محرابه ويصلي له ويطلب رضاه وغفرانه؛ لأن المخترعات العلمية أخذت مكان الرب. اهـ»[١] تعالى الله عن قوله وقول الظالمين علواً كبيراً. مقالةٌ تطفح بالكفر والإلحاد، كيف استطاع قائلها أن يقولها لولا ما في قلبه من المرض والزيغ.

---

(١) القائل هو نزار قباني - أخزاه الله - في مقالة بعنوان (هل يمكن استنسـاخ المتنبي) جريدة الحياة ٥/ ١١/ ١٤١٧هـ.

إن هذه المقولة ومثيلاتها تجسدُ لنا حجم التقديس والتعظيم لتلك العلوم التجريبية مع أنها تصيب وتخطئ؛ بل لايمكن أن تصيب إلا بعد الخطأ، فما هي بالنسبة لعلم الله الذي أحاط كل شيء، والذي تنزه عن العبث والخطأ.

إن فريقاً من قومنا غطى انبهارهم بحضارة الغرب عقولهم حتى إنهم يريدون منا التسليم والانقياد لكل ما يخرج من المعامل والمختبرات، والسير خلفه على أنه سائبةٌ لاينبغي التعرضُ لها ولا توجيهها، فضلاً عن نقدها ولومها، وهذا يدعونا إلى إلقاء نظرة حول حقيقة مسيرة الإنسان العلمية التي يسعى فيها لتحقيق ما يراه مصلحته ورفاهيته، فالإنسان في لهاثه العلمي إنما هو في سباق لاكتشاف جهله، جهلِه بعالم المجهول - مجهول الزمان والمكان والكم والكيف - الذي يطرقه فتنكشفُ له حقائقُ كانت حاضرةً ولا يشاهدُها، جهله الذي يراه عندما يكتشف مخاطرَ ومضاعفات وخطأ ماظنه سابقاً إنجازاتٍ علميةً هائلة والتي كانت غائبةً عنه حينما ﴿ظَنَّ أَهْلُهَا أَنَّهُمْ قَادِرُونَ عَلَيْهَا﴾ [يونس: ٢٤](٢).

يحاول هذا الإنسان اختراق هذا المجهول عن طريق التجربة الحسية، والحفريات والتوثيق، والتأمل والتحليل، والاستقراء والإحصاء، وأحياناً عن طريق الحدس والتوهم، والمسلم يستفيد مما صلح من ذلك كله

(٢) بتصرف واختصار من مقالة عن الاستنساخ لخالد أبو الفتوح في البيان عدد ١١٨ ص٥٨.

إضافة إلى وسيلة لاينتفع بها غيرُه، ألا وهي العلمُ بالغيب الذي يخبر به الشرع، فإذا كان الأمر كذلك فإن المسلم لايحجر على العلم الإنساني ولكنه في ذات الوقت لا ينساق خلفه انسياقاً أعمى؛ بل يضعه في موضعه الصحيح: وهو أن نسبته ـ مهما بلغ ـ إلى علم الله قليلة ﴿وَمَا أُوتِيتُم مِّنَ الْعِلْمِ إِلاَّ قَلِيلاً (٨٥)﴾ [الإسراء] ﴿وَلا يُحِيطُونَ بِشَيْءٍ مِّنْ عِلْمِهِ﴾ [البقرة: ٢٥٥] ﴿وَاللَّهُ يَعْلَمُ وَأَنتُمْ لا تَعْلَمُونَ (٢١٦)﴾ [البقرة].

بل حتى نفسُ الإنسان وجسدُه وروُحه وما يختلج في صدره الله أعلم به ﴿رَبُّكُمْ أَعْلَمُ بِكُمْ﴾ [الإسراء: ٥٤] ﴿رَبُّكُمْ أَعْلَمُ بِمَا فِي نُفُوسِكُمْ﴾ [الإسراء: ٢٥].

إن مصدر هذا العلم من الله تعالى ﴿وَاتَّقُوا اللَّهَ وَيُعَلِّمُكُمُ اللَّهُ﴾ [البقرة: ٢٨٢] ﴿كَمَا عَلَّمَكُم مَّا لَمْ تَكُونُوا تَعْلَمُونَ (٢٣٩)﴾ [البقرة] ﴿عَلَّمَ الإِنسَانَ مَا لَمْ يَعْلَمْ (٥)﴾ [العلق] ﴿تُعَلِّمُونَهُنَّ مِمَّا عَلَّمَكُمُ اللَّهُ﴾ [المائدة: ٤].

إن الملائكة وهم أعلم وأقدر من البشر تأدبوا مع الله تعالى فخاطبوه قائلين ﴿سُبْحَانَكَ لا عِلْمَ لَنَا إِلاَّ مَا عَلَّمْتَنَا إِنَّكَ أَنتَ الْعَلِيمُ الْحَكِيمُ (٣٢)﴾ [البقرة].

والأنبياء والمرسلون عندهم من العلم اليقيني ما ليس عند سائر البشر، ومع ذلك كانوا متأدبين مع الله تعالى؛ إذ نسبوا علومهم إليه، هذا هود عليه السلام لما قال له قومه ﴿فَأْتِنَا بِمَا تَعِدُنَا إِن كُنتَ مِنَ الصَّادِقِينَ (٢٢) قَالَ إِنَّمَا الْعِلْمُ عِندَ اللَّهِ﴾ [الأحقاف: ٢٣]، وهذا عيسى عليه السلام لما سأله الله تعالى: هل أمر الناس أن يتخذوه وأمه إلهين من

دونه قال عليه السلام ﴿إِن كُنتُ قُلْتُهُ فَقَدْ عَلِمْتَهُ تَعْلَمُ مَا فِي نَفْسِي وَلَا أَعْلَمُ مَا فِي نَفْسِكَ إِنَّكَ أَنتَ عَلَّامُ الْغُيُوبِ ﴿١١٦﴾﴾ [المائدة]، وموسى عليه السلام لما سأله فرعون عن مصير القرون الأولى ﴿قَالَ عِلْمُهَا عِندَ رَبِّي فِي كِتَابٍ لَّا يَضِلُّ رَبِّي وَلَا يَنسَى ﴿٥٢﴾﴾ [طه]، وشعيب عليه السلام قال: ﴿وَسِعَ رَبُّنَا كُلَّ شَيْءٍ عِلْمًا﴾ [الأعراف: ٨٩]، وإبراهيم عليه السلام قال: ﴿وَسِعَ رَبِّي كُلَّ شَيْءٍ عِلْمًا﴾ [الأنعام: ٨٠]، ومحمد صلى الله عليه وسلم لما سأله المشركون عن وقت النشر والحشر والحساب، أمره الله أن يقول ﴿إِنَّمَا الْعِلْمُ عِندَ اللَّهِ﴾ [الملك: ٢٦].

وكانت طريقةُ الأنبياء والمرسلين عليهم الصلاة والسلام نسبة علومهم إلى الله تعالى، هذا يوسفُ عليه السلام نسب قدرته على تعبير الرؤى والعلم بها إلى تعليم الله له ﴿قَالَ لَا يَأْتِيكُمَا طَعَامٌ تُرْزَقَانِهِ إِلَّا نَبَّأْتُكُمَا بِتَأْوِيلِهِ قَبْلَ أَن يَأْتِيَكُمَا ذَٰلِكُمَا مِمَّا عَلَّمَنِي رَبِّي﴾ [يوسف: ٣٧] ولا ينسبون ما يعلمون إلى أنفسهم أدباً مع الله تعالى؛ فسليمان عليه السلام وهو يعلم لغة الطير ما قال إني علمتها من نفسي بل قال: ﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ عُلِّمْنَا مَنطِقَ الطَّيْرِ﴾ [النمل: ١٦].

إن نسبة العلوم إلى البشر، وتحدي الله عز وجل بهذه العلوم هي طريقة المشركين وفي مقدمتهم قارون الذي قال ﴿إِنَّمَا أُوتِيتُهُ عَلَىٰ عِلْمٍ عِندِي﴾ [القصص: ٧٨].

ويبقى العلم الحقيقي الشامل الذي لا يُنقض ولا تشوبه آفةُ الجهل السابقِ أو الآني أو اللاحق هو علم الله تعالى ﴿ذَٰلِكَ لِتَعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ يَعْلَمُ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ وَأَنَّ اللَّهَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ ﴿٩٧﴾﴾ [المائدة]

﴿ عَالِمُ الغَيْبِ وَالشَّهَادَةِ الكَبِيرُ المُتَعَالِ ﴿٩﴾ ﴾ [الرعد] ﴿ لِتَعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ وَأَنَّ اللَّهَ قَدْ أَحَاطَ بِكُلِّ شَيْءٍ عِلْمًا ﴿١٢﴾ ﴾ [الطلاق] ولكن الإنسان عندما يغفل عن حقيقة علمه فإنه يمضي بطراً ببعض إنجازاته التي يظن أنها لا يأتيها الباطل من بين يديها ولا من خلفها. ينظر إلى مسيرته الماضية فيراها ظلماتٍ وجهالاتٍ، يتعجب من جهل من سبقوه، وينتشي بما وصل إليه من هذه الإنجازات والعلوم، ثم يأتي من بعده ويتقدم قليلاً في طريق محو الجهل فيحقق إنجازات أخرى تُبطل الإنجازات السابقة التي ينظرُ إليها من جديد فيراها ضرباً من العبث... وهكذا دواليك تسيرُ مسيرة التقدم الإنساني.

وإذا تناولنا أبسط الأمثلة للدلالة على ذلك، ممثلاً في الطعام الذي يطعمه الإنسان نجد أن اكتشاف تصنيع المواد الحافظة في صناعة الطعام المعلب كان إنجازاً مهماً وتقدماً عظيماً إذ كيف يُحفظُ الطعام من الفساد والعفونة مدة طويلة، والآن كيف ينظر إلى هذا الإنجاز العظيم؟! ذهبت عظمته وتلاشت حينما اكتشف أن هذه المواد الحافظة سمومٌ تسري في جسد الإنسان عبر هذا الطعام حتى تفتك به(٣)، فما أشد بطر الإنسان! وما أعظم جهله! وما أسرع تراجعه عن إنجازاته الهائلة!!

وبالطبع فليس المقصدُ من عرض هذا الموضوع الدعوة إلى إيقاف عجلة البحث والتقدم، ولا الرجوع إلى الوراء، ولكن المقصد أن يوضع علمُ الإنسان في موضعه الصحيح حتى لا نرى ذا العقل الرشيد منبهراً

---

(٣) انظر: مجلة البيان عدد ١١٨ ص٨٥ وما بعدها.

بالأحداث الجزئية التي قد تُنقض بعد حين، والمقصودُ الأعظم من ذلك أن يخرج الإنسان من حالة ﴿فَرِحُوا بِمَا عِنْدَهُم مِّنَ الْعِلْمِ﴾ [غافر: ٨٣] التي تقود إلى حالة ﴿وَظَنَّ أَهْلُهَا أَنَّهُمْ قَادِرُونَ عَلَيْهَا﴾ [يونس: ٢٤] التي تكون عاقبتها ﴿أَتَاهَا أَمْرُنَا لَيْلاً أَوْ نَهَارًا فَجَعَلْنَاهَا حَصِيدًا كَأَن لَّمْ تَغْنَ بِالأَمْسِ﴾ [يونس: ٢٤].

أعوذ بالله من الشيطان الرجيم ﴿وَيَسْأَلُونَكَ عَنِ الرُّوحِ قُلِ الرُّوحُ مِنْ أَمْرِ رَبِّي وَمَا أُوتِيتُم مِّنَ الْعِلْمِ إِلاَّ قَلِيلاً (٨٥)﴾ [الإسراء] بارك الله لي ولكم في القرآن العظيم.

الخطبة الثانية

الحمد لله رب العالمين، والعاقبة للمتقين، ولا عدوان إلا على الظالمين، وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له ولي الصالحين، وأشهد أن محمداً عبده ورسوله النبي الأمين؛ صلى الله وسلم وبارك عليه وعلى آله وأصحابه والتابعين ومن تبعهم بإحسان إلى يوم الدين.

أما بعد: فاتقوا الله - عباد الله - كما أمر، واحذروا المعاصي ما بطن منها وما ظهر ﴿وَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ مَعَ الْمُتَّقِينَ (٣٦)﴾ [التوبة].

أيها الإخوة المؤمنون: من أبرز صور ضلال حضارة اليوم التخلي عن علوم الوحي، وعدمُ الإيمان بالغيب، والتركيزُ على علم المادة وعالم الشهادة؛ فكان من نتاجها بشرٌ ماديون لامعنى للدين والأخلاق في قلوبهم ﴿يَعْلَمُونَ ظَاهِرًا مِّنَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَهُمْ عَنِ الآخِرَةِ هُمْ غَافِلُونَ (٧)﴾ [الروم] والمؤمن مأمور بالموازنة بين حظوظ الدنيا والآخرة،

فالدنيا مطية الآخرة، ووسيلة التقوّي على طاعة الله تعالى وليست غاية تقصد.

من أجل هذا أمر المسلم بالابتعاد عمن جعل هدفه وغايته الدنيا مع إعراضٍ كبير عن الآخرة ﴿فَأَعْرِضْ عَن مَّن تَوَلَّىٰ عَن ذِكْرِنَا وَلَمْ يُرِدْ إِلَّا الْحَيَاةَ الدُّنْيَا (٢٩) ذَٰلِكَ مَبْلَغُهُم مِّنَ الْعِلْمِ﴾ [النجم: ٢٩, ٣٠].

بقي سؤال يُطرح حيال هذا الموضوع: أمع هذه الأبحاث والدراسات والمكتشفات والمخترعات وصل الإنسان إلى ما يريد؟! وحصَّل السعادة التي ينشدها؟! إن الواقع يجيب بالنفي؛ بل يثبت عكس ذلك فكلما خطا الإنسان خطوة في التقدم العلمي والبحثي، زاد لبنة في بناء شقائه، وتعقدت حياته أكثر وأكثر على رغم وسائل الخدمة والرفاهية.

إن القلق والاضطراب والخوف من المستقبل هو الهاجس الذي يطاردُ الإنسان في عصر المادة والتطور، ولقد أوضح ذلك متخصصون في تلك المجالات حيث يقول أحدهم: «إن إنجازات الإنسان التكنولوجيةِ والتنظيمية إنما هي شَرَكٌ لاصطياده»[٤] ويقول آخر: «حالما ينطلقُ التقدم فلن يوقفه أحد، وهذا التقدمُ ذو الأوجه المتعددةِ لا يكف بالوقت نفسه عن تعقيد الحياة»[٥].

ولكم أن تنظروا بأنفسكم إلى الفرق بين حياة الإنسان في عصر

(٤) انحرافات الثقافة العلمية، د. نزار العان، مجلة علوم وتكنولوجيا الكويتية، عدد ٤١ عن مجلة البيان، عدد ١١٨ ص٦٣.

(٥) المصدر السابق.

المادة والتطور، وبين حياته قبل ذلك؛ فالحياة السابقة كانت سهلة يسيرة خالية من التعقيد والمشكلات. أما حياة الإنسان المعاصر؛ فأصبحت الكماليات فيها حاجات، وتحولت الحاجات إلى ضرورات، وكلُّ يوم تزداد الحياة تعقيداً وإشكالات، والإنسان فيها شقي من الأشقياء إلا من آمن وعمل صالحاً، فاتقوا الله ربكم، ولاتغتروا بحضارة اليوم وزخرفها واعلموا أن الله خالق كل شيء، وهو بكل شيء عليم، وعلى كل شيء قدير، وأن فوق كل ذي علم عليم تبارك وتعالى. ثم صلوا وسلموا على نبيكم كما أمركم ربكم بذلك. . .

* * *

٣٢- تفسير سورة القدر

الجمعة ٢٥/ ٩/ ١٤١٨هـ

الحمد لله، أنزل القرآن ﴿ هُدًى لِّلنَّاسِ وَبَيِّنَاتٍ مِّنَ الْهُدَىٰ وَالْفُرْقَانِ ﴾ [البقرة: ١٨٥] أحمده فهو أهل الحمد، وأشكره فقد أعطى كثيراً، وأنعم جزيلاً، وأتوب إليه وأستغفره فهو ﴿ أَهْلُ التَّقْوَىٰ وَأَهْلُ الْمَغْفِرَةِ ﴿٥٦﴾ ﴾ [المدثر]، وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له ﴿ غَافِرِ الذَّنبِ وَقَابِلِ التَّوْبِ شَدِيدِ الْعِقَابِ ذِي الطَّوْلِ لَا إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ إِلَيْهِ الْمَصِيرُ ﴿٣﴾ ﴾ [غافر: ٣]، وأشهد أن محمداً عبده ورسوله، أقوى الناس إيماناً، وأصدقهم يقيناً، وأكثرهم تبتلاً، وأصلحهم قلباً، صلى الله وسلم وبارك عليه وعلى آله وأصحابه عرفتهم المحاريب راكعين ساجدين، قائمين مخبتين. كم من سارية في المسجد ابتدروها تالين لكتاب ربهم، متدبرين خاشعين، والتابعين ومن تبعهم بإحسان إلى يوم الدين.

أما بعد: فيا أيها الناس اتقوا الله ربكم؛ فشهركم يوشك على الانقضاء، وقد تأذن بالرحيل، وإذا رحل فيوشك أن لا ترى في النهار صائماً، ولا تسمع في الليل قارئاً. ومن لم يتق ويتب في هذا الزمن الفاضل فيا ترى متى سيتوب ويتقي؟!

أيها الإخوة المؤمنون: بما أن شهركم شهرُ القرآن، فيه أنزل، وفيه يتلى، ولقد كان جبريل عليه السلام يدارس النبي صلى الله عليه وسلم القرآن، فإن هذه وقفةٌ مع سورةٍ عظيمة من سوره، موجزة في حروفها، محكمة في مبناها، غزيرة في معناها. حوت علماً كثيراً، وحازت فضلاً

عظيماً، ذكر الواقدي أنها أول سورة نزلت في المدينة[١]، كان نزولها في أول رمضان يفرض على المسلمين، يتزامن نزولها مع أول نصر على الكافرين في بدر الكبرى.

تثبت هذه السورة إنزال القرآن، وترفع شأن الوقت الذي أنزل فيه، وتخبر عن نزول الملائكة في ليلة إنزاله، وتقضي بتفضيل الليلة التي توافق ليلة إنزاله من كل عام[٢].

﴿**إِنَّا أَنزَلْنَاهُ فِي لَيْلَةِ الْقَدْرِ** ①﴾ [القدر] أنزل فيها جملة من اللوح المحفوظ إلى السماء الدنيا، وأول آيات نزلت على محمد صلى الله عليه وسلم كانت فيها[٣]. قال الشعبي: «ابتدأ بإنزاله ليلة القدر؛ لأن البعث كان في رمضان»[٤].

وكون أولِ نزولٍ للقرآن في الليل دون النهار مشعرٌ بفضل اختصاص الليل، وقد جاء لهذا الفضل مايدل عليه ﴿**سُبْحَانَ الَّذِي أَسْرَىٰ بِعَبْدِهِ لَيْلاً**﴾ [الإسراء: ١] ﴿**وَمِنَ اللَّيْلِ فَتَهَجَّدْ بِهِ نَافِلَةً**﴾ [الإسراء: ٧٩] ﴿**وَمِنَ اللَّيْلِ فَسَبِّحْهُ وَأَدْبَارَ السُّجُودِ** ④⓪﴾ [ق] ﴿**إِنَّ نَاشِئَةَ اللَّيْلِ هِيَ أَشَدُّ وَطْئًا وَأَقْوَمُ قِيلاً** ⑥﴾ [المزمل] ولما امتدح الله تعالى الصالحين أخبر أنهم ﴿**كَانُوا قَلِيلاً مِّنَ اللَّيْلِ مَا يَهْجَعُونَ** ①⑦﴾ [الذاريات][٥]. ودلت السنة على أن ربنا

---

(١) انظر: التحرير والتنوير للطاهر بن عاشور (٣٠/ ٤٥٥).
(٢) المصدر السابق (٣٠/ ٤٥٥).
(٣) انظر تفصيل ذلك في: أضواء البيان في إيضاح القرآن بالقرآن (٧/ ٣٨١).
(٤) التفسير الكبير للرازي (٣٢/ ٢٨).
(٥) أضواء البيان (٧/ ٣٩٣).

تعالى ينزل ثلث الليل الآخر فيستجيب دعاء الداعين، ويغفر للمستغفرين، ويعطي السائلين.

وهذا يدل على أن الليلِ أخصُ بالنفحات الإلهية، وبتجليات الرب سبحانه لعباده؛ وذلك لخلوِ القلب، وانقطاع الشواغل، وسكونِ الليل، ورهبتُه أقوى على استحضار القلب وصفائه[٦].

﴿ **وَمَا أَدْرَاكَ مَا لَيْلَةُ الْقَدْرِ** ﴿٢﴾ ﴾ [القدر] كلمة تقال في تفخيم الشيء وتعظيمه والمعنى: أيُّ شيء يعرفك ماهي ليلةُ القدر أي: يعسر على شيء أن يعرفك مقدارها، وأعيد اسم: «ليلة القدر» مرة أخرى تصريحاً بتعظيمها كما حصل كناية؛ حيث اختار الله إنزال القرآن فيها ليتطابق الشرفان: شرفُ إنزال القرآن وشرفُ الزمان[٧].

﴿ **لَيْلَةُ الْقَدْرِ خَيْرٌ مِّنْ أَلْفِ شَهْرٍ** ﴿٣﴾ ﴾ [القدر] روى مالك في الموطأ بلاغاً عن بعض أهل العلم أن رسول الله صلى الله عليه وسلم أري أعمار الناس قبله فكأنه تقاصر أعمار أمته أن لا يبلغوا من العمل مثل ما بلغ غيرهم في طول العمر فأعطاه الله ليلة القدر خير من ألف شهر[٨]، والمقصود أنها خير من ألف شهر ليس فيها ليلة القدر، وهذه

(٦) المصدر السابق (٧/ ٣٩٣).

(٧) التحرير والتنوير (٣٠/ ٤٥٨).

(٨) أخرجه مالك في الموطأ بلاغاً عمن يثق به من أهل العلم في الاعتكاف باب ما جاء في ليلة القدر (١/ ٣٢١) قال ابن عبدالبر: لا أعلم هذا الحديث يروى مسنداً ولا مرسلاً من وجه من الوجوه إلا ما في الموطأ وهو أحد الأربعة=

الخيرية في عملها أي: صيامها وقيامها كما قاله مجاهد وغيره[٩].

وألفُ شهر تزيد في الحساب على ثلاث وثمانين سنة، أي: فوق متوسط أعمار هذه الأمة، فإذا كان كذلك فكيف يفرط العباد فيها وفي التماسها والعبادة فيها؟! من أحياها سنة فكأنه عبدالله نيفاً وثمانين سنة، ومن أحياها كل سنة فكأنه رزق أعماراً كثيرة[١٠]؛ حتى إن عمره في العبادة يكون أكثر من عمره في الحياة بأضعاف مضاعفة. تأملوا هذا الفضل العظيم من الله تعالى، ثم انظروا إلى التفريط الكبير من بني آدم.

ومن أجل فضلها وثوابها صح عن النبي صلى الله عليه وسلم **«أن من قامها إيماناً واحتساباً غفر له ماتقدم من ذنبه»** متفق عليه من حديث أبي هريرة رضي الله عنه[١١].

فالمغبون من حرم خيرها فضيعها وقضاها فيما لا ينفع. يا ترى كم ستبلغ خسارة من قضاها في معصية الله سبحانه لا سيما إذا عُلِم أن

= أحاديث التي لا توجد في غير الموطأ ثم ذكرها وقال: وليس منها حديث منكر ولا ما يدفعه أصل. انظر: الاستذكار (١٠/ ٣٤٢).

(٩) وهو قول قتادة والشافعي واختاره ابن جرير وصوبه ابن كثير رحمه الله تعالى، انظر: تفسيره (٤/ ٨٤٢).

(١٠) انظر: التفسير الكبير (٣٢/ ٣١).

(١١) أخرجه البخاري في كتاب فضل ليلة القدر باب فضل ليلة القدر (٢٠١٤) ومسلم في صلاة المسافرين باب الترغيب في قيام رمضان وهو التراويح (٧٦٠).

بعض المفسرين ذكروا أن الذنب يضاعف فيها كما يضاعف الثواب، وأن المعصية فيها كالمعصية في ألف شهر.[١٢]

﴿ تَنَزَّلُ الْمَلَائِكَةُ وَالرُّوحُ فِيهَا بِإِذْنِ رَبِّهِم مِّن كُلِّ أَمْرٍ ﴿٤﴾ ﴾ [القدر] ومن كثرة تنزل الملائكة فيها تضيق الأرض بهم حتى قيل: «سميت ليلة القدر من الضيق، لضيق الأرض بالملائكة»[١٣].

ولما ذكر العلماء حديث أبيّ بن كعب رضي الله عنه في صحيح مسلم الذي يذكر أن من علامات يومها أن تطلع الشمس بيضاء لا شعاع لها قالوا: «لأن أنوار الملائكة عند صعودهم تتلاقى مع أشعة الشمس فتحدث فيها بياض الضوء»[١٤] وذلك من كثرة الملائكة الذين حضروا مع المؤمنين في مساجدهم ثم يصعدون صبيحتها إلى السماء. قال بعضهم: «تنزل الملائكة ليروا عبادة البشر وجدّهم واجتهادهم في الطاعة»[١٥].

---

(١٢) أضواء البيان(٧/ ٣٨٦).
(١٣) التفسير الكبير (٣٢/ ٢٨).
(١٤) الحديث أخرجه عبدالرزاق (٧٧٠٠) والحميدي (٣٧٥) وابن أبي شيبة (٣/ ٧٦) ومسلم في صلاة المسافرين باب الترغيب في قيام رمضان (١٨٠) وأبو داود في الصلاة باب في ليلة القدر (١٣٧٨) والترمذي في الصوم باب ماجاء في ليلة القدر (٧٩٣) والبيهقي في الكبرى (٤/ ٣١٢) وانظر: أضواء البيان (٧/ ٣٩٠).
(١٥) التفسير الكبير (٣٢/ ٣٢).

وقد جاء في حديث عند أحمد والطيالسي بإسناد حسن أن النبي صلى الله عليه وسلم ذكر «**أن الملائكة تلك الليلة في الأرض أكثرُ من عدد الحصى**»[١٦].

﴿**سَلامٌ هِيَ حَتَّىٰ مَطْلَعِ الْفَجْرِ** ⑤﴾ [القدر] قال الشعبي: «هو تسليم الملائكة ليلة القدر على أهل المساجد حتى يطلع الفجر»[١٧]، وهي كذلك سلام لا يستطيع الشيطان أن يعمل فيها سوءاً أو أذى[١٨]. وتكثر السلامة فيها من العقاب والعذاب بما يقوم به العباد من طاعة الله عز وجل[١٩]، والانطراح بين يديه، والانكسار له، والافتقار إليه، والتضرع والدعاء.

وقد سألت عائشة رضي الله عنها النبي صلى الله عليه وسلم فقالت: يا رسول الله، إن وافقت ليلة القدر ما أقول: قال: قولي: «**اللهم إنك عفو كريم تحب العفو فاعف عني**» رواه الترمذي وقال: حسن صحيح[٢٠]،

---

(١٦) أخرجه الطيالسي في مسنده (٢٥٤٥) وأحمد (٢/ ٥١٩) وابن خزيمة (٢١٩٤) من حديث أبي هريرة مرفوعاً قال الهيثمي: رواه أحمد والبزار والطبراني في الأوسط ورجاله ثقات (٣/ ١٧٥) وسكت عنه الحافظ في الفتح (٤/ ٢٠٩) وحسنه الألباني في السلسلة الصحيحة (٢٢٠٥).

(١٧) تفسير ابن كثير (٤/ ٨٤٣).

(١٨) المصدر السابق (٤/ ٨٤٣).

(١٩) مجالس شهر رمضان للشيخ ابن عثيمين (١٠٥) والمختار للحديث في شهر رمضان لمجموعة من طلبة العلم (٢٥٥).

(٢٠) أخرجه الترمذي في الدعوات باب (٨٥) وقال: حسن صحيح (٣٥١٣) والنسائي في عمل اليوم والليلة (٢٥٧) وابن ماجه في الدعاء باب الدعاء بالعفو والعافية (٣٨٥٠) وصححه الألباني في صحيح الجامع (٤٤٢٣).

وهذا الدعاء على إيجازه جامع لخيري الدنيا والآخرة فالعافية في الدنيا سعادة وفي الآخرة نجاة(٢١).

أيها الإخوة: هذا شرفُ هذه الليلة وفضلها اختصت بنزول القرآن فيها، وتنزلِ الملائكة والروح فيها، وأنها خير من ألف شهر، وأنهـا سلام حتى مطلع الفجر، وفيها تقدر الأرزاق، وتكتب الآجال ﴿**إِنَّا أَنزَلْنَاهُ فِي لَيْلَةٍ مُّبَارَكَةٍ إِنَّا كُنَّا مُنذِرِينَ (٣) فِيهَا يُفْرَقُ كُلُّ أَمْرٍ حَكِيمٍ (٤) أَمْرًا مِّنْ عِندِنَا إِنَّا كُنَّا مُرْسِلِينَ (٥) رَحْمَةً مِّن رَّبِّكَ إِنَّهُ هُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ (٦)**﴾ [الدخان](٢٢).

ولو لم يكن في فضلها إلا أن من قامها إيمانـاً واحتساباً غفـرت ذنوبه المتقدمة لكان ذلك كافياً لحث العباد على تحريها والتماسها، كما كان النبي صلى الله عليه وسلم يعتكف العشر الأواخر التماساً لها.

فاتقوا الله ربكم، واجتهدوا في التماسها كل عام، وذلك بعمارة رمضان والعشرِ خصوصاً بأنواع الطاعات، والإلحاح في الدعاء، والتضرع بين يدي الله تعالى. فمن صدق مع الله في التماسها وفقه الله تعالى لإدراكها وقيامها؛ وذلك المفلح إن كان مقبولاً. نسأل الله تعالى أن يوفقنا لها، وأن يرزقنا إيماناً واحتساباً في قيامها، وأن يجعل القبول والرضوان حليفنا إنه سميع مجيب.

أعوذ بالله من الشيطان الرجيم. بسم الله الرحمن الرحيم ﴿**إِنَّا أَنزَلْنَاهُ**

---

(٢١) أضواء البيان (٧/ ٣٩٠).

(٢٢) المصدر السابق (٧/ ٣٨٦).

فِي لَيْلَةِ الْقَدْرِ ﴿١﴾ وَمَا أَدْرَاكَ مَا لَيْلَةُ الْقَدْرِ ﴿٢﴾ لَيْلَةُ الْقَدْرِ خَيْرٌ مِّنْ أَلْفِ شَهْرٍ ﴿٣﴾ تَنَزَّلُ الْمَلَائِكَةُ وَالرُّوحُ فِيهَا بِإِذْنِ رَبِّهِم مِّن كُلِّ أَمْرٍ ﴿٤﴾ سَلَامٌ هِيَ حَتَّىٰ مَطْلَعِ الْفَجْرِ ﴿٥﴾﴾ [القدر]. بارك الله لي ولكم في القرآن العظيم...

الخطبة الثانية

في زكاة الفطر وبعض أحكام العيد

الحمد لله، حمداً طيباً كثيراً مباركاً فيه كما يحب ربنا ويرضى، أحمده وأشكره وأتوب إليه وأستغفره، وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له، وأشهد أن محمداً عبده ورسوله صلى الله وبارك عليه وعلى آله وأصحابه ومن سار على نهجهم واقتفى أثرهم إلى يوم الدين.

أما بعد: فيا عباد الله: اعلموا أن الله تعالى قد شرع لكم زكاة الفطر وهي واجبة، قال ابن عمر رضي الله عنهما: «فرض رسول الله صلى الله عليه وسلم زكاة الفطر صاعاً من تمر، أو صاعاً من شعير، على العبد والحر والذكر والأنثى والصغير والكبير من المسلمين وأمر بها أن تؤدى قبل خروج الناس إلى الصلاة» متفق عليه[٢٣].

يخرجها الإنسان عن نفسه وعمن تلزمه نفقته إذا كانوا لا يستطيعون إخراجها. وإن استطاعوا إخراجها فالأولى أن يخرجها كل واحد منهم عن نفسه.

---

(٢٣) أخرجه البخاري في الزكاة باب فرض صدقة الفطر (١٥٠٣) ومسلم في الزكاة باب زكاة الفطر على المسلمين من التمر والشعير (٩٨٤).

والوقت الفاضل لإخراجها صباح العيد قبل الصلاة، ويجوز تقديمُ إخراجها قبل العيد بيوم أو يومين[٢٤].

ويشرع ليلة العيد: التكبيرُ ورفعُ الصوت به؛ تعظيماً لشعائر الله تعالى، وشكراً له على إدراك رمضان وصيامه وقيامه ﴿وَلِتُكْمِلُوا الْعِدَّةَ وَلِتُكَبِّرُوا اللَّهَ عَلَىٰ مَا هَدَاكُمْ وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ (١٨٥)﴾ [البقرة].

ومن السنة: أن يخرج النساء لصلاة العيد؛ لقول أم عطية رضي الله عنها: «أمرنا رسول الله صلى الله عليه وسلم أن نخرجهن في الفطر والأضحى العواتق والحُيَّض وذواتِ الخدور. فأما الحيض فيعتزلن الصلاة ويشهدن الخير ودعوة المسلمين، قلت: يا رسول الله، إحدانا لا يكون لها جلباب، قال: «**لتلبسها أختها من جلبابها**» أخرجه الشيخان واللفظ لمسلم[٢٥].

ومن السنة: أن يأكل قبل الخروج إلى صلاة العيد تمرات وتراً. وتجب طاعة الله عزوجل في العيد، والمحافظة على الفرائض، ومجانبة

---

(٢٤) نص عليه في الروض المربع، وقال ابن قاسم في حاشيته على الروض (٣/ ٢٨٠): «باتفاق الأئمة الأربعة وغيرهم، وأجاز أبو حنيفة والشافعي أكثر من يومين؛ حتى من أول الشهر، والنص يدل لمالك وأحمد. وقيل: يجوز بثلاث ونحوها إلى من تجمع عنده؛ ليفرقها يوم العيد قبل الصلاة. وفي الموطأ أن ابن عمر كان يبعث زكاة الفطر إلى الذي تجمع عنده قبل الفطر بيومين أو ثلاثة».

(٢٥) أخرجه البخاري في العيدين باب خروج النساء والحيض إلى المصلى (٩٧٤) ومسلم في صلاة العيدين باب ذكر إباحة خروج النساء في العيدين إلى المصلى وشهود الخطبة مفارقات للرجال واللفظ له (٨٩٠).

النواهي. والفرح في العيد لابد أن يكون في حدود المشروع. أما أن تعلو المعازف، ويرتفع الغناء، وتتكشف النساء فذلك ليس من شكر نعمة إدراك رمضان، ولا هو من علامة القبول والإحسان، وعسى أن لا يكون دليلاً على الرد والحرمان.

فيجب على الأولياء المحافظةُ على أولادهم من الوقوع في المعاصي في العيد، كما يجب على كل مسلم أن ينظر في لباس أهله وبناته المعد للعيد فإن كان لباساً مشروعاً ساتراً وإلا وجب منعهن من لبسه؛ حفظاً لهن، وحفاظاً على عباد الله من الفتنة بهن.

ثم اعلموا رحمكم الله أن رب رمضان هو رب الشهور كلها تعالى وتقدس، وأن الله تعالى يُعبد في كل مكان وفي كل زمان، فاستمروا على العمل الصالح والكفِ عن السيئات، وأتبعوا رمضان ستاً من شوال حتى يكون لكم كصيام الدهر كما أخبر بذلك رسول الله صلى الله عليه وسلم(٢٦)، ثم صلوا وسلموا على محمد بن عبدالله كما أمركم بذلك ربكم. . .

* * *

(٢٦) في حديث أبي أيوب الأنصاري عند مسلم في الصيام باب استحباب صوم ستة أيام من شوال اتباعاً لرمضان (١١٦٤) وأبي داود في الصوم باب في صوم ستة أيام من شوال (٢٤٣٣) والترمذي في الصوم باب ماجاء في صيام ستة أيام من شوال (٧٥٩).

٣٣- تفسير سورة الزلزلة

الجمعة ٣/ ٤/ ١٤٢٠هـ

الحمد لله، نحمده ونستعينه ونستغفره، ونعوذ بالله من شرور أنفسنا ومن سيئات أعمالنا، من يهده الله فلا مضل له، ومن يضلل فلا هادي له، وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له، وأشهد أن محمداً عبده ورسوله صلى الله وسلم وبارك عليه وعلى آله وأصحابه والتابعين لهم بإحسان إلى يوم الدين.

أما بعد: فأوصيكم - أيها الناس - ونفسي بتقوى الله عزّ وجل؛ ففي التقوى سعادة الدنيا وفوز الآخرة ﴿**قُلْ مَتَاعُ الدُّنْيَا قَلِيلٌ وَالآخِرَةُ خَيْرٌ لِّمَنِ اتَّقَىٰ وَلا تُظْلَمُونَ فَتِيلاً**﴾ [النساء: ٧٧].

أيها المسلمون: كتاب الله تعالى فيه الدواء لمن أراد الشفاء، والعلوم لمن رام المعرفة. من حفظ حروفه، والتزم حدوده، وتدبّر معانيه، وعمل بما فيه كان في الدنيا من علمائها، وفي الآخرة من سعدائها ﴿**مَا أَنزَلْنَا عَلَيْكَ الْقُرْآنَ لِتَشْقَىٰ (٢) إِلاَّ تَذْكِرَةً لِّمَن يَخْشَىٰ**﴾ [طه: ٢, ٣]، ﴿**قَدْ جَاءَكُم مِّنَ اللَّهِ نُورٌ وَكِتَابٌ مُّبِينٌ (١٥) يَهْدِي بِهِ اللَّهُ مَنِ اتَّبَعَ رِضْوَانَهُ سُبُلَ السَّلامِ وَيُخْرِجُهُم مِّنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ بِإِذْنِهِ وَيَهْدِيهِمْ إِلَىٰ صِرَاطٍ مُّسْتَقِيمٍ**﴾ [المائدة: ١٥, ١٦].

أيها الإخوة: وهذا حديث عن سورة من سوره العظيمة، قليلة في حروفها، عظيمةٍ في معانيها؛ فيها العبرة والعظة، والترغيب والترهيب، والتذكير بيوم الوعيد.

أعوذ بالله من الشيطان الرجيم، بسم الله الرحمن الرحيم ﴿إِذَا زُلْزِلَتِ الأَرْضُ زِلْزَالَهَا ۝١ وَأَخْرَجَتِ الأَرْضُ أَثْقَالَهَا ۝٢ وَقَالَ الإِنسَانُ مَا لَهَا ۝٣ يَوْمَئِذٍ تُحَدِّثُ أَخْبَارَهَا ۝٤ بِأَنَّ رَبَّكَ أَوْحَىٰ لَهَا ۝٥ يَوْمَئِذٍ يَصْدُرُ النَّاسُ أَشْتَاتًا لِّيُرَوْا أَعْمَالَهُمْ ۝٦ فَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ خَيْرًا يَرَهُ ۝٧ وَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ شَرًّا يَرَهُ﴾ [الزلزلة: ١ - ٨].

إنها تتحدث عن يوم القيامة وما يجري فيه من أهوال وعظائم، تبدأ هذه الأهوال بزلزلة الأرض، أي: اهتزازها واضطرابها. والزلازل هي أشدُّ ما يشهد العالم من حركة، وقد شوهدت زلازل حدثت في أقل من ربع ثانية فأطاحت جسوراً، وحطمت قصوراً، وأهلكت بشراً كثيراً، ودمرت مدناً كاملة(١).

ومع هذا فإن زلزال الدنيا ليس شيئاً يذكر عند زلزال الآخرة الذي وصف بالعظمة دلالة على قوته وشدة دماره: ﴿إِنَّ زَلْزَلَةَ السَّاعَةِ شَيْءٌ عَظِيمٌ﴾ [الحج: ١]. عبّر عن ذلك بالشيء العظيم إيذاناً بأن العقول قاصرة عن إدراك كنهها، والعبارة لا تحيط بها إلا على وجه الإبهام(٢).

إنها زلزلة مهما أُطنب في وصفها، وذكر أجزائها فإن العقل لا يستطيع بلوغ العظمة التي وصفت بها، وإلا فما ظنكم بزلزلة تُسَيَّر على إثرها الجبال، وتُسَجر البحار، وتنفطر السماء، وتنتثر الكواكب ﴿وَحُمِلَتِ الأَرْضُ وَالْجِبَالُ فَدُكَّتَا دَكَّةً وَاحِدَةً﴾ [الحاقة: ١٤]، ﴿إِذَا رُجَّتِ الأَرْضُ رَجًّا

(١) أضواء البيان في إيضاح القرآن بالقرآن (٩/ ٤٢٩).
(٢) تفسير أبي السعود (٦/ ٩١)، ومحاسن التأويل للقاسمي (٥/ ١٨٦).

﴿٤ وَبُسَّتِ الجِبَالُ بَسًّا ٥ فَكَانَتْ هَبَاءً مُّنْبَثًّا﴾ [الواقعة: ٤ - ٦].

هذه الجبال الرواسي الصلاب هل يستوعب العقل القاصر أنها ستصبح من شدة هذه الزلزلة صوفاً يتطاير حتى يتلاشى ﴿وَتَكُونُ الجِبَالُ كَالْعِهْنِ المَنفُوشِ﴾، ﴿وَتَرَى الجِبَالَ تَحْسَبُهَا جَامِدَةً وَهِيَ تَمُرُّ مَرَّ السَّحَابِ﴾، سبحانك اللهم وبحمدك ما أعظم قدرتك! وما أشد قوتك! وما أضعف خلقك!

ومن جراء هذه الزلزلة العنيفة تقذف الأرض مكنوناتها، وتخرج ما في بطنها، من مخبأ ومدفون، من إنس وجن وكنوز ﴿وَأَخْرَجَتِ الأَرْضُ أَثْقَالَهَا﴾ فمن أثقالها: كنوزها والأمواتُ في داخلها[٣]، قال أهل اللغة: إذا كان الميت في بطن الأرض فهو ثقلٌ لها، وإذا كان فوقها فهو ثقل عليها، وسمي الجن والإنس بالثقلين لأن الأرض تثقل بهم إذا كانوا في بطنها، ويثقلون عليها إذا كانوا فوقها[٤]، وهذه الآية مثل قوله تعالى: ﴿وَإِذَا الأَرْضُ مُدَّتْ ٣ وَأَلْقَتْ مَا فِيهَا وَتَخَلَّتْ﴾ [الانشقاق:

---

(٣) اختلف المفسرون في معنى ذلك على ثلاثة أقوال: أ ـ قيل: تخرج الأموات من بطنها أي من قبورهم. ب ـ وقيل: تخرج كنوزها ويشهد له حديث أبي هريرة عند مسلم. ج ـ وقيل: تخرج أسرارها بالشهادة على العباد في موقف الحساب، والآية تحتمل هذه المعاني كلها إلا أن المعنى الثالث يدل عليه صراحة قوله تعالى: ﴿يَوْمَئِذٍ تُحَدِّثُ أَخْبَارَهَا﴾ فلا داعي لإقحامه في تلك الآية، وانظر: النكت والعيون للماوردي (٦/ ٣١٩)، وزاد المسير لابن الجوزي (٩/ ٢٠٢)، وتفسير الرازي (٣٢/ ٥٥ ـ ٥٦).

(٤) نقل هذا عن أبي عبيدة والأخفش كما في تفسير الرازي (٣٢/ ٥٥).

٣, ٤] وجاء في حديث أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: «**تقيء الأرض أفلاذ كبدها أمثال الأسطوان من الذهب والفضة، فيجيء القاتل فيقول: في هذا قتلت، ويجيء القاطع فيقول: في هذا قطعت رحمي، ويجيء السارق فيقول: في هذا قطعت يدي، ثم يدعونه فلا يأخذون منه شيئاً**» أخرجه مسلم(٥).

ولأجل هذه الزلزلة وما حدث من جرائها من تحريك شديد، وإزعاج عنيف؛ بحيث زالت الأشياء من مقارِّها، وخرجت عن مراكزها(٦)، وألقت الأرض ما في داخلها، كان ذلك محلاً للسؤال والاستفهام عن هذا الحدث العظيم.

﴿ **وَقَالَ الإِنسَانُ مَا لَهَا** ﴾ أي: أيُّ شيء عرض لها، يستنكر ما حدث لها، فأما الكفار فيقولون: ﴿ **يَا وَيْلَنَا مَنْ بَعَثَنَا من مَّرْقَدِنَا** ﴾ [يس: ٥٢] فيجيبهم المؤمنون ﴿ **هَذَا مَا وَعَدَ الرَّحْمَنُ وَصَدَقَ الْمُرْسَلُونَ** ﴾ [يس: ٥٢](٧).

وحيث إن نظام العالم قد تغير بتلك الزلزلة فإن الخلق يُقبلون على مرحلة جديدة تنطق فيها الجمادات، وتشهد الأركان. إنها مرحلة الحساب، والسؤال والجواب، والنعيم والعذاب. ومن جملة الشهداء: الأرض؛ إذ تنطق وتشهد(٨)، ﴿ **يَوْمَئِذٍ تُحَدِّثُ أَخْبَارَهَا ④ بِأَنَّ رَبَّكَ أَوْحَىٰ لَهَا** ﴾

---

(٥) أخرجه مسلم في الزكاة باب الترغيب في الصدقة قبل أن لا يوجد من يقبلها واللفظ له (١٠١٣)، والترمذي في الفتن باب (٣٦) (٢٢٠٩).

(٦) تفسير أبي السعود (٦/ ٩١)، ومحاسن التأويل (٥/ ١٨٥).

(٧) أضواء البيان (٩/ ٤٣١).

(٨) تفسير السعدي (٥/ ٤٤٥).

يأمرها ربنا أن تخبر عمّا عُمِل عليها فلا تعصي أمره؛ بل تشهد على العاملين بما عملوا على ظهرها من خير وشر. قال ابن عباس رضي الله عنهما: «قال لها ربها: قولي، فقالت» وخرَّج الإمام أحمد والترمذي من حديث أبي هريرة رضي الله عنه قال: قرأ رسول الله صلى الله عليه وسلم هذه الآية: ﴿يَوْمَئِذٍ تُحَدِّثُ أَخْبَارَهَا﴾ قال: «**أتدرون ما أخبارها؟** قالوا: الله ورسوله أعلم، قال: **فإن أخبارها أن تشهد على كل عبد وأمة بما عمل على ظهرها أن تقول: عمل كذا وكذا في يوم كذا وكذا فهذه أخبارها**» قال الترمذي: حديث حسن غريب صحيح[٩].

﴿يَوْمَئِذٍ يَصْدُرُ النَّاسُ أَشْتَاتًا لِّيُرَوْا أَعْمَالَهُمْ﴾ أي: ينصرفون فرقاً متفاوتين بحسب طبقاتهم، منهم: بيضُ الوجوه آمنين، ومنهم: سود الوجوه فزعين، كل جنس مع جنسه، يصدرون من كل ناحية[١٠]. ليس معهم ما كان يميزهم على الناس في الدنيا كما قال الله تعالى: ﴿وَلَقَدْ جِئْتُمُونَا فُرَادَىٰ كَمَا خَلَقْنَاكُمْ أَوَّلَ مَرَّةٍ وَتَرَكْتُم مَّا خَوَّلْنَاكُمْ وَرَاءَ ظُهُورِكُمْ

---

(٩) أخرجه أحمد (٢/ ٣٧٤)، والترمذي في تفسير الزلزلة وقال: حديث حسن غريب صحيح (٣٣٥٣)، والنسائي في السنن الكبرى (١١٦٩٣)، والبغوي في شرح السنة (٤٣٠٨)، وفي معالم التنزيل (٤/ ٥١٥)، والحاكم وصححه، فتعقبه الذهبي بقوله: يحيى هذا منكر الحديث قاله البخاري (٢/ ٥٣٢)، وصححه ابن حبان (٧٣٦٠)، ويحيى هو أبو سليمان صالح المدني ضعفه الأئمة، وهو علة هذا الحديث؛ ولكن معناه صحيح دلت عليه الآية، ومجمع عليه عند المفسرين؛ ولذلك أوردته.

(١٠) انظر: زاد المسير (٩/ ٢٠٤)، وتفسير ابن كثير (٤/ ٨٥٦).

وَمَا نَرَىٰ مَعَكُمْ شُفَعَاءَكُمُ الَّذِينَ زَعَمْتُمْ أَنَّهُمْ فِيكُمْ شُرَكَاءُ لَقَد تَّقَطَّعَ بَيْنَكُمْ وَضَلَّ عَنكُم مَّا كُنتُمْ تَزْعُمُونَ﴾ [الأنعام: ٩٤]، وقال سبحانه: ﴿وَيَوْمَ تَقُومُ السَّاعَةُ يَوْمَئِذٍ يَتَفَرَّقُونَ (١٤) فَأَمَّا الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ فَهُمْ فِي رَوْضَةٍ يُحْبَرُونَ (١٥) وَأَمَّا الَّذِينَ كَفَرُوا وَكَذَّبُوا بِآيَاتِنَا وَلِقَاءِ الآخِرَةِ فَأُوْلَٰئِكَ فِي الْعَذَابِ مُحْضَرُونَ﴾ [الروم: ١٤ - ١٦].

يصدرون ليرى كل واحد منهم ما عمل في هذه الدنيا من خير وشر ﴿يَوْمَ يَنظُرُ الْمَرْءُ مَا قَدَّمَتْ يَدَاهُ وَيَقُولُ الْكَافِرُ يَا لَيْتَنِي كُنتُ تُرَابًا﴾ [النبأ: ٤٠] ﴿فَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ خَيْرًا يَرَهُ (٧) وَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ شَرًّا يَرَهُ﴾ إنه عدل ربنا تبارك وتعالى حيث يجد العبد جزاء الذرة ﴿وَوَجَدُوا مَا عَمِلُوا حَاضِرًا وَلا يَظْلِمُ رَبُّكَ أَحَدًا﴾ [الكهف: ٤٩]. ﴿وَنَضَعُ الْمَوَازِينَ الْقِسْطَ لِيَوْمِ الْقِيَامَةِ فَلا تُظْلَمُ نَفْسٌ شَيْئًا وَإِن كَانَ مِثْقَالَ حَبَّةٍ مِّنْ خَرْدَلٍ أَتَيْنَا بِهَا وَكَفَىٰ بِنَا حَاسِبِينَ﴾ [الأنبياء: ٤٧]. ﴿إِنَّ اللَّهَ لا يَظْلِمُ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ وَإِن تَكُ حَسَنَةً يُضَاعِفْهَا وَيُؤْتِ مِن لَّدُنْهُ أَجْرًا عَظِيمًا﴾ [النساء: ٤٠].

إنه كرم واسع، وعدل تام، من ذي الجلال والإكرام. أتدرون ـ رحمكم الله ـ ما الذرة التي لا يضيع جزاؤها؟ أدخل ابنُ عباسٍ رضي الله عنهما يده في التراب ثم رفعها ثم نفخ فيها وقال: «كل واحد من هؤلاء مثقال ذرة»(١١) .

وجاء العلم الحديث ليسمى هذا العصر بعصر الذرة؛ لأن الإنسان اكتشفها، واستطاع أن يفتتها إلى جزيئات لتصبح الذرة الواحدة ذرات،

(١١) أخرجه هنَّاد في الزهد (١٩٣). وانظر: الدر المنثور للسيوطي (٦/ ٦٤٩).

وفرح الإنسان بما أوتي من علم، وما وصل إليه من تقدم واكتشاف، وزعم من زعم من طغاة بني آدم أن القرآن وقف عند الذرة، وأن الإنسان تجاوز ذلك فاستطاع أن يفتت هذه الذرة؛ وما علم من قال ذلك أنه يستدل بعلمه على جهله، وبقوله على قلة عقله؛ حيث إن القرآن ذكر ما هو أقل من الذرة: ﴿وَمَا يَعْزُبُ عَن رَّبِّكَ مِن مِّثْقَالِ ذَرَّةٍ فِي الأَرْضِ وَلا فِي السَّمَاءِ وَلا أَصْغَرَ مِن ذَلِكَ وَلا أَكْبَرَ إِلاَّ فِي كِتَابٍ مُّبِينٍ﴾ [يونس: ٦١].

ولو لم يذكر ذلك في القرآن لكان ما عند المؤمن الحق من الإيمان واليقين بقدرة الله تعالى وعظمته ما يرد شبهات أهل الزيغ والضلال ﴿لِتَعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ وَأَنَّ اللَّهَ قَدْ أَحَاطَ بِكُلِّ شَيْءٍ عِلْمًا﴾ [الطلاق: ١٢].

بارك الله لي ولكم في القرآن العظيم..

الخطبة الثانية

الحمد لله حمداً كثيراً طيباً مباركاً فيه كما يحب ربنا ويرضى، أحمده وأشكره، وأتوب إليه وأستغفره، وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له ﴿كُلُّ شَيْءٍ هَالِكٌ إِلاَّ وَجْهَهُ لَهُ الْحُكْمُ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ﴾ [القصص: ٨٨]، وأشهد أن محمداً عبده ورسوله صلى الله وسلم وبارك عليه وعلى آله وأصحابه ومن سار على نهجهم واقتفى أثرهم إلى يوم الدين.

أما بعد: فإن لهذه السورة العظيمة فضلاً اختصت به، فهي السورة الجامعة التي جمعت أسباب الخير فحثت عليه، والشر فحذرت منه، فمن أخذ بها فقد أخذ بالإسلام كله؛ دل على ذلك أن رجلاً أتى النبي

صلى الله عليه وسلم فقال: «أقرئني يا رسول الله»، قال: «**اقرأ ثلاثاً من ذوات ﴿آلر﴾**» فقال: كبرت سني، واشتد قلبي، وغلظ لساني قال: «**فاقرأ ذوات ﴿حم﴾**» فقال مثل مقالته الأولى، فقال: «**اقرأ ثلاثاً من المسبحات**» فقال مثل مقالته، فقال الرجل: ولكن أقرئني يا رسول الله سورة جامعة، فأقرأه: ﴿إِذَا زُلْزِلَتِ الْأَرْضُ زِلْزَالَهَا﴾ حتى إذا فرغ منها قال الرجل: والذي بعثك بالحق لا أزيد عليها أبداً، ثم أدبر الرجل فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم: «**أفلح الرويجل، أفلح الرويجل..**» أخرجه أحمد وأبو داود وصححه الحاكم[١٢].

إن هذه السورة وُصفت بأنها الجامعة؛ لأنها حوت آيتين جمعتا عمل الثقلين من خير وشر؛ ولذلك لما ذكر رسول الله صلى الله عليه وسلم أقسام الخيل، وأنها لرجل أجر ولرجل ستر وعلى رجل وزر وبيّن كيف ذلك، سئل صلى الله عليه وسلم عن الحُمر فقال: «**لم ينزل عليّ فيها شيء إلا هذه الآية الجامعة الفاذّة ﴿فَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ خَيْرًا يَرَهُ ۝٧ وَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ شَرًّا يَرَهُ﴾**» متفق عليه[١٣]، وقال ابن

---

(١٢) أخرجه أحمد (٢/ ١٦٩)، وأبو داود في الصلاة باب تحزيب القرآن (١٣٩٩)، والنسائي في الكبرى (٨٠٢٧)، وهو في عمل اليوم والليلة برقم (٧١٦)، والحاكم وصححه على شرط الشيخين وتعقبه الذهبي بأنه صحيح فقط وليس على شرطهما (٢/ ٥٣٢)، وصححه ابن حبان (٧٧٤)، والشيخ أحمد شاكر في شرح المسند (٦٥٧٥).

(١٣) أخرجه البخاري في الجهاد، باب: الخيل لثلاثة (٢٨٦٠)، ومسلم في الزكاة باب إثم مانع الزكاة (٩٨٧)، والنسائي في الخيل (٦/ ٢١٦)، وأحمد (٢/ ٢٦٢).

مسعود رضي الله عنه: «هذه أحكم آية في القرآن»[١٤]، ونقلوا عن كعب الأحبار أنه قال: «لقد أنزل الله على محمد آيتين أحصتا ما في التوراة والإنجيل والزبور والصحف ﴿فَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ خَيْرًا يَرَهُ ۝٧ وَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ شَرًّا يَرَهُ﴾[١٥]، ولما قدم عم الفرزدق صعصعة بن معاوية المدينة سمع: ﴿فَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ خَيْرًا يَرَهُ ۝٧ وَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ شَرًّا يَرَهُ﴾ قال: «حسبي لا أبالي أن لا أسمع غير هذا» أخرجه أحمد[١٦].

إن هذه السورة الشاملة الجامعة ترشد المسلم إلى الخير، وتحذره من الشر مهما كان قليلاً، فالقليل مع القليل يصبح كثيراً حتى الذرة لها وزنها عند رب العالمين، فأيُّ دين علّم أتباعه هذه المعاني العظيمة، وربّاهم على هذه الدقة المتناهية؟! وجاءت أحاديث رسول الله صلى الله عليه وسلم مؤكدة لهذا المعنى الدقيق، يقول عليه الصلاة والسلام **«لا تحقرن من المعروف شيئاً ولو أن تفرغ من دلوك في إناء المستقي، ولو أن تكلم أخاك ووجهُك إليه منبسط»** أخرجه أحمد[١٧]، وفي

---

(١٤) الجامع لأحكام القرآن للقرطبي (٢٠/ ١٠٤).

(١٥) الجامع لأحكام القرآن (٢٠/ ١٠٤).

(١٦) أخرجه أحمد (٥/ ٥٩)، والنسائي في الكبرى (١١٦٩٤)، والحاكم في معرفة الصحابة (٣/ ٦١٣).

(١٧) أخرجه أحمد (٥/ ٦٣) قال الألباني بعد أن ذكره بسنده: وهذا إسناد صحيح رجاله رجال الشيخين غير عقيل بن طلحة وهو ثقة، انظر: السلسلة الصحيحة (١٣٥٢).

الصحيحين قال النبي عليه الصلاة والسلام «**اتقوا النار ولو بشق تمرة ولو بكلمة طيبة**»[١٨].

وفي المقابل يجب على المسلم ألا يحتقر قليل الشر كما قال النبي عليه الصلاة والسلام: «**إياكم ومحقَّرات الذنوب؛ فإنما محقَّرات الذنوب كمثل قوم نزلوا بطن واد، فجاء ذا بعود وجاء ذا بعود، حتى جمعوا ما أنضجوا به خبزهم، وإن مُحقَّرات الذنوب متى يؤخذ بها صاحبها تهلكه**» أخرجه الإمام أحمد[١٩].

لقد فهم الصحابة رضي الله عنهم هذا المعنى الجليل الدقيق، فها هي أم المؤمنين عائشة رضي الله عنها يستطعمها مسكين وبين يديها عنب فقالت لإنسان: «خذ حبة فأعطه إياها، فجعل ينظر إليها ويعجب، فقالت عائشة: أتعجب؟ كم ترى في هذه الحبة من مثقال ذرة»[٢٠].

---

(١٨) أخرجه البخاري في الزكاة باب اتقوا النار ولو بشق تمرة (١٤١٧)، ومسلم في الزكاة باب الحث على الصدقة ولو بشق تمرة (١٠١٦).

(١٩) أخرجه أحمد من حديث سهل بن سعد رضي الله عنه (٥/ ٣٣١)، والبيهقي في شعب الإيمان (٧٢٦٧)، والطبراني في الأوسط واللفظ له (٧٣٢٣). قال الهيثمي: «رواه أحمد ورجاله رجال صحيح ورواه الطبراني في الثلاثة من طريقين ورجال أحدهما رجال الصحيح غير عبدالوهاب بن عبدالحكم وهو ثقة» انظر: مجمع الزوائد (١٠/ ١٩٠)، وصححه الألباني وقال: على شرط الشيخين، انظر: السلسلة الصحيحة (٣٨٩). وله شاهد من حديث ابن مسعود رضي الله عنه رواه أحمد (١/ ٤٠٢)، والطبراني في الأوسط (٢٥٢٩)، وصححه الشيخ أحمد شاكر في شرحه على المسند (٣٨١٨).

(٢٠) الاستذكار (٢٧/ ٤٠٧)، والدر المنثور وفيه آثار كثيرة جداً (٦/ ٦٤٩).

قال ابن عبدالبر: «قد جاء مثل ذلك عن عبدالرحمن بن عوف، وسعد بن أبي وقاص، ومن اعتاد الصدقة تصدق مرة بالكثير، ومرة باليسير»[٢١].

وعن سعد بن مالك رضي الله عنه أن سائلاً أتاه وبين يديه طبق عليه تمر فأعطاه تمرة فقبض السائل يده، فقال سعدٌ: «ويحك تقبلّ الله منا مثقال الذرة والخردلة وكم في هذه من مثاقيل الذر»[٢٢].

وبهذا يُعلم ـ أيها الأخوة ـ أن قليل الخير لا يحتقر كما أن قليل الشر لا يحتقر؛ فقليل مع قليل يصبح كثيراً.

اللهم صل على محمد وعلى آل محمد كما صليت على إبراهيم وعلى آل إبراهيم إنك حميد مجيد، والحمد لله رب العالمين.

---

(٢١) الاستذكار (٢٧/ ٤٠٧ ـ ٤٠٨).
(٢٢) الدر المنثور (٦/ ٦٤٩).

٣٤- سورة الكوثر

١٢/ ٦/ ١٤٢٢هـ

الحمد لله، نحمده ونستعينه ونستغفره، ونعوذ بالله من شرور أنفسنا، ومن سيئات أعمالنا، من يهده الله فلا مضلَّ له، ومن يضلل فلا هادي له، وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له، وأشهد أن محمداً عبده ورسوله.. ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ حَقَّ تُقَاتِهِ وَلا تَمُوتُنَّ إِلاَّ وَأَنتُم مُّسْلِمُونَ﴾ [آل عمران: ١٠٢]، ﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ اتَّقُوا رَبَّكُمُ الَّذِي خَلَقَكُم مِّن نَّفْسٍ وَاحِدَةٍ وَخَلَقَ مِنْهَا زَوْجَهَا وَبَثَّ مِنْهُمَا رِجَالاً كَثِيرًا وَنِسَاءً وَاتَّقُوا اللَّهَ الَّذِي تَسَاءَلُونَ بِهِ وَالأَرْحَامَ إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلَيْكُمْ رَقِيبًا﴾ [النساء: ١]، ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَقُولُوا قَوْلاً سَدِيدًا (٧٠) يُصْلِحْ لَكُمْ أَعْمَالَكُمْ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ وَمَن يُطِعِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ فَقَدْ فَازَ فَوْزًا عَظِيمًا﴾ [الأحزاب: ٧٠، ٧١].

أما بعد: فإن أصدق الحديث كلام الله تعالى، وخير الهدي هدي محمد صلى الله عليه وسلم، وشر الأمور محدثاتها، وكل محدثة بدعة، وكل بدعة ضلالة، وكل ضلالة في النَّار.

أيها الناس: أنزل الله تعالى القرآن هدى ونوراً وشفاءً للصدور، يشفي من أمراضِ الشبهاتِ والشهواتِ. من تمسك به نجا، ومن حاد عنه هلك، هو دليل السائرين إلى الله تعالى، وأنيس المتجافين عن مضاجعهم في جوف الليل، يتلونه ويتدبرونه، ويرجون وعده، ويخافون وعيده، ويعتبرون بعبره ومواعظه.

إنه كلام الله تعالى؛ رب العالمين، ومالك يوم الدين، وخالق الناس

أجمعين. لا أنيس لمن لم يأنس به، ولا راحة لمن لم يتدبره ويعملْ بما فيه. فهل يجوز لعاقل أن يستغني عنه بغيره! وأن يستبدل به سواه من لغو الحديث، ومجالس الباطل، ومزامير الشيطان؟! لا يفعل ذلك وربي إلا من عطل عقله، واتبع هواه، فهو حريٌ بالهلاك إن لم يتداركه الله برحمته، فيُعجلَ بتوبة نصوح.

أيها المؤمنون: هذا حديث عن سورة عظيمة في معانيها، قليلة في حروفها، لم تتجاوز آياتها ثلاث آيات؛ لكن فيها من العلم والفضل ما سوَّد به المفسرون عشراتِ الصفحات، وما خفي عليهم من علمها ومعانيها أكثر.

اشتملت هذه السورة العظيمة على بشارة النبي صلى الله عليه وسلم بأنه أعطي الخير الكثير في الدنيا والآخرة، وأُمر بأن يشكر الله على ذلك بالإقبال على العبادة، وأن ذلك هو الكمالُ الحقُ، لا ما يتطاول به المشركون على المسلمين بالثروة والنعمة، وهم مغضوب عليهم من الله تعالى؛ لأنهم أبغضوا رسله عليهم السلام، وغضب الله تعالى: بَتْرٌ لهم إذ كانوا بمحل السخط من الله تعالى[1].

وأما سبب نزولها: فما رواه ابن عباس رضي الله عنهما قال: «قدم كعبُ بن الأشرف مكة فقالت له قريش: أنت سيدهم، ألا ترى إلى هذا الصنبر المنبتر من قومه؟ يزعم أنه خيرٌ منا ونحن أهل الحجيج، وأهل السدنة، وأهل السقاية. فقال: أنتم خير منه، قال: فنزلت ﴿إِنَّ

(١) التحرير والتنوير لابن عاشور (٣٠/ ٥٧٢).

شَانِئَكَ هُوَ الأَبْتَرُ﴾ [الكثور:٣] رواه البزار وصححه ابن كثير(٢).

وذكر مجاهد وسعيد بن جبير وقتادة: أنها نزلت في العاص بن وائل؛ ذلك أنه إذا ذكر النبي صلى الله عليه وسلم قال: «دعوه فإنه رجل أبتر لا عقب له، فإذا هلك انقطع ذكره» فأنزل الله هذه السورة(٣).

وقيل: إن قريشاً كانوا يقولون لمن مات ذكورُ ولده: قد بتر فلان، فلما مات لرسول صلى الله عليه وسلم ابنه القاسم بمكة، وإبراهيم بالمدينة، قالوا: بتر محمد، فليس له من يقوم بأمره من بعده؛ فنزلت هذه الآية(٤).

قال ابن كثير بعد أن ساق عدداً من الروايات: «وهذا يعم جميع من اتصف بذلك ممن ذكر وغيرهم»(٥).

---

(٢) أخرجه النسائي في تفسير سورة الكوثر من سننه الكبرى (٦/ ٥٢٤) برقم: (١١٧٠٧)، والطبري في تفسيره (٣٠/ ٢١٣)، والبزار كما في كشف الأستار (٢٢٩٣)، ومختصر زوائد البزار لابن حجر (١٥٣٨)، وعزاه الهيثمي في الزوائد (٧/ ٥ـ٦)، للطبراني في الكبير وقال: وفيه يونس بن سليمان الجمال ولم أعرفه، وبقية رجاله رجال الصحيح، وقال ابن كثير في تفسيره (٤/ ٨٩١) بعد أن ساق إسناد البزار: هكذا رواه البزار وهو إسناد صحيح.

(٣) تفسير ابن كثير (٤/ ٨٩١) والدر المنثور للسيوطي (٦/ ٦٩٠).

(٤) الجامع لأحكام القرآن للقرطبي (٢٠/ ١٥١)، وجاءت روايات أخرى ذكرها المفسرون منها: أنها نزلت في أبي جهل، وقيل: نزلت في عم النبي صلى الله عليه وسلم أبي لهب، وقيل: نزلت في عقبة ابن أبي معيط، وقيل غير ذلك. وانظر: تفسير الرازي (٣٢/ ١٢٤)، وتفسير ابن كثير (٤/ ٨٩١)، والجامع لأحكام القرآن (٢٠/ ١٥١)، والدر المنثور (٦/ ٦٩٠ ـ ٦٩١).

(٥) تفسير ابن كثير (٤/ ٨٩١) وقال الرازي لما ساق الروايات: «واعلم أنه لا يبعد في كل أولئك الكفرة أن يقولوا مثل ذلك؛ فإنهم كانوا يقولون فيه ما هو أسوأ ـ

تبتدئ السورة بتبشير النبي صلى الله عليه وسلم بأن الله تعالى قد أعطاه خيراً كثيراً، وذلك رداً على قول المشركين فيه لما مات أبناؤه: إنه أبتر؛ لأن انقطاع الولد الذكر من عقب الرجل ليس بتراً؛ إذ لا أثر له في كمال الإنسان(٦).

﴿إِنَّا أَعْطَيْنَاكَ الْكَوْثَرَ﴾، والكوثر في اللغة: اسم للخير الكثير المفرط في الكثرة(٧)، ومن هذا الخير الكثير الذي أكرم الله تعالى به نبيه محمداً صلى الله عليه وسلم: نهرُ الكوثر في الجنة، كما روى أنس بن مالك رضي الله عنه قال: «بينا رسول الله صلى الله عليه وسلم ذات يوم بين أظهرنا؛ إذ أغفى إغفاءة، ثم رفع رأسه مبتسماً، فقلنا: ما أضحكك يا رسول الله؟ قال: **أنزلت عليَّ آنفاً سورة**، فقرأ: **بسم الله الرحمن الرحيم** ﴿إِنَّا أَعْطَيْنَاكَ الْكَوْثَرَ ۝١ فَصَلِّ لِرَبِّكَ وَانْحَرْ ۝٢ إِنَّ شَانِئَكَ هُوَ الْأَبْتَرُ﴾ ثم قال: **أتدرون ما الكوثر؟** فقلنا: الله ورسوله أعلم، قال: **فإنه نهر وعدنيه ربي عزَّ وجلَّ، عليه خير كثير، وهو حوض ترد عليه أمتي يوم القيامة، آنيته عـددُ النجوم، فيُختلج العبد منهم، فـأقـول: رب، إنه من أمتي، فيقولُ: ما تدري ما أحدثوا بعدك**» رواه الشيخان واللفظ لمسلم(٨).

= من ذلك، ولعل العاص بن وائل كان أكثرهم مواظبة على هذا القول فلذلك اشتهرت الروايات بأن الآية نزلت فيه» (٣٢/ ١٢٤).

(٦) التحرير والتنوير (٣٠/ ٥٧٢).

(٧) الكشاف للزمخشري (٤/ ٨٠١)، والبحر المحيط لأبي حيان (٨/ ٥٢١).

(٨) أخرجه البخاري مختصراً في تفسير سورة الكوثر (٤٩٦٤)، ومسلم واللفظ له في الصلاة باب حجة من قال: البسملة آية من كل سورة (٤٠٠)، وأبـو=

ومع ما في هذه البشارة العظيمة من الخير الكثير؛ فإن فيها أيضاً تسلية للنبي صلى الله عليه وسلم، وإزالة لما عسى أن يكون في خاطره من قول من قال فيه: هو أبتر، فقوبل معنى الأبتر وهو المنقطع بمعنى الكوثر وهو المتناهي في الكثرة؛ إبطالاً لقولهم[٩].

ومقابلةً لهذا الخير العظيم الذي كرّم الله به نبينا محمداً صلى الله عليه وسلم فإنه أُمر بشكر الله تعالى على ذلك، وإخلاص العمل له وحده ﴿فَصَلِّ لِرَبِّكَ وَانْحَرْ﴾ والصلاةُ والنحر من أخص العبادات وأعظمها. والمشركون يصلون لأصنامهم، وينحرون ويذبحون لها؛ فأُمر النبي صلى الله عليه وسلم أن تكون صلاته خالصة لله تعالى، وأن يكون نحره خالصاً له سبحانه.

وإخلاص العبادة لله تعالى فيه ردٌ على المشركين في مقولاتهم وتنقيصهم للنبي صلى الله عليه وسلم، وفيه إغاظة لهم، وإصرار على إقامة الدين لله تعالى، وإخلاص العبادة له دون من سواه، وهذا أبلغ في الرد من مقابلة مقولاتهم بمقولات مثلها، فالإجابة على سبهم كانت بالفعل، أي: إن كنتم تتنقصونني من أجل توحيدي، وإخلاصي لله تعالى؛ فإن تنقصكم لا يزيدني إلا صلابة في هذا الجانب.

= داود في السنة باب الحوض (٤٧٤٧ ـ ٤٧٤٨)، والترمذي في تفسير سورة الكوثر (٣٣٥٧)، والنسائي في الصلاة باب قراءة (بسم الله الرحمن الرحيم) (٣/ ١٣٣ ـ ١٣٤).

(٩) التحرير والتنوير (٣٠/ ٥٧٣).

فالأمر بإخلاص الصلاة والنحر لله تعالى عقب البشارة بإعطائه الكوثر فيه شكر لله تعالى، وردٌ على المشركين، وهذا من بلاغة القرآن: أن تدل الجمل القليلة على المعاني الكثيرة.

﴿إِنَّ شَانِئَكَ هُوَ الأَبْتَرُ﴾: أي: مبغضك هو المقطوع، وليس بنفس المعنى الذي لمزوا به النبي صلى الله عليه وسلم؛ لأن الذين لمزوه بانقطاع ورثته الذكور، لهم عقبٌ من الذكور(١٠)؛ ولكنهم مبتورون عن الخير، مقطوعون عمَّا ينفعهم في الدار الآخرة، والآية تشملُ كلَّ مبغضٍ للنبي صلى الله عليه وسلم مات على ذلك من أهل الكفر والزندقة والإلحاد، فكلهم بُتْر من الخير بسبب شنآنهم على النبي صلى الله عليه وسلم.

وكل مبغض للنبي صلى الله عليه وسلم فإنه لا يضر إلا نفسه، ولا يقدر على فعل شيء سوى أن يبغضه، والمبغضُ إذا عجز عن الإيذاء يحترق قلبه غيظاً وحسداً، وهذا ما حصل لأولئك المشركين، وهو ما يحصل لكل من أبغض النبي صلى الله عليه وسلم، وما ضرَّ ذلك رسولَ الله صلى الله عليه وسلم، بل أعلى الله ذكره، ورفع شأنه، ونصر دينه، وتكفل بحفظه إلى يوم الدين.

قال المشركون: إنه بُتِرَ من ذريته الذكور؛ فأعطاه الله الخير الكثير،

---

(١٠) فالعاص بن وائل ـ الذي حكى أكثر المفسرين أن الآية نزلت فيه ـ له عقب، وابنه الصحابي الجليل عمرو بن العاص، وابن ابنه الصحابي عبد الله بن عمرو رضي الله عنهما وله عقب.

وأعطاه الكوثر نهراً في الجنة، وجعل أمته أكثر الأمم، وأصحابه أفضل الأصحاب.

قال المشركون لما مات ابناه القاسم وإبراهيم: بُتر محمد فليس له من يقوم بأمره من بعده؛ فهيأ الله تعالى له صحابة كراماً حملوا الدين فبلغوه، ودانوا بالإسلام فنشروه، وتعلموا العلم وعلَّموه، ثم سار على نهجهم أتباعهم، وأتباعُ أتباعهم، حتى بلغ الإسلامُ ما بلغ الليل والنهار. وما من بلد إلا وفيها من يقيم ذكر الله تعالى، ويصلي على النبي صلى الله عليه وسلم، ويدين بالإسلام، فلله الحمد والفضل والشكر والثناء.

قال المشركون لكعب بن الأشرف: نحن خير أم هذا الصنيبر الأبيتر، فقال لهم: «بل أنتم خير منه» فأنزل الله تعالى في كعب[١١] ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ أُوتُوا نَصِيبًا مِّنَ الْكِتَابِ يُؤْمِنُونَ بِالْجِبْتِ وَالطَّاغُوتِ﴾ [النساء: ٥١] وبتر الله كعباً كما بتر أئمة الكفر في غزوة بدر وما بعدها؛ حتى علا ذكر النبي صلى الله عليه وسلم، ودانت له الأمم، وخذل أهل الشرك

(١١) هذه الرواية ذكرها القرطبي في تفسيره (٢٠/ ١٥١) وقوله: صنيبر هو تصغير: صنبر، ومعناه في اللغة: الرجل الفرد الضعيف الذليل بلا أهل وعقب وناصر. هكذا في القاموس (٥٤٨) مادة (صنبر). والأبيتر: تصغير: أبتر، وأصله في اللغة مقطوع الذنب من الدواب، ومنه: الحمار الأبتر الذي لا ذنب له، ويستعار لمن نقص منه ما هو من الخير في نظر الناس؛ تشبيهاً بالدابة المقطوع ذنبها تشبيه معقول بمحسوس، ويقال للذي لا عقب له ذكوراً: هو أبتر على الاستعارة، تشبيه متخيل بمحسوس، شبهوه بالدابة المقطوع ذنبها؛ لأنه قطع أثره في تخيل أهل العرف: انظر: القاموس مادة (بتر) (٤٤٠) والكشاف (٤/ ٨٠٢) والتحرير والتنوير (٣٠/ ٥٧٦).

والكفر، وصدق الله تعالى لما قال: ﴿إِنَّ شَانِئَكَ هُوَ الأَبْتَرُ﴾؛ إذ انقطع كل مبغض للنبي صلى الله عليه وسلم من كل خير ولله الحمد والمنة.

أعوذ بالله من الشيطان الرجيم، بسم الله الرحمن الرحيم:

﴿إِنَّا أَعْطَيْنَاكَ الكَوْثَرَ (١) فَصَلِّ لِرَبِّكَ وَانْحَرْ (٢) إِنَّ شَانِئَكَ هُوَ الأَبْتَرُ﴾.

بارك الله لي ولكم في القرآن العظيم..

الخطبة الثانية

الحمد لله حمداً كثيراً طيباً مباركاً فيه كما يحب ربنا ويرضى، أحمده وأشكره، وأتوب إليه وأستغفره، وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له، وأشهد أن محمداً عبده ورسوله، صلى الله وسلم وبارك عليه وعلى آله وصحبه ومن اهتدى بهداهم إلى يوم الدين.

أما بعد: فاتقوا الله ـ عباد الله ـ وأخلصوا له الدين ﴿وَمَا أُمِرُوا إِلاَّ لِيَعْبُدُوا اللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ حُنَفَاءَ وَيُقِيمُوا الصَّلاةَ وَيُؤْتُوا الزَّكَاةَ وَذَلِكَ دِينُ القَيِّمَةِ﴾ [البينة: ٥].

قال شيخ الإسلام ابن تيمية رحمه الله تعالى: «سورة الكوثر ما أجلها من سورة! وأغزر فوائدها على اختصارها. وحقيقة معناها تعلم من آخرها؛ فإنه سبحانه وتعالى بتر شانئ رسوله من كل خير، فيبترُ ذكره وأهله وماله؛ فيخسر ذلك في الآخرة، ويبتر حياته فلا ينتفع بها، ولا يتزودُ فيها صالحاً لمعاده، ويبترُ قلبه، فلا يعي الخير ولا يؤهله لمعرفته ومحبته، والإيمان برسله، ويبترُ أعماله فلا يستعمله في طاعة، ويبتره من الأنصار فلا يجد له ناصراً ولا عوناً، ويبتره من جميع القرب

والأعمال الصالحة فلا يذوق لها طعماً، ولا يجد لها حلاوة، وإن باشرها بظاهره فقلبه شارد عنها.

وهذا جزاء من شنأ بعض ما جاء به الرسول صلى الله عليه وسلم، وردّه لأجل هواه أو متبوعه أو شيخه أو أميره أو كبيره؛ كمن شنأ آيات الصفات، وأحاديث الصفات، وتأولها على غير مراد الله ورسوله منها، أو حملها على ما يوافق مذهبه ومذهب طائفته، أو تمنى أن لا تكون آيات الصفات أنزلت، ولا أحاديث الصفات قالها رسول الله صلى الله عليه وسلم. . .

وكذلك أهل السماع الذين يرقصون على سماع الغناء، والقصائد والدفوف والشبابات، إذا سمعوا القرآن يتلى ويقرأ في مجالسهم استطالوا ذلك واستثقلوه، فأي شنآن أعظم من هذا، وقس على هذا سائر الطوائف في هذا الباب.

وكذلك من آثر كلام الناس وعلومهم على القرآن والسنة، فلولا أنه شانئ لما جاء به الرسول ما فعل ذلك؛ حتى إن بعضهم لينسى القرآن بعد حفظه، ويشتغل بقول فلان وفلان، ولكن أعظم من شنأه وردَّه: من كفر به وجحده، وجعله أساطير الأولين، وسحراً يؤثر، فهذا أعظمُ وأطمُّ انبتاراً. وكل من شنأه له نصيب من الانبتار على قدر شناءته له، فهؤلاء لما شنئوه وعادوه جازاهم الله بأن جعل الخير كله معادياً لهم؛ فبترهم منه، وخص نبيه صلى الله عليه وسلم بضد ذلك، وهو أنه أعطاه الكوثر وهو من الخير الكثير الذي آتاه الله في الدنيا والآخرة،

فمما أعطاه في الدنيا: الهدى والنصرَ والتأييد، وقرة العين والنفس، وشرح الصدر، ونِعْمَ قَلْبِهِ بذكره وحبه بحيث لا يشبه نعيمَه نعيمٌ في الدنيا البتة.

وأعطاه في الآخرة الوسيلة، والمقامَ المحمود، وجعله أول من يُفتح له ولأمته باب الجنة، وأعطاه في الآخرة لواء الحمد، والحوض العظيم في موقف القيامة، إلى غير ذلك، وجعل المؤمنين كلَّهم أولاده، وهو أب لهم، وهذا ضد حال الأبتر الذي يشنؤه ويشنأ ما جاء به.

فالحذر ـ أيها الرجل ـ من أن تكره شيئاً مما جاء به الرسول صلى الله عليه وسلم، أو تردَّه لأجل هواك، أو انتصاراً لمذهبك، أو لشيخك، أو لأجل اشتغالك بالشهوات أو بالدنيا؛ فإن الله لم يوجب على أحد طاعة أحد إلا طاعة رسوله، والأخذ بما جاء به؛ بحيث لو خالف العبد جميع الخلق واتَّبع الرسول ما سأله الله عن مخالفة أحد؛ فإن من يطيع أو يُطاع إنما يطاع تبعاً للرسول وإلا لو أَمر بخلاف ما أَمر به الرسول ما أُطيع، فاعلم ذلك واسمع وأطع واتبع ولا تبتدع تكن أبتر مردوداً عليك عملك بل لا خير في عمل أبتر من الاتباع ولا خير في المخالفة والله أعلم» اهـ[١٢].

(١٢) مجموع فتاوى شيخ الإسلام مع بعض الاختصار (١٦/٥٢٦ ـ ٥٢٩).

تنبيهان:

الأول: اختلف المفسرون في معنى الكوثر الذي أعطيه النبي صلى الله عليه وسلم على أقوال كثيرة أوصلها القرطبي في جامعه (٢٠/١٤٧) إلى ستة عشر قولاً، وهي أفراد من الخير الكثير الذي أعطاه الله تعالى نبينا محمداً صلى الله =

إن الله وملائكته يصلون على النبي، يا أيها الذين آمنوا صلوا عليه وسلموا تسليماً. .

= عليه وسلم، ومن أخصه: النهر الذي في الجنة، المسمى: الكوثر، كما دلَّ عليه حديث أنس رضي الله عنه السابق ذكره، ودلت عليه أحاديث أخرى منها: حديث عائشة رضي الله عنها قالت: «الكوثر نهر أعطيه نبيكم. .» رواه البخاري (٤٩٦٥)، وحديث: ابن عمر رضي الله عنهما قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: «**الكوثر نهر في الجنة**» رواه الترمذي في تفسير سورة الكوثر وقال: حسن صحيح (٣٣٥٨)، وابن ماجه في الزهد باب صفة الجنة (٤٣٣٤)، وأحمد (٢/ ١١٢).

ودليل أن النهر المسمى (الكوثر) من الخير الذي أعطيه النبي صلى الله عليه وسلم ما رواه البخاري في صحيحه (٤٩٦٦) من حديث أبي بشر عن سعيد ابن جبير عن ابن عباس رضي الله عنهما أنه قال في الكوثر: «هو الخير الذي أعطاه الله إيَّاه». قال أبو بشر: قلت لسعيد بن جبير: «فإن الناس يزعمون أنه نهر في الجنة؟ فقال سعيد: النهر الذي في الجنة من الخير الذي أعطاه الله إياه».

فعلى هذا يكون للكوثر معنيان:

الأول: عام وهو الخير الكثير، وقد استعمل الكوثر في اللغة بمعنى: الكثير من كل شيء، أو المفرط في الكثرة؛ كما في القاموس: مادة: كثر (٦٠٢)، وعليه يحمل قول ابن عباس وسعيد بن جبير رضي الله عنهم.

الثاني: خاص وهو النهر الذي أكرم الله به رسوله محمداً صلى الله عليه وسلم في الجنة كما دلت عليه الأحاديث الأخرى. والله أعلم.

التنبيه الثاني: أطال بعض المفسرين في تفسيرهذه السورة القصيرة كالرازي؛ إذ استنفذ في تفسيرها سبع عشرة صفحة كبيرة، وذكر فوائد عدة من ألفاظها ومعانيها، منها ما هو جيد ومقبول وتحتمله الآيات، ومنها ما هو متكلف، وفي بعضه نظر ومناقشة، وقد اجتهد في التدليل على بلاغة القرآن بإبراز معان كثيرة في أقصر سورة منه، على أن عادته في تفسيره الإسهاب والإطالة.

٣٥- من هدايات السنة النبوية (١) «حديث الولي»

الجمعة ٢٦/ ٤/ ١٤١٨هـ

الحمد لله، نحمده ونستعينه ونستغفره، ونعوذ بالله من شرور أنفسنا ومن سيئات أعمالنا، من يهده الله فلا مضل له ومن يضلل فلا هادي له، وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له، وأشهد أن محمداً عبده ورسوله ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ حَقَّ تُقَاتِهِ وَلَا تَمُوتُنَّ إِلَّا وَأَنتُم مُّسْلِمُونَ ﴿١٠٢﴾﴾ [آل عمران] ﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ اتَّقُوا رَبَّكُمُ الَّذِي خَلَقَكُم مِّن نَّفْسٍ وَاحِدَةٍ وَخَلَقَ مِنْهَا زَوْجَهَا وَبَثَّ مِنْهُمَا رِجَالًا كَثِيرًا وَنِسَاءً وَاتَّقُوا اللَّهَ الَّذِي تَسَاءَلُونَ بِهِ وَالْأَرْحَامَ إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلَيْكُمْ رَقِيبًا ﴿١﴾﴾ [النساء] ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَقُولُوا قَوْلًا سَدِيدًا ﴿٧٠﴾ يُصْلِحْ لَكُمْ أَعْمَالَكُمْ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ وَمَن يُطِعِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ فَقَدْ فَازَ فَوْزًا عَظِيمًا ﴿٧١﴾﴾ [الأحزاب].

أما بعد: فإن الاهتداء بالوحي، والسير في ضوء النص مسلك الموفقين من عباد الله، الذين اطمأنت قلوبهم في الدنيا، ولسوف يفوزون في الآخرة. لا كمن جعلوا السلطان لعقولهم على وحي الله تعالى، فما لم تفهمه وتستوعبه عقولهم طرحوه وتركوه بل وكذبوه، ولو كان في ثبوته مثل الشمس في رائعة النهار. فهم أهل الحيرة والشك والارتياب، ولا كأهل الوجد والحس، الذين عبدوا أهواءهم وشياطينهم، وأضلوا أتباعهم من العامة ودهماء الناس بخرافاتهم وأكاذيبهم وشعوذاتهم.

إن أهل الإيمان والحق يسيرون على طريق واضحة، يتبعون المحكم

من كتاب الله تعالى، والصحيح من سنة نبيه صلى الله عليه وسلم، ويؤمنون بالمتشابه منهما ويقولون ﴿كُلٌّ مِّنْ عِندِ رَبِّنَا﴾ [آل عمران: ٧].

أيها الإخوة: وهذه وقفة مع نص من حديث رسول الله صلى الله عليه وسلم الذي هو أعذبُ الحديث وأبلَغه، وأجمعُه وأنفعه بعد كلام الله تعالى، نأخذ من هذا الحديث العبرة والموعظة الحسنة، والطريق الصحيحة التي تأخذ بنا نحو التسديد والتوفيق، في الدنيا والآخرة ومن منا لايريد ذلك؟!

حديث قدسي عظيم مخرج في الصحيح [١] يرويه أبو هريرة رضي الله عنه عن النبي صلى الله عليه وسلم، ويرويه النبي صلى الله عليه وسلم عن ربه تبارك وتعالى أنه قال: «**من عادى لي ولياً فقد آذنته بالحرب، وما تقرب إليّ عبدي بشيء أحبَّ إليَّ مما افترضت عليه، ومايزال عبدي يتقرب إليّ بالنوافل حتى أحبه فإذا أحببته كنت سمعه الذي يسمع به وبصره الذي يبصر به ويده التي يبطش بها ورجله التي يمشي بها، وإن سألني لأعطينه ولئن استعاذني لأعيذنه، وما ترددت عن شيء أنا فاعله ترددي عن نفس المؤمن يكره الموت وأنا أكره مساءَته**» قال شيخ الإسلام ابن تيميه عن هذا الحديث: «هو أشرف حديث روي في صفة الأولياء»[٢].

---

(١) أخرجه البخاري في الرقاق باب التواضع (٦٥٠٢) والبيهقي في الكبرى (٣/ ٣٤٦) وأبونعيم في الحليه (١/ ٤) والبغوي في شرح السنه (٢٤٨).

(٢) مجموع الفتاوى (١٨/ ١٢٩).

لقد بيّن هذا الحديث منزلة أولياء الله عنده تعالى، وولي الله هو: العالم بالله، المواظب على طاعته، المخلص في عبادته[٣]. جمع بين الإيمان والتقوى، فجمع الله له البشرى في الدنيا والآخرة، وأذهب عنه الخوف والحزن ﴿**أَلَا إِنَّ أَوْلِيَاءَ اللَّهِ لَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ (٦٢) الَّذِينَ آمَنُوا وَكَانُوا يَتَّقُونَ (٦٣) لَهُمُ الْبُشْرَىٰ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَفِي الْآخِرَةِ لَا تَبْدِيلَ لِكَلِمَاتِ اللَّهِ ذَٰلِكَ هُوَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ (٦٤)**﴾ [يونس].

وجاء عن ابن مسعود وابن عباس وغيرهما أن أولياء الله هم الذين إذا رُؤوا ذُكر الله تعالى[٤].

وما ذاك إلا لأن ذكر الله في قلوبهم وألسنتهم، وأثره ظاهر على جوارحهم فهم يُذكِّرون الناس ربهم؛ فمن رآهم ذكر الله تعالى.

ما أعظم منزلة أولياء الله تعالى حينما ينذر الله تعالى من عاداهم بالحرب!! عاداهم بسبب صلاحهم أو عبادتهم أو دعوتهم أوجهادهم. وما أكثر الذين يعادون أولياء الله ويظلمونهم، فويل لهم! كيف يقابلون الله وقد عادوا أولياءه؟!

قال ابن رجب رحمه الله تعالى: «**فقد آذنته بالحرب**: فقد أعلمته بأني محارب له حيث كان محارباً لي بمعاداة أوليائي؛ ولهذا جاء في

---

(٣) فتح الباري لابن حجر (١١/ ٣٥٠).

(٤) انظر الروايات في تفسير ابن كثير (٢/ ٦٥٥) والدر المنثور للسيوطي (٣/ ٥٥٦) وقد جاء مرفوعاً عند ابن المبارك والحكيم الترمذي والبزار وابن المنذر وابن أبي حاتم وأبي الشيخ وابن مردويه كما في الدر المنثور.

حديث عائشة «**فقد استحل محاربتي**»[٥] وفي حديث أبي أمامة «**فقد بارزني بالمحاربة**»[٦] إلى أن قال: واعلم أن جميع المعاصي محاربةٌ لله عز وجل، قال الحسن: ابن آدم! هل لك بمحاربة الله من طاقة؟ فإن من عصى الله فقد حاربه. وكلما كان الذنبُ أقبح كان أشد محاربة لله، ولهذا سمى الله تعالى أكلة الربا، وقطّاع الطريق محاربين لله تعالى ورسوله؛ لعظيم ظلمهم لعباده وسعيهم بالفساد في بلاده. وكذلك معاداة أوليائه؛ فإنه تعالى يتولى نصرة أوليائه ويحبهم ويؤيدهم فمن عاداهم فقد عادى الله وحاربه»اهـ[٧].

وقال الفاكهاني: «في هذا تهديد شديد لأن من حاربه الله أهلكه، ومن كره من أحب الله خالف الله ومن خالف الله عانده، ومن عانده أهلكه. وإذا ثبت هذا في جانب المعاداة ثبت في جانب الموالاة فمن والى أولياء الله أكرمه الله»اهـ[٨].

«**وماتقرب إلي عبدي بشيء أحب إلي مما افترضت عليه**» نعم، ما تقرب المتقربون بشيء أحب عند الله من فرائضه التي فرضها، ولولا عظمةُ تلك الفرائض لما جعل العباد يتعبدونه بها. يقول عمر بن الخطاب

---

(٥) أخرجه أحمد (٦/ ٢٥٦) وأبو نعيم في الحلية (١/ ٥).

(٦) أخرجه الطبراني في الكبير (٨/ ٢٦٤) برقم (٧٨٨٠) قال الهيثمي: وفيه علي ابن يزيد وهو ضعيف. انظر: مجمع الزوائد (٢/ ٢٥١).

(٧) جامع العلوم والحكم لابن رجب (٢/ ٣٣٤).

(٨) فتح الباري لابن حجر (١١/ ٣٥٠).

رضي الله عنه: «أفضل الأعمال أداء ما افترض الله، والورع عما حرم الله، وصدق النية عند الله عزوجل». اهـ[٩]، وهذه الدرجة هي درجة المقتصدين أصحاب اليمين.

أما السابقون المقربون فإنهم تقربوا إلى الله بعد الفرائض بالاجتهاد في نوافل الطاعات، والانكفاف عن دقائق المكروهات بالورع؛ وذلك يوجب للعبد محبة الله كما قال «**ولا يزال عبدي يتقرب إليّ بالنوافل حتى أحبه**» فمن أحبه الله رزقه محبته وطاعته، والاشتغال بذكره وخدمته؛ فأوجب له ذلك القرب منه، والزلفى لديه، والحظوة عنده[١٠].

ومحبةُ الله ومحبةُ مايحبُ الله من أعظم المقامات وأرفعها؛ لذلك علّم الله تعالى رسوله صلى الله عليه وسلم سؤال ذلك، قال عليه الصلاة والسلام: «**... إني قمت من الليل فتوضأت وصليت ماقدّر لي فنعست في صلاتي حتى استثقلت فإذا بربي تبارك وتعالى في أحسن صورة... إلى أن قال: يا محمد: قل... اللهم إني أسألك حبَّك وحبَّ من يحبك وحبّ عملٍ يقرب إلى حبك..**» صححه البخاري والترمذي[١١]، وكان من دعائه صلى الله عليه وسلم: «**اللهم ارزقني**

---

(٩) جامع العلوم والحكم (٢/ ٣٣٦).

(١٠) جامع العلوم والحكم (٢/ ٣٣٧).

(١١) كما في حديث معاذ بن جبل وهو حديث عظيم طويل أخرجه أحمد (٥/ ٢٤٣) وابن خزيمة في التوحيد (٢١٨) والترمذي في تفسير القرآن باب من سورة ص (٣٢٣٥) والحاكم وصححه الذهبي (١/ ٧٠٢) والطبراني في الكبير =

حبّك وحبَّ من ينفعني حبُهُ عندك، اللهم مارزقتني مما أحبُ فاجعله قوة لي فيما تحب، اللهم ما زويت عني مما أحبُّ فاجعله فراغاً لي فيما تحب» أخرجه الترمذي وحسنه(١٢)، فمتى امتلأ القلب بعظمة الله تعالى، محا ذلك من القلب كلَّ ماسواه، ولم يبق للعبد شيء من نفسه وهواه، ولا إرادة إلا لما يريده منه مولاه؛ فحينئذ لاينطق العبد إلا بذكره، ولا يتحرك إلا بأمره، فإن نطق نطق بالله، وإن سمع سمع به، وإن نظر نظر به، وإن بطش بطش به؛ فهذا هو المراد من قوله تعالى في الحديث: «**فإذا أحببته كنت سمعه الذي يسمع به، وبصره الذي يبصر به، ويده التي يبطش بها، ورجله التي يمشي بها**». . . ومن هذا المعنى قول علي رضي الله عنه: إن كنا لنرى أن شيطان عمر ليهابُه أن يأمره بالخطيئة(١٣).

فيا لها من منزلة عظيمة حينما يسدد الله العبد ويوفقه لطاعته حتى لا تعمل جوارحه إلا ما يرضي الله تعالى، وتباعدُ كلّ البعد عما لا يرضيه. هذه والله هي السعادة في الدنيا والآخرة، ومن كان كذلك

= (٢٠/ ١٠٨) قال الترمذي: هذا حديث حسن صحيح سألت محمد بن إسماعيل عن هذا الحديث فقال: هذا حديث حسن صحيح، انظر: جامع الترمذي (٥/ ٣٤٤).

(١٢) أخرجه ابن المبارك في الزهد (٤٣٠) والترمذي في الدعوات باب (٧٤) من حديث عبدالله بن يزيد الخطمي الأنصاري، وقال الترمذي: هذا حديث حسن غريب (٣٤٩١).

(١٣) جامع العلوم والحكم (٢/ ٣٤٧).

كان جديراً أن يعطيه الله سؤله، ويعيذه إذا استعاذه، وينصره إذا استنصره، ويجيبه إذا دعاه، كيف وقد قال: «**وإن سألني لأعطينه، ولئن استعاذني لأعيذنه**» فمع تسديد الله وتوفيقه لهذا العبد الصالح يجعله مجاب الدعوة؛ لكرامته عليه عزوجل.

عن أنس رضي الله عنه عن النبي صلى الله عليه وسلم قال: «**كم من ضعيف متضعَّف ذي طمرين لو أقسم على الله لأبره، منهم البراء ابن مالك**»[١٤] لاحظوا قوله في الحديث «**ضعيف متضعف**»: أي يتضعفه الناس ويتجبرون عليه في الدنيا للفقر ورثاثة الحال، منهم البراء بن مالك، والبراء بن مالك المذكور في الحديث لقي زحفاً من المشركين فقال له المسلمون: أقسم على ربك، فقال: أقسمت عليك يا رب لما منحتنا أكتافهم؛ فمنحهم أكتافهم، ثم التقوا مرة أخرى فقالوا: أقسم على ربك، فقال: أقسمت عليك يا رب لما منحتنا أكتافهم وألحقتني بنبيك صلى الله عليه وسلم، فمنحوا أكتافهم وقتل البراء رضي الله عنه[١٥].

وعن ثوبان رضي الله عنه عن النبي صلى الله عليه وسلم قال: «**إن من أمتي من لوجاء أحدكم يسأله ديناراً لم يعطه، ولو سأله درهماً**

---

(١٤) أخرجه الترمذي من حديث أنس بن مالك في المناقب باب مناقب البراء بن مالك رضي الله عنه وقال: هذا حديث صحيح حسن من هذا الوجه (٣٨٥٤) والحاكم من وجه آخر عن أنس واللفظ له وصححه ووافقه الذهبي (٣/ ٢٩٢).

(١٥) مستدرك الحاكم وقال: صحيح الإسناد ولم يخرجاه (٣/ ٢٩٢).

لم يعطه، ولو سأله فلساً لم يعطه، ولو سأل الله الجنة لأعطاه إياها، ذو طمرين، لايؤبه به، لو أقسم على الله لأبره» (١٦).

وربما دعا المؤمن الولي المجابُ الدعوة بما يعلمُ اللهُ الخِيَرة له في غيره، فلا يجيبه إلى سؤاله، ويعوضُه عنه ما هو خير له في الدنيا أو في الآخرة، وفي حديث أنس المرفوع: إن الله يقول: «**إن من عبادي من يسألني باباً من العبادة، فأكفه عنه كيلا يدخله العُجْب**» أخرجه الطبراني وصححه العراقي (١٧).

وتعظم منزلة هذا الولي حتى إن الله تعالى يكره أذاه ومساءته، فالموت حق كتبه الله على البشر، والبشر يكرهون الموت لما فيه من الشدة والكرب؛ فيرحم الله أولياءه ويلطف بهم، ويشفق عليهم، ويحسن لهم الختام، وهذا معنى قوله في الحديث «**وما ترددت عن شيء أنا فاعله ترددي عن نفس المؤمن يكره الموت وأنا أكره مساءته**» فسبحان الله ما أعظم شأن أوليائه عنده.

أعوذ بالله من الشيطان الرجيم ﴿**أَلا إِنَّ أَوْلِيَاءَ اللَّهِ لا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلا هُمْ يَحْزَنُونَ (٦٢) الَّذِينَ آمَنُوا وَكَانُوا يَتَّقُونَ (٦٣) لَهُمُ الْبُشْرَىٰ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا**

---

(١٦) أخرجه الطبراني في الأوسط (٧٥٤٨) قال الهيثمي: ورجاله رجال الصحيح (١٠/ ٢٦٤).

(١٧) أخرجه الطبراني في الأوسط قال الهيثمي: ورجاله رجال الصحيح (١٠/ ٢٦٤) وكذا قال المنذري في الترغيب والترهيب (٤/ ١٥٢) وصححه العراقي في تخريجه للإحياء (٣/ ٢٧٧).

وَفِي الآخِرَةِ لا تَبْدِيلَ لِكَلِمَاتِ اللَّهِ ذَلِكَ هُوَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ ﴿٦٤﴾ ﴾ [يونس] نفعني الله وإياكم بهدي كتابه، وسنة نبيه محمد صلى الله عليه وسلم وأقول قولي هذا وأستغفر الله لي ولكم. . .

الخطبة الثانية

الحمد لله، حمداً كثيراً طيباً مباركاً فيه كما يحب ربنا ويرضى، أحمده وأشكره على نعمه التي لا تعد ولا تحصى، وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لاشريك له، خلق فسوى، وقدر فهدى، وكل شيء عنده بأجل مسمى. وأشهد أن محمداً عبده ورسوله، النبي المصطفى، والرسول المجتبى، صلى الله وسلم وبارك عليه وعلى آله وأصحابه أولي النهى، وأعلام التقى، والتابعين لهم بإحسان ومن سار على نهجهم واقتفى

أما بعد: فاتقوا الله - عباد الله - فإن ولاية الله تعالى لا تنال إلا بالتقوى، والمتقون هم أولياء الله تعالى ﴿وَإِنَّ الظَّالِمِينَ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَاءُ بَعْضٍ وَاللَّهُ وَلِيُّ الْمُتَّقِينَ ﴿١٩﴾ ﴾ [الجاثية].

أيها المؤمنون: يُظْهِر هذا الحديث الفرق العظيم بين الطاعة والمعصية، فالطاعة تقرب إلى الله تعالى حتى تجعل صاحبها من أوليائه الذين يتولاهم بعنايته ورعايته، ويحفظهم من شياطين الجن والإنس، ويعلن الحرب على من عاداهم من أهل المعاصي والفجور.

قال أبو الفضل ابن عطاء: «في هذا الحديث عظم قدر الولي؛ لكونه خرج عن تدبيره إلى تدبير ربه، وعن انتصاره لنفسه إلى انتصار الله له، وعن حوله وقوته بصدق توكله. ويؤخذ منه أن لا يحكم لإنسان

آذى ولياً ثم لم يعاجل بمصيبة في نفسه أو ماله أو ولده بأنه سلم من انتقام الله؛ فقد تكون مصيبته في غير ذلك مما هو أشد عليه كالمصيبة في الدين مثلاً» اهـ(١٨).

وهذا يفسر لنا تردي أحوال الذين يؤذون أولياء الله تعالى خاصة في جوانب الدين والأوامر والنواهي؛ فكم من عدو لله تعالى آذى أولياءَه بيده أو لسانه أو قلمه، من علماء ودعاةٍ وصالحين، ومع ذلك تراه يتقلب في ملذات الدنيا، لم يؤذ في نفسه أو ماله أو ولده؛ بل ربما يزيده الله من ذلك؛ لكن لو فتشت عن دينه لوجدت أنه ينحدر من معصية إلى أعظم منها؛ حتى يقترف أنواع الفجور والآثام. بل ربما ارتكس في الكفر والإلحاد والزندقة، فيكون انتقامُ الله منه لأوليائه الذين آذاهم أن سهل عليه أمر الكفر والفجور حتى يخلد في العذاب، ويكون حسابه في الآخرة أشد وأنكى.

ويبين هذا الحديث بجلاء خطأ من يهمل الفرائض ويجتهدُ في النوافل. تجده يحافظ على قيام الليل في رمضان، ويتنفل بالحج والعمرة؛ لكنه يهمل الصلوات المفروضة بقية العام. ربما يتصدق على الفقير والمسكين، ويبذل ماله وجاهه لمساعدة المحتاجين، ويحرص على بناء مسجد قبل أن يموت لكنه لايخرج زكاة ماله، أو لا يجتنب الطرق المحرمة في كسبه من رباً وغيره. فهذا وأمثاله حافظوا على أنواع من النوافل لكنهم أهملوا الفرائض فخرجوا عن ولاية الله تعالى.

---

(١٨) فتح الباري لابن حجر (١١/ ٣٥٤).

كما يبين الحديث ضلال المبتدعة، الذين شرعوا لهم عبادات لم تفرض، وأهملوا العبادات المفروضة؛ فما تعبد متعبدٌ لله تعالى بأفضل ولا أحبَّ إليه مما افترضه على عباده.

وهذه الفرائض إما أن تكون ظاهرة يفعلها العبدُ كالصلاة والزكاة وغيرهما، أو يتركها كترك الزنا والخمر وسائر المعاصي، وإما أن تكون باطنة كالعلم بالله تعالى، والحبِ له، والتوكل عليه، والخوف منه، وغير ذلك. (١٩)

ومن هدايات هذا الحديث: الإلماح إلى ما يحتاجه العبد من تسديد الله وتوفيقه. كم نحتاج إلى أن نسدد في أقوالنا وأفعالنا؛ فالمعاصي تكثر فينا، والفتن تحيط بنا من كل جانب، واحتمالُ الوقوع في الإثم أقرب إلينا من شراك نعلنا؛ فكيف يكون إبصارُ الحق، والثباتُ عليه، ومجانبةُ الإثم والحرام إلا بتسديد الله لأسماعنا وأبصارنا وسائر جوارحنا. ياترى كيف سيكون حال العبد إذا فقد توفيق الله وتسديده؟! وكم سيكون تخبطه في الإثم والفتن إذا تخلى الله عنه؟! بل إن التسديد والتوفيق نحتاجه حتى في أمور دنيانا من بيع وشراءٍ، وذهاب ومجيء، ووظائف وأعمال.

ونحتاج إلى التسديد في بيوتنا وفي تعاملنا مع أهلنا وأولادنا وقراباتنا، فكم من عبد لم يُسدد يخطئ الاختيار في عمله ووظيفته، ويسيء التصرف في بيته ومع أهله؛ فاستحالت حياته شقاءً. ولو كان

---

(١٩) انظر: فتح الباري (١١/ ٣٥٤).

مسدداً لكان أسعد الناس، «**فإذا أحببته كنت سمعه الذي يسمع به، وبصره الذي يبصر به، ويده التي يبطش بها، ورجله التي يمشي بها**».

وهذا هو التوفيق والتسديد فالزموا محبة الله، ومحبة ما يحبه الله تعالى، وتقربوا إليه بالفرائض ثم بالنوافل، وجانبوا سخطه ومعاصيه، ووالوا أولياءه، وعادوا أعداءه؛ حتى تكونوا من أوليائه، ثم صلوا وسلموا على نبي الرحمة والهدى كما أمركم بذلك ربكم...

* * *

٣٦- من هدايات السنة النبوية (٢)
حديث القوة

الجمعة ٢/ ٣/ ١٤١٩هـ

الحمد لله، نحمده ونستعينه ونستغفره، ونعوذ بالله من شرور أنفسنا ومن سيئات أعمالنا، من يهده الله فلا مضل له ومن يضلل فلا هادي له، وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له، وأشهد أن محمداً عبده ورسوله ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ حَقَّ تُقَاتِهِ وَلَا تَمُوتُنَّ إِلَّا وَأَنتُم مُّسْلِمُونَ ﴿١٠٢﴾﴾ [آل عمران] ﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ اتَّقُوا رَبَّكُمُ الَّذِي خَلَقَكُم مِّن نَّفْسٍ وَاحِدَةٍ وَخَلَقَ مِنْهَا زَوْجَهَا وَبَثَّ مِنْهُمَا رِجَالًا كَثِيرًا وَنِسَاءً وَاتَّقُوا اللَّهَ الَّذِي تَسَاءَلُونَ بِهِ وَالْأَرْحَامَ إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلَيْكُمْ رَقِيبًا ﴿١﴾﴾ [النساء] ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَقُولُوا قَوْلًا سَدِيدًا ﴿٧٠﴾ يُصْلِحْ لَكُمْ أَعْمَالَكُمْ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ وَمَن يُطِعِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ فَقَدْ فَازَ فَوْزًا عَظِيمًا ﴿٧١﴾﴾ [الأحزاب].

أما بعد: فإن أصدق الحديث كلام الله تعالى، وخير الهدي هدي محمد صلى الله عليه وسلم، وشر الأمور محدثاتها، وكل محدثة بدعة، وكل بدعة ضلالة، وكل ضلالة في النار.

أيها المؤمنون: الكتاب والسنة هاديان يهديان العباد للطريق الأقوم، ولن يضل عبد تمسك بهما أبداً، وحينما يضل أهل العقلانيات بعقولهم، وينحرف أهل السلوك بوجدانهم وأوهامهم؛ فإن أتباع الكتاب والسنة على طريق الحق يسيرون، وفي مرضاة الله يجتهدون، وبما عندهم من

النصوص مطمئنون؛ إلى أن يلقوا الله عز وجل وقد حازوا أمن الدنيا والآخرة.

أيها الإخوة: وهذا حديث نبوي جامع نافع، نعيش معه بعض الوقت، ننهل جملاً من فوائده، ونستنير بنوره، ونسترشد بمعانيه؛ في وقت ادلهمت فيه الظلم، وتاه عن الحق كثير من طلابه، وأضل الطريق كثير من رواده.

إنه حديث القوة في الدين، والحرص على النفع، والتغلب على الشيطان، والرضى بالقدر، أخرجه مسلم من حديث أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: «**المؤمن القوي خير وأحب إلى الله من المؤمن الضعيف، وفي كل خير، احرص على ما ينفعك واستعن بالله ولا تعجز، وإن أصابك شيء فلا تقل: لو أني فعلت كان كذا وكذا، ولكن قل: قدر الله وما شاء فعل فإن لو تفتح عمل الشيطان**»[1].

فالحديث يفضِّل المؤمن القوي على المؤمن الضعيف، وإن كان في الضعيف خير وهو وصف الإيمان؛ لكن الإيمان يحتاج إلى إذاعة بين الناس، ودعوة إليه، ومحاجة له، وجهاد لأعدائه، ولايقدر على ذلك إلا المؤمن القوي.

وكلما كان المؤمن أقوى كان أقدر وأنفع للإسلام. قوة في الإيمان،

---

(١) أخرجه مسلم في القدر باب في الأمر بالقوة وترك العجز والاستعانة بالله وتفويض المقادير لله (٢٦٦٤).

وقوة في العبادة، وقوة في الحق وفي الحجة، وفي كل ما تخدم فيه القوة دين الله تعالى.[٢]

والقوة ممدوحة في كتاب الله تعالى ﴿ وَاذْكُرْ عِبَادَنَا إِبْرَاهِيمَ وَإِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ أُولِي الْأَيْدِي وَالْأَبْصَارِ ﴿٤٥﴾ ﴾ [ص] فالأيدي: القوة والعزائم في تنفيذ أمر الله تعالى[٣] وقد أمر الله المؤمنين باتخاذها في قوله تعالى: ﴿ وَأَعِدُّوا لَهُم مَّا اسْتَطَعْتُم مِّن قُوَّةٍ ﴾ [الأنفال: ٦٠] ﴿ إِنَّ خَيْرَ مَنِ اسْتَأْجَرْتَ الْقَوِيُّ الْأَمِينُ ﴿٢٦﴾ ﴾ [القصص].

فالله سبحانه وتعالى يحب مقتضى أسمائه وصفاته، وما يوافقها؛ فهو القوي ويحب المؤمن القوي[٤]؛ لأن قوته تنفع الإسلام والمسلمين.

والقوة التي يشيد بها النبي صلى الله عليه وسلم، ويخبر أنها مناط التفضيل هي: القوة المنبعثة من الإيمان، والمؤسسة على القاعدة التي تعصمها من الشطط والتهور؛ فتشيع الأمن في النفوس، والاطمئنان

---

(٢) الذي يظهر من عموم الشريعة أنه لا عبرة بقوة البدن، وليست وحدها مما يقرب إلى الله مالم تسخر تلك القوة في خدمة دين الله تعالى؛ إذ القوة البدنية هبة من الله تعالى لا يتعلق بها مدح ولا ذم مالم تستثمر فإن سخرت للخير فهي محمودة، وإن سخرت للشر فهي مذمومة، وهكذا يقال أيضاً في قوتي المال والجاه وغيرها من أنواع القوة، وانظر: شرح النووي على مسلم (١٦/ ٣٢٩) وإكمال إكمال المعلم للأبي (٩/ ٤٢) و المفيد على كتاب التوحيد (٣/ ١٢٧).

(٣) انظر: تفسير ابن كثير (٤/ ٦١) الآية (٤٥) من سورة ص.

(٤) تيسير العزيز الحميد (٦٧٦).

في المجتمعات. وليست القوة التي تنطلق من عقالها لتهلك الحرث والنسل، وتبث الرعب، وتركب مراكب التدمير؛ لتُعبِّدَ الناس لذات مصالحها. وحينما يستشعر المؤمن هذا المعنى تكبر نفسه فلا يكتفي بكلمة الإيمان يقولها بينه وبين نفسه؛ بل يعمل بمقتضاها ولوازمها ويحملها للعالمين غير هياب ولا وجل. ومن وجد في نفسه ضعفاً موروثاً أو مكتسباً فعليه أن يحاول جاهداً التخلص منه بالتدرب على التحمل والمعاناة (٥).

ثم يرسم النبي صلى الله عليه وسلم الخطة العملية من أجل تحقيق معنى القوة بقوله: «**احرص على ما ينفعك**» قال ابن القيم رحمه الله: «سعادة الإنسان في حرصه على ما ينفعه في معاشه ومعاده». (٦) وما ينفع تحدده الغاية الأولى وهي الإيمان، فكل ما يعود بالنفع على الإيمان فالحرص عليه مطلوب، والبحث عن نيله مرغوب (٧).

ومن أجل أن لا يتكل المؤمن على نفسه، ولا يغتر بقوته ذكره النبي صلى الله عليه وسلم بخالقه ورازقه في قوله «**واستعن بالله**» والمؤمن يقرأ في كل ركعة من صلاته ﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ ۝٥﴾

---

(٥) بتصرف من مقال لمنصور الأحمد بعنوان من مشكاة النبوة مجلة البيان العدد (٧) ص (١٥).

(٦) شفاء العليل (١٩) وانظر: تيسير العزيز الحميد (٦٧٦).

(٧) بتصرف من مشكاة النبوة.

ومن دعاء عمر في قنوته «اللهم إنا نستعينك ونستهديك»[٨] وأوصى النبي صلى الله عليه وسلم معاذاً أن لا يدع في دبر كل صلاة هذا الدعاء «**اللهم أعني على ذكرك وشكرك وحسن عبادتك**»[٩] وكان من دعائه صلى الله عليه وسلم «**اللهم أعني ولا تعن علي**»[١٠].

وكل عمل لا يستعان بالله عليه لا يبارك فيه؛ لأنه يكون مصروفاً إلى غير مرضاة الله من الغايات النفسية كالأثرة وحب الجاه، وإشباع الرغبات، فلابد للمؤمن من الاستعانة بالله في الأمور كلها، والتبرؤ من الحول والطول والقوة إلا بالله سبحانه[١١].

وحتى لا يظن ظان أن التواكل يكفي عن التوكل، وأن الاستعانة بالله تقتضي عدم العمل والأخذ بالأسباب قال الحديث: «**ولا تعجز**» فلا تكفي الاستعانة باللسان دون الأخذ بالأسباب؛ بل إن الاستعانة

(٨) أخرجه البيهقي في الكبرى مرفوعاً مرسلاً وموقوفاً على عمر وقال: وقد روي عن عمر رضي الله عنه صحيحاً موصولاً (٢/ ٢١٠) وصححه الحافظ في التلخيص الحبير (٢/ ٢٦).

(٩) أخرجه أبو داود في الصلاة باب الاستغفار (١٥٢٢) والنسائي في السهو باب نوع آخر من الدعاء (٣/ ٥٣) وصححه ابن حبان (٢٣٥٤) والنووي في رياض الصالحين (٣٨٤).

(١٠) أخرجه أبو داود في الصلاة باب ما يقول الرجل إذا سلم (١٥١٠) والترمذي في الدعوات باب في دعاء النبي صلى الله عليه وسلم وقال: هذا حديث حسن صحيح (٣٥٥١) وابن ماجه في الدعاء باب دعاء رسول الله صلى الله عليه وسلم (٣٨٣٠) والبخاري في الأدب المفرد (٦٦٥).

(١١) بتصرف من مشكاة النبوة.

بالله تعالى تقتضي العمل، كما يقتضي التوكل الأخذ بالأسباب، قال ابن القيم: «العجز ينافي حرصه على ما ينفعه وينافي استعانته بالله فالحريص على ما ينفعه المستعين بالله ضد العاجز»(١٢).

ومع ذلك فكم من الناس من يحرص على ما ينفعه دون الاستعانة بالله تعالى فينحرف بعمله عن غايته المطلوبة إلى غاية قصيرة المدى كحب الذات؛ فيقع في دائرة الطمع والطغيان.

وكم من المسلمين من استحال به الأمر إلى العجز عن مقابلة متطلبات الدعوة إلى الله تعالى بغير الدعاء دون العمل، بل دون التفكير بالعمل، ولا يقابل الكوارث النازلة بالمسلمين بغير الحوقلة والاسترجاع ولا شيء غير ذلك. فينبغي أن تفهم هذه الجمل الثلاث في الحديث على أنها معنى واحد متصل لا أنها ثلاث جمل منفصلة؛ فطلب ما ينفع، والحرص عليه يجب أن يكون محاطاً بالاستعانة بالله مع العمل الجاد الدؤوب بعيداً عن العجز والخور والضعف.

وإذا حرص العبد على ما ينفعه واستعان بالله ولم يعجز، ثم أصابه بلاء، أو لم تتحقق النتائج التي كان يرجوها فإنه مأمور بالصبر والاحتساب وعدم اللوم على ما مضى **«وإن أصابك شيء فلا تقل: لو أني فعلت كان كذا وكذا ولكن قل: قدر الله وما شاء فعل فإن لو تفتح عمل الشيطان»**.

والعبد إذا صحت غايته، وخلصت نيته، وأتى بالأسباب؛ فليس

---

(١٢) انظر: شفاء العليل (١٩) وتيسير العزيز الحميد (٦٦٧).

ضرورياً أن تترتب النتائج بناءً على ما قدم من مقدمات؛ لأن تقدير الله غالب ومشيئته ماضية، وحكمه نافذ، والأسف واللوم لا يفيد شيئاً. مع ما فيه من اعتراض على قدر الله تعالى؛ إذ ينظر العبد إلى الفعل كأنه جهد شخصي معزول لا علاقة لمشيئة الله تعالى به، وهذا فيه تألٍ على الله سبحانه وتعالى، فأمر العبد أن ينأى بنفسه عن ذلك، ويسلم الأمر لله بتمام القبول والرضى [١٣]. ذلك أن العبد إذا أصابه السوء أو فاته مالم يقدر له فله حالتان:

حالة عجز وهي مفتاح عمل الشيطان؛ فيلقيه العجز إلى (لو) التي هي مفتاح اللوم والجزع والسخط والأسف والحزن. وذلك كله من عمل الشيطان فنهاه صلى الله عليه وسلم عن افتتاح عمله بهذا المفتاح، وأمره بالحالة الثانية وهي: النظر إلى القَدَر وملاحظته، وأنه لو قدر له لم يفته، ولم يغلبه عليه أحد فلم يبق ههنا أنفع من شهود القدر، ومشيئة الرب النافذة التي توجب وجوب المقدور، وإذا انتفت امتنع وجوده؛ فأرشده الحديث إلى ما ينفعه في الحالتين، حالة حصول مطلوبه، وحالة فواته؛ فلهذا كان هذا الحديث مما لا يستغني عنه العبد أبداً، بل هو أشد شيء إليه ضرورة، وهو يتضمن إثبات القدر والكسب والاختيار، والقيام بالعبودية ظاهراً وباطناً في حالتي حصول المطلوب وعدمه. انتهى. ملخصاً من كلام ابن القيم [١٤].

---

(١٣) بتصرف من مشكاة النبوة.

(١٤) انظر: شفاء العليل (١٩) وتيسير العزيز الحميد (٦٧٨).

أعوذ بالله من الشيطان الرجيم ﴿ مَا أَصَابَ مِن مُّصِيبَةٍ فِي الْأَرْضِ وَلَا فِي أَنفُسِكُمْ إِلَّا فِي كِتَابٍ مِّن قَبْلِ أَن نَّبْرَأَهَا إِنَّ ذَلِكَ عَلَى اللَّهِ يَسِيرٌ (٢٢) لِّكَيْلَا تَأْسَوْا عَلَىٰ مَا فَاتَكُمْ وَلَا تَفْرَحُوا بِمَا آتَاكُمْ وَاللَّهُ لَا يُحِبُّ كُلَّ مُخْتَالٍ فَخُورٍ (٢٣) ﴾ [الحديد] بارك الله لي ولكم في القرآن العظيم.

الخطبة الثانية

الحمد لله حمداً كثيراً طيباً مباركاً فيه كما يحب ربنا ويرضى، أحمده وأشكره وأتوب إليه وأستغفره، وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له، وأشهد أن محمداً عبده ورسوله، صلى الله وسلم وبارك عليه وعلى آله وأصحابه ومن اهتدى بهداهم إلى يوم الدين.

أما بعد: فاتقوا الله - أيها المؤمنون - لعلكم تفلحون ﴿ وَإِن تَصْبِرُوا وَتَتَّقُوا فَإِنَّ ذَلِكَ مِنْ عَزْمِ الْأُمُورِ (١٨٦) ﴾ [آل عمران].

أيها الإخوة: إن الناظر في أحوال الناس يجد بعداً بينهم وبين مشكاة النبوة في الفهم والعمل، وهذا الحديث العظيم يبرز بوضوح مدى البعد بينهم وبين السنة وتطبيقها؛ إذ دب الضعف في كثير من المسلمين، وهو ضعف متنوع ومتغلغل: ضعف في الإيمان واليقين، وضعف في العبادة والعمل، وضعف في الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، وضعف في فهم العقيدة الصحيحة والتزامها، وضعف أمام الدنيا وزخرفها، وأمام الشبهات؛ حتى داخلت القلوب، وأمام الشهوات؛ حتى تمت مواقعتها. كل هذا من الضعف، وغيره كثير، ظاهر في جماعات المسلمين

وأفرادهم و«**المؤمن القوي خير وأحب إلى الله من المؤمن الضعيف**».

ومن مظاهر الضعف: حصر النفع في أمور الدنيا مع الغفلة أو التغافل عن الدار الآخرة؛ فتجد العبد يحزن لفوات أمر من أمور الدنيا، ولا يحزن على كثير من أعمال الآخرة التي أضاعها أو فرط فيها.

ومن أمارات ضعف الإيمان في الناس: قلة الاستعانة بالله تعالى في الأمور كلها، وصار اعتماد كثير من الناس على الحول والطول، والقوة والبأس. والنجاح في أمر من الأمور لا ينسب إلى فضل الله تعالى وتوفيقه وإنما يعزى إلى المجهود البشري الضعيف، وما أكثر ما تُرَدد عبارة: الثقة بالنفس، والثقة بقدرات فلان، والاعتماد على ذلك اعتماداً كلياً، دون الثقة بالله سبحانه وتعالى، والنبي صلى الله عليه وسلم لما بعث قوماً من أصحابه على أقدامهم ليغنموا فرجعوا ولم يغنموا وعرف الجهد في وجوههم قام فيهم فقال: «**اللهم لا تكلهم إلي فأضعف عنهم، ولا تكلهم إلى أنفسهم فيعجزوا عنها، ولا تكلهم إلى الناس فيستأثروا عليهم**»(١٥) وأوصى ابنته فاطمة أن تقول في الصباح والمساء «**يا حي يا قيوم برحمتك أستغيث أصلح لي شأني كله ولا تكلني إلى نفسي طرفة عين**»(١٦) وهم يقولون: الثقة في النفس، والثقة في فلان وفلان.

---

(١٥) أخرجه أحمد (٥/ ٢٨٨) وأبو داود في الجهاد باب في الرجل يغزو يلتمس الأجر والغنيمة (٢٥٣٥) والبخاري في التاريخ الكبير (٨/ ٤٣٦) والحاكم وصححه ووافقه الذهبي (٤/ ٤٢٥).

(١٦) أخرجه الحاكم وصححه على شرط الشيخين ووافقه الذهبي من حديث أنس ابن مالك رضي الله عنه (١/ ٥٤٥). وأما حديث ابن عمر رضي الله عنهما =

وحدث ولا حرج عن العجز الذي أصاب المسلمين، يريدون التطور والتقدم وبناء الحضارة وهم لا يعملون، أو يعملون قليلاً، ويريدون عز الأمة ومجدها ونصرتها بأقوال خالية من الأفعال وذلك مالا يكون.

وكثيراً ما يستخدم الناس (لو) في التحسر على فوات شيء يطلبونه، أو وقوع أمر لا يريدونه مع جمع التفكير كله في الماضي وترك الحاضر والمستقبل، وكم من الأبواب التي يلج من خلالها الشيطان إلى القلب بسبب مفتاح (لو) ليعمل أعمالاً ليست في صالح العبد من الاعتراض على القدر، والاتصاف بالجزع والتسخط، إلى استحكام اليأس، وقتل الأمل، وترك العمل، وانطفاء شعلة النشاط، مع ضعف الإيمان وقلة العبادة.

= قال: كان من دعاء النبي صلى الله عليه وسلم: «**اللهم لا تكلني إلى نفسي طرفة عين ولا تنزع مني صالح ما أعطيتني**» فأخرجه البزار كما في كشف الأستار (٣١٨٨) وكشف الخفا ومزيل الإلباس (٥٦٤) وفي سنده إبراهيم بن يزيد الخوزي، وهو متروك كما قال الحافظ ابن حجر في مختصر زوائد مسند البزار (٢١٧٩) والهيثمي في مجمع الزوائد (١٠/ ١٨١) ويكفي عنه الحديثان الصحيحان.

ولمزيد شرح هذا الحديث العظيم، واستخراج فوائد أخرى انظر: شرح النووي على مسلم (١٦/ ٣٢٩) والمفهم لما أشكل من تلخيص مسلم (٦/ ٦٨٢) وشرح الأبي على مسلم (٩/ ٤١) وتيسير العزيز الحميد في شرح كتاب التوحيد (٦٧٥) وفتح المجيد شرح كتاب التوحيد (٦٧١) وحاشية كتاب التوحيد لابن قاسم (٣٥٣) والقول المفيد على كتاب التوحيد لابن عثيمين (٣/ ١٢٦) ومجلة البيان عدد (٧) ص: (١٥).

أيها الإخوة: انظروا إلى بعد الهوة بين هذا الحديث النبوي العظيم وبين واقع المسلمين، وما ضعف المسلمون ولا ذلوا إلا بسبب ابتعادهم عن الكتاب والسنة، وعلى قدر ابتعادهم تكون ذلتهم ازدياداً أو نقصاً؛ ولن تخرج الأمة من ضعفها وذلتها حتى تعود إلى الكتاب والسنة بفهم سلف الأمة، ولن يصلح آخر هذه الأمة إلا بما صلح به أولها. وصلوا وسلموا على خير خلق الله كما أمركم بذلك ربكم.

* * *

٣٧- من هدايات السنة النبوية (٣) حديث العلم والهدى

الجمعة ٢٦/ ٦/ ١٤١٩هـ

الحمد لله، نحمده ونستعينه ونستغفره، ونعوذ بالله من شرور أنفسنا ومن سيئات أعمالنا، من يهده الله فلا مضل له، ومن يضلل فلا هادي له، وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له، وأشهد أن محمداً عبده ورسوله، ﴿يَا أَيُّهَا الذينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ حَقَّ تُقَاته ولَا تَمُوتُنَّ إِلاَّ وَأَنتُم مُّسْلِمُونَ (١٠٢)﴾ [آل عمران] ﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ اتَّقُوا رَبَّكُمُ الذي خَلَقَكُم مِّن نَّفْس وَاحدَة وَخَلَقَ منْهَا زَوْجَهَا وَبَثَّ منْهُمَا رجَالاً كَثيرًا وَنسَاءً وَاتَّقُوا اللَّهَ الَّذي تَسَاءَلُونَ به وَالأَرْحَامَ إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلَيْكُمْ رَقيبًا (١)﴾ [النساء] ﴿يَا أَيُّهَا الذينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَقُولُوا قَوْلاً سَديدًا (٧٠) يُصْلحْ لَكُمْ أَعْمَالَكُمْ وَيَغْفرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ وَمَن يُطعِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ فَقَدْ فَازَ فَوْزًا عَظيمًا (٧١)﴾ [الأحزاب].

أما بعد: فإن أصدق الحديث كلام الله تعالى، وخير الهدي هدي محمد صلى الله عليه وسلم، وشر الأمور محدثاتها، وكل محدثة بدعة، وكل بدعة ضلالة، وكل ضلالة في النار.

أيها المؤمنون: طريقُ الكتاب والسنة لا يضلُ سالكها، ولا يهلك ضاربُها. طريقُ الأمنِ والسعادة في الدنيا، والفوز والفلاح في الآخرة. ضلت بأهل الأهواء أهواؤهم، وحادت بالعقلانيين عن الحق عقولهم، وهام بأهل الوجدان في أودية الضلال وجدانهم، ولم يسلم من غوائل الأهواء، وأشواك الضلال، إلا أهلُ الحق والإيمان، الذين اعتصموا

بالكتاب والسنة، وأحسنوا التلقي عن سلف الأمة. فحينما كان لأهل الأهواء في كل ضلال مسلك، ومن كل مذهب منزع، وفي كل هوى مشرب؛ بقي أهل السنة على الأمر الأول، والطريق الأوحد، الموصل إلى رضوان الله تعالى والجنة.

أيها الإخوة: وهذا حديث من السنة يُظهر فيه المصطفى صلى الله عليه وسلم شيئاً من قيمة النور الذي أنزل عليه، ويذكر أقسام الناس تجاه ذلك النور، من منتفع به وغير منتفع، ومقبل عليه ومعرض عنه، وداعٍ إليه وصادٍ عنه. إنه حديث العلم والغيث، والهدى والنور، الذي يرويه أبوموسى الأشعريُ رضي الله عنه عن النبي صلى الله عليه وسلم قال: «**إن مثل ما بعثني الله عز وجل به من الهدى والعلم كمثلِ غيث أصاب أرضاً؛ فكانت منها طائفة طيبة، قبلت الماء فأنبتت الكلأ والعشب الكثير، وكان منها أجادبُ أمسكت الماء فنفع الله بها الناس فشربوا منها وسقوا ورعوا، وأصاب طائفةً منها أخرى، إنما هي قيعان لا تمسك ماءً ولا تنبت كلأً، فذلك مَثَل من فَقُه في دين الله، ونفعه بما بعثني الله، فعَلِم وعلَّم، ومَثَل من لم يرفع بذلك رأساً ولم يقبل هدى الله الذي أرسلت به**» أخرجه الشيخان واللفظ لمسلم[1].

شبه صلى الله عليه وسلم ما بعث به من الهدى والعلم بالغيث

(١) أخرجه أحمد (٤/ ٣٩٩) والبخاري في العلم باب فضل من عَلِم وعلَّم (٧٩) ومسلم في الفضائل باب بيان مثل ما بعث النبي صلى الله عليه وسلم من الهدى (٢٢٨٢) والبغوي في شرح السنة (١٣٥).

الذي يغيث العباد، ويحيي البلاد. ولقد كان الناس قبل بعثته صلى الله عليه وسلم أمواتاً وإن كانوا يتحركون، وأشقياء وإن كانوا يتنعمون. لهم أعين ولكنهم لا يبصرون، ولهم آذان ولكنهم لا يسمعون، ولهم عقول ولكنهم لا يعقلون ﴿أَمْ تَحْسَبُ أَنَّ أَكْثَرَهُمْ يَسْمَعُونَ أَوْ يَعْقِلُونَ إِنْ هُمْ إِلَّا كَالْأَنْعَامِ بَلْ هُمْ أَضَلُّ سَبِيلًا ﴿٤٤﴾﴾ [الفرقان] ﴿وَلَقَدْ ذَرَأْنَا لِجَهَنَّمَ كَثِيرًا مِّنَ الْجِنِّ وَالْإِنسِ لَهُمْ قُلُوبٌ لَّا يَفْقَهُونَ بِهَا وَلَهُمْ أَعْيُنٌ لَّا يُبْصِرُونَ بِهَا وَلَهُمْ آذَانٌ لَّا يَسْمَعُونَ بِهَا أُولَٰئِكَ كَالْأَنْعَامِ بَلْ هُمْ أَضَلُّ أُولَٰئِكَ هُمُ الْغَافِلُونَ ﴿١٧٩﴾﴾ [الأعراف].

فكان لابد لهذه الآذان الصم، والأعين العمي، والقلوب الغلف من علم يفتحها وينورها. وكان من المتحتم لإحياء النفوس الميتة من غيث يبعثها وينهض بها؛ إذ إن حال الناس بلا هدى كحال الأرض بلا غيث؛ فكان ذلك مابعث الله به محمداً صلى الله عليه وسلم.

ولم يعبر عنه في الحديث بالمطر؛ لأن المطر قد ينزل ولا حاجة ملحَّة، أما الغيث فمطر محتاج إليه يغيث الناس عند قلة المياه، وقد كان الناس متحيرين قبل بعثته صلى الله عليه وسلم حتى أغاثهم الله بالوحي(٢)؛ فاختلفت مواقف الناس منه، كما تختلف طوائف الأرض في استقبال غيث السماء، «**فكانت منها طائفة طيبة** - وفي رواية

---

(٢) انظر: فتح الباري لابن حجر (١/ ٢١١) وإرشاد الساري للقسطلاني (١/ ٢٦٥) وعمدة القاري للعيني (٢/ ٨٠) ودليل الفالحين شرح رياض الصالحين لابن علان (٢/ ٢١٢).

البخاري (نقية) - **قبلت الماء فأنبتت الكلأ والعشب الكثير**»، وهكذا تنتفع الأرض الطيبة، يصيبها الغيث فتستقبله ثم تنتجُ العشب والكلأ لينتفع به أهل الأرض.

وأهلُ العلم والإيمان يتعلمون علوم الشريعة فيحفظونها ويفقهونها، ويعملون بها ويبلغونها. أرض طيبة، وعلماء عاملون. لهم دروس ومحاضرات، وفتاوى ومصنفات. علموا فعملوا، وتعلموا فعلّموا. يأمرون بالمعروف، وينهون عن المنكر، ويقولون الحق لايخافون في الله لومة لائم. يهدون الضال، ويفتون السائل، ويرشدون المسترشد مع عبادة في الخلوات، وتدبر للآيات، وتفكر في عجائب المخلوقات. أولئك نتاجهم ونفعهم كنتاج الأرض الطيبة، أخضر طيب، ينتفع به سائر الأحياء، ويغذي جميع الأبدان؛ بل نتاجهم أكثر طيباً، وأعظم نفعاً؛ إذ هو غذاء القلوب، وما حياة الأبدان إذا ماتت القلوب!! «**فذلك مثل من فقه في دين الله، ونفعه بما بعثني الله به فعلم وعلم**».

وأما الطائفة الثانية من الأرض فاختزنت الغيث لينتفع به الغير وإن لم يظهر أثره عليها «**وكان منها أجادب أمسكت الماء فنفع الله بها الناس فشربوا منها وسقوا ورعوا**» شُبِّهت بها طائفة من العلماء تعلمت لكنها ماعملت، وحفظت لكنها مافقهت، فمهمتها تنحصر في حفظ هذا العلم حتى يأتي من ينتفع به. أراض أجادب تمسك الماء ولا تنتفع به، والأجادب من أهل العلم يحفظونه ولا يظهر أثره عليهم لا في ورع ولا تقوى، ولا عمل ولا دعوة، أو لا يفقهون ما حفظوا؛ ولكنهم

ينقلونه إلى غيرهم فيفقهونه. فمنفعتهم في حفظ العلم كما حفظت الأرض الجدباء الماء.

قال النووي رحمه الله تعالى: «والنوع الثاني من الأرض: ما لا تقبل الانتفاع في نفسها؛ لكن فيها فائدة وهي إمساك الماء لغيرها فينتفع بها الناس والدواب، وكذا النوع الثاني من الناس: لهم قلوب حافظة؛ لكن ليست لهم أفهام ثاقبة، ولا رسوخ لهم في العقل يستنبطون به المعاني والأحكام، وليس عندهم اجتهاد في الطاعة والعمل؛ فهم يحفظونه حتى يأتي طالب محتاج متعطش لما عندهم من العلم، أهلٌ للنفع والانتفاع؛ فيأخذه منهم فينتفع به»(٣). اهـ

«وأصاب طائفة منها أخرى، إنما هي قيعان لا تمسك ماءً ولا تنبت كلأً» إنه مَثَلُ الطائفة التي لا تعلم فتعمل، ولا تحفظ فتؤدي، فلا نفع فيها ولا خير. بلغها النور والهدى فما حفلت به، وربما أعرضت عنه، قال الحافظ ابن حجر رحمه الله تعالى: «ومثالها من الأرض: السباخ، وأشير إليها بقوله صلى الله عليه وسلم: **«من لم يرفع بذلك رأساً»** أي أعرض عنه فلم ينتفع به ولا نفع، والثانية: من لم يدخل في الدين أصلاً؛ بل بلغه فكفر به، ومثالها من الأرض: الصماء الملساء المستوية التي يمر عليها الماء فلا ينتفع به، وأشير إليه بقوله صلى الله عليه وسلم: **«ولم يقبل هدى الله الذي جئت به»**(٤) اهـ.

---

(٣) شرح النووي على صحيح مسلم (١٥/ ٦٩) وانظر: شرح الأبي (٨/ ٢١٥).
(٤) فتح الباري لابن حجر (١/ ٢١٢-٢١٣).

فكان في الحديث: حافظ فقيه عامل داعية؛ فهو خير الناس. وأقل منه حافظ فقيه عامل؛ لكنه غير معلم ولا داعية فاقتصر بالنفع على نفسه دون غيره، وبعده حافظ غير فقيه أو غير منتفع بعلمه، ثم أسوأ الناس غير مبال بالهدى والعلم، وأسوأ منه معرض عن الدين كله(٥).

أسأل الله تعالى أن ينفعنا بما نقول ونسمع، وأن يرزقنا العلم النافع، والعمل الصالح، وأن يتوفانا على الإيمان والسنة، وأقول قولي هذا وأستغفر الله لي ولكم فاستغفروه إنه هو الغفور الرحيم.

الخطبة الثانية

الحمد لله رب العالمين، والعاقبة للمتقين، ولاعداون إلا على الظالمين، وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لاشريك له ولي الصالحين، وأشهد أن محمداً عبده ورسوله النبي الأمين صلى الله وسلم وبارك عليه وعلى آله وأصحابه والتابعين ومن تبعهم بإحسان إلى يوم الدين.

---

(٥) اختلف العلماء في عدد الطوائف التي احتواها الحديث: فالنووي في شرح مسلم جعلها ثلاث طوائف من الأرض وثلاث طوائف من الناس (١٥/ ٦٩) وتبعه في ذلك العيني في عمدة القاري (٢/ ٧٩) والشيخ العثيمين في شرحه على رياض الصالحين (٣/ ٣٥٢) والحافظ في الفتح يرى أن في كل مثل طائفتين فالمثل الأول فيه الحافظ الفقيه المعلم، والحافظ فقط. والمثل الثاني فيه من دخل في الدين ولم يسمع العلم أو سمعه فلم يعمل به ولم يعلمه وهو كالأرض السباخ، والطائفة الثانية من المثل الثاني من لم يدخل في الدين أصلاً انظر: الفتح (١/ ٢١٢-٢١٣) وكلامه رحمه الله أكثر دقة وفقهاً.

أما بعد: فاتقوا الله - عباد الله - لعلكم تفلحون ﴿ **يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَلْتَنظُرْ نَفْسٌ مَّا قَدَّمَتْ لِغَدٍ وَاتَّقُوا اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ خَبِيرٌ بِمَا تَعْمَلُونَ** ﴿١٨﴾ ﴾ [الحشر].

أيها الإخوة المؤمنون: كلما تقادم زمن البعثة النبوية ازداد السوء في الأرض، ولايأتي على الناس زمان إلا والذي بعده شر منه كما هو ثابت في أخبار الصادق المصدوق صلى الله عليه وسلم. وفي أزمنة انتشار الشر والفساد فإن الطائفة الأولى الطيبة من العلماء العاملين يندرُ وجودها في الأمة حتى لا تكادُ توجد؛ إذ يشوبُ العلم مايشوبه من حبِ الدنيا، وضعف الإخلاص، وقلةِ التورع، وخشية الناس.

وتكون الطائفة الثانية أكثر في الناس من الأولى؛ فتبصرُ حفّاظاً لايفقهون، وفقهاء لا يعملون؛ فيأخذ العلم عنهم من ينتفع في نفسه، وينفع به الناس. فهم كأجادب الأرض، أمسكت الماء حتى انتفعت به الأحياء، وهذه الطائفة وإن كانت أكثر من الأولى إلا أنها تبقى قليلة في الناس.

ومع تحول جمهور الأمة إلى الغثائية فإن طائفة القيعان تمثل الغالبية العظمى من الناس، ونماذجها في الناس متعددة؛ فالمنحرفون في عقيدتهم، المترددون في هوة الشرك، أوالمقيدون بأغلال البدعة والضلالة، يظنون أنهم على صواب، ويحسبون أنهم على شيء وهم في ظلمات الباطل والخطأ يهيمون، هؤلاء على قائمة القيعان التي ما انتفعت بهدى الله تعالى ونوره، وتبلغ هذه القيعان نسبة مخيفة؛ إذ إن غالبية أمة الإسلام

في هذا الزمن هي من هذا الصنف في شتى البلاد والبقاع.

والمنحرفون في فكرهم، المنافقون في عقيدتهم، الذين يريدون تغريب الأمة وعلمنتها، واستبدال دينها بفلسفات الشرق والغرب ماهم إلا أنموذج سيئ لهذه القيعان في الأمة؛ جاءهم العلم والهدى فرفضوه وأعرضوا عنه، واتهموه بالرجعية والظلامية. وكيف لايكون من القيعان السيئة من يجعل النور ظلاماً، والهدى ضلالاً؟!

وحسبك من انحرافهم أنه كلما أخفقت فلسفة أو نظرية عند أصحابها ركبوا أختاً لها أشد شذوذاً وانحرافاً، ويكفيك من خبثهم وضررهم طول نفسهم واستماتتهم في حرب الإسلام وأهله، كفى الله المسلمين شرورهم، ورد كيدهم إلى نحورهم.

وقطاع عريض من الأمة يمثلون درجات متفاوتة من هذه القيعان المتنوعة، منهم من قصروا في الفرائض، وارتكبوا الموبقات، وجهلوا كثيراً من أحكام الدين، وآخرون برعوا في كثير من علوم الدنيا؛ لكنهم جهلوا الضروري من علوم الشريعة ﴿**يَعْلَمُونَ ظَاهِرًا مِّنَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَهُمْ عَنِ الْآخِرَةِ هُمْ غَافِلُونَ** ⑦﴾ [الروم] ومن هؤلاء وأولئك قيعان استنكفت أن تتعلم الضروري من الدين بحجة التخصص، واستعظمت نفوسها أن تنتظم في حلقة لتحفظ آية أو سورة من القرآن، واستكبرت أن تحضر درساً لتتعلم فريضة أو تتقن عبادة، وارتأت أن ذلك يمس كرامتها، ويحط من قدرها؛ مع أن كثيراً من أفراد هذه الطائفة لا يحسن قراءة الفاتحة، أو لا يعرف كيفية الوضوء أو الصلاة على وفق السنة.

وقيعان أخرى لا يستهان بعددها جهلت أخبار الإسلام والمسلمين؛ لكنها أتقنت أخبار السياسة، وأنباء الإذاعة. وطائفة الشباب من هذه القيعان لا تعرف شيئاً عن ملاحم المسلمين وبطولاتهم وأعلامهم وتاريخهم؛ لكنها تعرف الكثير عن تاريخ السفلة والمنحطين من أهل الرياضة والتمثيل، والغناء والرقص.

إنها قيعان استبدلت الذي هو أدنى بالذي هو خير، اهتمت بما لا ينفع في الدنيا والآخرة، وغفلت عن النفع الدائم الذي لا ينقطع.

وبعد أيها الإخوة: فهذه أقسام الناس تجاه الهدى والنور الذي أنزل على محمد صلى الله عليه وسلم. فلينظر كل عاقل موقعه من هذه الطوائف، وليحذر أن يكون من القيعان التي لا تمسك ماءً ولا تنبت كلأ. ولم لا يحرص ويجاهد نفسه على أن يكون من الطائفة الطيبة التي أمسكت الماء، وأنبتت الكلأ، ونفعت الناس؟

ثم ليحاسب كل عبد نفسه قبل أن يحاسب، ويزن أعماله قبل أن توزن؛ فإن الموعد قريب، والحساب عسير، ألا وصلوا وسلموا على محمد بن عبدالله كما أمركم بذلك رب العزة والجلال. . .

* * *

٣٨- من هدايات السنة النبوية (٤) حديث الفتن

الجمعة ١/ ٥/ ١٤٢٠هـ

الحمد لله، نحمده ونستعينه ونستغفره، ونعوذ بالله من شرور أنفسنا ومن سيئات أعمالنا، من يهده الله فلا مضل له، ومن يضلل فلا هادي له، وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له، وأشهد أن محمداً عبده ورسوله صلى الله وسلم وبارك عليه وعلى آله وأصحابه ومن اهتدى بهداهم إلى يوم الدين..

أما بعد: فأوصيكم ـ أيها الناس ـ ونفسي بتقوى الله تعالى؛ فإن التقوى منجاة من الفتن وغلوائها، وعاصم من الشيطان وحبائله. من اتقى الله تعالى في سره وعلانيته، وفي سرائه وضرائه نجا في الدنيا من أكدارها، وفاز في الآخرة بسرائها ﴿**يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اسْتَجِيبُوا لِلَّهِ وَلِلرَّسُولِ إِذَا دَعَاكُمْ لِمَا يُحْيِيكُمْ وَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ يَحُولُ بَيْنَ الْمَرْءِ وَقَلْبِهِ وَأَنَّهُ إِلَيْهِ تُحْشَرُونَ (٢٤) وَاتَّقُوا فِتْنَةً لَا تُصِيبَنَّ الَّذِينَ ظَلَمُوا مِنكُمْ خَاصَّةً وَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ شَدِيدُ الْعِقَابِ**﴾ [الأنفال: ٢٤, ٢٥].

أيها المؤمنون: النور والهدى يكمن في الاستجابة لأمر الله تعالى، وأمر رسوله صلى الله عليه وسلم، وذلك لا يكون إلا بالاعتصام بالكتاب والسنة قولاً وعملاً، هما السبيلان إلى الجنة، والحجابان عن النار.

وطاعة الله تعالى لا تكون إلا بطاعة الرسولِ صلى الله عليه وسلم ﴿ **مَن يُطِعِ الرَّسُولَ فَقَدْ أَطَاعَ اللَّهَ وَمَن تَوَلَّىٰ فَمَا أَرْسَلْنَاكَ عَلَيْهِمْ حَفِيظًا** ﴾ [النساء: ٨٠].

والنبي صلى الله عليه وسلم أبان الدين، وأوضح المحجة، وذكر الفتن وما يكون سبباً للوقوع فيها، وما يعصم منها ﴿ **لِّيَهْلِكَ مَنْ هَلَكَ عَنْ بَيِّنَةٍ وَيَحْيَىٰ مَنْ حَيَّ عَنْ بَيِّنَةٍ** ﴾ [الأنفال: ٤٢].

فقد روى حذيفة بن اليمان رضي الله عنهما قال: «كنا عند عمر، فقال: أيكم سمع رسول الله صلى الله عليه وسلم يذكر الفتن؟ فقال قومٌ: نحن سمعناه، فقال: لعلكم تعنون فتنة الرجل في أهله وجاره؟ قالوا: أجل، قال: تلك تكفرها الصلاة والصيام والصدقة؛ ولكن أيكم سمع النبي صلى الله عليه وسلم يذكر الفتن التي تموجُ موج البحر؟ قال حذيفة: فأسكت القومُ، فقلت: أنا، قال: أنت، لله أبوك! قال حذيفة: سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول: «**تعرض الفتن على القلوب كالحصير عـوداً عوداً، فأيُّ قلبٍ أشربها نكت فيه نكتةٌ سوداء، وأيُّ قلب أنكرها نكت فيه نكتة بيضاء حتى تصير على قلبين، على أبيض مثل الصفا، فلا تضره فتنةٌ ما دامت السموات والأرض، والآخر أسود مربَّاداً كالكوز مجخياً، لا يعرف معروفاً، ولا ينكر منكراً، إلا ما أشرب من هواه**» قال حذيفة: «وحدثته أن بينك وبينها باباً مغلقاً يوشك أن يُكسر، قال عمر: أكسراً لا أبا لك، فلو فُتح لعله كان يعاد، قلت: لا، بل يكسر، وحدثته أن ذلك الباب رجـلٌ يُقتل أو يموت،

حديثاً ليس بالأغاليط» أخرجه مسلم[١] .

لقد حرص عمر رضي الله عنه على معرفة أخبار الفتن حتى يتوقاها، وأخبرهم أنه لا يريد معرفة فتنة الرجل الخاصة في أهله؛ وإنما يريد معرفة الفتنة العامة.

وقد أثبت الحديث أن أهل الرجل فتنةٌ له، وفتنته في أهله وماله وولده على ضروب عدة: من فرط محبته لهم، وشحه عليهم، وشغله بهم عن كثير من الخير، وفي هذه المعاني قال الله تعالى: ﴿إِنَّمَا أَمْوَالُكُمْ وَأَوْلَادُكُمْ فِتْنَةٌ﴾ [التغابن: ١٥]، وفي الحديث الصحيح قال النبي عليه الصلاة والسلام: «**الولد مبخلة مجبنة**» أخرجه أحمد[٢]، فهذا وجه من الفتنة بهم.

ووجه آخر: وهو تفريطه بما يلزم من القيام بحقوقهم، وتأديبهم وتعليمهم؛ فإنه راع لهم ومسؤول عن رعيته، وكذلك فتنة الرجل في جاره من هذا.

---

(١) أخرجه أحمد (٥/ ٣٨٦ ـ ٤٠٥)، ومسلم في الإيمان باب بيان أن الإسلام بدأ غريباً وسيعود غريباً وأنه يأرز بين المسجدين (١٤٤)، والبغوي في شرح السنة (٤٢١٨)، وذكر الحميدي أن هذا الحديث روايةً من حديث حذيفة المتفق عليه، ولو ذكر في المتفق عليه لكان أولى، انظر: جامع الأصول (١٠/ ٢٢) وحديث حذيفة بلفظ قريب عند البخاري في المناقب باب علامات النبوة في الإسلام (٣٥٨٦).

(٢) أخرجه أحمد (٤/ ١٧٢)، وابن ماجه في الأدب باب بر الوالد والإحسان إلى البنات (٣٦٦٦) وصححه البوصيري في زوائد ابن ماجه (٣/ ١٦٠).

فهذه كلها فتن تقتضي المحاسبة، ومنها ذنوب يرجى تكفيرها بالحسنات والأعمال الصالحة[٣] كما قال الله تعالى: ﴿**إِنَّ الْحَسَنَاتِ يُذْهِبْنَ السَّيِّئَاتِ**﴾ [هود: ١١٤]، وقال عمر عن هذا النوع من الفتن: «تلك تكفرها الصلاة والصيام والصدقة».

إن عمر رضي الله عنه كان يريد معرفة الفتن الكبرى التي تموج موج البحر؛ فأخبره حذيفة رضي الله عنه. وحذيفة هو أحفظ الصحابة لحديث الفتن، وهو أمين سِرِّ النبي صلى الله عليه وسلم في المنافقين؛ فأخبره حذيفة أن النبي صلى الله عليه وسلم قال: «**تعرض الفتن على القلوب كالحصير عوداً عوداً**» أي: كما ينسج الحصير عوداً عوداً، وشطبة بعد أخرى؛ ذلك أن ناسج الحصير عند العرب كلما صنع عوداً أخذ آخر ونسجه، فشبه عرض الفتن على القلوب واحدة بعد أخرى بعرض قضبان الحصير على صانعها واحداً بعد واحد[٤].

---

(٣) شرح النووي على مسلم (٢/ ٢٢٥)، وشرح الأبي على مسلم (١/ ٤٢١).

(٤) شرح النووي على مسلم (٢/ ٢٢٥)، وقد اختلفوا في ضبط (عوداً عوداً) على ثلاثة أوجه لكل منها معنى يخصه:

أ ـ ضبطه القاضي الشهيد بفتح العين المهملة والذال المعجمة (عَوْذاً عَوْذاً) كقوله: غفراً غفراً وغفرانك فمعناه على هذا: سؤال الاستعاذة منها، أي نسألك أن تعيذنا من ذلك وأن تغفر لنا.

ب ـ وضبطه أبو الحسين ابن سراج بفتح العين والدال المهملة (عَوْداً عَوْداً) ومعناه: أن الفتنة كلما مضت عادت كما يفعل ناسج الحصير كلما فرغ من موضع شطبة أو عود عاد إلى مثله.

ج ـ والأظهر وهو الأشهر وعليه الأكثر ضبطه بضم العين وفتح الدال المهملة (عُوْداً ـ

إذاً فالفتن ترد على القلب شيئاً شيئاً، وبما أن الإنسان قابل للخير والشر؛ إذ فيه عقلٌ وشهوة، فإن شهوته إذا غلبت عقله ولجت الفتنة قلبه، وإذا غلب عقله شهوته رفض الفتنة وأنكرها.

قال: «**فأي قلب أشربها**» أي: أيُّ قلب تمكنت الفتنة منه، وحلت محل الشراب من محبتها وتعلقه بها كما قال الله تعالى عن بني إسرائيل ﴿**وَأُشْرِبُوا فِي قُلُوبِهِمُ الْعِجْلَ بِكُفْرِهِمْ**﴾ [البقرة: ٩٣][٥]، فمن كان كذلك «**نكت في قلبه نكتة سوداء**» قال ابن دريد: «كل نقطة في شيء بخلاف لونه فهو نكت»[٦]، وهذا هو القلب الذي يخشى عليه من الفساد، ويخشى على صاحبه الهلاك.

وأما القلب الآخر فهو المنكر لها، المعرض عنها، الذي يرفضها ويأباها «**وأي قلب أنكرها نكت فيه نكتة بيضاء**» وهذا هو القلب الصالح السليمُ، الذي سلم من أوضار الشرك والبدعة، وأدران الموبقات والكبائر.

وحينئذ «**تصير على قلبين**»: قلب صالح سليم طيب «**أبيض مثل الصفا**» والصفا: هو الحجر الأملس الذي لا يعلق به شيء، وكذلك

= عُوْداً) ومعناه: أن الفتن تتوالى واحدة بعد أخرى كنسج الحصير عوداً بإزاء عود، وشطبة بإزاء شطبة أو كما يناول مهيئ القضبان للناسج عوداً بعد عود، ورجح هذا المعنى القاضي عياض. وانظر: شرح النووي على مسلم (٢/ ٢٢٦) والمفهم لما أشكل من تلخيص مسلم (١/ ٣٥٨ ـ ٣٥٤) وشرح الأبي على مسلم (١/ ٤٢٣).

(٥) المفهم لم أشكل من تلخيص مسلم (١/ ٣٥٩).

(٦) شرح النووي على مسلم (٣/ ٢٢٧)، وشرح الأبي (١/ ٤٢٣).

القلب السليم لا تعلق به فتنة[٧]؛ ولذا قال: «**فلا تضره فتنة ما دامت السموات والأرض**».

وأما الآخر فداخلته الفتنة وأُشربها؛ حتى امتلأ بها، وتراكمت عليه فسودته آثارها، قال: «**والآخر أسود مربّاداً كالكوز مجخياً**» أي: كالكأس المائل أو المنكوس[٨]، يسكب ما في داخله من الإيمان بقدر ميوله إلى الهوى، وانتكاسه عن الحق، كما يسكب الكاس ما فيه من ماء بقدر ميوله وانتكاسه.

قال المنذري رحمه الله تعالى: «ومعنى الحديث: أن القلب إذا افتتن وخرجت منه حرمة المعاصي والمنكرات خرج منه نور الإيمان كما يخرج الماء من الكوز إذا مال وانتكس»[٩].

وصاحب هذا القلب المائل عن الحق المنتكس عن الفطرة تجده: «**لا يعرف معروفاً، ولا ينكر منكراً، إلا ما أشرب من هواه**» الذي يهواه قلبه الفاسد.

ورضي الله عن عمر وأرضاه، لقد كان باباً دون الفتنة مغلقاً، وسداً يمنعها حصيناً، ففي رواية أخرى لما سمع عمر حديث الفتنة رفع يديه وقال: «اللهم لا تدركني» فقال حذيفة: «لا تخف»[١٠]، إن عمر

---

(٧) المفهم لما أشكل من تلخيص مسلم (١/ ٣٥٩).
(٨) المفهم (١/ ٣٦٠)، وشرح النووي (٢/ ٢٢٧).
(٩) الترغيب والترهيب (٣/ ١٨٦) عند شرح حديث رقم (٣٤٢٠).
(١٠) فتح الباري لابن حجر (١٣/ ٥٤).

رضي الله عنه ما أدرك الفتن؛ لأنه كان بابها الذي يُكسر، قال حذيفة: «إن بينك وبينها باباً مغلقاً يوشك أن يكسر، قال عمر: أكسراً لا أبا لك، فلو أنه فتح لعله كان يُعاد، قلت: بل يكسر، وحدثته أن ذلك الباب رجل يُقتل أو يموت، حديثاً ليس بالأغاليط» أي: حدثته حديثاً صدقاً محققاً ليس من صحف الكتابيين، ولا من اجتهاد ذي رأي؛ بل من حديث رسول الله صلى الله عليه وسلم[١١].

والمعنى: أن الحائل بين الفتن والإسلام عمر رضي الله عنه، وهو الباب. فما دام حياً لا تدخل الفتن، فإذا مات دخلت الفتن، وكذا كان[١٢]؛ إذ قتل عمر رضي الله عنه، فانكسر الباب، وانثلم الإسلام ثلمة بقتله صار من جرائها الاختلاف والاقتتال بين أمة محمد صلى الله عليه وسلم. ولذلك عبر بكسر الباب ولم يعبر بالفتح؛ لأن الباب المفتوح يُرجى إغلاقه بخلاف الباب المنكسر[١٣].

وقد كان بعض الصحابة يعلم أن عمرَ هو الباب الذي بينهم وبين الفتنة؛ فقد لقي عمرُ أبا ذر فأخذ بيده فغمزها وكان عمر رجلاً شديداً، فقال له أبو ذر: «أرسل يدي يا قفل الفتنة»، فقال عمر: وما قفل الفتنة؟ قال: جئت رسول الله صلى الله عليه وسلم ذات يوم ورسول الله جالس وقد اجتمع عليه الناس، فجلست في آخرهم، فقال رسول الله صلى

---

(١١) شرح النووي على مسلم (٢/ ٢٢٩).
(١٢) شرح النووي على مسلم (٢/ ٢٢٩).
(١٣) المفهم (١٠/ ٣٦١) وشرح النووي (٢/ ٢٢٩)، وفتح الباري (٦/ ٧٠١).

الله عليه وسلم: «**لا يصيبكم فتنة ما دام هذا فيكم**»(١٤)، ومرة قال عثمان ابن مظعون مخاطباً عمر: «يا غُلْق الفتنة»(١٥)، وصدقوا فيما قالوا إذ قتل عمر؛ فظهرت الفتن وتفشت، فصار بعض الأمة يلعن بعضاً، ويقتل بعضها بعضاً.

أعوذ بالله من الشيطان الرجيم ﴿**قُلْ هُوَ الْقَادِرُ عَلَىٰ أَن يَبْعَثَ عَلَيْكُمْ عَذَابًا مِّن فَوْقِكُمْ أَوْ مِن تَحْتِ أَرْجُلِكُمْ أَوْ يَلْبِسَكُمْ شِيَعًا وَيُذِيقَ بَعْضَكُم بَأْسَ بَعْضٍ انظُرْ كَيْفَ نُصَرِّفُ الْآيَاتِ لَعَلَّهُمْ يَفْقَهُونَ**﴾ [الأنعام: ٦٥].

بارك الله لي ولكم في القرآن العظيم.

الخطبة الثانية

الحمد لله رب العالمين، والعاقبة للمتقين، ولا عدوان إلا على الظالمين، وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له ولي الصالحين، وأشهد أن محمداً عبده ورسوله النبي الأمين، صلى الله وسلم وبارك عليه وعلى آله وأصحابه والتابعين، ومن سار على نهجهم واقتفى آثرهم إلى يوم الدين.

---

(١٤) أخرجه الطبراني في الأوسط من حديث الحسن البصري عن أبي ذر رضي الله عنه. وقال الحافظ في الفتح: رجاله ثقات (٦/ ٧٠١). وقال الهيثمي في الزوائد: «ورجاله رجال الصحيح غير السري بن يحى وهو ثبت ثقة. ولكن الحسن لم يسمع من أبي ذر فيما أظن» (٩/ ٧٢)

(١٥) أخرجه البزار كما في كشف الأستار (٢٥٠٦)، ومختصر زوائد البزار للحافظ ابن حجر (١٨٨٥)، والطبراني في الكبير (٩/ ٢٦) برقم (٨٣٢١)، وانظر: فتح الباري (٦/ ٧٠١).

أما بعد: فاتقوا الله ـ أيها المؤمنون ـ واحذروا الفتن؛ فإنها فساد القلوب، وسبب الهلاك. تعرض على القلب فتنة فتنة، فإذا قبل القلب الأولى تبعتها أختها؛ حتى يصير القلب أسود مظلماً.

ومن أعظم الفتن: الذنوب والمعاصي، وهي ترد على القلوب شيئاً شيئاً، نعم والله ـ أيها الإخوة ـ إن الذنوب تتسلل إلى القلوب فأول ما تداخله يجد العبد ضيقاً حتى يأتي ذنبٌ آخر، فيرق الأول، ويُنسي ويستمر صاحبه عليه، وهكذا الذنب الثاني والثالث، وإنها ذنوب وفتن يُرقِّق بعضها بعضاً، ويدعو الأول منها إلى فعل الآخر؛ حتى يكون القلب فاسداً لا يعرف معروفاً، ولا ينكر منكراً.

إن الميزان الذي يجب أن توزن به القلوب صلاحاً وفساداً هو مدى معرفتها للمعروف، وإنكارها للمنكر. إن من الناس من صار لا يأبه بالمنكرات، يراها فلا يتحرك قلبه لها؛ بل يواقعها، وربما دعا إليها. وقد وصف القلب الفاسد الأسود بأنه لا ينكر منكراً، وكم في الناس من لا يتحرك قلبه من جراء المنكرات. بل ألفوها واعتادوا عليها؛ حتى ماتت قلوب كثير منهم فلم يعودوا ينكرونها إلا من رحم الله تعالى، وقليل ما هم!!.

وكل من أراد أن يعرف نسبة الصلاح في قلبه من نسبة الفساد فيه فلينظر إلى موقفه حينما يرى حرمة لله تعالى انتهكت، أو فريضة عطلت. لينظر إلى مدى اضطراب قلبه إذا رأى منكراً لا يستطيع تغييره. إن العبد إذا كان معفياً من تغيير منكر لا يستطيع تغييره بيده، ولا إنكاره

بلسانه؛ فليس معفياً من إنكاره بقلبه، وحزنه لأجل وجوده.

إن المنكرات تقع، ويراها مسلمون ثم لا ينكرونها؛ بل لا تتحرك قلوبهم، فتراهم لا يغتمون ولا يهتمون؛ بل يضحكون ويفرحـون، ويأكلون ويشربون ويأنسون، فأين هو إنكار القلب الذي ليس وراءه من الإيمان حبة خردل؟! لقد كان سفيان الثوري رحمه الله تعالى يقول: «إني لأرى المنكر فلا أتكلم فأبول دماً»[١٦].

إن قلبه رحمه الله تعالى اشتغل بإنكاره، واهتم له، فصاحبه في أكله وشربه، ونومه وقعوده، وفي كل شؤونه؛ حتى بال الدم من شدة الهم والغم لوجود هذا المنكر.

إن الحديث وصف صاحب القلب الأسود بأنه لا يعرف معروفاً، ولا ينكر منكراً، ولم يُحدد نوع هذا الإنكار مما يدل على أن أقلَّ درجاته الإنكار بالقلب، فهل نعجز عن ذلك؟! فاتقوا الله ربكم، وأصلحوا قلوبكم، واحذروا الفتن والمعاصي؛ فإنها سببُ موتِ القلوب وفسادها وهلاك أصحابها. وصلوا وسلموا على محمد بن عبدالله كما أمركم بذلك ربكم.

---

(١٦) سير أعلام النبلاء (٧/ ٢٤٣ ـ ٢٥٩).

العبـــــادات

٣٩- الوضوء.. فضله وأحكامه
٤٠- سنة السواك
٤١- النداء للصلاة (١)
٤٢- النداء للصلاة (٢)
٤٣- الحث على الاستسقاء
٤٤- الكسوف والخسوف
٤٥- سنة الاستخارة
٤٦- الجهاد في سبيل الله تعالى (١)
٤٧- الجهاد في سبيل الله تعالى (٢)
٤٨- حقوق الأجراء
٤٩- الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر

٣٩- الوضـوء.. فضله وأحكامه

الجمعة ٢١/ ٣/ ١٤١٨هـ

الحمد لله، نحمده ونستعينه ونستغفره، ونعوذ بالله من شرور أنفسنا ومن سيئات أعمالنا، من يهده الله فلا مضل له ومن يضلل فلا هادي له، وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له، وأشهد أن محمداً عبده ورسوله ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ حَقَّ تُقَاتِهِ وَلا تَمُوتُنَّ إِلاَّ وَأَنتُم مُّسْلِمُونَ (١٠٢)﴾ [آل عمران] ﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ اتَّقُوا رَبَّكُمُ الَّذِي خَلَقَكُم مِّن نَّفْسٍ وَاحِدَةٍ وَخَلَقَ مِنْهَا زَوْجَهَا وَبَثَّ مِنْهُمَا رِجَالاً كَثِيرًا وَنِسَاءً وَاتَّقُوا اللَّهَ الَّذِي تَسَاءَلُونَ بِهِ وَالأَرْحَامَ إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلَيْكُمْ رَقِيبًا (١)﴾ [النساء] ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَقُولُوا قَوْلاً سَدِيدًا (٧٠) يُصْلِحْ لَكُمْ أَعْمَالَكُمْ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ وَمَن يُطِعِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ فَقَدْ فَازَ فَوْزًا عَظِيمًا (٧١)﴾ [الأحزاب].

أما بعد: فإن المؤمن يوصف بالطهارة، ويوصف المشرك بالنجاسة، فالمؤمن طاهر من الشرك ورجسه. وكلما اقترب من كمال الإيمان كان قلبه طاهراً من الحقد والحسد والكراهية، وكان عمله طاهراً من الرياء والسمعة، وكانت جوارحه طاهرة من المعاصي والآثام.

وأعداءُ الله تعالى تنجسوا بعدائه، والاستكبار عن طاعته فهم أولى بكل نجاسة ﴿أُوْلَئِكَ الَّذِينَ لَمْ يُرِدِ اللَّهُ أَن يُطَهِّرَ قُلُوبَهُمْ لَهُمْ فِي الدُّنْيَا خِزْيٌ وَلَهُمْ فِي الآخِرَةِ عَذَابٌ عَظِيمٌ (٤١)﴾ [المائدة] ولما كانوا كذلك كانوا حرباً على المؤمنين المتطهرين، يتواصون في نواديهم النجسة قائلين:

﴿ أَخْرِجُوهُم مِّن قَرْيَتِكُمْ إِنَّهُمْ أُنَاسٌ يَتَطَهَّرُونَ ﴿٨٢﴾ ﴾ [الأعراف: ٨٢].

إن طُهْر المؤمنين كان بالإيمان بالله تعالى، والإخلاص له، والمسارعة إليه بالأعمال الصالحات. فالوضوء طهارة للوقوف بين يدي الله تعالى، والصلاة طهارة تغسل درن الذنوب والمعاصي، والزكاة طهارة للمال ﴿ خُذْ مِنْ أَمْوَالِهِمْ صَدَقَةً تُطَهِّرُهُمْ وَتُزَكِّيهِم بِهَا ﴾ [التوبة: ١٠٣] وهكذا سائر العبادات.

والأشياء المحترمة طاهرة، والمؤمن محترم حياً وميتاً فهو طاهر، ومافي الجنة محترم لذا كان مطهراً ﴿ خَالِدِينَ فِيهَا وَأَزْوَاجٌ مُّطَهَّرَةٌ وَرِضْوَانٌ مِّنَ اللَّهِ ﴾ [آل عمران: ١٥]، وبيوت الله محترمة لذا وجب تطهيرها ﴿ وَعَهِدْنَا إِلَىٰ إِبْرَاهِيمَ وَإِسْمَاعِيلَ أَن طَهِّرَا بَيْتِيَ لِلطَّائِفِينَ وَالْعَاكِفِينَ وَالرُّكَّعِ السُّجُودِ ﴿١٢٥﴾ ﴾ [البقرة] وكتاب الله تعالى محترم، طاهر مطهر ﴿ فِي صُحُفٍ مُّكَرَّمَةٍ ﴿١٣﴾ مَّرْفُوعَةٍ مُّطَهَّرَةٍ ﴿١٤﴾ ﴾ [عبس] ﴿ رَسُولٌ مِّنَ اللَّهِ يَتْلُو صُحُفًا مُّطَهَّرَةً ﴿٢﴾ ﴾ [البينة] لذا كان واجباً أن لا يمسه إلا طاهر ﴿ إِنَّهُ لَقُرْآنٌ كَرِيمٌ ﴿٧٧﴾ فِي كِتَابٍ مَّكْنُونٍ ﴿٧٨﴾ لَّا يَمَسُّهُ إِلَّا الْمُطَهَّرُونَ ﴿٧٩﴾ ﴾ [الواقعة].

والطهارة الحسية تكمِّل الطهارة المعنوية، فالإسلام دين النقاء والطهارة؛ ولذا امتن الله تعالى على عباده بإنزال الماء ﴿ وَأَنزَلْنَا مِنَ السَّمَاءِ مَاءً طَهُورًا ﴿٤٨﴾ ﴾ [الفرقان] ﴿ وَيُنَزِّلُ عَلَيْكُم مِّنَ السَّمَاءِ مَاءً لِّيُطَهِّرَكُم بِهِ ﴾ [الأنفال: ١١] ومن أول النداءات التي نودي بها رسول الله صلى الله عليه وسلم في بعثته ﴿ يَا أَيُّهَا الْمُدَّثِّرُ ﴿١﴾ قُمْ فَأَنذِرْ ﴿٢﴾ وَرَبَّكَ فَكَبِّرْ ﴿٣﴾ وَثِيَابَكَ فَطَهِّرْ ﴿٤﴾ وَالرُّجْزَ فَاهْجُرْ ﴿٥﴾ ﴾ [المدثر].

طهارةٌ حسية بتطهير الثياب، وطهارةٌ معنوية باجتناب الأوثان. قال ابن زيد: «كان المشركون لايتطهرون فأمره الله أن يتطهر وأن يطهر ثيابه»(١).

وما جاءت الطهارة في النداءات الأولى لهذه الشريعة العظيمة إلا لعظيم أهمية الطهارة في الإسلام؛ بل وجاء الخبر القرآني بمحبة الله تعالى للمتطهرين ﴿فِيهِ رِجَالٌ يُحِبُّونَ أَن يَتَطَهَّرُوا وَاللَّهُ يُحِبُّ الْمُطَّهِّرِينَ ﴿١٠٨﴾﴾ [التوبة] قال عليه الصلاة والسلام: «**نزلت هذه الآية في أهل قباء ﴿فِيهِ رِجَالٌ يُحِبُّونَ أَن يَتَطَهَّرُوا﴾ قال: كانوا يستنجون بالماء فنزلت فيهم هذه الآية**» أخرجه أبوداود وصححه الحافظ(٢).

ونصت السنة النبوية على أن الطهور شطر الإيمان، أي: نصفه(٣)، والوضوء للصلاة من أعظم الطهارات التي رتب عليها الأجر العظيم. فمن أسباب محو الخطايا ورفع الدرجات إسباغُ الوضوء على المكروهات(٤). فالوضوء يخرج خطايا الجوارح والأعضاء، روى عبدالله الصُنابحيُ رضي

(١) تفسير ابن كثير (٤/ ٦٩١) عند تفسير الآية (٤) من سورة المدثر.
(٢) أخرجه أبوداود في الطهارة باب الاستنجاء بالماء (٤٤) والترمذي في تفسير سورة التوبة (٣٠٥٠) وابن ماجه في الطهارة باب الاستنجاء بالماء (٣٥٧) والبيهقي (١/ ١٠٥) وصححه الحافظ في الفتح (٧/ ١٩٢).
(٣) كما في حديث أبي مالك الأشعري رضي الله عنه الذي أخرجه مسلم في الطهارة باب فضل الوضوء (٢٢٣) والترمذي في الدعوات (٣٥١٢) والنسائي في الزكاة باب وجوب الزكاة (٥/ ٥).
(٤) كما في حديث أبي هريرة رضي الله عنه عند مسلم في الطهارة باب فضل إسباغ الوضوء على المكاره (٢٥١) وكذلك حديث جابر رضي الله عنه عند البزار (٤٤٩) وابن حبان (١٠٣٩).

الله عنه أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال: «**إذا توضأ العبد المؤمن فمضمض خرجت الخطايا من فيه، فإذا استنثر خرجت الخطايا من أنفه، فإذا غسل وجهه خرجت الخطايا من وجهه حتى تخرج من تحت أشفار عينيه، فإذا غسل يديه خرجت الخطايا من يديه حتى تخرج من تحت أظفار يديه، فإذا مسح رأسه خرجت الخطايا من رأسه حتى تخرج من أذنيه، فإذا غسل رجليه خرجت الخطايا من رجليه حتى تخرج من تحت أظافر رجليه. ثم كان مشيه إلى المسجد وصلاته نافلة**» أخرجه النسائي وابن ماجه، ومسلم بنحوه عن أبي هريرة وفيه «**حتى يخرج نقياً من الذنوب**» (٥).

ويعظم فضلُ الوضوء وأثره في حياة المؤمن؛ إذ هو العلامة التي يعرفها النبي صلى الله عليه وسلم في أمته يوم القيامة من بين سائر الأمم، عن أبي هريرة رضي الله عنه أن رسول الله صلى الله عليه وسلم أتى المقبرة فقال: «**السلام عليكم دار قوم مؤمنين، وإنا إن شاء الله بكم لاحقون، وددت أنا قد رأينا إخواننا**» قالوا: أولسنا إخوانك يا رسول الله؟ قال: «**أنتم أصحابي، وإخواننا الذين لم يأتوا بعد**» فقالوا: كيف تعرف من لم يأت بعد من أمتك يا رسول الله؟ فقال: «**أرأيت لو أن**

---

(٥) أخرجه النسائي في الطهارة باب مسح الأذنين مع الرأس واللفظ له (١/ ٧٤) وابن ماجه في الطهارة وسننها باب ثواب الطهور (٢٨٢) والحاكم وصححه على شرط الشيخين ووافقه الذهبي (١/ ١٢٩)، أما حديث أبي هريرة رضي الله عنه فقد أخرجه مسلم في الطهارة باب خروج الخطايا مع ماء الوضوء (٢٤٤).

رجلاً له خيل غُرٌ محجلةٌ، بين ظهري خيل دُهم بُهم، ألا يعرف خيله؟» قالوا: بلى يا رسول الله! قال «**فإنهم يأتون غُرّاً محجلين من الوضوء وأنا فرطهم على الحوض. ألا ليذادن رجال عن حوضي كما يذاد البعير الضال، أناديهم: ألا هلُمَّ ! فيقال: إنهم قد بـدّلوا بعدك، فأقول: سحقاً سحقاً**» وعنه رضي الله عنه قال: سمعت خليلي صلى الله عليه وسلم يقول: «**تبلغ الحلية من المؤمن حيث يبلغ الوضوء**» أخرجهما مسلم(٦).

أما صفة وضوئه صلى الله عليه وسلم فيحكيها أمير المؤمنين عثمان ابنُ عفان رضي الله عنه حيث دعا بوضوء فتوضأ، فغسل كفيه ثلاث مرات، ثم مضمض واستنثر، ثم غسل وجهه ثلاث مرات، ثم غسل يده اليمنى إلى المرفق ثلاث مرات، ثم غسل يده اليسرى مثل ذلك، ثم مسح رأسه، ثم غسل رجله اليمنى إلى الكعبين ثلاث مرات، ثم غسل اليسرى مثل ذلك. ثم قال: «رأيت رسول الله صلى الله عليه وسلم توضأ نحو وضوئي هذا، ثم قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: «**من توضأ نحو وضوئي هذا ثم قام فركع ركعتين لايحدّث فيهما نفسه غفر له ماتقدم من ذنبه**»(٧). قال ابنُ شهاب الزهري: «وكان علماؤنا

---

(٦) أما الحديث الأول فقد أخرجه مسلم في الطهارة باب استحباب إطالة الغـرة والتحجيل في الوضوء (٢٤٩) وأما الحديث الثاني فقد أخرجه مسلم في الطهارة باب تبلغ الحلية حيث يبلغ الوضوء (٢٥٠).

(٧) أخرجه البخاري في الوضوء باب الوضوء ثلاثـاً (١٥٩) ومسلم في الطهارة باب صفة الوضوء وكماله (٢٢٦).

يقولون: هذا الوضوء أسبغ ما يتوضأُ به أحد للصلاة»[٨].

وقد ثبت أن النبي صلى الله عليه وسلم توضأ مرة مرة[٩]، ومرتين مرتين[١٠]، وثلاثاً ثلاثاً[١١]، وثبت عنه أيضاً أنه خالف بين أعضائه في عدد الغسلات فغسل وجهه ثلاثاً ويديه مرتين ورجليه مرة[١٢]. وكل هذا ثابت في سنته صلى الله عليه وسلم، والأفضل أن يأتي العبد بهذا مرة وبهذا مرة حتى يدرك سنته كلها.

وإذا صلى العبد بوضوئه استحب له أن يجدد وضوءه للصلاة الأخرى، أما إذا لم يُصلِّ بوضوئه فلا يجدده، قال شيخ الإسلام ابن تيمية رحمه الله: «وإنما تكلَّم الفقهاء فيمن صلى بالوضوء الأول هل يستحب له التجديد؟ أما من لم يُصلِّ فلا يستحب له إعادة الوضوء؛ بل تجديد الوضوء في مثل هذا بدعة مخالفة لسنة رسول الله صلى الله عليه وسلم، ولما عليه المسلمون في حياته وبعده إلى هذا الوقت»[١٣] اهـ.

---

(٨) صحيح مسلم (١/ ٢٠٥).

(٩) كما في حديث ابن عباس رضي الله عنهما عند البخاري في كتاب الوضوء باب الوضوء مرة مرة (١٥٧).

(١٠) كما في حديث عبدالله بن زيد عند البخاري في كتاب الوضوء باب الوضوء مرتين (١٥٨).

(١١) كما في حديث عثمان السابق.

(١٢) كما في حديث عبدالله بن زيد عند البخاري في كتاب الوضوء باب غسل الرجلين إلى الكعبين (١٨٦) ومسلم في الطهارة باب في وضوء النبي صلى الله عليه وسلم (٢٣٥).

(١٣) مجموع فتاوى شيخ الإسلام (٢١/ ٣٧٦).

وإذا توضأ المؤمن فقد أدى طهارة بدنه، فيقول كلمة التوحيد تأكيداً على طهارة قلبه من الشرك، ويسأل الله أن يديمه على هذا التطهر. ورد هذا في سنة المصطفى صلى الله عليه وسلم مثبتاً الأذكار بعد الوضوء، فعن عمر بن الخطاب رضي الله عنه قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: «**من توضأ فأحسن الوضوء ثم قال: أشهد أن لا إله إلا الله وحده لاشريك له وأشهد أن محمداً عبده ورسوله، اللهم اجعلني من التوابين واجعلني من المتطهرين، فتحت له ثمانيةُ أبواب الجنة يدخل من أيها شاء**»(١٤).

وخرج النسائي والحاكم وصححه من حديث أبي سعيد رضي الله عنه قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: «**...من توضأ فقال بعد فراغه من وضوئه: سبحانك اللهم وبحمدك أشهد أن لا إلـه إلا أنت أستغفرك وأتوب إليك، كتب في رَقٍ ثم جعل في طابع فلم يكسر إلى يوم القيامة**»(١٥).

---

(١٤) أخرجه مسلم في الطهارة باب الذكر المستحب عقب الوضوء (٢٣٤) من دون زيادة «**اللهم اجعلني من التوابين واجعلني من المتطهرين**» وإنما أخرجه بهذه الزيادة الترمذي في الطهارة باب مابعد الوضوء (٥٥) وصححه الألباني في صحيح الترمذي (١/ ١٨).

(١٥) أخرجه النسائي في عمل اليوم والليلة وقال: موقوف (٥٢٨) وابن السني (١١) والحاكم وصححه (١/ ٥٦٤) والطبراني في الأوسط (٢/ ٢٧١) قال الهيثمي عن رجاله: ورجاله رجال الصحيح، انظر: مجمع الزوائد (١/ ٢٣٩) وجوّد إسناده الدمياطي في المتجر الرابح (٨٢).

والديمومة على الوضوء صفةٌ من صفات الكمال للمؤمنين. لا يصبر على الاتصاف بها إلا هم، قال عليه الصلاة والسلام: «**استقيموا، ونعمًا إن استقمتم وخير أعمالكم الصلاة ولن يحافظ على الوضوء إلا مؤمن**»(١٦).

والوضوءُ بعد الحدث، ثم الصلاةُ بهذا الوضوء، من ميادين المسابقة إلى الجنة، فقد روى عبدالله بن بريدة عن أبيه أن رسول الله صلى الله عليه وسلم سمع خشخشة أمامه، فقال: «**من هذا؟**» قالوا: بلال، فأخبره وقال: «**بم سبقتني إلى الجنة؟**» فقال: يا رسول الله، ما أحدثت إلا

---

(١٦) أخرجه أحمد (٥/ ٢٨٠) وابن ماجه في الطهارة وسننها باب المحافظة على الوضوء من حديث ثوبان (٢٧٧) قال البوصيري في مصباح الزجاجة: هذا الحديث رجاله ثقات أثبات إلا أنه منقطع بين سالم وثوبان فإنه لم يسمع منه بلا خلاف؛ لكن له طريق أخرى متصلة أخرجها أبو داود الطيالسي في مسنده وأبو يعلى الموصلي والدارمي في مسنده وابن حبان في صحيحه من طريق حسان بن عطية أن أبا كبشة حدثه أنه سمع ثوبان، انظر: مصباح الزجاجة (١/ ١٢٢)، وانظر أيضاً: مسند الطيالسي (٩٩٦) وسنن الدارمي (١/ ١٦٨) والمعجم الكبير للطبراني (١٤٤٤) والصغير (٢/ ٨٨) وسنن البيهقي (١/ ٤٥٧) وصحيح ابن حبان (١٠٣٧) ومستدرك الحاكم (١٠/ ١٣٠) وشرح السنة للبغوي (١/ ٣٢٧).

قال ابن عبدالبر: يتصل معنى هذا الحديث ولفظه مسنداً من حديث ثوبان ومن حديث عبدالله بن عمرو بن العاص عن النبي ـ عليه السلام ـ وقد ذكرتها بطرقها في التمهيد، انظر: الاستذكار (٢/ ٢١٣) برقم (٢١٠٥) وصححه الألباني في صحيح الجامع (٩٥٣) وبحث طرقه في الإرواء (٣/ ١٣٥) برقم (٤١٢).

توضأت، ولا توضأت إلا رأيت أن لله علي ركعتين أصليهما، قال صلى الله عليه وسلم: «**بهما**» صححه ابن حبان والحاكم(١٧).

الله أكبر! عمل قليل، وخير كثير. وضوء بعد كل حدث، وصلاة بعد كل وضوء، والجزاء سبقٌ إلى الجنة. والديمومة على الطهارة تجعل العبد يلقى ربه وهو على طهارة ولو كان موته فجأة؛ ولذلك فإن المؤمن لا يرضى إلا أن يكون على طهارة دائمة حتى في نومه، كيف والنبي صلى الله عليه وسلم يقول: «**طهِّروا هذه الأجساد طهّركم الله، فإنه ليس عبد يبيت طاهراً إلا بات معه ملك في شعاره لاينقلب ساعة من الليل إلا قال: اللهم اغفر لعبدك فإنه بات طاهراً**» أخرجه الطبراني(١٨).

ما هذا الفضل العظيم؟! استغفار الملائكة للعبد كلما تقلب في فراشه طوال الليل، وما على العبد إلا أن يتوضأ قبل أن ينام حتى ينال هذا الفضل. فمن يا ترى يحرم نفسه هذا الخير؟! فينام على غير طهارة؛

---

(١٧) أخرجه أبو نعيم (١/ ١٥٠) والحاكم وصححه وقال: على شرط الشيخين، ووافقه الذهبي (١/ ٣١٣) وابن حبان واللفظ له (٧٠٨٧) ومثله حديث أبي هريرة رضي الله عنه عند البخاري في التهجد باب فضل الطهور بالليل والنهار وفضل الصلاة (١١٤٩) ومسلم في فضائل الصحابة باب من فضائل بلال رضي الله عنه (٢٤٥٨).

(١٨) أخرجه الطبراني في الكبير (١٢/ ٤٤٦-٤٤٧) برقم (١٣٦٢١) وذكره الهيثمي في المجمع من حديث ابن عمر وعزاه للبزار والطبراني في الكبير وذكر حديث عمرو بن عبسة (١/ ٢٢٦)، وقد حسن الألباني حديث ابن عمر كما في صحيح الجامع (٣٩٣٦).

فإن قبضت روحه قبضت على غير طهارة، وإن أرسلت فاته فضل استغفار الملائكة.

أيها الإخوة: هذا الوضوء وهذا فضله في الإسلام، فأيُّ دين أولى التطهر والنظافة هذه العناية العظيمة غير دين الإسلام؟! فلله الحمد بالإسلام، ونسأله الثبات عليه إلى الممات. أعوذ بالله من الشيطان الرجيم ﴿ **يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا قُمْتُمْ إِلَى الصَّلاةِ فَاغْسِلُوا وُجُوهَكُمْ وَأَيْدِيَكُمْ إِلَى الْمَرَافِقِ وَامْسَحُوا بِرُءُوسِكُمْ وَأَرْجُلَكُمْ إِلَى الْكَعْبَيْنِ وَإِن كُنتُمْ جُنُبًا فَاطَّهَّرُوا وَإِن كُنتُم مَّرْضَىٰ أَوْ عَلَىٰ سَفَرٍ أَوْ جَاءَ أَحَدٌ مِّنكُم مِّنَ الْغَائِطِ أَوْ لامَسْتُمُ النِّسَاءَ فَلَمْ تَجِدُوا مَاءً فَتَيَمَّمُوا صَعِيدًا طَيِّبًا فَامْسَحُوا بِوُجُوهِكُمْ وَأَيْدِيكُم مِّنْهُ مَا يُرِيدُ اللَّهُ لِيَجْعَلَ عَلَيْكُم مِّنْ حَرَجٍ وَلَٰكِن يُرِيدُ لِيُطَهِّرَكُمْ وَلِيُتِمَّ نِعْمَتَهُ عَلَيْكُمْ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ (٦)** ﴾ [المائدة] بارك الله لي ولكم في القرآن العظيم...

الخطبة الثانية

الحمد لله حمد الشاكرين، وأستغفره استغفار المذنبين، وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له ربُّ العالمين، وأشهد أن محمداً عبده ورسوله سيدُ البشر أجمعين صلى الله وسلم وبارك عليه وعلى آله وأصحابه والتابعين، ومن سار على نهجهم واقتفى أثرهم إلى يوم الدين.

أما بعد: فأوصيكم ونفسي بتقوى الله عزوجل، فاتقوه تفلحوا فإنه ﴿ **مَن يَتَّقِ وَيَصْبِرْ فَإِنَّ اللَّهَ لا يُضِيعُ أَجْرَ الْمُحْسِنِينَ (٩٠)** ﴾ [يوسف] ﴿ **وَإِن تُؤْمِنُوا وَتَتَّقُوا فَلَكُمْ أَجْرٌ عَظِيمٌ (١٧٩)** ﴾ [آل عمران].

أيها الإخوة: مما يؤخذ على كثير من الناس في الوضوء عدم إسباغه

إما تهاوناً بشأنه وإما جهلاً بصفته الشرعية، وإنما رتب الأجر العظيم في الوضوء على إسباغه وإتمامه وإحسانه قال عليه الصلاة والسلام «**ما من مسلم يتوضأ، فيحسنُ وضوءَه، ثم يقومُ فيصلي ركعتين يقبل عليهما بقلبه ووجهه إلا وجبت له الجنة**» أخرجه مسلم وأبوداود من حديث عقبة بن عامر رضي الله عنه(١٩)، وفي حديث آخر عن عثمان رضي الله عنه أن النبي صلى الله عليه وسلم قال: «**من أتم الوضوء كما أمره الله، فالصلوات المكتوبات كفارات لما بينهن**» أخرجه مسلم(٢٠)، قال البخاري: «وكان ابن سيرين يغسل موضع الخاتم إذا توضأ»(٢١).

وعدم إسباغ الوضوء فيه وعيد شديد، روى محمدُ بنُ زياد قال: سمعت أبا هريرة وكان يمر بنا والناس يتوضؤون من المطهرة قال: أسبغوا الوضوء فإن أبا القاسم صلى الله عليه وسلم قال: «**ويل للعراقيب من النار**» أخرجه الشيخان(٢٢)، فليتق الله أناس لا يبالون كيف توضؤوا، ولا يهتمون بإسباغ الوضوء كما أمر الله تعالى.

هذا فريق المقصرين، يقابله فريق الموسوسين في الوضوء، المعذبين لأنفسهم، المسرفين في صب المياه، وإهدارها بغير حق، وقد كان

(١٩) أخرجه مسلم في الطهارة باب الذكر المستحب عقب الوضوء (٢٣٤) وأبوداود في الطهارة باب مايقول الرجل إذا توضأ (١٧٠).

(٢٠) أخرجه مسلم في الطهارة باب فضل الوضوء والصلاة عقبه (٢٣١).

(٢١) صحيح البخاري، كتاب الوضوء، باب غسل الأعقاب، قبل حديث رقم (١٦٥).

(٢٢) أخرجه البخاري في العلم باب من رفع صوته بالعلم (٦٠) ومسلم في الطهارة باب وجوب غسل الرجلين بكاملهما واللفظ له (٢٩).

النبي صلى الله عليه وسلم يُغسِّله الصاع من الماء من الجنابة، ويُوضِّئه المد كما في صحيح مسلم[٢٣].

ولما قال رجل لجابر عن الغسل بالصاع: ما يكفيني، قال له جابر: «كان يكفي من هو أوفى منك شعراً وخير منك» متفق عليه[٢٤].

قال الإمام أحمد: «من فقه الرجل قلةُ ولوعه بالماء»[٢٥]. وقال تلميذه المروزي: «وضأت أبا عبدالله فسترته من الناس؛ لئلا يقولوا إنه لا يحسن الوضوء، لقلةِ صب الماء، وكان رحمه الله يتوضأ فلايكاد يبل الثرى»[٢٦].

قال شيخ الإسلام ابن تيمية: «ودلت السنن الصحيحة على أن النبي صلى الله عليه وسلم وأصحابه لم يكونوا يكثرون صب الماء، ومضى على هذا التابعون لهم بإحسان»[٢٧].

وقال ابن القيم يذكر هدي النبي صلى الله عليه وسلم: «وكان من أيسر الناس صباً لماء الوضوء، وكان يحذر أمته من الإسراف فيه، وأخبر أنه يكون في أمته من يتعدى في الطهور» اهـ[٢٨]. وإذا كان ينهى عن

(٢٣) أخرجه مسلم من حديث سفينة في الحيض باب القدر المستحب من الماء في غسل الجنابة (٣٥٦).

(٢٤) أخرجه البخاري في الغسل باب الغسل بالصاع ونحوه (٢٥٢) ومسلم في الحيض باب استحباب إفاضة الماء على الرأس وغيره ثلاثاً (٣٢٩).

(٢٥) إغاثة اللهفان (١/ ١٢٨) وانظر: مجموع الفتاوى (٢١/ ٢٩٨).

(٢٦) إغاثة اللهفان (١/ ١٢٨).

(٢٧) نقله عنه ابن القيم في الإغاثة (١/ ١٢٨).

(٢٨) زاد المعاد (١/ ١٩١).

الإسراف وصب المياه في العبادات ففي غيرها من باب أولى.

ومن الإسراف في المياه، والابتداع في الوضوء: الزيادة على ثلاث غسلات، قال الإمام أحمد: «لا يزيد على الثلاث إلا رجل مبتلى». وقال ابن المبارك: «لا آمن من ازداد على الثلاث أن يأثم»، وقال النخعي: «تشديد الوضوء من الشيطان، لو كان هذا فضلاً لأوثر به أصحاب محمد صلى الله عليه وسلم»(٢٩)، وقد جاء في الحديث أن النبي صلى الله عليه وسلم توضأ ثلاثاً ثم قال: «**هذا الوضوء فمن زاد على هذا فقد أساء وظلم**» أخرجه أبو داود والنسائي وابن ماجه(٣٠).

فاتقوا الله ربكم، وتفقهوا في دينكم، وأحسنوا الوضوء ﴿**وَلَا تُسْرِفُوا إِنَّهُ لَا يُحِبُّ الْمُسْرِفِينَ** ﴿٣١﴾﴾ [الأعراف] ثم صلوا وسلموا على محمد بن عبدالله كما أمركم بذلك ربكم...

* * *

(٢٩) الآثار عن أحمد وابن المبارك والنخعي في المغنى لابن قدامة (١/ ١٩٤).

(٣٠) أخرجه أبوداود في الطهارة باب الوضوء ثلاثاً (١٣٥) والنسائى في الطهارة باب الاعتداء في الوضوء (١/ ٧٥) وابن ماجه في الطهارة باب ما جاء في القصد في الوضوء وكراهة التعدي فيه (٤٢٢).

٤٠- سنة السواك
أحكام و آداب ومنافع

الجمعة ٢٤/ ٧/ ١٤١٩هـ

الحمد لله، نحمده ونستعينه ونستغفره، ونعوذ بالله من شرور أنفسنا، ومن سيئات أعمالنا، من يهده الله فلا مضل له، ومن يضلل فلا هادي له، وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له، وأشهد أن محمداً عبده ورسوله، ﴿يَا أَيُّهَا الذينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ حَقَّ تُقَاته وَلا تَمُوتُنَّ إِلاَّ وَأَنتُم مُّسْلِمُونَ (١٠٢)﴾ [آل عمران] ﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ اتَّقُوا رَبَّكُمُ الذي خَلَقَكُم مِّن نَّفْسٍ وَاحِدَةٍ وَخَلَقَ مِنْهَا زَوْجَهَا وَبَثَّ مِنْهُمَا رِجَالاً كَثِيرًا وَنِسَاءً وَاتَّقُوا اللَّهَ الَّذِي تَسَاءَلُونَ بِهِ وَالأَرْحَامَ إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلَيْكُمْ رَقِيبًا (١)﴾ [النساء] ﴿يَا أَيُّهَا الذينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَقُولُوا قَوْلاً سَدِيدًا (٧٠) يُصْلِحْ لَكُمْ أَعْمَالَكُمْ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ وَمَن يُطِعِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ فَقَدْ فَازَ فَوْزًا عَظِيمًا (٧١)﴾ [الأحزاب].

أما بعد: فإن أصدق الحديث كلام الله تعالى، وخير الهدي هدي محمد صلى الله عليه وسلم، وشر الأمور محدثاتها، وكل محدثة بدعة، وكل بدعة ضلالة، وكل ضلالة في النار.

أيها المؤمنون: تعتني الشريعةُ ببدن الإنسان كما تعتني بقلبه، وتهتم بصلاح جسده كما تهتم بصلاح دينه وأخلاقه. لذا كانت نصوص الآداب والتهذيب تضاهي نصوص الأحكام والتشريع. وهناك آدابٌ تحتمها الطِبَاعُ السوية؛ وتدعو إليها الفطر السليمة، ويتعارف عليها

العقلاء من البشر، كالتحلي بالنظافة، والاهتمام بالزينة. فالاستنجاء من الأذى، وغسل اليدين قبل الطعام وبعده، وإماطة الأذى عن الطريق، ونظافة البدن واللباس، ومكان العمل والدار، أمور يتفق عليها جميع البشر، ويفعلها المسلم وقد يفعلها الكافر؛ إذ هي من عادات الإنسان العاقل السوي، فهو يكره القذر، ويحب النظافة.

لكن الإسلام من عنايته بأمور الحياة - التي قد يراها الناس من أمور العادة - رتب عليها أجوراً عظيمة، ورغب فيها حتى أضحت سنناً، إذا فعلها المؤمن حُسبةً نال أجراً عظيماً، وثواباً جزيلاً.

والعنايةُ بالفم ونظافته، وتطييب رائحته لحق النفس ولحق الغير، ليست تنفك عن عناية الشريعة واهتمامها؛ ولذا شرع رسول الله صلى الله عليه وسلم السواك، ورغب فيه، وأكد عليه؛ حتى أصبح من السنن المؤكدة. قال ابن قدامة رحمه الله تعالى: «واتفق العلماء على أنه سنة مؤكدة لحث النبي صلى الله عليه وسلم ومواظبته عليه، وترغيبه فيه، وندبه إليه، وتسميته إياه من الفطرة» اهـ[1]، قال النبي عليه الصلاة والسلام «**لولا أن أشق على أمتي لأمرتهم بالسواك عند كل صلاة**»[2].

---

(١) المغني لابن قدامة (١/ ١٣٤).

(٢) أخرجه البخاري في الجمعة باب السواك يوم الجمعة (٨٨٧) ومسلم في الطهارة باب السواك (٢٥٢) ونحوه عند أبي داود في الطهارة باب السواك (٤٦) والترمذي في الطهارة باب ماجاء في السواك (٢٢) والنسائي في الطهارة باب الرخصة في السواك بالعشي للصائم (١/ ١٢).

وما ترك النبي عليه الصلاة والسلام السواك حتى في المرض الذي مات فيه؛ بل كان السواك آخر فعلٍ فعله قبل أن يتشهد للموت. وهذا يدل على عظيم اهتمامه بشأنه، قالت عائشة رضي الله عنها: «دخل عبدالرحمن بنُ أبي بكر على النبي صلى الله عليه وسلم وأنا مسندته إلى صدري ومع عبدالرحمن سواكٌ رطبٌ يستن به، فأبّده رسول الله صلى الله عليه وسلم بصره، فأخذت السواك فقضمته ونفضته وطيبته، ثم دفعته إلى النبي صلى الله عليه وسلم فاستنَّ به، فما رأيت رسول الله صلى الله عليه وسلم استنّ استناناً قط أحسن منه، فما عدا أن فرغ رسول الله صلى الله عليه وسلم رفع يده أو إصبعه ثم قال: «**في الرفيق الأعلى** ثلاثاً ثم قضى» أخرجه البخاري[٣]. قال الحافظ ابن حجر رحمه الله تعالى: «وفيه دلالة على أمر السواك لكونه صلى الله عليه وسلم لم يخلّ به على ما هو فيه من شاغل المرض»[٤].

وأما نوع السواك: فشجرُ الأراك، أو غيرُه مما يحصل به المقصود من النظافة، وقد كان النبيُ صلى الله عليه وسلم يتسوك بالأراك، وثبت أنه تسوك بالجريد كما في رواية ابن أبي مليكة عند البخاري من حديث عائشة رضي الله عنها في قصة سواكه عند موته[٥]. قال ابن

---

(٣) أخرجه البخاري في المغازي باب مرض النبي صلى الله عليه وسلم ووفاته (٤٤٣٨).

(٤) فتح الباري (٢/ ٤٣٨).

(٥) في المغازي باب مرض النبي صلى الله عليه وسلم ووفاته (٤٤٥١).

عبدالبر رحمه الله تعالى: «وكان سواكُ القوم الأراك والبَشَامَ. وكلُ ما يجلو الأسنان ولا يؤذيها ويطيب نكهة الفم فجائزٌ الاستياك به»[٦].

وأما وقت السواك: فهو مستحب في جميع الأوقات، قال النبي عليه الصلاة والسلام: «**السواك مطهرة للفم مرضاة للـرب**» أخرجه النسائي والدرامي[٧]. قال النووي رحمه الله تعالى: «لكن في خمسة أوقات أشدَّ استحباباً، أحدها: عند الصلاة سواء كان متطهراً بماء أو بترابٍ، أو غير متطهر كمن لم يجد ماءً ولا تراباً، الثاني: عند الوضوء، الثالث: عند قراءة القرآن، الرابع: عند الاستيقاظ من النوم، الخامس: عند تغير الفم، وتغيرُه يكون بأشياء منها: ترك الأكل والشرب، ومنها: أكل ما له رائحة كريهة، ومنها: طول السكوت، ومنها: كثرة الكلام»[٨].

قال الشوكاني: «وقد قامت الأدلة على استحبابه في جميع هذه الحالات التي ذكرها»[٩]. كما في قول النبي عليه الصلاة والسـلام: «**لولا أن أشق على أمتي لأمرتهم بالسواك عند كل صلاة**» متفق عليه[١٠]،

---

(٦) الاستذكار لابن عبدالبر (٣/ ٢٧٢).

(٧) أخرجه ابن أبي شيبة في المصنف (١/ ١٦٩) والشافعي في مسنده (١/ ٢٧) وأحمد (٦/ ٤٧) والبخاري معلقاً مجزوماً به، انظر: فتح الباري (٤/ ١٨٧) والنسائي في الطهارة باب الترغيب في السواك (١/ ١٠) والدارمي (١/ ١٧٤) وابن خزيمة (١٣٥) والبيهقي في الكبرى (١/ ٣٤) وصححه ابن حبان (١٠٦٧) والألباني في الإرواء (٦٥).

(٨) شرح النووي على مسلم (٣/ ١٨١).

(٩) نيل الأوطار للشوكاني (١/ ١٤٣).

(١٠) سبق تخريجه في هامش (٢).

وفي حديث آخر «**لولا أن أشق على أمتي لأمرتهم بالسواك مع كل وضوء**» أخرجه مالك وأحمد[١١]، وكان صلى الله عليه وسلم إذا قام من الليل يشوص فاه بالسواك[١٢]، قالت عائشة رضي الله عنها: «كان رسول الله صلى الله عليه وسلم لا يرقد من ليل ولا نهار فيستيقظ إلا تسوك قبل أن يتوضأ» أخرجه أبوداود بإسناد حسن[١٣]، وفي حديث آخر: «كان عليه الصلاة والسلام لا ينام إلا والسواك عند رأسه فإذا استيقظ بدأ بالسواك»[١٤]، وسئلت رضي الله عنها: «بأي شيء كان يبدأ رسول الله صلى الله عليه وسلم إذا دخل بيته؟ قالت: بالسواك» أخرجه مسلم[١٥]، وقال ابن عباس رضي الله عنهما: «كان رسول الله صلى الله عليه وسلم يصلي بالليل ركعتين ركعتين ثم ينصرف فيستاك»

---

(١١) أخرجه مالك في الطهارة باب ما جاء في السواك (١١٥) وأحمد (٢/ ٤٦٠) والطحاوي في شرح معاني الآثار (١/ ٤٣) والبيهقي في الكبرى (١/ ٣٥) وابن خزيمة (١٤٠) وصححه الألباني في الإرواء (٧٠).

(١٢) كما في حديث حذيفة عند البخاري في الجمعة باب السواك يوم الجمعة (٨٨٩) ومسلم في الطهارة باب السواك (٢٥٤) وأبي داود في الطهارة باب السواك لمن قام من الليل (٥٥).

(١٣) أخرجه أبوداود في الطهارة باب السواك لمن قام من الليل (٥٧) ونحوه عند مسلم في الطهارة باب السواك (٢٥٣).

(١٤) أخرجه أحمد (٢/ ١١٧) وابن نصر في قيام الليل (٤٣) وحسنه الألباني في السلسلة الصحيحة (٢١١١).

(١٥) أخرجه مسلم في الطهارة باب السواك (٢٥٣).

أخرجه ابن ماجه[١٦]، وروي عن علي رضي الله عنه أنه قال: «إن أفواهكم طرق للقرآن فطيبوها بالسواك»[١٧].

وقد ذكر الفقهاء رحمهم الله تعالى أن السواك يكون على اللثة والأسنان، وسقف الحلق واللسان[١٨]؛ لأنها كلَّها مقصودةٌ بالنظافة والتطهير، وقد جاء في حديث أبي بريدة عن أبيه رضي الله عنهما قال: «أتينا رسول الله صلى الله عليه وسلم نستحمله فرأيته يستاك على لسانه» أخرجه مسلم وأبو داود واللفظ له[١٩].

واستحب جمع منهم أن يكون السواكُ عرضاً لحديث حذيفة رضي الله عنه قال: «كان رسول الله صلى الله عليه وسلم إذا قام ليتهجد يشوص فاه بالسواك» متفق عليه[٢٠]. قال ابن العربي: «والشوص هو

---

(١٦) أخرجه ابن ماجه في الطهارة وسننها باب السواك (٢٨٨) وصححه الألباني في صحيح ابن ماجه (١/ ٥٣).

(١٧) أخرجه ابن ماجه في الطهارة وسننها باب السواك موقوفاً على علي رضي الله عنه (٢٣٦) وضعفه الحافظ في التلخيص الحبير (١/ ١٠) وصححه الألباني في السلسلة الصحيحة واحتمل أنه مرفوع وعزاه للبيهقي في الكبرى (١/ ٣٨) والضياء في المختارة (١/ ٢٠١) انظر: السلسلة الصحيحة (١٢١٣).

(١٨) انظر: الإنصاف للمرداوي (١/ ١١٨) والمبدع لابن مفلح (١/ ١٠٢) وروضة الطالبين للنووي (١/ ١٦٧) وحاشية ابن قاسم على الروض المربع (١/ ١٥٤).

(١٩) أخرجه مسلم في الطهارة باب السواك (٢٥٤) وأبوداود في الطهارة باب كيف يستاك (٤٩).

(٢٠) أخرجه البخاري في الجمعة باب السواك يوم الجمعة (٨٨٩) ومسلم في الطهارة باب السواك واللفظ له (٢٠٥).

الإيساك عرضاً»(٢١). والأرجح أنه يختار الطريقة التي تكون أكثر نظافة وأقل ضرراً، طولاً أو عرضاً؛ إذ مقصود السواك التنظيف.

والسواك سنة في حق النساء كما هو في حق الرجال، ومن سقطت أسنانه فإنه يتسوك على لثته ولسانه وسقف حلقه؛ لأن الحكمة من السواك تنطبق على من له أسنان ومن لا أسنان له، وحتى يصيب ثواب السنة(٢٢). والصائم يتسوك قبل الزوال وبعده ولا فرق في ذلك(٢٣).

والأحسن أن يغسل المتسوك السواك قبل أن يتسوك؛ لحديث عائشة رضي الله عنها قالت: «كان رسولُ الله صلى الله عليه وسلم يعطيني

---

(٢١) عارضة الأحوذي لابن العربي (١/ ٤٠) وانظر: في ذلك المغني لابن قدامة (١/ ١٣٥) والمجموع (١/ ٢٨١) وإحياء علوم الدين (١/ ١٥٨).

(٢٢) انظر: رد المحتار (١/ ٢٣٦) وبلغة السالك (١/ ٤٩) والإنصاف (١/ ١١٨) وحاشية ابن قاسم على الروض المربع (١/ ١٥٤)

(٢٣) المسألة خلافية: فقد كره الحنابلة والشافعية السواك بعد الزوال وهو مروي عن جمع من السلف، ورخص فيه جميع النهار الحنفية والمالكية وهو قول عند الشافعية واختاره شيخ الإسلام ابن تيمية. وانظر: الاستذكار (١٠/ ٢٥٤) والحاوي الكبير (٣/ ٤٦٧) والمجموع (١/ ٢٧٩) والمغني (١/ ١٣٨) ومجموع فتاوى شيخ الإسلام (٢٥/ ٢٢٦). ولا شك في أن المرخصين أحظى بالدليل؛ إذ الأصل مشروعية السواك في كل وقت للصائم وغيره، وحديث خلوف فم الصائم ليس دليلاً صالحاً على منع السواك؛ إذ لا دلالة فيه. والأحاديث التي ذكروها وفيها دلالة على منعه لا يصح منها شيء فيبقى الحكم على أصله وهو المشروعية في كل وقت والله أعلم.

السواك أغسله فأبدأ به فأستاك ثم أغسله ثم أدفعه إليه» أخرجه أبو داود [٢٤].

ويبدأ سواكه بجانب فمه الأيمن؛ لأن النبي صلى الله عليه وسلم كان يعجبه التيمن في كل شيء في ترجله وتنعله وتطهره وسواكه [٢٥]. ممسكاً المسواك بيده اليسرى [٢٦]. قال شيخُ الإسلام ابن تيمية: «وذلك

(٢٤) أخرجه أبوداود في الطهارة باب غسل السواك (٥٢) وصححه الألباني في صحيح سنن أبي داود (١/ ١٢).

(٢٥) أخرجه البخاري في الوضوء باب التيمن في الوضوء والغسل (١٦٨) ومسلم في الطهارة باب التيمن في الطهور وغيره (٣٦٨) وأبوداود في اللباس (٤١٤٠) والترمذي في الصلاة (٦٠٨) والنسائي في الطهارة (١/ ٧٨).

(٢٦) هذه المسألة خلافية: فالأحناف والمالكية والشافعية وبعض المتأخرين من الحنابلة يرون أن السنة أن يستاك باليد اليمنى ؛ لأن اليد اليمنى لا تباشر القذر، ولأن السواك عبادة، واستدلوا بعموم استحباب التيمن في كل شيء وانظر في ذلك رد المحتار (١/ ٢٣٤) ومواهب الجليل (١/ ٢٦٥) وإعانة الطالبين (١/ ٤٥) وطرح التثريب (٢/ ٧١). ويرى الحنابلة سنية الاستياك باليسرى؛ نص عليه في الروض، وقال في الحاشية: على الصحيح من المذهب، وجزم به في الفائق وقال الشيخ: ماعلمت إماماً خالف في الاستياك باليسرى؛ لأن الاستياك إنما شرع لإزالة ما في داخل الفم وهذه العلة متفق عليها اهـ بنصه من حاشية ابن قاسم على الروض المربع (١/ ١٥٤). والشيخ ابن عثيمين رحمه الله تعالى في شرحه الممتع على الزاد يرى أن الأمر في ذلك واسع لعدم ثبوت نص واضح، ونقل عن بعض المالكية التفصيل في ذلك فإن تسوك لتطهير الفم عقب أكل أو نوم أو نحوه فيكون باليسرى؛ لأنه لإزالة الأذى. وإن تسوك لتحصيل السنة فباليمنى؛ لأنه مجرد قربة وعبادة اهـ. انظر: الشرح الممتع (١/ ١٢٧) والظاهر أن كلام شيخ الإسلام أوجه وقد فصل في تعليل ذلك، انظر: مجموع الفتاوى (٢١/ ١٠٨-١١٢).

لأن السواك من باب إماطة الأذى فهو كالاستنثار والامتخاط ونحو ذلك، مما فيه إزالة النجاسات كالاستجمار ونحوه باليسرى، وإزالة الأذى واجبها ومستحبها باليسرى» اهـ كلامه [٢٧].

ويومُ الجمعة عيدُ الأسبوع، شُرع فيه الغسلُ والزينة، وقرن مع ذلك السواك، قال عليه الصلاة والسلام: «**غُسل يوم الجمعة واجب على كل محتلم وسواك، ويمسُ من الطيب ما قدر عليه** » أخرجه الشيخان[٢٨].

نفعني الله وإياكم بهدي القرآن العظيم وبسنة سيد المرسلين. . .

الخطبة الثانية

الحمد لله حمداً طيباً كثيراً مباركاً فيه كما يحب ربنا ويرضى، أحمده وأشكره وأتوب إليه وأستغفره، وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له، وأشهد أن محمداً عبده ورسوله صلى الله وسلم وبارك عليه وعلى آله وأصحابه ومن اهتدى بهداهم إلى يوم الدين.

أيها المؤمنون: أهملَ كثيرٌ من الناس سنة السواك تهاوناً بها، أو جهلاً بفضلها، أو استعاضة بغيرها عنها، ونبينا صلى الله عليه وسلم يقول: «**السواكُ مطهرة للفم مرضاة للرب**» أخرجه أحمد بسند صحيح[٢٩].

وفي هذه الجملة الموجزة يظهر اجتماع خيري الدنيا والآخرة في

---

(٢٧) مجموع فتاوى شيخ الإسلام (٢١/١٠٨).

(٢٨) أخرجه البخاري في الجمعة باب الطيب يوم الجمعة (٨٨٠) ومسلم في الجمعة باب الطيب والسواك يوم الجمعة واللفظ له (٨٤٦).

(٢٩) انظر تخريجه في الهامش (٧).

السواك؛ لأن الله تعالى إذا رضي عن العبد سهل له أمور الدنيا والآخرة.

وبلغ من عناية الشريعة بالسواك أن النبي صلى الله عليه وسلم أُمر به كثيراً حتى قال: «**أُمرت بالسواك حتى خفت على أسناني**» أخرجه الطبراني (٣٠). وعن ابن عباس رضي الله عنهما قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: «**أُمرت بالسواك حتى ظننت أو حسبت أنه سَينزل فيه قرآن**» (٣١).

ونقل الصنعاني عن صاحب البدر المنير قوله: «قد ذُكر في السواكِ زيادةٌ على مائة حديث. فواعجباً لسنةٍ تأتي فيها الأحاديث الكثيرة ثم يهملها كثير من الناس؛ بل كثير من الفقهاء، فهذه خيبة عظيمة» اهـ(٣٢).

أيها الإخوة: بان لكم ما في هذه السنة المباركة من الخير الكثير، والأجر العظيم، فلا جهل يحول بينكم وبينها. وأما التهاون فلا يحسن

---

(٣٠) أخرجه الطبراني في الكبير (١١/ ٤٥٣-٤٥٤) برقم (١٢٢٨٦) وفي الأوسط كما في مجمع البحرين (٨٦) والضياء المقدسي في الأحاديث المختارة (١٠/ ٢٩٤) برقم (٣١١) من حديث ابن عباس رضي الله عنهما. وأخرجه البزار كما في مختصر زوائد مسند البزار للحافظ ابن حجر (١/ ٢٥٦) برقم (٣٦٧) بلفظ «**أمرت بالسواك حتى خشيت أن أُدْرَد، أو حتى خشيت على لثتي ولساني**» من حديث أنس بن مالك رضي الله عنه، وقد ذكره الألباني في السلسلة الصحيحة وذكر له شواهد عدة، انظر: (٤/ ٧٧) برقم (١٥٥٦).

(٣١) أخرجه أحمد (١/ ٢٣٧) والطيالسي بنحوه (٢٧٣٩) وقال الهيثمي: رواه أبو يعلى وأحمد ورجاله ثقات، انظر: مجمع الزوائد (٢/ ٩٨) وصححه الشيخ أحمد شاكر في شرحه على المسند (٢١٢٥).

(٣٢) سبل السلام للصنعاني (١/ ٧٢).

أن يكون صارفاً عن سنن المصطفى صلى الله عليه وسلم. وأما الاستغناء بغيره عنه فذلك من استبدال الذي هو أدنى بالذي هو خير. ولا ثمة مانعٌ للجمع بين ما هو خير وما هو أدنى.

وقد ذكر أرباب الطب الحديث من عرب وعجم، ومسلمين وغير مسلمين في أبحاثٍ كثيرة، وبعد تجارب عديدة؛ أن السواك أنفع للفم من سائر المنظفات، وقرروا أن مفعول السواك في قتل الجراثيم يمتد إلى خمس ساعات على الأقل. أما أقوى المستحضرات الحديثة فلا يصل إلى عشرين دقيقة، وذكروا له أكثر من ست عشرة فائدة طبية[٣٣]. وهذه المنافع منافع دنيوية، ويكفينا في ذلك - معشر المسلمين - مرضاةُ الرب، وامتثالُ سنة النبي صلى الله عليه وسلم، ثم تطييب رائحة الفم للقرآن والصلاة والذكر، وحتى لا يتأذى الملائكةُ وجلساؤك من رائحة فمك.

فاتقوا الله ربكم، وامتثلوا سنة نبيكم، وأخلصوا لله نيتكم، واستحضروا في سواككم امتثال السنة، وطلب مرضاة الرب سبحانه وتعالى، قال الحافظ ابن حجر: «وينوي به الإتيان بالسنة»، قال ابن قاسم: «وذلك لأن السواك مما يتعبد به»[٣٤].

ألا وصلوا وسلموا على نبيكم كما أمركم بذلك ربكم...

---

(٣٣) انظر في ذلك: بحثاً لطيفاً في مجلة الحكمة (٨/ ٧٩-٨٦) وحاشية د. عبدالمعطي قلعجي على الاستذكار لابن عبدالبر (٣/ ٢٦٦).

(٣٤) حاشية ابن قاسم على الروض المربع (١/ ١٥٥).

٤١- النداء للصلاة (١)
قصته ومعناه

الجمعة ٢/٦/١٤١٨هـ

الحمد لله، نحمده ونستعينه ونستغفره، ونعوذ بالله من شرور أنفسنا ومن سيئات أعمالنا، من يهده الله فلا مضل له ومن يضلل فلا هادي له، وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له، وأشهد أن محمداً عبده ورسوله ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ حَقَّ تُقَاتِهِ وَلَا تَمُوتُنَّ إِلَّا وَأَنتُم مُّسْلِمُونَ (١٠٢)﴾ [آل عمران] ﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ اتَّقُوا رَبَّكُمُ الَّذِي خَلَقَكُم مِّن نَّفْسٍ وَاحِدَةٍ وَخَلَقَ مِنْهَا زَوْجَهَا وَبَثَّ مِنْهُمَا رِجَالًا كَثِيرًا وَنِسَاءً وَاتَّقُوا اللَّهَ الَّذِي تَسَاءَلُونَ بِهِ وَالْأَرْحَامَ إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلَيْكُمْ رَقِيبًا (١)﴾ [النساء] ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَقُولُوا قَوْلًا سَدِيدًا (٧٠) يُصْلِحْ لَكُمْ أَعْمَالَكُمْ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ وَمَن يُطِعِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ فَقَدْ فَازَ فَوْزًا عَظِيمًا (٧١)﴾ [الأحزاب].

أما بعد: فإن إقامة دين الله تعالى في الأرض، وإعلاءَ ذكره؛ هي المهمة التي كلف بها الإنسان، وسخرت له المخلوقات من أجلها. وما من عبادة من العبادات الكبرى إلا وتتضمن ذكراً كثيراً. فالصلاة بأركانها كلها تحوي ذكراً وتوحيداً؛ إذ ينادى لها بالذكر والتوحيد.. ذلك النداء العظيم الذي يجلجل في الآفاق يعلن الوحدانية لله تعالى في الخلق والتدبير، وفي العبادة والتعظيم. هديت أمة الإسلام لهذا الأذان المبارك وقد ضلت عنه أقوام كان نداؤهم لعباداتهم بالنواقيس والأجراس، أو بالأبواق أو بالنار.

كان مبتدأ الأذان أن قال النبي صلى الله عليه وسلم: «**لقد أعجبني أن تكون صلاة المسلمين - أو قال: المؤمنين - واحدة؛ حتى لقد هممت أن أبث رجالاً في الدور ينادون الناس بحين الصلاة، وحتى هممت أن آمر رجالاً يقومون على الآطام ينادون المسلمين بحين الصلاة حتى نقسوا أو كادوا ينقسوا...**» أخرجه أبو داود(١). وفي رواية أخرى فقالوا: لو اتخذنا ناقوساً، «فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم: «**ذاك للنصارى**»، فقالوا: لو اتخذنا بوقاً، فقال: «**ذاك لليهود**»، فقالوا: لو رفعنا ناراً، فقال: «**ذاك للمجوس**»(٢).

وفي حديث آخر قال عبدالله بن زيد: «لما أمر رسول الله صلى الله عليه وسلم بالناقوس يُعمل ليضرب به لجمع الناس للصلاة طاف بي وأنا نائم رجل يحمل ناقوساً في يده فقلت: يا عبدالله، أتبيع الناقوس؟ قال: وما تصنع به؟ فقلت: ندعوا به إلى الصلاة، قال: أفلا أدلك على ما هو خير من ذلك؟ فقلت: بلى، قال: فقال: تقول: الله أكبر الله أكبر... [فذكر الأذان إلى آخره] قال: ثم استأخر عني غير بعيد ثم قال: وتقول إذا أقمت الصلاة [فذكر الإقامة] قال عبدالله: فلما أصبحت أتيت رسول الله صلى الله عليه وسلم فأخبرته بما رأيت، فقال:

---

(١) أخرجه أبوداود في الصلاة باب كيف الأذان (٥٠٦) وصححه الألباني في صحيح أبي داود (٤٧٨).

(٢) ذكره الحافظ من رواية روح بن عطاء عن خالد عند أبي الشيخ، انظر: فتح الباري (٢/ ٩٥).

«إنها لرؤيا حقٍ إن شاء الله، فقم مع بلال فألق عليه ما رأيت فليؤذن به فإنه أندى منك صوتاً». فقمت مع بلال؛ فجعلت ألقيه عليه ويؤذن به، قال: فسمع ذلك عمرُ بنُ الخطاب وهو في بيته؛ فخرج يجر رداءَه ويقول: والذي بعثك بالحق يا رسول الله لقد رأيت مثل ما أُري، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم: **«فلله الحمد»** أخرجه أحمد وأبو داود(٣).

ومن يومها أصبح الأذان شعاراً للإسلام؛ حتى لا تقاتل قرية يسمع فيها صوت الأذان، وتقاتل بلادٌ لا يسمع فيها الأذان. وقد بوب البخاري رحمه الله تعالى لذلك فقال: «باب ما يُحقن بالأذان من الدماء» ثم خرّج حديث أنس بن مالك رضي الله عنه: أن النبي صلى الله عليه وسلم كان إذا غزا بنا قوماً لم يكن يغزو بنا حتى يصبح وينظر؛ فإن سمع أذاناً كفّ عنهم وإن لم يسمع أذاناً أغار عليهم. . . الحديث(٤).

وفي صحيح مسلم قال أنس رضي الله عنه: «كان رسول الله صلى الله عليه وسلم يُغير إذا طلع الفجر، وكان يستمع الأذان؛ فإن سمع أذاناً أمسك وإلا أغار، فسمع رجلاً يقول: الله أكبر الله أكبر، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم: **«على الفطرة»** ثم قال: أشهد أن لا

---

(٣) أخرجه أحمد (٤/٤٣) والدارمي (١/٢٦٨) وأبوداود في الصلاة باب كيف الأذان (٤٩٩) وابن ماجه في الأذان باب بدء الأذان (٧٠٦) وصححه الألباني في صحيح أبي داود (٤٦٩). ويلاحظ أن مابين المعقوفين [] هو من كلامي وليس من الحديث حيث إن الحديث ذكر الأذان والإقامة بتمامهما.

(٤) أخرجه البخاري في الأذان باب مايحقن بالأذان من الدماء (٦١٠).

إله إلا الله، أشهد أن لا إله إلا الله، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم: «**خرجت من النار**» فنظروا فإذا هو راعي مِعْزى»(٥) قال الخطابي رحمه الله تعالى: «فيه أن الأذان شعار الإسلام، وأنه لا يجوز تركه، ولو أن أهل بلد اجتمعوا على تركه كان للسلطان قتالهم عليه» اهـ. (٦)

وبلغ من عناية الإسلام بالأذان أن شُرع حتى للمسافر، ولمن كان في البادية، وللصلاة الفائتة المقضية، فالنبي صلى الله عليه وسلم لما نام عن صلاة الفجر في سفر ولم يستيقظ إلا بعد طلوع الشمس أمر بلالاً أن يؤذن ويقيم. (٧) وعن عبدالله بن عبدالرحمن بن أبي صعصعه أن أبا سعيد الخدري رضي الله عنه قال له: «إني أراك تحب الغنم والبادية فإذا كنت في غنمك وباديتك، فأذنت للصلاة فارفع صوتك بالنداء **فإنه لا يسمع مدى صوتِ المؤذن جن ولا إنسٌ ولا شيءٌ إلا شهد له**

(٥) أخرجه مسلم في الصلاة باب الإمساك عن الإغارة على قوم في دار الكفر إذا سمع فيهم الأذان (٣٨٢).

(٦) فتح الباري لابن حجر (٢/ ١٠٧).

(٧) أخرجه البخاري في التيمم باب الصعيد الطيب (٣٤٤) ومسلم في المساجد باب قضاء الصلاة الفائتة (٦٨٢) من حديث عمران بن حصين رضي الله عنه، قال الحافظ: استدل به على الأذان للفوائت، وتعقب بأن النداء أعم من الأذان فيحتمل أن يراد به هنا الإقامة، انظر: فتح الباري (١/ ٥٣٧) وأصرح منه حديث أبي قتادة عند البخاري ومسلم وفيه قال: «**يا بلال قم فأذن بالناس بالصلاة**» كما في صحيح البخاري كتاب مواقيت الصلاة باب الأذان بعد ذهاب الوقت (٥٩٥) وانظر: الشرح الممتع على زاد المستقنع للشيخ ابن عثيمين رحمه الله تعالى (٢/ ٤١).

يوم القيامة. قال أبو سعيد: سمعته من رسول الله صلى الله عليه وسلم» أخرجه البخاري [٨]. وعن عقبة بن عامر رضي الله عنه قال: سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول: «**يعجبُ ربك من راعي غنم في رأسِ شظية جبلٍ يؤذن بالصلاة ويصلي فيقول الله عزوجل: انظروا إلى عبدي هذا يؤذِّن ويقيم الصلاة، يخاف مني، قد غفرت لعبدي وأدخلته الجنة**» أخرجه أحمد وأبوداود والنسائي [٩].

ولعظيم منزلة الأذان في الإسلام فإن تولِّيَه أفضلُ من إمامة الناس في الصلاة، قال عليه الصلاة والسلام: «**لو يعلم الناس ما في النداء والصف الأول ثم لم يجدوا إلا أن يستهموا عليه لاستهموا، ولو يعلم الناس ما في التهجير لاستبقوا إليه، ولو يعلمون ما في العتمة والصبح لأتوهما ولو حبواً**» متفق عليه [١٠].

وسبحان الله! كم يتبين لك - أيها المسلم - زهدُ أكثر الناس في الخير وأنت تقرأ هذا الحديث؛ فالتأخر عن الصلاة أصبح السمة الغالبة عند المصلين في هذا الزمن، والنومُ عن بعض الصلوات هو العادة المتبعة

(٨) أخرجه البخاري في الأذان باب رفع الصوت بالنداء (٦٠٩) وابن خزيمة في صحيحه (١/ ٢٠٣).

(٩) أخرجه أحمد (٤/ ١٤٥) وأبوداود في الصلاة باب الأذان في السفر (١٢٠٣) والنسائي في الأذان باب الأذان لمن يصلي وحده (٢/ ٢٠) والبيهقي في الكبرى (١/ ٤٠٥).

(١٠) أخرجه البخاري في الأذان باب الاستهام في الأذان (٦١٥) ومسلم في الصلاة باب تسوية الصفوف وإقامتها (٤٣٧) ومالك في الجماعة باب ماجاء في العتمة والصبح (١/ ١٣١) والنسائي في الأذان باب الاستهام على التأذين (٢/ ٣٢).

عند الأكثر. وأما الزهد في الصف الأول وفي القرب من الإمام فتشاهده في كل فريضة؛ حتى إنك لا ترى التسابق على النداء، ولا على الصف الأول؛ بل ربما كان التسابق في بعض الأحيان على الصفوف الخلفية بغية السرعةِ في الخروج من المسجد فور انتهاء الصلاة!! وكأن المسجد أصبح سجناً لهؤلاء المتخلفين عن كثير من الصلوات، وكأن الدنيا والأعمال والأموال ستطير إذا لم يُبادَر إليها عقب الصلاة مباشرة. فما أزهد الناس في الأجر والثواب!!

فالحديث يقول: «**ثم لم يجدوا إلا أن يستهموا عليه لاستهموا**» أي: يجعلون بينهم قرعة على الصف الأول؛ لأنه من المفترض أن يتسابقوا إليه؛ حتى يتنافسوا عليه أيهم يكون فيه أولاً، فتكون القرعة فاصلة بينهم؛ لكن هذا غيرُ واقع. بل الواقع أن الصف الأول لا يخلو من فرج وفراغات إلى أن تقام الصلاة، وإن دل ذلك على شيء فإنما يدل على زهد الناس في الأجر؛ بسبب التكالب على الماديات، والانغماس في الشهوات، وتمكن الدنيا من القلوب. وإلا فما معنى أن يُزهد في الأجر إلى هذا الحد؟!

وإذا رُفع الأذان حرم على من كان في المسجد الخروجُ منه إلا لعذر، قال الترمذي رحمه الله تعالى: «وعلى هذا العملُ من أصحاب النبي صلى الله عليه وسلم ومن بعدهم أن لا يخرج أحد من المسجد بعد الأذان إلا من عذر، أن يكون على غير وضوء أو أمر لا بد منه»[11]. قال

(١١) انظر: سنن الترمذي أبواب الصلاة، باب ماجاء في كراهية الخروج من المسجد بعد الأذان (١/ ٣٩٨).

أبو الشعثاء: «كنا مع أبي هريرة في المسجد فخرج رجل حين أذن المؤذن العصر فقال أبو هريرة: أما هذا فقد عصى أبا القاسم صلى الله عليه وسلم». أخرجه أبو داود والترمذي وقال: حسن صحيح[١٢].

وشياطين الجن والإنس لا يحبون سماع الأذان، وكيف يحبونه وشيطانهم الأكبر يهرب إذا سمعه لما يتضمنه من إعلاء ذكر الله تعالى وتوحيده، روى جابرُ بن عبدالله رضي الله عنهما قال: سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول: **إن الشيطان إذا سمع النداء بالصلاة ذهب حتى يكون مكان الروحاء**» قال سليمان: فسألت عن الروحاء؟ فقال: «هي من المدينة ستة وثلاثون ميلاً» أخرجه مسلم[١٣]، وفي الصحيحين من حديث أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: «**إذا نودي للصلاة أدبر الشيطان وله ضراط حتى لايسمع التأذين**»[١٤].

ويتبع الشيطانَ أقوامٌ فيتلذذون بسماع المعازف والغناء، ويتضجرون

(١٢) أخرجه أبوداود في الصلاة باب الخروج من المسجد بعد الأذان (٥٣٦) واللفظ له، والترمذي في أبواب الصلاة باب ما جاء في كراهية الخروج من المسجد بعد الأذان، وقال: حديث حسن صحيح (٢٠٤).

(١٣) أخرجه مسلم في الصلاة باب فضل الأذان وهرب الشيطان عند سماعه (٣٨٨). والسائل هو الأعمش سليمان بن مهران، والمسؤول هو: أبو سفيان طلحة بن نافع. انظر: شرح النووي (٤/ ١٢١).

(١٤) أخرجه البخاري في الأذان باب فضل التأذين (٦٠٨) ومسلم في الصلاة باب فضل الأذان وهرب الشيطان عند سماعه (٣٨٩).

من الأذان والقرآن، وما ذاك إلا لأن الشيطان استحوذ على قلوبهم، وتمكن من نفوسهم، ولا يجتمع ذكرُ الرحمن وذكرُ الشيطان في قلب واحد.

ويزيد الأمر سوءًا على سوئه الاستهـزاءُ بالأذان وهو من شعائر الإسلام، وتلك طريقة من انغمسوا في النفاق.

ومما يخشى على إيمان العبد منه أن يكون منهمكاً أمام الشاشة أو عند الأثير، يتابع ما لا ينفع ولا يفيد؛ بل ما يضر في الدين والأخلاق، فإذا حان الأذان، وانقطع ما كان يشاهده غضب غضبة أنتجت ألفاظاً ربما أخرجته من الإسلام، وجعلته في عداد المنافقين وهو لا يدري. وتلك كارثة تحل بالبعض وهم لايشعرون، ونعوذ بالله من زيغ القلوب، وفساد النفوس، واتباع الشيطان، واستحكام الهوى. أعوذ بالله مـن الشيطان الرجيم ﴿ **وَإِذَا نَادَيْتُمْ إِلَى الصَّلَاةِ اتَّخَذُوهَا هُزُوًا وَلَعِبًا ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ قَوْمٌ لَا يَعْقِلُونَ** (٥٨) ﴾ [المائدة] بارك الله لي ولكم في القرآن العظيم...

الخطبة الثانية

الحمدلله، حمداً طيباً كثيراً مباركـاً فيه كما يحب ربنا ويرضى، أحمده وأشكره وأتوب إليه وأستغفره، وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لاشريك له، وأشهد أن محمداً عبده ورسوله صلى الله وسلم وبارك عليه وعلى آله وأصحابه والتابعين لهم بإحسان إلى يوم الدين.

أما بعد: فيا عباد الله، اتقوا الله كما أمر، واجتنبوا الفواحش ما بطن منها وما ظهر ﴿ **وَإِن تُؤْمِنُوا وَتَتَّقُوا فَلَكُمْ أَجْرٌ عَظِيمٌ** (١٧٩) ﴾ [آل عمران].

أيها الإخوة المؤمنون: من استعرض ألفاظ الأذان وجد أنه يفتتح

بالتكبير، ويختتم بالتهليل، ويتضمن الشهادتين، والدعوة إلى الصلاة والفلاح. وإنما افتتح بالتكبير لأن التكبير يشرع فيما علا من الأمور؛ فيشرع في الأعياد والحج والجهاد، وقد قال النبي صلى الله عليه وسلم لما أشرف على خيبر: «**الله أكبر خربت خيبر**» ويشرع التكبير إذا علا نشزاً من الأرض، وإذا صعد الصفا والمروة.

قال شيخ الإسلام ابن تيمية رحمه الله تعالى: «وجاء التكبير مكرراً في الأذان في أوله وفي آخره، والأذان هو الذكر الرفيع... إلى أن قال: فالتكبير شرع أيضاً لدفع العدو من شياطين الإنس والجن... وهذا كله يبين أن التكبير مشروع في المواضع الكبار؛ لكثرة الجمع، أو لعظمة الفعل، أو لقوة الحال، أو نحو ذلك من الأمور الكبيرة؛ ليبين أن الله أكبر، وتستولي كبرياؤه في القلوب على كبرياء تلك الأمور الكبار فيكون الدين كلُه لله، ويكون العبادُ له مكبرون، فيحصل لهم مقصودان: مقصودُ العبادة بتكبير قلوبهم لله، ومقصودُ الاستعانة بانقياد سائر المطالب لكبريائه... إلى أن قال: فجماع هذا: أن التكبير مشروع عند كل أمر كبير من مكان وزمان، وحال ورجال؛ فتُبَيِّنُ أن الله أكبر لتستولي كبرياؤه في القلوب على كبرياء ماسواه، ويكون له الشرف على كل شرف...» اهـ[١٥]، وقال أيضاً: «ولهذا كان شعائر الصلاة والأذان والأعياد والأماكن العالية هو التكبير» اهـ[١٦].

(١٥) مجموع فتاوى شيخ الإسلام ابن تيمية (٢٤/ ٢٢٨-٢٢٩).
(١٦) مجموع فتاوى شيخ الإسلام ابن تيمية (١٦/ ١١٢).

أيها الإخوة: ومن عجيب ما يذكر في هذا الشأن ما أثبتته بعض الدراسات الحديثة من أن الأذان لا ينفك عن الأرض، وأن ذكر الله لا تخلو منه الأرض لحظة من ليل أو نهار، فما ينتهي الأذان في بلد إلا ويحين في بلد آخر. وما يخرج وقت الصلاة في قطر إلا ويدخل في قطر آخر، وهكذا طوال اليوم والليلة يدور الأذان في الأرض على سائر البلدان والأقطار والأمصار، وفي كل مصر منها مسلمون يعلنون النداء. وهذا من عظيم قدرة الله تعالى، وبديع خلقه سبحانه.

(الله أكبر): تهتز لها قلوب الخاشعين، وتقشعر منها جلود المخبتين، وتذل عندها كبرياء المتكبرين؛ فالله تعالى أكبر من كل كبير، وأكبر من كل شيء، لا يعجزه شيء في الأرض ولا في السماء ﴿**إِنَّمَا أَمْرُهُ إِذَا أَرَادَ شَيْئًا أَن يَقُولَ لَهُ كُن فَيَكُونُ** ﴿٨٢﴾﴾ [يس].

(أشهد أن لا إله إلا الله، أشهد أن محمداً رسول الله): هاتان الشهادتان اللتان يدخل الكافر الإسلام بهما، من قالهما صدقاً من قلبه مع أداء حقهما ومات على ذلك حرمت عليه النار، ووجبت له الجنة.

(حي على الصلاة، حي على الفلاح): دعوة إلى ما يقرب من الله تعالى، ويقوي الصلة به، ويرفع الحجب بينه وبين عباده، والعبد يناجي ربه مادام في صلاته؛ لذا كانت راحةُ النبي صلى الله عليه وسلم وقرة عينه في الصلاة.

(لا إله إلا الله): ختمٌ للأذان بتوحيد الله تعالى، فلا معبود حقٌ إلا الله تعالى.

أيها الإخوة: هذا هو الأذان، وهذه بعض أحكامه ومعانيه. والنصوص في فضله وأجره لايتسع المقام لذكرها، فاتقوا الله ربكم، وتفقهوا في دينكم، وعظموا الله تعالى، وعظموا ما عظمه الله ورسوله، ثم صلوا وسلموا على محمد بن عبدالله كما أمركم بذلك ربكم. . .

* * *

٤٢- النداء للصلاة (٢) فضله وأحكامه

الجمعة ٢٦/ ٣/ ١٤٢٠هـ

الحمد لله، نحمده ونستعينه ونستغفره، ونعوذ بالله من شرور أنفسنا ومن سيئات أعمالنا، من يهده الله فلا مضل له، ومن يضلل فلا هادي له، وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له، وأشهد أن محمداً عبده ورسوله.. ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ حَقَّ تُقَاتِهِ وَلَا تَمُوتُنَّ إِلَّا وَأَنتُم مُّسْلِمُونَ﴾ [آل عمران: ١٠٢]، ﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ اتَّقُوا رَبَّكُمُ الَّذِي خَلَقَكُم مِّن نَّفْسٍ وَاحِدَةٍ وَخَلَقَ مِنْهَا زَوْجَهَا وَبَثَّ مِنْهُمَا رِجَالًا كَثِيرًا وَنِسَاءً وَاتَّقُوا اللَّهَ الَّذِي تَسَاءَلُونَ بِهِ وَالْأَرْحَامَ إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلَيْكُمْ رَقِيبًا﴾ [النساء: ١]، ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَقُولُوا قَوْلًا سَدِيدًا (٧٠) يُصْلِحْ لَكُمْ أَعْمَالَكُمْ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ وَمَن يُطِعِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ فَقَدْ فَازَ فَوْزًا عَظِيمًا﴾ [الأحزاب: ٧٠، ٧١].

أما بعد: فإن توحيد الله تعالى وعبادته هي الغاية التي من أجلها خلق الخلق، وأرسل الرسل، وأنزلت الكتب، وأقيمت الحجة، وبسبب الالتزام بذلك أو عدمه انقسمت الخليقة إلى فريقين: فريقٍ في الجنة، وفريقٍ في السعير.

والعبد المؤمن الصادق في إيمانه، المخلص في عبادته، يلازم التوحيد حتى الممات؛ إذ كل عبادة يؤديها فهي توحيد ما دامت لله عز وجل.

وفي كل يوم وليلة يسمع المسلم نداء التوحيد المتمثل في الإعلام

بدخول وقت الصلاة. هذا الأذان الذي فيه من تكبير الله تعالى وتعظيمه وتهليله ما جعله من أجلِّ العبادات وأفضلها، قال القرطبي رحمه الله تعالى: «واعلم أن الأذان على قلة ألفاظه مشتملٌ على مسائل العقيدة؛ وذلك أنه عليه الصلاة والسلام بدأ بالأكبرية، وهي تتضمن وجود الله تعالى ووجوبه وكماله، ثم ثنى بالتوحيد، ثم ثلث برسالة رسوله، ثم ناداهم لما أراد من طاعته، ثم ضمّن ذلك بالفلاح، وهو البقاء الدائم فأشعر بأن ثمَّ جزاء، ثم أعاد ما أعاد توكيداً». اهـ[1].

ولذا عظم ثواب المؤذنين عند الله تعالى، وجاءت الأحاديث والآثار الكثيرة في فضل وظيفتهم، وأنها من أعظم الوظائف، ﴿وَمَنْ أَحْسَنُ قَوْلاً مِّمَّن دَعَا إِلَى اللَّهِ وَعَمِلَ صَالِحًا وَقَالَ إِنَّنِي مِنَ الْمُسْلِمِينَ﴾ [فصلت: ٣٣]. قالت عائشة رضي الله عنها: «هو المؤذن إذا قال: حي على الصلاة فقد دعا إلى الله»[2]، وقال ابن عمر وعكرمة: «إنها نزلت في المؤذنين»[3].

وفي صحيح مسلم من حديث معاوية رضي الله عنه قال: سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول: «**المؤذنون أطول الناس أعناقاً يوم القيامة**»[4]، قال النضر بن شميل: «إذا ألجم الناسَ العرقُ طالت

---

(١) المفهم لما أشكل من تلخيص مسلم (٢/ ١٤).

(٢) تفسير ابن كثير (٤/ ١٥١)، والدر المنثور (٥/ ٦٨٤) عند تفسير الآية (٣٣) من سورة فصلت.

(٣) تفسير ابن كثير (٤/ ١٥١).

(٤) أخرجه مسلم في الصلاة باب فضل الأذان وهرب الشيطان عند سماعه (٣٨٧).

أعناقهم لئلا يغشاهم ذلك الكرب، وقيل: هم رؤساء الناس في الموقف؛ لأن العرب تصف السادة بطول الأعناق»[٥].

ويأتي المؤذن يوم القيامة ومعه شهاداتٌ من كل مَن سمع أذانه، قال أبو سعيد الخدري لعبد الرحمن بن أبي صعصعه: «إني أراك تحب الغنم والبادية، فإذا كنت في غنمك أو باديتك فأذنت للصلاة فارفع صوتك بالنداء **فإنه لا يسمع مدى صوت المؤذن جن ولا إنس ولا شيء إلا شهد له يوم القيامة**، قال أبو سعيد: سمعته من رسول الله صلى الله عليه وسلم» أخرجه البخاري، وفي رواية لابن خزيمة: «**لا يسمع صوته شجر ولا مَدَر ولا حجر ولا جن ولا إنس إلا شهد له**»[٦].

وهو مع هذا الفضل العظيم وهذه الشهادات المتعددة يُغفر له مع كل أذان يؤذنه كما خرّج الإمام أحمد بإسناد صحيح من حديث ابن عمر رضي الله عنهما قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: «**يُغفر للمؤذن أذانه ويستغفر له كل رطب ويابس**»[٧]، وفي حديث آخر قال

(٥) المفهم لما أشكل من تلخيص مسلم (٢/ ١٥)، وانظر: شرح النووي على مسلم (٤/ ١٢١).

(٦) أخرجه البخاري في الأذان باب رفع الصوت بالنداء (٦٠٩)، وابن خزيمة في صحيحه (١/ ٢٠٣).

(٧) أخرجه أحمد (٢/ ١٣٦)، والبزار كما في كشف الأستار (٣٥٥) وعزاه الهيثمي للطبراني في الكبير وقال: ورجاله رجال الصحيح (١/ ٢٣٥)، وصححه المنذري في الترغيب والترهيب (١/ ٢٤٢) برقم (٣٥٩) والشيخ أحمد شاكر في شرح المسند (٦٢٠١).

عليه الصلاة والسلام: «**المؤذن يُغفر له مدى صوته، ويصدقه كل رطب ويابس**»[٨].

قال الخطابي رحمه الله تعالى: «مدى الشيء: غايته، والمعنى أنه يستكمل مغفرة الله إذا استوفى وسعه في رفع الصوت فيبلغ الغاية من المغفرة إذا بلغ الغاية من الصوت».. وقال: «وفيه وجه آخر: وهو أنه كلام تمثيل وتشبيه، يريد أن الكلام الذي ينتهي إليه الصوت لو يُقدر أن يكون ما بين أقصاه وبين مقامه الذي هو فيه ذنوبٌ تملأ تلك المسافة غفرها الله» اهـ[٩].

ولشرف وظيفة التأذين كان القائمون بها، المحافظون عليها، المحتسبون لأجلها، خيار الناس وأفاضلهم كما قال عليه الصلاة والسلام: «**إن خيار عباد الله الذي يراعون الشمس والقمر والنجوم لذكر الله تعالى**» أخرجه الحاكم وصححه ووافقه الذهبي[١٠].

---

(٨) أخرجه أحمد واللفظ له (٢/ ٤١١).

(٩) الترغيب والترهيب (١/ ٢٤٣).

(١٠) أخرجه الحاكم وصححه ووافقه الذهبي (١/ ٥١) والبيهقي في السنن الكبرى (١/ ٣٧٩)، وعزاه الهيثمي للطبراني في الكبير وللبزار من حديث عبد الله بن أوفى، انظر: مجمع الزوائد (١/ ٣٢٧) وعزاه الحافظ ابن حجر والبوصيري لعبد بن حميد من حديث أبي هريرة، وانظر: المطالب العالية (٢٣١)، ومختصر اتحاف السادة المهرة بزوائد المسانيد العشرة (٩٩٣) وهو في السنن الكبرى للبيهقي موقوفاً على أبي الدرداء وعلى أبي هريرة (١/ ٣٧٩)، وفي الزهد لابن المبارك (٤٦٠).

لأجل ما تقدم، ولأجل غيره مما لم يذكر؛ كان حق الأذان أن يتزاحم الناس على وظيفته، ويتنافسوا على منزلته، ويتسابقوا لتأديته؛ رجاء ثوابه وفضله. ولكن حال دون ذلك جهل الناس بفضله، أو اشتغالهم عنه بما هو دونه.

ولا يلتزم التأذين، ويحافظ عليه، ويخلص لله تعالى فيه، إلا من وفقه الله تعالى لأشرف الوظائف، وأعلى المنازل؛ إذ إن هذه العبادة العظيمة سبب لعبادات أخرى تدانيها في الفضل والأجر؛ فمن تولى ولاية الأذان وحافظ عليها كان حرياً أن يكون قلبه معلقاً بالمساجد؛ لأنه يتحرى أوقات الأذان كما يتحرى الناس أوقات الدوام. وثواب تعلق القلب بالمساجد: الاستظلال بظل الرحمن يوم لا ظل إلا ظله[١١].

والمؤذن أول المصلين قدوماً إلى المسجد، والتبكير إلى الصلوات فيه من الأجر ما لا يخفى، ويتأتى للمؤذن إحسان الوضوء، والمحافظة على أذكاره، وأذكار الخروج من المنزل، وأذكار دخول المسجد، وأذكار الأذان، والمشي إلى المسجد بسكينة، ما قد لا يتأتى لغيره، وكل هذه عبادات وقربات لها أجرها وثوابها.

وإذا انتهى من الأذان، وقال ما بعده من أذكار، صلى ما كتب له، ودعا وقرأ ما تيسر من القرآن، وتلك عبادات أخرى. فإذا حضرت

---

(١١) كما في حديث أبي هريرة رضي الله عنه عند أحمد (٢/ ٤٣٩)، والبخاري في الأذان باب من جلس في المسجد ينتظر الصلاة وفضل المساجد (٦٦٠)، ومسلم في الزكاة باب فضل إخفاء الصدقة (١٠٣١)، والترمذي في الزهد باب ما جاء في الحب في الله (٢٣٩١).

الإقامة وأقام الصلاة كان ما قام به من عبادات سابقة مهيئاً لأداء الفريضة على أكمل وجه، ومعيناً له على الخشوع والتدبر؛ لأن ما تقدم من عبادات سببٌ لطرد الشيطان ووساوسه. علاوة على أن الأذان والإقامة من أعظم أسباب الخشوع وطرد الوساس والخطرات. وفي هذا يقول ابن الجوزي رحمه الله تعالى: «على الأذان هيبةٌ يشتدُ انزعاج الشيطان بسببها؛ لأنه لا يكاد يقع في الأذان رياءٌ ولا غفلةٌ عند النطق به. بخلاف الصلاة فإن النفس تحضر فيها فيفتح لها الشيطانُ أبوابَ الوسوسة»(١٢)، وترجم على هذا المعنى أبو عوانة فقال: «الدليل على أن المؤذن في أذانه وإقامته إلى أن يفرغ منفيٌ عنه الوسوسة والرياء لتباعد الشيطان منه»(١٣)، وقد صح عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال: «**إذا نودي للصلاة أدبر الشيطان وله ضراطٌ حتى لا يسمع التأذين**» متفق عليه(١٤)؛ ولأجل هذا نُهي المسلم عن الخروج من المسجد بعد الأذان(١٥). قال ابن بطال: «وهو يشبه أن يكون الزجر عن خروج المرء

(١٢) فتح الباري لابن حجر (٢/ ١٠٤).

(١٣) مسند أبي عوانة، كتاب الصلاة باب الترغيب في الآذان (١/ ٢٧٧).

(١٤) أخرجه البخاري في الأذان باب الاستهام في الأذان (٦١٥)، ومسلم في الصلاة باب تسوية الصفوف وإقامتها (٤٣٧)، والنسائي في الأذان باب الاستهام على التأذين (٢/ ٣٢).

(١٥) كما في حديث أبي الشعثاء قال: كنا مع أبي هريرة في المسجد فخرج رجل حين أذن الموذن العصر فقال أبو هريرة: «أما هذا فقد عصى أبا القاسم صلى الله عليه وسلم» أخرجه أبو داود في الصلاة باب الخروج من المسجد بعد الأذان (٥٣٦)، واللفظ له والترمذي في أبواب الصلاة، وقال: حسن صحيح (٢٠٤).

من المسجد بعد أن يؤذن المؤذن من هذا المعنى؛ لئلا يكون متشبهاً بالشيطان الذي يفر عند سماع الأذان»[١٦].

إن ما سبق يدل على عظيم أجر هذه الشعيرة العظيمة التي جهل فضلها وثوابها كثير من الناس، وفي هذا يقول النبي صلى الله عليه وسلم «**لو يعلم الناس ما في النداء والصف الأول ثم لم يجدوا إلا أن يستهموا عليه لاستهموا**» متفق عليه[١٧]. وصح عن عمر ابن الخطاب رضي الله عنه أنه قال: «لو أطيق الأذان مع الخلافة لأذنت»[١٨]، وجاء عن سعد بن أبي وقاص رضي الله عنه أنه قال: «سهام المؤذنين عند الله تعالى يوم القيامة كسهام المجاهدين، وهو بين الأذان والإقامة كالمتشحطِ في سبيل الله تعالى في دمه»[١٩]، وقال ابن مسعود رضي الله عنه: «لو كنت مؤذناً ما باليت أن لا أحج ولا أعتمر ولا أجاهد»[٢٠].

أيها الإخوة: بان بهذه النصوص والآثار عظيم منزلة هذه الشعيرة العظيمة التي يوفق الله تعالى لها من شاء من عباده وذلك فضل الله يؤتيه من يشاء والله ذو الفضل العظيم.

بارك الله لي ولكم في القرآن العظيم،،،

---

(١٦) فتح الباري (٢/ ١٠٤).

(١٧) أخرجه البخاري في الأذان باب الاستهام في الأذان (٦١٥) ومسلم في الصلاة باب تسوية الصفوف وإقامتها (٤٣٧) من حديث أبي هريرة رضي الله عنه.

(١٨) أخرجه سعيد بن منصور وصححه الحافظ في الفتح (٢/ ١٠١).

(١٩) تفسير ابن كثير (٤/ ١٥١).

(٢٠) تفسير ابن كثير (٤/ ١٥١).

الخطبة الثانية

الحمد لله حمداً طيباً كثيراً مباركاً فيه كما يحب ربنا ويرضى، أحمده وأشكره، وأتوب إليه وأستغفره، وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له، وأشهد أن محمداً عبده ورسوله صلى الله وسلم وبارك عليه وعلى آله وأصحابه ومن اهتدى بهداهم إلى يوم الدين.

أما بعد: فإن فضل الأذان، وفضل الأذكار عقبه لم يكن مقصوراً على المؤذن وحده؛ بل لمن سمع المؤذن أن يقول مثلَ ما يقول، فمن فعل ذلك بإخلاص دخل الجنة كما صح عن رسول الله صلى الله عليه وسلم[(٢١)].

ومتابعة المؤذن في وقت الأذان أولى من قراءة القرآن، ومن الدعاء وسائر الذكر، قال شيخ الإسلام ابن تيمية رحمه الله تعالى: «إذا كان خارج الصلاة في قراءة أو ذكر أو دعاءٍ فإنه يقطع ذلك ويقول مثلَ ما يقول المؤذن؛ لأن موافقة المؤذن عبادة مؤقتة يفوت وقتها وهذه الأذكار لا تفوت» اهـ[(٢٢)].

والسنة أن يتابع المؤذن في كل ما يقول إلا في الحيعلتين فيقول: لا حول ولا قوة إلا بالله، قال الطيبي: «معنى الحيعلتين: هلمَّ بوجهك وسريرتك إلى الهدى عاجلاً، والفوز بالنعيم آجلاً، فيناسب أن يقول:

---

(٢١) كما في حديث عمر بن الخطاب رضي الله عنه عند مسلم في الصلاة باب استحباب القول مثل قول المؤذن لمن سمعه (٣٨٥).

(٢٢) مجموع فتاوى شيخ الإسلام (٢٢/ ٧٢).

هذا أمرٌ عظيم لا أستطيع مع ضعفي القيام به إلا إذا وفقني الله بحوله وقوته»[٢٣].

وإذا قال المؤذن في أذان الفجر (الصلاة خير من النوم) قال مثل ما يقول لعموم قول النبي صلى الله عليه وسلم: **«إذا سمعتم المؤذن فقولوا مثل ما يقول»**[٢٤].

وإذا ذكر المؤذن الشهادتين قال: **«وأنا أشهد أن لا إله إلا الله، وأن محمداً رسول الله، رضيت بالله رباً وبالإسلام ديناً وبمحمد صلى الله عليه وسلم رسولاً»** أو يقول ذلك عقب انتهاء المؤذن، فمن قال ذلك غفر له ما تقدم من ذنبه كما صح ذلك عن رسول الله صلى الله عليه وسلم[٢٥].

وبعد الفراغ من إجابة المؤذن يصلى على النبي صلى الله عليه وسلم وأفضل الصلاة عليه الصلاة الإبراهيمية[٢٦].

---

(٢٣) فتح الباري (٢/ ١٠٩).

(٢٤) كما في حديث أبي سعيد عند البخاري في الأذان باب ما يقول إذا سمع المنادي (٦١١)، ومسلم في الصلاة باب استحباب القول مثل قول المؤذن (٣٨٣)، وانظر: الشرح الممتع على زاد المستقنع للشيخ العثيمين (٢/ ٨٤).

(٢٥) كما في حديث سعد بن أبي وقاص رضي الله عنه عند مسلم في الأذان باب استحباب القول مثل قول الموذن لمن سمعه (٣٨٦)، والترمذي في أبواب الصلاة (٢١٠)، وأبي داود في الصلاة (٥٢٥)، والنسائي في الدعاء عند الأذان (٢/ ٢٦).

(٢٦) كما في حديث عبد الله بن عمرو رضي الله عنهما عند مسلم في الصلاة باب استحباب القول مثل ما يقول المؤذن (٢٨٤)، وانظر: زاد المعاد (٢/ ٣٩٢)، والصلاة الإبراهيمية هي: (اللهم صل على محمد وعلى آل محمد كما صليت... إلخ).

ثم يقول عقب ذلك: «**اللهم رب هذه الدعوة التامة، والصلاة القائمة، آت محمداً الوسيلة والفضيلة وابعثه مقاماً محموداً الذي وعدته**»[٢٧]، وفي رواية صححها بعض المحققين «**إنك لا تخلف الميعاد**»[٢٨]، فمن قال هذا الدعاء حلّت له شفاعة النبي صلى الله عليه وسلم كما صح ذلك عنه عليه الصلاة والسلام، ثم يدعو بعد ذلك بما شاء؛ لأن ذلك من مواطن إجابة الدعاء، فقد روى عبد الله بن عمرو رضي الله عنهما أن رجلاً قال: يا رسول الله، إن المؤذنين يفضلوننا فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم: «**قل كما يقولون فإذا انتهيت فسل تعطه**» أخرجه أبو داود والنسائي بإسناد حسن[٢٩].

فاتقوا الله أيها المؤمنون، وتفقهوا في دينكم، وعظموا شعائر الله؛ فإن تعظيمها من تقوى القلوب، وسابقوا إلى الخيرات، وتنافسوا فيما يقرب إلى الله تعالى؛ فإنه لا فوز إلا فوزُ الآخرة، ولا عيش إلا عيشها.

وصلوا وسلموا على محمد بن عبدالله كما أمركم بذلك ربكم.

---

(٢٧) كما في حديث جابر بن عبد الله رضي الله عنهما عند البخاري في الأذان باب الدعاء عند النداء (٦١٤)، وأخرجه أهل السنن.

(٢٨) هذه الزيادة جاءت في رواية البيهقي في السنن الكبرى (١/ ٤١٠) وضعفها بعضهم واعتبروها شاذة، وصححها الشيخ عبد العزيز بن باز رحمه الله تعالى، وانظر: الشرح الممتع (٢/ ٨٣).

(٢٩) أخرجه أبو داود في الأذان باب ما يقول إذا سمع المؤذن (٥٢٤)، وصححه ابن حبان (١٦٩٥)، وحسنه الحافظ في الفتح.

٤٣- الحث على الاستسقاء

الجمعة ٨/ ٨/ ١٤١٩هـ

إن الحمد لله نحمده ونستعينه ونستغفره، ونعوذ بالله من شرور أنفسنا، ومن سيئات أعمالنا، من يهده الله فلا مضل له، ومن يضلل فلا هادي له، وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له، وأشهد أن محمداً عبده ورسوله، ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ حَقَّ تُقَاتِهِ وَلا تَمُوتُنَّ إِلاَّ وَأَنتُم مُّسْلِمُونَ (١٠٢)﴾ [آل عمران] ﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ اتَّقُوا رَبَّكُمُ الَّذِي خَلَقَكُم مِّن نَّفْسٍ وَاحِدَةٍ وَخَلَقَ مِنْهَا زَوْجَهَا وَبَثَّ مِنْهُمَا رِجَالاً كَثِيرًا وَنِسَاءً وَاتَّقُوا اللَّهَ الَّذِي تَسَاءَلُونَ بِهِ وَالأَرْحَامَ إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلَيْكُمْ رَقِيبًا (١)﴾ [النساء] ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَقُولُوا قَوْلاً سَدِيدًا (٧٠) يُصْلِحْ لَكُمْ أَعْمَالَكُمْ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ وَمَن يُطِعِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ فَقَدْ فَازَ فَوْزًا عَظِيمًا (٧١)﴾ [الأحزاب].

أما بعد: فإن أصدق الحديث كلام الله تعالى، وخيرَ الهدي هدي محمد صلى الله عليه وسلم، وشر الأمور محدثاتها، وكل بدعة ضلالة، وكل ضلالة في النار.

أيها الإخوة المؤمنون: يزهدُ الناس في الخير إذا تعلقوا بالدنيا وزخرفها، وضعفَ يقينهم بالآخرة ونعيمها؛ حتى تُفتحَ أبوابُ الخير فتبصرَ قلة الداخلين، وتظهر طرقُ الآخرة فتحسَ ضعف السالكين، وإذا ما انفتح بابٌ من أبواب الدنيا رأيت كثرة المتنافسين، وأبصرت شدة المتزاحمين.

وما صلاة الاستسقاء إلا باب من أبواب الخير مفتوح، وطريقٌ

للذكر والاستغفار والذل والخضوع. والله تعالى يُعِزُ من ذلَّ له، ويعطي من سأله، ويحب الخاشعين الذاكرين المستغفرين؛ ولكنك لا ترى منهم إلا قليلاً.. يُعلن عن صلاة الاستسقاء فلا يتوافد إليها إلا أفرادٌ لا يكادون يملؤون أرباع أو أثلاث مساجدها ومصلياتها على رغم قلتها، حتى يظن من أقبل على المصلى أو المسجد أن لا استسقاء فيه من قلة الحاضرين.

أرأيتم لو كان في وقتها أموالٌ توزع، أو أراض توهب، أو دنيا تقسم، أيكون العددُ فيها كالعدد في الاستسقاء؟!

لا أظن ذلك؛ ولو أقسم المقسم أن أنفساً تهلك من الزحام خشية أن يفوتها ذلك العَرَض من الدنيا لما رأيته يحنث في قَسَمه. وإذا كان أكثرُ الناس قد فرطوا في الواجبات؛ فكيف سيحافظون على المندوبات؟!

إنه ما نزل بلاءٌ إلا بذنب، ولا رفع إلا بتوبة. وإن من أعظم الذنب أن يتكبر الخلق على خالقهم، ويتقاعسوا عن مواطن الذل له، والانطراح بين يديه، ورفعِ الحاجات إليه؛ حتى ظنَّ الظانون منهم أنهم ليسوا محتاجين إليه، وأنهم في غنى عن رحمته وفضله. فالماء يأتيهم في دورهم، والخيرات من كل بلاد الأرض تمتلئ بها بلادهم، ولا ينقصهم شيء فلِمَ يستسقون؟ وماذا يسألون؟

إن هذا الأمن هو البلاء، وتلك الغفلة هي المصيبة؛ ذلك أن القحط قد يكون نوعاً من العذاب، قال البخاري رحمه الله تعالى: «باب انتقام

الرب عزوجل من خلقه بالقحط إذا انتهكت محارم الله»(١).

وروى عبدالله بن مسعود رضي الله عنه قال: «إن قريشاً أبطؤوا عن الإسلام فدعا عليهم النبي صلى الله عليهم. فأخذتهم سنة حتى هلكوا فيها، وأكلوا الميتة والعظام، وفي رواية: فقال: «**اللهم أعني عليهم بسبع كسبع يوسف، فأصابتهم سنة حصَّت كل شيء حتى كانوا يأكلون الميتة وكان يقوم أحدُهم فكان يرى بينه وبين السماء مثلَ الدخان من الجهد والجوع**»(٢)، فجاءه أبو سفيان فقال: يا محمد، جئت تأمرُ بصلة الرحم، وإن قومك هلكوا، فادع الله فقرأ ﴿**فَارْتَقِبْ يَوْمَ تَأْتِي السَّمَاءُ بِدُخَانٍ مُّبِينٍ** ﴿١٠﴾﴾ [الدخان] ثم عادوا إلى كفرهم فذلك قوله تعالى ﴿**يَوْمَ نَبْطِشُ الْبَطْشَةَ الْكُبْرَىٰ**﴾ [الدخان: ١٦] - يوم بدر - قال: فدعا رسول الله صلى الله عليه وسلم فسقوا الغيث، فأطبقت عليهم سبعاً، وشكا الناس كثرة المطر فقال: «**اللهم حوالينا ولا علينا فانحدرت السحابة عن رأسه، فَسُقُوا الناسُ حولَهم**» متفق عليه(٣).

هذا رسول الله صلى الله عليه وسلم. ذنبه مغفور، وسعيه مشكور، ودعاؤه مسموع، ومع ذلك لم يأمن مكر الله. إن هاجت الريح ظل

---

(١) وذلك في كتاب الاستسقاء من صحيحه، انظره مع الفتح (٢/ ٥٨١).

(٢) هذه الرواية أخرجها البخاري في التفسير باب ﴿ أنى لهم الذكرى وقد جاءهم رسول مبين﴾ (٤٨٢٣).

(٣) أخرجه البخاري في الاستسقاء باب إذا استشفع المشركون بالمسلمين عند القحط (١٠٢٠) ومسلم في صفات المنافقين باب الدخان ((٢٧٩٨) والترمذي في التفسير باب ومن سورة الدخان (٣٢٥١)

يدخل ويخرج، ويقبل ويدبر؛ خوفاً من عقاب الله؛ حتى يُعرفَ ذلك في وجهه. وإن أبطأ المطر؛ هرع إلى الاستسقاء، واستغاث الله تعالى، فربما صعد المنبر فاستسقى بلا صلاة ولا خطبة[٤]، وثبت عنه صلى الله عليه وسلم أنه استسقى وهو جالس في المسجد رفع يديه فدعا فأمطرت السماء[٥]، واستسقى عند أحجار الزيت من الزوراء وهي خارج المسجد[٦]، واستسقى في بعض غزواته حين عطش المسلمون[٧].

---

(٤) كما في حديث ابن عباس رضي الله عنهما عند ابن ماجه في إقامة الصلاة والسنة فيها باب ما جاء في الدعاء في الاستسقاء (١٢٧٠) قال البوصيري في الزوائد: إسناده صحيح ورجاله ثقات (١/ ٤١٧-٤١٨).

(٥) كما في حديث جابر بن عبدالله رضي الله عنهما عند أبي داود في الصلاة باب رفع اليدين في الاستسقاء (١١٦٩) والبيهقي في الكبرى (٣/ ٣٥٥) والحاكم وصححه ووافقه الذهبي (١/ ٣٢٧).

(٦) كما في حديث عمير مولى أبي اللحم عند أحمد (٥/ ٢٢٣) وأبي داود في الصلاة باب رفع اليدين في الاستسقاء (١١٦٨) والترمذي في أبواب الصلاة باب ما جاء في صلاة الاستسقاء (٥٥٧) والنسائي في الاستسقاء باب رفع الإمام يده في الاستسقاء (٣/ ١٥٩) والحاكم وصححه ووافقه الذهبي (١/ ٣٢٧).

(٧) كما في حديث استسقائه في غزوة تبوك الذي رواه عمر بن الخطاب رضي الله عنه وأخرجه البيهقي في الكبرى (٩/ ٣٥٧) وفي الدلائل (٥/ ٢٣١) وصححه ابن حبان (١٣٧٠) والحاكم وقال: على شرطهما (١/ ١٥٩) وقال ابن كثير في السيرة: إسناده جيد (٤/ ١٦) وعزاه الهيثمي للبزار والطبراني في الأوسط وقال: ورجال البزار ثقات (٦/ ١٩٤-١٩٥) وعزاه الحافظ في مختصر زوائد البزار لابن خزيمة (١٤٠٦).

فبان أنه عليه الصلاة والسلام كان يستسقي كثيراً، وعلى أحوال متعددة. وكثير من الناس لا يستسقي الواحد منهم وحدَه، ولا يدعو الله في خلوته أن يغيث العباد والبلاد؛ بل يظنون أن طلب السقيا لا يكون إلا في خطبة الاستسقاء أو خطبة الجمعة، مع أن دعاءَ العبد وحدَه أكثر إخلاصاً، وأعظمُ أثراً. وإذا كان العبدُ يندب له أن يدعو لإخوانه بظهر الغيب، فدعاؤه بالسقيا دعاءٌ للعباد والبلاد والبهائم.

وإن أعظم صور الاستسقاء التي أثرت عنه صلى الله عليه وسلم خروُجه بالناس إلى المصلى، وصلاتُه بهم، وموعظتهم، والدعاءُ والتضرعُ والانطراحُ بين يدي الله تعالى مع كثرة الاستغفار، وتجديد التوبة.

قالت عائشة رضي الله عنها: «شكا الناس إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم قحوط المطر، فأمر بمنبرٍ فوضعَ له في المصلى، ووعد الناس يوماً يخرجون فيه. قالت عائشة: فخرج رسولُ الله صلى الله عليه وسلم حين بدا حاجب الشمس فقعد على المنبر، فكبّر صلى الله عليه وسلم وحمد الله عزوجل ثم قال: «**إنكم شكوتم جدب دياركم، واستئخار المطرِ عن إبّانِ زمانه عنكم، وقد أمركم الله عزوجل أن تدعوه، ووعدكم أن يستجيب لكم، ثم قال: الحمد لله رب العالمين، الرحمن الرحيم، ملك يوم الدين، لا إله إلا الله يفعل ما يريد، اللهم أنت الله لا إله إلا أنت الغني ونحن الفقراء أنزل علينا الغيث واجعل ما أنزلت لنا قوة وبلاغاً إلى حين، ثم رفع يديه فلم يزل في الرفع حتى بدا بياضُ إبطيه، ثم حول إلى الناس ظهره، وقلب أو حول رداءه وهو رافعٌ يديه، ثم**

أقبل على الناس ونزل فصلى ركعتين. فأنشأ الله سحابة فرعدت وبرقت، ثم أمطرت بإذن الله فلم يأت مسجده حتى سالت السيول، فلما رأى سرعتهم إلى الكِنّ ضحك صلى الله عليه وسلم حتى بدت نواجذه فقال: أشهد أن الله على كل شيءٍ قدير، وأني عبدالله ورسوله» أخرجه أبو داود وصححه الحاكم وابن حبان والنووي (٨).

وكان صلى الله عليه وسلم يستسقي أحياناً في خطبة الجمعة كما روى أنس بن مالك رضي الله عنه قال: «أصابت الناس سَنَةٌ على عهد رسول الله صلى الله عليه وسلم، فبينا رسول الله صلى الله عليه وسلم يخطب على المنبر يوم الجمعة قام أعرابي فقال: يا رسول الله، هلك المال، وجاع العيال، فادع الله لنا أن يسقينا، قال: فرفع رسولُ الله صلى الله عليه وسلم يديه وما في السماء قَزَعَةٌ، قال: فثار سحاب أمثالَ الجبال، ثم لم ينزل عن منبره حتى رأيت المطر يتحادر على لحيته - وفي رواية: «فمطرنا فما كدنا نصل إلى منازلنا» أي من كثرة المطر وفي رواية: «فخرجنا نخوض الماء حتى أتينا منازلنا» - قال: فمطرنا

---

(٨) أخرجه أبو داود في الصلاة باب رفع اليدين في الاستسقاء وقال: هذا حديث غريب إسناده جيد (١١٧٣) وأبو عوانة في مسنده (٢٥١٩) والطحاوي في شرح معاني الآثار (١/ ٣٢٥) وفي شرح المشكل منها (٤٥٠٥) والحاكم وصححه على شرطهما ووافقه الذهبي (١/ ٣٢٨) وصححه ابن حبان (٩٩١) و(٢٨٦٠) والنووي في الأذكار، وأبو علي ابن السكن كما في التلخيص الحبير (١/ ١٤٩).

يومنا ذلك، وفي الغد، ومن بعد الغد والذي يليه، إلى الجمعة الأخرى. فقام ذلك الأعرابيُ أو رجلٌ غيره فقال: يا رسول الله تهدَّم البناء، وغرق المال، فادع الله لنا، فرفع رسول الله صلى الله عليه وسلم يديه وقال: «**اللهم حوالينا ولا علينا**» قال: فما جعل يشير بيده إلى ناحية من السماء إلا تفرَّجت حتى صارت المدينة في مثل الجوبة حتى سال الوادي - وادي قناة - شهراً، قال: فلم يجئْ أحد من ناحية إلا حدث بالجَود» أخرجه الشيخان والروايات للبخاري (٩).

وهكذا سائرُ الأنبياء عليهم الصلاة والسلام، وعبادُ الله الصالحون يستغيثون الله ويستسقونه، ويطلبون رحمته، ويسألونه من فضله، فلا غنى لأحد عن رحمة خالقه كائناً من كان. بل إن البهائمَ فُطِرت على معرفة بارئها وخالقها، فلا تلتجئُ إلا إليه وحده على رغم أنها لم تكلف. عن أبي هريرة رضي الله عنه أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال: «**خرج سليمانُ عليه السلام يستسقي، فرأى نملة مستلقيةً على ظهرها، رافعةً قوائمها إلى السماء تقول: اللهم إنَّا خلق من خلقك، ليس بنا غنىً عن سقياك، فقال: ارجعوا فقد سقيتم بدعوة غيركم**»

---

(٩) أخرجه مالك في الموطأ (١/ ١٩١) والبخاري في مواضع من صحيحه وهذا اللفظ بتمامه في الاستسقاء باب من تمطَّر في المطر حتى يتحادر على لحيته (١٠٣٣) والروايتان للبخاري أيضاً انظر: فتح الباري (٢/ ٥٨٥)، ومسلم في الاستسقاء باب الدعاء في الاستسقاء (٨٩٧) وأبوداود في الصلاة باب رفع اليدين في الاستسقاء (١١٧٤) والنسائي في الاستسقاء باب متى يستسقي الإمام (٣/ ١٥٤).

أخرجه الحاكم وصححه ووافقه الذهبي(١٠).

فالله تعالى إذا رأى من عباده صدق التوجه إليه، والتعلق به رحمهم فسقاهم وأعطاهم، ورفع البلاء عنهم. خزائنه لا تنفد، وخيره لا ينقطع، وعطاؤه لا يُحظر ﴿**وَمَا كَانَ عَطَاءُ رَبِّكَ مَحْظُورًا** ۝٢٠﴾ [الإسراء] ﴿**وَهُوَ الَّذِي يُنَزِّلُ الْغَيْثَ مِنْ بَعْدِ مَا قَنَطُوا وَيَنشُرُ رَحْمَتَهُ وَهُوَ الْوَلِيُّ الْحَمِيدُ** ۝٢٨﴾ [الشورى] بارك الله لي ولكم في القرآن العظيم.

الخطبة الثانية

الحمد لله حمداً طيباً كثيراً مباركاً فيه كما يحب ربنا ويرضى، أحمده وأشكره وأتوب إليه وأستغفره، وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له، وأشهد أن محمداً عبده ورسوله صلى الله وسلم وبارك عليه وعلى آله وأصحابه ومن اهتدى بهداهم إلى يوم الدين.

أما بعد: فإن صلاة الاستسقاء سنةٌ مؤكدة؛ فعلها النبي صلى الله عليه وسلم وخلفاؤه الراشدون كما قال الفقهاء، ونقل الإجماع على ذلك بعضهم(١١).

---

(١٠) أخرجه أحمد في الزهد (٨٧) وابن أبي شيبة في المصنف (١٠/ ٣١٢) وعبدالرزاق (٣/ ٩٥) والطبراني في الدعاء (٩٦٧) والدارقطني في الاستسقاء من سننه (٢/ ٥٣) برقم (١٧٧٩) والطحاوي في شرح مشكل الآثار (٨٧٥) وأبونعيم في الحلية (٣/ ١٠١) والخطيب في تاريخ بغداد (١٢/ ٦٥) والحاكم وصححه ووافقه الذهبي (١/ ٣٢٦).

(١١) انظر: المغنى لابن قدامة (٣/ ٣٣٤) وقد حكى الإجماع على سنيتها ابن عبدالبر فقال: «أجمع العلماء على أن الخروج للاستسقاء والبروز عن المصر والقرية=

وقبل خروج المسلمين إليها فإنه ينبغي أن يزيلوا ما في قلوبهم من أكدار الشحناء والبغضاء فذلك أرجى للإجابة.

وينبغي أن يخرجوا خاشعين متذللين خاضعين لرب العالمين(١٢). تشبه حالتُهم حالة المسكين المحتاج الذي يريد السؤال. ويخرجون بالشيوخ الكبار الذين أفنوا عمراً مديداً في الإسلام فدعوتهم مرجوة، وبالصبيان الصغار لأنهم لا ذنوب عليهم فدعاؤهم قريب من الإجابة. ولا يخرجون بالبهائم لعدم ثبوت ذلك عن النبي صلى الله عليه وسلم(١٣). وأما النساء فلا بأس بخروج العجائز الكبيرات كما ذكر ذلك الفقهاء(١٤). وإن قدّموا صدقة قبل صلاتهم فذلك حسن؛ لأن الصدقة تطفيء غضب الرب، ولأن المطر رحمة من الله، والله تعالى يقول ﴿إِنَّ رَحْمَتَ اللَّهِ قَرِيبٌ مِّنَ الْمُحْسِنِينَ ﴿٥٦﴾﴾ [الأعراف](١٥).

والتوبةُ والاستغفارُ من أعظم أسباب نزول الغيث كما قال نوح عليه السلام: ﴿فَقُلْتُ اسْتَغْفِرُوا رَبَّكُمْ إِنَّهُ كَانَ غَفَّارًا ﴿١٠﴾ يُرْسِلِ السَّمَاءَ عَلَيْكُم مِّدْرَارًا ﴿١١﴾﴾ [نوح] وكما قال هود عليه السلام: ﴿وَيَا قَوْمِ اسْتَغْفِرُوا

= إلى الله عزوجل بالدعاء والضراعة في نزول الغيث عند احتياجه سنة مسنونة سنها رسول الله صلى الله عليه وسلم وعملها الخلفاء من بعده». اهـ من الاستذكار (٧/ ١٣١).

(١٢) انظر: الروض المربع مع حاشية ابن قاسم (٢/ ٥٤٥).

(١٣) قاله ابن قدامة في المغني (٣/ ٣٣٥).

(١٤) انظر: المغني (٣/ ٣٣٥).

(١٥) انظر: الشرح الممتع على زاد المستقنع (٥/ ٢٧٥).

رَبَّكُمْ ثُمَّ تُوبُوا إِلَيْهِ يُرْسِلِ السَّمَاءَ عَلَيْكُم مِّدْرَارًا وَيَزِدْكُمْ قُوَّةً إِلَىٰ قُوَّتِكُمْ ﴾ [هود: ٥٢].

ومن أسباب نزول الغيث: الاستقامة على أمر الله تعالى كما قال سبحانه ﴿ وَأَن لَّوِ اسْتَقَامُوا عَلَى الطَّرِيقَةِ لَأَسْقَيْنَاهُم مَّاءً غَدَقًا (١٦) ﴾ [الجن].

كما أن من أعظم ما يمنع المطر كثرةُ الذنوب والمعاصي، وضعفُ الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر ﴿ وَلَوْ أَنَّ أَهْلَ الْقُرَىٰ آمَنُوا وَاتَّقَوْا لَفَتَحْنَا عَلَيْهِم بَرَكَاتٍ مِّنَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ وَلَٰكِن كَذَّبُوا فَأَخَذْنَاهُم بِمَا كَانُوا يَكْسِبُونَ (٩٦) ﴾ [الأعراف].

وعدم إخراج الزكاة يمنع نزول الغيث كما قال النبي صلى الله عليه وسلم: «**يا معشر المهاجرين: خمس إذا بليتم بهن وأعوذ بالله أن تدركوهن**» وذكر منها «**ولم يمنعوا زكاة أموالهم إلا منعوا القطر من السماء ولولا البهائمُ لم يمطروا**» أخرجه ابن ماجه بسند حسن(١٦).

فإذا استسقوا فلم يمطروا أعادوا الاستسقاء مرة أخرى، وإن مُطروا شكروا الله عزوجل على نعمه، وحمدوه على فضله، ودعوا بالبركة؛ لأن البركة إذا نزعت لم ينفع. ولذا كان عليه الصلاة والسلام إذا رأى

(١٦) أخرجه ابن ماجه في الفتن باب العقوبات من حديث ابن عمر رضي الله عنهما (٤٠١٩) وأبو نعيم في الحلية (٨/ ٣٣٣) والحاكم وصححه ووافقه الذهبي (٤/ ٥٤٠) وقال البوصيري في الزوائد: هذا حديث صالح العمل به (٣/ ٢٤٦) وله شاهد من حديث ابن عباس رضي الله عنهما أخرجه الطبراني في الكبير (١١/ ٤٥) وله شاهد آخر من حديث بريدة مرفوعاً أخرجه البيهقي في الكبرى (٣/ ٣٤٦) والحاكم وصححه وقال: على شرط مسلم ووافقه الذهبي (٢/ ١٢٦).

المطر قال: «**اللهم صيباً نافعاً**» أخرجه البخاري (١٧).

ويسن للعباد أن يصيبوا من ماء المطر، قال أنس رضي الله عنه: أصابنا ونحن مع رسول الله صلى الله عليه وسلم مطر فحسر رسولُ الله صلى الله عليه وسلم ثوبه حتى أصابه من المطر، فقلنا: يا رسول الله، لم صنعت هذا؟ قال: «**لأنه حديثُ عهد بربه تعالى**» أخرجه مسلم (١٨).

والغيث رحمةٌ، فكان وقتُ نزولِه وقت إجابة لمن دعا فيه؛ كما جاء في الحديث «**اطلبوا استجابةَ الدعاء عند التقاءِ الجيوش، وإقامة الصلاة، ونزول الغيث**» مرسل صحيح أخرجه البيهقي وغيره (١٩).

أيها الإخوة: هذا بعض ما يقالُ في هذه السنة العظيمة التي فرط فيها كثيرٌ من الناس كما فرطوا في غيرها من الواجبات والمندوبات نسأل الله تعالى لنا ولهم الهداية والتوفيق والسداد، وصلاحَ القلوبِ والأعمال

---

(١٧) أخرجه أحمد (٦/ ٤١) والبخاري في الاستسقاء باب ما يقال إذا أمطرت (١٠٣٢) والنسائي في الاستسقاء باب القول عند المطر (٣/ ١٣٣) وابن ماجه في الدعاء باب ما يدعو به الرجل إذا رأى السحاب والمطر (٣٨٩٠).

(١٨) أخرجه مسلم في الاستسقاء باب الدعاء في الاستسقاء (٨٩٨) وأبو داود في الأدب باب ما جاء في المطر (٥١٠٠) والبغوي في شرح السنة (١١٧١) والحاكم وصححه على شرط مسلم (٤/ ٢٨٥) وهذا من أوهامه رحمه الله تعالى؛ لأن مسلماً خرّجه في الصحيح.

(١٩) أخرجه الشافعي في الأم (١/ ٢٥٣) والبيهقي في معرفة السنن والآثار (٧٢٣٦) مرسلاً عن مكحول وصححه الألباني في صحيح الجامع (١٠٢٦).

إنه سميع مجيب، ألا وصلوا وسلموا على محمد بن عبدالله كـمـا أمركم بذلك رب العزة والجلال.

❋ ❋ ❋

٤٤- الكسوف والخسوف

٢٤/ ٤/ ١٤٢٠هـ

الحمد لله، نحمده ونستعينه ونستغفره، ونعوذ بالله من شرور أنفسنا ومن سيئات أعمالنا، من يهده الله فلا مضل له، ومن يضلل فلا هادي له، وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له، وأشهد أن محمداً عبده ورسوله..

﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ حَقَّ تُقَاتِهِ وَلا تَمُوتُنَّ إِلاَّ وَأَنتُم مُّسْلِمُونَ ﴾ [آل عمران: ١٠٢]، ﴿ يَا أَيُّهَا النَّاسُ اتَّقُوا رَبَّكُمُ الَّذِي خَلَقَكُم مِّن نَّفْسٍ وَاحِدَةٍ وَخَلَقَ مِنْهَا زَوْجَهَا وَبَثَّ مِنْهُمَا رِجَالاً كَثِيرًا وَنِسَاءً وَاتَّقُوا اللَّهَ الَّذِي تَسَاءَلُونَ بِهِ وَالأَرْحَامَ إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلَيْكُمْ رَقِيبًا ﴾ [النساء: ١]، ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَقُولُوا قَوْلاً سَدِيدًا (٧٠) يُصْلِحْ لَكُمْ أَعْمَالَكُمْ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ وَمَن يُطِعِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ فَقَدْ فَازَ فَوْزًا عَظِيمًا ﴾ [الأحزاب: ٧٠, ٧١].

أما بعد: فإن أحسن الحديث كلام الله تعالى، وخير الهدي هدي محمد صلى الله عليه وسلم، وشر الأمور محدثاتها، وكل محدثة بدعة، وكل بدعة ضلالة، وكل ضلالة في النار.

أيها الناس: خلق الله تعالى النيرين: الشمس والقمر، وسخرهما للعباد، وجعل فيهما من المنافع والمصالح لأهل الأرض ومن عليها ما لا يقدر قدره إلا الله تعالى ﴿ هُوَ الَّذِي جَعَلَ الشَّمْسَ ضِيَاءً وَالْقَمَرَ نُورًا وَقَدَّرَهُ مَنَازِلَ لِتَعْلَمُوا عَدَدَ السِّنِينَ وَالْحِسَابَ مَا خَلَقَ اللَّهُ ذَلِكَ إِلاَّ بِالْحَقِّ يُفَصِّلُ

الآيَاتِ لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ ﴾ [يونس: ٥].

آيتان عظيمتان، وبرهانان كبيران على قدرة الخالق سبحانه، وعلى عظيم إفضاله وإنعامه على عباده ﴿ **وَهُوَ الَّذِي خَلَقَ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ وَالشَّمْسَ وَالْقَمَرَ كُلٌّ فِي فَلَكٍ يَسْبَحُونَ** ﴾ [الأنبياء: ٣٣]، ﴿ **تَبَارَكَ الَّذِي جَعَلَ فِي السَّمَاءِ بُرُوجًا وَجَعَلَ فِيهَا سِرَاجًا وَقَمَرًا مُّنِيرًا** ﴾ [الفرقان: ٦١].

إنهما بأمر الله تعالى وتقديره كانا سبب الليل والنهار، والنور والظلام، وانتظام الحياة، وعمارة الأرض، وفي اختلالهما اختلال الحياة، وفساد النظام. وذلك يكون حين يأذن الله تعالى بانتهاء الحياة الدنيا وبدء الحياة الآخرة، حينها تكور الشمس، ويخسف القمر ﴿ **إِذَا الشَّمْسُ كُوِّرَتْ** ﴾ [التكوير: ١]، وقال سبحانه: ﴿ **وَخَسَفَ الْقَمَرُ ﴿٨﴾ وَجُمِعَ الشَّمْسُ وَالْقَمَرُ** ﴾ [القيامة: ٨-٩].

وفي الحياة الدنيا، يحصل كسوف الشمس وخسوف القمر؛ تخويفاً للعباد وتذكيراً، حتى يؤبوا إلى الله تعالى ويتوبوا، قال النبي عليه الصلاة والسلام: «**إن الشمس والقمر لا ينكسفان لموت أحد من الناس ولكنهما آيتان من آيات الله فإذا رأيتموهما فقوموا فصلوا**» متفق عليه[1].

فحصول الكسوف والخسوف فيه تخويف للعباد، وتذكير لهم في حال غفلتهم، والأمم السالفة عذبت بأنواع من العذاب الذي أرسل

---

(١) أخرجه البخاري في الكسوف باب الصلاة في كسوف الشمس (١٠٤١)، ومسلم في الكسوف باب ذكر النداء بصلاة الكسوف (٩١١) من حديث أبي مسعود البدري رضي الله عنه.

عليهم من السماء كالغرق والريح والصيحة ونحوها، والعالم يسير بانتظام، فالشمس لها وقت شروق ووقت غروب لا تتخلف عنه، ويصدر منها إشعاع ينفع الأرض ومن عليها، والقمر له منازل مقدرة في بداية الشهر وانتصافه ونهايته، لا يتخلف عن شيء منها، وله نور جميل عند اكتماله في منتصف الشهر؛ فإذا ما ذهب إشعاع الشمس، ونور القمر أو بعضهما؛ كان هذا علامة على اختلال انتظامهما المعتاد، فيخاف العباد أن يكون ذلك بداية عذاب، وهذا من تخويف الله تعالى للعباد بهذين النيرين.

وما في الشمس والقمر من المنافع العظيمة يجعل أهل الأرض محتاجين إليهما، فلما يختل نظامهما؛ فتكسف الشمس أو يخسف القمر يخاف العباد من ذهاب ما ينتفعون به من نورهما.

ومن التخويف بالكسوف والخسوف أيضاً: أن اختلال النيرين بالكسوف والخسوف مذكر بيوم القيامة، وما يجري فيه من اختلالهما، وذهاب نورهما؛ إيذاناً بانتهاء العالم الدنيوي؛ فيخاف العباد عند حدوث ذلك من نهاية الدنيا، أو يتذكرون يوم القيامة فيُحْدِثُ الكسوفُ والخسوفُ خوفاً منه.

قال الخطابي رحمه الله تعالى: «كانوا في الجاهلية يعتقدون أن الكسوف يوجب حدوث تغير في الأرض من موت أو ضرر فأعلم النبي صلى الله عليه وسلم أنه اعتقادٌ باطل، وأن الشمس والقمر خَلْقان

مسخران لله تعالى، ليس لهما سلطـانٌ في غيرهما، ولا قدرةٌ على الدفع عن أنفسهما»(٢) .

إذاً فالنيران ينكسفان تخويفاً للعباد، والتخويف إنما يكون بوجود سبب الخوف، فعُلم أن كسوفهما قد يكون سبباً لأمر مخوف. . والله تعالى يخوف عباده بآياته ﴿وَمَا نُرْسِلُ بالآيَات إلاَّ تَخْوِيفًا﴾ [الإسراء: ٥٩] فعلم أن هذه الآيات السماوية قد تكون سبب عذاب؛ ولهـذا شـرع للنبي صلى الله عليه وسلـم عند وجود سبب الخوف ما يدفعه مـن الأعمال الصالحة(٣) .

وليس ذلك يمنع معرفة وقت حدوث الكسوف من قبل أهل الهيئة والفلك بما يعملونه من حسابات يُعرف بها وقت حدوثه ومدته، ووقت انجلائه، وهذا ما قرره شيخ الإسلام ابن تيمية رحمه الله تعالى بقوله: «فإذا كان الكسوف له أجل مسمى لم يناف ذلك أن يكون عند أجله يجعله الله تعالى سبباً لما يقتضيه من عذابٍ وغيره لمن يعذب الله في ذلك الوقت، أو لغيره ممن ينزل الله به ذلك. كما أن تعذيب الله تعالى لمن عذبه بالريح الشديدة الباردة كقوم عاد كانت في الوقت المناسب وهو آخر الشتاء»(٤) .

وقال ابن دقيق العيد: «ربما يعتقد بعضهم أن الذي يذكره أهـل

---

(٢) إعلام الحديث (١/ ٦٠)، وهو كلام طويل واختصره الحافظ في الفتح (٢/ ٦١٣).
(٣) فتاوى شيخ الإسلام ابن تيمية (٢٥/ ١٩١).
(٤) فتاوى شيخ الإسلام (٣٥/ ١٧٦).

الحساب ينافي قوله: «**يخوف الله بهما عباده**» وليس بشيء؛ لأن لله تعالى أفعالاً على حسب العادة، وأفعالاً خارجة عن ذلك، وقدرته حاكمة على كل سبب، فله أن يقتطع ما يشاء من الأسباب والمسببات بعضها من بعض. وإذا ثبت ذلك فالعلماء بالله تعالى لقوة اعتقادهم في عموم قدرته على خرق العادة، وأنه يفعل ما يشاء إذا وقع شيء غريب حدث عندهم الخوف؛ لقوة ذلك الاعتقاد؛ وذلك لا يمنع أن يكون هناك أسباب تجري عليها العادة إلى أن يشاء الله خرقها، وحاصله أن الذي يذكره أهل الحساب حقاً في نفس الأمر لا ينافي كون ذلك مخوفاً لعباد الله تعالى»(٥).

وعليه فإن معرفة وقت الكسوف والخسوف ليس من الغيب؛ بل يُدرك بالحساب، «وكما أن العادة التي أجراها الله تعالى: أن الهلال لا يستهل إلا ليلة ثلاثين من الشهر أو ليلة إحدى وثلاثين، فكذلك أجرى الله العادة أن الشمس لا تكسف إلا وقت الاستسرار، وأن القمر لا يخسف إلا وقت الإبدار. وللشمس والقمر ليالي معتادة من عرفها عرف الكسوف والخسوف، كما أن من علم كم مضى من الشهر يعلم أن الهلال لا يطلع في الليلة الفلانية أو التي قبلها، لكن العلم بالعادة في الهلال علم عامٌ يشترك فيه جميع الناس وأما العلم بالعادة في الكسوف والخسوف فإنما يعرفه من يعرف حساب جريانهما، وليس خبر الحاسب بذلك من علم الغيب.

(٥) فتح الباري (٢/ ٦٢٥)، وانظر: فتاوى شيخ الإسلام (٢٤/ ٢٥٩).

وأما تصديق المخبر بذلك وتكذيبه فلا يجوز أن يصدق إلا أن يُعلم صدقه، ولا يكذب إلا أن يعلم كذبه. . . والعلم بوقت الكسوف والخسوف وإن كان ممكناً لكن المخبر قد يكون عالمـاً بذلك وقد لا يكون، وقد يكون ثقة في خبره وقد لا يكون. . . ولكن إذا تواطأ خبر أهل الحساب على ذلك فلا يكادون يخطئون، ومع هذا فلا يترتب على خبرهم علمٌ شرعي؛ فإن صلاة الكسوف والخسوف لا تصلى إلا إذا شاهدنا ذلك، وإذا جوَّز الإنسان صدق المخبر بذلك، أو غلب على ظنه فنـوى أن يصلي الكسوف والخسوف عند ذلك، واستعد ذلك الوقت لرؤية ذلك كان هذا حثّاً من باب المسارعة إلى طاعة الله تعالى وعبادته؛ فإن الصلاة عند الكسوف متفق عليها بين المسلمين، وقد تواترت بها السنن عـن النبي صلى الله عليه وسلم» ا هـ ملخصاً من كلام شيخ الإسلام ابن تيمية رحمه الله تعالى(٦).

ومما يلاحظ ـ أيها الإخوة ـ أن العلم بوقت حدوث الكسوف والخسوف هوَّن وقعه على النفوس، حتى صار أكثر الناس يشتغل بالفرجة على الكسوف، ووقت بدايته وانجلائه عن الخوف من الله تعالى، والفزع إلى الصلاة والذكر، والدعاء والاستغفار، والنبي صلى الله عليه وسلم لما كسفت الشمس خاف وفزع إلى الله تعالى بالصلاة.

قال ابن عباس رضي الله عنهما: «انخسفت الشمس على عهـد رسول الله صلى الله عليه وسلم، فصلى رسـول الله صلى الله عليه

---

(٦) فتاوى شيخ الإسلام (٢٤/ ٢٥٥ ـ ٢٥٨).

وسلم، فقام قياماً طويلاً نحواً من قراءة سورة البقرة، ثم ركع ركوعاً طويلاً، ثم رفع فقام قياماً طويلاً وهو دون القيام الأول، ثم ركع ركوعاً طويلاً وهو دون الركوع الأول، ثم سجد، ثم قام قياماً طويلاً وهو دون القيام الأول، ثم ركع ركوعاً طويلاً وهو دون الركوع الأول، ثم رفع فقام قياماً طويلاً وهو دون القيام الأول، ثم ركع ركوعاً طويلاً وهو دون الركوع الأول، ثم سجد، ثم انصرف وقد تجلّت الشمس فقال صلى الله عليه وسلم: «**إن الشمس والقمر آيتان من آيات الله لا يخسفان لموت أحد ولا لحياته، فإذا رأيتم ذلك فاذكروا الله**. قالوا: يا رسول الله: رأيناك تناولت شيئاً من مقامك، ثم رأيناك كعكعت، قال صلى الله عليه وسلم: **إني رأيت الجنة فتناولت عنقوداً ولو أصبته لأكلتم منه ما بقيت الدنيا، ورأيت النار فلم أر منظراً كاليوم قط أفظع**...» متفق عليه(٧).

وفي حديث آخر أنه صلى الله عليه وسلم جعل يبكي في سجوده وينفخ ويقول: «**رب لم تعدني هذا وأنا أستغفرك، لم تعدني هذا وأنا فيهم**»(٨).

---

(٧) أخرجه البخاري في الكسوف باب صلاة الكسوف جماعة (١٠٥٢)، ومسلم في صلاة الكسوف باب ما عرض للنبي صلى الله عليه وسلم (٩٠٧ ـ ٩٠٨ ـ ٩٠٩)، وأبو داود في الصلاة باب من قال صلاة الكسوف أربع (١١٨١ ـ ١١٨٣)، والترمذي في الصلاة باب ما جاء في صلاة الكسوف (٥٦٠)، والنسائي في الكسوف باب القراءة في صلاة الكسوف (٣/ ١٤٦).

(٨) أخرجه النسائي في الكسوف باب القول في السجود في صلا الكسوف (٣/ ١٤٩)، وصححه الألباني في صحيح سنن النسائي (١٤٠١ ـ ١٤٠٧)، من حديث عبدالله بن عمرو رضي الله عنهما.

ألا فاتقوا الله ربكم، واعتبروا بالآيات والنذر، واحذروا الذنوب والغفلة، وإذا رأيتم آيات الله تعالى في الشمس والقمر بالكسوف والخسوف فاهرعوا إلى الصلاة، وأكثروا الدعاء والاستغفار.

أعوذ بالله من الشيطان الرجيم: **﴿وَمَا مَنَعَنَا أَن نُّرْسِلَ بِالآيَاتِ إِلاَّ أَن كَذَّبَ بِهَا الأَوَّلُونَ وَآتَيْنَا ثَمُودَ النَّاقَةَ مُبْصِرَةً فَظَلَمُوا بِهَا وَمَا نُرْسِلُ بِالآيَاتِ إِلاَّ تَخْوِيفًا﴾** [الإسراء: ٥٩].

بارك الله لي ولكم في القرآن العظيم،،،

الخطبة الثانية

الحمد لله حمداً كثيراً طيباً مباركاً فيه كما يحب ربنا ويرضى، أحمده وأشكره، وأتوب إليه وأستغفره، وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له، وأشهد أن محمداً عبده ورسوله صلى الله وسلم وبارك عليه وعلى آله وأصحابه ومن اهتدى بهداهم إلى يوم الدين.

أما بعد: فاتقوا الله - عباد الله - بفعل ما أمر، واجتنبوا الفواحش ما بطن منها وما ظهر، واعلموا أن الله مع المتقين.

أيها الناس: ظاهرة كسوف الشمس وخسوف القمر وإن كانت ظاهرة فلكية تعرف بالحساب في وقت الابتداء والانجلاء، إلا أنه يجب أن لا يكون العلم بها سبباً لذهاب هيبتها من النفوس؛ بل الواجب على المسلم أن يخاف من كل تغير في الظواهر الفلكية، خشية أن يكون عذاباً؛ كما كان النبي صلى الله عليه وسلم يفعل.

فقد ذكرت عائشة رضي الله عنها أنه عليه الصلاة والسلام: «كان

إذا رأى غيماً أو ريحاً عرف في وجهه، قالت: يا رسول الله، الناس إذا رأوا الغيم فرحوا رجاء أن يكون فيه المطر، وأراك إذا رأيته عرف في وجهك الكراهية، فقال: **يا عائشة، ما يؤمنني أن يكون فيه عذاب؟ عُذب قوم بالريح، وقد رأى قوم العذاب فقالوا: ﴿هَذَا عَارِضٌ مُّمْطِرُنَا﴾** [الأحقاف: ٢٤] » رواه الشيخان(٩).

وقد جاء في أحاديث كثيرة عن النبي صلى الله عليه وسلم الأمر بالفزع إلى الصلاة، وذكر الله تعالى، ودعائه واستغفاره، وذلك عند رؤية الكسوف أو الخسوف.

كما جاء في حديث عائشة رضي الله عنها أن النبي صلى الله عليه وسلم قال: «**فإذا رأيتم ذلك فافزعوا إلى الصلاة**» متفق عليه(١٠).

وفي رواية: «**إن الشمس والقمر آيتان من آيات الله لا يخسفان لموت أحد ولا لحياته، فإذا رأيتم ذلك فادعوا الله وكبروا، وصلوا وتصدقوا، ثم قال: يا أمة محمد، والله ما من أحد أغير من الله أن يزني عبده أو تزني أمته، يا أمة محمد، لو تعلمون ما أعلم لضحكتم قليلاً ولبكيتم كثيراً**»(١١).

---

(٩) أخرجه البخاري في التفسير، سورة الأحقاف، باب قوله: ﴿فَلَمَّا رَأَوْهُ عَارِضًا مُّسْتَقْبِلَ أَوْدِيَتِهِمْ﴾ [الأحقاف: ٢٤] ومسلم في الكسوف باب التعوذ عند رؤية الريحَ والغَيَم، والفرح بالمطر (٨٩٩).

(١٠) أخرجه البخاري في الكسوف باب لا تنكسف الشمس لموت أحد ولا لحياته (١٠٥٨)، ومسلم في الكسوف باب صلاة الكسوف (٩٠١).

(١١) هذه الرواية للبخاري في الكسوف باب الصدقة في الكسوف (١٠٤٤).

قال الطيبي: «لما أُمروا باستدفاع البلاء بالذكر والدعاء والصلاة والصدقة ناسب ردعهم عن المعاصي التي هي من أسباب جلب البلاء، وخص منها الزنى لأنه أعظمها في ذلك»(١٢).

وإذا انتهى المصلون من صلاة الكسوف ولما ينجل بعد فعليهم بذكر الله تعالى حتى ينجلي؛ لما روت عائشة رضي الله عنها عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال: **«فإذا رأيتم كسوفاً فاذكروا الله حتى ينجليا»** رواه مسلم(١٣).

ولم يأمر عليه الصلاة والسلام بالانشغال برصد هذه الظاهرة، ومشاهدتها، ومتابعة بدء الكسوف وانجلائه عن الصلاة والذكر والاستغفار؛ كما هو واقع كثير من الناس الذين حولوا آيات التخويف، وأمارات العذاب إلى ما يشبه مواسم الفرح والعيد والفرجة.

فالواجب على المسلمين أن يهرعوا عند الكسوف إلى الصلاة، ويكثروا من الاستغفار والصدقة والذكر حتى ينجلي، ولا يكون شأنهم شأن ضلال أهل الأرض من الكفار ومن تبعهم في طريقتهم؛ إذ يشتغلون عن ذلك بما لا يدفع عذاباً، ولا يجلب رحمة، نسأل الله الهداية والعافية.

ألا وصلوا وسلموا على خير خلق الله كما أمركم ربكم بذلك.

---

(١٢) فتح الباري لابن حجر (٢/ ٦١٧).

(١٣) أخرجه مسلم في الكسوف باب صلاة الكسوف (٩٠١).

٤٥- سنة الاستخارة

الجمعة ٢٦/ ١/ ١٤٢٢هـ

الحمد لله، نحمده ونستعينه ونستغفره، ونعوذ بالله من شرور أنفسنا، ومن سيئات أعمالنا، من يهده الله فلا مضلَّ له، ومن يضلل فلا هادي له، وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له، وأشهد أن محمداً عبده ورسوله.. ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ حَقَّ تُقَاتِهِ وَلَا تَمُوتُنَّ إِلَّا وَأَنتُم مُّسْلِمُونَ﴾ [آل عمران: ١٠٢]، ﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ اتَّقُوا رَبَّكُمُ الَّذِي خَلَقَكُم مِّن نَّفْسٍ وَاحِدَةٍ وَخَلَقَ مِنْهَا زَوْجَهَا وَبَثَّ مِنْهُمَا رِجَالًا كَثِيرًا وَنِسَاءً وَاتَّقُوا اللَّهَ الَّذِي تَسَاءَلُونَ بِهِ وَالْأَرْحَامَ إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلَيْكُمْ رَقِيبًا﴾ [النساء: ١]، ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَقُولُوا قَوْلًا سَدِيدًا ۝٧٠ يُصْلِحْ لَكُمْ أَعْمَالَكُمْ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ وَمَن يُطِعِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ فَقَدْ فَازَ فَوْزًا عَظِيمًا﴾ [الأحزاب: ٧٠, ٧١]..

أما بعد: فإن أصدق الحديث كلام الله تعالى، وخير الهدي هدي محمد صلى الله عليه وسلم، وشر الأمور محدثاتها، وكل محدثة بدعة، وكل بدعة ضلالة، وكل ضلالة في النار.

أيها المسلمون: لا ينفكُ العباد عن حاجتهم لربهم في شؤونهم كلها، والمؤمن يسألُ الله العون على أمور الدين والدنيا، ويستعين به فيها في كل ركعة يصليها فيقرأ ﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ﴾ [الفاتحة: ٥].

وللناس أشغال يودون قضاءها، وحاجات يسعون في تحصيلها. والمؤمن موقنٌ بأن تصريف الأمور وتدبيرها بيد الله سبحانه وتعالى، وأن العبد لا ينالُ خيراً، ولا يصيبه شرٌ إلا بتقديره جل جلاله؛ كما

قال النبي صلى الله عليه وسلم لابن عباس رضي الله عنهما: «**واعلم أن الأمة لو اجتمعت على أن ينفعوك بشيء لم ينفعوك إلا بشيء قد كتبه الله تعالى لك، وإن اجتمعوا على أن يضروك بشيء لم يضروك إلا بشيء قد كتبه الله تعالى عليك، رفعت الأقلام وجفت الصحف**» رواه الترمذي وقال: حسن صحيح[١].

يعلمُ المؤمن أن المقادير من خير وشر، ونفع وضر ليست بيده، وأن ما يصيبه منها هو بإرادة الله تعالى وقضائه وقدره، ﴿**وَرَبُّكَ يَخْلُقُ مَا يَشَاءُ وَيَخْتَارُ مَا كَانَ لَهُمُ الْخِيَرَةُ سُبْحَانَ اللَّهِ وَتَعَالَىٰ عَمَّا يُشْرِكُونَ**﴾ [القصص: ٦٨].

ولم يمنع ذلك المؤمن من أن يضرب في الأرض، ويسعى فيما ينفعه في الدنيا والآخرة، ويسألَ الله تعالى العون والسداد في أموره كلها.

وإن احتار بين أمرين لا يدري أيهما خير له شُرِع له أن يستخير الله سبحانه وتعالى ويسأله أن يُقَدِّرَ له ما فيه نفعه. كما قال جابر بن عبدالله رضي الله عنهما: كان رسول الله صلى الله عليه وسلم يعلمنا الاستخارة في الأمور كلها كما يعلمنا السورة من القرآن، يقول: «**إذا هم أحدكم بالأمر فليركع ركعتين من غير الفريضة ثم ليقل: اللهم إني أستخيرك**

(١) أخرجه أحمد (١/ ٣٠٧)، وأبو يعلى (٢٥٥٦)، والترمذي في صفة القيامة باب (٥٩)، وقال: حديث حسن صحيح (٢٥١٦)، وعبد بن حميد (٦٣٦)، والحاكم (٣/ ٥٤١)، وحسنه الحافظ ابن رجب في جامع العلوم والحكم (١/ ٣٦٠).

بعلمك، وأستقدرك بقدرتك، وأسألك من فضلك العظيم، فإنك تقدر ولا أقدر، وتعلم ولا أعلم، وأنت علام الغيوب، اللهم إن كنت تعلمُ أن هذا الأمر خير لي في ديني ومعاشي وعاقبة أمري ـ أو قال: **عاجل أمري وآجله ـ فاقدرهُ لي، ويسره لي، ثم بارك لي فيه. وإن كنت تعلم أن هذا الأمر شر لي في ديني ومعاشي وعاقبةِ أمري** ـ أو قال: **عاجل أمري وآجله ـ فاصرفه عني، واصرفني عنه، واقدر لي الخير حيث كان ثم أرضني به»** رواه البخاري(٢).

وظاهرٌ من لفظ الحديث حرصُ النبي صلى الله عليه وسلم على تعليم أصحابه هذا الدعاء العظيم كما قال جابر: « يعلمنا الاستخارة في الأمور كلها كما يعلمنا السورة من القرآن».

والمعنى: أن العبدَ كما يحتاج إلى القراءة في الصلاة فيتعلم السورة من القرآن، فهو كذلك محتاج إلى حفظ دعاء الاستخارة؛ لكثرة أموره التي تحتاج إلى استخارة.

أو يكون المعنى: كما لا يجوز له أن يزيد في السورة من القرآن، ولا ينقص منها حرفاً، فكذلك لا يزيد في هذا الدعاء المأثور، ولا يُنقص منه شيئاً حالَ استخارته، فيحفظه كما يحفظُ السورة من القرآن(٣).

---

(٢) أخرجه البخاري في التهجد باب ما جاء في التطوع مثنى مثنى (١١٦٢) وفي الدعوات باب الدعاء عند الاستخارة (٦٣٨٢)، وأبو داود في الصلاة باب في الاستخارة (١٥٨٣)، والترمذي في الوتر باب ما جاء في صلاة الاستخارة (٤٨٠).

(٣) انظر: فتح الباري لابن حجر (١١/ ٢٢٠)، والمدخل لابن الحاج (٤/ ٣٧).

ويبدأ وقت استخارته منذ همه بفعل أمر من الأمور، واحتار هل يفعل أم لا يفعل، فيصلي ركعتين ينويها للاستخارة، فإن كان في وقت نهي أخرَّ استخارته إلى ما بعده إلا إذا كان الذي يستخير من أجله يفوت إذا أُخرت الصلاة، فيصلي في وقت النهي ويستخير؛ وذلك لأن صلاة الاستخارة من ذوات الأسباب، وذوات الأسباب يجوز فعلها في وقت النهي على الصحيح(٤).

فإن منعه مانع من الصلاةِ، كالحيض للمرأة مع حاجتها إلى الاستخارة قبل زوال المانع فتستخيرُ بالدعاء فقط. قال النووي رحمه الله تعالى: «ولو تعذرت عليه الصلاة استخار بالدعاء»(٥). ولا يقدم الدعاء على الصلاة؛ بل يصلي ثم يدعو، قال ابن أبي جمرة رحمه الله تعالى: «الحكمة في تقديم الصلاةِ على الدعاء أن المرادَ بالاستخارة حصولُ الجمع بين خيري الدنيا والآخرة؛ فيحتاج إلى قرع باب الملك، ولا شيء لذلك أنجعُ من الصلاة لما فيها من تعظيم الله، والثناء عليه، والافتقار إليه مآلاً وحالاً»(٦).

فإذا سلّم من صلاته دعا، وإن دعا قبل السلام صح ذلك، قال شيخ الإسلام ابن تيمية رحمه الله تعالى: «يجوزُ الدعاء في صلاة الاستخارة وغيرها قبل السلام وبعده. والدعاءُ قبل السلام أفضل؛

---

(٤) انظر: مجموع فتاوى شيخ الإسلام ابن تيمية (٢٣/ ٢١٥).
(٥) الأذكار (١١٢).
(٦) فتح الباري لابن حجر (١١/ ٢٢٢).

فإن النبي صلى الله عليه وسلم أكثر دعائه كان قبل السلام، والمصلي قبل السلام لم ينصرف فهذا أحسن»(٧).

فإن كان المستخير لا يحفظ الدعاءَ دعا به من كتاب، أو كتبه في ورقة ثم يدعو منها بحضور قلب وخشوع وتعلق بالله تعالى، والأولى أن يحفظ المسلم هذا الدعاء المبارك لكثرة حاجته إليه؛ إذ هو متعلق بحاجاته، وحاجاته كثيرة ومستمرة؛ ولأنه قد يحتاج إلى الاستخارة في مكان لا يجد فيه هذا الدعاء مكتوباً.

فإذا صلى ودعا واستخار الله تعالى أقدم على ما ينوي فعله، فإن كان خيراً يسّره الله تعالى له، وإن كان شراً صرفه الله تعالى عنه، وأبعده منه.

وما يعتقده بعض الناس من أن المستخير إذا استخار ربه في شيء فعليه أن ينتظر حتى يرى مناماً، وبناء على الرؤيا التي يراها يفعل أو لا يفعل فذلك لا أصل له، وقد لا يرى شيئاً البتة؛ لكن العلماء قالوا: ينبغي له أن يُفرِّغ قلبه من جميع الخواطر؛ حتى لا يكون مائلاً إلى أمرٍ من الأمور. ثم يفعلُ ما بدا له سواء انشرحت نفسه أم لا؛ فإن فيه الخير ما دام مستخيراً وإن لم تنشرح نفسُه، وليس في الحديث تعليق

(٧) الدعاء عقب السلام هو قول الحفاظ ابن حجر والشوكاني وابن باز رحمهم الله كما في الفتح (١١/ ٢٢٢)، ونيل الأوطار (٣/ ٨٩)، ومجموع فتاوى ابن باز (٢/ ٣٣٦)، وقالوا: إنه ظاهر الحديث؛ لأنه قال في الحديث: «ثم يقول» وهذا يفيد التراخي. وانظر: كلام شيخ الإسلام في مجموع الفتاوى (٢٣/ ١٧٧)، والأمر واسع والحمد لله.

الفعل على انشراح الصدر[٨].

قال الحافظ ابن حجر رحمه الله تعالى: «والمعتمد أنه لا يفعل ما ينشرحُ به صدره مما له فيه هوىً قويٌ قبل الاستخارة»[٩].

وبعض العلماء يرى أنه يقدم على ما انشرح صدره له بشرط أن لا يكون له فيه هوى قبل الاستخارة[١٠]، وإن احتاج إلى تكرار الاستخارة كررها، وذلك فيما لو لم تتضح له الصورةُ، ولا وجهُ الخير فيما عزم عليه؛ وذلك لأن الاستخارة دعاء، والدعاء يُشرع تكراره، وقال ابن الزبير رضي الله عنه: «إني مستخير ربي ثلاثاً»[١١].

ولا تمنع الاستخارة استشارة ذوي الرأي السديد، قال شيخ الإسلام ابن تيمية رحمه الله: «ما ندم من استخار الخالق، وشاورَ المخلوقين، وتثبت في أمره»[١٢].

وقال الحسن رحمه الله تعالى: «ما شاور قوم قط إلا هدوا لأرشد أمورهم»[١٣].

---

(٨) انظر: الجامع لأحكام القرآن للقرطبي (١٣/ ٢٠٣)، وطبقات الشافعية الكبرى للسبكي (٩/ ٢٠٦)، ومجلة الحكمة عدد (٢٢) ص(٥٢٩).

(٩) فتح الباري (١١/ ٢٢٣).

(١٠) انظر: مرقاة المفاتيح للقاري (٣/ ٤٠٦).

(١١) قال ذلك ابن الزبير رضي الله عنهما في شأن نقض الكعبة وبنائها على قواعد إبراهيم عليه السلام، وكان من قوله في ذلك: «إني مستخير ربي ثلاثاً ثم عازم على أمري..» أخرجه مسلم في الحج باب نقض الكعبة وبنائها (١٣٣٣).

(١٢) الوابل الصيب (٢٤٧) عن مجلة الحكمة (٢٢/ ٥٣٧).

(١٣) الدر المنثور للسيوطي (١/ ١٥٩)

وقال الماوردي رحمه الله تعالى: «اعلم أن من الحزم لكل ذي لب أن لا يبرم أمراً، ولا يُمضيَ عزماً إلا بمشورة ذي الرأي الناصح، ومطالعة ذي العقل الراجح؛ فإن الله تعالى أمر بالمشورة نبيه صلى الله عليه وسلم مع ما تكفل به من إرشاده وعونه وتأييده فقال تعالى: ﴿وَشَاوِرْهُمْ فِي الأَمْرِ فَإِذَا عَزَمْتَ فَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُتَوَكِّلِينَ﴾ [آل عمران: ١٥٩]»[١٤].

والمشروع في حق المؤمن أن يجمع بين الاستخارة والاستشارة؛ فيستخير الله تعالى، ويستشير الحكماء.

قال ابن الحاج المالكي رحمه الله تعالى: «والجمع بين الاستخارة والاستشارة من كمال الامتثال للسنة، فينبغي للمكلف أن لا يقتصر على إحداهما»[١٥].

وقال بعض السلف: «من حق العاقل أن يضيف إلى رأيه آراء العلماء، ويجمع إلى عقله عقول الحكماء، فالرأيُ الفذ ربما زل، والعقلُ الفرد ربما ضل»[١٦].

أسأل الله تعالى أن ينير بصائرنا، وأن يختار لنا، وأن يصلح قلوبنا وأعمالنا إنه سميع مجيب، وأقول قولي هذا وأستغفر الله لي ولكم...

---

(١٤) أدب الدنيا والدين (٤٢٢).

(١٥) المدخل لابن الحاج (٤/ ٤٠) عن مجلة الحكمة (٢٢/ ٥٣٦).

(١٦) المصدر السابق (٤/ ٤١).

الخطبة الثانية

الحمد لله حمداً طيباً كثيراً مباركاً فيه كما يحب ربنا ويرضى، أحمده وأشكره، وأتوب إليه وأستغفره، وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له، وأشهد أن محمداً عبده ورسوله صلى الله وسلم وبارك عليه وعلى آله وأصحابه ومن اهتدى بهداهم إلى يوم الدين.

أما بعد: فاتقوا الله ـ عباد الله ـ واسألوه من فضله، وعوذوا به من سخطه.

أيها المؤمنون: تشرعُ الاستخارة في الأمور المباحة كالسفر والزواج والتجارة ونحوها، أما الواجبات والمندوبات فلا يستخيرُ لها؛ بل يفعلها فوراً، فلا يستخيرُ هل يصلي أو لا يصلي. ولا تدخل الاستخارة في ترك المحرمات والمكروهات، فلا يستخير هل يسرق أم لا؛ إذ الواجب عليه: فعل الواجبات، وتركُ المحرمات، والسنة في حقه: فعل المندوبات، واجتناب المكروهات.

وقد يستخير العبدُ في أمر يتعلق بالعبادة لا لذات العبادة، وإنما لوسيلتها أو ما يحيط بها؛ وذلك مثل سفره للحج لاحتمال عدوٍ أو فتنةٍ أو تكون مشقة الحج مضرةً به لمرضٍ أو كبر أو نحو ذلك. فما كان مثلَ ذلك فله أن يستخير فيه؛ لأنه لم يستخر لذات الطاعة وإنما لما قد يلحقه من جرائها(١٧).

---

(١٧) انظر: الأذكار للنووي (١١٢)، وعمدة القاري (٧/ ٢٣٣)، ونيل الأوطار (٣/ ٨٨)، والفتح الرباني (٥/ ٥٢)، ومجلة الحكمة (٢٢/ ٥١٥).

وينبغي للمؤمن أن يعوِّد نفسه على الاستخارة، ولا يحتقر شيئاً يستخير الله فيه؛ إذ كبائر الأمور تبنى على صغيرها. ثم إن كثرة الاستخارة تدل على قوة توحيد العبد، وشدة تعلق قلبه بالله تبارك وتعالى؛ ذلك أنه فوض أمره لله تعالى، وتبرأ من حوله وقوته ورأيه، وسأل الله تعالى أن يختار له؛ لأنه موقن بأن الله تعالى يعلم ما هو الخير له؛ ولذا يقول: **«اللهم إني أستخيرك بعلمك، وأستقدرك بقدرتك، وأسألك من فضلك العظيم؛ فإنك تقدر ولا أقدر، وتعلم ولا أعلم، وأنت علام الغيوب»** تبرؤٌ من الحول والقدرة والعلم، واعترافٌ بقدرة الله تعالى وعلمه، ولا يخذل الله تعالى عبداً لاذ بحماه، وتعلق بجنابه، وطرق بابه.

والاستخارة نعمة من الله تعالى لهذه الأمة المباركة، وهي بديل عمّا كان يفعله أهلُ الجاهلية من الاستقسام بالأزلام، قال ابن القيم رحمه الله تعالى: «وأغنانا عن الاستسقام بالأزلام طلباً لما هو خير وأنفع لنا بالاستخارة التي هي توحيد وتفويضٌ واستعانةٌ وتوكل»(١٨).

ألا فاتقوا الله ربكم، وعظموا أمره، واستخيروه في أموركم؛ فإن العبد لا ينفك عن الحاجة لله علام الغيوب، ﴿**وَعَسَىٰ أَن تَكْرَهُوا شَيْئًا وَهُوَ خَيْرٌ لَّكُمْ وَعَسَىٰ أَن تُحِبُّوا شَيْئًا وَهُوَ شَرٌّ لَّكُمْ وَاللَّهُ يَعْلَمُ وَأَنتُمْ لَا تَعْلَمُونَ**﴾ [البقرة: ٢١٦].

ألا وصلوا وسلموا على نبيكم محمد كما أمركم بذلك ربكم.

---

(١٨) إغاثة اللهفان (٢/ ٧٠).

٤٦- الجهاد في سبيل الله تعالى (١)
فضلـه وثوابـه

الجمعة ٢٥/ ١/ ١٤١٦ هـ

الحمد لله، نحمده ونستعينه ونستغفره، ونعوذ بالله من شرور أنفسنا ومن سيئات أعمالنا، من يهده الله فلا مضل له، ومن يضلل فلا هادي له، وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له، وأشهد أن محمداً عبده ورسوله. . ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ حَقَّ تُقَاتِهِ وَلا تَمُوتُنَّ إِلاَّ وَأَنتُم مُّسْلِمُونَ﴾ [آل عمران: ١٠٢]، ﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ اتَّقُوا رَبَّكُمُ الَّذِي خَلَقَكُم مِّن نَّفْسٍ وَاحِدَةٍ وَخَلَقَ مِنْهَا زَوْجَهَا وَبَثَّ مِنْهُمَا رِجَالاً كَثِيرًا وَنِسَاءً وَاتَّقُوا اللَّهَ الَّذِي تَسَاءَلُونَ بِهِ وَالأَرْحَامَ إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلَيْكُمْ رَقِيبًا﴾ [النساء: ١]، ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَقُولُوا قَوْلاً سَدِيدًا (٧٠) يُصْلِحْ لَكُمْ أَعْمَالَكُمْ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ وَمَن يُطِعِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ فَقَدْ فَازَ فَوْزًا عَظِيمًا﴾ [الأحزاب: ٧٠، ٧١].

أما بعد: فإن أصدق الحديث كلام الله تعالى، وخير الهدي هدي محمد صلى الله عليه وسلم، وشر الأمور محدثاتها، وكل محدثة بدعة، وكل بدعة ضلالة، وكل ضلالة في النار.

أيها الإخوة المؤمنون: الحديث عن الجهاد والمجاهدين حديث طيب عذب، يحبه المؤمنون؛ فهو يشعرهم بالفخار، ويذكرهم مواطن العز والإباء. والمؤمن المستقيم على إيمانه حياته كلها جهاد: يجاهد نفسه، ويجاهد الشيطان والهوى، ويجاهد أرباب المنكرات والفجور. وإذا كان كذلك كان حرياً وحقيقاً أن يلتحق بميدان الجهاد العظيم؛ جهاد الكفار

الذي لا يعدله من النوافل شيء، فهو أفضل الأعمال بعد الفرائض. ولقد سئل النبي صلى الله عليه وسلم: أي الأعمال أفضل؟ قال: «**إيمان بالله ورسوله**»، قيل: ثم ماذا؟ قال: «**جهاد في سبيل الله**»، وفي رواية قال: «**الجهاد سنام العمل**» أخرجه البخاري والترمذي[(١)].

وسئل عليه الصلاة والسلام: أي الناس أفضل؟ فقال: «**مؤمن مجاهد في سبيل الله بنفسه وماله**» متفق عليه[(٢)].

قال الإمام أحمد رحمه الله: «لا أعلم شيئاً من العمل بعد الفرائض أفضل من الجهاد»[(٣)]، وقال أيضاً: «ليس يعدل لقاء العدو شيء». وذكر له أمر الغزو فجعل يبكي ويقول: «ما من أعمال البر أفضل منه»[(٤)].

وعن النعمان بن بشير رضي الله عنهما قال: «كنت عند منبر رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال رجل: ما أبالي أن لا أعمل عملاً بعد الإسلام إلا أن أسقي الحاج، وقال آخر: ما أبالي أن لا أعمل عملاً بعد الإسلام إلا أن أعمر المسجد الحرام، وقال آخر: الجهاد في سبيل

---

(١) أخرجه البخاري في الحج باب فضل الحج المبرور (١٥١٩)، والترمذي في فضائل الجهاد باب ما جاء في أي العمل أفضل والرواية الثانية له (١٦٥٨)، والنسائي في الجهاد باب ما يعدل الجهاد في سبيل الله عز وجل (٦/ ١٧)، وأحمد (٢/ ٢٨٧).

(٢) أخرجه البخاري في الجهاد والسير باب أفضل الناس مؤمن يجاهد بنفسه وماله في سبيل الله (٢٧٨٦)، ومسلم في الإمارة باب فضل الجهاد والرباط (١٨٨٨).

(٣) مختصر الخرقي من مسائل الإمام أحمد رحمه الله (١٢٨)، والمغني لابن قدامة (١٣/ ١٠).

(٤) الأثران عن الإمام أحمد في المغني (١٣/ ١٠ ـ ١١).

الله أفضل مما قلتم، فزجرهم عمر رضي الله عنه وقال: لا ترفعوا أصواتكم عند منبر رسول الله صلى الله عليه وسلم وهو يوم الجمعة، ولكن إذا صليتُ الجمعة دخلت فاستفتيته فيما اختلفتم فيه، فأنزل الله تعالى: ﴿أَجَعَلْتُمْ سِقَايَةَ الْحَاجِّ وَعِمَارَةَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ كَمَنْ آمَنَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَجَاهَدَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ لَا يَسْتَوُونَ عِندَ اللَّهِ وَاللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ﴾ [التوبة: ١٩] رواه مسلم(٥). ثم بين الله تعالى أن منزلة المجاهدين أعلى فقال سبحانه: ﴿الَّذِينَ آمَنُوا وَهَاجَرُوا وَجَاهَدُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ بِأَمْوَالِهِمْ وَأَنفُسِهِمْ أَعْظَمُ دَرَجَةً عِندَ اللَّهِ وَأُولَٰئِكَ هُمُ الْفَائِزُونَ (٢٠) يُبَشِّرُهُمْ رَبُّهُم بِرَحْمَةٍ مِّنْهُ وَرِضْوَانٍ وَجَنَّاتٍ لَّهُمْ فِيهَا نَعِيمٌ مُّقِيمٌ (٢١) خَالِدِينَ فِيهَا أَبَدًا إِنَّ اللَّهَ عِندَهُ أَجْرٌ عَظِيمٌ﴾ [التوبة: ٢٠ - ٢٢].

وقال النبي صلى الله عليه وسلم: «**موقف ساعة في سبيل الله خير من قيام ليلة القدر عند الحجر الأسود**»(٦).

---

(٥) أخرجه مسلم في الإمارة باب فضل الشهادة في سبيل الله تعالى (١٨٧٩).

(٦) أخرجه ابن حبان في صحيحه (٤٦٠٣)، والبيهقي في الشعب (٤٢٨٦)، وعزاه السيوطي في الدر المنثور للبيهقي (٢/ ٢٠٣) وهو من حديث مجاهد عن أبي هريرة رضي الله عنه وقد أثبت ابن حبان سماع مجاهد من أبي هريرة فقال: «سمع مجاهد من أبي هريرة أحاديث معلومة بيّن سماعه فيها عمر بن ذر، وقد وهم من زعم أنه لم يسمع من أبي هريرة شيئاً؛ لأن أبا هريرة مات سنة ثمان وخمسين في إمارة معاوية، وكان مولد مجاهد سنة إحدى وعشرين في خلافة عمر بن الخطاب، ومات مجاهد سنة ثلاث ومائة فدل هذا على أن مجاهداً سمع من أبي هريرة» انظر: الإحسان في ترتيب صحيح ابن حبان (١٠/ ٤٦٣). قال الحافظ ابن حجر رحمه الله تعالى: «روى مجاهد عن أبي=

ما كانت هذه المنزلة العظيمة للجهاد إلا لأن الجهاد به يحمى الذمار، وتحفظ الديار، ويُنشر الإسلام. وبالجهاد يكون المسلمون أعزة، ترتفع هاماتهم، وتشمخ أنوفهم، ويذل الكفر وأهله. ويُملي المسلمون شروطهم، ويفرضون إرادتهم؛ فأقوالهم تنفذ، وإشاراتهم تفهم. تستجيب الأمم لمطالبهم، ويتسارع الناس إلى إرضائهم. بالجهاد والقوة يندحر عدو المسلمين، وترتعد فرائص المنافقين. وبالجهاد يهاب البعيد والقريب، ويكبت العدو ويفرح الصديق. وبالجهاد تؤمن السبل، وتحفظ الأعراض، وتسلم العقول، وتحقن الدماء، ويسود الأمن والأمان؛ لأن الناس إذا أذعنوا لدين الله تعالى ساد الأمن بينهم.

فإن قيل: كيف تحفظ الدماء بالجهاد، والجهاد قتال ودماء؟

فالجواب: أن الجهاد الشرعي يقابل فيه المسلم الكافر، فإن قتل المسلم غفر له مع أول قطرة تسيل من دمه، ورأى مقعده من الجنة، فدمه محفوظ، يجيئ يوم القيامة وكلمه يدمى، اللون لون الدم، والريح ريح المسك. وإن كان المقتول كافراً حربياً فحقه القتل في شريعة الله تعالى؛ لصده عن سبيل الله وحربه على المسلمين، فهو عضو فاسد في البشرية يتحتم قطعه، وبقطعه يرتدع غيره من الكفار الحربيين عن حرب الإسلام والمسلمين.

= هريرة وعبدالله بن عمرو، وقيل: لم يسمع منهما» تهذيب التهذيب (٥/ ٣٧٤) ترجمة مجاهد رحمه الله تعالى برقم (٧٥٤٨). وقد ورد في سنن البيهقي بسند صحيح ما يدل على سماع مجاهد من أبي هريرة (٧/ ٢٧٠) كما في السلسلة الصحيح للألباني (١٠٦٨) ولذلك صحح هذا الحديث.

وإذا علت راية الجهاد في الأرض تحقق العدل، وبسط الأمن، وفاضت الأرزاق، وقوي المسلمون، وانتشرت الدعوة إلى الإسلام حتى يدخل الناس في دين الله أفواجاً.

والضد بالضد، فإذا عطل المسلمون شعيرة الجهاد في سبيل الله تعالى عم الفساد أرجاء الأرض، وانتشر الظلم بين الناس كلهم، المسلم منهم والكافر؛ لأنه لا عدل إلا في الإسلام. وإنما ينتشر الظلم والبغي والعدوان إذا حكم الناس بغير شريعة الإسلام التي شرعها الله تعالى وهو خالق البشر وأعلم بما يَصْلُح لهم ويُصْلِحُهم.

فبتعطيل الجهاد يضعف المسلمون، ويستباح حماهم، وترخص دماؤهم، وتنتهك أعراضهم، وتنهب ثرواتهم، وترمل نساؤهم، وتيتم أطفالهم، ويهان دينهم، وتكون الذلة والمسكنة مضروبة عليهم كما هو الحال في الأزمنة المتأخرة التي عطلت فيها شعيرة الجهاد في سبيل الله تعالى؛ إذ استباح أهل الكفر شعوباً مسلمة في مشارق الأرض ومغاربها، فهتكوا الحرمات، وأمعنوا في الظلم والاعتداء، وبالغوا في البغي والعدوان والفساد، ولا نصير من المسلمين لأولئك المستضعفين؛ لأن الذلة مضروبة على الجميع.

إن تعطيل الجهاد في سبيل الله تعالى يسبب ضياع الحقوق، وانقلاب المفاهيم، وانتكاس الموازين؛ فينقلب الظلم عدلاً، والباطل حقاً، ويصبح المعتدي محقاً، ويهان القرآن، ويُعَظَّمُ الكفرُ وأهلُه؛ مما يكون سبباً في نزع البركات، وتنزّل العقوبات، وحلول النقمات.

إن العالم الكافر بشرقه وغربه لا يعرف إلا مبدأ القوة، ولا يؤمن حتى يرى السلاح، ولا يخضع إلا إذا سالت الدماء، حينها يفي الكافرون بالعهود، ويحافظون على المواثيق. وبغير ذلك ستظل العهود تنكث، والمواثيق تنقض، والوعود تخلف، والذمم تخفر، ويزداد الظلم، ويكشف المنافقون أقنعة الخفاء؛ إذ لا حاجة للاستخفاء ما دام المسلمون أذلة ضعفاء. بل إن تعطيل الجهاد يكون سبباً في ظلم الكفار بعضهم لبعض، وما انتشر العدل وعم أرجاء الأرض إلا في الأزمان التي هيمن فيها المسلمون، وحُكِمَ فيها بشريعة الإسلام بين الناس، حتى كان الكفار يفضلون حكم المسلمين على حكم بني جنسهم ولونهم ودينهم الذين كانوا يظلمونهم، بينما كان المسلمون يعدلون فيهم، ويحفظون لهم حقوقهم، ويوفون عهودهم.

ولا أدل على ذلك من فرح كثير من الشعوب النصرانية بفتوح المسلمين؛ لأنها خلصتهم من استعباد القياصرة، وظلم الرهبان لهم، ولما حاصر العثمانيون القسطنطينية قال زعيمها الديني: «إنه خير لنا أن نرى العمامة في مدينتنا القسطنطينية من أن نرى فيها تاج البابوية»(٧).

إن تاريخ المسلمين الطويل في الجهاد، وأخبارهم في الفتوح تحكي تاريخاً شريفاً، وأفعالاً نزيهة. جيوش جرارة، جابت الأرض شمالاً وجنوباً، وفتحت بلدانها شرقاً وغرباً، فما ذكر في ذلك الكمِّ الهائل من المعارك والانتصارات والفتوح أن المسلمين في حروبهم كانوا يهتكون

(٧) العثمانيون في التاريخ والحضارة لمحمد حرب (٧١).

الأعراض، أو يقتلون الأطفال والشيوخ، أو يتلفون الزروع والثمار، أو يدمرون البيوت والمعابد؟ ما كانوا يفعلون ذلك، فحروبهم غاية في العدل والرحمة والرأفة، لم يدفعهم إلى القتال أحقادٌ دفينة، أو أهداف دنيئة، حتى ينتقموا من الناس.

إنهم يقاتلون لأن الله تعالى أمرهم بالقتال؛ لنشر دينه، وإعلاء كلمته، وبسط العدل بين الناس. فهم في حروبهم يعظمون حرمات الله تعالى، وينطلقون في جهادهم من قول الله تعالى: ﴿**وَقَاتِلُوهُمْ حَتَّىٰ لَا تَكُونَ فِتْنَةٌ وَيَكُونَ الدِّينُ لِلَّهِ**﴾ [البقرة: ١٩٣]، ولقد سار المسلمون على هذا المنهج الرباني في حروبهم منذ جهاد النبي صلى الله عليه وسلم وعبر تاريخهم الطويل.

لقد كان المشركون سبباً في هجرة النبي صلى الله عليه وسلم وهجرة أصحابه بما مارسوه عليهم من أذىً وتعذيب، وقتل وتجويع، وحصار الشِعْبِ مشهور، وتعذيب بلال وخباب وآل ياسر رضي الله عنهم معروف، ووداع النبي صلى الله عليه وسلم لمكة محفوظ، ولما عاد النبي صلى الله عليه وسلم إلى مكة فاتحاً عفا عن أهلها الذين آذوه وقال لهم: «**اذهبوا فأنتم الطلقاء**».

ولما دخل الصليبيون بيت المقدس أثناء الحكم العبيدي الباطني انتهكوا الحرمات، وقتلوا الشيوخ والصبيان؛ حتى بلغ عدد من قتلوا في المسجد الأقصى زهاء سبعين ألف مسلم[٨]. وبعد ثنتين وتسعين سنة من ذلك

(٨) انظر: المنتظم لابن الجوزي (١٧/ ٤٧)، والكامل (٨/ ١٨٩)، وتاريخ ابن=

فتحها صلاح الدين رحمه الله تعالى فأشار عليه بعض قادته بأن يفعل بالنصارى مثل الذي فعلوا بالمسلمين؛ لكنه آثر العفو عنهم مما كان سبباً في إسلام كثير منهم[٩].

إنه العدل والرحمة التي لا توجد إلا في الإسلام، ولا توجد في القوانين الوضعية، ولا الهيئات والمنظمات الدولية، فهل يعي ذلك العالم في وقت انتشر فيه البغي والفساد، وعمَّ الظلم أرجاء الأرض، وعلا أهل الباطل على أهل الحق.

نسأل الله تعالى فرجاً من عنده، وعزاً للإسلام وأهله، وذلاً للكفر وأهله، اللهم انصر المسلمين في كل مكان يا رب العالمين، اللهم أقم علم الجهاد، واقمع أهل الكفر والزيغ والعناد، وانشر رحمتك على العباد، يا من له الدنيا والآخرة وإليه المعاد.. وأقول ما تسمعون وأستغفر الله لي ولكم.

الخطبة الثانية

الحمد لله، حمداً طيباً كثيراً مباركاً فيه كما يحب ربنا ويرضى، أحمده وأشكره، وأتوب إليه وأستغفره، وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له، وأشهد أن محمداً عبده ورسوله صلى الله وسلم وبارك

= خلدون (٥/ ٢٥)، والبداية والنهاية (١٢/ ١٣٨)، وتاريخ الإسلام للذهبي (٣٤/ ١٥).

(٩) انظر: النوادر السلطانية لابن شداد (٨٠)، والبداية والنهاية (١٢/ ٣٢٢)، وتاريخ ابن خلدون (٥/ ٢/ ٢٨)، وتاريخ الإسلام (٤١/ ٢٤).

عليه وعلى آله وصحبه وأتباعه إلى يوم الدين.

أما بعد: فيا أيها الإخوة في الله: إن الجهاد في سبيل الله تعالى خير للبشرية كلها، فالمسلم ينشر دين الله، ويقيم حكم الإسلام بين الناس، والكافر يعيش في عدل الإسلام، لا يُعتدى عليه ولا يُظلم، ما دام ملتزماً أحكام أهل الذمة. فدين الإسلام أعدل لليهود والنصارى من أديانهم المحرفة؛ لكن لما تُرِك الجهاد تضررت البشرية كلها؛ فالمسلم يخشى أن يفتن في دينه، والكافر يشكو من ظلم الأقوياء.

إن تعطيل الجهاد سببه الركون إلى الدنيا، وثمنه ذلاً لا يُرفع إلا به؛ كما قال النبي صلى الله عليه وسلم: «**إذا تبايعتم بالعينة، وأخذتم أذناب البقر، ورضيتم بالزرع، وتركتم الجهاد سلط الله عليكم ذلاً لا ينزعه حتى ترجعوا إلى دينكم**» أخرجه أحمد وأبو داود[١٠]، كلمات

(١٠) أخرجه أحمد (١/ ٢٨)، وأبو داود في البيوع باب في النهي عن العينة (٣٤٦٢)، والطبراني في الكبير (١٢/ ٤٣٢)، وأبونعيم في الحلية (١/ ٣١٣)، والبيهقي في الكبرى (٥/ ٣١٦)، ونقل ابن التركماني في الجوهر النقي أن ابن القطان عزاه للإمام أحمد في الزهد من طريق الأسود بن عامر حدثنا أبو بكر ابن عياش عن الأعمش عن عطاء عن ابن عمر به، ثم صححه ابن القطان وقال: هذا الإسناد رجاله كلهم ثقات. ونقل الحافظ قول ابن القطان ثم أعلّ الحديث وتعقب ابن القطان بقوله: «وعندي أن الحديث الذي صححه ابن القطان معلول؛ لأنه لا يلزم من كون رجاله ثقات أن يكون صحيحاً؛ لأن الأعمش مدلس ولم يذكر سماعه من عطاء. وعطاء يحتمل أن يكون هو الخرساني فيكون من تدليس التسوية بإسقاط نافع بين عطاء وابن عمر، فيرجع الحديث إلى الإسناد الأول وهو المشهور» التلخيص الحبير (٣/ ١٩) وعنه الصنعاني في السبل (٥/ ١٢٦)، وانظر: نيل الأوطار (٦/ ٢٩٧). =

قالها رسول الله صلى الله عليه وسلم منذ أربعة عشر قرناً، وهي تقع الآن، وتقع كلما ركن المسلمون إلى الدنيا، واستمعوا رحمكم الله تعالى إلى هذه الآيات التي تحث المؤمنين على الجهاد:

﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا مَا لَكُمْ إِذَا قِيلَ لَكُمُ انفِرُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ اثَّاقَلْتُمْ إِلَى الْأَرْضِ أَرَضِيتُم بِالْحَيَاةِ الدُّنْيَا مِنَ الْآخِرَةِ فَمَا مَتَاعُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا فِي الْآخِرَةِ إِلَّا قَلِيلٌ (٣٨) إِلَّا تَنفِرُوا يُعَذِّبْكُمْ عَذَابًا أَلِيمًا وَيَسْتَبْدِلْ قَوْمًا غَيْرَكُمْ وَلَا تَضُرُّوهُ شَيْئًا وَاللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ (٣٩) إِلَّا تَنصُرُوهُ فَقَدْ نَصَرَهُ اللَّهُ إِذْ أَخْرَجَهُ الَّذِينَ كَفَرُوا ثَانِيَ اثْنَيْنِ إِذْ هُمَا فِي الْغَارِ إِذْ يَقُولُ لِصَاحِبِهِ لَا تَحْزَنْ إِنَّ اللَّهَ مَعَنَا فَأَنزَلَ اللَّهُ سَكِينَتَهُ عَلَيْهِ وَأَيَّدَهُ بِجُنُودٍ لَّمْ تَرَوْهَا وَجَعَلَ كَلِمَةَ الَّذِينَ كَفَرُوا السُّفْلَىٰ وَكَلِمَةُ اللَّهِ هِيَ الْعُلْيَا وَاللَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ ﴾ [التوبة: ٣٨ - ٤٠].

أتدرون رحمكم الله متى نزلت هذه الآية؟! ﴿ إِلَّا تَنصُرُوهُ فَقَدْ نَصَرَهُ اللَّهُ ﴾.

إنها ما نزلت في وقت الهجرة، ولا بعدها مباشرة كما قد يتبادر إلى الذهن وإنما نزلت بعد تسع سنوات من الهجرة، بعدما انصرف

= وعزاه الزيلعي لأبي يعلى والبزار وأحمد في مسانيدهم ونقل عن ابن القطان تصحيحه. انظر: نصب الراية (١٧/٤)، وصححه الشيخ أحمد شاكر في شرحه على المسند (٤٨٢٥) وقال: «وهذا شيء مشاهد ظهرت آثاره في المسلمين حين صاروا عبيد الأرض والزرع؛ بل هو ظاهر في كل أمة استعبدتها الأرض وقصرت نفسها على الزرع. والجهاد هو ملاك الأمر كله في الإسلام رضي عبيد أوربة أم لم يرضوا» اهـ وذكره الألباني في السلسلة الصحيحة (١١) وقال: وهو حديث صحيح لمجموع طرقه.

المسلمون من تبوك[١١]، وأحسّوا بثقل الجهاد، وشدة وطأته، وكثرة تبعاته؛ خاصة وأنهم كانوا في حر شديد، وقطعوا مفاوز بعيدة. فأخبرهم الله تعالى أنه سينصر نبيه إذا لم ينصروه، كما نصره بالهجرة ونصره في بدر وما بعدها من غزوات، فالله تعالى ليس محتاجاً إلى أحد من خلقه في نشر دينه، ونصر عباده، ولكنه يبتلي عباده فينظر كيف يعملون.

هو القادر سبحانه على أن يقهر الكفر وأهله، وأن يبيد خضراءهم، وينهي حضارتهم؛ كما أهلك عاداً وثمود، وفرعون ذي الأوتاد، وإرم ذات العماد، وقوم نوح، وقوم إبراهيم، وقوم لوط، فأين هم الآن؟ وأين حضارتهم؟ بقيت بعض آثارهم شاهدة عليهم بالبأس والشدة؛ لكن بأس الله تعالى أخذهم، وقوته غلبتهم ﴿**وَاللَّهُ غَالِبٌ عَلَىٰ أَمْرِهِ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لا يَعْلَمُونَ**﴾ [يوسف: ٢١]، ﴿**وَاللَّهُ عَزِيزٌ ذُو انتِقَامٍ**﴾ [آل عمران: ٤].

وما نحن فيه ـ يا معشر المؤمنين ـ بلاء لنا، يبتلينا الله لينظر هل نغضب لدينه، وننصر عباده أم نأكل ونتمتع وننام وننسى ﴿**وَلَوْ يَشَاءُ اللَّهُ لانتَصَرَ مِنْهُمْ وَلَكِن لِّيَبْلُوَ بَعْضَكُم بِبَعْضٍ وَالَّذِينَ قُتِلُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ فَلَن يُضِلَّ أَعْمَالَهُمْ (٤) سَيَهْدِيهِمْ وَيُصْلِحُ بَالَهُمْ (٥) وَيُدْخِلُهُمُ الْجَنَّةَ عَرَّفَهَا لَهُمْ (٦) يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِن تَنصُرُوا اللَّهَ يَنصُرْكُمْ وَيُثَبِّتْ أَقْدَامَكُمْ (٧) وَالَّذِينَ كَفَرُوا فَتَعْسًا لَّهُمْ وَأَضَلَّ أَعْمَالَهُمْ**﴾ [محمد: ٤ - ٨].

---

(١١) فهي في سورة التوبة وهي آخر سورة نزلت من القرآن كما دل على ذلك حديث البراء رضي الله عنه قال: «آخر سورة نزلت كاملة براءة» أخرجه البخاري في المغازي باب حج أبي بكر بالناس في سنة تسع (٤٣٦٤).

فعودوا إلى الله تعالى أيها المسلمون، وأصلحوا أنفسكم وبيوتكم، ومن وليتم أمرهم؛ فهذه هي الخطوات الأولى لجهاد النفس والشيطان، ومن ثم جهاد الكفار.

إن من دلائل محبة الجهاد: الجهاد بالمال، والنفقة على المجاهدين، وتجهيز الغزاة في سبيل الله تعالى، وإغاثة المنكوبين من المسلمين في أرجاء المعمورة على أيدي اليهود والنصارى والوثنيين، وإن إخوانكم المسلمين المستضعفين يستصرخونكم لنجدتهم وعونهم بالمال والمتاع لتخفيف معاناة الأرامل واليتامى والمشردين فأعينوهم على نوائبهم أعانكم الله، وأجيبوا صرخاتهم بما منّ الله به عليكم من فائض الأموال. فذلك باب من الشكر عظيم تُحفظُ به الأموال والأولاد، ويُدفع به البلاء، ويطفئ غضب الجبار جل وعلا. وصلوا وسلموا على نبينا محمد كما أمركم بذلك ربكم.

٤٧- الجهاد في سبيل الله تعالى (٢) تاريخه وثمراته

الجمعة ١٦/ ٧/ ١٤٢١هـ

إن الحمد لله نحمده ونستعينه ونستغفره، ونعوذ بالله من شرور أنفسنا، ومن سيئات أعمالنا، من يهده الله فلا مضل له، ومن يضلل فلا هادي له، وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له، وأشهد أن محمداً عبده ورسوله، ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ حَقَّ تُقَاتِهِ وَلا تَمُوتُنَّ إِلاَّ وَأَنتُم مُّسْلِمُونَ﴾ [آل عمران: ١٠٢] ﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ اتَّقُوا رَبَّكُمُ الَّذِي خَلَقَكُم مِّن نَّفْسٍ وَاحِدَةٍ وَخَلَقَ مِنْهَا زَوْجَهَا وَبَثَّ مِنْهُمَا رِجَالاً كَثِيرًا وَنِسَاءً وَاتَّقُوا اللَّهَ الَّذِي تَسَاءَلُونَ بِهِ وَالأَرْحَامَ إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلَيْكُمْ رَقِيبًا﴾ [النساء: ١] ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَقُولُوا قَوْلاً سَدِيدًا (٧٠) يُصْلِحْ لَكُمْ أَعْمَالَكُمْ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ وَمَن يُطِعِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ فَقَدْ فَازَ فَوْزًا عَظِيمًا﴾ [الأحزاب: ٧٠-٧١].

أما بعد: فإن أصدق الحديث كلام الله تعالى، وخير الهدي هدي محمد صلى الله عليه وسلم، وشر الأمور محدثاتها، وكل محدثة بدعة، وكل بدعة ضلالة، وكل ضلالة في النار.

أيها المسلمون: قضى الله تعالى أن يكون خاتم الرسل وأفضلهم محمداً صلى الله عليه وسلم، وأن تكون شريعته حاكمة بين الناس إلى يوم القيامة، فلا دينَ حقٌ إلا دين الإسلام، ولا طريق يوصل إلى الله تعالى إلا الطريق الذي دلنا عليه محمد صلى الله عليه وسلم. وأُمر من دان بالإسلام أن يسعى بكل استطاعته لأنْ تكون شريعة الإسلام

حاكمة بين الناس كلهم، ومهيمنة على كل الشـرائـع ﴿وَأَنزَلْنَا إِلَيْكَ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ مُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ مِنَ الْكِتَابِ وَمُهَيْمِنًا عَلَيْهِ فَاحْكُم بَيْنَهُم بِمَا أَنزَلَ اللَّهُ وَلا تَتَّبِعْ أَهْوَاءَهُمْ عَمَّا جَاءَكَ مِنَ الْحَقِّ﴾ [المائدة: ٤٨].

وهذا التمكين لدين الإسلام، ونشره في الناس، والحكم بشريعته فيما بينهم يكون بالدعوة إلى الله تعالى على بصيرة، بالحكمة والموعظة الحسنة والجدال بالتي هي أحسن، ويكون بالقتال لمن أبى الخضوع لشريعة الإسلام عملاً بقول الله تعالـى: ﴿وَقَاتِلُوهُمْ حَتَّىٰ لا تَكُونَ فِتْنَةٌ وَيَكُونَ الدِّينُ لِلَّهِ﴾ [البقرة: ١٩٣] قال جمع من السلف: «معنى: ﴿وَيَكُونَ الدِّينُ لِلَّهِ﴾ أيْ يخلص التوحيد لله»[(١)]، وقال قتادة: «حتى يقال لا إله إلا الله، عليها قاتل رسول الله صلى الله عليه وسلم وإليها دعا، وذكر لنا أن النبي صلى الله عليه وسلم كان يقـول: **إن الله أمرني أن أقاتل الناس حتى يقولوا: لا إله إلا الله**، ﴿فَإِنِ انتَهَواْ فَلا عُدْوَانَ إِلاَّ عَلَى الظَّالِمِينَ﴾ قال: **وإن الظالم الذي أبى أن يقول: لا إله إلا الله، يقاتل حتى يقول: لا إله إلا الله**»[(٢)]، وثبت عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال: «**اغزوا باسم الله في سبيل الله قاتلوا من كفر بالله**»[(٣)].

---

(١) ممن قال ذلك: ابن عباس رضي الله عنهما وأبو العالية ومجاهد والحسن وزيد بن أسلم رحمهم الله تعالى. انظر: جامع البيان (٢/ ١٩٤)، وتفسير ابن كثير (١/ ٣٤١)، والدر المنثور للسيوطي (١/ ٣٧١) عند تفسير الآية (١٩٣) من سورة البقرة.

(٢) جامع البيان (٢/ ١٩٤)، والناسخ والمنسوخ للنحاس (٢٩)، والدر المنثور (١/ ٣٧١).

(٣) أخرجه مسلم في الجهاد والسير باب تأمير الإمام الأمراء على البعوث ووصيته=

وهذه المهمة الجليلة من أعظم المهمات التي كلف بها المسلمون؛ بل هي أعظمها بعد توحيد الله تعالى؛ ولذا كان صاحبها وحاملها أحسن الناس قولاً، وكان الموت في سبيلها أفضل أنواع الموت على الإطلاق، وسماه الله تعالى شهادة، وسمى المقتول فيها شهيداً. قال أهل اللغة: «لأن الله وملائكته شهود له بالجنة، أو لأنه حيٌّ لم يمت شاهدٌ عند ربه حاضر، أو لقيامه بشهادة الحق في أمر الله تعالى حتى قتل»(٤).

ومع شرف هذه المنزلة العظيمة لمن قام بهذه المهمة الجليلة فإنها ابتلاء يعجز كثير من المكلفين عن أدائه بسبب ضعف الإيمان، والخلود إلى الأرض، والركون إلى الدنيا كما قال الله تعالى: ﴿**فَإِذَا لَقِيتُمُ الَّذِينَ كَفَرُوا فَضَرْبَ الرِّقَابِ حَتَّىٰ إِذَا أَثْخَنتُمُوهُمْ فَشُدُّوا الْوَثَاقَ فَإِمَّا مَنًّا بَعْدُ وَإِمَّا فِدَاءً حَتَّىٰ تَضَعَ الْحَرْبُ أَوْزَارَهَا ذَٰلِكَ وَلَوْ يَشَاءُ اللَّهُ لَانتَصَرَ مِنْهُمْ وَلَٰكِن لِّيَبْلُوَ بَعْضَكُم بِبَعْضٍ وَالَّذِينَ قُتِلُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ فَلَن يُضِلَّ أَعْمَالَهُمْ**﴾ [محمد: ٤].

= إياهم بآداب الغزو وغيرها (١٧٣١)، وأبو داود في الجهاد باب ما جاء في وصيته صلى الله عليه وسلم في القتال (١٦١٧) من حديث بريدة رضي الله عنه.

(٤) ذكر أهل اللغة أحد عشر وجهاً لتسميته بهذا الاسم منها: الثلاثة المذكورة في الخطبة وأيضاً: «لأن ملائكة الرحمة تشهده، أو لأنه ممن يستشهد يوم القيامة، أي: يكون شهيداً على الأمم، أو لسقوطه على الشاهدة وهي الأرض، أو لأنه يشهد ملكوت الله وملكه، أو لأنه يشهد ما أعد الله له من الكرامة بالقتل، أو لأنه شهد المغازي، أو لأنه شُهد له بالإيمان وخاتمة الخير بظاهر حاله، أو لأن عليه شاهداً يشهد بشهادته وهو دمه». اهـ انظر: مادة (شهد) في القاموس المحيط (٣٧٢) وشرحه تاج العروس (٨/ ٢٥٤ ـ ٢٥٥).

قال السرخسي رحمه الله تعالى: «كان رسول الله صلى الله عليه وسلم مأموراً في الابتداء بالصفح والإعراض عن المشركين. قال تعالى: ﴿فَاصْفَحِ الصَّفْحَ الْجَمِيلَ﴾ [الحجر: ٨٥] ثم أمر بالقتال إذا كانت البداية منهم فقال تعالى: ﴿أُذِنَ لِلَّذِينَ يُقَاتَلُونَ بِأَنَّهُمْ ظُلِمُوا﴾ [الحج: ٣٩] أي أذن لهم في الدفع، وقال تعالى ﴿فَإِن قَاتَلُوكُمْ فَاقْتُلُوهُمْ﴾ [البقرة: ١٩١] ثم أمر بالبداة بالقتال فقال تعالى: ﴿وَقَاتِلُوهُمْ حَتَّىٰ لَا تَكُونَ فِتْنَةٌ﴾ [البقرة: ١٩٣] وقال تعالى: ﴿فَاقْتُلُوا الْمُشْرِكِينَ حَيْثُ وَجَدتُّمُوهُمْ﴾ [التوبة: ٥] فاستقر الأمر على فرضية الجهاد مع المشركين، وهو فرض قائم إلى قيام الساعة» اهـ[٥].

وقال شيخ الإسلام ابن تيمية رحمه الله تعالى: «وإذا كان أصل القتال المشروع هو الجهاد، ومقصوده هو أن يكون الدين كله لله، وأن تكون كلمة الله هي العليا؛ فمن منع هذا قوتل باتفاق المسلمين» اهـ[٦].

لقد قام رسول الله صلى الله عليه وسلم وصحابته الكرام رضي الله عنهم، ومن بعدهم المسلمون عبر القرون بهذه المهمة الجليلة، وأدوا هذا الركن الركين: الجهادَ في سبيل الله تعالى؛ فكسروا عروش

(٥) المبسوط (١٠/ ٢ ـ ٣).

(٦) السياسة الشرعية (١٣٢ ـ ١٣٣) ولمزيد إيضاح ذلك انظر: الذخيرة للقرافي (٣/ ٢٨٧)، وزاد المعاد لابن القيم (٢/ ٥٨)، والسيل الجرار للشوكاني (٤/ ٥١٨ ـ ٥١٩)، ونقل الجصاص الإجماع على مشروعية مبادأة المشركين بالقتال ولو اعتزلوا قتالنا إذا رفضوا الخضوع لسلطان الإسلام. انظر: أحكام القرآن (٣/ ١٩١).

الأكاسرة والقياصرة والجبابرة، ودانت الأمم للإسلام، وخضعت لسلطانه، ودخل الناس في دين الله أفواجاً، وعم الأمن والعدل والخير أرجاء الأرض.

شرع الجهاد ومبادأة المشركين بالقتال عقب الهجرة إلى المدينة، وانطلقت الشرارة الأولى في بدر الكبرى التي كُسِر فيها جيش المشركين، ثم قضي على دولتهم بفتح مكة.

وبالجهاد قضى المسلمون على بني قريظة، وأجلوا بقية قبائل اليهود، وأنهوا دولتهم في الجزيرة العربية في غزوة خيبر.

وبالجهاد كسر المسلمون الروم، وأنهو دولتهم في الشرق، وودع هرقل سورية وداعاً لا لقاء بعده(٧).

وبالجهاد رد المسلمون ثماني حملات صليبية كبرى سيَّرتها أوربة للاستيلاء على بيت المقدس، ورجع الصليبيون على أدبارهم خاسرين إلى أوربة بعد مئتي سنة من القتال، وهزموا شر هزيمة على يد صلاح الدين في حطين الذي كان يومها يوماً مجيداً في تاريخ الإسلام، وشامة بيضاء في سيرة صلاح الدين رحمه الله تعالى.

وبالجهاد أوقف المسلمون الاجتياح التتري المغولي، وكسرهم المسلمون في عين جالوت التي كان يومها يوماً حاسماً في تاريخ المسلمين، ولم يقم للمغول بعدها قائمة؛ بل دخل كثير منهم في الإسلام.

وبالجهاد توغل بنو عثمان في أوربة، وفتحوا منطقة البلقان، وامتدّ

(٧) انظر: فتوح البلدان للبلاذري (١٤٢).

سلطان الإسلام في الأرض.

وبالجهاد عاش المسلمون أعزةً، لا تدنس لهم كرامة إلا سيروا الجيوش، وعقدوا الرايات، وقاتلوا العدو.

لقد أدرك أعداء الإسلام أن الجهاد هو القوة التي يملكها كل من يؤمن بالله تعالى، وأن استرخاص النفس والمال في سبيل الله تعالى هو السبب الرئيس للنصر مهما قلّ العدد، وضعفت العدة؛ ولذلك فإنهم تآمروا بعد دراسات طويلة، وتجارب عديدة على إيقاف الجهاد الذي أزعجهم، وأقض مضاجعهم، فخرجوا إثر سقوط الدولة العثمانية باتفاقية (سايكس بيكو)(٨) المشهورة التي بموجبها قسموا العالم الإسلامي إلى دويلات تحكمها القوى الاستعمارية، ثم وضعوا المواثيق الدولية

(٨) هي اتفاقية تمت على إثر سقوط الدولة العثمانية بعد الحروب العالمية الأولى (١٩١٤م) حيث اجتمع عضو البرلمان البريطاني والمندوب السامي لشؤون الشرق الأدنى مارك سايكس، وقنصل فرنسا في بيروت ومعتمدها السامي جورج بيكو، وذلك في آيار من عام (١٩١٦م) ووضعوا اتفاقية بموجبها اقتسمت بريطانيا وفرنسا الدولة العثمانية المنهارة، ووافقت روسيا على ذلك بشرط أن تكون لها استانبول، وتلك الاتفاقية هي التي مهدت عملياً لتوطين اليهود في فلسطين بعد أن انتزعت من العثمانيين إثر إسقاط حكم السلطان عبد الحميد رحمه الله الذي رفض بيع فلسطين لليهود فكانت تلك منقبة عظيمة له، فلما سقطت دولته، وألغيت خلافته وقعت فلسطين تحت الاستعمار البريطاني فيما يسمى (بالانتداب) ثم سلمها الإنجليز لليهود ووطنوهم فيها بعد وعد وزير خارجية بريطانيا آنذاك (بلفور) وهو الشهير (بوعد بلفور) ولمعرفة بنود هذه الاتفاقية انظر: فلسطين والمؤامرة الكبرى لمصطفى الطحان (٨١ ـ ٨٥).

في عصبة الأمم، ثم هيئة الأمم المتحدة التي كان منها: إلغاء الجهاد، والقضاء عليه، واعتباره تعدياً وظلماً وإرهاباً، وجعلوا الهيئات الدولية التي أنشؤوها مظلة لإجهاض كل جهاد حتى ولو كان لدفع العدوان ورد المعتدين، وذلك بالهدنة تارة، وتارة أخرى بالحلول السلمية الهزيلة التي لا تخرج عن كونها ظلماً للمسلمين، ومكافأة لمن اعتدى عليهم؛ كما هو الحال في فلسطين بين المسلمين واليهود؛ إذ إن اليهود يكافؤون على كل اعتداء على المسلمين أو على المسجد الأقصى باتفاقية تكون في صالحهم. ومن رفضها من المسلمين عوقب بالحصار والتجويع، وربما بالقوة والضرب على اعتبار أنه خارج عن القوانين الدولية. وفي مقابل ذلك لا يعاقب اليهود على عدم تنفيذهم للقرارات الدولية ولو كان فيها ظلم للمسلمين؛ لأنهم يريدون ما هو أكثر منها، ونجحوا في ذلك أخزاهم الله تعالى.

لقد بلغ خوف الأعداء من الجهاد، وكراهيتهم التلفظ به مبلغاً عظيماً؛ حتى إن الحركات الجهادية الدافعة لعدوان المعتدين لا يسمونها جهاداً؛ وإنما تسمى: مقاومة، أو ثورة، أو انتفاضة، أو نحو ذلك من المسميات التي تخرجها من مصطلح الجهاد الشرعي، ويسمون أصحابها: ثواراً، أو مقاومين، أو فدائيين، أو مقاتلين كما هو مسموع في الإذاعات العالمية بل والعربية إلا القليل منها، وإن سماه بعضهم جهاداً فعلى استحياء وبخفض صوت.

لقدكان هذا جزءاً من مكرهم وكيدهم على الجهاد والإسلام، ردّ

الله تعالى كيدهم عليهم، وخلِّص المسلمين من شرهم وكَلَبِهم إنه سميع مجيب.

أعوذ بالله من الشيطان الرجيم: ﴿وَقَدْ مَكَرُوا مَكْرَهُمْ وَعِندَ اللَّهِ مَكْرُهُمْ وَإِن كَانَ مَكْرُهُمْ لِتَزُولَ مِنْهُ الْجِبَالُ (٤٦) فَلا تَحْسَبَنَّ اللَّهَ مُخْلِفَ وَعْدِهِ رُسُلَهُ إِنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ ذُو انتِقَامٍ﴾ [إبراهيم: ٤٦، ٤٧].

بارك الله لي ولكم في القرآن العظيم،،،

الخطبة الثانية

الحمد لله رب العالمين، والعاقبة للمتقين، ولا عدوان إلا على الظالمين، وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له ولي الصالحين، وأشهد أن محمداً عبده ورسوله صلى الله وسلم وبارك عليه وعلى آله وأصحابه والتابعين ومن تبعهم بإحسان إلى يوم الدين.

أما بعد: فاتقوا الله ـ أيها المؤمنون ـ يكفكم كيد عدوكم، وينصركم عليهم ﴿وَإِن تَصْبِرُوا وَتَتَّقُوا لا يَضُرُّكُمْ كَيْدُهُمْ شَيْئًا إِنَّ اللَّهَ بِمَا يَعْمَلُونَ مُحِيطٌ﴾ [آل عمران: ١٢٠].

أيها المؤمنون: لقد ثبت عملياً أن المخرج الوحيد للأمة من ذلتها ومهانتها بعد الإيمان بالله تعالى وتصحيح المسيرة: الجهاد في سبيل الله تعالى، الذي هو بوابة العز والكرامة والأنفة، فهو الراية الوحيدة التي تجتمع عليها الأمة المسلمة في مشارق الأرض ومغاربها.

لقد رفعت فيما مضى الرايات الوطنية والقومية، وشكلت الأحزاب البعثية والاشتراكية، ونودي بالمشاريع الليبرالية والماركسية على أنها

السبيل لعلاج أدواء الأمة، فثبت عملياً وبالتجربة المرّة أنها هي الداء، وتجرع المسلمون طيلة العقود الماضية مرارة تجربتها.

لقد فرقتهم هذه الشعارات الجاهلية، ومزقتهم وأضعفتهم؛ فتمكن منهم عدوهم. وأثبتت الأحداث الأخيرة أن راية الجهاد: هي الراية التي لا يمكن تنكيسها وقد نُكست الرايات الأخرى، وأن شعار التكبير هو الشعار الذي يهز القلوب، وتقشعر منه الأبدان، وتسيل على إثره المدامع.

إنه الشعار الذي يعلنه من يحمل الحجر ليواجه جنوداً متترسين خلف الدبابة فيخافونه، إنهم لم يخافوا الشعارات القومية، ولا الأهازيج الوطنية؛ ولكنهم خافوا التكبير الذي يعلن فيه المسلم أن الله تعالى أكبر من قوة العدو، ومن سلاحه، ومن عتاده، ومن كل شيء، سبحانه وتعالى.

لقد رسمت الأحداث الأخيرة صورة جميلة من التضحية والبذل والعطاء، والجهاد بالمال، فمن عجز عن الجهاد بنفسه بذل جزءاً من ماله وربما بذله كله، وكم رأينا وسمعنا من أخبار قوم دمعت لها العيون، وتحركت لها القلوب. منهم من بذل بيته، ومنهم من بذل سيارته، ومنهم من لم يجد شيئاً فبذل دمه وتبرع بجزء منه[٩].

---

(٩) اشتعلت الأحداث في القدس على إثر اقتحام اليهودي شارون للمسجد الأقصى فرده المسلمون فانطلقت شرارة الأحداث لتلهب فلسطين ومنطقة الشرق الإسلامي (الأوسط) بأسرها، وأحدث ذلك يقظة في الأمة خوفاً على المسجد الأقصى من أن يهدمه اليهود الغاصبون.

الله أكبر، إنها أمة حية لا تموت ولو حاول الأعداء إماتتها، إنها تخدر وتتأثر بتأثير المسكنات؛ حتى يظن العدو أنها ماتت، فإذا هي من جراء حدث يمس كرامتها، أو يعتدى فيه على مقدس من مقدساتها تهب من رقدتها، ويشتعل لهبها، ويبذل أبناؤها دماءهم وأموالهم رخيصة في سبيل حفظ دينها وكرامتها ومقدساتها من أن يمتهنها الأعداء.

لقد أعادت الأحداث الأخيرة في بيت المقدس للأمة حياتها على خلاف حسابات ودراسات الذين كفروا، فهل يحسن المسلمون توظيف ذلك بالدعوة إلى الله تعالى، والتخلص من الذنوب، ونصب راية الجهاد، والانضواء تحتها، أم ترى أن الأعداء يستطيعون احتواء الموقف، وإخماد النار الملتهبة، التي تكاد تحرقهم كما أخمدوا مثيلاتها من قبل؟!

عسى ألا يكون ذلك، ونسأل الله تعالى أن يعز دينه، وينصر جنده، ويدحر أعداءه إنه سميع مجيب، وصلوا وسلموا على نبيكم محمد ابن عبدالله كما أمركم بذلك ربكم،،،

٤٨- حقوق الأجراء

الجمعة ٢٩/ ٤/ ١٤١٨هـ

الحمد لله، نحمده ونستعينه ونستغفره، ونعوذ بالله من شرور أنفسنا ومن سيئات أعمالنا، من يهده الله فلا مضل له ومن يضلل فلا هادي له، وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له، وأشهد أن محمداً عبده ورسوله ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ حَقَّ تُقَاتِهِ وَلا تَمُوتُنَّ إِلاَّ وَأَنتُم مُّسْلِمُونَ (١٠٢)﴾ [آل عمران] ﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ اتَّقُوا رَبَّكُمُ الَّذِي خَلَقَكُم مِّن نَّفْسٍ وَاحِدَةٍ وَخَلَقَ مِنْهَا زَوْجَهَا وَبَثَّ مِنْهُمَا رِجَالاً كَثِيرًا وَنِسَاءً وَاتَّقُوا اللَّهَ الَّذِي تَسَاءَلُونَ بِهِ وَالأَرْحَامَ إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلَيْكُمْ رَقِيبًا (١)﴾ [النساء] ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَقُولُوا قَوْلاً سَدِيدًا (٧٠) يُصْلِحْ لَكُمْ أَعْمَالَكُمْ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ وَمَن يُطِعِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ فَقَدْ فَازَ فَوْزًا عَظِيمًا (٧١)﴾ [الأحزاب].

أما بعد: فإن القوة ليست في التسلط على الضعفاء والمساكين، وبخس حقوقهم، وأكل أموالهم بالباطل، والولوج من كل باب يؤدي إلى مال ودنيا، دون النظر إلى حله وحرمته. إنما القوةُ الحقيقية هي في السيطرة على النفس وشهواتها، وكبح جماحها، أن تظلم الآخرين أو تبخس حقوقهم، في مراقبة دائمة لله عز وجل مع استحضار قوة الله وبطشه، وسرعة انتقامه من الظالمين.

وهذا تذكيرٌ بلزوم أداء الحقوق إلى أهلها، في زمن تهاون فيه كثير من الناس بحقوق الأجراء والعمال؛ يستأجر الواحد منهم أجيراً

فيؤدي عمله كاملاً، فيدفع الطمعُ صاحبَ العمل إلى المماطلة والتأخير في دفع الأجرة. ولقد ازدحمت المحاكم بكثرة الدعاوى، واشتكت المكاتب المسؤولة من كثرة الشكاوى.

وهذه الظاهرة الظالمة تنم عن قسوة قلوب كثير من المستقدمين والمستأجرين للأجراء، وتظهر مدى جشعهم وطمعهم واستبدالهم شكر نعمة المال كفراً، فنعوذ بالله من نفوس لا تشبع، ومن قلوب لا تخشع.

أيها الإخوة: إن من أعظم الظلم في الاستئجار والاستقدام أن يُفضَّل الكافر على المسلم، فيستقدمُ صاحبُ العمل خدماً أو عمالاً كافرين، رجالاً كانوا أم نساءً من بلاد فيها مسلمون محتاجون إلى هذا العمل، لا يراقب الله في صنيعه هذا، ولا يهتم لمسألة الولاء والبراء، ويتذرع بحجج واهية من دعوى أن الكافر أتقنُ لعمله من المسلم، وأحفظُ للأمانة، وأوفى بالعهد، وغيرُ ذلك مما يردده - وللأسف - بعضُ المسلمين.

وما علم هؤلاء أن الأصلَ في الكافر الخيانة والغدر؛ لأن من خان الله في عبادته، وخان رسوله في اتباعه فهو أولى بكل خيانة.

لكن تأبى بصائرُ هؤلاء إلا أن تعمى عن الحق، ويأبى نظرُهم إلا أن يكون ضيقاً محدوداً، ينخدع بتمسكنِ الكافر، وإظهار إخلاصه وإتقانه، وقد أشار الله تعالى إلى هذا الإعجاب بالكافر وبيّن أن الخيرية هي في المؤمن مهما بلغ الإعجاب بالكافر، فقال عز من قائل ﴿**وَلَعَبْدٌ مُّؤْمِنٌ خَيْرٌ مِّن مُّشْرِكٍ وَلَوْ أَعْجَبَكُمْ**﴾ [البقرة: ٢٢١] نعم والله، ولو أعجبكم شكله ومظهره، وما يظهر من أمانته وإتقانه؛ فإن المؤمن يبقى خيراً

وأفضل ولا سيما أن الله تعالى قد خوّن الكافرين.

روى عياضٌ الأشعريُ: «أن أبا موسى رضي الله عنه وفد إلى عمر ابن الخطاب رضي الله عنه ومعه كاتب نصراني، فأعجب عمرَ رضي الله عنه ما رأى من حفظه فقال: قل لكاتبك يقرأ لنا كتاباً، قال: إنه نصراني لا يدخل المسجد، فانتهره عمرُ رضي الله عنه، وهمّ به وقال: لا تكرموهم إذ أهانهم الله، ولا تدنوهم إذ أقصاهم الله، ولا تأتمنوهم إذ خونهم الله عز وجل». وفي رواية قال أبو موسى: «فانتهرني عمر وضرب فخذي وقال: أخرجه، وقرأ ﴿ **يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لا تَتَّخِذُوا الْيَهُودَ وَالنَّصَارَىٰ أَوْلِيَاءَ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَاءُ بَعْضٍ وَمَن يَتَوَلَّهُم مِّنكُمْ فَإِنَّهُ مِنْهُمْ إِنَّ اللَّهَ لا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ** ﴾ [المائدة: ٥١] قال أبو موسى: والله ما توليته، إنما كانَ يكتب. قال: أما وجدت في أهل الإسلام من يكتب لك؟ لا تدنهم إذ أقصاهم الله، ولا تأمنهم إذ خانهم الله، ولا تعزهم بعد إذ أذلهم الله فأخرجه» أخرجه البيهقي بإسناد صحيح (١).

ويكون الأمرُ متناهياً في الإثم حينما يكون عند صاحب العمل أجراءُ مسلمون يُرئِسُ عليهم كافراً يضطهدُهم ويهينهم ويمنعهم من أداء شعائر دينهم بحجةِ العمل؛ بل يكرههم على الردة والكفر بأفعاله وتصرفاته، والله تعالى يقول: ﴿ **وَلَن يَجْعَلَ اللَّهُ لِلْكَافِرِينَ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ سَبِيلاً** (١٤١) ﴾ [النساء]. وبعض المسلمين يأبون إلا أن يجعلوا للكافر

---

(١) أخرجه البيهقي في السنن الكبرى بالروايتين المذكورتين (١٠/ ١٢٧) وصحح الألباني الرواية الأولى وحسن الثانية كما في إرواء الغليل (٨/ ٢٥٥).

على المؤمن سبيلاً وفي بلاد المسلمين!!

وبعض أرباب العمل - هداهم الله - يظلمون الأجراء فيكلفونهم من العمل ما لا يطيقون، أو ما لم يتفق عليه في عقد العمل. وهذا مخالفٌ لأمر الله بالوفاء بالعقود ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا أَوْفُوا بِالْعُقُودِ﴾ [المائدة: ١] أو يكتب العقد بعبارات واسعة فجة تحتمل جميع الأعمال، لئلا يُحتج عليه بالعقد؛ ظاناً أنه بهذه الحيل يخرج من الإثم، جاهلاً أو متجاهلاً وجوب أن يكون العقد بينه وبين الأجير واضحاً لكل منهما.

قال الموفقُ ابنُ قدامة رحمه الله تعالى فيمن استؤجر لحفر أرض: «ويحتاج إلى معرفة الأرض التي يحفر فيها... لأن الأرض قد تكون صلبة فيكون الحفر عليه شاقاً، وقد تكون سهلة فيسهل ذلك عليه. وإن قدّره بالعمل فلا بد من معرفة الوضع بالمشاهدة؛ لأن المواضع تختلف بالسهولة والصلابة ولا ينضبط ذلك بالصفة... وإن وصل إلى صخرة أو جماد يمنع الحفر لم يلزمه حفره؛ لأن ذلك مخالف لما شاهده من الأرض. وإنما اعتبرت مشاهدة الأرض؛ لأنها تختلف، فإذا ظهر فيها ما يخالف المشاهدة كان له الخيار في الفسخ، فإذا فسخ كان له من الأجر بحصة ما عمل» اهـ[٢].

فما موقع هذا الكلام الدقيق من قلوب أقوام يتسلطون على الأجراء، ويكلفونهم من العمل ما هو خارج عن الاتفاق بينهم وبين أجرائهم،

---

(٢) المغني لابن قدامه (٨/ ٣٧).

ويهددونهم بتأخير أجورهم أو منعها إذا لم يعملوا لهم ما يريدون مما لايلزم الأجراء؟!

ومن ظواهر تقديم الدنيا على حق الله تعالى والدار الآخرة: ما يفعله بعض المسلمين من منع عُمَّالهم من أداء الصلاة في الجماعة؛ حتى صلاة الجمعة. وربما اضطروهم إلى تأخير الصلاة عن وقتها، أو ألزموهم بالفطر في الصيام الواجب، أو منعوهم من الحج مع اشتراطه في عقد العمل. وكثير من العُمَّال قد يجدون أعمالاً في بلادهم لكن يحفزهم إلى العمل في هذه البلاد المباركة التمكن من أداء الحج فيشترطونه في العقد ومع ذلك لا يُمَكِّنُهم أصحاب الأعمال منه وإن كانوا لا يتضررون بذلك. فضلاً عن منعهم من نوافل العبادات.

قال الإمام أحمد رحمه الله تعالى: «أجير المشاهرة - أي: الذي استؤجر بالشهر - يشهد الأعياد والجمعة ولا يشترط لذلك» - أي: أنه من لوازم العقد بلا شرط - قيل له: فيتطوع بالركعتين قال: «ما لم يُضرَّ بصاحبه»، قال ابن قدامة: «إنما أباح له ذلك؛ لأن أوقات الصلاة مستثناة من الخدمة». وقال ابن المبارك: «لا بأس أن يصليَ الأجيرُ ركعات السنة»، وقال أبو ثور وابنُ المنذر: «ليس له منعه منها» (٣).

أيها الإخوة: ومن عظيم الظلم والإثم تأخيرُ دفع مستحقات الأجير والمماطلةُ فيها، وتوقيعُه مكرهاً على استلامها وهو لم يستلمها، وتهدُيده

---

(٣) المغني (٨/ ٤٣).

عند التذكير بحقه بإلغاء عقده وتسفيره. وكم في هذا الصنيع وما جرى مجراه من الظلم والبغي والعدوان، يمنعُ ضعيفاً حقه، ويأكل ماله بالباطل!!

ضعيفٌ تغرب عن بلاده، وفارق أهله وأولاده، واحتمل المكاره من أجل الرزق الحلال. ربما كان أهله وأولاده جوعى يطعمهم من أجره كل شهر، فكيف يُمنعُ أجره، ويُجوَّعُ أولادُه؟! ربما كان يبعث المال لعلاج والدين مريضين فيُؤخرُ حقه فيتأخر الدواء عنهما!! ربما كان يدفع بهذا الأجر عن أولاده خطر التنصير والكفر!!

إنه لم يخرج من بلاده، ويفارق أولاده إلا من حاجة، فكيف تستغلُ حاجته، وتؤخرُ حقوقه؟! وإذا كان تأخير الحق أو منعُه مع عدم حاجة الأجير إلى حقه ظلماً فكيف مع وجود الحاجة؛ بل الحاجةِ المُلِّحة.

عن أبي سعيد الخدري رضي الله عنه قال: «جاء أعرابي إلى النبي صلى الله عليه وسلم يتقاضاه ديناً كان عليه، فاشتدَّ عليه؛ حتى قال له: أحرِّج عليك إلا قضيتني، فانتهره أصحابه وقالوا: ويحك! تدري من تكلم، قال: إني أطلب حقي، فقال النبي صلى الله عليه وسلم: **«هلا مع صاحب الحق كنتم»** ثم أرسل إلى خولة بنت قيس فقال لها: **«إن كان عندك تمر فأقرضينا حتى يأتينا تمرنا فنقضيَكِ»**، فقالت: نعم بأبي أنت يا رسول الله، قال: فأقرضته، فقضى الأعرابيَّ وأطعمه، فقال: أوفيت أوفى الله لك، فقال: **«أولئك خيار الناس، إنه لا قدست**

أمةٌ لا يأخذ الضعيفُ فيها حقه غيـر متعتع» أخرجه ابن ماجه بإسناد صحيح (٤).

وعن أبي حُميد الساعدي أن النبي صلى الله عليه وسلم قال: «**لا يحل لمسلم أن يأخذ عصا أخيه بغير طيب نفس منه.** قال ذلك لشدة ما حرم الله من مال المسلم على المسلم» أخرجه أحمد وابن حبان(٥).

وفي صحيح البخاري من حديث أبي هريرة رضي الله عنه عن النبي صلى الله عليه وسلم قال: «**قال الله تعالى: ثلاثة أنا خصمهم يوم القيامة ومن كنت خصمَه خصمته يوم القيامة. رجل أعطى بي ثم غدر، ورجل باع حراً فأكل ثمنه، ورجل استأجر أجيراً فاستوفى منه ولم يعطه أجره**» (٦). قال ابن التين: «هو سبحانه خصم لجميع الظالمين إلا أنه أراد التشديد على هؤلاء بالتصريح». وقال الحافـظ ابن حجر رحمه الله: «هو في معنى من باع حراً وأكل ثمنه؛ لأنه استوفى منفعته بغير عوض

---

(٤) أخرجه ابن ماجه في الصدقات باب لصاحب الحق سلطان (٢٤٢٦) وقـال البوصيري في مصباح الزجاجة: هذا إسناد صحيح رجاله ثقات رواه أبو يعلى ورواته رواة الصحيح (٢/ ٢٤٩).

(٥) أخرجه أحمد (٥/ ٤٢٥) والبزار وحسنه (٢/ ٢٣٤) والبيهقي في الـكـبـرى (٦/ ١٠٠) وابن حبان واللفظ له (٥٩٤٦) قال الهيثمي في المجمـع: رواه أحمد والبزار ورجال الجميع رجال الصحيح (٤/ ١٧١) وصححه الألباني في غاية المرام (٤٥٦).

(٦) أخرجه أحمد (٢/ ٣٥٨) والبخاري في البيوع باب إثم من باع حراً دون زيادة «**ومن كنت خصمه خصمته يوم القيامة**» (٢٢٢٧) وابن ماجه والزيادة له في الرهون باب أجر الأجراء (٢٤٤٢).

وكأنه أكلها، ولأنه استخدمه بغير أجرة وكأنه استعبده» اهـ[٧].

ولعظيم حق الأجير أمر رسول الله صلى الله عليه وسلم أن يعطى أجرته فور استحقاقه لها من دون تأخير ولا مماطلة قال عليه الصلاة والسلام: «**أعطوا الأجير أجره قبل أن يجفّ عرقه**» أخرجه ابن ماجه[٨].

وتأخيرُ إعطاء الأجير حقه مخالف لأمر رسول الله صلى الله عليه وسلم وظلم وبغي حتى ولو كان العامل الأجير كافراً؛ لأن كفره ليس مسوغاً لظلمه وأكل حقه. لذا عده بعض العلماء من كبائر الذنوب[٩] التي لايقوى الاستغفار على رفعها، وإنما تحتاج إلى توبة تامة الشروط وأهم شرط فيها أداء حقوق أجرائه الذين ظلمهم، والاستباحةُ وطلبُ

---

(٧) فتح الباري (٤/ ٤٨٨).

(٨) أخرجه ابن ماجة في الرهون باب أجر الأجراء (٢٤٤٣) من حديث ابن عمر رضي الله عنهما، وضعفه البوصيري ثم حسنه (٢/ ٢٥٩) والطبراني في الصغير (٣٤) وأبويعلى من حديث أبي هريرة رضي الله عنه (٦٦٥٢) والحكيم الترمذي من حديث أنس كما في الجامع الصغير للسيوطي وضعفه، انظر: فيض القدير للمناوي (١/ ٥٦٢) وضعفه الهيثمي في المجمع (٤/ ٩٨) قال الزيلعي: وكل طرقه ضعيفة، انظر: نصب الراية (٤/ ١٢٩) وحسنه الألباني في صحيح الجامع (١٠٥٥) والإرواء (١٤٩٨) وانظر الحديث في السنن الكبرى للبيهقي (٦/ ١٢٠) والحلية لأبي نعيم (٧/ ١٤٢) ومشكل الآثار للطحاوي (٤/ ١٤٢) وتاريخ بغداد (٥/ ٣٣) وتهذيب تاريخ دمشق (١/ ٤٠٦) والكامل لابن عدي (٤/ ١٣٥٢) وتلخيص الحبير لابن حجر (٣/ ٥٩) والمطالب العاليه له أيضاً (١٤٢١) والمقصد الأعلى للهيثمي (٦٩٣).

(٩) ممن عدّه في الكبائر ابن حجر الهيتمي في الزواجر عن اقتراف الكبائر باب الإجارة (١/ ٥٠٦) وابن النحاس في تنبيه الغافلين (١٣٢).

العفو منهم، مع الإقلاع عن الظلم فوراً، والندم عليه، والعزم على عدم تأخير أداء الحقوق إلى أهلها.

أعوذ بالله من الشيطان الرجيم ﴿قَالَتْ إِحْدَاهُمَا يَا أَبَتِ اسْتَأْجِرْهُ إِنَّ خَيْرَ مَنِ اسْتَأْجَرْتَ الْقَوِيُّ الْأَمِينُ (٢٦) قَالَ إِنِّي أُرِيدُ أَنْ أُنكِحَكَ إِحْدَى ابْنَتَيَّ هَاتَيْنِ عَلَىٰ أَن تَأْجُرَنِي ثَمَانِيَ حِجَجٍ فَإِنْ أَتْمَمْتَ عَشْرًا فَمِنْ عِندِكَ وَمَا أُرِيدُ أَنْ أَشُقَّ عَلَيْكَ سَتَجِدُنِي إِن شَاءَ اللَّهُ مِنَ الصَّالِحِينَ (٢٧) قَالَ ذَٰلِكَ بَيْنِي وَبَيْنَكَ أَيَّمَا الْأَجَلَيْنِ قَضَيْتُ فَلَا عُدْوَانَ عَلَيَّ وَاللَّهُ عَلَىٰ مَا نَقُولُ وَكِيلٌ (٢٨)﴾ [القصص] بارك الله لي ولكم في القرآن العظيم...

الخطبة الثانية

الحمد لله حمداً طيباً كثيراً مباركاً فيه كما يحب ربنا ويرضى، أحمده وأشكره وأتوب إليه وأستغفره، وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له، وأشهد أن محمداً عبده ورسوله، صلى الله وسلم وبارك عليه وعلى آله وصحبه ومن سار على نهجهم واقتفى أثرهم إلى يوم الدين.

أيها الإخوة المؤمنون: يجب على من كان عنده أجراء كفار دعوتهم إلى الإسلام، والاجتهادُ في ذلك.

فالدعوةُ إلى الإسلام، وهدايةُ العباد من أعظم القرب عند الله تعالى، فإن امتنع الأجير الكافرعن الإسلام وجب على صاحب العمل عدمُ تجديد عقده، وتسفيرُه بعد أداء حقه؛ لما في بقائه على الكفر مع تشغيله في بلاد المسلمين من المفاسد العظيمة يكفي منها: إقراره على

الكفر، بل مكافأته عليه، وربما كان سبباً في ردة بعض المسلمين من العاملين معه، مع مافيه من دعم لاقتصاد الكفار على المسلمين. وطولُ معاشرة الكافر في العمل أو المؤسسة أو الشركة تهوّن أمر الكفر في نفس المسلم، ولما في تشغيل الكافر في بلاد المسلمين من تشجيعٍ له على البقاء على كفره؛ لأنه إذا علم أن بقاءه على الكفر لن يؤثر على عمله فسيبقى عليه بخلاف ما إذا علم أنه سيتأثر فلربما أسلم من أجل العمل أولاً ثم يحسن إسلامه بعد ذلك حينما يجد حلاوة الإيمان.

ويجب على صاحب العمل أن يُعلِّم أجيره الضروريَ من دينه كقراءة الفاتحة والوضوء والصلاة وغير ذلك مما يحتاجه من ضروريات دينه. وكم من أجراء مسلمين عملوا عند مسلمين، جاؤوا من بلادهم لايفقهون شيئاً من دينهم، ومكثوا سنوات عدة ثم رجعوا كما هم. وهذا تقصير من مشغلِّيهم.

وعِرْضُ الأجير محفوظ لايجوز لصاحب العمل أن يحتقره أو يزدريه أو يغتابه أو يشتمه؛ لعموم قول النبي صلى الله عليه وسلم: «**كل المسلم على المسلم حرام دمه وماله وعرضه، بحسب امرئ من الشر أن يحقر أخاه المسلم**»(١٠). وبعض الناس يتساهل في هذه القضية فتجده يخاطب خادمه أو أجيره بالعبارة التي يحقره بها في لونه أو جنسه أو جسمه أو لسانه.

---

(١٠) أخرجه البخاري في النكاح باب لا يخطب على خطبة أخيه حتى ينكح أو يدع (٥١٤٣) ومسلم في البر والصلة باب تحريم ظلم المسلم وخذله واحتقاره ودمه وعرضه وماله (٢٥٦٤) واللفظ له.

وإذا أخطأ الأجير حاسبه صاحب العمل على قدر خطئـه وفـق المشروع من المحاسبة، ولا يتعدى عليه أو يظلمه أو يبخسه حقه بسبب خطئه. وقد ذكر الفقهاء ذلك، وذكروا أحكام العقود وشروطها ومايعمل عند اختلال شيء منها، فلا يعذر أصحاب العمل بجهلهم أو تجاهلهم؛ لأن العلماء موجودون، وسؤالهم عما يحدث ممكن، وسبل العلم ميسرة؛ لكن نحتاج إلى شيء من الاهتمام والجديّة.

فاتقوا الله ربكم، اتقوه في حقوق العباد، فالمعصية بينك وبين الله تعالى يغفرها الله لك بتوبة أو رحمة منه تعالى؛ لكن حقوق العباد لا بد من أدائها حتى تقبل التوبة. وحقوق الله تعالى تبنى على المسامحة أما حقوق العباد فتبنى على المشاحَّة، وإذا دعتك نفسك إلى ظلم الضعيف - حينما نظرت إلى ضعفه وعجزه وقلة حيلته - فتذكر أن الله سبحانه أقوى منك، وأنه ينتقم من الظالمين، وأن دعوة المظلوم ترتفع إلى عنان السماء ليس بينها وبين الله حجاب. ثم صلوا وسلموا على محمد بن عبدالله كما أمركم بذلك ربكم.

* * *

٤٩- الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر

الجمعة ٢/ ٨/ ١٤١٧هـ

الحمد لله، نحمده ونستعينه ونستغفره، ونعوذ بالله من شرور أنفسنا ومن سيئات أعمالنا، من يهده الله فلا مضل له ومن يضلل فلا هادي له، وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له، وأشهد أن محمداً عبده ورسوله ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ حَقَّ تُقَاتِهِ وَلَا تَمُوتُنَّ إِلَّا وَأَنتُم مُّسْلِمُونَ (١٠٢)﴾ [آل عمران] ﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ اتَّقُوا رَبَّكُمُ الَّذِي خَلَقَكُم مِّن نَّفْسٍ وَاحِدَةٍ وَخَلَقَ مِنْهَا زَوْجَهَا وَبَثَّ مِنْهُمَا رِجَالًا كَثِيرًا وَنِسَاءً وَاتَّقُوا اللَّهَ الَّذِي تَسَاءَلُونَ بِهِ وَالْأَرْحَامَ إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلَيْكُمْ رَقِيبًا (١)﴾ [النساء] ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَقُولُوا قَوْلًا سَدِيدًا (٧٠) يُصْلِحْ لَكُمْ أَعْمَالَكُمْ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ وَمَن يُطِعِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ فَقَدْ فَازَ فَوْزًا عَظِيمًا (٧١)﴾ [الأحزاب].

أما بعد: فإن أصدق الحديث كلام الله تعالى، وخير الهدي هدي محمد صلى الله عليه وسلم، وشر الأمور محدثاتها، وكل محدثة بدعة، وكل بدعة ضلالة، وكل ضلالة في النار.

أيها الإخوة المؤمنون: جعل الله الدنيا دار بلاء يبتلي فيها عباده، أبان لهم فيها الطريق إليه، وحذرهم من سبيل الشياطين، وخلق الجنة لمن أطاعه، والنار لمن عصاه. ولأن الناسَ كلَهم يريدون الجنة ولا يريدون النار جعل الطريق إلى الجنة فيها من البلاء والمكاره ما لا يجاوزها إلا مؤمن. وملأ طريق النار بالشهوات حتى يتمحص الصادق الذي

يخافها فيصبر عن الشهوات، قال عليه الصلاة والسلام: «**حجبت النار بالشهوات وحجبت الجنة بالمكاره**» أخرجه الشيخان من حديث أبي هريرة رضي الله عنه[١]. ولن يترك الشيطانُ بني آدم على الهداية؛ بل يسعى جهده في إغوائهم. ومن بني آدم من تضعفُ إرادته، وتهنُ عزيمته، وتُلهِبُه شهوتُه فيسير في طريق الشيطان، مما يوجب على أفراد الأمة رده إلى الطريق الصحيحة.

من هذا الباب كانت مشروعية الأمر بالمعروفِ والنهي عن المنكر، وصار فرضاً على الكفاية، ويتعين في بعض الحالات. ومن العلماء من يرى أن فروض الكفاية أعلى من فروض الأعيان؛ لأن فيها القيامَ عن الأمة في أداء هذا الفرض، وإسقاطَ الإثم عن أفرادها.

يقول إمام الحرمين أبو المعالي الجويني: «والذي أراه أن القيامَ بفرض الكفاية أفضل من فرض العين؛ لأنه لو ترك المتعين اختص هو بالإثم، ولو فعله اختص بسقوط الفرض. وفرض الكفاية لو تُرِكَ أثم الجميع، ولو فَعَله سقط الحرج عن الجميع، ففاعلُه ساعٍ في صيانة الأمة عن الإثم ولا يُشك في رجحان من حل محل المسلمين أجمعين في القيام بمهم من مهمات الدين»، اهـ[٢].

---

(١) أخرجه البخاري في كتاب الرقاق باب حجبت النار بالشهوات (٦٤٨٧) ومسلم في الجنة وصفة نعيمها وأهلها باب صفة الجنة (٢٨٢٣).

(٢) تنبيه الغافلين عن أعمال الجاهلين وتحذير السالكين من أعمال الهالكين لابن النحاس (٢١).

فشأن الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر عظيم، وهو من صفات المؤمنين، كما أن عكسه من صفات المنافقين ﴿الْمُنَافِقُونَ وَالْمُنَافِقَاتُ بَعْضُهُم مِّنْ بَعْضٍ يَأْمُرُونَ بِالْمُنكَرِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمَعْرُوفِ﴾ [التوبة: ٦٧] وفي آية أخرى ﴿وَالْمُؤْمِنُونَ وَالْمُؤْمِنَاتُ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَاءُ بَعْضٍ يَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنكَرِ وَيُقِيمُونَ الصَّلَاةَ وَيُؤْتُونَ الزَّكَاةَ وَيُطِيعُونَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ أُوْلَئِكَ سَيَرْحَمُهُمُ اللَّهُ﴾ [التوبة: ٧١]، قال القرطبي: «فجعل الله تعالى الأمر بالمعروف والنهيَ عن المنكر فرقاً بين المؤمنين والمنافقين فدل على أن أخص أوصافِ المؤمنين الأمر بالمعروف والنهيُ عن المنكر» اهـ[٣].

وأخبر تعالى أن الخيرية في هذه الأمة إنما كانت بالأمر بالمعروف والنهي عن المنكر مع الإيمان بالله تعالى ﴿كُنتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ تَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَتَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنكَرِ وَتُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ﴾ [آل عمران: ١١٠].

أيها الإخوة: إن المعصية إذا ظهرت في الناس كان أثرها عظيماً في إفساد القلوب، ومحق البركات، وحلول العقوبات. ولا ينجو من ذلك كلِه إلا الآمرون بالمعروف، الناهون عن المنكر. حتى إن الآمر بالمعروف والناهي عن المنكر ينجو من الفتنة حينما يقع الناس فيها؛ لما في قلبه من الصلاح وإنكار المنكر، فيتأبى قلبه على الفتنة أن تداخله فتفسده. وبالضد يكون من أهملَ الأمر بالمعروف والنهيَ عن المنكر، تموجُ به الفتن، وتتقاذفه الأهواء؛ لما في قلبه من الفساد.

وما أفسد قلبَه إلا أنه لم ينكر المعصية حتى ألفها فتمكنت منه الفتنة؛

(٣) الجامع لأحكام القرآن (٤/ ٤٧).

ذلك أن المعاصي سبيلُ الفتن؛ بل هي من الفتن نفسها.

خرّج الإمام مسلم في صحيحه من حديث حذيفة بن اليمان رضي الله عنهما قال: «كنا عند عمر فقال: أيكم سمع رسول الله صلى الله عليه وسلم يذكر الفتن؟ فقال قوم: نحن سمعناه، فقال: لعلكم تعنون فتنة الرجل في أهله وجاره؟ قالوا: أجل، قال: تلك يكفرها الصلاة والصيام والصدقة. ولكن أيكم سمع النبي صلى الله عليه وسلم يذكر التي تموج موج البحر؟ قال حذيفة: فأسكت القومُ، فقلت: أنا، قال: أنت لله أبوك، قال حذيفة: سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول: «**تُعرض الفتنُ على القلوب كالحصير عوداً عوداً، فأيُّ قلب أُشربها نكت فيه نكتةٌ سوداء؟ وأي قلب أنكرها نكت فيه نكتة بيضاء، حتى تصير على قلبين: أبيض مثل الصّفا، فلا تضرُه فتنة مادامت السموات والأرض، والآخر: أسود مربّاداً، كالكوز مجخياً، لا يعرف معروفاً ولا ينكر منكراً، إلا ما أشرب من هواه**»... الحديث(٤)، فذكر في وصف صاحب القلب الأسود المربادِ أنه لايعرف معروفاً ولا ينكر منكراً.

والإنكار بالقلب واجب على المؤمن بكل حال؛ لكن ما الحيلة إذا كان القلب يهوى المعصية، ويحب أن تشيع بين الناس؟ وذلك هو القلب الذي سُلِب الإيمان، قال شيخ الإسلام ابن تيمية رحمه الله تعالى: «والاهتداءُ إنما يتم بأداء الواجب، فإذا قام المسلم بما يجب عليه

---

(٤) أخرجه مسلم في الإيمان باب بيان أن الإسلام بدأ غريباً وسيعود غريباً (١١٤).

من الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر كما قام بغيره من الواجبات لم يضره ضلالُ الضال، وذلك يكون تارة بالقلب، وتارة باللسان، وتارة باليد. فأما القلب فيجب بكل حال؛ إذ لا ضرر في فعله، ومن لم يفعله فليس هو بمؤمن كما قال النبي صلى الله عليه وسلم: «**وذلك أضعف أو أدنى الإيمان**»(٥) وقال: «**وليس وراء ذلك من الإيمان حبةُ خردل**»(٦).

هذا أثرُ تركِ الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، ودورُه في إفساد قلب المرء، فكيف إذا كان المرء يأمر بالمنكر وينهي عن المعروف؛ بل ينكر على الآمرين بالمعروف والناهين عن المنكر؟ كيف سيكون قلبُه؟

إن المصيبة - أيها الإخوة - أن المعصية تعمل بين الناس وتشتهر فإذا أنكرها مؤمن منهم زلقوه بأبصارهم، وسلقوه بألسنتهم، واتهموه بالتطفل والتدخل فيما لا يعنيه. سبحان الله، هل أصبح إنكارُ المنكر لا يعني المؤمن وهو ركن من أركان دينه؟ فهل فسدت قلوب الناس بمواقعتها للمعاصي؟ وصار بين المعاصي وبين القلوب ألفة ومودة، حتى

---

(٥) ماذكره شيخ الإسلام جزء من حديث أبي سعيد الخدري «**من رأى منكم منكراً...**» وقد أخرجه مسلم في الإيمان باب كون النهي عن المنكر من الإيمان (٤٩) والترمذي في الفتن باب ماجاء في تغيير المنكر باليد (٢١٧٣) والنسائي في الإيمان باب تفاضل أهل الإيمان (٨/ ١١١) وأبوداود في صلاة العيدين باب الخطبة يوم العيد (٤٣٤٠) وابن ماجه في الفتن باب الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر (٤٠١٣).

(٦) وهذا أيضاً جزء من حديث ابن مسعود الذي أخرجه مسلم في كتاب الإيمان باب كون النهي عن المنكر من الإيمان (٥٠) ومطلعه «**ما من نبي بعثه الله في أمة قبلي...**» وكلام شيخ الإسلام هذا انظره في: الاستقامة (٢/ ٢١٢).

يُنكرَ على من أنكرها؟ فنعوذ بالله من تلك الحال!!

سئل ابن مسعود رضي الله عنه: من ميتُ الأحياء؟ قال: «الذي لا يعرف معروفاً ولا ينكر منكراً»(٧)، وإنما وصفه بالميت لأن قلبه مات، فانظروا رحمكم الله كيف يفعل تركُ الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر بالقلوب.

ويكفي الآمر بالمعروف والناهي عن المنكر شرفاً أنه حينما ينكر معصية فكأنه لم يحضرها، فلقد أخرج أبوداود بسند حسن عن عُرس بن عميرة الكندي رضي الله عنه أن النبي صلى الله عليه وسلم قال: «**إذا عُمِلت الخطيئة في الأرض كان من شهدها وكرهها**» - وفي رواية - «**فأنكرها كمن غاب عنها، ومن غاب عنها فرضيها كان كمن شهدها**»(٨).

فاتقوا الله ربكم، ومروا بالمعروف، وانهوا عن المنكر، ولا تغتروا بكثرة الهالكين والمواقعين للمعاصي، والمجاهرين بها، فكلٌ سيلقى ما عمل. نسأل الله تعالى أن يحفظنا من المنكرات، وأن لا يعذبنا بسبب ذنوبنا إنه سميع مجيب، وأقول هذا القول وأستغفر الله لي ولكم.

الخطبة الثانية

الحمد لله حمداً طيباً مباركاً فيه كما يحب ربنا ويرضى، أحمده وأشكره، وأتوب إليه وأستغفره، وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك

---

(٧) الاستقامة لشيخ الإسلام ابن تيمية (٢/ ١٩٧).

(٨) أخرجه أبوداود في الملاحم باب الأمر والنهي (٤٣٤٥) وحسنه الألباني في مشكاة المصابيح (٣/ ٥١٤١).

له، وأشهد أن محمداً عبده ورسوله صلى الله وسلم وبارك عليه وعلى آله وأصحابه ومن سار على نهجهم واقتفى أثرهم إلى يوم الدين.

أما بعد: فاتقوا الله تعالى وأطيعوه؛ فتقوى الله تعالى سبب للأمن والسعادة ﴿**فَمَنِ اتَّقَىٰ وَأَصْلَحَ فَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ** (٣٥)﴾ [الأعراف].

أيها الإخوة المؤمنون: كما أن الرضى بالمعصية يفسد القلب حتى ولو لم يكن العبدُ مواقعاً لتلك المعصية؛ فإن للرضى بالمعاصي، والمجاهرة بها، وظهور المنكرات أثراً مدمراً على مستوى الجماعة والأمة.

فأمةٌ لاتأمر بالمعروف ولا تنهى عن المنكر لا تستحق الأمن والرزق، وتكون حرية بالعذاب والهلاك. إذا كان كل فرد من أفرادها يرى صاحبَ المنكر فلا يقول له: يا هذا، اتق الله ولا تعصه وأنت في أرضه. وإنما يقول: هذا لا يعنيني، وضررُه على نفسه. وما علم أن الضرر يشمل الجميع.

روى قيس ابن أبي حازم رضي الله عنه قال: قال أبو بكر بعد أن حمد الله وأثنى عليه: «يا أيها الناس إنكم تقرؤون هذه الآية تضعونها على غير موضعها ﴿**يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا عَلَيْكُمْ أَنفُسَكُمْ لَا يَضُرُّكُم مَّن ضَلَّ إِذَا اهْتَدَيْتُم**﴾ [المائدة: ١٠٥] وإنما سمعنا رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول: «**إن الناس إذا رأوا الظالم فلم يأخذوا على يديه، أوشك أن يعمهم الله بعقاب**»، وإني سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول: «**ما من قوم يُعمل فيهم بالمعاصي ثم يقدرون على أن يغيّروا ولا يغيرون**

إلا يوشكُ أن يعمَهم الله بعقاب» أخرجه أبوداود والترمذي[٩].

وهذا العقاب يكون للناس كلهم، بعلمائهم ووعاظهم وصلحائهم وفجارهم ولا ينجو منه إلا الآمرون بالمعروف والناهون عن المنكر ﴿**فَلَمَّا نَسُوا مَا ذُكِّرُوا بِهِ أَنْجَيْنَا الَّذِينَ يَنْهَوْنَ عَنِ السُّوءِ وَأَخَذْنَا الَّذِينَ ظَلَمُوا بِعَذَابٍ بَئِيسٍ بِمَا كَانُوا يَفْسُقُونَ** ﴿١٦٥﴾﴾ [الأعراف] قال ابن النحاس: «فبين سبحانه أن النَّاجي هو الناهي عن السوء دون الواقع فيه والمداهن»[١٠].

أيها الإخوة: ويخطئ الكثيرون حينما يظنون أن الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر هو مهمة العلماء والصلحاء ورجال الحسبة، وأنه لا يجب على غيرهم.

وهذا ظن خاطئ؛ لأن هذا الركن من الدين سبب لحفظ الأمن وحصول الرزق، وحفظ الأمن مسؤولية الجميع. قال الرافعي والنووي وغيرهما: «لا يختص الأمر والنهي بأصحاب الولايات والمراتب؛ بل ذلك ثابت لآحاد الناس من المسلمين، وواجب عليهم»اهـ[١١].

ويرى البعض أنه لا يأمر بمعروف، ولا ينهى عن منكر إلا من كان مستقيماً كامل الاستقامة. وهذه رؤية غير صحيحة؛ بل حتى العصاة

---

(٩) أخرجه أبوداود في الملاحم باب الأمر والنهي (٤٣٣٨) والترمذي في تفسير سورة المائدة (٣٠٥٩) وابن ماجه في الفتن باب الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر (٤٠٠٥) وجوّد إسناده الحافظ ابن حجر في تهذيب التهذيب (١/ ٢٦٧)

(١٠) تنبيه الغافلين عن أعمال الجاهلين (١٢).

(١١) المصدر السابق (٢٤).

يجب عليهم الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر ولو كانوا يرتكبون الكبائر من الذنوب. وقد نقل ابن عطية عن أهل العلم: «أنه ليس من شروط الناهي أن يكون سليماً عن معصية بل ينهى العصاة بعضهم بعضاً»(١١). وقال الأصوليون: «فرض على الذين يتعاطون الكؤوس - أي كؤوس الخمر - أن ينهى بعضهم بعضاً، لأن قوله تعالى ﴿**كَانُوا لا يَتَنَاهَوْنَ عَن مُّنكَرٍ فَعَلُوهُ**﴾ [المائدة: ٧٩] يقتضي اشتراكهم في الفعل وذمهم على ترك التناهي»(١١). وإذا كان المرء مرتكباً لمعصية ولم ينه عنها كان واقعاً في إثمين: العصيان، وعدم الإنكار.

فاتقوا الله ربكم، وخذوا على أيدي السفهاء منكم، ومروا بالمعروف وتناهوا عن المنكر، وليكن الرفق في ذلك صفتكم؛ لأن صاحب المعصية مريض يحتاج إلى علاج، فيعالج برفق؛ ولذلك قال العلماء: «ليكن أمرك بالمعروف بمعروف، و نهيك عن المنكر غير منكر»(١٢) إلا المجاهرين بالمعاصي، المصرين عليها، الذين يحبون أن تشيع الفاحشة في الذين آمنوا. فهؤلاء لا رفق معهم؛ لأنهم يريدون هلاك الناس وفسادهم. نسأل الله تعالى أن يفضحهم ويخزيهم، ويكفي البلاد والعباد شرهم، إنه سميع مجيب، وصلوا وسلموا على نبيكم محمد كما أمركم بذلك ربكم.

---

(١١) المصدر السابق (٢٤).

(١٢) الاستقامة لابن تيمية (٢/ ٢٠٠) وانظر مكارم الأخلاق المجموع من كتب شيخ الإسلام لعبدالله بدران ومحمد الحاجي (٥٧).

الكشـاف

المقدمـة ٥
* كيف تختار موضوع الخطبة ١٩
* كيف تعد خطبة الجمعة ٣٣
* الصوت في الخطبة ٤٦
* الإشارة في الخطبة ٥٧

العقيـدة

١- بداية الخلق والتكليف ٧٣
٢- تقدير الرزق والأجل ٨٧
٣- حكمة الله تعالى في خلقه وأمره ١٠٠
٤- عبادة التفكر ١٠٨
٥- الشمس آية من آيات الله تعالى ١١٧
٦- من دلائل الربوبية إنزال المطر ١٣٢
٧- قدرة الله تعالى ١٣٩
٨- رحمة الله تعالى ١٤٨
٩- فضل لا إله إلا الله ١٦٠
١٠- الرضى بالله تعالى رباً ١٧٠
١١- تعظيم النصوص الشرعية ١٨٠
١٢- التوكل على الله تعالى ١٨٩
١٣- الإيمان بالغيب ٢٠١

١٤- خطورة الشرك ٢١١
١٥- خطر السحر ٢٢١
١٦- الصابئة والمنجمون ٢٣١
١٧- التشاؤم بصفر ٢٤٢
١٨- حكم سب الدهر ٢٥٢
١٩- ظن السوء (١) ٢٦٠
٢٠- ظن السوء (٢) ٢٦٩
٢١- التشبه بالكفار في أعيادهم ٢٧٧
٢٢- عيد الألفية الثالثة ٢٨٨
٢٣- من صفات المنافقين (١) ٢٩٦
٢٤- من صفات المنافقين (٢) ٣٠٥
٢٥- التحذير من بدع رجب (١) ٣١٤
٢٦- التحذير من بدع رجب (٢) ٣٢٣
٢٧- الاحتفال بالمولد النبوي ٣٣٣
٢٨- التحذير من الفتن ٣٤٩

هدي الكتاب والسنة

٢٩- تأملات في آية الكرسي ٣٦٥
٣٠- سورة ق ٣٧٥
٣١- قوله تعالى ﴿علم الإنسان ما لم يعلم﴾ ٣٨٥
٣٢- سورة القدر ٣٩٥

٣٣- سورة الزلزلة ٤٠٥
٣٤- سورة الكوثر ٤١٦
٣٥- حديث الولي ٤٢٧
٣٦- حديث القوة ٤٣٩
٣٧- حديث العلم ٤٥٠
٣٨- حديث الفتن ٤٥٩

العبــادات

٣٩- فضل الوضوء ٤٧١
٤٠- سنة السواك ٤٨٤
٤١- النداء للصلاة (١) ٤٩٥
٤٢- النداء للصلاة (٢) ٥٠٦
٤٣- الحث على الاستسقاء ٥١٦
٤٤- الكسوف والخسوف ٥٢٨
٤٥- سنة الاستخارة ٥٣٨
٤٦- الجهاد في سبيل الله تعالى (١) ٥٤٧
٤٧- الجهاد في سبيل الله تعالى (٢) ٥٥٩
٤٨- حقوق الأجراء ٥٦٩
٤٩- الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر ٥٨٠